

١٨٩٦
١٠/٦/٥٠
٢٠

طرق التجارة الدولية ومحطاتها
بين الشرق والغرب
(أواخر العصور الوسطى)

المقدمة

تعتبر الدراسات التاريخية الاقتصادية من أكثر الموضوعات صعوبة وتعقيدا ، لذا يعزف كثير من الدارسين والباحثين عن طرق هذا النوع من الدراسات التي تحتاج الى دراية واسعة باللغات الأوربية الحديثة والوسيلة ، والى صبر ودأب على استقراء الوثائق والنصوص والمعاهدات ، بالإضافة الى أن معظمها ليس فى متناول أيدينا ، رغم أنها الأساس لهذا النوع من الدراسات ، ثم ان المراجع التي تبحث فى هذا النوع من الدراسة شحيحة، وبعضها قاصر عن ايفاء الموضوعات الاقتصادية حقها المطلوب .

وتكاد تخلو مكتبتنا العربية من هذا النوع من الدراسة فى العصور الوسطى التي يعتبرها الاقتصاديون حجر الأساس فى تطوير النظم الاقتصادية فى العصور الحديثة . لذا هدفت الدراسات والبحوث الحديثة الى التوسع فى هذه الموضوعات . وقد استهوتنى الدراسة الاقتصادية منذ فترة غير قصيرة فكعقت على تتبع تطورها ونظمها ، ووجدت أن أكثرها أهمية هى الفترة الأخيرة من القرن الخامس عشر الذى يعتبر من أكثر فترات العصور الوسطى أهمية بالنسبة للأحداث الجسام التي حدثت فيه وأدت الى تغييرات جوهرية فى العالم .

ولعل أهم هذه الأحداث وأولها هو سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ فى أيدي القوات العثمانية ، واندفاع هذه القوات غربا الى شرق ووسط أوروبا ، ثم مد حدودها بعد ذلك الى البحر الأسود وإيران شرقا . وقد عمدت فى تحركاتها العسكرية الى سد الطرق التجارية

وانى اذ أقدم هذا المؤلف للمكتبة العربية ، أرجو أن آكون قد أضفت اليها لونا جديدا من الدراسات التاريخية الاقتصادية ، كما أرجو أن آكون قد فتحت بابا للدارسين فى التاريخ الاقتصادى للمزيد من الجهد الواعى النافع .

والله ولى التوفيق .

القاهرة ١٩٧٠

الدكتور نعيم زكى فهمى

لدواعى الأمن ، مما أثر فعلا فى التجارة وطرقها ومراكزها بين آسيا وأوروبا . ومع أن التجارة تحولت تماما بعد هذا الحدث الى موانئ مصر والشام والبحر الأحمر ، الا أن الغرب الأوروبى كان قد مل التعامل مع الممالك بسبب كثرة الضرائب وارتفاع رسوم الجمارك ، وقوة الاختكارات ، مما دفع الأوربيين الى البحث عن طريق آخر أكثر أمنا ، ووقع هذا العبء على عاتق البرتغال ، فاندفع بحارتها ، يحدوهم التحمس الدينى ، يدورون حول افريقية ويندفعون الى الهند حيث تمكنوا خلال عدة معارك حربية من القضاء على نفوذ الممالك والسيطرة على تجارة الشرق . وكان هذا ثانى الأحداث الهامة فى هذه الفترة من العصور الوسطى .

أما ثالث هذه الأحداث وأخطرها فهو الذى ختم العصور الوسطى وتم على عهد السلطان سليم الأول العثمانى الذى قضى على دولة الممالك الجراكسة بالشام ومصر ، وأنهى دور هذه البلاد الرائع فى مجال الحضارة والحرب والتجارة .

وقد اتجهت فى هذا الموضوع اتجاها اقتصاديا صرفا ، فأحطت بشتى نواحيه شارحا العلاقات الخارجية بين دول شرق البحر المتوسط وغربه ، داعيا هذه العلاقات بالعديد من الوثائق والمعاهدات المنشورة والمخطوطة التى استفدت منها فى استخلاص حقائق ونظم اقتصادية لم يصل اليها جهد الباحثين من قبل ، وكان لابد - والحال كذلك - من البحث فى الطرق والمراكز وأهميتها وما بقى منها وما اندثر حتى وصول البرتغاليين للهند ، والعثمانيين للشرق العربى ، والذى أدى الى انهيار اقتصاديات المنطقة بعد قرون عديدة زاهرة .

وقد ألحقت بالكتاب عدیدا من الوثائق المخطوطة والمطبوعة ، وملحقا خاصا بالخرائط التوضيحية للطرق والمراكز ، وثبتا واقيا بالمراجع العربية والافرنجية التى رجعت اليها .

الفصل الأول

نظرة سياسية عامة في أحوال دول البحر المتوسط
من سقوط القسطنطينية ١٤٥٣، إلى
دخول العثمانيين مصر ١٥١٧

أهم أحداث أواخر العصور الوسطى

يجتمع المؤرخون على أن استيلاء العثمانيين على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، هو أول حادثة فى سلسلة الحوادث العظمى التى غيرت أحوال البلاد الواقعة حول البحر المتوسط ، ثم أحوال العالم كله أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

أما الحادث الثانى فهو وصول البرتغاليين بحرا من الهند بعد أن داروا حول افريقية عام ١٤٩٨ ، ونتج عن هذا الحادث الثانى نتائج سياسية واقتصادية كبيرة فى شرق البحر المتوسط ، وخاصة فى دولة سلاطين الممالك . وإذا قيل ان سقوط القسطنطينية فى أيدي العثمانيين مهد فعلا للحروب المماليكية العثمانية أوائل القرن السادس عشر فإن وصول البرتغاليين بحرا الى الهند هدد كيان دولة سلاطين الممالك بالذات ، إذ أخذت تجارة الشرق الأقصى وأرباحها الهائلة تتحول عن مصر والشام وموانئهما الى أوروبا بالطريق البحرى الجديد، وبكميات متزايدة وأسعار معتدلة . على أنه ينبغى أن يضاف الى هذين الحادثين الكبيرين حوادث أخرى داخلية ساعدت على تهديد كيان دولة سلاطين الممالك منذ عام ١٤٥٣ ، إذ دبت الشيخوخة فى أوصالها واعترى الفساد نظمها ، فعجزت عن الاحتفاظ بكيانها بسبب اشتداد الخلاف بين السلطان وطوائف الممالك ، فكثيرا ما تمرد الممالك كلها دعوا للحرب لعجز السلطان عن توفير المال اللازم لتوزيع ما هو معروف بالنفقة قبل الخروج الى القتال (١) .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٢ ص ٣٩ (طبعة بولاق) .

ولا أقل من أن تلقى نظرة عامة سريعة على دولة الماليك وجيرانها في القرن الخامس عشر لندرك الظروف التي عاشت فيها هذه الدولة من ناحية والتي أثرت في مصائر حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى . فقد شملت دولة سلاطين الماليك عام ١٤٥٣ البلاد الواقعة من الشلال الأول جنوباً ، وأعلى الفرات شمالاً بما في ذلك بلاد الشام وأجزاء من آسيا الصغرى حتى طرسوس وملطية ، كما خضعت لها جزيرة قبرص . وامتدت الأطراف المالكية الجنوبية من عيذاب على البحر الأحمر إلى بلدة القصير على مسافة خمسة أميال جنوبى أسوان ، ومنها امتدت عبر الصحراء مشتملة على بلاد الواح (الواحات) حتى برقة . وعلى الأطراف الشمالية الشرقية امتدت الإمارات التركمانية عام ١٤٥٣ ومنها إمارة دلفادر وإمارة رمضان ومناطق تركمانية أخرى ذات إمارات مماثلة ، وانتشرت بالمنطقة حتى ديار بكر ، ودانت كلها للسلاطين الماليك بالتبعية والجزية والرأى في تعيين أمراءها .

وتبدو أهمية هذه الإمارات في موقعها الجغرافى بين الدولتين المالكية والعثمانية ، فضلاً عن مرور الطرق التجارية بها من وسط آسيا إلى آسيا الصغرى وشرق البحر المتوسط ، لذا كانت على علاقات سياسية واقتصادية بدولة سلاطين الماليك (٢) .

وأسس إمارة دلفادر (زين الدين قراجا) في منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وكان الأمير عليها عام ١٤٥٣ (سليمان بك قراجا) الذى تزوج السلطان محمد الثانى العثمانى أخته . (٣) والى

(٢) الخالسى : المقصد الرقيق المنشأ : ص ٨٢ ، أ ، ب (مخطوطة) .

الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٥٢ ، ٥٤ .

المقريزى : الخطط ج ١ ص ١١٣ .

— Ency. D'Islam, T. II Article, «Karaman Oghlu».
— Ziada, Foreign Relations, pp. 83-85 and pp. 101-103.
— Lane-peole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 309.
— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art., «Do'l Kader» pp. 985-987.
— Hammer, Histoire De L'Empire Ottomane, T. II pp. 425, 426, & p. 435.
— Ziada, Op. Cit., pp. 252, 253.

الغرب من إمارة دلفادر امتدت إمارة « قرمان أوغلو » وتنسب إلى زعيمها « قرمان » الذى حصل قديماً من السلاجقة على حق النزول بالمناطق الجبلية حول قونية . وشملت أملاك هذه الإمارة ساحل قيليقية وأنطاكية ، وكانت عاصمتها « لارندة أو قرمان الجديدة » . واحتسب بنو قرمان بسلاطين الماليك خوفاً من العثمانيين ، وكان « ابراهيم » حفيد علاء الدين قرمان هو الأمير عام ١٤٥٣ (٤) .

وعلى الأطراف الغربية لإمارة قرمان كانت الدولة العثمانية التى أخذت تعمل على إخضاع ما تبقى خارجاً عن طاعتها من إمارات آسيا الصغرى ، فاكتملت إمارة قرمان عام ١٤٦٣ . ومن الإمارات الخارجة وقتذاك عن الدائرة العثمانية « إمارة اسفنديار » التى امتدت من حدود قرمان أوغلو الشمالية حتى شواطئ البحر الأسود وعرفت باسم « قسطنطينى » أو « قزىل أحمدلى » ، وتنسب لمؤسسها « ميرز الدين اسفنديار » والأمير عليها عام ١٤٥٣ « ابراهيم بن اسماعيل » ، ثم انتزع الإمارة منه أخوه قزىل أحمدلى بمعاونة السلطان محمد الثانى العثمانى (٥) .

والى الشرق من اسفنديار امتدت إمبراطورية « طرابيزون » البيزنطية على الساحل الجنوبى للبحر الأسود حتى أملاك التركمان شرقاً . وكان الإمبراطور هناك « حنا الرابع كومنين » ، وقد اكتسح

= ابن ايباس : المرجع السابق ص ٨١ - ٩٦ - ١٠٩ - ١٣٩ - ٢١٩ - ٢٢٢ - ٢٤٦ - ٢٥٩ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٣٠ .

— أبو العباس : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٢٨ - ٨٠٧ - ٨٢٣ - ٨٣٢ (طبعة بوبر - كافورنيا) .

(٤) القرماني : أبو العباس بن أحمد الدمشقى : أخبار الدول وآثار الأول ورقة ٩٧ (مخطوطة) ونسخة مطبوعة فى بولاق ١٢٩٠ هـ ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Karaman Oghlu».
(٥) — Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Isfandyar Oghlu» T. II, p. 565.
— Ziada, Op. Cit., p. 103.

القرماني : أخبار الدول - المصدر السابق مطبوع ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .

السلطان محمد الثاني العثماني هذه الامبراطورية عام ١٤٦١ . (٦)

والى الشرق من طرايزون امتدت مملكة جورجيا حوالى ستين ميلا حتى تفليس . وفى على الطريق التجارى البرى من وسط آسيا الى شرق البحر المتوسط ، لذلك تعرضت لأخطار المناوشات بين القبائل التركمانية والعثمانيين . (٧) وامتدت مملكة شروان « شرقى مملكة جورجيا حتى بحر قزوين ، والمملك عليها عام ١٤٥٣ ، « خليل الله » ١٤٢٧ - ١٤٦٢ . واتخذ هذا الملك موقف الحياد فى معظم التيارات والحوادث الجارية حوله . (٨)

وعاصرت الدولة المماليكية كذلك قبيلتي « الشاه البيضاء - الآق قيونلو » و « الشاه السوداء - القره قيونلو » التركمانيين بأعلى العراق وفارس . ونزلت قبيلة الشاه البيضاء ديار بكر واتخذها أفرادها عاصمة لهم ، ومنها امتدت أملاكهم حتى تبريز ، وكان الأمير عليها عام ١٤٥٣ « جهانكير » ابن الأمير على بك ونازعه فى الامارة أخوه « أوزون حسن » الذى اغتصب الحكم وانفرد به ، ولم يلبث أن مد فتوحاته فشملت أرمينيا وحصن كيفا وديار بكر وماردين . (٩)

(٦) كان آخر حكام أسرة كومنين الكبيره فى طرايزون : جون الرابع الذى تزوج

أوزون حسن من ابنته ثم آخرهم داود .
— Heyd, Histoire Du Commerce, T. II pp. 363, 365 & p. 390.
— Camb. Med. Hist. Vol. I pp. 76, 77.

— Hammer, Op. Cit., T. III pp. 36-37, 79, 153.
— Depping, Histoire Du Commerce T. II p. 221.

(٧) الخالدي : المصدر السابق : (مخطوطة) ورقة ٢٨١ ب - ٢٨٢ ب .
— Ency. D'Islam. Op. Cit., Art. «Georgie».
— Ziada, Op. Cit., pp. 104-105.

(٨) الخالدي : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٨٢ ب .
— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Derband. Shirwan Shah».

(٩) قومانى : المصدر السابق (مطبوع) ص ٢٢٦ .
— Hammer, Op. Cit., III pp. 61, 151-464-466.
— Hammer, Op. Cit., IV pp. 69-80, 81.

الظاهرى : المصدر السابق ص ١٤٩ - ١٥١ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٦ (بولاق) .
— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Ak. Kouynlu» p. 228. — Ozon Hassan — Hisn Kaifa.

أما قبيلة الشاه السوداء فامتدت أملاكها جنوب بحيرة « ران » والأمير عليها عام ١٤٥٣ « جهان شاه » وقد آلت أملاكها الى أوزون حسن عام ١٤٦٩ . (١٠)

أما بلاد الحجاز فظلت مرتبطة بالسلطنة المماليكية والسلطان المماليكى يخطب له من منابر مكة بالقاب « سلطان البحرين وحامى الحرمين » وحصل سلاطين المماليك على أموال كثيرة من رسوم تجارة الهند فى ميناءى جدة وينبع (١١) . وفى اليمن تنازع بنو رسول وبنو طاهر الحكم بين عامى ١٤٤٦ - ١٤٥٤ م حتى خلعت لبنى طاهر عام ١٤٥٤ وظلوا تابعين للمماليك حتى عام ١٥١٧ (١٢) .

وعلى الأطراف الجنوبية لدولة سلاطين المماليك انتشرت قبائل البجاء بين النيل والبحر الأحمر وامتدت مساكنهم على طول الطريق التجارى بين قوص وعيذاب . (١٣) .

ومن البلاد التى جاورت الأطراف المماليكية الجنوبية ، النوبة المسيحية - وامتدت أراضيها امتدادا صحراويا من جنوبى أسوان الى

(١٠) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٦٤٤ - ٦٥٠ و ٦٨٥ و ٧٦٦ و ٧٤٠ وج ٧ ص ٢١١ و ٢٤٠ (كاليفورنيا) .

الظاهرى : المصدر السابق ص ٥٩ .

(١١) الخالدي : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٨٢ أ ب - ١٥٣ ب و ١٥٥ أ .

الظاهرى : المصدر السابق (ص ١٦ - ٤٢ - ٥٢) .

(انظر بعده الفصل الثالث)

— Lane Poole, Op. Cit., p. 309.

— Lane Poole, Cairo p. 237.

— Ziada, Op. Cit., pp. 93, 94-98.

— Ency. D'Islam. Op. Cit., Art. «Arabia-Medina».

(١٢) الخالدي : المصدر السابق (مخطوطة) ٢٧٣ ب - ٢٧١ أ - ٢٧٤ أ .

القلقشندي : صبح الاعشى ج ٥ ص ١٧ - ٣٥ .

— Lane Poole, Mohammedan Dynasties, pp. 99, 100.

(١٣) القلقشندي : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٣ - ٢٧٦ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Bega, Bisharia, T. Ia. pp. 608, 609-687.

السلطان محمد الثاني العثماني هذه الامبراطورية عام ١٤٦١ . (٦)

والى الشرق من طرايزون امتدت مملكة جورجيا حوالى ستين ميلا حتى تفليس . وعلى الطريق التجارى البرى من وسط آسيا الى شرق البحر المتوسط ، لذلك تعرضت لأخطار المناوشات بين القبائل التركمانية والعثمانيين . (٧) وامتدت مملكة شروان « شرقى مملكة جورجيا حتى بحر قزوين ، وألقت عليها عام ١٤٥٣ ، « خليل الله » ١٤٢٧ - ١٤٦٢ . واتخذ هذا الملك موقف الحياد فى معظم التيارات والحوادث الجارية حوله . (٨)

وعاصرت الدولة المماليكية كذلك قبيلتى « الشاه البيضاء - الآق قيونلو » و « الشاه السوداء - القره قيونلو » التركمانيتين بأعلى العراق وفارس . ونزلت قبيلة الشاه البيضاء ديار بكر واتخذها أفرادها عاصمة لهم ، ومنها امتدت أملاكهم حتى تبريز ، وكان الأمير عليها عام ١٤٥٣ « جهانكير » ابن الأمير على بك ونازعه فى الامارة أخوه « أوزون حسن » الذى اغتصب الحكم وانفرد به ، ولم يلبث أن مد فتوحاته فشملت أرمينيا وحصن كيفا وديار بكر وماردين . (٩)

(٦) كان آخر حكام أسرة كومنن الكبيرة فى طرايزون : جون الرابع الذى نروج

أوزون حسن من ابنته ثم آخرهم داود .
— Heyd, Histoire Du Commerce, T. II pp. 363, 365 & p. 390.
— Camb. Med. Hist. Vol. I pp. 76, 77.

— Hammer, Op. Cit., T. III pp. 36-37, 79, 153.
— Depping, Histoire Du Commerce T. II p. 221.

(٧) الخالدي : المصدر السابق : (مخطوطة) ورقة ٢٨١ ب - ٢٨٢ ب .
— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Georgie».
— Ziada, Op. Cit., pp. 104-105.

(٨) الخالدي : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٨٢ ب .
— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Derband. Shirwan Shah».

(٩) قرمانى : المصدر السابق (مخطوطة) ص ٧٣٦ .
— Hammer, Op. Cit., III pp. 61, 151-464-466.
— Hammer, Op. Cit., IV pp. 69-80, 81.

الظاهرى : المصدر السابق ص ١٤٩ - ١٥١ .
ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٦ (بولاق) .
— Ency. D'Islam, Op. Cit. Art. «Ak. Kouynlu» p. 228. — Ozon Hassan — Hisn Kaifa.

أما قبيلة الشاه السوداء فامتدت أملاكها جنوب بحيرة « ران » والأمير عليها عام ١٤٥٣ « جهان شاه » وقد آلت أملاكها الى أوزون حسن عام ١٤٦٩ . (١٠)

أما بلاد الججاز فظلت مرتبطة بالسلطنة المماليكية والسلطان المماليكى يخطب له من منابر مكة بالقاب « سلطان البحرين وحامى الحرمين » وحصل سلاطين المماليك على أموال كثيرة من رسوم تجارة الهند فى ميناءى جدة وينبع (١١) . وفى اليمن تنازع بنو رسول وبنو طاهر الحكم بين عامى ١٤٤٦ - ١٤٥٤ م حتى خلصت لبنى طاهر عام ١٤٥٤ وظلوا تابعين للمماليك حتى عام ١٥١٧ (١٢) .

وعلى الأطراف الجنوبية لدولة سلاطين المماليك انتشرت قبائل البجاه بين النيل والبحر الأحمر وامتدت مساكنهم على طول الطريق التجارى بين قوص وعيذاب . (١٣) .

ومن البلاد التى جاورت الأطراف المماليكية الجنوبية ، النوبة المسيحية - وامتدت أراضيها امتدادا سحراويا من جنوبى أسوان الى

(١٠) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٦٤٤ - ٦٥٠ و ٦٨٥ و ٧٦٦ و ٧٤٠

وج ٧ ص ٢١١ و ٢٤٠ (كاليفورنيا) .

الظاهرى : المصدر السابق ص ٥٩ .

(١١) الخالدي : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٨٢ أ ب - ١٥٣ ب و ١٥٥ أ .

الظاهرى : المصدر السابق (ص ١٦ - ٤٢ - ٥٢) .

(أنظر بعده الفصل الثالث)

— Lane Peale, Op. Cit., p. 309.

— Lane Peale, Cairo p. 237.

— Ziada, Op. Cit., pp. 93, 94-98.

— Ency. D'Islam, Op. Cit. Art. «Arabia-Medina».

(١٢) الخالدي : المصدر السابق (مخطوطة) ٢٧٣ ب - ٢٧١ أ - ٢٧٤ أ .

القاسمى : صبح الاعشى ج ٥ ص ١٧ - ٣٥ .

— Lane Peale, Mohammedan Dynasties, pp. 99, 100.

(١٣) القاسمى : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٣ - ٢٧٦ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Bega, Bisharia, T. I». pp. 608, 609-687.

دارفور الحالية وقاعدتها مدينة « دنقلة » (١٢) ومنها أيضا مملكة الحبشة المسيحية التي امتدت شرقى النيل من أطراف سلطنة مالى حتى البحر الأحمر . وفى عام ١٤٥٣ كان على الحبشة الملك « يعقوب » الذى لقب فى العصور الوسطى المتأخرة « بالحطى » ، وحصلت الحبشة على مطرانها منذ القدم من القاهرة . ولكى يتم ذلك يرسل ملك الحبشة الى السلطان يطلب تعيين مطرانا جديدا . (١٥) أما بلاد الأحباش المسلمين فكانت الأراضى الساحلية المطلة على البحر الأحمر ويعبر عنها « بالطراز الاسلامى » وتعرف فى بلاد الممالك باسم بلاد الزيلع وتخضع للحطى ملك الحبشة . (١٦)

وفى شمال افريقية عاصرت دولة سلاطين الممالك دول بنى حفص فى تونس وبنى زيان فى تلسان فى الجزائر وبنى مرين فى مراكش وامتدت الدولة الحفصية من أطراف مصر الغربية عند برقة وكانت العاصمة مدينة تونس . (١٧) وعقد الحفصيون معاهدات تجارية مع جمهوريات بيزا وجنوة وفلورنسا والبندقية . أما الجزائر فقد تقاسمها الحفصيون وبنى زيان ، وأخذ هؤلاء يستولون عليها شيئا فشيئا حتى

(١٤) الخالدى : المصدر السابق - (مخطوطة) ورقة ٢٧٤ أ ١ .

القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٧٥ .

— Ency. D'Islam, Art. «Bakt», pp. 608, 609-1072, 1073.
— Lane Poole, A Hist. of Egypt In the Middle Ages, pp. 12-15-27-111.
— Ziada, Op. Cit., p. 113.

(١٥) القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٠٢ - ٣٠٦ - ٣٢٢ - ٣٢٣ .

الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٨٨ .

— Ency. of Islam, p. 119, Vol. I.

(١٦) القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٢٤ - ٣٢٦ - ٣٢٨ - ٣٢٢ و ٣٢٣ .

ج ٨ ص ١٤٩ - ١٥١ .

الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٧٥ أ و ٢٧٦ ب - ٢٨٨ ب .

أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٨٩ (كاليفورنيا) .

— Ency. of Islam, Vol. I pp. 985, 986.

(١٧) الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٢٧٦ ب .

أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٨٣٤ (كاليفورنيا) .

القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ١٠٨ - ١٠٩ .

امتلكوها كلها . (١٨) وامتدت مراكش غربا حتى مدينة آسفى على المحيط الأطلنطى وعاصمتها فارس وبقيت فى حكم المرينيين حتى عام ١٤٦٥ ، ثم فى حكم بنى وطاس بعد عام ١٤٦٥ ، وانتزع منهم البرتغاليون والاسبان آسفى وميلية عام ١٤٧٠ (١٩) .

ومن الدول المعاصرة الاسلامية لدولة سلاطين الممالك . الهند الاسلامية وأكثرها صلة بمصر مملكة الدكن البهسية ١٣٤٧ - ١٥٢٦ م والمملكة الخليجية ١٤٣٦ - ١٥٣١ م ومملكة جوجيرات ١٤٠١ - ١٥٧٣ ومملكة دلهى حيث حكمت أسرة لودى ١٤٥٠ - ١٥٢٦ م . وكان ملوك الهند الاسلامية يرسلون للخليفة العباسى بالقاهرة يطلبون التقليد الخلفى لتثبيت سلطانهم على بلادهم ، كما كان لمصر صلات تجارية وثيقة بالهند . اذ اجتذبت تجارة التوابل والأحجار ، الكريمة أفواجا مستمرة من التجار المسلمين الى سواحل الهند الغربية واشتركت سفنهم مع سفن الممالك فى مهاجمة الأسطول البرتغالى فى مياه الهند عامى ١٥٠٨ - ١٥٠٩ (٢٠) .

أما الممالك المسيحية الداخلة فى نطاق شرق وغرب البحر المتوسط والتي ارتبطت بمصر بروابط سياسية واقتصادية ، فهى مملكة قبرص والجمهوريات الايطالية ومملكة قشتالة باسبانيا وفرنسا ودانت

(١٨) القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ١٤٩ - ١٥١ .

(١٩) القلقشندى : المصدر السابق ج ٥ ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

الخالدى : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة ٧٩ أ - ٢٧٦ أ .

أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٦ ص ٨٣٤ (كاليفورنيا) .

— Ency. of Islam, Op. Cit., Art. «Hafsids», Vol. II pp. 229, 230.

— Lane Poole, Op. Cit., Mohammedan Dynasties, pp. 49, 50.

— Ency. D'Islam, Op. Cit., II pp. 509-533. Art., «Benghal-Delhi-(٢٠) Malwa-Kandish-Gulbara - Kashmir - Djaunpur - Gujerat.»

— Lane Poole, Mohamm. Dynast., pp. 305-508, 189-193, 283-298, 300-312-314.

— Lane Poole, Egypt In The Middle Ages, pp. 350-352.

— Lane Poole, India, pp. 168-170, 171, 172-175, 176.

— Ziada, Op. Cit., pp. 253, 254.

مملكة قبرص لسلاطين المماليك بالتبعية والجزية ، وكان ملكها عام ١٤٥٣ « حنا الثاني لوزجنان » (٢١) .

ومن جمهوريات إيطاليا ذات الصلة الوثيقة بشرق البحر المتوسط جمهورية البندقية . ومنذ سقوط القسطنطينية والبندقية يتجهون بتجارتهن الى بلاد السلطات المماليكية وصارت البندقية أكبر عميل في تجارة شرق البحر المتوسط ، وأُنشأت لها جالية كبيرة بالاسكندرية وغيرها من موانئ المساليك . وكانت فلورنسا كذلك من أكثر الجمهوريات الإيطالية اتصالا بشرق البحر المتوسط . ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر وأسرة ديميديتشي الحاكمة في فلورنسا تعمل على توثيق صلاتها التجارية بالسلطات المماليكية ، وذلك رغم التحريمات التي أصدرتها البابوية لمنع التجار الفلورنسيين والبندقية وغيرهم من المتاجرة في المواد الحربية مع المساليك . (٢٢)

وفي أسبانيا ظلت دولة المسلمين بالاندلس تغالب المسيحيين حتى لم يبق في يدها عام ١٤٥٣ الا مملكة غرناطة وكان الأمير عليها اذ ذاك « اسماعيل بن يوسف الناصري » الذي أعلن خضوعه لهنرى الرابع ملك قشتالة ، وأدى له جزية سنوية قدرها ١٢٠٠٠ دينار ، واستمر

- (٢١) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٤ (طبعة كاليفورنيا) .
— Heyd, Op. Cit. T. II pp. 425, 426-428, 429-475.
— Lane Poole, Egypt In The Middle Ages, p. 339.
— Muir, The Mameluks or Slave Dynasty, p. 142.
— Mas Latrie, Chypre, T. III p. 73 & p. 765.
— Ziada, Op. Cit., p. 87.

(٢٢) تكررت البابوية بعد هزيمة عكا ١٢٩١ في اشعار المماليك عن طريق حرماتهم من المورد الاساسى لقناتهم وقوتهم وهو التجارة . لذلك أصدرت البابوية مراسيم التحريم البابوية متضمنة عدم التعامل مع المسلمين عامة والمماليك خاصة في أصناف معينة من السلع أهمها المواد التي تدخل في صناعة الأسلحة والسفن كالخشب والحديد والكبريت والقار . وكذلك بعض المواد الغذائية كالحبوب والزيت فضلا عن الرقيق الأبيض الذي اعتمد عليه النظام المماليكى .

- سميد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٩٤ و ٢٩٥ .
— Pernaud, Les Villes Marchands, p. 30.

هذا العهد حتى قيام الأمير « أبو الحسن على » بعد وفاة أبيه اسماعيل عام ١٤٦٦ ، وكان على ماله الأمير « محمد » المعروف « بالزغل » ، وهذان الأميران هما اللذان قاوما قوات أسبانيا المسيحية حتى انتهاء حكم المسلمين في غرناطة ١٤٩٢ م . (٢٣) وحتى وصول البرتغاليين للهند كان الاسبان يحصلون على حاجتهم من التوابل الشرقية من أسواق شرق البحر المتوسط . وفي فرنسا استطاع الملك « شارل السابع » طرد الجيوش الانجليزية عام ١٤٥٣ من فرنسا . (٢٤)

وفي عام ١٤٥٣ كان السلطان المماليكى فى القاهرة السلطان الأشرف اينال (١٤٥٣ — ١٤٦٠) وكان طاعنا فى السن متقادا لمماليكه الجلبان الذين كثيرا ما رفضوا الخروج للخدمة وحماية الأطراف المماليكية لعجز السلطان عن توزيع النفقة اللازمة للحرب . (٢٥)

وأصدر السلطان اينال عددا من القوانين الاقتصادية الهامة مثل قانون العسلة وضرب على أيدي الزغلية مزيفى النقود بأن شق عشرة منهم على باب زويلة . (٢٦)

(٢٣) محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية . ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

انظر الفصل الثاني بعده .

(٢٤) — Lodge, Richard, A. Hist. of Mod. Europe. p. 22.

(٢٥) الخالدي : المصدر السابق ورقة ٨٥ ب و ١٤٣ أ و ١٤٥ أ .

الظاهرى : المصدر السابق ص ٣٥ .

أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٢٤٠ و ٢٣١ (كاليفورنيا) .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٤١ و ٤٢ و ٤٣ — ٦٤ .

— Lane, Poole, Egypt In The Middle Ages pp. 325, 326.

تسكن بعض القبائل على حدود مصر فى الصعيد والوجه البحرى وخاصة فى صحراء البحيرة والشرقية ولايات مصر العليا والوسطى ونشأوا بين الأهالى الاصليين وان كانوا يفترون عليهم فى بعض الأحيان ، وكانوا يدعون الجزية للسلطان ، وفى حالات الحرب قرسل هذه القبائل بعض رجالها وخيولها للاشتراك فى المعارك . وعن أية حال فقد كانوا مصدر ازعاج دائم للسلطات الحاكمة ، بل كانوا أحيانا يفترون على قوات السلطان نفسه ويقاثلون بعضهم البعض ويفترون على الطرق التجارية .

(٢٦) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٦ و ٥٧ — ٦١ . انظر الفصل الخامس

بعده .

وانتخب اينال سياسة ودية مع جيرانه من الدول الاسلامية وخاصة السلطنة العثمانية ، وأرسل للسلطان محمد الثاني العثماني سفارة لتنهته بفتح القسطنطينية . وأعلن الأمير « سليمان دلفادر » الولاء للسلطنة المماليكية وسلك ابنه « أصلان دلفادر » هذا المسلك حتى عام ١٤٦٥ . (٢٧) وظلت العلاقات طيبة بين السلطان اينال وأوزون حسن زعيم قبيلة الشاة البيضاء التركمانية على حين أعلن جهان شاه « زعيم قبيلة الشاة السوداء » عداؤه للسلطنة المماليكية وتحداها بإيوائه أحد الأمراء الفارين من القاهرة ، فنهض أوزون حسن لمحاربة جهان شاه وهزمه ونال بذلك رضا السلطان اينال . (٢٨) ولم يحدث أن قام السلطان اينال خلال حكمه الذي امتد الى عام ١٤٦١ بحملة ضد أية دولة اسلامية سوى حملة تأديب ضد « ابراهيم » أمير قرمان الذي استولى على أطنة وطرسوس بعد أن تجاهل السلطان اينال صرخاته عندما اشتد عليه ضغط السلطان محمد الثاني العثماني . (٢٩) وقاد هذه الحملة الأمير المماليكي « خشقدم » فصد هجمات ابراهيم قرمان وما زال به حتى طلب الصلح وظل مخلصا للماليك حتى اكتسح السلطان محمد الثاني العثماني هذه الامارة نهائيا عام ١٤٦٣ . (٣٠)

ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، تعرضت جزيرة قبرص لتهديد السلطان محمد الثاني العثماني بعد فتح القسطنطينية ، فطلب ملكها « حنا الثاني لوزجنان » معونة السلطان اينال لابعاد الخطر

العثماني على الجزيرة وكتب اينال للسلطان العثماني يذكره بأن ملك قبرص تابع له ، فكف السلطان العثماني عن تهديد الجزيرة . (٣١) ومات حنا الثاني عام ١٤٥٨ وأيد السلطان اينال لحكم الجزيرة الأمير « جيمس » الابن غير الشرعي ، ضد أخته « شارلوت » الوريثة الشرعية وزوجة الأمير لويس حاكم مقاطعة سافوى الايطالية (٣٢) ، على حين أيد فرسان القديس يوحنا في رودس الأميرة شارلوت . وأخيرا سافر من القاهرة واعتلى عرش قبرص باسم جيمس الثاني عام ١٤٦٠ . ورافقه اليها أسطول ممالكي . (٣٣) وانسحبت شارلوت من الجزيرة في يناير ١٤٦١ ورحلت الى رودس وتعبها المماليك وهاجموا سواحل جزيرة كالوس التابعة للفرسان . (٣٤)

وخلف اينال في السلطنة سنة ١٤٦٠ ابنه أحمد الذي لم يلبث أن خلعه المماليك على طريقته المعهودة وولوا « خشقدم » عام ١٤٦١ — ١٤٦٨ ، وهو أول السلاطين المماليك من اليونانيين . (٣٥) واتبع خشقدم مدة سلطنته سياسة التفرقة بين المماليك . وفي السياسة الخارجية حدث تغيير جديد في علاقة المماليك بجيرانهم ، لذا يعتبر عهد خشقدم بداية الصراع الطويل بين المماليك والعثمانيين ، وذلك منذ أن

(٣١) — Mas Latrie, Documents, T. II p. 73-75 & N. 7 p. 74.

أرسل جون الثاني خطاب تهينة لاينال بمناسبة توليه العرش ، وفي هذا الجزء من الكتاب رد اينال على التهينة . وبالكاتب اشارة بوصول جون الثاني للقاهرة ١٤٥٣ لحضور احتفالات تولي اينال السلطنة . ولو أن المراجع العربية المعاصرة لا تذكر هذا الخبر .

(٣٢) — Mas Latrie, Ibid, T. II p. 89 N.I.

أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٥٤٤ — ٥٤٩ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٩٣ .

(٣٣) — أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٥١ .

— Mas Latrie, Ibid, T. II p. 96-98 & pp. 104-106.

(٣٤) — أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٦٥١ .

— Mas Latrie, Ibid T. II pp. 104-106.

(٣٥) — السلطان اليوناني الثاني هو « ترميذا » .

— Ziada, Op. Cit., p. 30.

(٢٧) — أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٥٧٦ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٨ و ٤٩ .

(٢٨) — أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٨٤ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦ — ٥٩ .

(٢٩) — ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٧ و ٤٨ .

— Ency. D'Islam, Art. «Karaman Oghlu».

(٣٠) — أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٨٧ — ٤٩٠ و ٥٠٠ و ٥٠١ — ٥٠٨ .

٦٥٧ —

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٥ و ٥٦ — ٦٣ .

تدخل السلطان محمد الثاني العثماني عام ١٤٦٣ لتأييد أحد الأمراء على ولاية دلفادر التركمانية غير من أيده السلطنة المماليكية . ومع هذا لم تنشب الحرب على عهد خشقدم . (٣٦) وعلى عهده ساءت العلاقات بين المماليك وأوزون حسن الذي آوى بعض الأمراء الفارين من السلطان ، ثم تحسنت هذه العلاقات عندما أخضع أوزون حسن قبيلة الشاه السوداء التركمانية وذبح زعيمها جهان شاه وأرسل رأسه الى القاهرة . (٣٧) غير أن أوزون حسن لم يلبث أن أعلن عن حقيقة نواياه حين هاجم حصن كيفا التابع للمماليك ، ومع هذا فضل السلطان خشقدم مهادنته ومنحه الحصن مكافأة له على خدماته السابقة ضد جهان شاه . (٣٨) وظلت العلاقات طيبة بين المماليك وإبراهيم قرمان ثم تنازع أبناؤه الامارة بعد وفاته عام ١٤٦٤ واستعان أكبرهم « بير أحمد » بخاله السلطان محمد الثاني العثماني واستعان « اسحق » بالسلطان المماليكي خشقدم وأوزون حسن ، وانتصر بير أحمد وصار تابعا للسلطان العثماني ، مما جعل العلاقات تتوتر بين السلطنة المماليكية والسلطنة العثمانية . (٣٩) . وفي أثناء تدهور العلاقات بين خشقدم ومحمد الثاني العثماني - بسبب المشكلة الدلفادرية - حاول أوزون حسن أن يدس أنفه في هذه الامارة ، ولا سيما بعد أن منحه خشقدم نيابة « خربوط » الدلفادرية ، فاغتال أتباعه الأمير « أصلان دلفادر » في « أبلستين » ، واعتقد السلطان خشقدم أنه حل المشكلة الدلفادرية بهذه الطريقة . وتجاهل قدوم الأمير « سيف بن أصلان » الى القاهرة لتلقى الخلعة السلطانية خلفا لوالده ، وأعلن شقيقه « شاه

— Ziada, Op. Cit., p. 30.

(٣٦)

(٣٧) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٧٠٤ .

(٣٨) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٧٣٠ - ٧٣٢ ، ٧٥٤ - ٨٥٥ .

خليل بن شامس الظاهري : المصدر السابق ص ١٤٩ - ١٥١ .
— Ency. D'Islam, Op. Cit. Art. «Hîsn Kaifa».

(٣٩) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٨٠٥ .
— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Karaman Oghlu».

بداق » أميرا للامارة . على حين أيد السلطان محمد الثاني العثماني أخا ثالثا هو « شاه سوار » . ومن أجل ذلك استعلت الحرب بين الأخوين . وتحرك شاه سوار نحو الأطراف المماليكية فأرسل خشقدم الى نواب حلب وحماه وطرابلس للاستعداد للحرب . (٤٠)

وفي قبرص واصل السلطان خشقدم سياسة سلفه في تأييد الملك جيس الثاني لوزجنان ، وبفضل ذلك التأييد استطاع الملك جيس استعادة فاماجوستا من الجنويين . غير أن جيس الثاني لم يلبث أن ضاق بأفراد القوة المماليكية في الجزيرة فاغتال قائدها وأرسل يعتذر للسلطان عن ذلك الحادث ، كما أعلن استمرار خضوعه للسلطان . وانتهزت الأميرة شارلوت الفرصة وأثارت حقها في عرش قبرص ، ولكن السلطان رفض الاستماع لندوبها (٤١) . وفي أواخر أيام خشقدم أثار البدو الاضطرابات في صعيد مصر وسوريا وشمال بلاد العرب ، وأعقب ذلك وفاة السلطان في أكتوبر ١٤٦٧ دون أن تخرج حملة في الداخل أو في الخارج لتأديب البدو . (٤٢)

وفي أواخر يناير ١٤٦٨ تولى السلطنة في القاهرة السلطان الأشرف قايتباي ١٤٦٨ - ١٤٩٦ ، وامتألت سلطنته بالأعمال العمرانية والحربية ، فاهتم ببناء المساجد والمدارس ، وقام بجولات تفتيشية في بلاد السلطنة المماليكية وسلك مسلكا طيبا مع من سبقه من السلاطين المعزولين . (٤٣) وفي المجال الخارجي ترك خشقدم لقايتباي مشكلة

(٤٠) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٧٣٧ - ٧٤٧ ، ٧٥٢ - ٨٠٢ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٨١ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Del, Kader».

— Ziada, Op. Cit., p. 172.

— Mas Latrie, Op. Cit., T. II p. 402.

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «Kedikadam».

(٤٢) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٨٢٦ ملاحظة ٢ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٨٢ .

— Lane Poole, Egypt in the Middle Ages pp. 341, 342.

— Ziada, Op. Cit., p. 35.

امارة « دلاغار » وعبء مدافعة أوزون حسن عن الأطراف المالكية . واستطاع ابن رمضان - تابع السلطان قايتباى على اقليم أطنه - تشتيت شاه سوار عدو السلطنة المالكية عام ١٤٦٩ وابعاده عن الأطراف الشمالية ، كما نجحت قوات الماليك فى أسره وارساله للقاهرة مكبلا بالحديد حيث شق على باب زويلة . غير أن الجو لم يصبح بذلك خاليا للأمير « شاه بداق » ، اذ نازعه أخوه « علاء الدولة دلاغار » بتأييد من السلطان بايزيد الثانى العثمانى الذى خلف والده محمد الثانى العثمانى عام ١٤٨١ (٤٤) ثم استطاعت قوات الماليك هزيمة علاء الدولة وأجبرته على اعلان الولاء للسلطنة المالكية ، ولم يلبث أن صار من أخلص أعوان الماليك ، وكان يبلغ السلطان قايتباى تحركات العثمانيين على الأطراف المالكية . أما شاه بداق فوصل الى القاهرة وأرسله السلطان قايتباى الى الصعيد وأجرى عليه الأرزاق حتى مات عام ١٤٩٨ . (٤٥)

وكان أوزون حسن قد هتأ السلطان قايتباى بالسلطنة وأرسل اليه هدايا فاخرة لدى اعتلائه العرش فى ٣١ من يناير عام ١٤٦٨ . ثم لم تلبث أطماع أوزون حسن أن ظهرت ، اذ انتهز فرصة الخلاف بين السلطنة المالكية وشاه سوار فاكسح بقواته قلاع قبيلة « الشاه السوداء » ثم أرسل مفاتيح تلك القلاع للقاهرة عام ١٤٦٩ م ، امعانا فى الخداع ، واضطر قايتباى الى السكوت وقتذاك على مضض لانشغاله بحرب شاه سوار ، ثم توسع أوزون حسن فى فتوحاته شرقا فى فارس ووسط آسيا ، وأسر « أبا سعيد التيمورى » ملك سمرقند

(٤٤) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١١١ - ١٦٧ و ١٢٩ - ١٣٦ .
— Heyd, Op. Cit., T. II p. 327.
— Lane Poole ; Turkey, pp. 634, 135, 136.
— Hammer, Op. Cit., T. III, pp. 117, 118.

(٤٥) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٢ - ٢٤١ - ٢٥٩ - ٢٦١ .

وأصدق خلفاء قبيلة الشاه السوداء وذبحه وأرسل رأسه للقاهرة عام ١٤٦٩ . (٤٦) ولم يكتف أوزون حسن بذلك بل أرسل كسوة الكعبة باسمه ، ووصل قصاده فعلا للقاهرة عام ١٤٧١ فى طريقهم للحجاز . وكان السلطان قايتباى قد فرغ من شاه سوار ، فنفذ بقواته ضد أوزون حسن وأجبره على الارتداد عند الرها ، وحجز بعثته للحج حتى تم الصلح وسمح له بعد ذلك قايتباى باستئناف السفر للحجاز . ثم لم تلبث العلاقات أن ساءت مرة أخرى بين أوزون حسن وقايتباى ، اذ اختلف مع أحد أبنائه ولجأ هذا الابن الى حلب محتفيا بالسلطنة المالكية ، ووفدت زوجة أوزون حسن الى القاهرة لتوسط السلطان قايتباى فى الصلح بين الأب وابنه . ولم ينقد الموقف سوى موت أوزون حسن ١٤٧٨ م ، وخلفه ابنه خليل عام ١٤٧٩ م ، ثم يعقوب عام ١٤٩٠ ، ثم ييصنقر عام ١٤٩٥ م ، ورستم عام ١٤٩٦ ، وسادت الفوضى بعد ذلك مملكة الشاه الأبيض حتى ضم أملاكهم الشاه اسماعيل الصفوى . (٤٧)

أما العلاقات بين السلطنة المالكية والعثمانيين فظلت على حالها من التدهور فى أوائل عهد قايتباى حتى اتفق الطرفان على عدم التدخل فى شئون امارتى دلاغار وقرمان . وبدا أن العداء قد قارب الانتهاء ، وبدأت السفارات مرة أخرى بين القاهرة والقسطنطينية حتى وفاة محمد الثانى العثمانى عام ١٤٨١ م وتولية ابنه بايزيد الثانى ، وذلك

(٤٦) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٦ .

(٤٧) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٠ - ١٥٠ و ١٥٩ و ١٦٠ - ١٨٤ .

٢١٠ - ٢١٢ - ٢٥١ - ٢٧٢ - ٢٨٣ - ٣١٢ - ٣٢٠ .

قرمانى : أخبار الدول وآثار الأول ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .
زيادة : نهاية دولة سلاطين الماليك - بحث بمجلة الجمعية التاريخية . عدد مايو

١٩٥١ ص ٢٠٢ .

— Ency. D'Islam, Op. Cit., Art. «AK KOYUNLU --- UZON HASSAN» pp. 1066, 1067.

— Hammer, Op. Cit., T. III pp. 81-464-466.

أعيان البندقية ، واستخدم في بلاطه عددا كبيرا من البنادقة . ولما مات جيمس الثاني عام ١٤٧٣ حكمت كاترين الجزيرة بأشراف البنادقة . وأبدى قايتباي ارتياحه لذلك وحذر البنادقة من تأخير الجزية ، فأسرت كاترين بارسال جزية عامين متأخرين ، وسر السلطان قايتباي بذلك وأرسل يؤيد الملكة . ثم تأخرت الجزية مرة أخرى فهدد قايتباي باستخدام القوة ، فوصلته الجزية عام ١٤٧٩ م . وقدرت البندقية أهمية الجزيرة في الدفاع عن مصالحها وتجارتها في شرق البحر المتوسط ، واستطاعت أن تقنع كاترين بالتنازل عن الحكم للبندقية ، وتم ذلك في عام ١٤٨٩ م ، وانتقلت الملكة لتقضى بقية أيامها في البندقية . وسافر الحاكم البندقي الجديد للقاهرة ، وأوضح للسلطان المالكي قايتباي الأمر مؤكدا التبعية وضمان وصول الجزية بانتظام . وفي عام ١٤٩٠ أرسل قايتباي لدوج البندقية رسالة يبلغه فيها موافقته على الوضع الجديد للجزيرة مع مراعاة سكانها وحقوقهم ومعاملتهم معاملة طيبة . (٥١)

وفي عام ١٤٩٠ وصلت للسلطان قايتباي استغاثة من الأمير « أبو عبد الله محمد » صاحب غرناطة يطلب العون لصد هجمات فردناند ملك اسبانيا المسيحية ، وكان السلطان قايتباي مشغولا بحروب التركمان والعثمانيين ، فاكتمل بارسال تهديده لملك اسبانيا والبابا بهدم كنيسة القيامة بالقدس ومنع الحج للأراضي المقدسة بفلسطين . ولكن تهديداته لم تؤد لنتيجة ما ، وسلمت غرناطة للملك فردناند الثاني عام ١٤٩١ بشرط أن يبقى المسلمون بها دون إيذاء في أموالهم أو أرواحهم

أن الأمير جم - صاحب الحق الشرعي في السلطنة العثمانية - فر الى القاهرة ، ورحب به السلطان قايتباي وأمدّه بالمال مما أثار حفيظة السلطان بايزيد الثاني على الدولة المالكية . (٥٨) ثم التجأ الأمير جم بعد ذلك الى فرسان القديس يوحنا في رودس ، فحجزوه ، وساموا السلطان بايزيد الثاني على الاحتفاظ به رهينة لقاء ٤٥٠٠٠ دوكات يدفعها لهم سنويا ، وفي عام ١٤٨٩ م سلم الفرسان الأمير جم للبابوية ، ثم نقل لفرنسا حيث دس له شارل الثاني السم ومات ١٤٩٥ . (٥٩) وقام السلطان قايتباي أثناء تلك المأساة بدور أدى الى تدهور العلاقات مرة أخرى بين السلطنة المالكية والعثمانيين ، وزاد هذه العلاقات تدهورا أن السلطان قايتباي رفض السماح للسلطان بايزيد الثاني بإصلاح قنوات المياه في شوارع مكة ، كما استولى نائب نجر جدة على هدايا مرسلة للسلطان العثماني من بعض ملوك الهند وأرسلها للقاهرة . ولهذا كله نشبت الحرب بين الطرفين عام ١٤٨٦ ، واستطاعت قوات السلطان بايزيد الثاني الاستيلاء على طرسوس ومحاصرة ملطية ، وهي كلها أملاك السلطنة المالكية على الأطراف الشمالية ، وشجع علاء الدولة دلغادر في ثورته على السلطنة المالكية وفي عام ١٤٨٩ استطاع أمير أذربك المالكي استرداد ما احتلته القوات العثمانية وأنزل بها هزيمة ساحقة . ثم سئم الطرفان القتال وحل السلام بينهما عام ١٤٩٢ . (٥٠)

واستمرت العلاقات ودية بين قبرص والمالكي على عهد السلطان قايتباي ، وتزوج الملك جيمس الثاني من كاترين كوناو ابنه أحد

(٥٨) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٦ .
Ziada, Op. Cit., p. 204.

(٥٩) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .
Hammer, Op. Cit., T. III pp. 353, 354.

(٥٠) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٧ .
Ziada, Op. Cit., p. 205.

(٥١) توفيق اسكندر : وثائق تنازل مصر عن حكم قبرص للبندقية - انظر المراجع .
Lane Poole, Turkey, pp. 147-150.

(٥٢) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٦ و ٢٢٧ - ٢٦٤ .
Hammer, Op. Cit., T. III pp. 357-360.

(٥١) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٥ .

سميد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٢٦ .

توفيق اسكندر : وثائق تنازل مصر عن حكم قبرص للبندقية - انظر المراجع .
Mas Latrie, Op. Cit. T. II pp. 391 N. 3. & pp. 472-478 481-483.

أو دينهم ، وطويت بذلك صفحة رائعة من تاريخ الاسلام فى
أوروبا . (٥٢)

وفى ٢٠ ابريل ١٥٠١ ولى الحكم بالقاهرة السلطان « الأشرف
فانصوه الغورى » ، وكان عمره ٦٠ عاما ، غير أنه أثبت للأمر أنه
ليس مطية عجوزا ، ولما كانت الميزانية فى حالة افلاس فقد لجأ الغورى
الى الأهالى يجع المال منهم بوسائل شتى ، فأخضع للضرائب السلطانية
المباشرة جميع الأراضى والحمامات والسواقي والطواحين والقوارب
ودواب الحمل ، كما فرض على اليهود والمسيحيين أموالا كثيرة ، وطلب
دفع الضرائب مقدما لعدة سنوات ، وأنقص وزن العملة . (٥٣) وفى
عام ١٤٩٨ نزل البرتغاليون فى قاليقوط بساحل الهند الغربى ، بعد
أن داروا حول افريقية ، وأخذوا يعملون على توجيه تجارة التوابل
من الاسكندرية الى لشبونة ، ووصلت رسائل احتجاج من السلطان
الغورى الى البابا وملكى اسبانيا والبرتغال عام ١٥٠٤/١٥٠٧ ، وفيها
هدد السلطان بهدم كنيسة القيامة ومنع الحج الى الأراضى المسيحية
المقدسة فى فلسطين اذا لم يكف البرتغاليون عن تهديد التجارة
الماليكية . ولما لم يجد الغورى استجابة لطلباته أرسل حملة بحرية الى
الهند ، وتحالف مع ملوكها المعادين للبرتغاليين ، واستطاع الأمير حسين
قائد الأسطول المالىكى - بمعونة أسطول مملكة «جوجيرات» - أن
يهزم البرتغاليين عند « شول » حيث قتل القائد البرتغالى « لورنزو
داميديا » عام ١٥٠٨ . وبعد ذلك بشهور قليلة انتقم « فرنسكو
داميديا » نائب الملك البرتغالى بالهند لموت ابنه لورنزو ، وحطم أسطول

الماليك والأسطول المتحالف معه فى وقعه «ديو» ١٥٠٩ . (٥٤) وكان
لهزيمة ديو وقع شديد فى القاهرة ، وطلب السلطان الغورى العون
العسكرى من البندقية لمواصلة القتال ضد البرتغاليين فى الهند فنصحه
البنادقة بأن يتوجه بطلبه الى السلطان بايزيد الثانى العثمانى لخرج
موقفهم أمام الدول المسيحية ، واستجاب السلطان بايزيد الثانى وأرسل
الأسلحة للسلطان الغورى ، وكذلك الأخشاب عام ١٥١٠ . ولم تك
السفن تبارح الموانئ العشانية حتى هاجمها فرسان القديس يوحنا
وأغرقوا بعضها وأسروا البعض الآخر . (٥٥) فغضب السلطان الغورى
وانتقم من الأجانب فى بلاده وخاصة البنادقة ، لظنه أنهم وشوا به
لفرسان رودس . وجاء حادث ضبط الرسائل المتبادلة بين قنصل
البندقية فى دمشق والشاه اسماعيل الصفوى فى فارس تأكيدا للشكوك
التي حامت حول البنادقة ، فقبض على القنصل وأودعه مع بعض
مواطنيه سجون القاهرة حتى وصلت بعثة تريفيزانى من الهند عام ١٥١١م
وسويت المشكلة فى معاهدة ١٥١٢ م . (٥٦)

ومنذ عام ١٥٠٢ والشاه اسماعيل الصفوى الذى ولى الحكم فى
فارس يعمل على توسيع رقعة بلاده غربا ، فضم اليه أملاك قبيلتي
الشاه البيضاء والشاه السوداء ، واقترب من أطراف الدولة العثمانية
فى آسيا الصغرى ودولة سلاطين المالك بشمال الشام والعراق ،
وكان الخلاف قد زاد بين الشيعة الصفويين والسنة العثمانيين بصورة
واضحة منذ عهد السلطان بايزيد الثانى العثمانى ، ولم تلبث أن قامت
الحرب عام ١٥١٤ بين القوتين المتصارعتين على عهد السلطان سليم

(٥٤) Lane Poole, India, pp. 176, 177.

(٥٥) Lane Poole, A Hist. of Egypt In The Middle Ages; pp. 350-352.

(٥٦) تاريخ المعركة ١٠ أغسطس ١٥١٠ .

Heyd, Op. Cit., T. II pp. 537, 538.

(٥٦) انظر معاهدة تريفيزانى بالملحق برقم ١٣ أ ومابعدها .

Heyd, Ibid, p. 539.

(٥٢) سلمت غرناطة فى ديسمبر ١٤٩١ م/صفر ٨٩٧ هـ . انظر :

محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ص ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٢٩ الى

٢٣٧ .

(٥٣) ابن اياس : المصدر السابق ج ٣ ص ٥٩ .

الأول العثماني الذي خلف والده بايزيد الثاني عام ١٥١٢ م^(٥٧) وبدأت أهمية الدولة المالكية ، وخاصة أملاكها على الأطراف الشمالية في الصراع بين الشيعة والسنة ، وحاول كل من الشاه اسماعيل الصفوي والسلطان سليم الأول التحالف مع المالكيين على حدة ، ولكن السلطان الغوري فضل الحياد ، مع العلم بأنه راسل الشاه سرا فيما بعد واستقبل قصاده دفعا لعداوته^(٥٨) . واستطاع السلطان سليم الأول أن يهزم الصفويين في موقعة تشالديران عام ١٥١٤ م ودخل العاصمة تبريز وهدمها ونجا الشاه اسماعيل الصفوي من الأسر واكتفى السلطان سليم الأول بهذا النصر ، وعاد بعد أن استولى على كردستان وديار بكر ومرعش وأبلستين وباقي أملاك دليغادر ، وكان الأمير علي بك ابن شاه سوار الذي قتل على عهد السلطان قايتباي قد خلف علاء الدولة دليغادر عام ١٥١٥ م وصار تابعا للسلطان سليم الأول . وباستيلاء السلطان سليم الأول على هذه الامارة ، أصبح فعلا على مقربة من الأطراف المالكية الشمالية .^(٥٩)

والواقع أن الخلاف بين المالكيين والعثمانيين كان لابد أن يصل الى نهايته المحتومة ، فلم تكن المناوشات والحروب منذ أيام السلطان قايتباي وبايزيد الثاني الا تمهيدا للمعركة الفاصلة التي وقعت على عهد السلطان سليم الأول . ولما تجاوزت حدود الدولة العثمانية بأطراف الدولة المالكية الشمالية وضحت نية العثمانيين .^(٦٠) فلا عدااء الغوري ولا ايواء الأمراء الفاردين ولا معاهداته السرية مع الشاه الصفوي كانت سببا في النكبة التي حلت بدولة سلاطين المالكيين، انما

— Lane Poole, Turkey, p. 141.

(٥٧)

(٥٨) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ١١٨ (طبعة محمد مصطفى) .

القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ص ٣٢٨ - ٣٣٩ .

(٥٩)

(٦٠) زيادة : نهاية دولة سلاطين المالكيين ص ٢١٦ مجلة الجمعية التاريخية مايو

١٩٥١ .

— Ziada, Op. Cit. p. 2.

هي الرغبة في التوسع وتأمين أطراف الدولة العثمانية^(٦١) . فلي يكذب ينهي سليم الأول من الشاه الصفوي حتى دفع بجيوشه الى المعركة في الشام والتقى بالسلطان الغوري عند مرج دابق ١٥١٦ م وكان أن انهزم المالكيين وسقط الغوري صريعا بسبب الخيانة بين صفوف المالكيين مما عجل بالهزيمة . ووصلت الأنباء الى القاهرة فأقام الأمراء العادل طومانباي الثاني سلطانا في ٧ أكتوبر من عام ١٥١٦ .^(٦٢) وبذل طومانباي جهودا يائسة لوقف الزحف العثماني على القاهرة ، ولكنه تهاجر عند الريدانية ١٥١٧ .^(٦٣) وفي اليوم التالي أعلن سليم الأول سلطانا على مصر والشام ودعى له على المنابر ، واستمر طومانباي يقاوم في الجزيرة والصعيد والبحيرة حتى سلمه أحد رؤساء القبائل من البدو للعثمانيين وشنق على باب زويلة في ٥ من أبريل عام ١٥١٧ .^(٦٤)

ويقال ان طومانباي طلب المعونة العسكرية من فرسان القديس يوحنا في رودس وأنهم أرسلوا اليه معدات حربية عن طريق ميناء دمياط . ولكن ابن اياس المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث يكذب الواقعة^(٦٥) . وقد نقل السلطان سليم الأول الخليفة العباسي

(٦١) ابن اياس : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦١ (طبعة محمد مصطفى) .
— Ziada, Ibid, p. 215.

(٦٢) ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ٦٨ و ٦٩ (طبعة محمد مصطفى) .
ابن زنبيل الرمال : كتاب تاريخ السلطان سليم (مخطوطة) ورقة ١٤ وعن تولية طومانباي ورقة ٦٢ .

ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ٧٠ و ٧١ و ١٠١ - ١٠٢ .
" لم يقع للملوك بني عثمان مثل هذه الفكرة على احد الملوك قاطبة كما انهم يقع قط لاحد سلاطين مصر مثل هذه الكافة او ماتت تحت مصيعة في يوم الحرب " .

(٦٣) ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ١٤٢ و ١٤٣ - ١٤٧ .

ابن زنبيل : المصدر السابق ورقة ٢٨ - ٢٧ و ٣٨ .

(٦٤) ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٠٩ - ٣١١ .

زيادة : نهاية دولة سلاطين المالكيين ص ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٨ .

— Lane Poole, Turkey, pp. 155, 156, 161.

(٦٥) ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٦٣ - ٣١٦ .

للقسطنطينية . وجاءه وهو بالقاهرة ابن شريف مكة وسلمه مفاتيح الكعبة ، وكان هذا أقصى ما يتمناه سليم الأول ليصبح خليفة للمسلمين . وفي عودته للقسطنطينية استولى على جزيرة قبرص ونظم جزيتها .

ويعتبر سقوط بلاد الشام ومصر في يد العثمانيين أهم أحداث أواخر العصور الوسطى بعد فتح القسطنطينية وكشف الطريق البحري حول افريقية الى الهند .

الفصل الثاني

العلاقات التجارية الخارجية بين دول شرق البحر المتوسط وغرب في النصف الثاني من القرن الخامس عشر

الشرق والغرب من المصطلحات النسبية التي تطبق على أى اقليم. وقد اتبعت فى هذا البحث ما جرى عليه معظم المؤرخين الأوروبيين والأمريكيين لفترة العصور الوسطى ، اذ يطلقون كلمة الشرق على القارة الآسيوية كلها بما فى ذلك شرق البحر المتوسط والبلاد الناطقة بالضاد ، ويضيفون الى ذلك البلقان والبلاد التي كان يحتلها العرب مهما قرب موقعها الجغرافى من الغرب . أما الغرب عندهم فهو الجزء من أوروبا الذى يقع غربى البحر الادرياتي ونهر الألب . وعلى هذا فالدراسة هنا تتعلق أساسا بالعلاقات التي قامت فى حوض البحر المتوسط بصفته مركزا للاتصال بين الشرق والغرب ، على أن اسبانيا وصقلية لا تعدان من البلاد الغربية الا بعد خروج العرب والروم منهما (*) .

وعلى هذا النحو فقد ظلت مصر والشام وموانئهما على البحر المتوسط والبحر الأحمر مراكز للاتصال التجارى بين المحيط الهندى وشرق آسيا والمحيط الأطلسى وغرب أوروبا ، حتى نهاية العصور الوسطى ، فتجمعت فى أسواقهما المتاجر الشرقية والغربية ، ووقع عبء

(*) أفاض فى هذا المعنى روبرت لوبيز (Robert Lopez) فى مقاله «التأثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية فى الغرب المنشور بالمجلة الدولية التي تصدرها اليونيسكو Cabier D'Histoire International» المجلد الثالث يناير ١٩٥٤ - وقد قام بنقله الى العربية الدكتور توفيق اسكندر فى كتاب «بحوث فى التاريخ الاقتصادى» - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٦١ - البحث الخامس ص ١٤٢ الى ١٨٧ .

نقلها وتوزيعها على عاتق التجار العرب وتجار المدن والجمهوريات الإيطالية والفرنسيين والقطالونيين .

وأدى سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ في يد الأتراك العثمانيين وما صاحب ذلك من عمليات حربية برية وبحرية واسعة ، إلى ارتباك التجارة وانتهيار طرقها البرية والبحرية من آسيا وأوروبا عبر البحر الأسود والأناضول والمضائق ، إذ أصبح المرور بها أمرا محفوفا بالكثير من المخاطر . هذا إلى أن السلطات العثمانية أولت كل اهتمامها للعمليات الحربية في محاولة منها لتثبيت أقدامها في أوروبا فلم تهتم بالتجارة ، بل إنها قبضت على الجاليات الأجنبية التي احتكرت التجارة في المنطقة منذ أمد بعيد ، وخاصة تجار المدن والجمهوريات الإيطالية لمساعدتهم البيزنطيين في العمليات الحربية ، فأنتهت الوكالات والمصارف أعمالها ، وأغلقت الأسواق . ورحل بعض التجار إلى بلادهم ، واتجه الآخرون إلى فروع وكالاتهم في بلاد السلطنة المماليكية بمصر وسوريا . (١)

وفي مصر اتخذ السلطان اينال ١٤٥٣/١٤٦٠ إجراءات أمن مشددة تتطلبها الوضع الجديد الذي نجم عن سقوط القسطنطينية ، فحفظت السلطات المماليكية على سفن وسلع وكالات التجار الأجانب، ولكن بعد عودة بعثة الشرف المماليكية التي أرسلت لتهنئة السلطان

محمد الثاني العثماني بالفتح العظيم ، اتخذ السلطان اينال تدابير لمواجهة تدفق الأعداد الضخمة من هؤلاء التجار الأجانب وما صاحبه من انتعاش ملحوظ في التجارة الخارجية للدولة المماليكية ، فزاد من الاعفاءات الممنوحة لهم ، وخاصة من يكثر التردد أو تطول مدة إقامته في مصر وسوريا ، وسنح لهم بتوسيع وكالاتهم وتجديدها ، وإنشاء المصارف والمخازن والفنادق . كما أجاز تعيين وكلاء لقناصلهم في بعض المرافق والموانئ والمراكز التجارية الداخلية للإشراف على عمليات البيع والشراء والمقايضة وتحصيل الرسوم المحلية والجمركية وتسليمها للسلطات الحاكمة . وقد نشطت العمليات المصرفية بعد نقل مراكز التجارة الرئيسية من القسطنطينية إلى مصر والشام التي طبقت في مدنها وموانئها نفس القوانين المعمول بها في مصر ، فاكثرت بالتجار الأجانب المبعدين من القسطنطينية والذين فضلوا الموانئ والمدن السورية لقربها من مراكز التجارة في وسط آسيا ، وآسا الصغرى والخليج الفارسي ، فحفلت أسواقها بسلع الصين والهند وفارس وسلطانية ما لا يتوافر طول العام في أسواق مصر . وقد تضمنت المعاهدات الجديدة كل هذه الامتيازات ، كما أكدت الاتفاقيات السابقة .

وكانت البابوية قد لمست بنفسها ما يعانيه تجار المدن والجمهوريات الإيطالية من السلطات العثمانية بعد سقوط الدولة البيزنطية ، وتحت ضغط تجار هذه الجمهوريات وتجار فرنسا وقطالونيا سلكت البابوية مسلكا واقعيا ، فقد لاحظت أن التجار يحترمون قوانين المقاطعة ضد الدول الإسلامية في الظاهر وينقضونها سرا ، فخففت من قيود التحريم ، وأباحت للتجار التعامل مع الدولة المماليكية ، وخاصة في استيراد البخور والحريير والسلع اللازمة للكنيسة ، تعويضا لهم عن فقد أسواق القسطنطينية ، وإن كانوا قد منعوا من تصدير المواد الحربية والأخشاب لصنع السفن ، وأصبحت قوانين التحريم المعدلة

(١) الملاحظ أنه في فترة الصراع على القسطنطينية ١٤٥٣ حاولت الجمهوريات الإيطالية ذات المصالح التجارية في المدينة حماية مصالحها ، فواصلت السلطان محمد الثاني ، في الوقت الذي كانت تساعد فيه البيزنطيين سرا لتثبات من المنتصر مزايا جديدة . كما يلاحظ أيضا أن عدم اعتناء العثمانيين بالتجارة في ذلك الوقت ليس مرجعه التأخر أو العجز أو الإهمال . ولكن في عام ١٤٥٣ كان لدى العثمانيين ماهر أهم من التجارة ، كان لديهم الفتح والتوسع وتأمين الامبراطورية . وقد أثبتت الحوادث ذلك فيما بعد .

— Heyd, Op. Cit. T. II pp. 349 ff. & 428, 429-440.
— Miller, Hist. Des Faits Economiques pp. 110, 111 & 131. ff.
— Pernaud, Les Villes Marchands, pp. 52-56.
— Poston, The Cambridge Economic Hist., P. II pp. 99-102.
— Cioli, Hist. Economique, pp. 106, 107.
— Depping, Hist. Du Commerce, T. I. p. 74. & T. II. pp. 207, 208.

تقليدا يقرها كل بابا يلى كرسى روما الدينى . (٢)

ومنذ عهد السلطان اينال ، ومن بعده ابنه السلطان أحمد ١٤٦١ : ووفود الجهوريات الايطالية تصل الى مصر لتجديد وتدعيم مراكزها التجارية ، ومن بينها وفود جنوة التى طالما انتشر تجارها فى مدن وموانئ مصر والشام ، وكانوا قد نجحوا منذ أواخر القرن الرابع عشر فى تدعيم كيانهم التجارى ببلاد السلطنة المماليكية بسبب ماحدث لجنوة من ارتباطات سياسية ومالية أدت الى تدخل فرنسا فى شئونها الداخلية ، وزاد من مأساتها اصابتها بنكسة شديدة فى تجارتها الشرقية بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ ، ثم ضياع أملاكها وتجاريتها تماما فى امبراطورية طرابيزون على البحر الأسود التى اكتسبها السلطان محمد الثانى العثمانى عام ١٤٦١ . وقد وجهه الجنوبيون أن حياتهم مرتبطة باستئناف التجارة فى بلاد السلطان المماليكى فى ظل النظام الجديد ، فممنوا تهجم سفن أسطولهم الحربى على سواحل مصر والشام وقبرص ، ومنعوا كذلك غارات قراصنتهم ، ومع ذلك فإن هذا النشاط كان صحوة الموت بالنسبة لجنوة كجمهورية لها كيان سياسى ، وكيان اقتصادى مستقل . (٣)

(٢) هذا الازدهار العظيم الذى شهد التجارة المماليكية منذ سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ الى ظهور البرتغاليين فى المياه الهندية ١٤٩٨ ، والذي استمر قرابة نصف قرن تحت جنوده فى الربع الأول من القرن ١٦ وبالقبط حتى سقوط مصر فى أيدي ، العثمانيين ١٥١٧ وتحول التجارة تماما الى طريق رأس الرجاء الصالح ، لذا يعتبر عام ١٤٥٣ بداية النهاية للعصر الذهبي لتجارة شرق البحر المتوسط .

— فشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى القسم الثالث : ترجمة زينات الدين

ساحبة ص ٤٢٦ .

- Poston, Op. Cit., pp. 211-212.
- F. Baud, Op. Cit., pp. 61, 62 ff.
- Claret, Le Caire, T. II, p. 303.
- Dono, L'Égypte au Moyen Âge, p. 50 ff.
- Hayd, Op. Cit., T. II, pp. 469-470.
- F. Baud, Op. Cit., T. II, pp. 170, 171 & T.I, p. 81.
- V. de, Op. Cit., pp. 218-221.
- F. Baud, Op. Cit., pp. 171-172.
- Hayd, Op. Cit., pp. 469, 470.

(٣)

واستقبلت القاهرة كذلك على عهد السلطان اينال بعثة الملك لويس الحادى عشر الفرنسى للتهنئة باعتلائه السلطنة ولتجديد وتأكيد التعاون التجارى ، وقد أبلغت البعثة السلطان أن شركة جاك كير الفرنسية للتجارة الشرقية وفروعها وأملاكها فى أوروبا وشرق البحر المتوسط قد آلت الى الحكومة الفرنسية ، وطالبت البعثة السلطان باعتماد موظفى الشركة فى بلاده على وضعهم الجديد ، وتم عقد اتفاقية جديدة عام ١٤٥٦ . واستأنف وكلاء الشركة وموظفوها أعمالهم فى مصر والشام فى ظل الادارة الجديدة . ولكن أعمال المؤسسة فى نظامها الحكومى أخذت تدب اليها عوامل الانهيار والتفكك لخضوعها لقوانين حكومية فرنسية غير متطورة — ويبدو أن ازدهار الشركة وفروعها كان موقوتا ببقاء مؤسسها التاجر جاك كير فى مركزه الممتاز ببلاد ملك فرنسا وبقدرته على ادارة الشركة وبراعته فى الحصول على الامتيازات والاعفاءات من السلطات المماليكية . وكانت الشركة تعمل على نقل وتسويق المتاجر الشرقية من الاسكندرية ودمشق وبيروت الى فرنسا وسائر الدول الأوروبية . بل ان التغييرات الهامة فى تجارة فرنسا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ترجع فى المقدمة الى جهود هذا التاجر الذى خبر أحوال التجارة من خلال فترة تدرجه الطويلة على مصر والشام وقيامه بانشاء علاقات مباشرة بين فرنسا والسلطنة المماليكية وحصوله من بابا روما وملوك فرنسا وقطالونيا على امتياز احتكار أنواع معينة من السلع ، ينقلها بأسطول ضخيم على خطوط ملاحية منتظمة من قاعدة أعماله فى مونتبييه . وبلغ عدد فروع شركة جاك كير ٣٠٠ فرع توزعت ما بين دول غرب أوروبا وشرق البحر المتوسط وساندها الأنظمة المالية والمصرفية المعروفة اذ ذاك . وبلغ من شدة ثرائه أنه كان يقرض الملوك والحكومات أموالا طائلة بضمانات عينية كما حملت سفنه الى مصر والشام الأصواف والمعادن والفواكه والزيت والحرير ، وعادت بالتوابل والبحار والقطن والجواهر والعاج والعقاقير

والصبغات وريش النعام ، وكلها مما كان يلقي رواجاً كبيراً في أسواق أوروبا .^(٤)

وحتى عهد السلطان اينال كانت شركة التجارة الفرنسية جاك كير تبون أسواق قطلونيا بالسلع الشرقية بدلاً من تجار قطلونيا الذين أوقفوا أعمال تجارتهم في مصر والشام ، فلما قل نشاط الشركة الفرنسية طالبت هيئة التجار القطلانية الملك الفونسو الخامس ١٤١٦/١٤٥٨ أن يستعيد لهم مراكزهم التجارية في بلاد السلطان المماليكي ، واستجاب

(٤) معظم اتصال فرنسا التجارى مع شرق البحر المتوسط كان مع موانئها الجنوبية في تولون ومرسيليا ومونتبييه Montipiller وقد ازدهر هذا الميناء في القرن ١٥ على عهد التاجر الفرنسى جاك كير Jacques Coeur الذى اتخذها مركزاً ، لأعماله التجارية الى الشرق العربى والغرب الأوروبى ومركزاً لتجارته ومصارفه كما كان على صلة وثيقة بميناء الاسكندرية ودولة سلاطين المماليك حتى عام ١٥١٧ . ومينائها كان على استعداد دائماً لاستقبال أكبر عدد من السفن فى وقت واحد مما لا يتوافر فى كثير من موانئ فرنسا الأخرى . أما موانئ فرنسا على الاطلنطى فلم تتصل مباشرة بشرق البحر المتوسط وان ذكر أن فرنسيس الثانى دوق مقاطعة برينتانى عقد معاهدة تجارية مع السلطان قايتباى عام ١٤٧٩ سمح بموجبها لتجار هذه المقاطعة بورد الأسواق المصرية والشامية . راجع — Ziada, Op. Cit., p. 243. — Heyd, Op. Cit. pp. 713, 714. ويرجع قلة اتصال مدن غرب أوروبا بشرق البحر المتوسط مباشرة الى انتشار القراصنة الاسبانى من منطقة جبل طارق وخاصة خلال الصراع بين مسلمى الأندلس والقطلانية على عهد الملك فردناند الثانى . ففضل التجار الغربيون وصول متاجر الشرق اليهم عن طريق مدن وموانئ إيطاليا . ثم برا الى أوروبا .

— Heyd, Op. Cit., pp. 718-720. أما التاجر جاك كير فقد شغل نشاطه فترة هامة من تجارة الشرق على عهد السلطان جقمق حتى عهد السلطان اينال ١٤٣٨/١٤٥٦ وظهر فى بلاد فرنسا على عهد الملك شارل السابع الذى استدعاه وأستد الى منصب مدير دار السكة ثم اختاره رئيساً للبلاد الملكى ومنحه لقب نبيل ورفع أفراد أسرته الى مصاف النبلاء . ولم يبخل هذا التاجر بجهوده على بلاده فرفعه الى مصاف الدول العظمى التجارية حتى أصبح مواطنوه من أكثر الجاليات رعاية فى بلاد السلطان المماليكى وأصبح لفرنسا قنصلاً فى مصر . الا أن شارل السابع ما لبث أن تغير عليه عام ١٤٥٠ لاتهامه بقتل إحدى محظيات الملك ، كما اتهم ببيع الأسلحة للمماليك ، وهرب التاجر الفرنسى الى صديقه البابا ثيوقلا الخامس . وكان هذا يجهز حملة ضد العثمانيين . وعلى عهد خلفه قاد التاجر الفرنسى أسطولاً من ١٦ سفينة حربية لنجدة رودس وفى الطريق مرض وتخلف فى جزيرة خيوس Chios حيث مات عام ١٤٥٦ . راجع — Camb. Modern Hist., Vol. I p. 504. — Ziada, Op. Cit. pp. 227 & 240-243.

الملك لهذا الطلب وبدأ بسنح تهجم القراصنة القطلانيين على السفن المماليكية فى البحر المتوسط ، وأرسل البعثات الودية للقاهرة ، ومالبت تجار قطلونيا أن يظهروا فى أسواق الشام ومصر وعادوا الى وكالاتهم وفنادقهم واستأنف قناصلهم أعمالهم الرسية وحملت سفنهم السلع الشرقية والتوابل والقطن من الاسكندرية وبغروت لمصانع الغزل فى برشلونة . وهكذا يرجع لهيئة التجار القطلانية الفضل فى استئناف واستمرار العلاقات الطيبة بين ملوك قطلونيا والسلاطين المماليك . وتحفل دار المحفوظات ومكتبة الجامعة فى برشلونة بالعديد من المعاهدات والاتفاقيات التجارية وخطابات التوصية المتبادلة بين ملوك قطلونيا والمماليك ، ومن بينها مخطوطة على عهد السلطان اينال منسوبة الى تاجر برشلونى يدعى « بونس » وتحصل تاريخ ١٤٥٥ - عدد فيها التاجر السلع المتبادلة مع مصر « كالتوابل والزنجبيل والقرفة وجوزة الطيب والمسك ومواد الصباغة والنباعة والصنغ والدهون والكهرمان والحنظل والحنطة والسكر والقطن محلوفاً وغير محلوفاً والملابس والحرير والعطور والعقاقير » . وكلها من السلع الشرقية التى كانت تحتل المقام الأول فى تجارة أوروبا الخارجية . ثم قائمة أخرى بالسلع المصدرة لمصر ومنها « زيت الأندلس والعسل والصابون والجوز والسمنك والنيذ والملح البحرى والقطران وجلود الحيوانات وقشر الأشجار والصودا والزنجفر والمرجان والفواكه المجففة واللوز وأبوفروة والشمع والزعفران والأقمشة المنسوجة القطنية والصوفية والحريرية والجوخ والأطلس والمخل والخيش الناعم والخشن منسوجاً وغير منسوج والأثاث وقلوع السفن وحبالها من الكتان وكذلك المصنوعات الحديدية والقصدير والصفير والرخاص والنحاس والزئبق والكبريت وأحجار الطواحين .^(٥)

(٥) ولى الملك الفونسو الخامس الحكم فى أراجونا عام ١٤١٦ حتى نام ١٤٥٨ . وقضى أعواماً طويلاً فى فتح مملكة نابلى حتى توج ملكاً عليها وقام بنشاط اقتصادى واسع =

بالقدر اللازم للحصول على الأموال فزادوا الضرائب التي قللت من أرباح التجار ، كما أن السلطان العثماني حصن مداخل المضائق وأخضع السفن التجارية المارة بها للتفتيش الدقيق ، وتحمل البنادقة الكثير من العنت والارهاق من أعمال السلطان العثماني مما جعلهم يترحمون على الأيام التي مرت في ظل الحكم البيزنطي ويعلمون في الوقت نفسه على تأكيد وتثبيت كياناتهم في بلاد السلطان المماليكي بمصر والشام . (٦) وانهزوا فرصة انهيار الشركة الفرنسية « كير » وأرسلوا سفارة الى مصر وصلت أواخر عهد السلطان اينال ، واستمرت في مفاوضاتها خلال الفترة القصيرة التي حكم فيها ابنه السلطان أحمد وعقدت الاتفاقية عام ١٤٦١ ، تأكدت بها المعاهدات والاتفاقيات السابقة - كما زادت فترة المدة الخاصة بهم ليتمكنوا من شراء ما يلزمهم من السلع الشرقية تعويضا عن النقص من أسواق بلاد الدولة العثمانية ، وكذلك أعادوا تنظيم رحلات سفنهم التجارية القاصدة موانئ بيروت وصيدا والاسكندرية وشددوا عليها الحراسة لاتساع نطاق الحرب مع العثمانيين في المياه الاغريقية ، وأمدوا المماليك بالأخشاب والمواد الحربية متحدين بذلك التحريمات البابوية ، وجعلوا سفنا خاصة بالشام تبدأ رحلاتها في الفترة من ٨ - ٢٥ من أغسطس وتتكون كل قافلة من ثلاث سفن ، ويتردد أفرادها على مدن وموانئ الشام ، وتحمل القطن من صور وصيدا وحيفا - أما رحلة الخريف فتتجه الى الاسكندرية وتترك بسفنها فراغا لحمل سلع أخرى من ميناء بيروت قبل عودتها الى

أما تجار البندقية فكانت فترة حكم السلطان اينال بداية طيبة لزيادة نشاطهم التجاري في مصر والشام وخاصة بعد توتر العلاقات بينهم وبين العثمانيين ، فعملوا على تنمية مراكزهم التجارية وتدعيمها وتثبيت أقدامهم في بلاد السلطان المماليكي تعويضا لهم عما فقدوه من أسواق القسطنطينية ، وإن كانوا قد طبعوا في استرداد مراكزهم السابقة التي أصبحت تحت سيطرة السلطات العثمانية ، فبعد أن هدأت الأحوال الحربية عاودوا الاتصال بالسلطان محمد الثاني العثماني وأبرموا معه اتفاقية تجارية عاد بنوعيتها التجار البنادقة الى استئناف نشاطهم التجاري في مراكزهم السابقة وفي نفوسهم آمال عريضة بالمتاجرة في المورة وعلى البحر الأسود . والواقع أن الاتصال بين البنادقة والعثمانيين كان فيه كثير من التساهل بين الجانبين ، ولعب الخيال في الاتفاقية دورا كبيرا وبرهنت الأيام على صدق هذا القول ، إذ لاحظ البنادقة أن العثمانيين - سادة وشعبا - بعيدون تماما عن الحضارة والمدنية اللتين كانتا للبيزنطيين ، كما أن اهتمامهم بالتجارة كان

== المدى في حوض البحر المتوسط الشرقي والغربي وعقد معاهدات سياسية واقتصادية مع الدول الاسلامية . وكان أهم أهدافه توثيق العلاقات مع مصر بالذات كمحور ، للنشاط الاسلامي وأكبر دولة اسلامية حتى ذلك الوقت في شرق البحر المتوسط بل وفي غربه أيضا فضلا عن مركزها التجاري وموقعها الجغرافي . راجع : المجلة عدد يناير ١٩٦١ ص ٨٩ ومابعدها . بحث/الطاهر أحمد مكي عن التجارة بين مصر وقطالونيا .

وقد نقل الطاهر مكي معاهدة بين قطالونيا والسلطات المماليكية عن الأصل العربي المحفوظ بأرشيف برشلونة على عهد الملك القونسي الخامس عام ١٤١٦/١٤٥٨ والسلطان الاشرف برمباي عام ١٤٢٢/١٤٣٨ وتحمل تاريخ ٧ رمضان ٨٢٣ هـ . ومع أنها تسبق فترة البحث إلا أنها ظلت سارية المفعول . إذ أن المعاهدات كانت تتجدد كلما تغير حاكم في مصر أو في أراجونا عن طريق تبادل السفارات ويصدر بها مراسيم تؤكد المعاهدات السابقة وملاحق بالامتيازات والاعفاءات الجديدة .

راجع : المجلة : عدد سبتمبر ١٩٦٠ من ص ٤٨ - ٥٩ ، والتعليق بعدد يناير عام ١٩٦١ ص ٨٨ وما بعدها . وفي التعليق ملحق بالوثيقة جدول بالسلع المتبادلة وتذكر الوثيقة اسم الزاد وهو بونس «Bons»

Deppling, Op. Cit., T.I. p. 260.

(٦) أول المعاهدات التجارية بين السلطان محمد الثاني العثماني والبنادقة بتاريخ ١٨ ابريل عام ١٤٥٤ بعد فتح القسطنطينية (انظر الملحق رقم ١٧) وراجع كذلك شارل ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية ترجمة غريال وعزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ص ١٣٧ و ١٣٨ .

— Heyd, Op. Cit., p. 316-320.
— Hammer; Op. Cit., T. III pp. 30-64 and p. 240.
— Camb. Modern Hist. Vol. I p. 280.
— Deppling; Op. Cit., pp. 227, 228 & N. p. 341.

اينال وابنه السلطان أحمد الذي حمل البعثة لدى عودتها الى البندقية رسالة ودية لدوق البندقية وأهدى أعضائها هدايا قيمة (١١) .

ومن المدن والجمهوريات التي أسهمت في تجارة مصر والشام الخارجية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر: ييزا ، وفلورنسا . وكان لييزا مع شرق البحر المتوسط تجارة رائعة، بل انها من أولى المدن التجارية التي كان لها وكالات وفنادق في صور وصيدا ويبروت وبيت المقدس وأنطاكية واللاذقية وطرابلس والاسكندرية والقاهرة ، وتطبق في وكالاتها وفنادقها النظم السائدة في ييزا نفسها، وبقيت كذلك

= راجع :

- walter, J. Fischel, The Spice in The Mameluk Egypt Vol. I Part, II April 1068 p. 286.
— Dopp, Op. Cit., pp. 67,68, Folio 40.
— Heyd, Op. Cit., pp. 482, 483 & 463.

وبخصوص تغيير العملة بالخفض ومحاربة الزغلية مزي في النقود انظر الفصل الخامس في موضوع النقد ، وكذلك انظر :

— أبو المحاسن : حوادث الدهور ص ٢٧٨ .

(٩) كانت المتاجر الشرقية شبه احتكار في يد الكارمية حتى نقلها الى الدولة السلطان الأشرف برسباي ، وأكد السلاطين المتتابعون هذا الاحتكار حتى نهاية دولة المساليك الجراكسة ، وصار التجار الكارمية موقفين في الدولة يقومون بجلب التوابل للسلطان ليتول بماله بيعها لحسابه . (انظر نظام الاحتكار في فصل النظم التجارية) .

(١٠) قدرت كمية التوابل الشريفة بحوالى ٢١٠ أحمال . وفرض على التجار البنادقة شراء هذه الكمية بالسعر الذى يحدده السلطان . هذا غير توابل السوق الحر . انظر :

الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١٠٧ وما بعدها .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٦٨ (طبعة كاليفورنيا) .

— الحمل الاسكندراني من الفلفل يزن ٥٠٠ رطل فرفورى . انظر :

— توفيق اسكندر نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العصور الوسطى ص ٤٢ .

وانظر كذلك الفصل الخامس بعده .

(١١) كانت السلطات المالية على عهد السلطان اينال قد اتخذت بعض الاجراءات الخاصة بالامن عقب سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، ودقت في وصول التجار لمواني مصر والشام . وقد نال التجار الأجانب المستقرين فيها بعض الأضرار وبخاصة البنادقة ، حتى وصلت سفارة بندقية يرأسها Mefei Michieli وفازت السلطان اينال ثم ابنه السلطان أحمد وبقيت حتى عهد السلطان خشقدم ، وأكدت الاعفاءات السابقة وتعويض البنادقة عن الأضرار التي أصابهم وتنزيل أسعار التوابل السلطانية والحررة . راجع الخطاب بالملحق برقم (١٥) وكذلك — Depping, Op. Cit., pp. 218 ff.

البندقية . (٧) وأسهمت كثير من بيوتات البندقية التجارية وأسرها في التجارة الشرقية ، واتخذوا دمشق مركزا رئيسيا لنشاطهم ، وأقاموا بها الوكالات والفنادق والقنصليات والمصارف ، وطبقوا بها الأنظمة المالية والمصرفية المتبعة في بلادهم ومنحهم السلطان اينال تسهيلات تجارية واسعة وحريات شخصية فسح لهم بادخال البيد في فنادقهم لحاجتهم الشخصية فقط ، واعتمد قنصلهم كممثل لجمهورية البندقية والمشرق على مواثني مدة وجودهم في بلاده ، كما سح لهم أحيانا بالوصول الى القاهرة للبيع والشراء ، وأجازت الدولة استمرار التعامل بالدوكات البندقية عملة رسمية لتسهيل الأعمال التجارية مع الحكومات والأهالي . وقد تناول السلطان الدوكات بالخفض والتغيير كلما زادت احتياجاته للمال مع الاحتفاظ بقيمته الاسمية ، وكذلك للضرب على أيدي الزغلية مزي في النقود الذين زادوا في النصف الأخير من القرن الخامس عشر . (٨) وأوصت الحكومة عمالها بمراعاة مصالح البنادقة وراحة تجارهم . الا أن الطرفين اختلفا في تحديد أسعار بعض السلع ، كعود اللند ، وأخشاب الصباغة ، والسجاد ، واليورسلين ، والبلسم ، نظرا لزيادة الطلب عليها مما حدا بالسلطان اينال الى تأكيد احتكاره لها ولبعض السلع الأخرى الشرقية . (٩) فجعل سعر الحبل من توابل الذخيرة الشريفة الخاصة به والمعروفة بالسلطانية مائة دوكات، كما حدد كميات وأسعار ما يعرض منها بالسوق الحر لاجبارهم على شراء التوابل الشريفة أولا . (١٠) ومع هذا لم تضطرب العلاقات على عهد السلطان

(٧) راجع ماكتب عن نظام المدة بفصل « النظم التجارية » : سغن بيروت تحمل اسم Galce Di Baruti وسغن الشام تحمل اسم Galce Di Seria وراجع كذلك Heyd, Op. Cit. T; II p. 460, 461.

وقد تجدد شهر أغسطس بالذات لحمل القطن من الشام وشهر سبتمبر لحمله من مصر - لتوافق هذا مع مواعيد هبوب الرياح (انظر بعده الفصل الخامس) .

(٨) من هذه الأسر : أسرة Quirini وأسرة Barbarigo وأسرة Storlato

والاشوين Marco & Albano Morosini

انبعثات بين البلدين حرصت فيها السلطات العثمانية على اتخاذ تجار فلورنسا أداة لضرب البنادقة في صميم مصالحهم التجارية ، حتى انه اتخذ منهم مستشارين في بلاطه وجواسيس على تجار البندقية مسا حدا بالبنادقة الى الاتجاه بكامل ثقلهم الى بلاد السلطان المماليكى (١٤) .

وفي مصر والشام عمل الفلورنسيون على توسيع نطاق تجارتهم ، ولما حاولوا النزول في فندق بيزا بالاسكندرية بعد انضمامها لفلورنساء رفضت السلطات المماليكية ، لأن الفندق كان قد أعطى للعشانيين وأفتى قاضى الاسكندرية بعدم شرعية منحه للأجانب بعد أن آل للسليين . ولم يحصل الفلورنسيون بادية الأمر سوى ما كان ليزا من امتيازات في مصر والشام . (١٥) وبقدر ما زاد نفوذ فلورنسا في بلاد السلطان العثماني بقدر ما زاد نفوذ البندقية في بلاد السلطان المماليكى ، وراقبت فلورنسا بعين القلق ازدياد نفوذ البنادقة التجارى في مصر والشام ، وكانت تحرص دائما على ألا تتفوق أى طائفة عليها في تجارة شرق البحر المتوسط لاسيما البندقية ، فأولت تحركاتها عناية خاصة ، ولما عقد البنادقة معاهدة عام ١٤٦٠/١٤٦١ مع السلطان اينال ، ثم مع ابنه السلطان أحمد ، أسرعت فلورنسا فأوفدت سفارة للقاهرة فاوضت السلطان اينال أواخر أيام حكمه ، ثم ابنه السلطان أحمد ، للحصول على نفس الامتيازات التى نالها البنادقة مع تأكيد ماسبق أن منح ليزا وفلورنسا ، كما وصلت بعثة فلورنسية أخرى على عهد السلطان خشقدم عام ١٤٦٥ يرأسها السفير « برناردو برتولوداي كورسى » للتهنئة ولتأكيد ما لتجارها من امتيازات واعفاءات ، وأبرمت اتفاقية

— Heyd, Ibid, pp. 337-339.

— Depping, Op. Cit., p. 224.

(١٥) كان يرأس هذه البعثة Mariotto Squarcialupi وقد صار قنصلا لبلاد في الاسكندرية آنظر :

— Heyd, Op. Cit. ; T. II pp. 488, 489.

— Depping, Op. Cit., pp. 222, 223. & 230-232.

حتى انضمت الى فلورنسا ، فألت منشأتها وتجارها الى الوكالة الفلورنسية في بلاد السلطان المماليكى (١٦) . وكانت فلورنسا في فترة تكوينها السياسى قد خاضت غمار حروب عديدة في ايطاليا ، ولم تستطع منافسة الجمهوريات الايطالية التجارية ، بل انها فشلت في الاشتراك في تجارة مصر والشام بصورة فعلية واكتفت بتأجير سفن المدن الأخرى لنقل متاجرها ، وبعد انضمام بيزا لها قامت سفنها برحلتين كل عام لشرق البحر المتوسط ، ولم تلبث أن ازدهرت تجارتها في وقت بدأت فيه الجمهوريات الايطالية ذات الماضى القديم في تجارة الشرق تنهار بسبب الصراع العنيف مع القوة النامية في تركيا (١٢) . ووصلت سفنوا عام ١٤٥٣ الى الاسكندرية والى القسطنطينية ويبروت وجهدت لتكوين علاقات طيبة مع حكام المنطقة فلم تتدخل في الصراع الدموى بين العثمانيين من جانب والبيزنطيين والجمهوريات الايطالية من جانب آخر وبعد سقوط المدينة ، وفي الوقت الذى جهدت فيه البابوية لتأليب القوى المسيحية في العالم لوقف الزحف العثماني على شرق أوروبا . وصل أسطول فلورنسا التجارى الى ميناء بيزا العثماني محملا بالذهب والفضة والأصواف والصابون والزيوت ، كما استقبل بعدها حاكم فلورنسا بعثة عثمانية أكدت العلاقات الطيبة بين البلدين في الوقت الذى كانت تعلق فيه المشاقق للأوروبيين في القسطنطينية ، وتوالت

— Depping, Ibid, pp. 222 ff.

— Cioli ; Op. Cit., pp. 106, 107.

(١٦)

انظر ما كتب عن الفنادق في فصل النظم التجارية .

(١٧) توضح اتصالات فلورنسا الفعلية بشرق البحر المتوسط وخاصة مصر والشام في ١١ مايو عام ١٤٤٥ حيث حل المبعوث الفلورنسى Giovenco, Della Stufa رسائل اعتماد وتوصية لسلطان مصر . وكانت الحكومة الفلورنسية قد أصدرت أمرها الى ادارة البحرية بها لعمل الترتيبات اللازمة لارسال سفينتين موسمين الى الاسكندرية كل عام ومثلها الى موانئ غرب البحر المتوسط ، ثم زاد حجم التجارة مع شرق البحر المتوسط فقرر القيام برحلتين سنويا لموانئ يتلوها رحلة السفن الفلورنسية لغرب البحر المتوسط لا يمكن توزيع السلع الشرقية الواردة من مصر والشام - أنظر :

— Ziada, Op. Cit., p. 245.

— Clive, A Hist. of Commerce T. II p. 990.

— Heyd, Op. Cit., p. II pp. 487-488.

جديدة تضمنت نصا جديدا نالت بموجبه حق اعفاء سفنها من الرسوم الجبركية اذا حلت سلعا لبلاد أخرى ولم تفرغها في موانئ السلطان، ويعتبر هذا أول اعفاء من نوعه لتجار الجمهوريات الإيطالية في مصر والشام، وكانت السلطات المالية تفرض رسوم مرور على مثل هذه السلع (١٦).

وحين عهد السلطان اينال ظلت جزيرة قبرص محط بحريا على الطرق التجارية بين شرق وغرب البحر المتوسط، بل انها كانت تستخدم في كثير من الحالات مركزا احتياطيا تبقى فيه السفن التجارية في فترات النزاع بين الأجانب والسلطات المالية في مصر والشام، واستمرت منذ عام ١٤٥٣ تتاجر مع موانئ صور وصيدا وبيروت وطرابلس واللاذقية، ومع أن الجزيرة كانت تخضع للسلطات المالية سياسيا وحربيا وتجاريا الا أن الادارة المالية فيها كانت تخضع لبنك سان جورج الجنوى مما جعل لجنة شبه اشراف مالي على الجزيرة وبخاصة على ميناء فاما جوستا. وظل هذا الاشراف قائما حتى استطاع الملك جيس الثاني العودة الى الجزيرة بتأييد من السلطان اينال واسترد الاشراف الفعلي المالي والتجاري على الميناء (١٧).

(١٦) الملاحظ أن هذا الطلب كان جديدا على التجارة في بلاد السلطان المالىكى وقد استحدثت فلورنسا نظاما تجاريا جديدة في تجارتها مع شرق البحر المتوسط نص عليها في المعاهدات والاتفاقيات مع المالك في النصف الثاني من القرن ١٥ الى جانب الامتيازات العادية الممنوحة لسائر الجاليات التي تتاجر في بلاد السلطان المالىكى .
انظر :

- Clive, Op. Cit., p. 99.
- Ziada, Op. Cit. p. 245.
- (١٧) شارل ديل : البندقية جمهورية ارسنقراطية (مترجم) ص ١٤١ - ٢٤٢ .
- زيادة : المحاولات العربية للاستيلاء على جزيرة رودس ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .
- De Mas Latrie, Histoire De L'île De Chypre T. III pp. 34-57 & 73.
- Dopp, Op. Cit., p. 54.
- Heyd, Op. Cit., p. 407- & ff and 423-426.
- Wiet, Precis De L'Histoire D'Egypte, T. II p. 266.

أما جزيرة رودس فظلت على عهد السلطان اينال . كما كانت من قبل مصدر ازعاج للسلطات المالية للصليبية المتأصلة في نفوس حكامها من سلالة فرسان القديس يوحنا . فمارسوا القرصنة في المياه الشرقية للبحر المتوسط ، وكان لمقدمهم عمولة على الغنائم وله حق شراء ما يشاء منها بالسعر الذي يحدده (١٨) . وسلك المالك مسلك الاعتدال معهم - حماية لتجارتهم وسفنهم - وسسحوا لهم بالحج للأراضي المسيحية المقدسة بشروط معتدلة . وكان لهم أحيانا قنصل تجاريون وسياسيون مؤقتون في الاسكندرية ودمياط وموانئ الشام الهامة (١٩) . وaban أزمة العرش في قبرص على عهد السلطان اينال بين جيس الثاني وأخته شارلوت زوجة أمير سافوى، تدخل الفرسان نصائح الأميرة ضد جيس الثاني الذي يؤيده المالك . ولما فشلوا وتولى جيس الثاني حكم الجزيرة عسدا الى الانتقام فقطعوا الطرق على سفن التجارة المالية والسفن القاصدة لمصر والشام وأسروا ثلاث سفن للبندقية تحبل سلعا من الاسكندرية للمغرب ، وبلغت الخسائر حوالي ٢٤٠٠٠٠ دوكات في الأصواف فقط ، غير خسائر التوابل والسلع الأخرى ، مما أثار غضب السلطان ، فقبض على تجارهم وقنصلهم وقصادهم ومؤيديهم من التجار الأجانب ، كما هاجمت البندقية الجزيرة وهدمت منزل مقدم الفرسان ، وفكت أسر السفن وطالبت بتعويض مناسب (٢٠) .

وقد حظيت فترة حكم السلطان الأشرف قايتباي ١٤٦٨/١٤٩٦ بالنشاط السياسي والحربي والتجاري الداخلي والخارجي . ففي محاولة من الدولة المالية لتأكيد سلطانها على القبائل التركمانية على الأطراف الشمالية للدولة اصطدمت بالقوات العثمانية في مواقعها بآسيا الصغرى،

- Cambridge Medieval History Vol. IV p. 127. (١٨)
- Lane Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 338. (١٩)
- (٢٠) أبو المحاسن : التنجيم الزاهرة ج ٧ ص ٦٥١ (كالفرنيا) .

ومع أن هذه العمليات الحربية استغرقت معظم فترة حكمه فإنه أولى الشئون التجارية أهمية خاصة وعمل على تنشيطها في بلاده كمورد رئيسي للثروة ، بل أنه سهل وصول التجار الأجانب ، وأكد لهم الاعفاءات والامتيازات ليجمع أمراء وملوك أوروبا ورؤساء جمهوريات إيطاليا حوله في محاولة لوقف الخطر العثماني الذي بدأ بوضوح يهدد الأطراف الشمالية للدولة .

ففي عام ١٤٧٠ استقبل السلطان قايتباي سنير لويس الحادي عشر ملك فرنسا ، للتهنئة وتجديد الاتفاقيات التجارية السابقة وما تضمنتها من امتيازات على عهد السلاطين السابقين ، وعقدت فعلا معاهدة عام ١٤٧٣ نص فيها على معاملة تجار فرنسا في بلاد السلطان الماليكي معاملة ممتازة ، كما تنبه على عمال السلطان بعدم التشدد معهم أو التعرض لهم بالأيذاء . وجدت المعاهدة عام ١٤٨٥ بعد أن أضيف إليها ملاحق وامتيازات جديدة (٢١) كما شملت المحادثات كذلك موضوع تجارة جنوة ، فإن جماعة تجارها كهيئة مستقلة كانوا قد احتجوا فترة عن أسواق مصر والشام انشغلوا فيها بإعادة تنظيم تجارتهم في بلاد السلطان العثماني بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ (٢٢) ، وسلخوا مسئلك التعقل في معاملتهم للسلطات العثمانية رعاية لمصالحهم مما جعل السلطان العثماني يرحب بوجودهم وخاصة

(٢١) إذا كانت أسواق فرنسا قد ضعف اتصالها بتجارة الشرق الأقصى في القرن ١٤ الميلادي إلا أن القرن ١٥ م شهد احياها على وجه قوى وحلت الأسواق العامة في ليون محل الأسواق القديمة وتردد عليها الأسبان والألمان والبرتغاليون والإيطاليون والمغاربة وفي عام ١٤٦٨ قرر الملك لويس الحادي عشر أن تقتصر التجارة في التوابل الشرقية على التجار المحليين وتولت هذه المهمة نقابة التجار الفرنسيين ومع ذلك عقدت معاهدة عام ١٤٧٨ أتاححت لتجار البندقية ممارسة التجارة ثانية مع مدن فرنسا .

— Heyd, Op. Cit. pp. 717-718.
— Cambridge Modern History, Vol. I. pp. 68-69.

في ميناء بيزا دون سائر طوائف التجار الأجانب وخاصة لخبرتهم مع آقاليم شرق الامبراطورية في طرايزون وعلى البحر الأسود (٢٣) . ولكن منذ ان وجه السلطان محمد الثاني العثماني عام ١٤٦٠ جهودا الحربية نحو الشرق لاختضاع ما بقي من جيوب تركمانية ومغولية وأوربية مستوطنة على البحر الاسود شعر تجار جنوة - وكانوا أكبر الجاليات عددا في المنطقة - أن الفترة الزاهية التي عاشوها قاربت الانتهاء فلم ينتظروا النهاية المحتومة وأسرعوا بإنهاء أعمالهم المالية والتجارية . وسلبوا أموال العجماء المتأخرة عليهم الى فرع بنك سان جورج بميناء كافا ، واتجهوا الى بلاد السلطنة الماليةكية لتجديد وتأكيدهم مركزهم وتجارتهم في مدن وموانئ مصر والشام (٢٤) إلا أن العلاقات الودية بينهم وبين المالكي كان قد أصابها القصور بسبب أعمال القرصنة التي يقوم بها بحارتهم في مياه قبرص وشرق البحر المتوسط عامة ضد سفن المالكي والسفن الحاملة لسلعهم ، كما أنهم كانوا لا يسلكون التحدث باسم مدينتهم منذ انضمت الى فرنسا في أواخر القرن الرابع عشر ، وانتزح الجنويون فرصة ترحيب السلطان الأشرف قايتباي بالتجار الأجانب وطالبوا الملك لويس الحادي عشر ملك فرنسا بالتوسط لهم لدى السلطان قايتباي ليمنحهم حق استئناف التجارة في موانئ ومدن بلاده ، وشملت المحادثات الفرنسية الماليةكية عام ١٤٧٣ هذا الموضوع ، وأبدى السلطان قايتباي شعورا طيبا نحوهم ، ولم يثر موضوع تهجينهم

(٢٣) سلم الجنويون حصونهم في جلايا للسلطان محمد الثاني العثماني لدى تقدمه للقسطنطينية فمنحهم امان وحرية التجارة . انظر :

— Heyd, Op. Cit., pp. 311-315.
— Depping, Op. Cit. p. 224.
— Gayet, Histoire Du Commerce, T. II. p. 314.
— Poston, Op. Cit., pp. 353 & ff.
— Pernaud, Op. Cit., pp. 69-70.

(٢٤) وصل فعلا عدد من تجار جنوة النازحين من موانئ البحر الاسود الى مصر والشام . انظر :

— Depping, Op. Cit., p. 222.
— Hammer, Op. Cit. pp. 70-71.
— Camb. Medieval Hist. Vol. I. p. 780.

البنادقة بدفع عشرة آلاف دوكات سنويا نظير اشرافهم على الحكم والتجارة في بعض الجزر اليونانية . والتي آلت للعشانيين . ومثل هذا ايضا لحرية تجارتهم في أثينا وجزر الأرخبيل وخفف قيود التفتيش على سفنهم المارة بالمضايق للبحر الأسود . وفي عام ١٤٨٢ اضيفت الى المعاهدة ملاحق باعفاءات جبركية جديدة^(٢٧) . ومع هذا لم تعد تجارة البندقية الى ما كانت عليه وبدأت بيوتاتهم التجارية ووكالاتهم ومصارفهم تغلق أبوابها لقلّة ايراداتها ، وقل وصول سفنهم الى الموانئ العشانية ، وأنهى مستغلو مناجم الشب أعمالهم وعادوا الى بلادهم^(٢٨) . واتجه كثير من التجار الى مصر والشام حيث كانوا يلاقون ترحيبا ورعاية أكثر لتجارهم ومصارفهم بموجب المعاهدات والاتفاقيات المبرمة مع السلاطين . وكان وصول أعدادهم الكثيرة هذه المرة على عهد السلطان قايتباي في فترة تأزمت فيها الأمور بين المماليك والعشانيين ، ونشبت بينهما حروب دامية على الأطراف الشمالية ، مما أدى الى زيادة ثقلات الدولة وبرزت حاجة السلطان الملحة ل المال . فأصدر عام ١٤٨٠ قرارا بتأكيد احتكار التجارة في بعض أنواع المتاجر الشرقية وخاصة في التوابل المعروفة بالشريفة أو السلطانية ، وجعل سعر الحمل منها ١١٠ دوكات بندقى . وطرحها في فترة (المدة) للبيع ، وفي نفس الوقت أطلق حرية البيع والشراء في كميات أخرى من التوابل في السوق الحرة طول العام بسعر لا يزيد على ٥٠ دوكا ، وحتم على هيئة التجار الأجانب شراء كل ما بالسوق من التوابل الشريفة أولا وبالسعر الذى حدده ، مما أدى

(٢٧) قدرت البندقية وهى تدفع للسلطان ١٠٠٠٠٠ دوك تمويض - ان ايراداتها من تجارة البلوبونيز لا تقل سنويا عن ٣٠٠٠٠٠ دوك . راجع :
— Hammer, Op. Cit., p. 51. & pp. 117, 118.
— Heyd, Op. Cit., p. 327 ;
(٢٨) كان السلطان محمد الثانى العثماني قد منح البنادقة حق الحصول على الشب من مناجم Phocœ وحق احتكار صناعة الصابون واستغلال مناجم النحاس . والاشرف على دار سك العملة . راجع :
— Hammer, Op. Cit., p. 240.
دليل : البندقية جمهورية أرستقراطية (مترجم) ص ١٧٧ .

على قبرص وعلى سفنه التجارية وأعمال قراصنتهم فى شرق البحر المتوسط ورحب بسندوبيهم لاستئناف أعمالهم التجارية فى بلاده . وبعد مقاضات ناجحة استأنف تجار جنوة أعمالهم التجارية فى مصر والشام عام ١٤٧٤ ، وفتحت الوكالة الجنوبية أبوابها وأعيدت لهم فنادقهم بالاسكندرية وبيروت ودمشق واعتسدت السلطات قناصلهم كممثلين لهم ولتجارهم^(٢٩) .

أما البنادقة فمع ما نالوه من امتيازات لم تنح للكثير من التجار الأجانب فى بلاد السلطنة المماليكية ، فانهم كانوا يحنون الى أسواقهم القديمة فى القسطنطينية وعلى البحر الأسود ، فأعادوا الاتصال بالسلطات العشانية ونجحوا فى عقد اتفاقية استأنفوا بسوجبها تجارتهم فى المراكز التى حددت لهم والتى سمح لتجارهم بارتياحها . وقبلت البندقية شرط السلطان العثماني بتحديد عدد ما يسدر من الرقيق لمصر حتى لا تزداد قوة المماليك ، واطلاق سراح المسلمين منهم ، كما نال العشانيون امتيازات مماثلة لرعاياهم وتجارهم فى البندقية^(٣٠) . الا أن السلطات العثمانية كانت تخشى زيادة نفوذ البنادقة فى بلادها وتفوقهم البحرى فى البحر المتوسط ، فلم تلبث أن اتخذت اجراءات معينة ضد تجار ورعايا البندقية اتسمت أحيانا بالعنف والشدة ، ولم يراع فيها تنفيذ الاتفاقيات التجارية المبرمة بين الطرفين . ومع حرص البنادقة على عدم الدخول فى صراع مباشر أو غير مباشر مع العثمانيين وتوطين النفس على تقبل الكثير من عنيتهم ، فإن الحرب ما لبثت أن نشبت بين الطرفين فى البلوبونيز واستمرت حتى عام ١٤٧٩ . وفى اتفاقية الصلح تعهد

(٢٩) Pernaud, Op. Cit., pp. 39, 40.
— Heyd, Op. Cit., pp. 469, 470, & 490, 491.
— Thenaud, Voyage D'Outre Mer p. 270.
— Von Harff, The Pilgrimage Of... p. 95.
— Breydenbach, Les Saints pp. 67, 68.
(٣٠) بالملحق رقم ١٧ ملخص لمشروع المعاهدة بين البنادقة والسلطان العثماني بعد فتح القسطنطينية وهى بتاريخ ١٤ من ابريل ١٤٥٤ . راجع :
— Denping, Op. Cit., pp. 227, 228.
— Heyd, Op. Cit., pp. 316, 317 & N. p. 341.

الوقت تكررت شكاوى السلطات المالية والتجار المصريين من غش البنادقة للسادن النفيسة ، كالذهب والفضة ، التي تصل الى الاسكندرية وكذلك تكررت الشكاوى من غش الأقمشة وخاصة المخمل والجوخ . (٣٢) وفي الشام برزت عدة مشاكل محلية تتعلق بسرور التجارة من مواهبها الى مدنها الداخلية ، فالبنادقة يدفعون رسوما معينة للسلطات المحلية على مرور متاجرهم من ميناء بيروت ، ويحصل نائب دمشق على جزء من هذه الرسوم ، ويحدث مثل ذلك في طرابلس ونيابة حلب ، وسلطات كل ميناء تحرم التعامل مع السفن التي تفرغ حمولتها في الميناء الآخر ، ففي عام ١٤٧٣ أنزل قنصل البندقية في دمشق حيلة من الأصواف والأقمشة في ميناء طرابلس ، فغضب أمير بيروت ونائب دمشق لهذا التصرف . وحبس حاكم دمشق عددا من تجار البندقية ولم يطلق سراحهم الا بعد زيارة سفير بندقى خاص للسلطان قايتباي في القاهرة وصدور تعليمات السلطان بسنغ التعرض للتجار البنادقة بالأيذاء والافراج

== يحض السلطان على التنبيه بمراعاة عربلة الدوابل وقد وصل وفد هيئة التجار الألمان الى البندقية وشكوا من عدم نقائها . وقال القنصل كذلك انه طلب من السلطان إعطاء حق فحص التوابل ومراعاة عربلتها بغرايل معينة .

Thenaud, Op. Cit., pp. XXXI & ff. أنظر بعده ملاحظة (٥٣) وكذلك الملحق رقم (١٠) . (٣٢) ذكر السلطان في رسالته السابقة لدوق البندقية ١٠٠ ان الذهب والفضة المرسلة لاسكندرية معظمها مغشوش حتى ان المائة درهم من الفضة اذا صفت ام توابل صفت درهما وغالبها من النحاس . أما القماش الذي يصل لايوانا الشريفة من المخمل فقال له مغشوش أيضا . وجرت العادة ان تكون كل قطعة من الجوخ ٥٥ ذراعا ، ولكن ما يصل اليها لا تزيد القطعة في مجموعها سوى ٣٠ ذراعا ، وفيها ماعز مقلوع من السطع مما يشتر من تجارنا . ١٠٠ وتمجينا كل العجب من هذه الأمور وكونه يتفق من تجار حضرة الدوق . ولا يتقابل المعتمد لذلك ، لما يليق به من تعنيف وتاديب ، وقد سلمنا حضرة الدوق بذلك ليصير على خاطره . ١٠٠ راجع نص الرسالة بالملحق رقم ٢ . وكذلك : Heyd, Op. Cit., p. 493.

أما بخصوص غش العملة والسادن النفيسة كالذهب والفضة ، فإن الغش لم يذهب على العملة المحلية فقط ، بل ردت للتجارة عامة من البندقية على يد السلطان قايتباي مغشوشة مما أثار الجدل حولها في رسالة قايتباي للدوق . أنظر الملحق رقم (٤) ثم أنظر بعده الفصل الخامس من غش العملة المالية والمعملة الواردة من البندقية .

الى تآزم الأمور بينه وبين التجار الأجانب . ولما رفض البنادقة الشراء بهذا السعر حبسهم السلطان في فندقهم يومين ، ثم أمر بجرهم الى الجدارك وعدم اطلاق سراحهم الا بعد دفع ١٠٠ دوك للحمل الواحد . ويذكر أحد الحجاج الألمان أنه شاهد بنفسه هذه الاجراءات ضد البنادقة ، وأنه شاركهم مصيرهم . وذكر له التجار أنهم يلاقون نفس المعاملة كل عام ، ويضطر القنصل وهيئة التجار في نهاية الأمر الى دفع ما يطلبه السلطان (٢٩) . وكانت تتكرر هذه الحوادث كل عام تقريبا . ففي عام ١٤٩١ وصل السلطان قايتباي الى الاسكندرية وأرسل بعض تجار البندقية الى القاهرة ووضعهم في سجونها لكي يجبر هيئة التجار على شراء التوابل الشريفة بالسعر الذي سبق تحديده ، ورفض البنادقة ثانيا أن يدفعوا أكثر من ٨٠ دوكا للحمل الواحد . وذكروا أن هذا السعر يكلفهم سنويا حوالي ٣٠٠٠٠ دوك زيادة على ما يشترونه من توابل السوق الحرة . وبعد مفاوضات طويلة وافق السلطان على ألا يقل السعر عن ٨٠ دوكا وأصبح هذا السعر رسميا وينص عليه في المعاهدات (٣٠) . ولم تكن أسعار التوابل وحدها هي مصدر شكوى البنادقة انما ترددت الشكاوى من رداءة التوابل وغشها . وفي رسالة من السلطان قايتباي لدوق البندقية أظهر السلطان اهتمامه البالغ بنقاء التوابل ونبه على عماله بمراعاة ذلك (٣١) . وفي نفس

(٢٩) هو الألماني Tucher من مدينة نورمبرج قضى أياما في فندق البنادقة الكبير بالاسكندرية وهو في طريقه الى بلاده بعد الحج الى بيت المقدس وسألت كاترين راجع : Heyd, Op. Cit., pp. 491-493. — Heyd, Op. Cit., p. 493.

(٣٠) في رسالة من السلطان الأشرف قايتباي لدوق البندقية بتاريخ ١٠ شعبان ٨٧٧ هـ / ١٤٨٢ م ذكر السلطان ١٠٠ ورسمنا أيضا بان قلقل ذخيرتنا الشريفة الذي يعطى لهم (البنادقة) يكون سالما من التراب والليل والخلط وكل ذلك لأجل خاطر حضرة الدوق ١٠٠ من مجموعة الأستاذ توفيق إسكندر ونص الكتاب بالملحق رقم ١٦ وراجع : Heyd, Ibid, p. 494.

— قابل الرحالة Thenaud في أثناء وجوده بالقاهرة قنصل البنادقة الذي أخبره انه حضر بناء على توصية من العملاء الألمان الدائمين في تجارة التوابل بطريق البندقية لكي

عن سجن منهم^(٣٢) . وفي فترة الاضطراب والتشاحن حول منصب السلطنة التي أعقبت وفاة السلطان الأشرف قايتباي عام ١٤٩٦ ، حتى تولى السلطان قانصوه الغوري السلطنة وعام ١٥٠١م أعلن الأمير قسروه نائب الشام نفسه سلطانا على الشام واتخذ لقب الملك العادل ثم أصبح فيما بعد أتابكا للعسكر حتى اغتاله السلطان طومانباي الأول . وفي فترة حكمه على الشام وصلت عام ١٤٩٩ بعض السفن من البندقية الى طرابلس ، وأنزل بها سلعا بلغت رسوم جبارتها فقط ١٠٠.٠٠٠ دوك وكان قسروه ينتظر وصولها الى بيروت فأسرع بالقبض على التجار البنادقة في امارته وفرض عليهم غرامات ضخمة وازت قيمة الرسوم الضائعة وسجن سبعة منهم . وكان هذا الموقف وموقف السلطات العثمانية من البنادقة قد وجه نظرهم للبحث عن مركز مأمون لهم ولتجارتهم في منطقة شرق البحر المتوسط . ووجدوا أخيرا ضالتهم في جزيرة قبرص التي تصلح لتكون محطة لقوافل تجارتهم الى الشام ومصر وبلاد السلطان العثماني ، وكان الملك جيس الثاني الذي عاونه المساليك عام ١٤٦٠ على الانفراد بالحكم في الجزيرة قد خاض غمار حروب عديدة ضد منافسته شارلوت حتى استطاع الانتصار وأتبع جيس هذا النصر بالتخلص من الحامية المساليكية التي أعانتها للوصول للغرض ، ولو أنه لم ينكر التبعية والجزية لمصر ، وكانت البندقية وراء كل هذه الأعمال ، كما أنها ساعدته على توحيد ما بقي من الجزيرة في أيدي الجنوبيين ، وبخاصة فاجوستا^(٣٤) . مما أتاح لها الفرصة لنشر نفوذها التجاري ، وبخاصة أن زيادة التقارب بين جيس الثاني والبندقية

(٣٣) القنصل هو Giovanni Piriuli

— Heyd, Op. Cit., p. 496.

راجع كذلك :

(٣٤) محمد مصطفى زيادة وزميله . المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس

(مترجم) - مجلة الجيش ١٩٤٦ ص ٢٠٣ .

سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٢٦ .

— Lane Poole, Op. Cit. p. 338.

اقترن بزواجه من سيدة من البندقية هي « كاترين كورنارو » عام ١٤٧٢ ، وأصبحت هذه المصاهرة مصدر ثراء عظيم للبندقية وقد زاد نفوذ البندقية بعد موت جيس الثاني عام ١٤٧٣ ثم ابنه الصغير من بعده . فأضحت كاترينا البندقية الأصل صاحبة السلطة ومن ورائها حكومة الدوج تحكم فعلا وبأسها مدة خمسة عشر عاما . وتدخل البنادقة بصورة واضحة في شئون الجزيرة الداخلية والخارجية . مما جعل السلطان قايتباي يبدى عدم ارتياحه لهذا التصرف خلال استقباله لقنصل البندقية وتجارها عام ١٤٧٧^(٣٥) . وزاد من تأزم الأمور تأخر الملكة عدة مرات في ارسال الجزية السنوية لمصر بعد وفاة زوجها ، حتى ان السلطان فكر في حملة يسترد بها السلطة كاملة في الجزيرة^(٣٦) . وانتهزت البندقية الفرصة وفاوضت الملكة في التنازل عن حكم الجزيرة للبندقية . وتم ذلك فعلا عام ١٤٨٩ . وغادرت كاترينا الجزيرة الى البندقية وبقيت بها حتى ماتت عام ١٥١٠ . وأسرت البندقية بارسال الجزية بانتظام مع مبعوث للسلطان قايتباي ، وأوضحت له أن هذا التصرف في حكم الجزيرة شكلي ولا يمس سيادة السلطان على الجزيرة بشيء ، وانها فعلت ذلك لضمان وصول الجزية في مواعيدها . وبعد تبادل المزيد من الرسائل والعديد من المبعوثين عقدت البندقية اتفاقية مع السلطان قايتباي في ١٩ من مارس ١٤٩٠ أقر فيها السلطان اشراف البندقية على حكم الجزيرة محل الملكة كاترينا كورنارو ، وقد نبه السلطان البنادقة بمراعاة حقوق

(٣٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٤٧ .

— Heyd, Op. Cit. p. 423.

— Mas Latris, Op. Cit. p. 391 & R. 3. and pp. 405, 406. T. II and T. III p. 176.

(٣٦) ارسل السلطان قايتباي للملكة كاترين كورنارو عام ١٤٧٧ براءة اعتراف بها

ملكة على قبرص بعد أن ارسلت متأخر الجزية .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٥ .

— Lane Poole, Op. Cit. p. 337.

ومصالح الأهالي ومعاملتهم معاملة طيبة (٣٧) . ومنذ ذلك الوقت والبندقية تحاول أن تجعل من ميناء فجاجوستا مركزا ثابتا لتجارتها وتجارة شرق البحر المتوسط عامة ومستودعا لمتاجرها ومحطا لسفنها بالإضافة الى مراكزها في الشام ومصر وبلاد السلطان العثماني .

ومن الجاليات الأجنبية التي حرص السلطان قايتباي على التعامل معها ، هيئة تجار فلورنسا للسعة الطيبة التي تمتعوا بها منذ عهد السلطانين اينال وخشقدم ، واستغلت فلورنسا هذه الثقة وعملت على ألا تتفوق عليها أى طائفة من التجار في بلاد السلطان المماليكي ، وعلى الأخص البنادقة لما بينهما من تنافس شديد في مجال التجارة الشرقية ، فكلما حصل تجار البندقية على امتياز جديد ، أو عقدوا اتفاقيات جديدة ، أو وصلت سفارة لهم للقاهرة ، أسرع فلورنسا بارسال سفارة لبلاد السلطان لاضافة امتيازات جديدة حتى أصبح وصول سفاراتهم للقاهرة دوريا كل عام . وفي عام ١٤٨١ ، استقبل السلطان

(٣٧) نشر الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وثائق تنازل السلطان قايتباي عن الجزيرة لحكومة البندقية والخطابات المتبادلة والاتفاقية وذلك في الجزء الأول من سلسلة وثائق مصر من محفوظات البندقية ١٩٥٦ نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥٦ . - خلال وجود الرحالة فيلكس فابري بالقاهرة (١٤٨٠/١٤٨٣) وصل اليها ابن ملك نابلي طالبا مساعدة السلطان قايتباي في زواجه من ملكة قبرص الأرملة . وشعر البنادقة بخطر الموقف فأسرعوا بالاستيلاء على الجزيرة وحصلوا على تنازل من الملكة وموافقة السلطان مع ملكية الجزيرة لمصر ويحكمها البنادقة باسم السلطان وتنظيم وصول الجزية السنوية : راجع : —

Thenaud, Voyage D'Outre Mer, p. XXXII. وكان قصد ملك نابلي من زواج ابنته من الملكة الأرملة أن يضع يده على الجزيرة ، وكان يستند في ذلك الى صداقته للسلطان قايتباي الذي كان يستخدم سفن نابلي في رحلاته ، جنوده أحيانا الى قبرص : راجع : —

Thenaud, Ibid, p. XXXIII. كما انه خلال الصراع بين مملكة غرناطة وفردناند أرسل قايتباي راهبا من دير جبل سهون ملك نابلي هذا ليتصل بفردناند ليكف يده عن آذى المسلمين : راجع : — Mas Latrie, Op. Cit., T. III p. 828.

سعيد عاشور قبرص والحروب الصليبية ص ١٢٦ .
ابن اياس : دلائع الزهور ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٥ .

قايتباي سفارة فلورنسية لعقد اتفاقية بطلبات جديدة بعد أن شعر الفلورنسيون بالتقارب بين المماليك والبنادقة . وقد رجب السلطان قايتباي بالسفير والبعثة وأبدى استعدادا لعقد الاتفاقية المطلوبة في نطاق خطته الرامية الى كسب أمراء العالم المسيحي في صفه في معاهدات ودية ضد السلطان بايزيد الثاني العثماني بسبب النزاع بينهما على الأطراف الشمالية للدولة ، ولحاجته الملحة للسل . وقد منح الفلورنسيين أقصى امتيازات نالها تجار آجانب ، ولكن الموت عاجل السفير الفلورنسي وهو بالقاهرة فأرسل قايتباي عام ١٤٨٧ مبعوثه « خواجه محمد بن محفوظ المغربي » يرافقه ترجسان صقلي ومعه هدايا لحاكم فلورنسا من أسود وغزلان ومجوهرات . وأبرم المعاهدة بجميع طلباتهم وحصلت المعاهدة تاريخ ١٤٨٨ . وكان لهذا التقارب بين الفلورنسيين والمماليك أثره السيء لدى السلطان العثماني ، ولم تكده تشعر فلورنسا بذلك حتى أسرع بارسال سفيرها الى القسطنطينية ليؤكد صداقتها وودها وليوضح للسلطان أن وجود السفير المماليكي في فلورنسا لا يعجل في طياته عداء للقسطنطينية بقدر ما هو اجراء اقتصادي اقتضته ظروف التجارة مع مصر والشام . ومن بين الامتيازات التي تضمنتها المعاهدة ، نصوصا باعتبار عقود البيع المبرمة بين الفلورنسيين والتجار الوطنيين نهائية وملزمة للطرفين وفي حالة المفاضلة لا يحق للتاجر الوطني مطالبة التاجر الفلورنسي بشن السلعة نقدا وبخاصة بعد الاستلام ، كما أقر السلطان نظام الحساب الجارى في الجمارك وحق لجوء سفنهم الى الموانئ المماليكية وقت العواصف للإصلاح . وشملت الاتفاقية كذلك بعض الحقوق المدنية فنظمت لهم مسألة التوريث في حالة وفاة أحد تجارهم في بلاد السلطان المماليكي ، ومنع غش التوابل ، وحق وصول رعاياهم للقاهرة لاستئناف القضايا أمام السلطان نفسه وتسهيل العيش لهم خلال اقامتهم في بلاده . ويبدو أن الشكوى كانت عامة من كثرة الغش في التوابل بقصد الاثراء ، فكما اشتكى البنادقة من رداءة التوابل

وغشها ردد الفلورنسيون نفس الشكوى . وقد أوصى السلطان أمير الاسكندرية بسراقة التجار والحمالين والضرب على أيدي من يغش منهم التوابل . وحتى عام ١٤٨٨ عمل الفلورنسيون في بلاد السلطان المالكي معاملة التجار الأجانب الأكثر رعاية ، وعقدوا ملحقا للمعاهدة السابقة تقرر فيه أن يكون البيع أمام شهود وتغلى مسئولية البائع فور توقيع العقد بين الطرفين بشهادة الشهود ، ومنع السلطان تكرار تحصيل الرسوم الجمركية والسسرة في حالة تغيير موظفي الحكومة أو الجسرء وأقر كذلك تداول الفترتي ، عسلتهم الذهبية في مصر والشام (٣٨) . ولم ينصرم عام ١٤٨٨ حتى وصلت سفارة فلورنسية أخرى لتحية السلطان وشكره على رعايته لتجار فلورنسا وعلى هداياه للحاكم ولم تغادر البلاد قبل أن تبرم اتفاقية جديدة نالت فيها حق توسيع تجارتها في مصر والشام لأقصى طاقتها ، كما أرفقت تعليمات

(٣٨) راس هذه السفارة الفلورنسي Paoloda Colle وكان وصوله للقاهرة في نوفمبر ١٤٨١ - راجع :

— Heyd, Op. Cit., p. 361.
— Amari, I Diplomi Arabi p. 361.

والمبعوث المصري خواجه محمد بن محفوظ المغربي - ذكره هايد خطأ باسم Malfot — Malfota — Elmalfet — Mazamat.

راجع : Heyd, Ibid, p. 489.

يذكر ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٥ (بولاق) في حوادث ذي الحجة ٨٨٣ هـ . (فبراير ١٤٧٩) أن ابن محفوظ هذا زار فلورنسا عدة مرات وكان آخرها عام ٨٨٣ هـ . راجع كذلك :

— Ziada, Op. Cit., p. 246.
— Heyd, Op. Cit., p. 489.

أما المعاهدة التي أبرمها المبعوث المالكي بتاريخ ١٤٨٨ على عهد لورنزو ميديشي صدرها . . مرسوم بشأن الامتيازات التجارية الممنوحة لطائفة الفرنتيني في مصر وسوريا بناء على طلب جمهورية فلورنسا ورئيسها الافخم لورنزو ميديشي والمقدمة بواسطة التجار لمنهم امتيازات مثل ما للبنادقة في بلادنا . ثم تعليمات لرعاة هذا لرجال السلطان . انظر الملحق برقم ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢١ - ٢٢ . وراجع :

— Amari, Op. Cit., pp. 363-369-371.

راجع الحائسة السابقة برقم ٣١ . ٣٢ عن غش التوابل والعملات والجوخ .

لرجال الادارة المالكية في مناطق التجارة الجديدة برعايتهم وعدم التعرض لهم بسوء (٣٩) .

وفي عام ١٤٩٦ وصلت بعثة فلورنسية جديدة عقدت اتفاقية أكدت فيها ما سبق من امتيازات وما حصل عليه غيرهم وزيدت بنودا تعطي صورة حقيقية لنظام التجارة في مصر المالكية حتى أواخر القرن الخامس عشر . ومن هذه النصوص اعتبار استلام البائع عربونا لبضاعته عقدا ابتداءيا غير قابل للرجوع فيه ، كما لا يحق لأحد الطرفين رد البضاعة أو المطالبة برد ثمنها بعد استلامها ، وفي حالة عدم بيع التاجر العربي ما اشتراه من الفلورنسي فلا يحق له رد البضاعة ولا مطالبة الفلورنسي بشئها ثانيا وأقر لهم السلطان استمرار العمل بنظام الحساب الجاري في الجمارك وتسجيله في دفاتر خاصة تبقى لحين عودتهم في المرة التالية . وفي حالة استئناف القضايا اشترط وجود طرفي النزاع دون توكيل عنهما مع حضورهما للقاهرة أمام السلطان نفسه . كما تنبه على الخاصكي السلطاني والبريدي تسهيل وصول أصحاب القضايا المستأنفة للقاهرة وأن يكونوا في حمايتهم في الحل والترحال . وحصلوا على حق الإقامة في فندق خاص بهم ووصول تجارهم في أى وقت من السنة وفي غير مواعيد المدة المقررة لهم . وتضمنت كذلك عدم تحصيل مواجهات زائدة أو أسعار أزيد من السعر السائد بالسوق . وأرفق بالمعاهدة خطابان أحدهما موجه الى السلطان من حاكم فلورنسا

(٣٩) السفير هو Luigi Della Stufa والمعاهدة بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ٨٩٤ هـ . ١٨ نوفمبر ١٤٨٩ م ومنشورة بالملحق رقم ٢١ ، راجع :

— Amari, Op. Cit., pp. 181 ff.

وبالملحق كذلك نص الرسالة والتكليف من السناتور للسفير الفلورنسي «سنوفا» بتاريخ ١٠ من نوفمبر ١٤٨٨ ليسانر الى ليشكر السلطان على هداياه ورعايته لفلورنسا وتجارها في بلاده . وتعليمات أخرى . بالملحق رقم ٢٠ وراجع كذلك :

— Amari, Ibid, pp. 372, 373.

بالملحق كذلك رقم ٢٢ ملخص للمعاهدة عن :

— Depping, Op. Cit., pp. 480.

— Heyd, Op. Cit., pp. 237, 238.

القطالونيين لم يطلقوا سراح البحارة والتجار العرب الا بعد أن دفعوا فدية ضخمة . ولدى وصولهم للاسكندرية أطلق السلطان سراح الأجانب المحتجزين بعد أن حصل منهم على مقابل ما دفعه المصريون من فدية للقطالونيين . وعاد التجار الأجانب الى سابق عملهم بعد أن أبعدت السلطات المصرية تجار قطلونيا عن مصر والشام وأوقف التعامل معهم ، ونهج كذلك تجار الجاليات الأجنبية نفس المنهج فقاطعوا تجار قطلونيا وسفنها والسفن التي تحمل أعلامها وطاردوا قراصنتهم في البحر . (٤١) وفشل القطالونيون في إعادة العلاقات الودية مع المماليك، بل أن اصرار الملك فردناند الخامس الكاثوليكي ملك أراجونا وزوج ايزابلا ملكة قشتالة على إنهاء الحكم الاسلامي في الأندلس ، وبالأخص موقعه من امارة غرناطة الاسلامية ، زاد من هوة الخلاف بين السلطان قايتباي والقطالنة بصورة عامة . ووصل عام ١٤٨٧ الى القاهرة مبعوث الأمير ابي عبد الله محمد صاحب غرناطة وطلب من السلطان قايتباي عوناً عسكرياً لمواجهة هجمات الملك فردناند على امارته المنكشحة . ومع أن السلطان كان يدرك تماماً مدى النتائج الخطيرة التي تترتب على

بالسح لتفصل الجمهورية بالاقامة بصفة مستمرة بالاسكندرية لمباشرة مصالح مواطنيه ، والآخر لمدوب السلطان الخاصكي « الشسي بن محفوظ » للسفر لفلورنسا بهذا الخطاب ومعه الهدايا اللازمة للدوق وخطاب ثالث لعمال السلطان في موانئ مصر والاسكندرية بمراعاة مصالحهم (٤٢) .

ومع أن العلاقات بين السلطان قايتباي والتجار الأجانب من كافة القوافل ظلت طيبة كما كانت على عهد أسلافه ، فانها لم تعد كذلك مع القطالنة بالرغم مما تستعت به طائفتهم من رعاية على عهد السلاطين اينال وأحمد وخشقدم ، فقد بدأت العلاقات تتوتر بسبب خطف قراصنتهم لبعض البحارة المسلمين عام ١٤٧٠ من السواحل المصرية ومن بين المخطوفين بعض أعيان التجار وكلاء السلطان التجاريين . ولم يكن السلطان قايتباي بالرجل الذي يترك هذا الحادث يمر دون اجراء حاسم يرد للسواطين التجار حقوقهم ويحفظ سمعته وسمعة بلاده ، فأصدر أوامره باعتقال كل التجار الأجانب بالشعر وزج بهم في سجون القاهرة ، وأبلغ قناصلهم أن حريتهم مرهونة بإعادة المخطوفين بواسطة قراصنة القطالنة وبدون فدية مع دفع تعويض مناسب ، وأوفد التجار مندوبين عنهم لحكوماتهم للسعى لدى أمير قطلونيا لاطلاق سراح البحارة والتجار العرب المخطوفين حتى يسترد الأجانب في بلاد السلطان حريتهم . ومع أن الجيوش التي بذلت كانت تكنى لأن يراجع القطالونيون خطيئتهم العداينة التي كانوا يرمون من ورائها منع المماليك من مساعدة أمير غرناطة الذي دأب على طلب العون من السلطان المماليكي ، الا ان

(٤١) ابن اياس بدائع الزهور ج ٢ ص ١٤٦/١٦٦/١٦٦/١٨٥ (بلاق)
— Ziada, Op. Cit., p. 244, 245.

ذكر ابن اياس هذه الحادثة في حوادث رمضان ٨٨٠ هـ وحوادث المحرم ٨٨١ هـ :
« فقد جاءت الأخبار بأن بعض الفرنج قد احتال على تجار الاسكندرية حتى أسرمهم وكان منهم تجار السلطان نفسه وهم : ابن عليبة يعقوب ، وعلى الكيزاني ، وعلى التمرادي . فلما أسرمهم الفرنجة خرجوا بهم من الاسكندرية في الوقت والساعة وتوجهوا بهم الى بلاد الفرنجة فاضطربت الحال في الاسكندرية وكادت أن تخرج — فلما كاتبوا السلطان بذلك تأثر لهذا الخبر وعين للوقت خاصكيا من خواصه يقال له « قيث الساقى » الذي تولى ولاية القاهرة فيما بعد — وكتب معه مراسيم شريفة لثائب الاسكندرية بالقبض على جميع تجار الفرنجة بالشعر ، فلما توجه قيث الساقى الى هناك قبض على التجار من الساحل كله وضيق عليهم وأودعهم الحديد وألزمهم بأن يكتبوا ملوك الفرنج بما جرى عليهم من السلطان سبب التجار . وقد قام السلطان في هذا الحادث قباماً تاماً وآخر الأمر اشترى التجار الذين أسروا أنفسهم من ملوك الفرنج يقال له صوره حتى أطلقهم وأتوا بهم الى الاسكندرية .

أحمد دراج : المماليك والفرنج من ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٧ .
— Heyd, Op. Cit., p. 496.

(٤٢) هذه المعاهدة بتاريخ ٢٢ من فبراير ١٤٦٦/١٨ في القنده ١٠١ هـ ومنشورة بالمخطوط رقم ٢٣ راجع :
— Amen, Op. Cit., pp. 161-209. — بلاد .
— Heyd, Op. Cit., p. 489. — لجانى الأخيرة ١٠١ هـ منحه لعمال
— Amen, Op. Cit., p. 210-213. — لجانى الأخيرة ١٠١ هـ منحه لعمال

سقوط الامارة الاسلامية الباقية فى الأندلس الا أنه لم يستطع تقديم العون العسكرى اللازم لانشغاله فى حروب العسائين وتأمين الأطراف الشمالية للسلطنة ، ومع ذلك فقد كلف الأسقف « ماوروس » رئيس دير جبل صهيون بيت المقدس لكى يوفد راهبا مندوبا من لدنه للملك نابلى - لما بينهما من علاقات طيبة - لبذل مساعيه الحميدة لدى الملك فردناند ليكف عن أذى المسلمين ، وقرن ذلك بالتهديد بمنع الحج للأراضى المسيحية المقدسة وفرض قيود شديدة على الأجانب فى بلاده . ومع ذلك سقطت غرناطة فى يد الملك فردناند ١٤٩١ (٢٦) . وفرضت السلطات المالكية بعض القيود فعلا على وصول الأجانب للبلاد ، وبخاصة التجار والحجاج فى تلك الفترة ، لاسيما من له صلة بالقطلانية ، لا انتقاما من موقفهم ، ولكن حرصا على سلامة البلاد . ولاحظ الرحالة الألماني « برايدنباخ » خلال زيارته لمصر فى فترة الصراع على غرناطة أن عدد اليهود الوافدين الى مصر قد زاد الى حوالى ١٥٠٠٠ ويعملون جميعا فى التجارة . وعمل هذه الزيادة بهجرتهم الجماعية من أسبانيا بعد أن طردهم منها الملك فردناند ، وأضاف الى ذلك أنهم عملوا على اساءة العلاقات بصورة واضحة بين مصر وقطالونيا وحرصوا السلطان ضد تجارها . ولكن الثابت فعلا أنه لم يكن لليهود أثر يذكر فى سوء العلاقات المالكية والقطالونية فى تلك الفترة ، اذ أن أشد ما أثار السلطان قايتباى وحرك عاطفته هو ما لاقاه المسلمون من عنت الأسبان ثم تجاهل الملك فردناند لمبعوث السلطان قايتباى ليكف أذاه عن مسلمي

(٢٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٦ حوادث ذى القعدة ٨٨١ هـ .

أحمد دراج : الماليك والفرنج ص ١٠٨ - ١١٢ .
سقطت غرناطة فى ديسمبر عام ١٤٩١/صفر ٨٩٧ هـ . انظر :
محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ص ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٢٩ الى

٢٣٧ . Ziada, Op. Cit., p. 366.

كان قايتباى يستخدم سفن نابلى أحيانا فى حمل جنوده الى جزيرة قبرص . انظر :
Mas Latrie, Op. Cit., p. 828 T. III.

غرناطة فى حين أن مواطنيه القطلانة وحجاجه يلقون رعاية متازة فى بلاده . وبعد هذا الحادث فرضت بعض القيود على الحجاج المسيحيين للأراضى المقدسة فى فلسطين ، لا انتقاما منهم أو من حكوماتهم التى لم تسمح ليكف فردناند عن ايداء مسلمي غرناطة ، انما حرصا على سلامة البلاد وأمنها وتجارها (٢٧) .

واستمرت العلاقات متوترة بين مصر واسبانيا حتى ولى الحكم السلطان الأشرف الغورى فى شوال ٩٠٦ هـ ابريل ١٥٠١ ووصل الى القاهرة وفد أمراء مراكش وتونس وحكام الولايات العربية فى شمال افريقية والمهاجرون من الأندلس بعد سقوط غرناطة ، وطلب المبعوثون عون مصر الحربى والمالى ضد مسيحي اسبانيا لاستعادة الامارة ورد هجماتهم على مدنها فى شمال افريقية ومنع أذاهم عن المسلمين الباقين بالأندلس ، وطالبوا - كاجراء مضاد - منع حجاج الفرنجة للأراضى المقدسة ، ومنع تجارهم من ورود مصر والشام . ولم تكد تصل هذه الأنباء لبلاط الملك فردناند حتى قرر أن يسلك مسلكا طيبا مع السلطان الماليكى ، واختار لسفارته الى الغورى عام ١٥٠١ الايطالى « بيير ماريتير دانجيرا » *Piere Martyre D'anghiera* الذى وصل الى الاسكندرية على سفن المدة التابعة للبندقية فى ٢٣ ديسمبر ١٥٠١ ، وأرسل فور وصوله القنصل القطلونى ، والذى يشل فرنسا فى الوقت

(٢٧) كان لليهود فى اسبانيا مركز ممتاز فى اقتصادياتها خاصة وان معظمهم يعمل فى التجارة بين الشرق والغرب ، كما سيطروا على الأعمال المالية والمصرفية ولهم مراسلون مصرفيون ومكاتب ووكالات وفروع فى معظم مدن وموانئ شرق البحر المتوسط .
— Depping, Op. Cit., p. 241, 242.

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٦ حوادث ذى القعدة ٨٨١ هـ .
وبخصوص الاضطهاد الذى وقع على مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة ١٤٩١ م .
حاول فردناند وايزابلا تحويل المسلمين الى المسيحية وتهديدهم بالقتل على عكس ما أعلنه
سفير الملك فردناند وقد اشتد الاضطهاد بعد وصول شحنات هائلة من التوابل الى لشبونة
وتحول التجار اليها عن مصر وأهملوا وعودهم للسلطان الغورى . انظر : محمد عبد الله عنان
المصدر السابق ص ٢٢٧ - ٢٣٧ .

نفسه ، الى القاهرة للحصول على اذن بمقابلة السلطان . وانتهر المغاربة المهاجرون واليهود المطرودون الفرصة وعملوا على اثارة حفيظة السلطان ضد الاسبان وسفيرهم . ولكن الغورى حكم العقل وأرسل اذنا بتسهيل وصول سفير الملك فردناند للقاهرة لمقابلته ، فبارح الاسكندرية فى ١٦ يناير ١٥٠٢ ، ولدى وصوله الى القاهرة قابل تغرى بردى كبير ترابطة السلطان ونزل فى داره . وساعده الترجمان مساعدة قيية خلال محادثاته مع السلطان ، وبعده الاحتفالات الرسمية طلب السفير عقد جلسة سرية يشرح فيها للسلطان سياسة سيده تجاه المسلمين والمغاربة واليهود فى بلاده . وكان مما قاله السفير فى الجلسة ان العرب والمغاربة عنصر هام فى دولته ، وان الملك يحيطهم برعايته لنشاطهم التجارى والثقافى المتجدد ، وهو لا يستغنى عنهم ولا عن جهودهم . أما اليهود فقد طردهم . ويبدو أن السلطان قد اقتنع بهذا الكلام ، فقد هدأت نفسه وتعهد باعادة اصلاح ما تهدم من الأماكن المسيحية المقدسة فى بيت المقدس والرملة وبيت لحم ، وقال ان السفير اقترح عليه رصد رسوم الحج لهذه الاصلاحات . ولم تقتصر هذه السفارة على اصلاح ذات الين بين البلدين ، ولكن تضمنت محادثات تجارية خاصة بتسهيل ورود تجار قطلونيا للمتاجرة فى بلاد السلطان مع تسعهم باعفاءات وتسهيلات مماثلة لما يمنح للتجار الأجانب وتجديد المعاهدات السابق عقدها واقرار ما بها من امتيازات ونص على ذلك فى ملحق أضيف اليه عدم فرض رسم أو ضرائب جديدة على التجارة المتبادلة مع قطلونيا . (٤٤) وبدأ الملك فردناند من جانبه يعمل على تشجيع التجارة

(٤٤) السفير القطلونى هو بيير مارتير د'انجيرا والتفصيل القطلونى الفرنسى على نفس الوقت فى الاسكندرية هو Philippe De Peredes ، وكانت العادة ألا يهتم السلطان الا بسفراء الدول العظمى والذين يصلون الى القاهرة فى موكب فخم ، ويختار السفير من بين كبار رجال دولته ، ويمتاز بحضور البديهة واللباقة وحسن التصرف ، وكان يمكن شهرين فى نظام القديس فرانسوا للتصريف على العادات الشرقية .

— Heyd, Op. Cit., p. 724, 725.
— Depping, Op. Cit., pp. 242-244.

الخارجية وبخاصة مع الممالك ، ففتح ميناء برشلونة للسفن التى تعمل على خطوط الملاحة مع شرق البحر المتوسط وخفف الرسوم الجبركية على السلع الشرقية وأوفد القناصل ووكلاءهم الى موانئ مصر والشام ومدنها . وكانت له سفن سريعة تقطع الطريق الى الشام فى أقل من خمسة أسابيع . ووصلت كذلك المتاجر مع الحجاج المسيحيين العائدين من بيت المقدس والمسلمين العائدين من مكة والمدينة ونافس ميناء برشلونة موانئ ايطاليا فى تجارة الشرق . واهتم فردناند بالميناء حتى جعله مركزا تجاريا من الطراز الأول بالاضافة الى أنه محصن وبه أحواض لبناء وترميم السفن ومخازن ومستودعات عديدة وتشرف على تجارته الخارجية هيئة القناصل البحرين . كما أصدر قانونا ضم فيه هيئة التجار القطلنة الى مجموعة التجار المسموح لهم بالمتاجرة ونقل وتوزيع السلع الشرقية الواردة من مصر والشام (٤٥) .

وجرت الأمور على هذا النحو حتى وصلت الأنباء عن نجاح البرتغاليين فى الوصول الى الهند بحرا بطريق رأس الرجاء الصالح ، وأنهم ثبتوا أقدامهم فى موانئ ساحل الهند الغربى . ووصول البرتغاليين الى الهند هو ثنائى الأحداث الهامة التى ختمت العصور الوسطى وأكثرها أثرا فى ماجريات السياسة والاقتصاد فى مصر والشام ، ولما أصبحت البرتغال وسيطة التجارة بين الشرق والغرب أغرقت أوروبا بالسلع الشرقية

— Thénau, Op. Cit., pp. 243, 244.
— Ziada, Op. Cit., p. 368.

= وبالرغم من أن المعاهدات كانت توقع بين سلطان مصر وملك أراجون فإن هذه المعاهدة وغيرها من المعاهدات لا تشير الى قنصل أراجون وإنما تسميه قنصل الكاتيلان ، «قطلونيا» . ذلك لأن قطلونيا عندما انضمت الى مملكة أراجون فى القرن ١٢ م احتفظت عاصمتها مدينة برشلونة بحق تسمية القناصل لكل رعايا أراجون المقيمين فى موانئ البحر المتوسط الرئيسية التى كان لهم فيها نشاط تجارى . انظر : المجلة : عدد ٤٩ يناير ١٩٦١ ص ٩٠ و ٩١ .

— Heyd, Op. Cit., pp. 724, 725.
— Depping, Op. Cit., p. 239.
— Ziada, Op. Cit., p. 368.

باسعار رخيصة ، وظاف البرتغاليون بأسواق أوروبا لاستمالة شركاتها وعملائها لأسواق ، لشبونة وتنازلوا عن الكثير من الأرباح والرسوم الجمركية . وفي مصر أصبحت أسعار هذه السلع وخاصة التوابل محلا للنزاع المستمر بين السلطان الغورى والتجار الأجانب بصفة عامة ، نظرا للمركز الذى كان لهؤلاء التجار فى توزيع هذا النوع من السلع الشرقية فى أوروبا منذ عدة قرون . ففى قطلونيا وجد التجار سهولة ويسرا فى ارتياد أسواق لشبونة وأهلوا اتصالهم بموانئ مصر والشام — كما أن الملك فردناند لم يحترم ما تعهد به عام ١٥٠٢ للسلطان الغورى الذى نص على وصول تجاره لمصر ، ونص كذلك على رعايته للمسلمين من عرب ومغاربة فى بلاده . ورغم أن السلطان الغورى سلك مسلكا طيبا هادئا مع الملك فردناند الثانى ، الا أن جهوده لم تؤد الى نتيجة ايجابية ، ولم يكف الملك عن اساءته للسلمين والمغاربة ، كما لم تعد سفنه ترد موانئ مصر والشام (٤٦) . ومن ناحية أخرى أكد السلطان الغورى احتكاره لتجارة التوابل والسلع الشرقية وقصر شحنها على ميناء الاسكندرية دون الموانئ الأخرى بقصد التوحيد والتركيز واحكام الرقابة (٤٧) . وخصص أسواق الشام للسلع الواردة من وسط آسيا بالطريق البرى ومع ذلك بقيت الأسعار مرتفعة ، فبلغ سعر الحبل من التوابل الشرقية ١٠٥ دوكات حين وصل سعره فى السوق البحر أكثر من ١٩٣ دوكا ، مما أدى الى اثاره النزاع بين السلطان وعملائه الدائمين من البنادقة الذين رفضوا الشراء بهذه الأسعار وحملوا الى فندقهم حوالى ٢٥٠ حملا فقط مما أغضب السلطان

- Depping, Op. Cit., pp. 260.
 — Ziada, Op. Cit., p. 368.
 — Heyd, Op. Cit., pp. 473 & 521-523.
 — Cioli, Op. Cit., p. 106.
 — Pernaud, Op. Cit., p. 410.
 — Thenaud, Op. Cit., pp. XLVII, XLVIII.
 — Heyd, Op. Cit., p. 493.

(٤٦)

(٤٧)

وفرض عليهم غرامة قدرها ٢٠٠٠٠٠٠ دوك لتأثيرهم فى الأسعار بالخفض لصالحهم والامتناع عن الشراء بسعر السوق المحدد والحر . وسجن تجارهم وقنصلهم وضاعت مواعيد عودة سفن المدة بعد أن منع السلطان هذه السفن من مباحرة الميناء . الا أن بعض السفن استطاعت الابحار خفية ، وساء حكومة البندقية هذا التصرف من السلطات المالكية تجاه تجارها ، وتبادل الطرفان السفارات وهدد البنادقة بهجر أسواق السلطان والتوجه الى لشبونة مما اضطر السلطان أن يحدد سعر التوابل الشريفة بشانين دوكات للحمل الواحد فى المدة التالية . وترك أسواق البيع الحر بدون تدخل ، وأصبح من السياسة الثابتة مراعاة تجار البندقية فى أسواق مصر وموانئها (٤٨) .

الا أن اتساع نشاط البرتغاليين فى الهند ، وسيطرتهم على مصادر تجارة التوابل والسلع الشرقية ، حجب وصول هذه السلع بكميات كبيرة الى مصر والشام ، وجعل التجار المالكية تواجه ظروفًا صعبة ، كما كان معناه أيضا أن تجارة البندقية قد آذنت شمسها بالمغيب ، وعادت فى معظم الأحوال كثير من سفنها خالية أو بنصف حمولتها . ففى عام ١٥٠٢ عادت سفن بيروت بأربع بالات من الفلفل ولم تجد سفينتان من خمس فى الاسكندرية ما تحمله الا بشقة كبيرة ، ولم تعد تشاهد سفن المدة الا مرة كل عامين ، بعد أن كانت تصل للموانئ عدة مرات فى السنة (٤٩) . وكانت سفن البندقية عند عودتها من مصر تترك فى مخازنها من المتاجر الشرقية ما قيمته ٣٠٠٠٠٠ دوك ومثلها على الأقل من النقد البندقي كحساب جار لها وتجارها فى الجمارك ، ويبقى بعد رحيل المدة خمسة عشر تاجرا يشرفون بأنفسهم على تسويق التجارة

- Heyd, Op. Cit., pp. 519-523.
 — Allan, J., The Camb. Shorter Hist. Of India p. 487.
 — (٤٩) انظر الملحق رقم (٦) عن تمليعات البندقية للسفير سانودو الى السلطان الغورى.
 — Heyd, Op. Cit., pp. 520, 521.

(٤٨)

حتى المدة التالية . أما الآن فالسفن لا تكاد تترك من المتاجر الا ما قيمته ٨٠٠٠٠٠ بندقى ، ومن النقد ما يساوى ٢٠٠٠٠٠ بندقى ، ويبقى من هيئة التجار حوالى ستة ليس ييدهم الموارد الكافية للتسويق للسدة القادمة . وكان من الطبيعى أن ترتفع أسعار المتاجر الشرقية فى أسواق البندقية لقلة الوارد وارتفاع أسعاره مما حدا بعملاء البندقية من التجار الألمان وسكان شمال وغرب أوروبا أن يهجروا أسواقها الى لشبونة ، وليس أدل على تأثر أسواق البندقية من أن الألمان كانوا يصدرون لها كل عام حوالى ٤٠٠٠ قنطار من النحاس ومثلها من أطنان الزيت ، ويحصلون مقابلها على توابل الهند الواردة طريق مصر والشام ، فسيطت هذه الأرقام الى ٨٠٠ قنطار من النحاس ، و ١٥٠٠ طن من الزيت ، وأعلن تجار فينا أنهم سيتوجهون الى لشبونة اذا لم يجدوا ما يكفيهم من التوابل بأسعار مناسبة فى أسواق البندقية ، كما أن باقى المدن الايطالية التى تاجرت فى هذه السلع هددت بالتوجه الى أسواق لشبونة .

أما البرتغاليون فاستمر طواف مبعوثيهم لأسواق أوروبا لاستمالة شركائهم التجارية الى لشبونة ، وتنازلوا عن الكثير من أرباحهم ، وعن الرسوم الجبركية ، تشجيعا لوصول تجار أوروبا الى أسواقهم ، وخطوا خطوة أخرى لتدعيم مركزهم التجارى فى شمال أوروبا بتوزيع المتاجر الشرقية بأنفسهم ، وخاصة فى بلاد الألمان ، بنفس الأسعار المخفضة امعانا فى هدم تجارة مصر والبندقية (٥٠) . وبينما الأمور تجرى على هذا النحو وصل الى البندقية وفد برتغالى وعرض على حكومة الدوج وهيئة التجار بها تسهيل حصولهم على حاجتهم من التوابل والسلع الشرقية من أسواق لشبونة ، على أن يقوم البنادقة بتوزيعها بأنفسهم

(٥٠) ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ص ١٥١ وما بعدها .
— Thenaud, Op. Cit., pp. XLV-LVI ff.
— Heyd, Op. Cit., pp. 521, 522.
— Allan, Op. Cit., p. 487.

وبمعرفتهم فى أسواق أوروبا كما كانوا يفعلون ، بدلا من اصرارهم على ارتياد أسواق مصر المرتفعة الأسعار والتى بدأ ينضب معينها (٥١) . ولكن كبرياء البندقية وعظمتها منعها من الاستجابة لهذا النداء حتى لا توقع بنفسها صك تبعيتها التجارية للبرتغال ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تغفل ارسال مبعوثيها الى لشبونة لجمع المعلومات الكافية عن رحلات البرتغاليين للهند ، وعما اذا كان بالإمكان وصول سفن البندقية الى الهند مباشرة ثم مراقبة مشروعات البرتغاليين القادمة ومواعيد الرحيل والعودة ومعلومات عن طبيعة الطريق الجديد . كما أوصت حكومة الدوج مبعوثيها الى لشبونة بأن ينفردوا بالأمراء الهنود الوافدين مع سفن التوابل البرتغالية لتحريضهم على مقاطعة البرتغاليين ومواصلة التعامل مع السلطان المالكي والبندقية ، وأن يوحوا اليهم بأن البرتغال بلاد فقيرة تعجز عن تصريف تجارة الهند بدون مساعدة البندقية التى كانت وستبقى رغم كل هذا ، العميل الأول لتوابل الهند وأكبر دولة تجارية فى العالم المسيحى (٥٢) .

(٥١) طالب الملك عمانويل ملك البرتغال من البنادقة ورود أسواق لشبونة ليحصلوا على طلباتهم من التوابل والسلع الشرقية بدلا من ذهابهم لأسواق الاسكندرية وبيروت .
— Heyd, Op. Cit., p. 524.
(٥٢) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ص ١٤٧ - ١٤٩ .
فهم مبعوثو البندقية الى لشبونة أن الملك البرتغالى عمانويل سيعمل تماما على احباط كل مشروع للبنادقة او للسلطان المالكي فى مياه الهند وحصل على التأييد الكامل فى ذلك من دعاياه ومستشاريه وكان يتملج الوقت الذى يستطيع فيه أن يخلق طريق البحر الأحمر الى جزر البهار فى وجه الممالك والبنادقة ويحكر له ولبلاده هذه السلع الثمينة ويجبر البنادقة على ورود أسواقه ، وبالتالي تنبئه تجاريا وفى الوقت نفسه تنهار مصر تجاريا وسياسيا وعسكريا ويحدث مثل هذا للبنادقة ويحقق الملك البرتغالى من ذلك ٣ أغراض :
١ - الضرب على أيدي التجار العرب والمصريين والاقبال من ثرواتهم لامكان الانتقام منهم سياسيا ودينيا .

٢ - نقل السيطرة التجارية من البندقية الى البرتغال .
٣ - فتح باب جديد لفراء البرتغال وسيطرتها على الشرق وتجارته .
وليس أدل على ذلك من أن فاسكوداجاما لدى عودته من رحلته الى الهند عام ١٥٠٣ صرح بأن هذه الرحلات موجهة اساسا ضد سلطان مصر . انظر أيضا :
— Heyd, Op. Cit., pp. 515, 516.

ورغم أن البندقية ، حتى ذلك الوقت ، لم تكن في وضع سيء فإنها بدأت تشعر بالقلق الشديد منذ بدأت البرتغال تغزو أسواقها القديمة في أوروبا بكسبات وفيرة وأسعار رخيصة من السلع الشرقية ، وخشيت أن يتزعزع مركزها الرائد في توزيع هذه السلع منذ عدة قرون في أوروبا وخاصة أنها وجدت نفسها عاجزة عن مسايرة الأسعار التي تجلب بها البرتغال التوابل من الهند . فتنظر التوابل من بعض الأنواع البعيدة يساوي في الهند ما بين ٢٥ - ٣ دوكات ومن القرقة بالذات حوالي دوكات واحدة ، في حين أنه في مصر يصل الى حوالي ١٠٠ دوك . وفي البندقية أكثر من ذلك . وهو نوع من المضاربة لو نجح لأدى الى اسقاط هيئة البنادقة والماليك وزعزعة زعامتهم التجارية في أوروبا (٥٣) .

ولدى عودة المبعوثين من لشبونة فهتت البندقية أنه لابد من عمل حاسم يرد لها كياناتها ، والا فإنها ستضطر لتوجيه تجارتها الى لشبونة وتتبع بالمركز الثاني أو الثالث والتبعية التجارية للبرتغال . وانقسم البنادقة فريقين : فريق يرى التوجه الى لشبونة ويعزز رأيه بما يقاسيه تجاره في بلاد السلطان وارتفاع أسعار التوابل وقيود الجمارك وعدم امكانهم الوصول بأنفسهم الى مصادر التوابل في الهند . والفريق الآخر يرى ارسال سفارة قوية لمصر ليتدارك السلطان الأمر للنفع المشترك ، ويضيف هذا الفريق أنه بإمكان البنادقة نشر الشائعات المشبقة في أسواق أوروبا حول عجز البرتغال عن الاستمرار في هذا العمل الخطير ، على أن تقوم مصر بمثل هذا العمل من جانبها لدى عملاتها في الهند . وصادف ذلك فترة انتكست فيها تجارة البرتغال في الهند وجاءت خسائرها فوق حدود المعقول بسبب أخطار الطريق وشدة مقاومة الأهالي للبرتغاليين لسياساتهم القائمة على السلب والنهب أحيانا ، وأكد البعض

— Thenaud, Op. Cit., p. XXXI.
— Heyd, Op. Cit., pp. 525, 526.

أنه ليس للملك البرتغالي سفنا أخرى يرسلها لمياه الهند وساد الاعتقاد بأن السلطان الماليكي قد اتصل بالأمراء الهنود وأن جهوده قد أثرت وأن قوته البحرية ستقضي فعلا على قوة البرتغاليين في المياه الشرقية وأنه لن يترك الأمور تفلت من يده بهذه السهولة (٥٤) . ورغم هذه الشائعات التي رفعت من معنويات البنادقة وسمعتهم في أوروبا ، بقدر ما أساءت الى البرتغاليين وانزعج ملك البرتغال وأرسل مبعوثا لدوج البندقية مكذبا هذه الشائعات وشرح المبعوث مقدرة بلاده على مواجهة كل الاحتمالات على طول الطريق وفي مياه الهند نفسها ، وطلب من البندقية التأييد وتوجيه تجارتها الى لشبونة ، كما طلب المبعوث من الدوج أن يرسل مندوبه للتأكد من ذلك . وفي ختام المباحثات طلب من حكومة البندقية أن توجه تجارتها الى لشبونة الا أن دوج البندقية نصح مبعوث ملك البرتغال بعدم مقاومة السلطات الماليكية وعدم الاستمرار في هذه المغامرة الخطيرة ، وأضاف الدوج فيما يتعلق بتوجيه تجاره الى لشبونة « ان حكومته تضع موضع الاعتبار ترحيبكم بتجارها في بلادكم وتسكينهم من الاستمرار في مراكزهم القديمة في أسواق أوروبا وتوليهم التوزيع بأنفسهم ، ولكننا في الوقت نفسه نخشى فقد مراكزنا القديمة الممتازة في شرق البحر المتوسط لو فرض وعجزت سفنكم عن مواصلة رحلاتها الى الهند » . (٥٥) .

(٥٤) بلغت الشائعات حدما الانفى في بداية القرن ١٦ في السنوات الاولى لرحلات البرتغاليين . وكان البنادقة مصدر معظمها . الا أن ملك البرتغال كان لديه من الامكانيات الضخمة ما يمكنه من الاندفاع في مشروعه بنجاح وهي :

- ١ - مناجم البرتغال من ذهب افريقية تمون باستمرار أسواق التوابل الهندية .
- ٢ - نفقات عودة السفن وألمان ما تحمله من سلع تسدد باستمرار نفقات تسليحها
- ٣ - أن ملك البرتغال قنع في البداية بتسديد النفقات وعدم الربح حتى ثبت أقدامه واحتاج في ذلك الى عمل كل ما في وسعه لنشر أعمال القرصنة في البحر المتوسط وفي مياه الهند ومدخل البحر الأحمر لمنع وصول التوابل لمصر والشام . راجع :

— Heyd, Op. Cit., pp. 517, 518.
— Heyd, Op. Cit., pp. 518, 519.

وبالرغم من ذلك كله لم تكن البندقية بحاجة لمن يعرفها مدى الخسارة التي تلحقها نتيجة للتوسع البرتغالي في جلب المتاجر الشرقية وقررت ان تسلك مسلكا ايجابيا فأرسلت في عام ١٥٠٢ سفارة برئاسة « بنديتو سانودو » Benedetto Sanoudo ولهذا الرجل تجارب عديدة في التجارة مع مصر فيما بين عامي ١٤٩٦ - ١٥٠٠ وكانت بعثته الى مصر سرية وكان عليه أن يوضح للسلطان الغوري الأخطار التي تتعرض لها مصالحه وتجارته وثروته من جراء وصول البرتغاليين للهند واهتمام البندقية بمقاومة مشروعات البرتغال في الهند وفي أوروبا . ووضع سانودو أمام أعين السلطان الحقيقة المزعجة للطرفين ، وصرح له أن التجار الانجليز بدأوا يتوجهون فعلا الى لشبونة لرخص أسعارها عن الاسكندرية وقلة رسوم جواركها . بل ان التجار البرتغاليين بدعوا يجوبون أسواق أوروبا بأنفسهم . واستعان سانودو بالترجمان « نغري بردي » لحض السلطان على القيام بعمل ايجابي ومقاومة البرتغاليين في الهند ومن ناحية أخرى تخفيض أسعار التوابل الشريفة والحررة وخفض رسوم الجوارك لاما كان اقناع تجار البندقية بمواصلة ارتياد أسواق مصر والشام ومواجهة نشاط البرتغاليين في دول أوروبا . ولم يكن هذا هو كل ما تناولته المباحثات بين السلطان وسانودو بل كرر السفير شكوى مواطنيه التجار من تعنت حكام دمشق وبيروت معهم ، فهم يجبرون تجارهم على شراء كميات اضافية من الفلفل بأسعار خيالية في الوقت الذي تمتلئ فيه أسواق أوروبا بالتوابل الرخيصة النقية من لشبونة . وشكا كذلك من سوء معاملة عمال السلطان للتجار في الجمرك ، وأنهم يمنعون لجوء سفنهم ليلا الى الميناء وخلال العواصف ويجبرونها على الرحيل قبل شحن كل ما يشتريه التجار فيبقى معظمه في الميناء للسدة التالية معرضا للضياع والبقار . وطلب السفير آخر الأمر ترك السفن حتى يتم شحن كل مالديها بدون الحاجة الى تصريح سابق

من السلطات . وعاد السفير الى بلاده في ٢٠ من سبتمبر ١٥٠٣ (٦) . وكان السلطان الغوري مقتنعا بما جاءت به بعثة سانودو ، كما كان مقتنعا بأن ازدياد نفوذ البرتغاليين في الهند قد يقضي على مصالحه التجارية وهيئته أمام العالم ، وقد تأكد له هذا بصورة عملية عندما أرسل أسطولا تجاريا الى ساحل مالابار شحن كالمعتاد كميات ضخمة من التوابل والمتاجر الهندية . وفي عودة السفن حملت معها عددا كبيرا من الأمراء الهنود ، وعددا من المسلمين في طريقهم الى الحج ، ولكن هذه السفن بشحناتها لم تصل كاملة الى ميناء جدة اذ هاجمتها سفن الأسطول البرتغالي في مياه الهند وصادرت معظم شحناتها من التوابل والمتاجر الهندية . وأثارت هذه الأنباء ثائرة السلطان الغوري ، لاسيما أن الأنباء تواترت مرة أخرى عن اجراءات تعسفية ضد العرب في أسبانيا ، فقرر السلطان أن يعمل عملا جديا فأرسل سفنا حربية جديدة في البحر الأحمر لمواجهة تهجم البرتغاليين على سفنه في الهند . ويقال انه أشرف بنفسه على ارسال قطعها الى ميناء الطور وفي الوقت نفسه قرر ارسال بعثة برئاسة الأسقف « ماوروس دي سان برنادينو » Maurus Di San Bernadino رئيس دير جبل صهيون بيت المقدس ومعه راهبان الى ملوك وأمراء أوروبا وبابا روما للوقوف على الأحوال السياسية بصفة عامة ، وحث البابا على اقناع البرتغاليين بوقف أعمالهم العدوانية ضد

(٥٦) راجع المأدبة بالمحق رقم (٦) وكذلك

— Heyd, Op. Cit., pp. 519, 520.

— مما دفع البنادقة الى ارسال بمشاتهم المتكررة الى مصر ، أن البرتغاليين أغاروا على سفن التجارة المالكية وهي في ماء الهند بعد شحنها وصادروا ما عليها من شحنات التوابل وخلافة وظهر أثر ذلك بوضوح في « مدة » البندقية ١٥٠٢ م اذ عادت سفنهم من الاسكندرية وبيروت ، وهي لا تكاد تحمل ربع شحناتها وحمولتها العادية ، حتى ان هيئة التجار الألمان الذين وفدوا كالمعتاد لحضور مزادات الاسواق السنوية في البندقية عادوا بأموالهم بعد أن هددوا السلطات المشرفة على التجارة الخارجية بأنهم سوف يتوجهون الى اسواق لشبونة للحصول على حاجتهم من التوابل - راجع كذلك :

١٢٢

دراج : المالك والفرنج ص ١٢٢ و ١٢٣ .

— Thenaud, Op. Cit., pp. XLVII, XLVIII.

مصالح السلطان في الهند . ووصل ماوروس ومرافقاه الى البندقية في ابريل ١٥٠٤ ومعه خطابا للدوج لطلب مساعدات حرية للسلطان لمقاومة البرتغاليين في مياه الهند وطلب كذلك منحه خطابات توصية الى ملكى اسبانيا والبرتغال والبابا . وعقد السناتو جلسة خاصة حضرها الأسقف ماوروس ، الذى عرض طلب السلطان المعونة الحرية والتأييد الأدبى لدى البابا وملكى اسبانيا والبرتغال لوقف تعرض البرتغاليين للمصالح السلطانية في الهند ، أو ارسال أسلحة للسلطان لمقاومة البرتغاليين في المياه الهندية في حالة فشل المفاوضات لوقف اعتداءاتهم . وأعلن ماوروس كذلك استياء السلطان من موقف الملك القطلونى من المسلمين في الأندلس والمغاربة بشمال افريقية واجبارهم على ترك دينهم أو الموت . وقال ماوروس ان ملكى اسبانيا والبرتغال يسلكان مسلكا صعبا ضد السلطان سواء في أوروبا أو في الهند وأنه اذا لم تجب كل طلباته بالود والتفاهم فسيجد نفسه مضطرا الى قتل كل أجنبى يصل لبلاده ويهدم ما بها من أديرة وأماكن مسيحية . ورد السناتور على مبعوث السلطان بأن الأضرار التى لحقت بالسلطان قد أصابت البندقية كذلك في الصميم واعتذر عن الكتابة للبابا وملكى قطلونيا والبرتغال حتى لا تتهم البندقية بمساعدتها للسلطان عدو المسيحيين ، واكتفى السناتو بأن أعطى للأسقف ماوروس عند سفره معلومات عن الحالة في أوروبا بصفة عامة ليبلغها للسلطان .

وسافر الأسقف الى أوروبا واتصل بالبابا يوليوس الثانى الذى انزعج لما سمعه عن تهديدات السلطان للمسيحيين والأماكن المقدسة المسيحية في بلاده وأسرع بإرساله ومرافقيه الى فردناند الخامس ملك قطلونيا وعمانويل ملك البرتغال وهناك أوضح لهما الأسقف جلية الأمر ومضمون مهمته . وليس لدينا ردهما المكتوب ولكن كل مانعرفه أن الملك البرتغالى أرسل يطمئن البابا يوليوس الثانى كما نصحه بالألا يقلق أو يلقى بالا لتهديدات السلطان لأنه ليست لديه القوة الكافية لتنفيذ

هذه التهديدات ، كما أنه لا يستطيع القيام بأى عمل تعسفى ضد المسيحيين في بلاده أو ضد الأماكن المسيحية المقدسة لأنه يجنى من وراثتها رسوما طائلة في مواسم الحج . وأضاف أنه في حالة تنفيذ السلطان تهديداته فان الأسطول البرتغالى سيدخل البحر الأحمر ويهاجم الأماكن الاسلامية المقدسة في مكة والمدينة كاجراء مضاد . وفي نهاية الرسالة طلب من البابا التأييد الدينى والأدبى في صراعه مع المسالك والاتصال بسلوك وأمراء أوروبا لنفس الغرض .

وأعطى الملك الخطاب للأسقف مغلقا ليسله بنفسه للبابا وهو في طريقه للشرق (٥٧) .

وفي البندقية لم تكذ السلطات تردع الأسقف ماوروس الى روما حتى أسرع بإرسال سفارة جديدة الى القاهرة يرأسها « فرنسيسكو تالدى Francisco Taldi » فى ٢٥ من مايو ١٥٠٤ بعد شهر من وصول الأسقف للبندقية . وفي المحادثات نبه السفير تالدى السلطان الغورى الى ازدياد نشاط البرتغاليين في الهند وأنهم يوزعون التوابل في أوروبا بأسعار تقل كثيرا عن أسعار الاسكندرية وببيروت، بل انهم يوزعونها في ايطاليا نفسها بالأسعار المنخفضة، وأوضح السفير للسلطان أن حكومته لم تستطع منع تجارها من اللجوء أحيانا الى أسواق لشبونة . كما أنها لم تستطع مقاومة اغراء رسل ملك البرتغال الى البندقية ودعوتها تجارها لتولى منصب الصدارة في توزيع هذه التوابل في أوروبا

(٥٧) - Thénau, Op. Cit., I. pp. XLVII, XLVIII, XLIX.

- لكي يسهل السلطان على الاسقف ماوروس مهمته طلب منه نزع قطعة رخام من كنيسة القبر المقدس وهي مجزعة بلون بنفسجى ومقاسها ٣/٤ شبر مربع ويقسمها الى خمس قطع متساوية تعطى للبابا والملكة قسطنالة وملك البرتغال وللكردينال Carvajal وكان يحمل لقب Sainte-Croix En Jérusalem والخامسة للكردينال D. Francesco Cianerses وقصد من ذلك أن تكون هدايا مقدسة لتسهيل مهمته . انظر كذلك :

— Hevd, Op. Cit., pp. 520-522.

— Lane Poole, Egypt In The Middle Ages, p. 532.

— Muir, W., The Mameluk Or Slave Dynasty, p. 191.

— Charles Roux, J., L'Isthme Et Le Canal De Suez, T.I. p. 42.

بالنظام نفسه الذى يقومون به الآن بشرط قطع الصلة مع السلطان المالكي . ثم ألمح السفير للسلطان أن بلاده لا تستطيع أن تتغاضى عن ثلاثة قرون من العلاقات الطيبة مع مصر بهذه السهولة ، وصرح بأن الهيئة المشرفة على التجارة الخارجية عارضت سياسة الحكومة الهادئة مع السلطان ، ولكن حكومة الدوج يعز عليها أن تهجر السوق التى طالما ترددت عليه وتأمل أن يتدارك السلطان الأمر . وأضاف السفير إلى ما ذكره أنه وصل إلى البرتغال ١٤ سفينة تحمل حوالى ٥٠٠ حصل من التوابل أرسلت كلها إلى أسواق إنجلترا والفنلندز وفرنسا وإيطاليا كما يوجد بيناء لشبونة ١٢ سفينة مستعدة للرحيل غير ١٦ رحلت فعلا لهند ونصح السلطان بأن يتخذ اجراء سريعا جديا فيرسل مندوبيه الدبلوماسيين إلى ولايات الهند وأمرائها لينصحهم بمقاطعة البرتغاليين أعداء الدين والوطن ويقرن هذا بعمل حربى يضع البرتغاليين عند حدهم وأن يصحب سفن التجارة المالكية دائما سفنا حربية ويفرق أسواق الاسكندرية ويبروت بالتوابل النقية الجيدة بأسعار رخيصة لاغراء التجار البنادقة وغيرهم بعودتهم إلى أسواقهم ، وبذلك يكون قد عمل على تدمير مشروعات البرتغاليين فى الهند ، كما نصحه ألا يتخذ أى اجراء ضد المسيحيين والأماكن المسيحية المقدسة فى بلاده لأن هذا سيثير عليه الشعور الدينى فى أوروبا ويكسب البرتغاليين تأييد الدول الأوروبية وعطفها على جهودها ضد السلطان (٥٨) . وأوضح تالدى أيضا للسلطان صعوبة كتابة حكومته للملكى قطالونيا والبرتغال والبابا حتى لا يحدث شكاً فى موقف البندقية من الدول المسيحية المعادية للسلطان .

(٥٨) بعثة السفير البندقي تالدى للقاهرة تمت فى ٢٤ من مايو ١٥٠٤ . انظر نص تعليمات السناتور للسفير بالملحق رقم (٧) وكذلك :
- شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ص ١٤٧ - ١٥١ وكذلك :
- Mas Latrie, Op. Cit., pp. 259-263.
- Charles Roux, Op. Cit., T. I, p. 45.
- Heyd, Op. Cit., pp. 521, 522, 523, 524.
- Thénau, Op. Cit., pp. XLV-XLVI ff.

وبخصوص المعونة العسكرية التى طلبها السلطان ، فيبدو أن حكومة البندقية أخطأت فى فهم مقاصده فاعتقدت أنه يطلبها بارسال أسطولها إلى الهند بالطريق الجديد ليلتقى بأسطوله ويواجهها مع البرتغاليين . وأوضحت البندقية على أساس هذا الفهم أن البرتغال تبعد حوالى ٤٠٠٠ ميل عنها ، وبالطبع ستكون المسافة أضعاف هذا بالنسبة للهند بالطريق الجديد علاوة على أن ملك قطالونيا حليف البرتغال، تقع بلاده على الطريق إلى الهند وتجاور كذلك حدود البندقية أملاك لويس الثانى عشر ملك فرنسا الذى استولى على نابلى وهو لن يتحالف معها ضد المسيحية . الا أن السلطان أوضح للسفير أنه يطلب فقط شحنات من الأسلحة والأخشاب إلى الاسكندرية . ثم مرض تالدى وانقطعت محادثاته مع السلطان حتى حل محله مبعوث آخر هو « برناردينو جيونا Bernardino Giova » . ومع كل الجهود التى بذلتها البندقية لم يقدر لهذه المباحثات النجاح ، واعتقد البنادقة أنه لو نفذ السلطان مشورتهم بالاضافة إلى جهوده الخاصة لحسم المشكلة نهائيا (٥٩) . وفى أثناء ذلك وصل الأسقف ماوروس إلى القاهرة فى ٥ من مارس ١٥٠٥ وأطلع السلطان على تفاصيل رحلته وبدأ السلطان يتخذ اجراءات هامة فأنزل أسطولا ضخما فى السويس وجمع تكاليف الحملة من رفع أسعار التوابل وزيادة رسوم الجمارك ، وقبل بعض التجار الأجانب الزيادة ورفضها قبطان « الجاليز البندقي » وهو « سر بولو كاللو Ser Polo Callo » وطالب بتطبيق المعاهدات المعقودة بين السلطان وبلاده ، وانتهر القبطان فرصة انشغال عمال الميناء وأقلع من الاسكندرية دون استئذان السلطات المحلية حسب التعليمات وعاد

(٥٩) نصح السفير تالدى السلطان الغورى بصرف النظر عن التهديد باتخاذ اجراءات عنيفة ضد المسيحيين والحجاج والأماكن المقدسة ببلاده لأن هذا سيثير عليه أوروبا ويمنع وصول التجار إلى بلاده وبفقد رسوم الحجاج . راجع الفقرة ١٢ من الرسالة فى الملحق برقم (٧) .

للبنديقية خاوى الوفاض ، وكان هذا العسل منه فى هذا الوقت الحرج سببا فى اثاره حفيظة السلطان ، فألقى القبض على القنصل الهندى ووكلائه وقناصل الدول الأخرى ورعاياهم ، وأرسلهم مكبلين بالحديد لسجون القاهرة ومعهم راعى يعة الاسكندرية البندقى ، وصادر السلطان أموالهم ومناجرهم فى مصر والشام وبيعت بأبخس الأثمان (٦٠) . وزاد من ثورة السلطان أن فرسان رودس وقراصنتهم صادروا سفنا للسلطان بحمولات ثيثة غربي مياه قبرص ، واعتقد السلطان أن البنادقة يدا فى ذلك وأنهم أمهساوا أو تسدوا اهنال تنفيذ شروط الاتفاقية المبرمة معهم من عهد السلطان قايتباى والتي بسوجبها تنازلت لهم مصر عن ادارة قبرص لقاء تعهدهم بحماية الجزيرة ودفع الجزية السنوية ومنع القراصنة عن مياهها . وفى ثورة الغضب أغار السلطان على مابقى من ممتلكاتهم (٦١) . واتخذ اجراءات أخرى داخلية فأعلن سيطرته الكاملة واحتكاره للتجارة الشرقية وحذر من بقى من التجار الكارمية من التعامل المباشر مع الأجانب وبخاصة البنادقة . اقتضت أعمالهم على جلب التوابل والسلع من الهند ، بعد أن رأى وضوح التقارب بينهم وبين الأجانب المترددين على بلاده ، وظل الكارمية كما كانوا على عهد السلطان قايتباى مجرد موظفين لدى السلطان بالمرتب والعمولة ، وفى الوقت نفسه رفع بعض تجاره من القائمين ببيع التوابل السلطانية للمركز الذى كان للكارمية من قبل رغم قلة خبرتهم فى التجارة الشرقية مما أدى الى تردد الشكوى من سوء تصرفهم . وتضاءلت شخصية التاجر الكارمى الدولية حتى أصبح تاجرا عاديا (٦٢) .

- (٦٠) — Thenaud, Op. Cit., I. pp. XLVII, XLIX.
لكثرة ما أعين الاسرى مات القنصل والنس وأحد كبار التجار وهو التاجر Ser Alvise Bragadine : بالطاعون والأمراض الأخرى .
دراج : المالك والفرنح ص ١٢٦
(٦١) — Thenaud, Ibid, I. p. LX.
(٦٢) أنظر طوائف التجار فى الفصل الخامس وما كتب عن الكارمية .
— Heyd, Op. Cit., pp. 519-520.

ومع هذه الاحتياطات الشديدة وتحذيرات السلطان فان هذا الاجراء الاحتكارى لم يمنع توثيق الصلة بين التجار الكارمية والأجانب سرا والتعاون على تهريب البضائع أحيانا — ولما اشتدت المراقبة عليهم هجروا مصر وتركوا فى الحجاز والبحر الأحمر ومارسوا تجارة متواضعة نسبيا فى مواسم الحج ، كما هجر عدد من الجاليات التجارية الأجنبية مصر والشام الى لشبونة (٦٣) .

وبدا للبنديقية هذا الموقف من أسوأ ما واجهته فى حياتها التجارية بشرق البحر المتوسط . ومع هذا لم تأس من اصلاح الحال ، ورأى السناتو أن اعادة العلاقات الى حالتها الطبيعية يحتاج لسفارة جديدة يرأسها مندوب فوق العادة من السناتو نفسه تكون له الخبرة الكاملة بسجريات الحوادث على أن تعطى له كل الصلاحيات اللازمة لعقد اتفاق مفيد واختير لهذه البعثة السناتور « الفيز ساجاندينو Alvise Sagandino » لخبرته بشئون الشرق . ووصل السفير فى صيف ١٥٠٥ وعرض على السلطان آخر تطورات الموقف فى أوروبا وفى الهند واستفسر منه عما اذا كان بإمكانه القيام بعمل ايجابى للحفاظ على مصالح البنادقة فى بلاده ولم يتم السفير سفارته لموته المفاجئ . (٦٤)

ولم يكن العورى فى حاجة لمن يعرفه بسدى التدهور الذى بلغه الموقف فى الهند وخسائره التجارية وفشل خطته لافساد العلاقات التى نشأت بين البرتغاليين وأمراء كانانور وكوشين ومراكز انتاج البهار ،

- (٦٣) — Thenaud, Op. Cit., T.I. pp. XLVII, XLVIII.
— Heyd, Op. Cit., pp. 520, 521.
(٦٤) يحق لنا أن نتساءل عن مدى ما ترمى اليه البندقية من الحاجها فى كل هذه الاجراءات . . . الم يكن بإمكانها إلغاء اتفاقياتها مع مصر وتوجيه سفنها الى لشبونة للحصول على ما تريد من التوابل ، وتنظيم رحلات لها بشروط البرتغاليين الى الهند ؟ الواقع أن الطريق البحرى حول افريقية كان طويلا بالنسبة للبرتغاليين وبالطبع أطول بالنسبة للبنديقية ، كما أن البنادقة رفضوا كنجار أن يكونوا تابعين لملك البرتغال بعد أن كانوا دولة من الدرجة الأولى لذلك فضلوا أسواق مصر . راجع :
— Heyd, Ibid ; p. 524.

وتدمير البرتغاليين المستمر لأساطيله التجارية وأساطيل الأمراء الهنود الموالين له وبخاصة في قاليقوت ، وترصدتهم لسفنه عند مدخل البحر الأحمر ، وفي الوقت نفسه قلة التوابل بصورة مزعجة في أسواق مصر وسوريا وزيادتها الهائلة في أسواق لشبونة ، مما أزعج تماما هيئة التجار والسناتو البندقى وبخاصة لما وصلتهم التوابل والسلع الشرقية من لشبونة حتى بلادهم بأسعار معتدلة ، كما وصلتته أنباء عن تدعيم البرتغال لأسطولها في الهند بسفن حربية للحماية وتأكيد السيطرة والاحتكار وإفساد كل تدبير للسلطان . بل علم أن البرتغال قررت أن يرافق أسطولها التجارى سفنا حربية اعتبارا من عام ١٥٠٦ وسحت السلطات البرتغالية للسفن الفلورنسية والجنوية والألمانية بصحابة الرحلة على أن يكون ما تشتريه لحسابها بإشراف البرتغاليين ويخصص منه ثلثا الحصة - وذلك نكاية في البنادقة . وبقدر ما كان هذا العمل توسعا في تجارة البرتغاليين والهنود فانه لا شك كان انتكاسا شديدا لتجارة الممالك والبنادقة (٦٥) .

الا أن الغورى لم يدع مصالحه تنهار بهذه السهولة ورأى أن الأمر يحتاج لحملة حربية الى مياه الهند وقرر ارسال بعثة الى الهند للمفاوضة في طلب المعونة العسكرية من أخشاب وسلاح واعادة التجارة الى ما كانت عليه لا سيما وأن إيراداته انخفضت بصورة مزعجة ، وأسند هذه السفارة الى ترجمانه الخاص تغرى بردى وسافر المبعوث السلطانى فى ٥ من مارس ١٥٠٥ على احدى سفن المدد البندقية الى قبرص ومعه أعضاء سفارته وبقي بها حتى وصله تصريح مرور الى رودس ليقاوض مقدم استباريتها «أمايرى دامبواز Ameiry D'Amboise»

(٦٥) سمحت البرتغال لبعض تجار فلورنسا وجنوة والألمان بصحابة احدى رحلاتها للتأكد من مقدراتها . عل أن يسلموا للبرتغاليين ثلثى ما يشترونه بالاسعار العادية . راجع :

— Thenaud, Op. Cit., T. I. p. LI.

فى شأن السفن المأسورة والمصادرة بواسطة فرسانه شرقى البحر المتوسط وغربى قبرص . وانهى تغرى بردى من مهمته بسهولة وحمله مقدم الاستبارية هدايا للسلطان وأوصله بنفسه للسفينة التى أقلته البندقية وبالرغم من عدم الشعور بالارتياح فى البندقية لشخصية السفير الترجمان تغرى بردى فإن السناطور اضطر أن يخفى هذا الشعور للصفة الرسمية التى للسندوب السلطانى ، بل أن السناطور تحيل نفقات الرحلة اكراما للسلطان . وفى المحادثات طلب السفير السلطانى معونة عسكرية لمواجهة الموقف فى الهند ، كما طالب بعودة تجار البندقية لموانئ مصر والشام . أما البندقية فان طلباتها تلخصت فى تسهيل مهمة تجارها فى موانئ مصر والشام وأسواقهما ، وفك أسر المسجونين منهم ، وتحديد سعر التوابل الشريفة ، ورفع القيود على السوق الحرة وتخفيض الجمارك وفى الحق أن البندقية لم تشأ أن تعطى رأيها بصراحة فى طلبات السلطان ، كما أن تغرى بردى لم يوافق على طلباتها بسرعة واقترح ارسال خاصكيا من عنده للقاهرة بسرعة لعرض الموقف وطلبات البندقية ورأيها على السلطان . ووافقت البندقية . وحملت الخاصكى السلطانى وعدا سرايا برغبتها فى المساعدة الحربية ، بل انها ستعمل على ذلك بكل طاقاتها سرا حتى لا تثير عليها وعلى السلطان الدول الأوربية المسيحية ، وفى الوقت نفسه طلب تغرى بردى أن يبلغ سيده جهازا بأن يتوجه بطلباته من السلاح والسفن الى السلطان العثمانى بايزيد الثانى . ويبدو أن السلطان الغورى كان فى موقف دقيق فعلا فقبل شروط البندقية وأقرها على مطالبها . وما لبثت أن وصلت سفن المدد التابعة لهم الى الموانئ السلطانية ، وفى الوقت نفسه أنفذ رسله الى السلطان بايزيد الثانى لطلب السلاح (٦٦) الا أن الآمال لم تتحقق وفق ما يرجوه

(٦٦) راجع الملحق برقم (٨) عن مناقشات السناطور بخصوص سفارة تغرى بردى ١٥٠٦ ورقم (٩) بشأن المباحثات بين تغرى بردى وحكومة البندقية وما اتفق عليه فى هذا الموضوع . راجع كذلك :

الطرفان لاستمرار اعتداء البرتغاليين على سفن التوابل المالكية في الهند ، واستأنف تغرى بردى رحلته الى روما وأوروبا في يوليو ١٥٠٧ دون أن يحقق غرضاً إيجابياً سوى اسماع صوت سيده السلطان للمسؤولين في روما وأوروبا . وقد عزا تغرى بردى فشل مهمته الى موقف البنادقة المانع من طلبات السلطان ما جعله يوغر صدر سيده عليهم فيتخذ هذا اجراءات أشد عنفاً ثم لا يلبث تغرى بردى أن يتصل بهم في سجونهم ويعرض عليهم الحرية والحياة الكريمة اذا ما حضوا حكومة الدوج على اعطاء السلطان طلباته من السلاح والسفن . وبرغم كل ما قيل وما جاء على لسان تغرى بردى وحكومة الدوج فان الوثائق لا تشير بصراحة عن طبيعة المعونة المطلوبة : أهى مال .. أم سلاح .. أم سفن أم كل أولئك معا .. وهل وعد البندقية بالمساعدة السرية كان وعداً صادقا أم مسaire للظروف .. والواقع أن توالى الأحداث بعد ذلك أكد تهرب البندقية من تنفيذ وعدها للسلطان متعلقة بحرج مركزها أمام العالم المسيحي (١٧) .

واذا كانت العلاقات المالكية البندقية قد استغرقت معظم سنى حكم السلطان الغورى الا أنه لم ييخل رعاية غيرهم من التجار الأجانب وخاصة من الفلورنسيين . ففى زحمة المشكلات التى اقترنت باتساع نشاط البرتغاليين فى الهند ومحاولتهم تدمير تجارة السلطان ، وفى

== ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٢٦ (طبعة كالة)

— Heyd, Op. Cit., p. 525.

— Depping, Op. Cit., p. 270.

— Thenaud, Op. Cit., T.I. p. LII.

وكانت البندقية قد أرسلت سفارة للسلطان الغورى بشأن نصيحته له بطلب السلاح من بايزيد الثانى العثمانى والأخشاب من خليج اياس وبالفعل أرسل السلطان الى أدرة سفيرا من لدته يوضح الموقف للسلطان العثمانى .

دراج : الممالك والفرنج ص ١٤٠ و ١٤١ .

(١٧) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٩١ - ١٢٠ .

— Thenaud, Op. Cit., pp. L-LI.

— Heyd, Op. Cit., p. 493.

استنارات والبعثات الدبلوماسية لبحث هذه المشكلة وصل الى القاهرة عام ١٥٠٦ مبعوثا فلورنسيا لتحية السلطان وللحصول على تأكيدات لمواطنيه التجار من مصالح وامتيازات فى بلاد السلطان المالكى . وكانت حكومة فلورنسا قد قلقت لثقة ما بأسواق السلطان من توابل وارتفاع أسعارها وما اتخذهُ السلطان من اجراءات تعسفية ضد التجار الأجانب ، وأقلقها كذلك كثرة السفارات المتبادلة بين مصر والبندقية وخشيت أن يكون فى الأمر ما يضر بمصالحها فى مصر والشام فعقدت اتفاقية فى ١٢ من ابريل ١٥٠٦ أكد فيها الغورى رعاية حكومته لتجار فلورنسا وتأكيد ما لهم من حقوق وامتيازات ، وطلب من السفير أن يبلغ حكومته اهتمام السلطان برحصول الترابل والسلع الشرقية بصورة دائمة لبلادهم وأنه لا صحة لما يشاع عن قصور تجاره عن جلب السلع الشرقية من الهند . ثم أصدر له السلطان مرسوما شريفا موجها الى « كل واقف عليه وفاطر اليه من الجنائيات العالية والمجالس السامية ، النواب ، والصجاب ، والمباشرين ، والنظار ، والمتكلمين ، وأرباب الادراك ، وأعوان الوضائف بالشر الاسكندري المحروس وغيره من الشعوب الاسلامية والسواحل بمالكنا الشريفة .. بالأمان والاطمئنان لطائفة الفرتينين ورعاية مصالحهم ومصالح تجارهم » . - كما تضمن الخطاب تعليمات السلطان لعماله فى حالة موت أحد تجار الفلورنسيين أو انكسار احدى سفنهم وحماية ملكياتهم الخاصة هذا مع اقرار كل ما منح لهم من امتيازات نالوها فى المعاهدات السابقة من عهد السلطان اينسال والسلطان قايتباى ، وبخاصة المعاهدة الشاملة التى عقدها السلطان قايتباى مع سفيرهم « دلا ستوفا Della Stufa » عام ١٤٨٩ (أصبح قنصلهم هو الشخص ، المسئول رسميا عن طائفتهم وفى المحادثات كرر السلطان نفى الشائعات التى يرونها أعداء البرتغاليين عن انهيار

تجارته في الهند^(٦٨) . والواقع أن تجار فلورنسا لقوا رعاية خاصة في بلاد السلطان لبعدهم عن المشكلات العامة والخاصة وعدم اعتراضهم على تعليمات حكومة السلطان . ولم يحدث ما يعكر صفو العلاقات بين البلدين حتى أن السلطان كلف مبعوثه تغرى بردى بأن يعسج على فلورنسا بعد انتهاء مهمته في البندقية وحمله لحاكمها الهدايا والتحيات ومشروع اتفاقية جديدة بامتيازات أوسع في مصر والشام . وقد وجه حاكم فلورنسا خطاب شكر للسلطان الغورى على هداياه ومنحه لتجارها^(٦٩) . وحمل تغرى بردى خطاب الشكر للسلطان الذى أعد مرسوما آخر لعناله بسراعاة طائفة الفلورنسيين في بلاده وألا يؤخذ أحد بجزيرة خطأ ارتكبه آخر ، وألا يمس أحدهم مصالحهم بسوء^(٧٠) ، ومع أنه لم يحدث ما يعكر الصفو بين الفلورنسيين والسلطان الغورى في تلك الفترة فإنه عند حدوث أى نزاع بين السلطان والتجار الأجانب في بلاده كان غضب السلطان يجمع الكل بما في ذلك الفلورنسيين أنفسهم فيخضعون لشتى أنواع الضغوط والمصادرة لسلعهم وأموالهم

(٦٨) داب الفلورنسيون على زيادة اتصالاتهم ومواصلة هذا الاتصال بالسلطان المالكي فكانت القاهرة تستقبل كل عام سفيرا فلورنسيا لتأييد الصداقة وتجديد الامتيازات الممنوحة لتجارهم

— Ziada, Op. Cit., p. 246.

راجع الملحق رقم (٢٥) والاتفاقية بتاريخ ٨ ذو القعدة ٩١١ هـ/ ١٢ من ابريل ١٥٠٦ أما الاتفاقية التي ذكرها السلطان الغورى من عهد السلطان قايتباى فهي بتاريخ ٢٤ ذى الحجة ٨٩٤ هـ/ ١٨ من نوفمبر ١٤٨٩ ومنشورة بالملحق رقم (٢٠) و (٢١) وهي من أهم اتفاقيات أواخر القرن ١٥ م .

— Amari, Op. Cit., pp. 215 ff.

— Amari, Ibid, pp. 181-272-273.

(٦٩) خطاب حاكم فلورنسا للسلطان الغورى للشكر على الهدية المرسلة مع الترجمان

تغرى بردى عام ١٥٠٧ منشورة بالملحق رقم (٢٦) انظر كذلك :

— Amari, Ibid, p. XLIX.

(٧٠) خطاب ومرسوم السلطان الغورى الذى حمله تغرى بردى لفلورنسا منشور بالملحق رقم ٢٧ وفيه يؤكد السلطان للحاكم تأمين مصالح رعاياه في مصر والشام ويوجه نداء للتجار الفلورنسيين لارتداد موانئ بلاده للتجارة وكذلك صورة الامر الذى أصدره لعمال موانئه مراعاة هذه الطائفة . انظر كذلك :

— Amari, Ibid ; pp. XVII-218-220.

بالرغم من قلة عددهم^(٧١) على أنه بعد هذه الاتفاقيات زادت وكالاتهم التجارية وسمح لهم بإنشاء فروع لفرنصياتهم العامة في مصر والشام وسارت عملياتهم التجارية على نسق ما هو معمول به في فلورنسا نفسها وسح الغورى باتخاذ عزلتهم الذهبية الفرتى علة رسمية في مصر والشام^(٧٢) .

الا أن الموقف أخذ يتدهور بسرعة زائدة ، فلدى عودة الترجمان تغرى بردى من رحلته الى أوروبا قدم للسلطان تقريرا وافيا ولم ينتظر السلطان أن تفي البندقية بوعودها الحرية بل أنزل أسطولا حربيا في ميناء الطور وجعل عليه الأمير « حسين كرى » بعد أن زوده بالأسلحة والعتاد، وكان قد تحالف مع أمراء الهند وبخاصة أمراء جوجيرات لوضع حد لتصرفات البرتغاليين في مياه الهند . وتجمعت وحدات الأسطول المالكي المكون من خمسين سفينة في ميناء جدة ، ثم واصل السير الى سورات في مقاطعة جوجيرات عام ١٥٠٧ حيث انضم اليه الأسطول المتحالف من الهنود ، وفاجأ أسطول البرتغاليين بقيادة الميديا الصغير وأوقعا به الهزيمة عند شول «Chaul» عام ١٥٠٨ وقتل القائد البرتغالى في المعركة^(٧٣) ولدى وصول أنباء هذه الهزيمة الى أوروبا أثير موضوع

— Heyd, Op. Cit., p. 490.

— Amari, Op. Cit., p. 75.

(٧٢) يرجع ازدهار تجارة فلورنسا منذ النصف الثانى من القرن ١٥ الى مالتيتها المستقرة التي ارتكزت على أنظمة مصرفية رافية كانت تمول بموجيها العمليات التجارية في الشرق والغرب ومن أهم مصارفهم وبيوتاتهم التجارية والمالية بيت آل ميديشى وآل Pazzi وآل Capponi وآل Corsini وآل Falconerie راجع :

— Heyd, Op. Cit., pp. 483, 484.

— Depping, Op. Cit., pp. 232, 237.

— Clive, Op. Cit., p. 99.

(٧٣) دراج : المالكي والفرنج : ص ١٣٧ .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٣٠ - ١٤٢ (بلاق) حوادث المحرم وشعبان ٩١٤ هـ . انظر كذلك :

— Heyd, Op. Cit., p. 536.

— Lane Poole, Egypt... p. 352.

— Lane Poole, Medieval India Under Mohammedan Rule pp. 176, 177.

— Carttau, Joseph, Coup D'Oeil Sur La Chronologie De La Nation Egyptienne, p. 303.

واضح فى التوابل ، وفى المبيعات ، وفى الجمارك فلجأ السلطان الى تسهيلات واعفاءات أكثر ، وبخاصة طائفة الفلورنسيين . ففي عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م أصدر مرسوما بالتريخ لهم بدخول جميع موانيه بسا فى ذلك موانئ البرلس ودمياط ورشيد ، وكان هذا الأخير لا يزال حتى ذلك الوقت محظورا الدخول فيه على جميع الأجانب لصفته الحرية (٧٥) ومنحهم كذلك حمايته ورعايته « ... فلا يعترض عليكم أحد ، ولا يزعجكم أحد .. ولا يطالبونكم بأى شئ لآى سبب فى الحال والاستقبال (٧٦) » وفى الهند بعد هزيمة البرتغاليين عام ١٥٠٨ م أقسم « فرنسكو دالميديا Francesco D'almedia » الكبير أن ينتقم انتقاما شديدا فانتهاز فرصة لجوء الأسطول المماليكى والأسطول المتحالف معه من أمراء الهند الى جزيرة ديو للتسوين والاصلاح ، وفاجأه وأوقع به الهزيمة فى معركة رهية فى ٣ من فبراير ١٥٠٩ م دمر فيها معظم السفن المماليكية والهندية . وانسحب الأمير حسين كردى بعد ذلك الى جدة (٧٧) أما السلطان الغورى فقد هزته الهزيمة ورأى أن احتياطيه من الأموال والاسلح يتناقص بالتدريج ، فى الوقت الذى تزداد فيه قوة البرتغاليين فى الهند وتتسع أملاكهم وتنشط تجارتهم . وكرر طلب الاسلح من السلطان بايزيد الثانى العثمانى الذى وعد بارسال مطلوبه هدية لانتفاذ

(٧٥) لبناء رشيد صفة حربية منذ عهد الأيوبيين ، وكان منع وصول الأجانب اليه للشك الذى كان يحيط بهم دائما من محاولتهم غزو مصر من الشمال ثم بطريق النيل . راجع كذلك فصل الطرق والمحطات التجارية وكذلك :

— Heyd, Op. Cit., p. 428.

(٧٦) بالملحق رقم (٢٨) مرسوم السلطان الغورى بتاريخ نوفمبر ٩١٤/١٥٠٨ هـ .

بعد عودة السفير تفرى بردى الى القاهرة وفيه يؤكد امتيازات السلطان للفلورنسيين فى بلاده وأمر لعماله بمراعاة مصالحهم . راجع :

— Amari, Op. Cit., p. L. & p. 388.

(٧٧) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٧٨ - ١٧٩ .

دراج : المالك والفرنج ص ١٣٧ - ١٣٨ .

— Heyd, Op. Cit., p. 536.

— Depping, Op. Cit., p. 269.

— Lane Poole, Med. India, pp. 176, 177.

— George Dunbar, A Hist. Of India, Vol. I. p. 152.

مساعدة البنادقة للسلطان المماليكى بالاسلح والمال والأخشاب وكان ملك البرتغال من أكثر المتحمسين لاتهام البندقية ، اذ وصلته أنباء متضاربة عن شحن البنادقة لسفينتين بالمدايع لتكونا تحت تصرف السلطان الغورى فى صراعه مع البرتغاليين فى الهند وأرسل الملك البرتغالى عمانويل احتجاجا شديدا وتهديدا للبندقية لمعاونتها أعداء المسيحية وأعداء البرتغال (٧٨) .

واقع الأمر أن البنادقة كان يسرهم فعلا مساعدة السلطان لوقف نشاط البرتغاليين فى المياه الشرقية ، وتسبوا لو أنه استجاب لدعوتهم فى السنوات الأولى لوجود البرتغاليين فى الهند ، حيث كان بالامكان القضاء على قواتهم بسهولة . ولكن مساطلة السلطان وانصرافه الى الاحتجاج السلمى والبعثات الدبلوماسية لدى ملوك وأمراء أوروبا وبابا روما جعل البنادقة يشعرون بخيبة أمل ويحجمون عن المساعدة الحرية . واستندوا فى ذلك الى حرج موقفهم أمام العالم المسيحى . والثابت فعلا أن البنادقة لم يكن لهم ضلع فى حملات السلطان ضد البرتغاليين فى الهند ، بل انهم فى هذه الفترة كانوا فى شغل شاغل بمؤتمرات حلف كامبرى . ومع نجاح العمليات الحرية المماليكية فى مياه الهند الا أن سفنهم التجارية لم تعد تمارس نشاطها السابق ، وذلك لتجمع سفن الأسطول البرتغالى عند مدخل البحر الأحمر وفى الهند وترصدها السفن المماليكية . وفى الوقت نفسه أحجم التجار الأجانب عن الوصول لمصر والشام بعد هزيمة شول ١٥٠٨ حتى لا يتهموا فى العالم المسيحى بمساعدة السلطان ماديا ضد البرتغال ، وأدى ذلك الى نقص

(٧٨) أرسلت البرتغال احتجاجها الذى وصل الى البندقية عام ١٥٠٩ كما وصل احتجاج ملك فرنسا عام ١٥١٠ ولتتبع البندقية بتدبير هزيمة البرتغاليين وقتل قائد أسطولهم فى مياه الهند . واستندت البندقية على هذا الاحتجاج فى تبرئة نفسها من حوادث فرسان رودس والسلطان التى تلت ذلك وأبلغت السلطان أن عدوها المشترك هو الفرنسيون مديرو هذه الحوادث . راجع :

— Heyd, Op. Cit., p. 536.

الأماكن الإسلامية المقدسة ، اذ اعتقد كلاهما ان البرتغاليين لن يهدأ لهم بال حتى يصلوا الى مكة والمدينة . ووصلت السفن المالكية الى ميناء الاسكندرية لتحصيل المعونة التركية (٧٨) . وفى نفس الوقت قبض السلطان على عدد كبير من تجار البندقية وأرسلهم الى سجون القاهرة وأوصى الحراس بأن يوحوا اليهم بأن حريتهم مرهونة بدعوة جمهوريتهم لمساعدة السلطان حرييا فى الهند . ولما بلغ البندقية ما حدث أرسلت تبدي استعدادها لمعونة السلطان حرييا ، بل ومد الهنود كذلك بالسلاح لطردهم البرتغاليين ، ولكن موقعها الحرج فى العالم المسيحي يمنعا الآن من تقديم هذه المعونة سرا أو علنا (٧٩) .

أما باقى الجمهوريات والمدن الايطالية فكان لأبناء هزية ديو ١٥٠٩ أثره السيء فيها ، ففى فلورنسا بدا القلق واضحا على مصالحها وأسرت بارسال سفارة الى القاهرة يرأسها « برناردو بيروشوا Bernardo Pirochowa » ، ووافقه السلطان على كل طلباته ومنح تجاره موسما تجاريا بالاسكندرية وقنصلية دائمة بها ، وأمر عماله بمراعاة هذه الطائفة ، وضمن ذلك اتفاقية بتاريخ ٩ يوليو ١٥٠٩ ، وهى لاتخرج عما سبق أن عقد فى السنوات السابقة (٨٠) .

— Thenaud, Op. Cit., p. LIV.

(٧٨)

يذكر ابن اياس ج ٤ ان البنادقة نصحوا السلطان الغورى بطلب السلاح من السلطان بايزيد العثماني ويذكرها فى حوادث رجب ٩١٦ هـ « ٠٠ وفيه حضر يونس العادل وكان السلطان قد أرسل الى بلاد ابن عثمان ليشتري له أخشابا وحديدا وبارودا » فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المبلغ الذى كان مع يونس العادل وقال له انما أجهز من عندى زردخانه للسلطان فحضرت فيما بعد ٠٠ «

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٩٦ (طبعة محمد مصطفى) .

— Heyd, Op. Cit., p. 537.

(٧٩)

(٨٠) الواقع انه فى فترة حكم الغورى لم يحظ من التجار الأجانب مثل ما حظى به تجار فلورنسا من رعاية ، فلم تنقطع سفنهم مدة طويلة مثل ما حدث للبنادقة وتجارهم وكذلك فرنسا وقطالونيا ، بل انه من دواعى فخر فلورنسا ان البندقية استخدمت سفنها فى كثير من الأحيان فى نقل متاجرها من شرق البحر المتوسط =

وفى أثناء ذلك حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فقد وصلت الى الاسكندرية خمس سفن فرنسية محملة بأثواب الحرير والصوف والسلع الأوربية الأخرى ، وبعد أن انتهى التجار من بيع ما معهم من سلع أفلقت السفن عائدة وعلى ظهرها بعض المغاربة وأسرههم وأمتعتهم فى طريقهم الى بلادهم ، فترصد لها فرسان رودس عند « كاسل روسو Castle Rossou » وأسروها واقتادوها الى الجزيرة وجردوها من حوالتها وأسروا ركابها ثم أطلقوا سراح السفن وبحارتها الفرنسيين لتواصل السير لفرنسا . وكان من جملة ما غنمه الفرسان ما يساوى أربعين ألف فوكات (٨١) ولما بلغ السلطان الغورى ذلك اعتقد أن قباطنة السفن الفرنسية دبروا هذه المؤامرة بالاتفاق مع الفرسان وأعطوهم مواعيد العودة من الاسكندرية . وفى ثورة الغضب قبض السلطان على « فيليب ده بيريتاس Philip De Peretas » قنصل فرنسا الذى يشل قطالونيا كذلك ، وأمر بالقبض على جميع رعايا فرنسا ووضعهم فى سجون القاهرة ومصادرة أموالهم وأملاكهم . واقرنت هذه الاجراءات باشاعة عن خيانة ترجمانه تغرى بردى واشتراكه فى المؤامرة مع الفرسان فقبض عليه السلطان وسجنه بعد أن جرده من ألقابه ومسايلكه ، وأحل

= الى أوروبا فى فترة انقطاع العلاقات البندقية المالكية اواخر عهد الغورى ، وذلك للاحترام والحماية اللتين حازتهما فلورنسا وتجارها فى مصر والشام .
راجع :

— Heyd, Ibid, p. 484.

— Depping, Op. Cit., pp. 236, 237.

— Thenaud, Op. Cit., p. LV, LVI.

(٨١)

دراج المالك والفرنج ص ١٤١ - ١٤٢ .
هاجم فرسان رودس السفن الفرنسية العائدة من الاسكندرية انتقاما لما فعله المالك فى مارس ١٥٠٩ عندما هاجم الفرنج ميناء الطينة شرقى دمياط ، اذ أسروا سفينة لهم ومن عليها وأرسلوهم الى القاهرة . أنظر كذلك :
ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٦ .

محله النرجسان يونس . وهو مملوك أوربي اعتنق الاسلام (٨٢) . ولم يكدينفرغ السلطان من هذه الاجراءات حتى فوجيء بكارثة أشد وأكثى؛ فلدى عودة سفن السلاح الثاني عشرة، والمرسلة من السلطان بإيزيد الثاني العشاني من الاسكندرونة الى مصر، أحاطت بها سفن الفرسان ودارت بين الطرفين في ١٠ من أغسطس ١٥١٠ معركة غير متكافئة ، استغرقت عدة ساعات غرقت فيها بعض السفن المصرية، وأسر الفرسان البعض الآخر وتاهت سفينتان في العاصفة ولم يصل للاسكندرية سوى ست سفن خاوية (٨٣). وكانت هذه الكارثة تفوق طاقة السلطان الغوري،

(٨٢)

— Thenaud, Ibid, p. LVI.
— Heyd, Op. Cit., p. 537, 538.

— نما الى علم السلطان تواطؤ تغرى يردى كبير النراجمة السلطانية مع الفرنج وانه كاتبهم بأحوال الملكة عن عجز السلطان على تجهيز حملة بحرية وخلو السواحل من التحصينات الحربية — فامر بالقبض عليه والترسيم على بيته وأمواله .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٦١ (كالة) حوادث المحرم ١١ محرم ٩١٧ هـ / ابريل ١٥١١ ثم حل محله آخر المحرم ٩٢٠ هـ النرجسان يونس وهو مملوك اجنبي كان من Verona واعتنق الاسلام وتسمى باسم يونس .
دراج : الماليك والفرنج ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٨٣) تحصل مصر على حاجتها من الأخشاب اللازمة لبناء السفن من آسيا الصغرى برصد لها عن طريق ميناء الاسكندرونة ، ولما علم الفرسان بذلك ترصدوا سفنها في ١٠ من أغسطس ١٥١٠ وصادروا شحناتها لسالحهم ، وقام بهذا العمل قائد أسطولهم المدعو André Di Amaral ، وهو برتغالي الأصل . بعد أن تأكد من أن هذه الشحنة من السلاح والخشب معدة للحرب ضد البرتغاليين .

راجع :

— Heyd, Op. Cit., pp. 537-539.
— Depping, Op. Cit., p. 270.
— Thenaud, Op. Cit., p. L.IV.
— Darnes, The Book Of Durate Barbosa, Vol. I. p. 133 — R.I.

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٢٨ حوادث رجب ٩١٣ هـ وكذلك ج ٤ ص ٢٠١ حوادث شوال ٩١٦ هـ حيث ذكر .

وفيه وصلت عدة مراكب من عند ابن عثمان ملك الروم، وفيها زردخانه للسلطان، فوصلت الى بولاق عند الرصيف . وشرعوا يحولون ما فيها الى القلعة ، فكان من جملة ذلك مكاحل مسيقيات العدة ثلاثمائة ونشاب ثلاثين ألف سهم ، وبارود أربعون قنطارا ومقاذيف خشب . . وسلب وحبال مراسي حديد وغير ذلك مما تحتاج اليه المراكب . فشكره السلطان =

فامر بالتحفظ على جميع السفن الأجنبية في موانئ مصر والشام . وركل بالأجانب في بلاده . وخاصة البنادقة ، لظنه أنهم وشوا بأمر هذه السفن للفرسان ، وأرسلهم الى سجون القاهرة بعد أن صادر أموالهم وأملأهم ، وطرد رجال الدين من أديرتهم ، وأجبر مطران دير جبل صهيون على دفع غرامة قدرها أربعة آلاف دوكات فورا ، وصادر الحلبي والأواني المستعملة في الطقوس الدينية في الكنائس ، واشترط لردّها أن تدفع عنها غرامة قدرها خمسة آلاف دوكات . وفي الشام قاسى البنادقة نفس المصير وأغلقت خاناتهم وفنادقهم وقبض على تجارهم وقناصلهم (٨٤) .

ويبدو أن الظروف كلها كانت تقف موقف العداء من البنادقة : ففي مايو ١٥١١ قبض حاكم مدينة البيرة على الفرات، على قبرصى من فماجوستا يدعى « نيقولين سورير » يرافقه فارس ويحصلان خطابا من الشاه الصفوى موجهما الى دوج البندقية وقنصلها في دمشق « توماسوكوتارينى » وخطابا آخر الى قنصلها في الاسكندرية « بيترو زين » . وكان الرجلان — بمساعدة قناصل البندقية في مصر والشام —

— على ذلك . وكان السلطان قد أرسل مالا على يد يونس العادل الى بلاد ابن عثمان لشراء الأخشاب والنحاس والحديد . . فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد عليه المال وجهز ما ذكرناه من عنده مقدمة للسلطان .

(٨٤)

— Heyd, Op. Cit., pp. 538-539 & 540.
— Depping, Op. Cit., p. 329.
— Charles Roux, Op. Cit., Vol. I. p. 42.

يتجنى المؤرخون الأجانب على اجراءات السلطات المالكية ضد التجار الأجانب عقب حوادث تهجم دولهم وقرصنتهم على مصالح العرب ويتهمون السلاطين بالاعتداء على الكنائس والأماكن المقدسة المسيحية والواقع أن هذه الاجراءات تتصف بالصفة المالية البحتة ، فهي تأخذ شكل تمويزات للخصائر التي تصيب الماليك . ولعل أبلغ رد على هذا التجنى ما نعلمه من رعاية السلاطين حتى القورى بتميعر كنائس بيت المقدس ودير جبل صهيون ، بل وتزايد اعداد التجار والحجاج الأجانب في معظم الأحيان .

دراج : الماليك والفرنج ص ١٤٣ و ١٤٤ .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ طبعة كالة ص ١٩٦ — ٢٥٥ — ٢٦٩ .
راشد الجراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٤٥ عن فئات القراصة في البحر المتوسط .

قد استطاعا تهريب رسائل من دوج البندقية الى شاه فارس ، وفي عودتهما حبل الرد ، ولكن شاء سوء حظهما أن يقعا في يد السلطات المالكية (٨٥) . وأرسلا الى حاكم حلب خاير بك ، ومن ثم الى القاهرة بتقرير من الحاكم الى السلطان ابان فيه خطورة ما قام به الرجلان والقناصل . وخاصة أن الحرب بين الصفويين الشيعيين والعثمانيين السنيين كانت وشيكة الوقوع ، وأملأك السلطان الغورى فى شمال الشام تقع بين القوتين المتصارعتين ، وهو لا يريد أن يجر نفسه الى مثل هذه المتاعب . وكان هذا العمل من البنادقة محكا لاثارة السلطان الغورى ، بالإضافة الى الحادثتين السابقتين ، واعتبر السلطان أن عمل القنصلين خيانة عظمى موجبة لشخصه وبلاده . ووصل المتهمون للقاهرة حيث استنجبوا دون نتيجة هامة ثم ألقوا فى السجن (٨٦) وكان لهذه الأبناء أسوأ الأثر فى البندقية ومستعمراتها ، وكان لابد من اتخاذ اجراء سريع لاعادة العلاقات واطلاق سراح الأسرى ، ولكنها كانت حتى ذلك الوقت فى شغل شاغل بمشكلات اتحاد كامبرى Cambri ، كما أن

(٨٥) كان القنصل Pietro Zen سفيرا للبندقية فى تبريز قبل أن يمثل بلاده مى بلاط السلطان المالكي أما Contarini فهو وأسرته كانوا على علاقة ودية مع أوزون حسن التركمانى فقد كان قريبهم Ambroiso Contarini سفيرا للبندقية فى بلاط التركمان فى تبريز عام ١٤٨٧ .

— Thenaud, Op. Cit., T. II. p. LXIII.
وكان Caloyani امبراطور طرابزون قد زوج ابنته Despina لاوزون حسن وتزوجت بناته الثلاث الأخريات من قبرص والبندقية .

— Heyd, Op. Cit., p. 539.
— Thenaud, Op. Cit., T. II. pp. LXIII — LXIV.

(٨٦) ترجع خطورة هذا الحادث الذى أثار مخاوف السلطان الى صلة القنصلين بغاوس والشاه اسماعيل الصفوى « راجع ملاحظة ٨٥ » وخاصة صلة بييتروزين بحسن الطويل الذى يمتد نسب الشاه اسماعيل الصفوى اليه . وكان الخلاف قد بدأ واضحا بين الماليك والصفويين منذ عهد السلطان الغورى الذى تقع املكه فى الشمال بين القوتين المتصارعتين العثمانيين والصفويين ، والسلطان الغورى لا يرغب فى اقحام نفسه فى خلافتهما . انظر : دراج : الماليك والفرنج ص ١٤٥ .

— Heyd, Op. Cit., p. 539.
— Thenaud, Op. Cit., T. II pp. LXIII, LXIV.

لها فى بلاط مصر أعداء آلداء لم يهسلوا الفرصة للايقاع بينها وبين السلطان .

ومن خلال المشكلات العديدة التى واجهت السلطان الغورى أبدى بعد نظر وتفهم للمشكلة، فقد وجد أن الفرسان هم أعداؤه فعلا، والمتناوتون له فى شرق البحر المتوسط ، وأن باستطاعتهم التعرض لكل معونة عسكرية ترسلها له تركيا أو البندقية . فرغب فى تصفية المشكلات معهم ، ورأى أن الأمر يحتاج لتوسط فرنسا ، ولها اذ ذاك ظل من السيادة عليهم وللفرسان نوع من التبعية لفرنسا . وظهر بجلاء أهمية القنصل الفرنسى والقطالونى المحبوس . وكذلك أهمية ترجيانه السابق تغرى بردى (٨٧) . واتصل القنصل الفرنسى بلويس الثانى عشر ملك فرنسا ، وفى الوقت نفسه أرسل الغورى تاجرا راجوزيا مقيما فى الاسكندرية ليدعم محادثات السفير مع الملك الفرنسى ويعرض صداقة السلطان واعادة ما لفرنسا من امتيازات وحقوق فى تجارة الشرق وتسهيلات جبركية والسماح للحجاج بالوصول للأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين بحرية كاملة ، وأعلن لويس الثانى عشر هذا كله فى أسواق مدينة ليون خلال الاحتفالات بعيد الفصح عام ١٥١١ وشجع التجار لارتياح أسواق مصر والشام ، وأضاف أنه أرسل سفيرا

(٨٧) كان لفرنسا ظل من السيادة على فرسان رودس ، فقد كان وزير البلاط الملكى الفرنسى وكاردينال نابلي فيما بعد شقيق مقدم الاسبتارية فى رودس Aimery D'Amboise وفى وسعه ومقدوره أن يضبط عليه لاعادة سفن السلطان التى استولى عليها فى خليج اياص وأن يحمله على الكف عن أعمال القرصنة ضد الدولة المالكية . انظر : ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ (كالة) ص ١٩٦ — ٢٥٥ — ٢٥٩ — ٢٦٩ .

— Heyd, Op. Cit., pp. 539, 540.
— Thenaud, Op. Cit., pp. LVIII, LIX & R.I. p. LIX.

قنصل فرنسا هو Phillipe De Peretas وكان يمثل كذلك قطالونيا ونابلي وكان على عداء مع البنادقة ، وبالرغم من أنه قاسى نفس المصير الذى قاساه الأجانب وقناصلهم الا أنه لم يبق فى السجن أكثر من شهر بسبب رغبة السلطان فى الاستمانة به فى تحسين العلاقات مع فرنسا .

— Thenaud, Op. Cit., pp. LV, LVI.

لمصر لاتسام الاتفاقية التي اقترحها السلطان الغورى . أما الترجمان تغرى .
بردى فقد وصل الى رودس بعد أن مهد له السفير الفرنسى مقابلة مقدم
فرسانها بمساعدة الرهبان الفرنسيسكان فى بيت المقدس وأبدى كبيرهم
الرغبة فى اصلاح الأمور مع السلطان ، اذ كانت الأنباء توحى بقرب
هجوم عثماني على جزرهم ، ولكنه اعترض على رد الغنائم والأسلاب^(٨٨)
ووصل فى ٢٥ من مارس ١٥١٢ الفارس « اندريه لوروا Andre le Roi
سفير ملك فرنسا ، وذكرها ابن اياس فى حوادث المحرم ٩١٨ هـ /
١٥١٢ م ... وأشاعوا أن قاصد ملك الفرنج قد جاء يسعى لدى
السلطان فى عقد معاهدة للتجارة ومساعدة السلطان فى المحيط الهندى
وفتح القيامة (كنيسة القيامة) التى بالقدس^(٨٩) . ووصل السفير الفرنسى

(٨٨) تأكد السلطان الغورى أن فرسان رودس هم العقبة فى سبيل الوصول الى حل
لمشكلة البرتغاليين فى الهند وهم العقبة فى سبيل وصول المواد الحربية الى مصر من تركيا
فقدس تحسين العلاقات معهم بمنحهم تسهيلات تجارية ببلادهم والسماح لهم بالوصول لبيت
المقدس للحج وكذلك ارضاء ملك فرنسا لويس ١٢ بمثل ذلك ليضمن عدم تهجمهم على
سفنه . انظر :

— Thenaud, Op. Cit., p. LXI & N.p. 5.

— بالملحق ترجمة للجزء الخاص بالحج الى بيت المقدس وسينا . وبخصوص المعاهدة
بين السلطان الغورى ولويس ١٢ انظر النص فى

— Heyd, Op. Cit., p. 540.

— ذكر Thenaud كذلك أن وصول سفير السلطان الغورى بخطابات الى ملك فرنسا
كان بداية طيبة للعلاقات بينهما . وقد ذكر ذلك ملك فرنسا خلال زيارته لمدينة ليون فى
عيد الفصح عام ١٥١٢ وقال أنه وردت اليه خطابات من السلطان العظيم الذى يحكم مصر
والشام وجزءا كبيرا من بلاد العرب . وهى مكتوبة باللغة العربية ويعرض صداقته حتى
يعيد لفرنسا مكانتها الدينية التى كانت تتمتع بها منذ الحروب الصليبية بوصفها الدولة
التي قامت بالدور الأكبر فى الحروب الصليبية ، كما يمكنها من أن تتزعزع من البنادقة
والجنوبيين حق حماية المسيحيين الذين بالاراضى المقدسة . انظر :

دراج : الممالك والفرنج من ١٥٠ . وكذلك :
— Thenaud, Op. Cit., pp. LX, LXI — LXVII.

(٨٩) عين لويس ١٢ Guillebert Chauveau سفيرا الى السلطان الغورى ولكنه
مالئ أن تجاه بعد أن علم بسابق فشله . فى محادثات مماثلة مع السلطان العثماني
باريد الثاني عام ١٤٩٨/١٤٩٩ لوقف الحرب بين العثمانيين والبنادقة ، وعين ذلك
Andre Le Roi لعقد معاهدة مع الغورى وكان السفير يشغل وظيفة سكرتير الملك لويس ١٢
وموافق عقوده . ثم رقاء بعد ذلك أمينا لخزائنه وأرسله الى نابلى فى ٢٠ ابريل ١٥٠٢ ليعاون =

القاهرة ، وتفاوض مع السلطان ، وكان محور المحادثات وقف هجمات
الفرسان ومنح الفرنسيين تسهيلات فى بلاد السلطان . وأرسل السلطان
مندوبا عنه الى الفرسان فى رودس لأخذ موافقتهم على طلبات السلطان
الخاصة باحلال السلام بين الطرفين ، وحرية الملاحة فى شرق البحر
المتوسط ، مع منحهم حرية التجارة فى بلاده والحج بالقدس ، وطال
انتظار السفير بالقاهرة ، ولم يصل رد الفرسان ، واضطر السفير الى
مبارحة القاهرة الى رودس وترك ابنه بالقاهرة . أما أعضاء البعثة
الفرنسية فقد سافر بعضهم الى بيت المقدس ، وأبحر بعضهم الى رودس
نفسها^(٩٠) .

ومع الجهود الهائلة التى بذلها السفير والترجمان تغرى
بردى فى بلاط السلطان الغورى وملك فرنسا ولدى فرسان رودس ،
الا أن هذه الجهود لم يقدر لها النجاح ، فلا السفير أندريه ، ولا مندوبه
« بارليه » الى رودس ، استطاعا أن يكبحا جناح فرسان رودس فى
عدائهم للسلطان ، والسفن التى أسرت لن تعود ، وهجمات الفرسان لم
تتقطع ، والبعثة الفرنسية لم تصل الى نتائج حاسمة مع السلطان ، ولم

= الكاردينال حاكم المقاطعة كما أرسله سفيرا الى بابا روما عام ١٥٠٢
ثم الى سويسرا وبقي بها حتى استدعاه ، لسفارة القاهرة ١٥١١/١٥١٢ وظل يخدم بلاده فى
سفارات عديدة . راجع :

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٥٥ حوادث المحرم ٩١٨ هـ / ١٥١٢ م (كالة)

— Heyd, Op. Cit., p. 537.

— Thenaud, Op. Cit., pp. LX, LXI, — LXVIII. & ff.

— Charles Roux, Op. Cit., T.I. p. 42.

(٩٠) يذكر Marc Trivizani حاكم كريت وشقيق السفير البندقي دمكوترينزاني
الذى سافر القاهرة لتسوية مشاكل البندقية والسلطان عام ١٥١٠/١٥١١ « ان عدم وصول
رد الفرسان فى الوقت المناسب أعطى لشقيقه دمكوت فرصة سانحة ليقوى مركزه أمام
السلطان الغورى واستجاب هذا لطلباته وان كان السفير يود تحقيق كل ما جاء من أجله
ولكنه اكفى بما ناله . راجع :

— Heyd, Op. Cit., pp. 484-490.

— Thenaud, Op. Cit., p. LXXIX.

تستعد ما كان لها على عهد السلاطين العظام منذ منتصف القرن
١٥ م^(٦١) .

كانت البندقية ترقب تدهور علاقاتها بالسلطان وازدياد نفوذ
الفرنسيين والفلورنسيين بكثير من القلق فى الوقت الذى كان فيه
تجارها نزلاء سجون القاهرة ، فصمست على معاودة الاتصال بالسلطان
لإصلاح ذات البين ، وألح وفد تجارها على حكومتهم أن تعنى بإرسال
بعثة يرأسها مندوب يعلو مركزا على سفير فلورنسا وسفير فرنسا . ففى
٢٠ من يناير ١٥١١ تقرر إرسال رسالة خاصة مع مبعوث الى السلطان
للتسهيل لمفاوضات شاملة لكل الأمور المتعلقة بين الطرفين حتى اذا
سنت الفرصة أرسلت سفيرا لعقد الاتفاق وأثارت حكومة البندقية
فى الرسالة دهشتها وتضايقها مما حدث لتفصلها فى دمشق
والاسكندرية ولهيئة تجارها فى بلاد السلطان ، ومعاملتهم معاملة
الأعداء ، وعزت ما حدث الى تحريض من أعداء السلطان وأعدائها ،
وقصدت بذلك أن توغر صدره على الفرنسيين وفرسان رودس ومن
ورائهم البرتغاليين وأوضحت حكومة البندقية مشكلة ضبط الرسائل
مع القنصلين ، فقالت ان مبعوثي الشاه الصفوى قصدا فرنسا لوجود
علاقات بين البلدين ، ولدى عودتهما مرا بالبندقية وطلبا باسم سيدهما
الشاه اسماعيل تجديد صداقته مع حكومة الدوج ، ولبسطة الأمر
لم تبلغه البندقية للسلطان كسابق اتفاقيهما ، وأضافت فى الرسالة
أنها لم تعط اجابات شافية للمبعوثين ، ولم يكن دور القنصلين البندقيين
أكثر من عليهما بمرور المبعوثين على البندقية بعد عودتهما من فرنسا.
وعلى أى حال فان حكومة الدوج ستقطع تماما كل صلة لها بالشاه
الصفوى . وقصدت البندقية من هذا كله الصاق التهم بفرنسا ورودس
والبرتغال ، وفى نفس الوقت لا تسكن فرنسا من التوسع فى تجارة

(٦١) ابن اياس : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥٥ - ٢٥٧ - ٢٦٨ .
— Heyd, Op. Cit., p. 541.

مصر والشام . وكعادة البندقية لم تترك الفرصة تسر دون أن تذكر متاعب
تجارها وقناصلها ونوابهم وتطلب المزيد من التسهيلات ، ووعدت فى
الرسالة بسواصلة العمل على خطوط الملاحة لمصر والشام بصفة دائمة ،
وفى ختام الرسالة أبلغت أن سفيرها للقاهرة يتجهز للسفر وسيصل فى
موعد قريب .

وفى دورة السيناتو فى ١١ نوفمبر ١٥١١ اختار المجلس
« دومنكو تريفيزاني Dominico Trivizani » سفيرا ومندوبا فوق العادة
للتفاوض مع حكومة السلطان وتكونت هيئة مستشاريه من الخبراء
الموسمين المجريين فى شئون الشرق وتجارته ومع البشة تعليمات بعقد
اتفاق اقتصادى جديد وتعليمات باعادة فتح طريق الحج للأراضى
المقدسة ورد كنوز كنائسها . ووصلت السفارة فى ٩ من مايو ١٥١٢
وفى نفوس أفرادها آمال كبار لتحقيق أهداف بعثتهم . وأعطت البندقية
تعليمات لسفيرها الى القاهرة بالترام القواعد الدبلوماسية ، وتقديم الهدايا
المناسبة للسلطان ورجاله ، والثناء على سياسته ، وأن يكرر للسلطان
ما سبق أن ذكر فى خطاب ٢٠ من يناير ١٥١١ عن خيانة ملك فرنسا وعداوته
له ومؤازرته للفرسان أعداء المسلمين من مئات السنين ، كما أن ملك
فرنسا والفرسان لا يداومون الحضور لموانيه الا مرة كل ثلاث سنوات ،
فى حين أن البنادقة عملاء دائسون يداومون الحضور مرتين أو أكثر فى
العام الواحد . وبخصوص موضوع القنصلين فعليه أن يثبت للسلطان
حسن نيتهما وأنهما أخذا علما فقط بمرور مبعوثا الصفوى على البندقية
بعد عودتهما من فرنسا ، فى مقابلة ودية . ثم عليه أن ينتقل بعد ذلك
الى الأهم وهو الشئون التجارية : ويحدد مع السلطان أسعار التوابل
الشريفة والحرير حتى لا يستع تجارهم عن الشراء ويتوجهون الى
لشبونة ، وأعطيت للسفير رءوس موضوعات أخرى هامة خاصة
بحجز السفن أكثر من اللازم بعد المدة ، أو اعطائها أوامر بالرحيل قبل
تشوين كل مشترياتها وبعدم تغيير ديوان القبان ، وهسو من أهم

المصالح الحكومية المتعلقة بتجارة البندقية وأن يحصل على معاهدة بكل طلباتهم في أمر « مربع » واجب الاحترام والتنفيذ (٩٢) وفي المقابلة الأولى مع السلطان ثار السلطان الغورى على تريفزاني لمحاولة تبرير فعل القنصلين ، وكادت تنقطع المفاوضات وتفشل السفارة ، حتى أن تريفزاني أمر بحزم حقائبه للعودة ، إلا أنه عاد ورجع العقل وعمل على تهدئة خاطر السلطان ، وذكر أنه يجهل تماما ما فعله القنصلان ، وأنه وحكومته يلتسان الصنف عنهما واطلاق سراحهما وترحيلهما الى البندقية لمحاكمتهما طبقا للقانون ليلقيا الجزاء الحق (٩٣) والواقع أن هذا المسلك

(٩٢) بالمحقق يرسم ١١ خطاب البندقية في ٢٠ يناير ١٥١١ للسلطان الغورى تشكو فيه من الاجراءات الانتقامية ضد البنادقة بسبب الجسس . وبالمحقق كذلك نص تعليمات السناتو للسفير دومنكو تريفزاني برقم (١٢) وبتاريخ ٣١ ديسمبر ١٥١١ يقصد بالامر المربع نوع من الوثائق يحق لمن يحمله أن يلاقي التسهيلات في تنفيذ مطالبه وما جاء به من بنود واجبة التنفيذ . أما الامر الطويل فليس له نفس الصفة كما أنه يكتف بأوراقا كثيرة .

وصل السفير البندقي للقاهرة في ٢٣ صفر ٩١٨ هـ / ١٥ من مايو ١٥١٢ م .
راجع : ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٥٩ (كالة) .

(٩٣) يذكر مارك انطونيو حاكم كريت وشقيق السفير البندقي الى القاهرة وصفا للمقاء بين السفير والسلطان فيقول : « ان الزيارة الاولى استغرقت حوالي ٣ ساعات ظل السفير خلالها واقفا وقبعت في يده ودار الحديث في هذه الجلسة بخصوص القنصلين المتهمين بالتجسس لحساب الشاه الصفوي الذي يعرض السلطان وبلاده للخطر . وكان السلطان يتحدث وهو ثائر ، وبذل السفير جهودا جسارة لكي يهدئ من ثورته . ولكي يبدد كل ظنونه وشكوكه ، وشرح له ماهية الموضوع ، وأنه ليست هناك أية خيانة من جانب حكومة البندقية أو قنصلها إنما هو سوء تصرف منهما . وأكد السفير أن هذه الأمور مما يعنى بها رجال حكومته بكل أمانة . وبدا أن السلطان قد اقتنع بكلام السفير إلا أنه ما لبث أن صاح قائلا : « .. انى فعلا مقتنع من براءة حكومة الدوج ، ولكن ذلك القنصل زينو قد أساء الى بغيانته اساءة لا تحتمل ! » وكان السلطان يتكلم ووجهه مكش بالغضب الشديد والسفير يحاول اثبات حسن نية القنصل وبراءة حكومة البندقية . ثم هب السلطان ، وقال : « .. أيها السفير .. هل تعرف كيف تسير الأمور الآن ؟ اذا كنت موقفا من قبل دوج البندقية سفيرا للتحية أو للاتفاق التجاري فمرحبا بك ، أما اذا كنت قد آتيت لحماية لصوص والدفاع عن خونة فليس لك مكان هنا في قصرى . اذهب في رعاية الله ومعك تجارك فليس لي بك ولا بهم حاجة » . راجع :

— Heyd. Op. Cit., p. 541.
— Thenaud, Op. Cit., pp. LXXX, LXXXI.

من تريفزاني كان له رد فعل طيب فى نفس السلطان الذى ما لبث أن هدأت نفسه وأخذ برأى السفير ، وطلب منه أن تقوم حكومة البندقية بمحاكمتها بشدة وأن يشنقا فى الميادين العامة أو يسجنا مدى الحياة . وأطلق سراح القنصلين وسيقا « كوتناريني Centarini » الى دمشق لتصفية أعباله هناك ، ومنها رحل الى البندقية ، وتم مثل ذلك بالنسبة لقنصل الاسكندرية ، وفى نفس الوقت أطلق سراح التجار المأسورين وردت اليهم ودائعهم ، وهكذا تحقق الهدف الأول من البعثة بنجاح (٩٤)

أما الهدف الثانى وهو الأهم والأشق فكان على تريفزاني أن

— Thenaud, Ibid, pp. LXXXII, LXXXIII.
— Heyd, Op. Cit., p. 542.

(٩٤)

أ - العلاقة بين البندقية وفارس ليست بالامر الجديد فى تاريخهما الدبلوماسى . فقد تحالفت البندقية وحسن الطويل لمواجهة عدوها المشترك السلطان محمد الثانى العثمانى . كما أن الصفويين خلفاء حسن الطويل كانوا يودون الوصول الى البحر المتوسط عبر أملاك السلطان المالىكى . وفى نفس الوقت شعر البنادقة بتدهور أحوال الدولة المالىكية فرغبوا فى احياء الطريق التجارى عبر العراق والخليج الفارسى وهو يمر بأملاك الصفويين . وحياء هذا الطريق لا يتم الا اذا أصبح للصفويين منفذ على البحر المتوسط الذى تطل عليه أملاك الدولة المالىكية والعثمانية . فقصده البنادقة والصفويين من تحالفهما تبادل المصالح العسكرية والاقتصادية . انظر :

دراج : الممالك والفرنج ص ١٤٦ .

ب - وهناك رأى آخر يقول ان انهيار تجارة مصر بعد وصول البرتغاليين الى الهند جعل البندقية تفكر فى الاستيلاء على نصر وتصل بنفسها الى المياه الهندية ، وهى تحتاج فى ذلك الى حليف ضد القوة الشمالية « العثمانيين » ، فوجدت فى الصفويين الحليف المنشود . ويؤكد ذلك ما عرضه البنادقة على السلطات المالىكية بحفر قناة تصل البحر الاحمر بالمتوسط . انظر :

دراج : الممالك والفرنج ص ١٤٧ . وبالمحقق رقم ٦٠ مشروع حفر القناة (والوثيقة مترجمة عن الايطالية من :
— Fitore Anchieri, Suez Il Mondo D'Oggi, pp. 7,8.
— Thenaud, Op. Cit., p. 63.

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٩١ - ٢٠٥ .

ج - وقد تلاشى هذا الأمل بعد استيلاء البرتغاليين على هرمز عام ١٥١٢ وسددهم منفذ التجارة الى الخليج العربى . انظر :

— Hammer, Op. Cit., T. II pp. 141, 142-168-172 & ff.

يهدم المركز الذي يحتله الفرنسيون لدى السلطان (٩٥) . وقد أوضح السفير للسلطان بطلان الشائعات حول مركز البندقية التجاري وأن البندقية جديرة بأن ترفع رأسها بين أعدائها . يزهو وخيلاء . وأوضح له بأن سفن البندقية كان بإمكانها الحصول على التوابل والمتاجر الشرقية من لشبونة بسهولة وأمان وسعر منخفض ، وأن تتولى بنفسها توزيعها في أوروبا بنفس الصورة التي كانت لها قبل وصول البرتغاليين للهند ، ولكنها فضلت أسواق السلطان ، وفضلت أن تستأنف العلاقات الطيبة مع مصر ، وتتعهد بأن ترد سفنها موانئ السلطان كما كانت في السنوات الخالية محملة بالسلع الغريبة والذهب والفضة والأنسجة الصوفية والحريرية والخامات اللازمة للصناعات المحلية والرياح والزيوت . وأما ما في الحيلة والحذر صرح السفير للسلطان بأن بلاده لا تمنع أبدا في أن تكون هناك علاقات بين السلطان وملك فرنسا والبقاء على المعاهدة المعقودة بين الطرفين على يد الترجمان تغري بردي (٩٦) .

واقع الأمر أن السلطان والسفير كانا يودان إنهاء المشكلة بصفة لاماكان استئناف التجارة ، فدارت بين الطرفين مفاوضات طويلة وضعاً

(٩٥) يذكر حاكم كريت مارك انطوني تريفراني أن عدم وصول رد من السلطان في الوقت المناسب أعطى صلاحية لنجاح سفارة أخيه دومنيكو إلى السلطان المموري . وحتى باقى أعضاء السفارة والبعثة لما طال عليهم الوقت تركوا القاهرة إلى رودس ووصل بعضهم إلى بيت المقدس . كما يذكر أن من عوامل نجاح سفارة تريفراني ، وصول السفير البندقي بعد انتهاء السفير الفرنسي من بعثته التي لم تحقق شيئا وكذلك من عوامل النجاح وصول مبعوث الشام الصفوي إلى القاهرة لبرلة سبحة من تهمة تحالفه مع البندقية ضد السلطان المموري . انظر ملاحظة ٩٠ قبله وكذلك .

Thenaud, Op. Cit., pp. XLVIII-LXXIX-LXXXIII and p. 180.
Heyd, Op. Cit., p. 484-530.

(٩٦) الواقع أن السفير تريفراني كان بارعا حين تحول عن التعليمات الممنوحة له بإسائة العلاقات بين السلطان وفرنسا . فقد لاحظ أن من الأفضل الظهور بمظهر الحاد والجرأة حتى لا يظن السلطان بالبندقة السوء ويعلم أنهم دعاة سلم . وفي الوقت نفسه تشعر دول أوروبا المسيحية أن البندقية لا تعاديهم ولا توغر عليهم صدر السلطان تحتفظ بصداقتها للطرفين . انظر :

Heyd, Ibid., n. 442.

أساسها وتركها الباقي لهيئة المتفاوضين . وتعتبر المعاهدة التي أبرمت عام ١٥١٢ من أهم المعاهدات التي عقدت بين البندقة والماليك وتعرف بالمعاهدة الشاملة . وبعد مفاوضات طويلة اتفق في المعاهدة التي أبرمت بتاريخ ٥ يونيو ١٥١٢ على أربعة عشر سؤالا وأربع عشرة اجابة صيغت فيها تماما كل المشكلات الاقتصادية بين مصر والبندقية . وساد جو المفاوضات السراحة التامة (٩٧) وذكر في الردود أنه بعد تحديد سعر التوابل السلطانية بشانين دوكات للحصل الواحد وتحديد سعر التوابل الحرة كذلك فليس هناك داع لبقاء هيئة من التجار البندقة للإشراف على تسعير وتشين السلع (٩٨) . وبخصوص تأجير سفن البندقية للتجار العرب فإن الاضطرابات التي شلت البحر المتوسط شرقا وغربا منعت تأجير هذه السفن للوطنيين للتجارة مع المغرب . وذكر المتفاوضون من البندقة أن توابل الشرق في لشبونة تقل كثيرا عن أسعارها في مصر ، وتفاوت الأسعار على هذا النحو يجعل كثيرا من سفن البندقية تعود دون شراء حاجتها . وتحدد في المعاهدة كذلك أنواع المتاجر الأوروبية المطلوب من البندقة الوصول بها إلى الاسكندرية وببيروت ، وكذلك النقد المتداول . وأضحت المفاوضات أن تجار البندقية الوافدين إلى بلاد السلطان يمثل بعضهم شركات كبرى . ولذلك فهم مقيدون باتباع ما تمليه عليهم شركاتهم ، فلا غرابة أن بعض هذه السفن تبارح الموانئ دون شراء حاجياتها تجنباً للخسارة المترتبة . على ارتفاع الأسعار . وندد السلطان باهمال البندقية في اتخاذ الاجراءات اللازمة لوضع حد لتهجمات قراصنة رودس وابعادهم عن قبرص وشرق البحر المتوسط ، ووعد السفير بإبلاغ حكومته احتياجات وملاحظات

(٩٧) راجع المعاهدة الملحق رقم ١٣ . غادر سفير البندقية القاهرة إلى المغرب

في ٣ من أغسطس ١٥١٢ انظر

دراج : المالك والمخرج ص ١٥٣ و ١٥٤ .

(٩٨) راجع النص الملحق رقم (١٣) وكذلك رقم (١٣) .

السلطان . وقد ألحق بالمعاهدة ملاحق خاصة بالتعامل التقدي والبيع بالمقايضة . (٩٩) وحصلت البندقية لتجارها على أوامر وتعليمات لسلطان في المواني والمدن الكبرى لراحة تجارتها . (١٠٠) كما حصلوا على اتفاقية بالتجارة في طرابلس وحلب (١٠١) وبيروت ودمشق (١٠٢) وفي ميناء الاسكندرية كذلك . (١٠٣) وقد أثار السفير تريفزاني مسألة توحيد الأسعار ومنع التقلبات التي كانت تسود السوق من حين لآخر ، وانتق في هذه المقابلة على أن يدفع البنادقة سعرا موحدا لما مقداره ٢١٠ أحمال من البهار سنويا ، و ١٥٠٠ دوكات لمدة ٣ سنوات مقدما . (١٠٤) وعاد تريفزاني للبندقية في ٢٣ أكتوبر ١٥١٢ بعد أن ترك

(٩٩) راجع النص بالملحق رقم (١٣) ثم انظر الفصل الخامس عن تجارة البند والمقايضة وكذلك انظر . توفيق اسكندر : نظام المقايضة في تجارة مصر أواخر العصور الوسطى .

(١٠٠) النص بالملحق رقم (١٣) .

(١٠١) النص بالملحق رقم ١٤ - وقد أثار البنادقة ما يلاقه تجارهم في موانئ بيروت وطرابلس ومدن دمشق وحلب إذا اتجهت السفن الى أي المينائي دون الآخر ، وكان هذا مرسع خلاف سابق ولم يتم انهاءه الا في بعثة تريفزاني ١٥١٢ . راجع شكوى البندقية من هذا الموضوع في الصفحات السابقة على عهد قايتباي .

بخصوص تجارة البندقية في ميناء طرابلس انظر الملحق رقم ١٤ أ .

وبخصوص تجارة البندقية في حلب انظر الملحق رقم ١٤ ب .

(١٠٢) بخصوص دمشق انظر النص بالملحق رقم ١٤ ب . وراجع هذا أيضا ما ذكر

في معاهدة سانودو عام ١٥٠٢ فقرة ١٣ ومشورة بالملحق رقم ٦ .

(١٠٣) راجع النص بالملحق رقم ١٣ د وكذلك :

— Heyd, Op. Cit., pp. 544, 545.

(١٠٤) كانت حكومة البندقية قد شككت في خطاب للسلطان الغوري في ١٦ من ديسمبر ١٥١٠ من عدم مراعاة عماله لتجارها في موانئ مصر والشام . وانهم يجبرون التجار على اخذ كمية من التراب عنوة مع السلع وخاصة التوابل . لأن المغربلين صفقوا الفرائيل لكي لا ينزل التراب من ثوبها ، وفي هذا خسارة كبيرة لنا ، وهو عمل غير أمين اطلاقا ولم تعوده من قبل . راجع النص بالملحق رقم ١٠ . كما شككا البنادقة من حجز سفنهم بعد مواعيد المدة مما يؤخر وصول البضائع الشرقية في مواعيد الأسواق السنوية في أوروبا . ومع ذلك جاء في حاشية لهذه الرسالة أسف البندقية من أن عمال السلطان لا يزالون يمارسون تعطيل السفن في موانئ مصر والشام . كما نص في الاتفاقية على نظام بيع التوابل الشريفة واستحدث فيها نظام الحساب الجاري . لسنوات قادمة (انظر الملحق رقم (١٣)) - وقد شككا السلطان من غش الجوخ وعدم تنديته قبل لفة مما يؤذي

بعض مواطنيه الذين ردت اليهم حريتهم مؤخرا في حماية السلطان (١٠٥) ولم يحدث بعد ذلك ما يهدد العلاقات بين البنادقة والسلطان ، وكان آخر اتصال بين الطرفين في ٣ من مايو ١٥١٤ عندما طلب قاصدهم من السلطان الغوري المزيد من التسهيلات والاعفاءات . (١٠٦)

وكان استئناف العلاقات على هذا النحو بين البنادقة والسلطان الغوري عام ١٥١٢ قد جعل السلطان لا يلج في توثيق العلاقات التجارية مع فرنسا ، وان رغب في توثيق العلاقات السياسية لوضع حد لقرصنة فرسان رودس في شرق البحر المتوسط . ولم يقدر لتجارة فرنسا الازدهار الذي كان لها من قبل ، وان وصلت بعض سفن المدة الفرنسية في فترات متباعدة الى موانئ مصر والشام . ولكن لم يستطع الفرنسيون الاستمرار في التجارة مع السوق المصرية على نطاق واسع بعد أن أغرق البرتغاليون أوروبا بالتوابل النفيسة وبأسعار رخيصة ، ولم يعد هناك داع لوصول تجار فرنسا لمصر (١٠٧) .

أما في الهند فقد شدد البرتغاليون قبضتهم على تجارتها وترصدوا السفن العربية والماليكية عند مدخل الخليج الفارسي والبحر الأحمر . وصادروا حمولتها ، وجنح أمراء جوجيرات وحلفائهم الى مهادنة

الى انكماشه بعد أن يفصله البحر ويعسله مع وجود عيوب كثيرة به انظر الملحق رقم ١٣ ج .

(١٠٥) نص خطاب التعليمات المعطاه للسفير تريفزاني بالملحق رقم ١٢ من مجموع الدكتور توفيق اسكندر - أما نص الاتفاقية المبرمة بين السلطان الغوري والسفير فقد نقلها للفرنسية :
— M. Reinaud, Journal Asiatique, Nouveau Traites Du Commerce, T. IV, pp. 22-51.

وهي تشمل على ١٤ سؤالا واجابتها واتفاقية التوابل الشريفة واتفاقيات خاصة بميناء طرابلس ودمشق وحلب . راجع الملحق رقم ١٣ وما بعده .

— Heyd, Op. Cit., p. 545.

— Heyd, Ibid, pp. 483, 484.

ظل قنصل فرنسا يعمل في الاسكندرية حتى وصول السلطان سليم الأول عثمانى ١٥١٧ .

البرتغاليين ، وأصبح السلطان وحده فى الميدان يواجه قوات تفوق قواته ، وقل بصورة واضحة وصول السلع الشرقية لمصر والشام ، وبالتالي وصول التجار الأجانب . ومع ذلك استقبل السلطان الغورى سفير فرنسا برناردو بيروشوا Bernardo Pirochawa ووافق على كل طلباته ، ومنح تجار فلورنسا موسسا تجاريا ثابتا وقنصلا فى الاسكندرية . (١٠٨)

أما الأمير حسين كردى فبعد هزيمة ديو ١٥٠٩ اتجه الى جدة بنا بقى معه من سفن ، وعمل على بناء سور ضخيم محصن حولها بعد أن تواترت الأنباء عن محاولة دخول البرتغاليين للبحر الأحمر ، واستغرق بناء السور عامين ١٥٠٩ - ١٥١١ . (١٠٩) ولم يحاول الأمير حسين كردى العودة الى مصر لمواجهة السلطان وأمراء المباليك قبل أن يقوم بعمل عسكري ناجح ضد البرتغاليين ، وطلب من حلفائه الباقين أمراء الهنود المسلمين معونة مالية لبناء السور ، فاستجاب له السلطان محمد محمود شاه ١٤٥٨/١٥١١ ملك جوجيرات وأمراء آخرون ، وذكر لهم فى تقرير هذا الطلب أنه مادام البرتغاليون أقوياء وباستطاعتهم دخول البحر الأحمر والوصول الى جدة ، فمعنى ذلك أن بإمكانهم تدمير الأماكن الاسلامية المقدسة فى مكة والمدينة . (١١٠) وقد اعتقد أمراء

(١٠٨) هذه المعاهدة بتاريخ ١٠ ربيع ٩١٥ هـ / ٥ يوليو ١٥٠٩ وبالملاحى رقم ٢٩
راجع الترجمة الفرنسية من
Amari, Op. Cit., p. XXIV. pp. 221-223.
والترجمة الايطالية كذلك من :
Amari, Ibid, pp. 389-390. L. I.
وأمر السلطان لعماله بالاطيالية من :
Amari, Ibid, pp. 391-392 L. II.

وبالعربى من :
Amari, Ibid, pp. 226-229, XLV.
وبالملاحى رقم (٣٠)
Darnes, The Book Of Duarte Barbosa, T.I. pp. 46-47. Hakluyt (١٠٩) Society.
Darnes, Ibid, pp. 47.
(١١٠)

الهند المسلمين أن البرتغاليين لا شك فاعلون هذا وأكثر منه ، لذلك منحوا الأمير حسين طلبه وهدايا قيمة بلغت فى مجموعها حمولة ثلاث سفن من التوابل والبخار . وقد أسهت هذه الهدايا فى تكاليف بناء السور حول جدة . وفى نفس الوقت كان البرتغاليون - بسواقة ملك قاليقوت - يشيدون حصونا وأسوارا مسائلة داخل المدينة وحولها . ولما طلب ملك قاليقوت من السلطات البرتغالية تأمين وصول سفينة توابل لجدة وافق البرتغاليون على ذلك ، وجعلوا قيادتها لملاح عربى معروف يدعى خليشة ، ووصل الى جدة والعسل قائم فى السور ، وأبلغ الأمير حسين بسوقف البرتغاليين وأحوالهم العسكرية فى مياه الهند وتحصيناتهم الجديدة ، وأن خروجه كان بترخيص من قائد الأسطول البرتغالى . مما جعل الأمير حسين يتوجس خيفة من الملاح ويعتقد أنه جاء للتجنس عليه . لحساب البرتغاليين ، ولكى يقطع الشك باليقين حجزه وبجارته وأشركهم فى بناء السور . (١١١)

ومن ناحية أخرى لم يكف الغورى عن مناوأة البرتغاليين فى الهند فأرسل فى عام ٩٢٠ هـ أسطولا عهد بقيادته للأمير حسين كردى نفسه ونظم اليه عسكريا من الترك والمغاربة ، ووصل الى جوجيرات . واجتمع بسلطانها خليل شاه ، ثم وصل مدد آخر بقيادة سلمان وتعاونوا على هزيمة البرتغاليين وطردتهم من بعض موانئ الهند ، ثم اتجه الأسطول بعد ذلك الى اليمن واستولى عليها من بنى طاهر وجعل عايتها نائبا ماليا هو الأمير برسباى الجركسى واستمر بعد ذلك فى طريقه الى جدة . (١١٢)

(١١١)

— Darnes, Op. Cit., pp. 48-49.
— Syngé, A Book Of Discovery. p. 177.
— Dunbar, A History Of India Vol. I. p. 152.
— Heyd, Op. Cit., p. 536.
— Depping, Op. Cit., p. 219. Vol. II.

(١١٢) زين الدين : تحفة المجامدين فى بعض أحوال البرتغاليين ص ٤٠ - ٤٦ .

وفي ذلك الوقت حدث الصدام بين السلطان الغورى والسلطان سليم الأول العثماني ، وهو الحادث الثالث الهام في سلسلة الحوادث التي ختمت العصور الوسطى . ووصل الأمير حسين كردى الى جدة وسلمان الى القاهرة في الوقت الذي قتل فيه الغورى في مرج دابق ١٥١٦ وقبض شريف مكة على الأمير حسين وأغرقه في البحر .

وغداة الفتح العثماني لمصر وقع مثل البندقية في حيرة شديدة حين أراد أن يصنع حوله اثني عشر رجلا من التجار بالشعر ليؤلف منهم مجلسه الذي سيتقابل السلطان فلم يجد هذا العدد ، وهذا يدل على ما وصلت اليه التجارة في فترة سقوط مصر في أيدي العثمانيين ، وتنت المراقبة في الاسكندرية بين قنصليها في مصر والشام والسلطان سليم الأول العثماني ، وقدا له فروض الطاعة والولاء مشفوعة بطلبات ومعاهدات جديدة لاقرار الامتيازات التي كانت للبنادقة في عهد المساليك . وخلال المراقبة أثار السلطان موضوع مساعدة البنادقة للماليك ضده ووصول سفنهم خلال الحرب الى الاسكندرية حاملة الفضة والذهب ثما للتوابل والسلع الشرقية زيادة عما كان مفروضا عليهم طبقا للمعاهدات . وكان على القنصلين أن يفتدا هذه التهمة فأفهما السلطان بأنهما يعملان دائما على توسيع نطاق تجارتهم من السلع الشرقية للوقوف أمام فيض السلع الواردة عن طريق البرتغاليين . ويبدو أن السلطان العثماني قد اقتنع بهذا الاعتذار فلم يعارض طلباتهم وأقر معاهداتهم السابقة ضمن ذلك كله في معاهدة جديدة بتاريخ ٨ من سبتمبر ١٥٠٧ . (١١٣) وقد سلت المعاهدة لندوبهم « نيقولو موسينيو

(١١٣) قنصل البندقية في مصر هو Bartholomeo Contarini وفي دمشق هو Alvise Mocenigo

— Heyd, Op. Cit., pp. 545, 546.
— Comb, Précis De L'Hist. D'Egypte, T. III. p. 6.

يذكر كرمب أن السلطان سليم الأول العثماني بعد انتصاره في تبريز على الصفويين ١٥١٤ قابله قنصل البندقية في استامبول وحثه على محاربة المساليك وأفاد أن البندقية على استعداد لمؤازرته بأسطولها البحري وفي نفس الوقت أرسلت البندقية رسولا الى القاهرة :

Nicolo Mocenigo « الذي سافر الى القسطنطينية على ظهر إحدى سفن الأسطول العثماني حين قصد القنصل كوتاريى قبرص لتنظيم دفع الجزية المفروضة عليها بعد أن آلت للسلطان العثماني . وقضت الاتفاقية بأن تدفع الجزية ذهبا ومقدما لخمس سنوات ، وعدل النص بعد ذلك لتصبح سنويا ، وعينا من السكر والحبوب . (١١٤) واستقبل السلطان كذلك قنصل الفرنسيين والقطلانة في الاسكندرية وطلب تجديد اتفاقيتهم التي كانت أيام السلاطين ، فسمح السلطان حمايته وأصدر أوامره بمرعاتهم في مصر والشام ، وبعدها فتحت الموانئ المصرية والشامية أمام السفن البندقية . ولم تتغير هيئة القناصل الا عام ١٥٢٥م حيث نقلت قنصلية البندقية من الاسكندرية الى القاهرة ، وصار بالاسكندرية نائب قنصل فقط . ولعل هذا دليل واضح على فقدان الثغر أهميته التجارية التي كانت أيام المساليك . ومما هو جدير بالذكر أنه لا تجارة مصر ولا الشام قد جتا أى ربح من التغيير الذي حدث فقد أصدر السلطان العثماني قانونا يضم تجار الحرير الوارد من فارس الى هيئة تجار القسطنطينية في محاولة منه لرفع شأن المدينة

== يعرض على السلطان المالكي المعونة ضد السلطان سليم الأول راجع Heyd, Op. Cit., p. 546.

وأرسلت قنصلها في دمشق الى الشام اسماعيل الصفوى يعرض المساعدة ضد السلطات المالكية راجع Heyd, Ibid, p. 537. وقصدت البندقية من ذلك ملاءة السلطات الثلاث المتصارعة ، حتى اذا ما فازت أحدها استطاعت أن تعيش بتجارها في ظل حكمها . والواقع أن البندقية كانت تبحث لها عن حليف للوصول لوسط آسيا برا ، أو عن طريق الخليج الفارسي للهند وزادت هذه الرغبة بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وفشل السلطات المالكية في وضع حد لتوسع البرتغال في الهند ، وسياستها هذه تنقسم بالانانية وإيثار المصلحة الخاصة أو كما يقال سياسة الوجهين وهي الصفة التي اصبحت بها الجمهوريات الإيطالية التجارية في العصور الوسطى . وكانوا قد فعلوا مثل ذلك مع البيزنطيين والعمانيين . انظر

— Heyd, Ibid, pp. 305, 306, 307.

(١١٤) المعاهدة بين البنادقة والسلطان سليم الأول بالاسكندرية بالمحق رقم ١٥

وانظر كذلك :

— Wier, Précis De L'Hist. D'Egypte, T. III. p. 96 ff.
— Heyd, Op. Cit., pp. 545, 546.

واحياء مجدها الذى كان أيام البيزنطيين ، وتم ذلك بالطبع على حساب مصر والشام ، البلدين اللذين ولى مجدهما منذ الفتح العشائى ١٥١٧/١٥١٦ . (١١٥)

أما فرسان رودس فقد ترددت الشائعات عن وصول بعض قطع أسطولهم حاملة الأسلحة من بارود ومدافع وألغام من قناصتهم لمساعدة السلطان العادل طومباى الثانى فى صراعه مع السلطان سليم الأول ، وأن سفنهم وصلت لميناء دمياط . ومع ثبوت زيف هذه الشائعة إلا أن الفرسان كانوا على استعداد دائما لمساعدة كل من يعادى العشائيين ولو كانوا من المماليك أنفسهم . وابن اياس المؤرخ المصرى المعاصر لهذه الأحداث يكذب الواقعة (١١٦) .

وعلى أى حال فإنه بعد سقوط مصر عام ١٥١٧ قدر السلطان سليم أهمية جزيرة رودس فى الصلة بين تركيا والاسكندرية وباقى مدن وموانئ مصر والشام ، فهاجم الجزيرة واحتلها فى ديسمبر ١٥٢٢ ورحل عنها الفرسان الى مالطة .

أما دول شمال غرب أوروبا فإن اتصالها بشرق البحر المتوسط لم يكن مباشرا ، فلم يدلوا بدلوهم فى التجارة الشرقية الا فى فترة متأخرة ، واكتفوا حتى أواخر العصور الوسطى بانتظار وصول السفن الايطالية اليهم محملة بالسلع الشرقية من مصر والشام ، ونظم الايطاليون مع عملائهم الألمان رحلات تجارية ومنتظمة تمر بانجلترا حاملة السكر والكروم والتوابل والتحرير وتعود محملة بالقصدير والجلود . ومنذ وصول البرتغاليين الى الهند وهم يقومون بهذه العملية بمساعدة الهولنديين

حتى تحلصت انجلترا من هذا النوع من الوساطة وبشرت اتصالها بالهند بنفسها (١١٧) .

أما الأراضى المنخفضة فوصلتها السلع أولا من مصر والشام وبلاد السلطان العشائى بطريق الايطاليين الذين كان لهم وكالات وفنادق ومنحوا إعفاءات جبسية وتسهيلات ، ثم تحولوا الى لشبونة بعد وصول البرتغاليين للهند ، ولا سيما وأن القرصنة اشتدت على السفن فى غرب البحر المتوسط والمارة بجبل طارق . وحصلوا على حاجتهم من السلع الشرقية من لشبونة . ثم نالوا اذنا من ملك البرتغال بورود أسواق الهند بأنفسهم . وضاعت هذه الأسواق من البنادقة (١١٨) .

— Depping, Op. Cit., pp. 242-245. T. II.

(١١٥)

— Heyd, Op. Cit., pp. 438, 484.

(١١٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧١ الى ٧٨ .

— Ziada, Op. Cit., pp. 206, 207.

— Heyd, Op. Cit., pp. 725, 726.

— Heyd, Ibid, pp. 720, 721, 722.

(١١٧)

(١١٨)

الفصل الثالث

الطرق والمحطات التجارية

منذ فقد الأوروبيون حرية الاتصال التجارى المباشر بـ إقليم وسط
آسيا بعد انهيار القوى الصليبية فى شرق البحر المتوسط عام ١٢٩١ م .
وهم يحاولون تدعيم الطريق البرى من أوروبا الى فارس والهند المار
ببلاد الدولة البيزنطية . متحاشين المرور بالأراضى العربية والمنايكية .
ومع ذلك فإن أكثر القوى نشاطا واهتماما بالتجارة كالبنادقة والجنوئين
فضلت الطريق البحرى الى شرق البحر المتوسط الا فى حالات اشتداد
الهجمات من القراصنة . فكانوا يلجأون الى الطريق البرى المذكور من
ساحل دلماشيا حتى القسطنطينية . ومنها الى آسيا الصغرى فوسط
آسيا . ولهم مع ملوك وأمراء الأراضى المارين بها معاهدات واتفاقيات
خاصة بحرية المرور والمتاجرة . وما لبث أن فقد هؤلاء التجار هذا
الطريق أيضا بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ . وتقدم العثمانيون فى
شرق ووسط أوروبا حتى إيطاليا . واضطر التجار الى العودة الى الطريق
البحرى القديم الذى ينتهى عند موانئ مصر والشام حيث تتجمع
السلع الشرقية من الصين والهند وعقدوا مع حكام مصر والشام
اتفاقيات تجارية ظلت سارية المفعول حتى الفتح العثمانى للمنطقة
عامى ١٥١٦/١٥١٧ (١) .

الطريق الأول :

ومع تعدد الطرق البرية والبحرية الرئيسية والفرعية من أوروبا

— Deppe, Histoire Du Commerce, T.I. p. 194.

وآسيا وشرق البحر المتوسط حتى أواخر العصور الوسطى فإنه بعد سقوط القسطنطينية عام ١٢٥٣ بقي منها أربع طرق رئيسية برية وبحرية : أظهرها وأقدمها هو طريق الصين - الهند - الخليج الفارسي ، وهو طريق بحري حتى رأس الخليج الفارسي . ثم تبدأ فروعه النهرية والبرية من البصرة الى بغداد حيث يتفرع فرعين : يتجه الأول شمالا الى ديار بكر . ويتجه الثاني غربا الى دمشق ومنها تخرج فروع الى مواليء ساحل البحر المتوسط ، ثم جنوبا الى مصر بجداء الساحل الى غزة . ثم عبر الصحراء الى القاهرة . وفرع يتجه شمالا بغرب الى حلب ، ثم الى آسيا الصغرى ليلتقى بالطرق القادمة من وسط آسيا برا ويتحد معها الى القسطنطينية ثم أوروبا . وقد فقد هذا الطريق اتصانه بالطرق القادمة من وسط آسيا خلال غزوات المغول في القرن الثالث عشر . ثم عاد الاتصال بعد ذلك عندما سيطر العشانيون على آسيا الصغرى وأمنوا الطرق المارة بها . حتى انه أصبح يشل الطريق الاحتياطي للتجارة الشرقية كلما تعطلت الطرق الأخرى أو أساءتها كوارث القراصنة وقطاع الطرق . ويخدم هذا الطريق في جزئه الرئيسي بالخليج الفارسي مواليء ومدن : هرمز ، وسيراف ، وقيس ، والبصرة ، والأهله .

أما هرمز فظلت المركز الرئيسي لتجارة الخليج الفارسي طوال العصور الوسطى وهي « فرضه اقليم كرمان ومركز تجارته وتجارة اقليم سيستان وسوقها الطبيعي وتبعد عن الساحل بحوالي ١٢ ميلا » . وهرمز في الأصل مدينتان : القديمة ميناء على الساحل . والجديدة تقابلها في البحر على مجسوعة من الجزر . وانشأ المدينة القديمة «ادرشير بابيكان» في منطقة مرجستان وترسو بها سفن الهند التي تحصل التجارة لكرمان وسجستان وخورستان ثم تركها أهلها لكثرة تعرضها لهجمات قطاع الطرق وانتقلوا منذ القرن ١٤ م الى مجسوعة الجزر التي

عرفت باسم هرمز الجديدة . ويسمى العرب جرون وأحيانا هرموز^(٢) . ويصلها تجار الشام عن طريق مصب نهر دجلة والفرات للحصول على متاجر الهند والصين ويبيع متاجرهم ومتاجر أوروبا الواردة اليهم ، اذ كانت هرمز في الواقع تشل الى حد ما مركزا لتبادل السلع الشرقية والغربية . وأحيانا يتقدم تجارها حتى يصلوا الى موقع قاليقوت بالهند على سفنهم الخاصة أو سفن الهنود والصينيين . كما أنهم كانوا يصعدون في دجلة والفرات حتى البصرة حيث يتجمع فيها أحيانا تجار العراق والشام حاملين معهم سلع العراق والشام وآسيا الصغرى وأوروبا^(٣) . ويفضلها تجار الشرق والغرب على غيرها لقلة الرسوم المفروضة على التجارة ولتسهيلات التي تبذل لترغيب التجار . ومن أهم السلع المتداولة هنا القرفة والفلفل والزنجبيل وخشب البنجور وعود الند وخشب الصندل وخشب البرازيل الأحمر والسرهندى والزعفران والشع والحديد والسكر والأرز وجوز الهند والبورسلين والأحجار الكريمة واللبان والجاوى والأنسجة الحريرية والقطنية . ولهذه الانسجة عند الأهالي سعة طيبة فيصنعون منها عماماتهم وشيلانهم . كما يصلها من عدن النحاس والزئبق ، ومن فارس ماء الورد والأنسجة المطرزة والتافتاه ، ومن البحرين اللآلىء الصغيرة والكبيرة ، ومن بلاد العرب الخيول التي تصدر للهند . ولا يقل عدد تجارها كل موسم عن ٤٠٠

(٢) سياهي : اوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك . مخطوطة ٢٦٨ ب
Varthema, La Viateur En Orient, pp. 102-104-109 & N.I. p. 102. N. II. p. 104.

— بخصوص تعطل التجارة على هذا الطريق خلال غزو المغول لغرب آسيا في النصف الثاني من القرن ١٣ م انظر :
Marco Polo. Travels, Vol. I. p. 107-108.

— Darnes, Manuel Longworth, The Book Of Duarte Barbosa. (٣)
Vol. I. pp. 68-82 & p. 90. R. II. p. 68 & R.I.

تبدو اعمدة ملاحظات وكتابات باربوزا في كونه ساعد بيان لما يتحدث عنه بل انه صاحب البرتغاليين في غزواتهم للخليج الفارسي وبقي معهم حتى ١٥١٨م
— ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك (طبعة لندن) ١٨٧٢ ح ٢٠ .
— الجزيرة . تحفة العجائب مخطوطة ورقة رقم ٢٣١ أ .

ناجر . وتباع السلع هنا بالميزان ، وأسعارهم وموازينهم محددة، كما أنهم يستخدمون عملة من الذهب والفضة عليها كتابات عربية من الوجهين نعرف باسم الأشرقي ، ولها عملات أنصاف . وتلقى هذه العملة رواجاً في الهند لنقايتها وحسن وزنها (٤) . وحتى وصول البرتغاليين للهند كانت المدينة لا تزال مزدهرة بالتجارة . وقد حاول القائد البرتغالي البورك عقد معاهدة مع حكامها عام ١٥٠٧ . ولما رفضوا عاجبها في العام التالي واستولى عليها وكنل بسن فيها من التجار العرب : وأجبر أهلها على دفع جزية ١٥ ألف أشرقي ذهب سنوياً (٥) . ومنذ وصول الشاه أسماعيل الصفوي إلى العراق العجسي عام ١٥٠٨ . وحرز مجال سراع بين البرتغاليين والصفويين حتى خلصت تماماً للبرتغاليين حين اتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية في الخليج الفارسي ضد العرب ومصر وفقدت المدينة أهميتها التجارية . وأصبحت مدينة خربة بعد الغزو البرتغالي على أساس أنها محطة تجارة العرب ومصر لتدمير تجارتهم واهلاء لشأن تجارة البرتغاليين (٦) .

ومن هذه المحطات أيضاً سيراف على ساحل إيران جنوبى شيراز

— ابن أيوب : المصدر السابق ذكره ص ٣٣٩ .

— Wilson, The Persian Gulf, p. 102.

Sonia, In Quest Of Spices, p. 102.

— Heyd, Op. Cit., p. 457.

(٤) يبلغ سعر الحصان الواحد ما يوازي الآن ٢٠٠ جنيه . حسب اصطاله ونوعه ونفط الخيل إلى قيس وهرمز القديمة حيث ينتظرها الهنود بسفنهم . ومسافر الخيل مقسمة إلى حجرات صغيرة منفصلة .

Sonia, Op. Cit. p. 102.

Darnes, (Barbosa), Vol. I. pp. 90-93, 94-100, 101-105.

Varthema, Op. Cit. p. 109, and 107 R. 5.

Depping, Op. Cit. T.I. pp. 46, 47.

— بخصوص البحرين وتجاريتها مع هرمز انظر : النجدي : أرجوزة العرب ص ٣ .

Darnes, Op. Cit. pp. 101-106, 107.

Wilson, Op. Cit. pp. 105-108.

Varthema, Op. Cit. p. 109.

(٦) ابن أياب : نقش الأهرار (مخطوطة) ورقة رقم ٦ .

Heyd, Op. Cit. pp. 500-504.

Charles Roux, Op. Cit. T.I. pp. 27, 28.

التي ظلت حتى أواخر العصور الوسطى من أكبر أسواق الخليج الفارسي وهي لا تقل أهمية عن هرمز وإن كانت تفضلها لقربها من أسواق البلاد العربية . فتركزت فيها لذلك السلع الغربية أكثر من أي مركز تجاري آخر على الخليج الفارسي وتصلها سفن التجارة من الصين والهند واليمن ومستقط كما يصلها تجار شرق البحر المتوسط والعراق وإيران . لذا كانت مركزاً لتبادل السلع الشرقية والغربية . ونجنى السلطات كل عام حوالي ربع مليون دينار مكوساً تجارية على السفن الداخلة إليها . ومما استهم في نمو هذا الميناء صعوبة الملاحة عند مصب دجلة والفرات . فأتجهت السفن إلى سيراف بدلاً من مدخل النهرين . وقد استولى على سيراف أمير قيس وحول عنها التجارة إلى بلاده فأخذت في الانهيار تماماً أواخر القرن الخامس عشر حتى « صارت سبخة لا ينبت بها زرع وانصرف عنها أهلها إلى محطات أخرى ... حتى أن الواحد منهم يسافر عشرين عاماً ولا يلتفت إلى أهله وولده » (٧) .

أما قيس أو قيش فهي جزيرة قرب الساحل الشرقي للخليج وبينها وبين الساحل مسر بحري عرضه حوالي تسعة أميال بحرية ويحتكر حاكمها التجارة لحسابه وأسطوله حوالي ٥٠ سفينة وكل سفينة من قطعة واحدة وأسواقها من أكثر أسواق الخليج ازدحاماً بالتجارة من

(٧) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٣٩ و ٤٠ .

ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٢٧ .

السيرافي : أبو زيد حسن . وسليمان التاجر سلسلة التواريخ ص ١٤ - ١٨ .

حوراني : العرب والملاح في المحيط الهندي ص ٢٠٦ و ٢٠٧ .

سيامي : المصدر السابق ورقة ١٦٧ أوب .

المقدس : أحسن التقاسيم ص ٤٢١ .

بزرگ بن بهريار الناجوراء عجائب الهند ص ١٢ و ٢٢ .

ابن أياب : نقش الأهرار ورقة ٦٠ .

وتعرف سيراف الآن باسم طاهري على الطريق من بوشهر إلى دس و - نهاها

قد أدى إلى زيادة نمو قيس وهرمز .

Darnes, (Barbosa) Vol. I. p. 81 & R. I. p. 79-81.

وسدوا المواصلات البحرية إليها (٩) .

والى الشمال من رأس الخليج الفارسي عند مصب دجلة والفرات تقع مدينة الابله وقد شيدت قبل البحرة وتبدو أهيتها في أنها مخرج تجارة العراق الى الخليج الفارسي كما أنها حاضرة ميناء البحرة . وتقع عند ملتقى أهم طرق التجارة من إيران والعراق وبلاد العرب . بل انها اعتبرت هي وقت ما ميناء العراق الرئيسي الى الخليج الفارسي بسبب صعوبة الملاحة عند مصب الرافدين . وليمهود بها جالية تجارية كبيرة . كما أن بها فئارات اهذية السفن ليلا ، وهي الآتية من عمان وسيواف ويوجد بها لتتجار وكالات وفنادق . ومنذ تحولت التجارة بصفة عامة من موانئ الخليج الفارسي الى البحر الأحمر وبحر بدأت الابله في التأخر ، وانكسشت في النصف الثاني من القرن ١٥ م لتصبح نجما صغيرا ، ثم أقفرت تماما بعد تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح في مطلع القرن السادس عشر (١٠) .

على أنه منذ أواخر القرن ١٥ م وأوائل القرن ١٦ م بدأ هذا

(٩) دائرة المعارف الإسلامية ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

يجب ألا يغرب عن البال ان جغرافية العراق الآن مغايرة عن جغرافيتها في العصور الوسطى فمينا يختص بنهر دجلة والفرات ، فالنهران في الوقت الحاضر يتصلان ببعضهما شمال مدينة البصرة ويتجهان نحو الخليج الفارسي مسافة ٢٥٠ ميلا من بغداد الى خط العرب . أما في القرن ١٥ م كان دجلة يسير في خط مستقيم حوالي ١٠٠ ميل جنوبى بغداد ثم يبدل في مجرى قناة يعرف الآن باسم شط الحى ويسر بواسطة ويوه مرة أخرى في مسننعات السبب الجنوبي للبصرة وبهذا الطريق المائى تستخدم قوارب النقل بسهولة من بغداد الى البحرة انظر : Wilson, Op. Cit. pp. 65, 66, 67, 68. Darnes, Op. Cit. pp. 88, 89. & R.p. 90.

سرى : الحضارة الإسلامية (مترجم) ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

المقدس : المصدر السابق ص ١٢ .

الإسطنبول : المسالك والممالك ص ٣٢ .

ابن حوقل : المصدر السابق ص ٣١ - ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٠٩ .

ظلت البصرة تابعة للصفيين حتى احتلها الترك عام ١٥٣٤ على عهد السلطان

سليمان القانونى بعد سقوط بغداد .

Wilson, Op. Cit. p. 66.

Wilson, Op. Cit. pp. 62-64.

Darnes, Op. Cit. p. 88 R.I.

(١٠)

الهند والصين وفارس والعراق والشام لسهولة العيش فيها ، اذ أن أرضها خصبة . وماءها وفير ، وتفوق باقى المدن والموانئ في تجارة العبيد المستوردين من شرق افريقية . ومنذ تحول سيل التجارة الى البحر الأحمر بدأت تجارتها في التناقص الى أن وصلها البرتغاليون وحولوا عنها التجارة في محاولاتهم القضاء على الطرق التجارية الى البلاد العربية واتخذوها مركزا لتسوين سفنهم بالماء والخضر ، وتحولت تجارتها وتجارة الخليج كله الى ساحل الهند الغربى (٨) .

وظلت البصرة بموقعها الممتاز عند التقاء دجلة بالفرات على رأس الخليج الفارسي من أهم المحطات للتجارة الشرقية . وتتصل المدينة بالنهر بقناتين يصلانها ببغداد والخليج الفارسي . وبالمدينة سوق ضخم وجبرلك بلغ إيراده منذ منتصف القرن الخامس عشر حوالي ١٠٠٠٠٠ دينار سنويا . كما أن بها مخازن ومستودعات للتاجر الشرقية والغربية وتنتهى عندها بعض طرق القوافل وشهدت المدينة ازدهارها طوال العصور الوسطى ، فهي مخرج تجارة العراق وتتصل بالصين والهند برا وبحرا كما تتصل بالشام وآسيا الصغرى . الا أنها منذ أواخر العصور الوسطى بدأت تتأخر حتى أصبحت ميناء مساعدا لسيراف ، وكافح الميناء للوقوف أمام منافسة الطريق الثاني في البحر الأحمر حتى انتهت قيسمتها بعد وصول البرتغاليين الى الهند ودخولهم الخليج الفارسي ولم تعد أكثر من قرية جرداء . وفي فترة احتلال البرتغاليين لهرمز لفتت أنظارهم أهمية البصرة كمرکز ومدخل لتجارة الخليج الفارسي الى العراق والشام بالنسبة للعرب فعملوا على تحويل التجارة عنها حتى لا يلجأ العرب الى أحيائها مرة أخرى .

٨٠٠ - ابن أيوب : المصدر السابق ص ٢٣٣ .

Darnes, Ibid. pp. 80, 81.

Wilson, Op. Cit. pp. 97, 98.

الطريق يفقد أهميته في خدمة التجارة وبخاصة في فروعه من الخليج الفارسي عبر العراق الى ديار بكر وسلطانية . فقد أغلقت الحروب التي نشبت بين الصفويين والعثمانيين في العراق العربي وآسيا الصغرى . وبعد أن استولى الشاه اسماعيل الصفوي على العراق العجبي منذ عام ١٥٠٨ . منع تجار النعام من الوصول الى بغداد والبصرة لحمل المتاجر الشرقية . فامتنت بالتالي السفن الشرقية الواردة من الصين والهند من دخول الخليج الفارسي وهرمز والبصرة . هذا بالإضافة الى زيادة انتشار قطاع الطرق في أجزائه البرية فأحجم معظم التجار عن ارتياده وفقدت مدته وموانيه ومراكزه التجارية أهميتها حتى بطل استخدامه تماما في الربع الأول من القرن السادس عشر منذ دخول البرتغاليين بأسطولهم الحربي في الخليج الفارسي واحتلالهم لأهم موانيه وسيطرتهم على تجارته امعانا في تحطيم التجارة العربية والماليكية . وتؤكد هذا الانهيار تماما منذ الفتح العثماني للشام ومصر ١٥١٦/١٥١٧ (١١) .

الطريق الثاني :

هو طريق بحري من الشرق الأقصى الى البحر الأحمر . وله فرعان : يتجه أحدهما شمالا بعد أن يترك البحر الأحمر عبر سيناء الى دمشق ثم موانئ ساحل البحر المتوسط . ويتجه الآخر عبر الصحراء الى النيل فالقاهرة ومنها بالنيل أيضا الى الاسكندرية فأوروبا . الا أن هذا الطريق تعترضه صعوبتان :

أولاهما : المساحة البحرية الواسعة من الصين الى الهند الى البحر الأحمر وما فيها من تيارات بحرية وهوائية متعارضة معظم السنة . وثانيهما : كثرة الشعاب المرجانية التي تعترض الملاحة في البحر الأحمر .

(١١)

Clive, A Hist. Of Commerce, pp. 84, 85.
Clerget, Le Caire, p. 180 & pp. 189, 190.
Wilson, Op. Cit. pp. 10-13.

وقد دلت الصعوبة الاولى بعد وصول السفن العربية الى المحيط الهندي في وقت فضحت فيه المعلومات الجغرافية عن الملاحة في البحار الشرقية وقد لاءم البحارة أوقاتهم في مواعيد هبوب الرياح الموسمية (١٢) .

أما الصعوبة الثانية فقد تم تذليلها بالابحار في البحر الأحمر بعيدا عن الشعاب . المرجانية والتيارات المتعارضة وبعد بناء سفن ضخمة تتحمل الابعار وسط هذا البحر (١٣) .

ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر بعد غزو المغول لغرب آسيا وتعطل الطريق التجاري البري من وسط آسيا ، وطريق البحر الأحمر من أكثر الطرق التجارية أهمية بين الشرق والغرب ، فهو بعيد عن ميادين الحرب بين المغول والماليك . وفيما بعد بين العثمانيين والأوروبيين ، ثم بينهم وبين التركمان وامارات آسيا الصغرى . وبينهم وبين الماليك ثم الصفويين في مطلع القرن ١٦ م . فكانت هذه الاضطرابات السياسية والحربية سببا في قطع الصلات التجارية وسد الطرق البرية القديمة بين الشرق والغرب واضطر التجار الى اللجوء لهذا الطريق المار بأملاك السلطنة المالكية اذ كان أكثر الطرق أمنا . وان كانت مرحلة البر فيه تكلف كثيرا من الجهد والمال والحراسة (١٤) . ولعل أشد ما كانت تحرض عليه السلطات المالكية عند تحول التجارة

(١٢) ظل طريق عيذاب - قوس - النيل - القاهرة الطريق الأول لتجارة مصر الشرقية من الصين والهند واليمن حتى اواخر القرن ١٤ ثم استخدم طريق البحر الأحمر الى السويس بحرا ثم برا للقاهرة . أما الاسكندرية ودمياط فكانتا اهم ابواب مصر في تجارة أوروبا .

سعيد عاشور : مصر في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ص ٢٠٨ .
Charles Roux, Op. Cit. T.I. pp. 27, 28.
Depping, Op. Cit. p. 47, T.I.
Gayet, Le Cours, The Camb. Shorter Hist. Of India, Vol. II. p. 315. (١٣)
Clive, Op. Cit. p. 85.
Clerget, Op. Cit. pp. 299-300.

الى هذا الطريق . هو ضبط الطرق التجارية وحماية التجارة ، والتجار من عبث قطاع الطرق . وكتب الرحالة المنصفين عن هذه الفترة تزخر بالاشادة بهذا العمل من جانب السلطات المالكية (١٥) .

وقد أثرى سلاطين المماليك من التجارة على هذا الطريق . فعملوا أولا وسطاء بين تجار الشرق والغرب ، ثم تاجروا بأنفسهم واحتكروا هذا النوع من التجارة بعد أن انتزعوها من « التجار الكارمية » ، وغالوا في احتكارهم لها وخاصة في السلع النادرة ، إلا أن هذا الاحتكار لم يؤد إلى زيادة تداولها ، فارتفعت أسعار التوابل والسلع الشرقية عامة في أوروبا إلى أربعة وخمسة أضعاف أسعارها في الهند ، أضف إلى ذلك أن المماليك فرضوا رسوما جبركية عالية على كل بالة تجارية تمر من البحر الأحمر إلى مصر ودول أوروبا . فالبضائع التي كان ثمنها ٢٠٠٠٠ جنيه كان يدفع عنها في الجبارك رسوما تبلغ

(١٥) بخصوص جهود السلاطين لتأمين هذا الطريق منذ منتصف القرن ١٢ م انظر :

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٠٠ - ٧٠٢ .

القلقشندي : صيغ الأعيان ج ١٣ ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤٩ .

انظر بعده الفصل الخامس عن طوائف التجار الوافدين لمصر والنص في المعاهدات

والانفاقيات على رعايتهم وحماية مصالحهم .

Felix Fabri, The Wanderings Of Felix Fabri, Vol. I, II, 1480-1483. From The Library of Palestine Pilgrims' Text Society, Vol. VII.

يذكر الرحالة فابري « أنه من دواعي سروري خلال رحلتي للأراضي المقدسة أنه لم نسا معاملتي بأي حال ، لا من الأعراب ، ولا من البدو ، ولا من السلطات الحاكمة . » ويذكر في موضع آخر أنه بعد زيارته للدير سانت كاترين توجه مع القافلة إلى البحر الأحمر ليركب السفينة من الطور إلى الشاطئ الغربي في طريقه إلى القاهرة وهناك كما يقول : « لاحظنا قافلة قادمة نحونا بسرعة فقلنا أنهم لصوم ثم لم تلبث أن توقفت أمامنا تماما وقائدها رجل ضخم الجثة استندى قائد قافلتنا وسأله : كيف وإنت عربي تفرد جماعة من الفرنج بسلاحهم كما لو كانوا فرقة حربية ؟ فاجاب الدليل : أنهم حجاج . ولا كانوا يخشون قطاع الطرق فقد استأذنوا حاكم بيت المقدس في حمل السلاح للدفاع على أن يسلموا أسلحتهم في القاهرة . فحمد القائد لنا هذا وقال لرجالنا أنه لو اتبع الحجاج ذلك لقتلوا على قطاع الطرق تماما . »

Fabri, Vol. I, Part II, p. 243 & Vol. II, Part II, pp. 642-646.

٥٠٠٠٠ جنيه وفي ميناء بولاق النهرى كانت البضائع التي تساوى ٣٠٠٠٠٠ جنيه يدفع عنها رسوما تبلغ حوالى ٥٠٠٠٠ جنيه - هذا غير الهدايا التي كانت تدفع لرجال السلطان وعبدال الميناء لتسهيل الشحن وحماية البضائع . ومع كل ذلك تركزت التجارة على هذا الطريق ومدنه وموانيه وفتحت مصر والشام أبواب مدنها . وموانيهها وامتدأت الأسواق بالأجانب رغم « التحريمات البابوية » والمتكررة وخاصة بعد توغل العشانيين في شرق أوروبا . وأصبحت بلاد السلطان المماليكى مقصد تجار البندقية وجنوة وفلورنسا وقطالونيا وفرنسا ولهم وكالات وفنادق ومعاملات وحسابات جارية مصرفية مع السلطات والأهالى . ومن أهم المدن التي خدمت التجارة على هذا الطريق : القاهرة والاسكندرية ، وعلى البحر الأحمر : القلزم والسويس والطور وجدة ثم عدن ، وفي الشام : دمشق وبيروت وحلب (١٦) .

وحتى نهاية العصور الوسطى كان التنافس شديدا بين القاهرة والاسكندرية في بيع وتوزيع سلع الشرق وبيع الغرب ، ولكن ظلت القاهرة نقطة تجسيع السلع . ومركز توزيعها شرقا للسلع العربية وغربا للسلع الشرقية والمحلية نظرا لتوسط مركزها كما كانت أقصى ما يصل إليه التجار الأجانب الوافدين لمصر ، ونص على ذلك في المعاهدات التجارية بين مصر والدول الأوروبية (١٧) . وبالمدينة أحياء معينة خصصت لتجارة التوابل والطور والسلع الشرقية والعربية وللتجار فيها مخازن وقياسر ووكلات وفنادق وأماكن خاصة لدوابهم ، لا سيما الوافدين

(١٦) انظر ملحق الخرائط . وعن ثراء المماليك انظر :

Ayua, The Crusades In Later Middle Ages pp. 115-174, 175.

Heyd, Op. Cit. p. 448.

Maurice, Le Caire, pp. 186, 187.

Clerget, Op. Cit. p. 300.

Clerget, Op. Cit. p. 301.

Heyd, Op. Cit. pp. 434, 435, 697, 698.

(١٧)

من الشام أو بلاد العرب أو السودان وأحيانا من فارس^(١٨) . وزار القاهرة في أواخر القرن الخامس عشر عديد من الرحالة الأجانب ويصفون مدى الازدهار التجاري الذي عاشته المدينة في فترة تحول التجارة عبر البحر الأحمر وبلاد السلطنة المماليكية حتى بداية القرن السادس عشر^(١٩) . ويقترن بذكر القاهرة ميناؤها الهام على النيل

(١٨) . بخصوص مدينة القاهرة فإن لشواربها ودروبها بوابات تعلو عليها ليلا وبها حراس . وبكل شارع سوى لشد حاجيات السكان من السلع اليومية . كما أنها بضائع . ويمر جماعة من الطواف ليلا كذلك لتفقد الأمن والحراسة وعنف المخالفين . وتعنى الحكومة بغطافة الشوارع ورشها وإمام كل حانوت الماء لاطعام ما قد يسلط من حرايق . كما أن ببلديته وكالات وفنادق وخانات وأصوافا بحفصه . انظر

سميد غاسور . المجمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٨٢ و ٨٣ .

Doppa, P.H., L'Egypte Au Commencement Du 15 ème Siecle, pp. 50-53 & FOLIO 30-32.

٢٦ . حسب المواصلات في العصور الوسطى ص ٢٦ .

Clerget, Op. Cit. pp. 180, 181.
Lavis, Robert. The Merchants' (Meppe) = Map Of Commerce, pp. 93-97.

انظر ملحق الخرائط .

(١٩) مصطفى الحفناوي . فتاة السويس ج ١ ص ١٩ و ٢٠ .

Zinda, Op. Cit. pp. 215, 216.
Breyndenbach, Bernard De, Les Saints Peregrinations (1483) pp. 47, 48-50-53-56.

زار الرحالة برايدنياخ القاهرة عام ١٤٨٣ م وذكر أنها مدينة كبيرة مزدحمة بالسكان وبها حوالي ١٥٠٠٠ بحر . ولهم أحياء وشوارع خاصة بهم حيث اشترينا منها الأسنحة والعطور والدوابل . وزارها كذلك الرحالة هارف ضمن رحلاته Arnold Von Harff, The Pilgrimage Of... (1496-1499).

في إيذائنا بالشام والحشة وبلاد العرب ومصر والنوبة وفلسطين وتركيا وفرنسا وإسبانيا ويقول أنه على حارج القاهرة فترة قبل السماح له بدخولها . إذ لا تسمح السلطات الحاكمه للدخول المدينة إلا بعد الحصول على إذن خاص يذكر فيه هويتهم وسبب حضورهم . . ويعطينا هارف صورة صادقة عن المدينة عام ١٤٩٧ فهي « مدينة ضخمة تغلى شوارعها رحاويرها بوابات كبيرة ليلا ولكل حارة فرن ومطبخ وحمام ماء ويوقد الأمانى لأفراق بالأخشاب المحلة . أما الأخشاب الثمينة فئاتهم من أوروبا خفية لأن اليابوية تحرم التعامل مع المماليك في المواد الحربية . وبالمدينة كذلك عدد كبير من المسيحيين وأهل الشام واليهود ومعظمهم تجار . ويدفعون جزية سخوية للسلطان . رحلت الأزمات السياسية ثقبت الحياة في البلاد تماما وتمتنع التجارة . وقد شامتت بنفسى أجهادها خلال الصراع بين السلطان ومنافسيه . فتوقفت التجارة . وفقد التجار الأحداث المحدثون سلعمهم بمناجرهم . وفقدت خلال ذلك كل أمهاتى وأخذت سحما . . أما عن

بولاق - والذي ظل الميناء الرئيسى للقاهرة على النيل حتى أواخر العصور الوسطى . وتدخل الميناء آلاف السفن المحملة بالسلع والمتاجر من اشرق وانغرب . فتصله السلع من الاسكندرية طريق فرع رشيد . ومن موانئ الشام وتركيا طريق فرع دهب . ومن الجنوب سلع الحبشة والنوبة . وأحيانا البحر الأحمر طريق النيل وموانئه الجنوبية . وبالميناء مخازن ومتاجر ووكالات واسعة . كما يوجد بها رجال الحكومة وعمال الجبرك بصفة دائمة لتحويل الرسوم المستحقة على انتجار . ولجبركها باب خاص بالمسافرين تفحص فيه حقائبهم ويدفعون حينئذ ١٠٪ عما فى حقائبهم . ودوكنين للمسافر العادى . وخسنة للحاج . مع دقة مراقبتهم^(٢٠) .

.. البحار الوطنيين فيذكر هارف أن بها تجارا أربابا يتاجر الفرد منهم في حوالي ١٠٠٠٠ دينار . ويصلهم من أوروبا المادن الغل والمسكوكه بما لا يقل قيمته عن ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار سنويا في مقابل ما يحمله الأجانب من سلع الشرق . .
Harff, Ibid, p. 109-111 & 114 + R.I.

(حادب الصراخ الذى يذكر هارف أن بين السلطان محمد بن قايتباى . ومناقصه على الحكم بعد وفاة أبيه السلطان الاسرف قايتباى ١٤٩٦/١٤٩٧) أما العملة المسكوكه والغفل التى يذكرها هارف فقد وصلت مع سفن البندقية عام ١٤٩٨ .
Heyd, Op. Cit. p. 440.

ومن علا الرحالة المعاصرين كذلك Thenaud الذى زار القاهرة عام ١٥٩٢ مع اسمعير الثفرنسى اندريه لوزوى بعد أن زارا الاسكندرية انظر
Thenaud, Voyage D'Outre Mer, pp. 48-51. & J.I. p. 50.

ويذكر أن بالقاهرة أسواقا منحصصة . فهذا سوق العطازين . وهذا سوق النحاسين وخلافه . وبالأبواب وكالات لبيع السجاد والذهب والفضة والحرير والأحجار الكريمة ولكل طائفة وكاله . كما الأجناب من البحار وكالات منها وكالات الأتراك . والشعير . والفرس . والمغاربة . والهنود . والقاهرة تجار اقربا . لا يقل ما يدهم عن مليوني قطعة ذهبية وإيرادات السلطان من مملكه في مصر والشام لا يقل عن تسعة ملايين قطعة . ومن زاروا القاهرة كذلك في أواخر القرن ١٥ م بايضا وكوفلهام Paiva & Covilham مبعوثا ملك البرتغال الى القس يوحنا للاتصال به فى الحبشة أو الهند حسب أن يظن أنه يحكم وفد وسفرا القاهرة والطريق من الاسكندرية اليها وهو لا يريد على حسنة أيام بالنيل . وهى مدينة كبيرة . بهر العيون . ومزدحمة قطارات الادل لا تنتهى . وتنوح بالعديد من الأجانب .

Sonia, Op. Cit. p. 99.
Clerget, Op. Cit. pp. 169, 170.
Clerget, Ibid, pp. 169, 170.

(٢٠)

طرق التجارة - ١٢٩

أما الاسكندرية فيحكم موقعها على البحر المتوسط فانها كانت تفوق القاهرة في اتصالها بأوروبا مباشرة . والمدينة تزدهم طول العام بالأجانب الوافدين اليها للتجارة أو للعبور للحج للأماكن المقدسة في سيناء وفلسطين ، ولدول أوروبا والبحر المتوسط بالمدينة قناصل وسفراء ووكالات وأحياء كاملة وفنادق يسارسون فيها حياتهم الخاصة في حرية . وكان السلاطين الماليك قد سحوا للحجاج العابرين بدخول الفنادق منذ أواخر القرن ١٤ م بعد دفع رسم سنوي للسلطان . ومن أشهر الفنادق التي كانت تقوم بهذا النوع من الخدمات فندق مدينة نابون وفندق البنادقة وفندق القطلونيين (٢١) . وشهدت المدينة أروع أيامها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وخاصة بعد عام ١٤٥٣ حتى ان إيرادات الحكومة كان معظمها من جسر الاسكندرية التي كانت تتراوح يوميا في فترات « المدة التجارية » ما بين « ألف وألفي دينار » عدا رسوم السفن والسياح والحجاج (٢٢) . والمدينة لا تقل اتساعا وأهمية عن أكبر مدن العالم التجارية مثل البندقية وجنوة ومرسيليا ولشبونة وكلكتا وزيتون بالصين وكولونيا بألمانيا . ولها

Lewis, Op. Cit. pp. 98-100.
Thenaud, Op. Cit. p. 121.
Harff, Op. Cit. p. 101.

(٢١) خلفت مدينة الاسكندرية دمياط كميناء مصر الاول على البحر المتوسط منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر بعد أن هدم الماليك جزءا من الميناء وردموا قم بحر دمياط حتى يامنوا أي غزو أوروبي منه . لذا لم يعد في استطاعة السفن الاوربية الكبيرة الوصول اليها ، وأصبحت ترسو بالبحر قريبا من مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب البيلية بينها وبين الميناء .

الفلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٠٤ .

انظر ملحق الخرائط .

سعيد عاشور : مصر في عصر دولة الماليك البحرية .

Ziada, Op. Cit. p. 292.

(٢٢) فييت : مصر الاسلامية (المواصلات) ص ٣٩ .

Depping, Op. Cit. T. II. p. 307.
Heyd, Op. Cit. T. II. p. 125.

منطقة زمرير فيفتح (حوله إلى الميناء حيث يوجد المرسى للبحر)
الوافدة من أوروبا ومرسى السلسلة للسفن الوافدة من شمال افريقية وتقل فيه رسوم الجبال عن المرسى الأول (٢٣) . وإلى الشرق من ميناء الاسكندرية يقع ميناء أبو قير عند بحيرة باسم « رأس المعديّة » ويتصل الميناء بالنيل بقناة تصل للبحيرة . ويبعد الميناء حوالي ثلاثة أميال جرمانية عن الاسكندرية « ثمانية أميال » ، وهو مرفأ للسفن السورية الواردة للاسكندرية وتدخله السفن الصغيرة أما الكبيرة فتتصل به من البحر بالقوارب (٢٤) .

ومن هذه الموانئ أيضا ميناء رشيد النيل وتجرم السلطات المالكية دخوله من البحر المتوسط لصفته الحرية ، ونقلت نشاطه التجاري الى ميناء بلدة فوة جنوبه وهي تتصل بالاسكندرية بقناة ملاحية ظلت تعمل حتى أواخر القرن الخامس عشر (٢٥) .

Harff, Op. Cit. pp. 93-95 & R.I. p. 93.
Depping, Op. Cit. I. pp. 62-63.
Leo Africanus, The History And Description Of Africa, Vol. III. pp. 861-862.

(٢٣)

(٢٤) عن ميناء أبو قير يذكره المؤرخين أواخر العصور الوسطى باسم :
Campus De Bucher = Aboqir)
Thenaud, Op. Cit. p. 28. R. 2.
Etienne, Combe, Alex. Musuimane, pp. 49-50.

(٢٥) عن ميناء رشيد

Harff, Op. Cit. p. XXIII.
Heyd, Op. Cit. II. pp. 437-438-439.

بالملاحق رقم (٢٧) مرسوم سلطاني لجماعة الفلورنسيين ولتجارهم بمنحهم امتيازات في موانئ ما عدا ميناء رشيد .

Combe, Op. Cit. pp. 50-51-52-53.

راجع كذلك الملحق رقم (٢٨) ثم

Heyd, Op. Cit. II. pp. 428-435.

سياهي : المصدر السابق ١٤٣ أ

ابن أيوب : المصدر السابق ص ١١٧

وانظر كذلك خريطة مصورة عن الاسكندرية من كتاب :

Atia. The Crusades, Op. Cit. face to page 352.

بين الاسكندرية ورشيد حوالي ٣٦ ميلا : انظر

شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية (مترجم) ص ٥٨/٥٩
Lewis, Op. Cit. pp. 92-93.

ومن جنوبي رشيد تخرج قناة تصل الى ميناء انبرلس بين رشيد ودمياط . وهو مفتوح طول العام ، وله مدخلان الشمالى للسفن المسيحية والغربى للسفن الاسلامية من المغرب . وتتبع الموانئ ثاب الاسكندرية الذى يحصل منه بورد رسوم الدخول وشحن والتفريغ السلع . وقد ذكرت انبرلس فى وثائق البندقية وفنورنسا من المصور الوسطى وان كانت لا تظهر على الخرائط ، وكان بها قنصلية للبندقية وفدائق لموراشييم (٢٦) .

ميناء دمياط :

ومن أشهر موانئ مصر كذا ميناء دمياط النهرى البحرى . وهو مخرج تجارة مصر لمدن وموانئ الساحل الشرقى للبحر المتوسط وكريت وتركيا وقبرص - كما يتصل بالقوافل البرية الى موانئ البحر الأحمر . ولا تدخل السفن ميناء دمياط مباشرة بسبب شدة التيار من النيل . وكذلك لردم جزء من فم البحر عندها . انما يخرج من دمياط قناة الى بحيرة المنزلة حيث تدخل اليها السفن الكبيرة من البحر المتوسط حتى تنيس على بعد سبعين ميلا من البحر المتوسط ومثلها من قناة دمياط وهى فى الواقع مركز تبادل السلع الواردة الى دمياط والصادرة منها . وبالمدينة عدد كبير من الأجانب من اغريق وبنادقة وجنويين وفاورنسيين وبها قنصلية خاصة بفرسان القديس يوحنا فى رودس . وظلت هذه القنصلية قائمة حتى الغزو العثمانى لمصر ١٥١٧ م ويقال ان الأسلحة كانت تصل للسالك عن طريق قنصلية الفرسان بالمدينة .

Depping, Op. Cit. I. p. 74.
Heyd, Op. Cit. II pp. 440-448.
Giolli, Lioncette, Histoire Economique, pp. 196-197.

عن قود

Thenaud, Op. Cit. p. 29. N. 2, pp. 32-33, No. 5.
Harif, Op. Cit. pp. 97-100.
Heyd, Op. Cit. I. pp. 100 & II. pp. 438-439.

(٢٦) انظر ملحق الخرائط .

Heyd. Ibid. II. pp. 428-429.

ولكن ابن اياس المعاصر للأحداث يكذب هذه الواقعة (٢٧) .
الشرق الداخلية :

واتصال التجار بالهند والصين عن طريق مصر كان يتم بوسيلتين : فهناك طريق القاهرة - المنزوم ثم السويس والطور ومنها الى البحر الأحمر . والآخر طريق بولاق / القاهرة بالنيل جنوبا الى قوص . ومنها شرقا الى عيذاب على البحر الأحمر . وهذا الطريق بطل استعماله منذ أوائل القرن الخامس عشر تقريبا لطوله وكثرة تكاليفه وصعوبه التنافس مع أهل الصعيد احيانا . وان كانت موانئه مفتوحة طول العام واقل خطورة من الطريق الأول . وتفضل التجار عنه طريق القاهرة القلزم .

ومنذ القرن الخامس عشر وهذا الطريق هو طريق التجارة الرئيسى وزادت أهميته بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ واهتمت به وليموانية السلطات المماليكية (٢٨) .

(٢٧)

Depping, Op. Cit. I. p. 64.
Lewis, Op. Cit. p. 62.
Thenaud, Op. Cit. pp. 121, 122- N. 2 p. 121.

ابن ايووب : المصدر السابق ص ١١٧٧ .

الطاهرى : ريدت كشف الممالك ص ١٢٥ .

ابن دقماق : الانتصار بواسطة محمد الأصغر ج ٥ ص ٨١ .

يوسف نقولا : دمياط ص ١٦٧ - ٢٠٠ .

ابن اياس : نشق الارحام - مخطوطة ورقة ٢٧ ب .

ابن اياس : بدائع الزهور فى وقايح الدهور ج ٣ ص ٩٢ اخبار سنة ٦٤٢ هـ

(بولاق)

عن فصليات العلوسيين فى دمياط راجع الملحق رقم ٢٧ - ٢٨ .

لاحظ ان دمياط كمناخ فقدت أهميتها البحرية منذ اواخر القرن ١٢ م واستغل مركز

التعل والأهمية الى ميناء الاسكندرية واتخذت اجراءات معينة فى هذا المنع ان غزو بحرى

عبر من فرع دمياط . انظر فيه ملاحظة ٢١ وكذلك .

سعيد حاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٠ .

وحتى اواخر المصور الوسطى ظل الاتصال بها عن طريق القوارب النهرية وعن طريق

قناة تصل الى بحيرة المنزلة .

(٢٨) أبو الحسن : الهجوم القاهرة ج ٨ ص ١٥٢ ملاحظة عن القلزم والسويس

وطريق البحر الاحمر التجارى طبعة دار الكتب .

وكانت السويس قد حنت محل القلزم منذ القرن ١٢ م ، وتصلها سفن التجار الصغيرة من ميناء جدة وعدن محملة بالتوابل والعود والعقاقير والأحجار الكريمة والعنبر والمسك ، ثم تحل على ظهور الجبال عبر الصحراء الى القاهرة . ثم بالنيل الى الاسكندرية . على أن هذا الميناء التجارى لم يلبث أن هجر وأصبح ميناء مصر الحربى على البحر الأحمر وبُنيت به ترسانات السفن الحربية والتجارية القاصدة الى المياه الشرقية ، ومنه قام أسطول مصر الحربى فى مطلع القرن السادس عشر الى الهند (٢٦) . ولما صارت السويس مرفأ مصر الحربى على البحر الأحمر استقر رأى السلطات المماليكية على أن يحل ميناء الطور محلها فى التجارة . والواقع أن كثيرا من التجار كانوا يطرقون هذا الميناء متجنبين موافى الساحل الغربى للبحر الأحمر بسبب ما به من شعاب مرجانية ومخور تتحطم عليها السفن ، لذا لم يكن الميناء جديدا يوم تقرر جعله ميناء مصر التجارى على البحر الأحمر . بل صار يمرور الزمن ميناء التجار المفضل . وميناء الطور يقع جنوب غربى شبه جزيرة سيناء بين فرعى بحر القلزم وعليه أمير مسلوكى من القاهرة وتحيط به عدة قرى وهو بالقرب من جبل فاران (فيران) ، وأطلق عليه الأجانب خطأ اسم رايتو التى يسميها العرب الراية وهى غير الطور وبالميناء مخازن ضخمة وجسر لك خاص بواردات الهند واتباع به نفس النظام الذى كان لميناء السويس فسفن الهند لا تصله انما

(٢٦) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٢٨ .

سياهى : المصدر السابق ورقة ٢١٩ أ .

يذكر (بربوزا) أن تجارة السويس فى بداية القرن ١٦ م دمرت وهجرت المدينة نفسها ولكن نادر كتاب بربوزا يذكر فى الملاحظة (١) ص ٤٣ أن تجارة مصر فى البحر الأحمر انتهى كانت تنتهى عند السويس لم تدمر نهائيا وأن هجر المدينة كان مؤقتا .
Darnes, Op. Cit. I. pp. 42-45 & R.I. p. 43.
راجع كذلك : فينود : حيث يقول : انه خلال زيارته لها عام ١٥١٢ كانت قاحلة وليس بها سوى بعض الاعراب بجمالهم وبعض المسيحيين من الباقية .
Thenaud, Op. Cit. p. 63 & N.I.

ابن اياس : نقش الأزهار ورقة ٨٨ .

تفرغ حواصلها فى عدن وفيها بعد فى جدة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ثم تنقل السلع الى الطور بالقوارب ومنها بالقوافل للقاهرة ، وتصل سفن التجارة الهندية الى جدة مرتين فى العام . وفى كل مرة ينشط العمل فى ميناء الطور (٢٧) . وعلاوة على أهمية الميناء التجارية فهو المحط الرئيسى للحجاج المسيحيين الوافدين من ديار سانس كاترين . والحجاج المسلمين الذاهبين لمكة والمدينة . ويهتم الحجاج المسيحيون خاصة بسوايد وصول سفن التجارة الى الطور . لأن البندقية توقت (مدة) سفنها التجارية : للاسكندرية مع مواعيد هذه السفن مع حساب فرق الوقت والتوزيع من الطور للقاهرة ثم الاسكندرية ، فيستطيع الحجاج المسيحيون القاصدون أوروبا اللحاق بقوافل التجارة الى القاهرة والرحيل الى أوروبا على سفن البندقية المنتظرة المتاجر بالاسكندرية . وسفن البندقية لا ترتبط بسوايد سفن الحج الى مكة والمدينة بسبب اختلاف مواعيد الحج على مدار السنين (٢٨) . ووثائق البندقية أواخر العصور الوسطى تؤيد ذلك وتحدد الفترة من ٨ - ٢٣ سبتمبر من كل عام موعدا لرحيل سفنها للاسكندرية وتكون على استعداد للعودة محملة بالتوابل فى منتصف أكتوبر أو بداية شهر نوفمبر على أكثر تقدير قبل حلول فصل الشتاء . كما أن لها رحلة أخرى فى مارس لتصل الى الاسكندرية وتغادرها فى ابريل . وعلى هذا فان وصول التوابل للطور كان فى أوائل سبتمبر

(٢٧) أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٨ ص ١٥٢ .

سياهى : المصدر السابق ورقة ٢١٩ أ .

ابن ايووب : المصدر السابق ص ١٠٧ .

انظر ملحق الخرائط . وراجع كذلك :

Heyd, Op. Cit. pp. 440-443 ff.
Harff, Op. Cit. T. II. pp. 136, 137-149, 150-154.
Thenaud, Op. Cit. pp. 157, 158.

Heyd, Op. Cit. pp. 446, 447.

Harff, Op. Cit. p. 154.

Darnes, Op. Cit. T. I. p. 45.

من كل عام . وتصلها كذلك سفن الهند في أوائل مارس بعد خروجها من موانئ الهند في فبراير من كل عام .

وفتلت الطور على هذا النحو من الأهلية والازدهار حتى نهاية العصور الوسطى حين انتشر الأسطول البرتغالي في مياه الهند وسد مدخل البحر الأحمر . بالاستيلاء على جزيرة سقطرى وبدأت الطور تنهار في نهاية السنوات الأولى من القرن السادس عشر . وفي عام ١٥١٧ أصبحت قرية صغيرة مهجورة وقلت القوافل الوافدة إليها برا وبحرا (٢٣) .

ميناء عدن :

وإذا كانت القازم والسويس والطور هي مدخل البحر الأحمر من طرفه الشمالي فإن عدن مدخله الجنوبي واعتبرت من أكبر محطات تبادل المتاجر والسلع بين الشرق ومصر (طريق البحر الأحمر) وظلت فترة طويلة لايتعداها تجار الصين والهند الى البحر الأحمر . بل تنقل

(٢٣) يوضح فيليكس فايرى في رحلته من ييب المقدس الى سانب كاريين بستان . تم ان القاهرة بالقوافل والاسكندرية بالليل . ان سفن الهند خرج حولها ونحلتها فوارب . بعدة الى الطور ثم تنقل الى القاهرة بالقوافل والاسكندرية بالليل . ولقد السفن مواعيد . سنة فهي تخرج في سيرة الرياح الموسمية في المحيط الهندي وتخرج في بعض السنوات . مواعيد مواسم الحج الى مكة والمدينة . وعلى هذا نظير البسقية رجاليات البجار الاجانب . مواعيد مدة تجارهم حسب ذلك . كما يربح حجاج مسنأ رحيلهم من الطور الى القاهرة في مواعيد تحرك القوافل بعد وصول السفن لاماكان مصاحبيتها للاسكندرية وصعدان العودة لاوروبا على سفن الهندية . ولدى وصولنا الى الطور سالنا دورية الحراس المالكة عن مواعيد وصول سفن التوابل الهندية الى الطور حتى نستطيع مصاحبة القوافل للقاهرة للتحاق بسفن الهندية رفهما من القائد ان سفن الهند وصلت منذ ايام ومضت القوافل للقاهرة وانزعجا لهذا الخبر لان معانا اننا متفقد مواعيد المدة ونمضي الشتاء بالاسكندرية فاخذنا نحب القائد للاسراع لتعلق بالسفن في الوقت المناسب .

Fabri, Op. Cit. T. II. pp. 642, 643.
Heyd, Op. Cit. pp. 447, 448.

راجع كذلك : ابن اياس . نقش الإزهار ورقة ٦٨ .

شاهد الرحالة ثنود السويس على النحو المذكور خلال رحلته عام ١٥١٢ .
Thenaud, Op. Cit. pp. 80-82.

سليمهم على سفن مسليكية الى جدة ثم الى القلزم والسويس والطور . وفي عدن تتجمع متاجر الشرق والغرب للتبادل فتنتقل الأولى الى مصر فأوروبا . وتنتقل الثانية الى الهند فالصين . وترسو بعدن علاوة على سفن الصين والهند سفن الحبشة والخليج الفارسي وتشرق افريقية وتعتقد أسواقها ايلا بسبب شدة الحرارة . وتجار عدن يسافرون الى الشام ومصر وأثيوبيا والهند والصومال . ومسدن وموانئ الخليج الفارسي . ويتوافر في أسواقها الحديد والنحاس والزئبق والمرجان والملابس الصوفية والقطنية والحريية والعقاقير والتوابل والسكر والأرز وجوز الهند واللبان والجاوي وخشب السند وعود اللند والراوند والملس . ويسكنها عدد كبير من العرب واليهود والزنوج . ويحضعون للملك العربي الذي يحصل على مبالغ ضخمة من رسوم الجمارك . وتتجار مصر الكارمية بعدن مركز ممتاز ولهم مؤسسات ومصارف مالية وتجارية (٢٤) . على ان ملوك اليمن التابعة لهم عدن كانوا يظهرون التعسف مع سفن التجار أحيانا فلم يكتفوا بما يفرضونه من ضرائب عالية . بل استعملوا معهم القسوة . وصار من التقاليد المرعية عند وصول إحدى السفن الى عدن أن يصعد إليها عامل الميناء ويتزعموا قلاعها ودفعها ومرساتها حتى لا يسكنوها من الابطاح قبل أن تدفع الأموال والخرائب المستحقة . أما التجار أنفسهم فكانوا يفتشون تقششا دقيقا قبل نزولهم الميناء وكذلك وجدت عجوز تقش النساء ... فإذا أتم التاجر انزال بضاعته ودفع ما عليه من ضرائب وابعها وتاهب للمعودة طاف عناد في طرقات عدن معلنا أن التاجر الثلاثي : تعادر الميناء

(٢٣) مسامي : المصدر السابق ص ١٩١ .

ابن ايووب : المصدر السابق ص ٩٣ .

د : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

Darnes, Op. Cit. pp. 54-55 (56-57 & R. 2. p. 56 : R. 5. p. 56.

Varthema, Op. Cit. pp. 65-66 & R.I. p. 65-66-67.

Heyd, Op. Cit. II. p. 444.

Depping, Op. Cit. I. p. 47.

فمن له عليه دين أو مال فليطالبه به . وإذا لم يظهر للتاجر دائن يسبح له بالرجيل (٢٦) .

ومنذ ازدهار طريق البحر الأحمر التجارى فى القرن الخامس عشر ، وخاصة بعد عام ١٢٥٣ ، وسياسة الدولة المماليكية قائمة على تحطيم المركز التجارى لعدن وإحلال جدة محله . لذلك حذروا السفن التجارية من الرسو فى عدن وحرموا على تجار مصر والشام دخول الميناء . كما خفضوا الرسوم الجبركية فى موانئ جدة وينبع وفرضوا رسوما عالية على السفن التى يثبت أنها تر بعدن أو ترسو بها ، فالضريبة على السلع الواردة من الشرق لجدة رأسا كانت ١٠٪ ، وضعفها إذا مرت بعدن أولا . بل انهم كانوا يصادرونها أحيانا . ولدى عودة الحجاج اليمنيين من مكة يدفعون ضرائب عالية فى بلادهم على ما يحصلونه من الحجاز وموانئه الى اليمن وعدن (٢٧) . وكانت تستخدم من عدن أحيانا الطرق البرية عبر بلاد العرب المارة بمكة والمدينة ، ومعظم ذلك كان فى مواسم الحج ، وهى تتصل بسيناء وموانئ الشام (٢٨) .

وحتى نهاية العصور الوسطى ظلت مكة مركزا هاما من مراكز تجارة الشرق والواردة بطريق البر من عدن ومن الشام . ومنفذها الى البحر ميناء جدة . والطريق البرى المار بها مأمون ، تحرسه الدوريات لوقوع معظمه فى نطاق سلطنة المماليك (٢٩) . وتنقل على هذا الطريق السلع الخفيفة ، أما السلع الثقيلة فتأخذ الطريق البحرى الى جدة

(٢٦) أبو محمد عبد الله باخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٥٨ ، ٦٧ ، ٦٨ .

سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

Lanc Poole, Hist. Of Egypt In The Middle Ages, p. 340. (٢٧)

Depping, Op. Cit. I. p. 51. (٢٨)

انظر مسح الخرائط .

(٢٩) راجع ما كتبه الرحالة قيلكس فابرى فى هذا الموضوع ص ١٠١ ملاحظة (١٥)

من هذا الفصل .

فالطور (٣٠) . ويصل اليها علاوة على سلع الهند سلع من أثيوبيا وشرق افريقية وبلاد الزنج كما تصلها سلع أوروبا من مصر ودمشق . ويصل مكة فى مواسم وصول سفن الهند الى عدن مالا يقل عن ٨٠٠٠٠٠ جبل وتوقت وصولها فى معظم السنوات فى مواسم الحج وتستمر الى دمشق وتعود بسلع الشام والغرب الأوروبى الى عدن لتنتقل بدورها الى الهند وتستغرق الرحلة حوالى ٥٠ يوما (٣١) .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر كانت مكة ومينائها جده نهاية سفن الهند والصين الى البحر الأحمر ، ولعبت هى وجده دورا هاما فى تحول التجارة من عدن ، مما أدى الى ازدهار تجارة المماليك بصورة رائعة (٣٢) . ومن اجراءاتهم فى ذلك فرض رسوم عالية على السفن التى تر بسيناء عدن قبل وصولها الى جدة وخفضها بالنسبة للسفن القاصدة جدة رأسا ونفذوا هذا الحظر والضرائب بكل دقة ، وبمرور الوقت أصبحت جدة المستودع العظيم لتجار الهند ، وكان هذا مبعث سرور ورضى السلطات المماليكية . وحاول أمراء اليمن من آل طاهر الرسولين تعويق مرور السفن الداخلية الى البحر الأحمر ، فاتجه التجار الى موانئ شرق افريقية ومنها الى جدة بعيدا عن طريق عدن ، وصدر قرار من السلطات المماليكية بجعل الرسوم ١٠٪ فقط مهما كانت جنسية السفينة . ومنذ ذلك الوقت وميناء جدة حتى نهاية القرن الخامس عشر المركز الرئيسى للحجاج والتجار الشرقيين (٣٣) . أما التجار الأجانب فممنوعون من دخول ميناء جدة سواء أكانوا غربيين

Heyd, Op. Cit. II : p. 446. (٣٨)

Vantherm, Op. Cit. p. 44. (٣٩)

Thenaud, Op. Cit. p. 37. (٤٠)

Ziada, Op. Cit. p. 225. (٤١)

Dopp, Op. Cit. pp. 41-42, Fol. 28 & p. 50, p. 52 Fol. 30. (٤٢)

Ziada, Op. Cit. pp. 222, 225. (٤٣)

Heyd, Op. Cit. II : pp. 445-446.

أم شرقيين إلا بأذن خاص من السلطان نفسه (٤٢) . وعند وصول السفن الى جدة تفرغ حمولتها لتقدير رسوم الجمارك عليها ثم تنقل على سفن صغيرة الى ميناء الطور ومنها برا الى دمشق أو الى القاهرة (٤٣) . ويصل الميناء كل عام حوالي ١٠٠ مركب منها مراكب بسبعة أشعة وتتخذ منها الموجبات والرسوم وتحمل لصاحب مكة ولا تقل سنويا عن ٢٠٠٠٠٠ دينار وحاكمها أواخر القرن الخامس عشر شقيق بركات شريف مكة ونائب السلطان بها (٤٤) .

ميناء ينبع :

ومن الموانئ الأخرى التي أسهت في تجارة البحر الأحمر في هذه الفترة المتأخرة من العصور الوسطى . ميناء ينبع (ينبع) وهو « ميناء كبير كثير العائير والأسواق وله بسدر ترد اليه السفن بالغالل كل سنة وتقدر قيمة تجارته كل عام بحوالي ٣٠٠٠٠ دينار : وله أمير يتبع السلطان » (٤٥) .

(٤٢) حصل هارف على تصريح محقق من السلطان محمد بن فاينباي .

(٤٣) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٢١ - ابن أيوب : المصدر السابق ص ٩٢

سماهي : المصدر السابق ورقة ١١٠ ب .

Depping, Op. Cit. I. p. 51.

(٤٤) الظاهري : زبدة كتفب الممالك ص ١٣ و ١٤ .

ابن اياس : نقش الأزهار ورقة ٨٣ .

« ليست لدينا احصائيات دقيقة عن نظام الضرائب التي فرضها السلاطين المالك بعد برسمباي حتى نهاية دولتهم عام ١٥١٧ أكثر مما كان معلوما من عهده الا أنه كان لسقوط السسطنطينية ١٤٥٣ اثره في تشديد المالك في تحصيل الضرائب والرسوم الجمركية على السلع في موانئ الاستيراد والبحر الأحمر كما احتكروا انواعا معينة من السلع وأقصوا عنها الكارمية ورفعوا أسعارها واحتج البنادقة نيابة عن التجار الأجانب وهددوا بالامتناع عن الشراء مما أدى الى اضطراب السلطان الى تعديل قيود التجارة وتخفيض أسعار التوابل الشريفة وكذلك تخفيض الضريبة .

Depping, Op. Cit. T. II. p. 50.

Hevd, Op. Cit. T.I. pp. 380, 381 & T. II. p. 444.

Lane poole, A Hist. Of Egypt In The Middle Ages p. 340.

Varthema, Op. Cit. p. 39.

Darnes, Op. Cit. pp. 46, 47.

(٤٥) ابن اياس : نقش الأزهار ورقة ٨٦ .

وازاء تركز التجارة في البحر الأحمر بعد سقوط السسطنطينية ١٤٥٣ فقد خصصت السلطات المالكية ميناء أيلة لمروور السلع القاصدة الى الشام واقتصر ميناء الطور على سلع القاهرة . وأيلة على الطرف الشرقي للبحر الأحمر في مقابلة القلزم، ورغم صغرهما - كسدينة وميناء - فانها خدمت التجارة فترة طويلة، ويسكنها تجار كثيرون وجبركها يتبع السلطان في مصر . كما يوجد بها قباض المكوس . وتبعد عن الطور يوما رايحة (٤٦) .

ومن هذه الموانئ التي أسهت أيضا في تجارة البحر الأحمر ميناء زيد الذي اختص بتجارة العبور « المناولات أو الترازيت » فيجتمع فيه التجار من الحبشة والحجاز والعراق ومصر . للتجارة والمبادلة (٤٧) .

أما موانئ مصوع وسواكن فتختص بنقل تجارة الحبشة والنوبة وتصلها بحرا سفن الحبشة وبراق قوافل النوبة محملة بالرقيق والشع والعسل وتصل متاجرها لمصر بطريق البحر الأحمر لسهولته (٤٨) . وقد ورد ذكر ميناء سواكن في فترات الصراع بين مينائي عدن وجدة . فكانت سوء معاملة آل رسول باليمن سببا في توجه سفن التجارة الى جدة لتجد معاملة أخرى سيئة فتوجهت السفن الى ميناء سواكن وجزر « دهلك » . غير أن المعاملة التي لقيها التجار هنا لم تكن خيرا مما لاقوه في عدن وجدة ، فتوجهت السفن الى ميناء ينبع (٤٩) .

(٤٦) ابن حوقل : المصدر السابق ص ٣٩ .

سيماي : المصدر السابق ص ٧٨ .

ابن أيوب : المصدر السابق ص ٨٧ .

ابن اياس : نقش الأزهار ورقة ٨٧ . وانظر منح الخرائط .

(٤٧) ابن اياس : المصدر السابق ورقة ٧٧ .

(٤٨)

Depping, Op. Cit. T. II. p. 52.

(٤٩) انظر منح الخرائط .

وتسفن التجارة الداخلية للبحر الأحمر كذلك بينائي بربرة وزيلع ، وكلاهما مركز تجمع تجارة الحبشة والنوبة . وفي زيلع تعقد أسواق العبيد والمعادن ، واللؤلؤ وزارها القائد البرتغالي سواريز عام ١٥١٢ ثم استولى البرتغاليون عليها ودمروها عام ١٥١٨ (٥٠) . ويتردد على ميناء بربرة القريب من زيلع في مواسم التجارة مالا يقل عن ١٠ - ١٥ ألف شخص ، ومعظمهم يتاجرون في سلع الهند والصين والحبشة والنوبة من عاج وقطن وتوابل وأنسجة وشع وهو تتبع حاكم الحبشة ودخلها البرتغاليون كذلك عام ١٥١٨ (٥١) .

ويخدم التجارة الداخلية والخارجية في مصر مجموعة من الطرق الملاحية النهرية والبرية من أسوان الى دمياط ورشيد والاسكندرية ، ومن قوص وقنا وما يقابلها من موانئ عيذاب والقنير على البحر الأحمر . فأسوان كانت أهم أبواب مصر الجنوبية بالنسبة لتجارة النوبة وعن طريقها شهدت مصر نشاطا تجاريا كبيرا وخاصة في عصر المساليك مع بلدان السودان الغربي وأفريقية الوسطى وعرف تجار تلك الجهات باسم الكارم أو الكارمية نسبة الى ملكة « كانهم » كما عرف بعض ضوايقهم باسم التكرور نسبة الى ملكة التكرور (٥٢) وهم يجلبون الى دولة المساليك التوابل والبهار والبخور والعبيد مما يتهاافت الأوربيون للحصول عليه ، وامتد نشاطهم كذلك الى الهند والصين حتى أصبح اسم الكارمية يطلق على كل من يعمل في البهار والفلفل . كما اتخذ عدد كبير منهم مدينة قوص مركزا لنشاطهم التجاري الراسي

Vardema, Op. Cit. T. III. pp. 95, 96.

(٥٠)

Darnes, Op. Cit. T.I. p. 35.

Vardema, Op. Cit. T. III. pp. 95-99.

(٥١)

(٥٢) من المرجح أن تكون تسمية ميناء عصر في بولاق على النيل باسم بولاق التكرور

نسبة الى تجار التكرور الذين كانت ترد بضائعهم من قوص عن طريق النيل الى ساحل

بولاق . أنظر : سعيد عاشور : العصر المالكي ص ٢٩٠ ملاحظة (٤) .

سعيد عاشور : العصر المالكي ص ٢٩١ .

وغدت المدينة سوقا واسعة لتجارة افريقية الوسطى واليمن والحبشة والهند وكونوا بها نقابة خاصة بهم هيئت على تجارة التوابل والبخور والعاج واشكروها حتى انتزعها منهم المساليك قبيل منتصف القرن الخامس عشر وكان لنابتهم رئيس ومعترف به من قبل حكومة المساليك أطلق عليه اسم رئيس الكارمية . ولثرائهم كان بعض سلاطين المساليك يقتربون منهم الأموال كلها اضطرتهم الظروف الى ذلك (٥٣) . أما الميناء الثاني (قوص) فالتجهت منه القوافل شرقا في الصحراء الى ميناء القصير وميناء عيذاب . وتستغرق الرحلة الى القصير من ١٧ الى ٢٠ يوما وتصلها بحرا سفن التجارة من الحبشة واليمن وبلاد العرب والهند وزنبار وأسواقها واسعة وتجارها من مصر واليمن والهند والحبشة المغرب وعدن والسودان، وهي على ثلاثة أيام بالقوافل (٥٤) .

أما عيذاب على البحر الأحمر فظلت فترة طويلة من العصور الوسطى مركز تجمع الحجاج وتجار الشرق وبلغ الحبشة واليمن التي تصلها بحرا ، وبها وال من قبل البجاه وآخر من قبل صاحب مصر ويقتسمان الرسوم الجبركية . وهم يتعاملون بالدرهم ولا يعرفون الوزن . وظلت عيذاب عامرة بما يصدر اليها حتى القرن الرابع عشر حين كثرت بها عصابات قطاع الطرق فقلت قيستها وشهرتها . وان ظلت حتى عهد ابن اياس ميناء بحريا عاديا (٥٥) . وتبع انهيار عيذاب انهيار

(٥٣) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

سعيد عاشور : العصر المالكي ص ٢٩١ .

(٥٤) ابن ايوبي : المصدر السابق ص ١١١ .

المقرئى : الماعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

ابن اياس : نشق الأزمار - ورقة ٢٣ .

سعيد عاشور : مصر في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ص ٢٠٨ .

Kammerer, Le Mer Rouge, T. I. pp. 72-80.

Depping, Op. Cit. T.I. p. 71.

Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 424-426.

(٥٥) ابن اياس : نشق الأزمار ورقة ٢٦ - ٢٧ .

- المقرئى : الماعظ والاعتبار ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

- ابن الاثير الجزري : تحفة العجايب (مخطوطة) ورقة ٢٥٧ .

الموانئ المقابلة على النيل ومصادف ذلك ازدهار طريق البحر الأحمر منذ القرن الخامس عشر وموانئه في جدة وينبع وعدن والطور ، « وهجرت عيذاب لتندثر في القرن العاشر الهجري ويتلاشى طريقها التجاري ويتحول عنها التجار والحجاج » (٥٦) .

ومنذ نجاح البرتغاليين في الوصول للهند بحرا بطريق رأس الرجاء الصالح وطريق البحر الأحمر التجاري يفقد مركزه تدريجيا . كما بدأت تنهار الموانئ عليه من مدخله الجنوبي في عدن الى طرفه الشمالي في السويس والطور . وكذلك موانئه في جدة وينبع والساحل الغربي . وقد فهم البرتغاليون أن استقرارهم في الهند وازدهار تجارتهم لن يتم الا بالقضاء على تجارة العرب ومصر . وصدرت منذ عام ١٥٠٢ تعليمات للقائد البرتغالي « دي جاما » بسد المدخل الجنوبي للبحر الأحمر عند عدن - مما عرض السفن العربية في هذه المنطقة لهجمات الأسطول البرتغالي بكثرة . وفي عام ١٥٠٦ استولى البرتغاليون على سقطرى فتحكسوا بذلك في طريق البحر الأحمر وشرق افريقية . وبعد واقعة شول ١٥٠٨ وديو ١٥٠٩ وتحكم البرتغاليين في هذا

- سياهى : المصدر السابق ورقه ١٩١ .
- المسعودى : عروج الذهب ج ٣ ص ٥٦ .
- القافقندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٦٨ .
- منير : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .
- ابن أيوب : المصدر السابق ص ١٢١ .
- ابن أبياس : المصدر السابق ورقة ٢٧ (٩٣٣هـ / ١٥١٧ م) وسعها في هذا العام .
- على مبارك : الخلفاء المملوكية ج ٢ ص ٥٦ .
- أبو الحارث : المصدر السابق ج ٧ ص ٦٩ (الملاحظ) طبعة دار الكتب .
- سعد عاشور : مصر في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ص ٢٠٨ .
- Frœy. Of Islam, Art. : Aidab.
- Heyd, Op. Cit. T. II, p. 443.
- Clerget, Op. Cit. p. 195.
- Depping, Op. Cit. p. I, pp. : 52, 53, 54.
- Depp, Op. Cit., p. 52 FOL. 30 & pp. 41, 42, & Fol 28 & p. 50. (٥٦)
- Heyd, Op. Cit. T. II, pp. 445, 446-467-480.
- Ziada, Op. Cit. pp. 222-225.

الطريق يزداد . بل إن السفن البرتغالية بدأت فعلا تدخل البحر الأحمر عام ١٥١١ بعد أن قرر البرتغاليون السيطرة الكاملة على كل مراكز انبهار وطرقها من ملقا في الطرف الجنوبي الشرقي لآسيا حتى هرمز على رأس الخليج العربي وعدن عند مدخل البحر الأحمر وجدة على ساحله الشرقي . وكان معنى ذلك سد كل منافذ التجارة على السفن المالكية . وبدأت هذه المراكز فعلا تفقد أهميتها التجارية ، بل أن البرتغاليين تقدموا في البحر الأحمر وهاجموا سواكن واستولوا على جزيرة كمران ١٥١٣ م . في محاولة منهم للوصول الى جدة والأماكن الإسلامية في مكة والمدينة (٥٧) . وقد أدى هذا كله إلى اضطراب الأحوال السياسية والتجارية بين مصر وجهوريات إيطاليا . ومصادف ذلك ازدياد تهجم القراصنة على سفن التجارة المالكية في البحر المتوسط شرقيه وغريه وبخاصة بعد سقوط آخر معاقل العرب في اسبانيا عام ١٤٩٢ م . فقرر الغوري سلطان مصر إذ ذاك اعدة فرض سيطرته على مياه الهند وطرق التجارة البحرية اليه . فأرسل عام ١٥١٤ م / ٩٢٥ هـ أسطولاً على رأسه الأمير حسين كردى قائد حملة شول ١٥٠٨ م وديو ١٥٠٩ م وضم اليه عسكرا من الترك والمغاربة . وأقطعته جدة فبنى حولها سورا ضخما وأبحر في العالم التالي في طريقه الى الهند . ولما لمس البرتغاليون قوة الأسطول المالكي انسحبوا من مياه البحر الأحمر وعدن وتبعهم الأمير حسين الى الهند حيث اجتمع بسلطان جرجيراته . غير أنه لم يستطع ازال الهزيمة بهم وبعث في طلب العون من مصر . فقامت حملة من السويس بقيادة « الرئيس

(٥٧) حاول القائد البرتغالي البوكرك دخول البحر الأحمر عام ١٥١٢ والإستيلاء على مكة والمدينة وجدة كالحرا مقابل الوجود الامكن المسيحية في ايدي المسلمين والمسلمين . على تجارة البحر الأحمر التي تركزت في جدة - وقد فشل لجهله بالملاحة في هذا البحر . وحاول كذلك الاتصال بملك الحبشة المسيحي الذي كان يظن أنه « القس يوحنا » والشخصية الخيالية ليحثه على تحويل مجرى نهر النيل من فرعه النيل الأزرق الى البحر الأحمر لتجريب مصر واخضاعها . انظر : شارل ديي : الهندية جمهورية ص ١٤٩/١٤٨ .

سلمان العثماني « . وعلى الرغم من ذلك لم توفق هذه القوة البحرية الفعّالة في الحصول على نصر حاسم على البرتغاليين الذين كانت قد توفرت أقدامهم في الهند . وإن كانت الحيلة قد نجحت في الحصول على نصر مؤقت بإبعاد خطرهم عن البحر الأحمر وفي العودة استولى على عدن وأشرف على احتلالها سلمان العثماني ، وتولاها الأمير برسبای الحاكم الجركسي - وأخيرا عاد القائدان إلى جدة ومعهما بعض الأسرى من البرتغاليين . ولكن كان قد تقرر مصير الدولة المالكية عقب هزيمة مرج دابق ١٥١٦ ثم الريدانية ١٥١٧ - وضاع طريق البحر الأحمر التجاري نهائيا (٥٨) .

وعلى ساحل شرق البحر المتوسط تنتهي الطرق البرية التجارية الآتية من الشرق الأقصى ومن الخليج الفارسي ومن البحر الأحمر في الفرع الممتد من أيلة عبر سيناء والشام وكذلك الفرع القادم جنوبا من آسيا الصغرى والفرع القادم من أوروبا برا ثم الطريق البحري الرئيسي من غرب أوروبا وإيطاليا (٥٩) . وقد اعتاد الأوروبيون منذ الحروب الصليبية الحصول على غالبية طلباتهم التجارية من السلع الشرقية من مدن وموانئ الشام وكثر ورودهم في القرن الخامس عشر وخاصة في نصفه الثاني بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ واضطراب الأسواق

(٥٨) ترتب على الصراع بين المصريين والبرتغاليين في المياه الهندية ضعف الاتصال التجاري بين شواطئ الهند وميناء عدن وموانئ البحر الأحمر على ساحليه الشرق والغرب . كما أدى بدوره إلى تحويل تجارة القرنج من أسواق مصر والشام إلى أسواق لشبونة . وذكر ابن إياس الماصر لهذه الأحداث أن الإزمة اشتدت بمصر وأدى هذا إلى خراب بندر الاسكندرية وبندر جدة وبندر دمياط من تمتع القرنج مع التجار في بحر الهند . ولم تدخل بضائع بندر جدة نحو من ست سنين ، ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ حوادث الحرم ٩٢٠ هـ وحوادث شعبان ٩٢٢ هـ ٢٠٧ و ٢٠٨ - ٣٣٢ و ٣٥٩ و ٣٨١ و ٣٨٣ - ٤٣٥ و ٤٣٦ - ٤٥٨ و ٤٦١ ثم ج ٥ ص ١٩٩ دراج : المصدر السابق ص ١٥٦ - ١٥٧ . انظر ملحق الخرائط .

Hevd, Op. Cit. T. II. : p. 547.

والطرق التجارية في منطقة نفوذ السلطنة العثمانية بآسيا الصغرى وشرق أوروبا .

واستقر بسن الشام وموانئها في دمشق وحلب وبيروت وطرابلس وسور صيدا وبيت المقدس ويافا وعكا . عدد كبير من تجار الهندية جنوا وفلورنسا وبرشلونة وفرنسا ، وبعض مواطني شمال أوروبا المرافقين للبنادقة والجنوئين ، ووكلاء الشركات الأجنبية الأوروبية التي لها فروع في الشرق . كما كان لهذه الدول والجمهوريات والمدن سفراء وقناصل سياسيين وتجاريين . ولهذه الصلة التجارية الوثيقة بين أوروبا والشام ، سادت المنطقة معظم الأنظمة التجارية الموجودة في الغرب الأوربي ، بالإضافة إلى الأنظمة المحلية التي كانت سائدة في ظل قوانين السلطنة المالكية الحاكمة . واقبال الأجانب على الشام بهذه الصورة، يرجع إلى اتصال الشام اتصالا وثيقا ومباشرا بأسواق الشرق ووسط آسيا ، وكذلك لأن مدنها وموانئها مهبط الحجاج المسيحيين الغربيين إلى بيت المقدس . ولأن الأوروبيين استقروا بها ، مدة طويلة خلال الحروب الصليبية (٦٠) ومواسم الحج الإسلامية والمسيحية من بين المواسم التي كان يتم فيها التبادل التجاري في الشام بين الغرب والشرق ، بالإضافة إلى مواعيد وصول القوافل التجارية من فارس وسلطانية والهند ووسط آسيا الصغرى والبلغار والبحر الأحمر ، لذا فاقت أسواقها أسواق مصر في تنوع السلع التي ترد إليها (٦١) . وحتى نهاية العصور الوسطى كانت دمشق من أهم مدن ومراكز التجارة بسوريا ، وكانت في المرتبة الثانية بعد القاهرة وإن كانت تعتبر أحيانا الثالثة بعد الاسكندرية ، وخاصة منذ عام ١٤٥٣ ، وهي مركز نائب السلطنة أو كافل السلطنة (٦٢) . كما أنها أيضا مركز

Depping, Op. Cit. pp. 81-83

Heyd, Op. Cit. II : p. 457.

Varthema Op. Cit. p. II. N. 2 & pp. 11-15.

الشام الاقتصادي ومستودع تجارة وسط آسيا الى أوروبا وتتوزد عليها
في مواسم التجارة حوالي ١٥٠.٠٠٠ جبل محملة بالسلع الشرقية لتعود
بالسلع الغربية والمحلية ومنها الزجاج والكريستال والأنسجة والعطور
والأسلحة والقواكه . وهي أيضا مركز قناصل الدول الأجنبية وبها عدد
من الفنادق لسكنى التجار الأجانب شرقيين وغربيين ومخازن
لمتاجرهم (٦٣) . وتتصل دمشق بالبحر المتوسط بطريق ميناء بيروت
الذي يبعد عنها مسيرة يومين . وميناء هذا الميناء هادئة لذا تلجأ إليها
السفن في معظم أوقات السنة . ويوزورها التجار الأجانب وان كان
بعضهم يستقر بها بصفة دائمة من بينهم جاليات من المالك والشراكسة
والبنادقة والجنوبيين والقطالونيين والأرمن والجورجيين ، ولهم بها فنادق
وقياسر ووكالات وكنائس ونواب قناصل . ووكالة البندقية من أظهر
هذه الوكالات حتى القرن السادس عشر كما أن لهم بها ولكل التجار
الأجانب وكلاء متصرفين وفروع لمصارفهم وشركاتهم في أوروبا حيث
تسود نفس الأنظمة التي تسود الأصول في بلادهم (٦٤) .

وجنرك بيروت من أغنى جيسارك سوريا وأحفلها وتر به السلع
التي تصل الى دمشق من البحر المتوسط أو التي تخرج منها الى أوروبا ،
كما أنه السوق الطبيعية لمنتجات دمشق المحلية (٦٥) . ومنذ سيطرة

(٦٣) فندق البندقية من أشهر فنادقها ويرى به هارف أثناء وجوده في دمشق .

Heyd, Op. Cit. II ; p. 458.

Depping, Op. Cit. I. pp. 99-100.

Verthema, Op. Cit. p. 20.

Harff, Op. Cit. pp. 230 — & R. 2.

Ziada, Op. Cit. pp. 219-220.

دمشق وصفها هارف خلال زيارته ١٤٩٧/١٤٩٨ .

(٦٤) بيروت : وصفها هارف خلال زيارته ١٤٩٨/١٤٩٩ م .

Varthema, Op. Cit. p. 8 & N. II. p. 8.

Ziada, Op. Cit. p. 220.

Depping, Op. Cit. I. pp. 97-99.

Thenaud, Op. Cit. p. 110.

Harff, Op. Cit. pp. 232-233.

(٦٥) كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ٢٦٨ .

Depping, Op. Cit. I. pp. 97-99.

الماليات على فيرس وميناء بيروت مقصد تجار البحر المتوسط عامة .
وأردحم الميناء بالتجار الأجانب بعد سقوط التسطنطينية ١٤٥٣ (٦٦) .
ونظمت الجاليات الأجنبية خطوطا ملاحية الى بيروت وبخاصة البندقية
التي سست سفنها لتحمل رحلة الجزء الشرقي من البحر المتوسط
وتياراته . فتبدأ الرحلة الأولى في الفترة من ٨ — ٢٥ أغسطس من كل
عام . أما الرحلة الثانية فتكون في الفترة من ٥ أبريل — ١٥ مايو .
وفي شهر يونيو يصل ميناء بيروت سفن معينة لحمل القطن ويصل الى
مصر سفن الجمهوريات الايطالية التي تتعامل مع الاسكندرية في فصل
الخريف وتخرج في فترة تسويق التجار متاجرهم على ميناء بيروت
وطرابلس . وتترك مكانا لسلع مصر بها (٦٧) .

ميناء حلب :

ومن أهم المراكز التجارية في شمال الشام ميناء حلب التي ظلت
حتى نهاية العصور الوسطى على علاقات تجارية مع آسيا وأوروبا .
وتقع حلب على عشرين فرسخا من الفرات وتتصل بالبحر المتوسط
بطريق سهل ، وبالعراق ووسط آسيا وآسيا الصغرى بالقوافل (٦٨) .
وتبدو أهمية حلب لدى السلطات المالكية في وقوعها عند المدخل
الشمالى للدولة المالكية بين الشام وتركيا . وفي تجمع تجارة فارس
وآسيا وآسيا الصغرى بها ، حتى انه يتوفر بأسواقها مالا يتوفر بأسواق
القاهرة ، لذا كانت من أكثر مدن وموانئ الشام مقصدا للتجار

(٦٦) لما بدأت بحرية جنوة في الانهيار منذ النصف الثاني من القرن ١٥ م حلب

رحلتها الى الشام واكفت بالوصول الى فاما جوستا . وكانت قد سقطت عليها وحاولت

جعلها مركز تجارة ساحل البحر المتوسط ولكنها فشلت .

Heyd, Op. Cit. II ; p. 461.

Varthema, Op. Cit. p. 8. N. 2.

(٦٧) عرفت سفن بيروت باسم Galee Di Baruti

وسفن دمشق باسم Navii Di Slria

Heyd, Op. Cit. II ; pp. 460-461.

Depping, Op. Cit. I ; p. 101-102.

Varthema, Op. Cit. pp. 9, 10.

الاجانب الذين يصلون اليها من طرابلس مينائها على البحر المتوسط .
ويصلها سنويا ما بين ٦٠٠٠ و ٨٠٠٠ جبل بالطرق البرية محملة بمختلف
السلع (٦٩) . ومنذ عام ١٤٥٣ والمدينة تزدهر حتى بلغ عدد جبال
القوافل التي تصلها سنويا نحو ١٥ ألف جبل بالطرق البرية بالإضافة
الى الجاليات الأوربية ، ولكثرة ما بالمدينة من اجانب أصبح وجودهم
أمرا مألوفا ، فهم اما مواطنون عاديون ، واما تجار دائمون ، واما تجار
موسميون . واما وكلاء شركات ومصارف أو نواب دبلوماسيون
أو رجال دين . كما كانت تنوج المدينة بتجار الشرق من الكرج والهند
وفارس وكلهم يتاجرون بالنقد والمقايضة . والبنادقة هنا من أشهر وأهم
الجاليات ، وحسيلة ما يدفعونه لجمارك حلب يفوق كل ما يدفعه
الاجانب مجتمعين وزاد تركيزهم بالمدينة بعد سقوط القسطنطينية
١٤٥٣ (٧٠) . وظلت المدينة على هذه الحال حتى قام الصراع المسلح بين
العثمانيين و امبراطورية طرايزون بآسيا الصغرى ثم بينهم وبين
التركان ، ثم بينهم وبين الصفويين ، فأغلقت مرة أخرى الطرق الشمالية
من آسيا الصغرى ووسط آسيا الى المدينة . ولما بدأت المناوشات بين
العثمانيين والمماليك اقتصر وصول المتاجر اليها برا من أيلة على البحر
الأحمر ثم بالصحرَاء حتى أفقدها الطريق البحري الى الهند حول
افريقيا الكثير من مكائنها التجارية (٧١) .

(٦٩) راجع ما كتب عن تحصيل الضرائب في موانئ بيروت لصالح حاكم دمشق وفر
طرابلس لصالح حاكم حلب في النقص الثاني . Depping, Op. Cit. I, p. 100.
(٧٠) زار حلب اواخر العصور الوسطى عديد من الرحالة الاجانب منهم
Chiatl & Varthema عام ١٤٨٣ ونوهوا باتساع المدينة وازدهارها بالبحار واعتلا
حوانيتها ووكالاتها بالسلع المحلية من المنسوجات والزجاج والسجاجيد والمجوهرات والأواني
الذهبية والفضة والسك والتوابل والمصنوعات الحديدية . راجع - كرد على المصدر السابق
ج ٤ ص ٢٦٧ .
Hayd, Op. Cit. II ; p. 59.
(٧١) محمد كرد علي : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٨ .
كانت هذه الطرق البرية من وسط آسيا قد أغلقت خلال غزوات المغول لخراب آسيا .
انظر قبله ملاحظة (٢) .
Heyd, Ibid. II ; p. 459-460.

ميناء طرابلس :

ويأتي ميناء طرابلس في المرتبة الثانية بعد بيروت بالنسبة لتجارة
الشام الخارجية والداخلية . وهو مخرج تجارة منطقة حلب ، وحتى
نهاية العصور الوسطى وهو صلة التجار الأجانب من آسيا وأوروبا ،
والوطنييين من حمص وحلب ودمشق وحماة وبعليك . وعلى طول
شوارع الميناء تنتظم مخازن وحوانيت التجار التي تمتلئ بالسلع
الشامية والسلع المستوردة . وبالميناء نائب للسلطان . وقناصل للدول
الأجنبية . ووكلاء ومندوبو الشركات الأجنبية ، ومصارف وفروع
مؤسسات أوروبا التجارية ، وفنادق وقياسر . ويستوعب الميناء عددا
كثيرا من السفن المختلفة الأحجام . وازدادت أهمية الميناء في النصف
الثاني من القرن الخامس عشر وبخاصة بعد سقوط القسطنطينية عام
١٤٥٣ ثم بعد سد الطرق البرية الشمالية ، وأصبح منفذ التجارة الى
حلب للبحر المتوسط لتصدير السلع الواردة من البحر الأحمر طريق أيلة ،
بعكس ما حدث لميناء اللاذقية الذي قلت أهميته وتركز النشاط في
طرابلس (٧٢) .

وعلى طول الساحل الجنوبي للشام الى مصر تنتشر المدن والموانئ
العديدة . ولكل ميناء أهمية نوعيه فمنها ما يرد اليه تجار القطن ومنها
ما يرد اليه الحجاج من أوروبا الى بيت المقدس . ومن أبرز موانئ هذا
الجزء من الشام صور وصيدا وعكا ويافا وللجاليات الأجنبية في صور
وصيدا مساكن وفنادق ووكالات تجارية ومخازن وظل ازدهارها متألقا
فترة طويلة من النصف الثاني من القرن الخامس عشر واقتصر التعامل
فيها على تصدير القطن والحج (٧٣) . وفي عكا أقامت البندقية وكالة

(٧٢) ابن حوقل : المصدر السابق ص ١٠٨ .

ابن أيوب : المصدر السابق ص ٢٤٣ .

Deppings, Op. Cit. I, pp. 99-100.
Heyd, Op. Cit. II ; p. 460.

(٧٣) ابن أيوب : المصدر السابق ص ٢٤٣ .

Deppings, Op. Cit. I : p. 96.

ونائب قنصل يختص بشؤون القطن وتصله سفن البندقية في فترة « المدة » وكذلك سفن الفترة المعروفة باسم « فائض المدة » بصورة منتظمة لتفاه الى أوروبا (٧٤) . وثلت يافا طوال العصور الوسطى المتأخرة وفترة من عصر النهضة ميناء لمدينة القدس وينزل بها الحجاج المسيحيون في طريقهم لبيت المقدس وللعجاليات الأجنبية بها أماكن محددة لا يتعدونها . فلجنويين مثلاً حتى خاص آل لفرنسا منذ أصبحت السلطة في جنوة للفرنسيين . ولم يعد رعاياها يستعون بامتيازات الدولة الأكثر رعاية وأصبحوا مجرد حجاج أو زوار يدفعون الرسوم المتأخرة مثل غيرهم على الحج والتجارة وقد اهتمت السلطات المالكية حتى نهاية دولتهم بزيادة الحجاج المسيحيين للأراضي المقدسة في فلسطين لأسباب سياسية واقتصادية . وموضع الأهمية هنا هو مايجبه المذهب من رسوم جمارك وحج وكذلك انتعاش التعامل التجاري في هذه الفترة القصيرة في مدن يافا والرملة وبيت المقدس حيث تباع السلع الشرقية المستوردة والسلع المصنوعة محلياً من الأسنجة والعطور والحلويات . حتى ان أماكن التجار تظل تقوح منها رائحة العطور والبخور فترة طويلة . وبذلك الاسباب جعلت البندقية والسلطان العثماني عن طريق سفيرها تالسي عام ١٥٠٢ من منع الحج للأراضي المسيحية في فلسطين كتهديد منه للبابوية وملوك أوروبا اذا لم يوقف البرتغاليون تعرضهم لتجارة السلطان الشرقية في الهند . ومما كان السبب للسلطان : « ان هذا سيجرم بلادك من رسوم ضخمة ، ويفقدك عظمك الدول الأوربية المسيحية . بل سيثيرها عليك ، ولن يسع البرتغاليين من هدفهم » (٧٥) ولميناء يافا علاوة على ذلك سعة طيبة تجارية

Hevd, Ibid. II, p. 465.

(٧٤)

Deppeing, Op. Cit. I, p. 96, II, p. 110.

(٧٥) بناء على ما يافا بعض الأنظمة التي اتبعت في كل موانئ ومين السلطان المالكي باستثناء واحد وهو قصر مدة بقاء سفن الحجاج المسيحيين يوماً واحداً انتظاراً لعودة الحجاج من بيت المقدس . وهذا ينطبق على حجاج بيت المقدس فقط ولا ينطبق على الحجاج .

تتبع به تجارة الأسنجة من تونس وتونس ورام الله والرملة وبيت المقدس (٧٦) . وفي أواخر القرن الخامس عشر بدأ الميناء يفقد مركزه التجاري فقط . وانعزلت عنه التجارة الى بيروت والإسكندرية بقصد التركيز . وذلك على عهد السلطان العثماني بعد سيطرة البرتغاليين على ميناء الهند رعايتها (٧٧) . وابتدئ الفتح العثماني للشام ١٥١٦ كانت يافا مجرد قرية مهتلة (٧٨) .

الموجود بعد ذلك الى ميناء نزيارة دير سانت كاترين فيلولا . ويمررون من طريق مصر . ولم يزاره عربيات معينة حتى وصول السفن المملة للحجاج الى الميناء . يطلب الرأب اذا من السلطان بدخول الميناء . ولا اطلب عليها المدعية . ويرسل قائد السفينة لحاكم الميناء يطلب الاذن للوصول الى بيت المقدس ولابد أن يورد هذا الطلب رئيس دير جبل صهيون رئيس وصفت المرافعة يصحبهم نائب الحاكم مع بعض الأدلة وفرسان الخاليك الى المدينة المقدسة . ويصحب هذا أيضاً بعض إجراءات تعيين على الاسعة والتحقق من استحقاقه وقصر دخولهم للمدينة المقدسة على إقامة الشعائر الدينية . ويدفع أن حاج دروكن غير الإقامة والضيافة وفي بيت المقدس ٧ دركات ويسجل اسمه ثم ١٤ دركاً سريه رأس ويسمح لهم بالتجارة فيما يحملونه أو يشربونه من سلع العرب ويصعدون في بيت المقدس يوماً وليلة يؤدون فيها الشعائر الدينية ويوردون الأماكن المقدسة ويمررون ثاني يوم الى يافا أو الى دير سانت كاترين . وهؤلاء يدخلون ثالث يوم من بيت المقدس . انظر الفصل الثاني في الملحق رقم (٧) عن بعثة تالسي للفوزي والمقدمة . Labri, Op. Cit. Vol. VII, Part. II pp. 213-220. Zaidi, Op. Cit. pp. 293-296.

(٧٦) يذكر مراجع العصور الوسطى المتأخرة طريقاً آخر من يافا الى بيت المقدس ماراً بمدينة الرملة وتبر بمدينة الرملة تجارة البندقية مرسى في العام وتحمل سفن التجار والحجاج . حتى حين أن سفن الحجاج الخاصة لا تعمل معها متاجر . ولكي البندقية في النصف الثاني من القرن ١٥ م حالت هذه القاعدة وحملت المتاجر على سفن الحجاج لدى عودتهم من بيت المقدس ومن بين هذه السلع المتاجر الشرقية والمحلية والمسوجات والرجاج . وللبندوة في الرملة فصل وهم لا يترقبون يافا الا في حالات نعل الحجاج المسيحيين القادمين من الرملة وبيت المقدس ثم في الحاجة الى تحويل العزل القطنية التي تشتهر بها هذه المنطقة بالرغم من معالاة الأمان في اسمازها بتشدد السلطات في الجمارك والاصل في وجود المتاحص هنا هو سهيل امور الحج للمسيحيين الى بيت المقدس وانضمت اليهم بعد ذلك رعاياه تجارة مواشيهم . ويدفع الحاج رسوماً للحج رسوماً المحرك من تجارته اذا كان يحمل متاجراً ورسوماً للتفصيل ويؤجر دليلاً الطريق . Hevd, Op. Cit. T. II, pp. 466, 467. Labri, Op. Cit. Vol. I, Part. II, pp. 266-269.

(٧٧) ركز السلطان العثماني تجارة الشرق في الاسكندرية وبيروت بعد ان قلد وارداته من التجارة الشرقية منذ وصول البرتغاليين الى الهند . راجع الفصل الثاني . Deppeing, Op. Cit. T.I. pp. 88, 89.

(٧٨)

أما الطريق البرى من دمشق للقاهرة فيسير بحذاء الساحل حتى غزة ، وبها تجارة على جانب كبير من الرواج ومعظم تجارها هنا من الوطنيين ولا يتردد الأجانب عليها الا قليلا ، واذا نزلوا ففى عندهم استراحة فى طريقهم لمصر وقد أصاب مدن الشام بصفة عامة ضرر بالغ بعد أن شق البرتغاليون طريقهم البحرى للهند فتحولت عنها تجارة الشرق من الصين والهند بحرا ، كما بطل عمل القوافل البرية التى كانت تروح وتغدوا بين الشرقين الأدنى والأقصى وقل بها عدد الأجانب من التجار المستقرين والمارين وانحصرت التجارة الداخلية فى نطاق ضيق وأصبحت لا تتعدى حد الاستهلاك (٧٩) .

الطريق الثالث :

أما الطريق الثالث الرئيسى : فهو طريق برى من وسط آسيا ومن الهند عبر جبالها وممراتها الى نهر الأتيل ويتقابل مع القوافل الوافدة من الصين . ثم يسيران معا حتى بخارى حيث يتفرع فرعان الأول : الى بحر قزوين فنهر الفلجا وبلاد البلغار . والثانى : يتجه الى البحر الأسود وموانيه ، ثم القسطنطينية وأوروبا وتخرج منه فروع جانبية الى حلب وساحل البحر المتوسط ، وآخر الى بغداد وديار بكر ، والثالث : غير مطروق ويعبر أرمينيا وآسيا الصغرى برا الى القسطنطينية . وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر تعددت مرات اغلاق هذا الطريق ووقفت حركة التجارة فى مدنه وموانيه بسبب اشتداد الصراع بين العثمانيين والتركمان والجيوب الرومانية على البحر الأسود ، ثم الصفويين والماليك . كما تأثرت فروعه بهذه العمليات الحربية التى اشتدت بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م (٨٠) .

(٧٩) كرد على المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦٨ .

(٨٠) انظر ملحق الخرائط وراجع كذلك

Clive, A Hist. Of Commerce, pp. 85, 86.
Eleen Power, Travel & Travellers, pp. 136, 137.

وبالرغم من سيطرة القوات التركية على هذا الطريق قبل سقوط القسطنطينية فان التجارة لم تتوقف فيه ، بل وصلت قوافل الصين والهند حاملة معها التوابل والأنسجة والأحجار الكريمة من الهند والصين . كما وصلت عليه الأنسجة المطرزة والسجاد من فارس وشيراز وأصفهان وكردستان وما بين النهرين ، والجلود والفراء والحنطة وسك الكافيار والعييد من بلاد البلغار عن طريق نهر الفلجا لتتقابل مع السلع الواردة من الشرق الأقصى وتوجد طريقها الى آسيا الصغرى ثم الى البحر المتوسط أو القسطنطينية وأوروبا . والقادة فى هذه التجارة هم البنادقة والجنويون ثم الفلورنسيون وآخر نقط وصولهم شرقا هى مصب نهر الفلجا عند تقابل طرق الشرق والوسط والشمال ويتولون هم بعد ذلك نقلها للقسطنطينية أو موانئ الشام (٨١) .

واذا كنا بصدد الحديث عن التجارة عبر هذا الطريق من آسيا الى آسيا الصغرى فان موقف الأتراك العثمانيين هنا هو حجر الزاوية فبما آل اليه منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر . فهذه الطرق لم تعد منذ ذلك الوقت تصلح للاستخدام بعد أن ظلت فترة طويلة مسرحا لحروب مدمرة بين الأتراك العثمانيين والغرب المسيحي ، ولم يعد بإمكان السفن التجارية دخول المضائق والبحر الأسود بنفس الحرية التى كانت لها أيام البيزنطيين ، وواجهت التجارة صعوبات جمة من تفتيش دقيق وقيود شديدة ورسوم عالية ونهب أحيانا . وتدخلت السياسة فى تنظيم الاقتصاد ، فصادر العثمانيون السفن الحربية عدة مرات لصالح الحرب ولما تعددت الاعتداءات ، وكثرت الشكاوى ، ضج التجار وجأروا بالشكوى لحكوماتهم ووجدت هذه الحكومة أن خير ما تنصح به تجارها ورعاياها هو التوجه الى الساحل الشرقى والجنوبى

للبحر المتوسط في مصر والشام . لذا شهد النصف الثاني من القرن الخامس عشر حركة تجارية جديدة ، فبعد ان كانت السفن يتجه معظمها الى الشمال والشمال الشرقي حولت وجهتها الى الشرق والجنوب الشرقي للبحر المتوسط ^(٨٢) . وبعد فتح القسطنطينية وصلت التجارة ببلاد السلطان العثماني بطريق الشرق وبطريق الغرب برا وبحرا ، وفي عودة التجار الأوروبيين كانوا يحصلون معهم السلع الشرقية . ولما كان البيزنطيون من قبلهم هم سادة المنطقة انحصرت سياستهم الاقتصادية في أنهم اذا أمكنهم السيطرة بأنفسهم على التجارة واحتكارها فانهم يقومون بذلك وعلى نطاق واسع والا تركوها للتجار الغربيين مع منحهم جميع التسهيلات لمباشرة نشاطهم التجاري . أما التراث العثمانيون كما يقول « هايد » : « فكانوا يتصرفون على غير ذلك . فعلاوة على أن روح التجارة لم تجر في عروقهم ولم تشغل أفكارهم . فان الرغبة الجامحة في الفتح والحرب سيطرت على كل جهودهم وبخاصة الجمهوريات الإيطالية التجارية لثرائها وقوتها البحرية لمساعدتهم للبيزنطيين خلال الصراع على القسطنطينية ، فلم يلق العثمانيون بالا لما يجره عليهم هذا على التجارة وطرقها ، بل كانوا في غنهم يدمرون الأسواق ويخضعون لسيطرتهم مراكز الجاليات التجارية ومن بها من تجار وتجارة . وفر الكثيرون الى وطنهم مكتفين من الغنية بالاياب » ، والواقع أن مؤرخي الفترة الأخيرة من العصور الوسطى ومنهم « هايد » يتهمون السلطات العثمانية بالتأخر وفقدان روح الحضارة ويلقون مسؤولية غلق هذا الطريق فترات طويلة على عاتق العثمانيين . والحقيقة أن العثمانيين في فترة تكون دولتهم نحو التجارة جانيا ، لا اهمالا منهم ، ولا لأنهم رعاة آسيويين ، ولكن لأن تأمين امبراطوريتهم أهم في هذه الظروف من التجارة ، وأهم من فتح

Heyd, Op. Cit. p. 427.

(٨٢)

ابواب بلادهم لأجانب زهم على عداء معهم وبخاصة أن الجيوش العثمانية تعبت كثيرا في ترقق أوروبا ووسطها . كما ان هذه السلطات كانت تعلم ان قواد الجمهوريات الإيطالية - التي اشتركت في الحرب ضدها - قائم على التجارة وأنها مصدر خطر حربي على الامبراطورية الجديدة ^(٨٣) . وليس أدنى على ذلك من ان التجارة ظلت مسمرة في آسيا الصغرى في الاماكن التي عزاها العثمانيون قبل سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ . كما أنه بمجرد انهيار الامبراطورية البيزنطية واستقرار الاسود العثمانيين في القسطنطينية رعى البغايا امنوت حركة التجارة بين الشرق والغرب على هذا الطريق . وتقدم البنادقة والبنويون والفلورنسيون وغيرهم من تجار راجورا وسين والألمان بضبات استئناف التجارة في ظل السيد الجديد . وعقدوا اتفاقيات تجارية اندب سابق اميرائهم . وأن كانت الضرائب قد زادت أحيانا ودنسوا تأميمت لهم في امبارك ^(٨٤) . الا ان العثمانيين تشددوا في الجمارك وتفتيش السفن وبخاصة في فترة الحروب : كما حدث في الصراع الحربي بينهم وبين البابوية على عهد البابا كالكستس ١٤٥٧ وجرت اليها البندقية في صراع استمر حتى عام ١٤٧٩ اغلقت فيه المضائق في وجه سفنها وجرى تفتيش دقيق للسفن المحتجزة في البحر الأسود كما أغلق الطريق البري من وسط آسيا ، وهذا اجراء تطلبت

(٨٣) الملاحظ ان بعض المؤرخين مثل هايد يحامل كثيرا على العثمانيين لما قاموا به من تشدد في تفتيش السفن على تجارة القرن ١٥ م مع قطلونيا وفلورنسا والبندقية . انظر ملاحظة ٨٧ بعد

Heyd, Op. Cit. II, p. 349.

(٨٤) حصل العثمانيون على معاهدة تجارية مع العثمانيين بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ وكانوا قد سلموا حصونهم في جلايا للسلطان محمد الثاني العثماني . ففتحهم الامان وحق التجارة . اما البنادقة فقد عقدوا اتفاقية مع العثمانيين لتنظيم شئون رعايا وتجارة الدوليين وتحديد الرسوم الجمركية . ملخص معاهدة البندقية والسلطان محمد الثاني العثماني بالملحق رقم (١٧) .

Cambridge Modern Hist. Vol. I, p. 278.

Heyd, Op. Cit. II : p. 214-215. & pp. 316-317.

Depping, Op. Cit. II : pp. 214-215-227-228 & N. p. 341.

الضرورة الحرية كما أنه من حقوق السيادة للعثمانيين^(٨٥) . الا أن هذا العداء مع البندقية لم يشمل باقي الجمهوريات والمدن الجمهورية، الإيطالية فتستعت فلورنسا بامتيازات رائعة في الموانئ والجمارك العثمانية . بل ان السلطان العثماني استخدم بعض الفلورنسيين في قصوره كستشارين وتبادل الطرفان العديد من المعاهدات^(٨٦) . كما زادت بعثات عثمانية مدينة فلورنسا وتبادلت مع حاكمها الهدايا^(٨٧) . ومن المحطات العثمانية التي خدمت التجارة على هذا الطريق مدينة أدنة التي زخرت بالتجار البنادقة والجنوبيين والفلورنسيين وعرب الشام والعراق .

وامتد النشاط كذلك الى بروسه حيث تعقد بها أسواق بيع التوابل والسلع الشرقية عامة ومعظم روادها من تجار الشام والعراق الذين يتجهون بعد التسويق الى حلب وبغداد . بل ان أهالي ضاحية بيرام بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ وحصولهم على الأمان لهم ولتجارتهم اتجهوا الى بروسه وأدرنة للحصول على حاجتهم من السلع

(٨٥) شارل ديل : البندقية جمهورية من ١٢٨٠ .

Depping, Op. Cit., T. II. pp. 228 & N. p. 341.

Heyd, Op. Cit. T. II. p. 318.

Hammer, Op. Cit. T. III. p. 240.

(٨٦) عقدت فلورنسا مع العثمانيين معاهدات تجارية عديدة منها معاهدات عام ١٤٦١

١٤٦٣ - ١٤٦٩ - ١٤٧٠ - ١٤٨٣ - ١٤٩٨ - ١٤٩٩ - ١٥٠٧ . Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 339, 340-343-346.

(٨٧) يمكن ان يقال بوجه عام ان عدم اعتمام العثمانيين احيانا بالتجارة كان مبعثه امورا سياسية واقتصادية ، فكانت البندقية وقوتها العسكرية هي المقصودة من اجراءات غلق الطرق والموانئ والمضائق ومصادرة الاموال والمتاجر . فانه بعد ان استقر الامر للعثمانيين في القسطنطينية وشرق اوروبا بحثوا في فرض السيطرة على مواصلات وتجارة البندقية في بلاد السلطان العثماني لان رواج تجارتها يزيد من ثرائها وتهديدها المستمر للفتوحات العثمانية ووجد العثمانيون ان السبيل الوحيد لمنع التهديد ، وللشراء التجاري هو القضاء على تجارة البندقية ومواصلاتها البرية والبحرية ثم تشجيع باقي المدن الإيطالية مثل الفلورنسيين للعمل على نطاق واسع . ومعنى هذا ان الطرق لم تغلق نهائيا انما أغلقت في وجه جاليات بعينها لدواعي الأمن . انظر ملاحظة (٨٤) وكذلك : Heyd, Op. Cit. T. II. p. 349.

الشرقية . ومعظم المتاجر اشرقيه في مدن ومراكز آسيا الصغرى كانت في يد العرب المستوطنين والتركمان وبعض الأجانب المغامرين من بنادقة وجنوبيين وفلورنسيين ولهم وكالات ومخازن . ومن أكثر مراكزهم ازدهاما طوروس ، وبها سوقان : أحدهما : للحريم والمنسوجات القطنية والأحجار الكريمة ، والآخرة : للقطن الخام والصابون والتوابل والسلع التي يكثر الطلب عليها في أسواق الشرق والغرب ، كالسجاد والصوف والجلود المدبوغة والشمع وبذور الصبغة ، وبخاصة صبغة المن والسح^(٨٨) . وفي فترات الصراع الحربي - اقتصر التعامل التجاري على الفلورنسيين والعرب^(٨٩) . وعلى شواطئ البحر الأسود مرت سلع هذا الطريق التجاري من الشرق الأقصى وسيطر على تجارته في هذا الجزء الايطاليون بصفة عامة برا وبحرا ، وتعاملوا مع قبائل التوقاز ووسط وشمال آسيا وارتكزت تجارتهم على قواعد ثابتة من التعامل النقدي والمؤجل والمقايضة . ومن أهم مراكزهم على البحر الأسود كافا ، وتتصل بالطريق البري من بكين بالصين . واتخذها الجنوبيون عاصمة لهم ولتجارتهم وتردد عليها التجار البلغار والرومانيون والبولنديون والأتراك والأرمن والبنادقة والفلورنسيون أحيانا بعد عام ١٤٦١^(٩٠) . وكان الجنوبيون يعتبرون البحر الاسود بحيرة جنوبية حتى سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ وسيطر العثمانيون على هذا الطريق في جزئه الأوسط بآسيا الصغرى حتى شرق أوروبا مما جعل المراكز التجارية في الأناضول وعلى البحر الأسود شبه معزولة ، وان كان التجار الأجانب فيها قد نالوا حق استخدام هذا الطريق في

Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 353.

(٨٨)

Heyd, Ibid. T. II. pp. 250, 351.

(٨٩)

Poston, Camb. Med. Hist., II ; pp. 353-354.

Depping, Op. Cit., T. II. pp. 224-227.

Gayet, Op. Cit. T. II p. 314.

Pernand, Op. Cit. pp. 69-70.

(٩٠)

وخلال الفترة التالية لسقوط امبراطورية طرايزون ماجت المنطقة
بالصراع السياسى والحربى الذى امتد من حدود فارس الى حدود
سلطنة الممالك باطراف الشام والعراق وديار بكر ، وشمل عصر
سلايين آل عثمان محمد الثانى وبايزيد الثانى وسليم الأول . ومن
سلاطين مصر الممالك شمل عصر السلطان قايتباى والسلطان الغورى
ومن درس فترة طويلة من عصر الشاد اسماعيل الصفوى . وكان
لامتداد القتال فى هذه المنطقة اثره البالغ فى طريق التجارة الأوسط
البرى والبحرى وفروعه بين الشرق والغرب . وليس أدل على ذلك
أن الترك كثيرا ما كانوا يرسلون سفنهم الى الاسكندرية ودمياط
ويرتدوا للحصول على حاجتهم من السلع الشرقية ، بل منح تجارهم فى
الاسكندرية فندقا ومركزا دائما (٩٤) . وكان هذا الفندق من قبل
لجالية بيزا ورفض قاضى الاسكندرية منحه للفلورنسيين بعد انضمام
بيزا اليهم - وقد آل الفندق للسليين .

الطريق الرابع :

أما الطريق الرابع فهو من الصين بحرا الى الهند . وعندها يتحد
مع الطريق الأول الى الخليج الفارسى ، والطريق الثانى الى البحر الأحمر
ويخدم التجارة على هذا الطريق عدة موانئ بالصين والهند ، أبرزها
خانفو (كانتون) وزيتون وكينساي بالصين . أما بالهند فعلى ساحل
الملابار مدن جوجيرات وكينساي وديو وقاليقوط وجوا وكولون وشول
وكانانور وسورات ثم محطات قليلة على ساحل كروماندل الشرقى
فجزيرة سيلان . وقد سيطر على هذا الطريق من طرفيه دولتان تجاريتان
عظيستان . ففي طرفه الشمالى الصين . وبها أسرة منج الوطنية التى

أملكت الدولة العثمانية ضمن المعاهدات والاتفاقيات التى عقدها مع
السلاطين المتعاقبين . الا انهم شعروا بقرب انتهاء وجودهم ، وبخاصة
عندما عاد السلطان محمد الثانى العثمانى الى الشرق منذ عام ١٤٦٠
لاخضاع ما بقى من جيوب تركمانية ومغولية وأوربية فى شرق آسيا
الصغرى . وكذلك نهاية للفتنة الزاهية التى عاشها تجارهم قرونا
عديدة . وسلم الجنويون أموالهم لبنك سان جورج ورحلوا الى
مراكزهم فى مصر والشام (٩٥) .

وبعد أن اكتسح السلطان محمد الثانى العثمانى الامارات
التركمانية استولى على المراكز الاغريقية الباقية فى بوتس وهراقليا
وسينوب وسسبون التى انقسمت الى قسمين : التركى وهو سسبون ،
والجنوى سيسو ولجنوة فى الجزء التركى قناصل وتجار (٩٦) .
أما مدينة طرايزون فتتصل بطرق برية بفارس وأرمينيا ، وبها أسواق
عالية وتمتد أوروبا بالسلع الشرقية . وللجاليات الأجنبية فيها وكالات
وفنادق . وتتصل بحرا وبريا بباقى موانئ البحر الأسود والقسطنطينية
كما تتصل عن طريق ديار بكر ببغداد بالخليج الفارسى . ولدى وصول
السلطان محمد الثانى للمنطقة حاول مثلو طرايزون فى أوروبا إثارة
حروب أوربية ضد السلطان العثمانى ، وأقاموا حلفا عسكريا من
أمراء المسلمين الحاقدين على الأتراك وأمراء جورجيا المسيحيين
والبابوية ، ولكن فشل الحلفاء وسقطت المدينة عام ١٤٦١ (٩٧) .

(٩٥) انظر ملحق الخرائط وراجع

Gayet, Op. Cit. T. II. p. 314.
Poston, Op. Cit. T. II. p. 354.
Depping, Op. Cit. T. II. p. 221.

Depping, Ibid ; p. 222.
Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 359, 360, 361.
Hammer, Op. Cit. T. III. pp. 70, 71.

(٩٦)

(٩٧) انظر ملحق الخرائط وراجع :

Depping, Op. Cit. T. II. pp. 128, 129.
Camb. Mod. Hist. Vol. I. p. 78.

(٩٤) شارل ديي : الهندية جمهورية من ١٥٠ - ١٥١ .

Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 374-350 & 735, 736.

حكمت من عام ١٣٦٨ / ١٦٤٣ . وفى طرفه الغربى دولة سلاطين المساليك
بصر والشام من ١٢٥٠ / ١٥١٧ م وأشرف الصينيون على الطريق من
عاصمتهم فانكنج ، وقد ظهرت أهمية هذا الطريق منذ أن هددت الحروب
العديدة الطريق البرى من شرق ووسط آسيا والهند الى آسيا الصغرى .
وكان أقصى نقطة وصلت اليها السفن الصينية هى جدة فى البحر الأحمر
وقد نشطت العلاقات التجارية من الرحلات المباشرة بين شرق وغرب
آسيا والتي يقوم بها الطرفان ووصلت بعثات الصين التجارية الى
الساحل الجنوبي لبلاد العرب والساحل الشرقى لأفريقية حتى مقديشو .
كما أن سفنهم مرت فى هذا الطريق بالخليج الفارسى ومدنه وموانيه .
وان كانت معظم الرحلات توجه أساسا الى البحر الأحمر ومصر
والشام (٩٥) .

أما التجار العرب فقد ازدادت رحلاتهم للسياه الصينية بعد
غلق الطريق البرى الأوسط منذ أن ملأت الفتوحات العثمانية النصف
الثانى من القرن الخامس عشر فى آسيا الصغرى ، وازداد بالتدريج
عدد التجار العرب وسيطروا على تجارة جنوب شرق آسيا ، واتخذوا
من خانفو قاعدة لعملياتهم التجارية وأنشأوا مواصلات منتظمة بين
مراكزهم على الخليج الفارسى ومراكزهم الجديدة جنوب شرقى آسيا .
وانتقل هذا النشاط بعد ذلك الى البحر الأحمر الذى اتصلوا منه
مباشرة بموانئ الصين ، وتركزت التجارة الى حد كبير فى يد
بعض الأسر ، وخانفو من أهم مراكز التجارة فى الصين ، وتزخر
أسواقها بالحرير والمسك والعود والسمور والدارصينى
والأبنوس وخشب الصندل والكافور والخيزران ومختلف أنواع
الأفاوية ، وذكرها معظم مؤرخى العرب كمرفأ للسفن « ومجتمع
تجارات العرب ولهم بها رجل مسلم يوليه صاحب الصين الحكم بين

(٩٥) انظر ملحق الخرائط وكذلك :

Hyzayyin, Arabia & The Far East, pp. 180, 181.

المسلمين القاصدين تلك الناحية . وفى العيد يصلى بالمسلمين ويخطب
ويدعو للسultan « (٩٦) . وبالإضافة الى العرب فيها جالية يهودية
ونصارى ومجوس . « ولدى وصول سفن البلاد العربية تدخل الميناء ،
وتنقل السلع الى الجبرك وتبقى فيه مدة حيث يصير تقدير ثمنها وتحصل
الحكومة على ثلاثة أعشار الثمن جبارك وضرائب ، ويستطيع الامبراطور
أن يشتري ما يشاء بأثمان غالية بلا ظلم لأحد (٩٧) . ومن أسباب
احتجاز السلع حتى نهاية الموسم اتاحة الفرص للأهالى للشراء بأسعار
منخفضة ، وذلك باغراق السوق بالسلع . ومن النظم كذلك قيود
التفتيش فيلزم مفتش التجارة البحرية الصينى التجار بتسجيل
أسائهم وشحناتهم فى مكتبه لا مكان حصر قيمة الضرائب ورسوم
الشحن على سلعهم ، كما يحرم عليهم تصدير السلع النادرة أحيانا (٩٨) .

أما ميناء زيتون (٩٩) فهو من مداخل الامبراطورية البحرية
ومستقبل السفن الضخمة وبه مخازن واسعة ، وجميع الأهالى هنا
يعملون اما تجارا ، واما صناعا كما أن معظم السفن التى تدخل الميناء

(٩٦) ابن الوردي : فريدة العجائب ص ٤١ و ٤٢ .

ابو زيد حسن السيراقي : سلسلة التواريخ ص ١١٠ .

الجزري : المصدر السابق (مخطوطة) ورقة رقم ٢٤٤ - ٢٤٥ .

ابن اياس : تشق الأزمهر : (مخطوطة) ورقة رقم ١٢٨ .

سياهى : المصدر السابق ص ١٢٧ ب .

Hyzayyin, Ibid, pp. 157-158.

(٩٧) حوراني : المصدر السابق ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٩٨) راجع ملحق الخرائط وكذلك :

Hyzayyin, Op. Cit. pp. 160, 166.

Eleen Power, The Opening Of The Land Route To Cathay, pp. 148 ; Chp. VIII
From «Travel & Travellers».

Gayet, Op. Cit. T. II. p. 315.

Chù an-Chow (٩٩) زيتون هى المدينة الصينية « تشوان - تشو »

ويقال انها تموتونج Tsau - Tung من موانئ إقليم فوكن . ولا يرد اسمها الا فى

المصادر العربية المتأخرة . انظر :

حوراني : المصدر السابق ص ٢٢١ ملاحظة (٩٦) .

Hyzayyin, Op. Cit. pp. 178. R. 3, 197. R. 2.

أجنبي وبالأخص عربية . وبها جسر كبير على جانب كبير من الاتساع والثراء ويستوعب الميناء حوالي ١٠٠ سفينة في المرة الواحدة من السفن الكبيرة وضعتها من السفن الصغيرة . ولزيتون اتصالات وثيقة بـ سدن وموانئ غرب آسيا في مصر والشام وترسو في مينائها سفن الصين بشكائها المعروف محملة بالتوابل وعود النـد والصبـار والأبنوس وخشب الصندل من الهند الصينية والمسك من التبت والحرير الخام من الصين نفسها . وفي طريقها للبحر الأحمر تر بالهند لتحصل اللؤلؤ والجواهر والأحجار الكريمة والفلل والحرير والأفاوية (١٠٠) .

ومن هذه الموانئ أيضا ميناء « هانج تشو » الذي يعرفه العرب باسم كنيـساي أو كنيـسا . ويقع شمالي زيتون وهو من أعظم فرض الصين واليه ينتهي وصول تجار الغرب من العرب وغيرهم . ومع أنها ليست كبيرة إلا أنها اكتسبت شهرتها كمركز تسويق ومدخل لنهر يانج تسي . وبها مراكز ووكالات تجارية للسـلـسـلـين مثل كاتون وزيتون (١٠١) .

على أن هذا الطريق لم يكن معظمه آمنا . فليست صعوبة المواصلات في بعض أجزائه هي العقبة الوحيدة إنما انتشرت القرصنة في بعض أجزائه عند البحرين وقطر والساحل الإيراني في الخليج الفارسي . وكان القراصنة يأوون في الشعاب المختلفة بالبحر ، بل انتشروا كذلك في مياه الهند والسند وهم المعروفون باسم « الميـد

(١٠٠) سياهي : المصدر السابق ص ١٣١ .

Eleen Power, Op. Cit. p. 136.

(١٠١) اصل هذه المدينة هو King See أي المدينة المركزية وعرفت كذلك باسم Quinsay, Kinsa وتقع على عدة جزر بينها قنوات مائية ولها ١٢ بوابة و ١٢ كوبري - ويسكنها سادة الصين وتجارها يتمتعون بجميع الحقوق المدنية والدينية والسياسية .

Hyzayyin, Op. Cit. p. 108.

Eleen Power, Op. Cit. p. 134.

والكرج » ويسكنون بلاد السند . لذا كان على السفن التي تصل الصين على هذا الطريق البحري أن تتزود بما تحتاج اليه من مياه ومؤن من ميناء صغار ومستقط على ساحل عبان ، ثم تسخر المحيط مباشرة الى كولم ملى في جنوب مالابار لتتفادى بذلك قرصنة الميـد والكرج . بل ان هؤلاء القراصنة وصل نفوذهم أحيانا الى جزيرة سقطرى واتخذوها وكرا لهم ليرصدوا السفن القادمة الى شرق افريقية والبحر الأحمر . لذا حرص الصينيون على أن تحصل سفنهم التجارية جنودا بحريين مدربين على رمي النار اليونانية . (١٠٢) ومن هذه العقبات أيضا اختلاف هبوب الرياح في المحيط الهندي من فصل لآخر . ولكن الملاحين استطاعوا تذليل هذه الصعوبة بعد أن مارسوا الملاحة فترة طويلة في هذا المحيط ووقتوا مواعيد رحيلهم وأوتهم مع دفع الرياح الى جهة مقصدهم . وتبعاً لاختلاف هبوب الرياح في البحار الشرقية فإن السفن القاصدة للصين كانت تدخل الخليج الفارسي قبل أن تشتد عواصفه في شهرى سبتمبر و اكتوبر . وتعبـر المحيط من مسقط الى ساحل الملايار بالهند بدفع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية وتستغرق هذه الرحلة شهرا ما بين شهرى نوفمبر وديسمبر وتبقى حتى تنتهى العواصف الدوارة من خليج البنغال . ومن ساحل المنبار تسير السفن الى جزيرة « سرنديب » سيلان الياقوت ، وأحيانا تعرج على خليج البنغال بعد هدوء عواصفه ثم تسير شرقا مباشرة الى جزر نيكوبار ليتزود رجالها بالماء والميرة ويتبادلون السلع مع السكان وهم مستطون قواربهم ، ويكون شهر يناير قد انتهى ، وانتهى كذلك هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، وتتجه السفن الى ملقا مدفوعة بالرياح الموسمية الجنوبية ، وبحلول شهرى أبريل ومايو تكون قد وصلت الى الملايو ثم تتجه في شهور الصيف الأولى الى سومطرة وجاوة

(١٠٢) حوراني : المصدر السابق ص ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ .

والهند الصينية . وتستغرق في هذه الرحلة حوالي ستة شهور من الخليج الفارسي لتدخل في النهاية ميناء كانتون « خانفو » وبحر الصين عامة . وإذا سارت السفن من مسقط الى كانتون مباشرة دون توقف استغرق سفرها حوالي ١٢٠ يوما . وبعد قضاء الصيف في بحر الصين تحل السفن السلع الصينية لتعود مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية الى مضيق ملقا فيسبأ بين أكتوبر وديسمبر . وتعبّر الخليج في البنغال في يناير مستعينة بدفع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية . ثم تختم رحلتها الى الخليج الفارسي ويكون الصيف قد حل . ورحلتها الذهاب والايب تستغرقان نحو من عام ونصف عام (١٠٣) .

وفي الهند على هذا الطريق انتشرت المدن والمراكز التجارية على ساحل ملابار - الساحل الغربي للهند - وهي تحجز خلفها مساحات واسعة من الأراضي ذات المناخ الموسمي والانتاج الوفير من التوابل ويزرع الأهالي الحاصلات ، بأنفسهم وتقوم الوكالات الأجنبية بتسويقها وتصديرها للخارج ، ومن هذه الوكالات وكالات الجاليات العربية الذين يكونون خمس سكان الموانئ . ويراسلون التجار في مصر وأوربا ولهم وكلاء في الخليج الفارسي وسواحل بلاد العرب وشرق افريقية وقد ثبتوا أقدامهم في مدن وموانئ ساحل ملابار منذ أمد طويل ، واشتركوا مع الأهالي في اللغة والدين والعادات والتقاليد والعمل المشترك (١٠٤) ، وانقسمت الولايات الهندية الى مجموعة من الامارات تنافست بعضها مع بعض في السياسة والانتاج الاقتصادي وشمل التنافس جميع فئات التجار الوطنيين ، والأجانب ، ولكل اقليم منتجاته الخاصة به التي يزداد الطلب عليها في الأسواق العالمية تبعا

(١٠٣) حوراني : المصدر السابق ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

(١٠٤) انظر ملحق الخرائط ثم راجع :

Depping ; Op. Cit. I. p. 39.
Darnes, Op. Cit. II. p. 75.

لجودتها وندرتها ونقاؤها . والانتاج هنا يصل الى التجار مباشرة دون وساطة مما جعل أسعاره منخفضة . وميناء قاليقوت من أبرز موانئ هذا الساحل والتجار العرب هم أول من وردوا أسواق قاليقوت ويصنون منها شرقا الى الملايو والصين . واكتسبت المدينة شهرتها العالمية التي امتازت بها من تجارة التوابل والأحجار الكريمة الثينة . وتسوج العديد من الجاليات الأجنبية من العرب، والسوريين والمصريين واليمنيين والأحبش والترك والعجم والصينيين (١٠٥) . وبالإضافة الى انتاجها الوفير . تصلها توابل وبنار الصين وجزر الهند الشرقية وسيلان ويحصلها العرب الى الخليج الفارسي والبحر الأحمر ، وتعد أسواقها السنوية في الأعياد ، ويدفع التجار لسلطات الميناء رسوما جمركية ثقل أو تزيد بحسب تغير الحكومات ، وبارتفاع رسوم الجمر ترفع تبعا لذلك أسعار السلع أربعة أو خمسة أمثال ثمنها أحيانا . وعلى هذا فان الفائدة الضخمة هي التي يجنيها التجار الذين يحصلون السلع الى غرب أوروبا مباشرة دون وساطة (١٠٦) .

ووصف قاليقوت الرحالة المسلم ماهون في القرن الخامس عشر وكان ترجبانا لامبراطور الصين فذكر أنها « ... من أهم مراكز العالم التجارية ويرد اليها التجار من جميع أنحاء العالم ... ولدى وصول سفن الصين اليها ، يعتليها مندوبو الملك لكي يلقوا نظرة على البضائع والسلع ويشتون حمولتها ، ويعين لكل تاجر حارس ، لحمايته ومحاسب لتنظيم حساباته وتقدير رسوم الجمارك وسيسار لتسويق ما يطلبه من سلع أو يبيعها نظرا لمعرفته ببلاده وطباع أهلها ولعنتهم . وعلاوة على الحارس الخاص فان جميع ضباط الميناء والبحرية ورجال الجمارك

(١٠٥) انظر ملحق الخرائط وذلك :

Heyd, Op. Cit. II : pp. 497-499.
Synge, A Book Of Discovery, p. 178.

(١٠٦) هم البرعالمون بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح .
Gamb. Med. Hist., I. pp. 25-26.

بالسفن أسطح علوية ، وظلوا حتى وصول البرتغاليين للهند لا يستعملون الحديد في ربط ألواح السفن بعضها ببعض (١١٠) .

Depping, Op. Cit. I, pp. 31-33.
Varthema, Op. Cit. pp. 153, 172-177 & N.I.
Darnes, Op. Cit. II, p. 77.

(١١٠)

حتى وصول البرتغاليين للهند ظل العرب والشرقيون عامة يستخدمون في رحلاتهم البحرية من الصين إلى الخليج الفارسي والبحر الأحمر وشرق أفريقية سفن ذات أظفار واحدة في مناسبتها وإن احتلفت في أشكالها ومن أبرز خصائصها .

(١) إن ألواحها تغط بالخيوط المستوعبة من القنب ولا تدق فيها المسامير .
(٢) طول الصاري وامتداد الشراع على طول السفينة هيكل السعفة عسع من الراج حسب الساج وحشب جوز الهند وكلاهما عتيق لا يتشقق ولا يتغير شكله في الماء . ومعظم هذه الأخشاب تأتي من الهند ولا تصنع السفن في المنطقة من شرق البحر الأحمر إلى الصين من اسجار النخيل والسرو . وبخاصة في الخليج الفارسي . لأنها لا تصنع للسفن الحليفة .

حوراني : المصدر السابق ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

ونقلت ألواح الهيكل بعضها إلى بعض أفقياً بخيوط من الخشب ثم توسع بها صلبوع لتقاوم أمواج المحيط الصاخبة . وألواح الجانبين متلاصقة الأطراف . وتقرز الخيوط خلال ثوب على أبعاد معينة قرب أطراف الألواح المتجاورة . والخيوط من القنبار ومن ليف النخيل .

حوراني : المصدر السابق ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

More Land, The Ships Of The Arabian Sea, J.R.A.S. pp. 191-192 & pp. 172-174-179.
Mockerjii, Op. Cit. pp. 196-197.

ثم سد ثغورها بأجزاء من عيدان النخيل تعرف باسم المستر أو مسامير الخشب وأحياناً من شحم الحيتان الصغيرة الموجودة في مياه عدن بعد طبخه وأحياناً يستخدمون دهن سمك القرش وساد هذا النوع من الدهن سفن فارس والهند والصين وساحل عمان ، ثم تغطي بالقار .

حوراني : المصدر السابق ص ٢٥٦ .

يزك بن شهريار : كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزائره ص ٦٢ - ٦٤ - ١٤١

(نشر سيفر)

Darnes, Op. Cit. II : p. 76.
Varthema, Op. Cit. I, p. 152.

يرجع بقا هذه السفن على هذا النحو حتى القرن ١٦ م إلى غلاء صناعة الحديد الذي يحتاج إلى أفران صهر وخبرة وغلو نفقاته مما لم يدرس عليه الشرقيون . كما إن البحارة الشرقيين اعتادوا هذا النوع من السفن . وهي مينة تتحمل صدمات الصخور وتصاب البحر الأحمر المرجانية . وليس كما قيل عن ارتفاع ملوحة المحيط الهندي وتأثيره في المسامير والروابط الحديدية .

More Land ; Op. Cit. pp. 188 & 191, 192,

في حراسة أمتعته وبضائع التجار الأجانب . ويحصلون لقاء ذلك على ربع قيسة المبيعات والمشتريات . وإذا لم تبع فلا يحصلون أي عوائد . وإذا دفعت الرياح أي سفينة إلى الميناء بطريق الخطأ أو القهر وجد ربايتها في الميناء الأمن والسلامة بعكس الموانئ الأخرى التي تنهب وتصادر حمولة السفن المحتجبة بها لصالح السلطان أو تقتل ركابها (١٠٧) . ومعظم أهالي قاليقوت بطارة مهرة وشجعان ولا يجرؤ أي قرصان مهاجمة سفينة يقودها بحار من قاليقوت هذا برغم انتشار القرصنة في المنطقة من سقطرى إلى ساحل ملابار . (١٠٨) وحوانيت العرب والفرس والصينيين هناك مشهورة ببيع الأحجار الكريمة واللؤلؤ والعطور والتوابل والبخور والحريز الصيني . ويرد للميناء سلع أوروبا عن طريق الخليج الفارسي والبحر الأحمر ، ولهذه السلع حوانيت خاصة ببيع النييد الوارد من كريت والأصواف وغيرها . أما العملة المتداولة هنا فهي قطع ذهبية مضروبة في مصر كما يستعملون أيضا الدوكات البندقية وعللة أخرى من الفضة تزن حوالي ١٦٣ر٢٤ قسحة . وكثر استعمالها في أسواق الصين (١٠٩) . والميناء ، صالح لرسو السفن الكبيرة والصغيرة ويستعمل العرب هنا السفن الصغيرة والسفن الكبيرة الضخمة كالصنادل والتي لا تقل حمولة كل منها عن ألف ومائتي بهار (البهار أربعة قناطير) وتربط ألواحها بعضها ببعض بخيوط من القنب والقطن . أما الهنود فيستعملون سفناً تسمى « سامبوك Sam-Buques » ويستعمل الصينيون هنا سفنهم المسماة « يونك Yonques » . وليس

Mockerjii, Indian Shipping (A Hist. Of) pp. 196, 197, 198. (١٠٧)

Cathiawar, Cutch (١٠٨) عن فراضنة الميد والكريج : تركوا أولاً في خليج كما تجولوا في أرجاء المحيط الهندي ودخلوا الخليج الفارسي والجزء الجنوبي من البحر الأحمر وسواحل سيلان وجريرة سقطرى من أوكارهم . ولرد عدوانهم حشد السفن التجارية معها بحارة محاربين معرّين على النار الإغريقية .

حوراني : المصدر السابق ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

Mockerjii, Ibid, pp. 196-197. (١٠٩)
Depping Op. Cit. I, pp. 30-31 & ... 40.

ومن الجاليات الأجنبية المستقرة هنا أيضا بأسرها : فرس وخراسانيين ولهم كبير يفصل في أمورهم . وكان لاستقرار العرب والجاليات الأخرى في قاليقوت أثره في الصعوبة التي واجهها البرتغاليون في محاولتهم السيطرة على التجارة في المحيط الهندي والهند (١١١).

وبى ولاية جوجيرات تقع أعظم مراكز الهند في تجارة التوابل . وهى كساي ، وديو . ويسكن المنطقة معظم تجار وأعيان الهند

عن حوراني . العرب والملاحه ص ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٩ .

أما دوه السفينة فكانت في الجنب . وهى النوخ الوحيد الذى عرف في العصور الوسطى . رتت سفينة دفنان على جانبيها مادامت تعبر المحيط . أما المرساة فهى حجر عظيم في وسطه ثقب للبحال وأحيانا من الرخام وتعمل بالسفن المحبطة ستة مراسى .

بزرگ : المصدر السابق ص ٨٧ .

حوراني : المصدر السابق ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

Varthema, Op. Cit. p. 152.

أما سوارى السفن فهى من الخشب (الساج) وأطول من السفينة ، وينسج شراعيها من أوراق جوز الهند . أو سيف النخيل . أو النسيج القطنى . واختصت السفن العربية بالتسريح المثلثة حتى القرن الخامس عشر . ونقلها عنهم كوليس ودياز وفاسكودى جاما . وترجع أصبتها الى تسهيل تحويل السفينة تجاه الريح من كل جانب حتى لا يضطرب السراخ ويحترق الصاري . وللسفينة أشعة احتياطية .

حوراني : المصدر السابق ص ٢٦٣ - ٢٨٦ .

ومن الإبحرة المهيئة في الملاحه عندهم : الميوصلة ولها عندهم ٣٢ قسم وصعب عليهم استعمال الأسطراب بسبب شدة اهتزاز السفن في البحر وإن كانوا يستعملونه على الساحل وتحدد خطوط العرض نهارا بالشمس وليلا بالنجم القطبى لامكان تحديد مكان السفينة وتسمي من دوائر الارشادات البحرية التى أطلق عليها اسم « رهمانى » الذى يضم عددا خطوط العرض والجداول الفلكية معنومات من الرياح والسواحل والسمعات وكل ما يحتاج اليه الربابة في رحلاتهم ويحمله الملاحون والتجار في المحيط الهندي والبحر الأحمر . ومن أشهر هذا النوع من الكتب فى نهاية القرن الخامس عشر « رهمانى أحمد ابن ماحد » الذى اعتمد فيه على خبرته الخاصة وخبرة أبيه وجده من قبل من سئل طويلا في المحيط والبحر الأحمر ، وهو « كتاب القوائد فى أصول علم البحار والزخار » وعلق عليه فراند في المجلد الأول من .

Ferrand, Instructions Nautiques et Routiers...

أما الاسرة المنطاطيسية فكان استخدامها قليلا بسبب صفاء السماء معظم فصول السنة .

حوراني : المصدر السابق ص ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ .

Darnes, Op. Cit. II. p. 76.

(١١١)

والعرب . ولهم اتصالات قوية بمصر وفارس والصين، ففي كساي تنتشر جالية عربية غنية لها وكالات وفنادق وهم وكلاء عن كبار تجار الشام ومصر والعراق . ويدخل ميناء كساي السفن العربية المحملة بالخيول (القطن والتيل « والمتاع الديبلى » لتعود بالتوابل والأحجار الكريمة والحريز والكشمير والعقيق وزيت السسم والأخشاب والناordin والمسك والبوراكس والأفيون والصبغات والحبوب (١١٢) ويدفع التجار هنا ١٪ لصالح تعمير المدينة ، كما يتعاملون بنقود ذهبية فضية مسكوكة وعليها من الوجهين كتابات عربية (١١٣) .

أما ديو فهى مخرج تجارة كساي . وبها جاليات مصرية وفارسية وعربية ويعمل الأهالى كلهم في التجارة وفي تجارة التوابل فقط يعمل حوالى ٥٠٠٠ تاجر ، كما يصلها أكثر من ٢٤٠٠ تاجر سنويا . ويرد لها من الصين البورسلين والمسك . والحريز وخشب السندل ومن فارس المعادن النفيسة والقضة الخام والمسكوكة واللؤلؤ والبلح ومن مصر والشام متاجر غرب أوروبا كالأصواف الايطالية والذهب والنفضة والأسلحة والزجاج والكريستال والروائح العطرية ومن بلاد العرب الخيول (١١٤) . وحاكمها فى ١٥٠٦ هو الملك العزيز الذى تعاون مع أسطول مصر ضد البرتغاليين ، وبعد هزيمة ديو ١٥٠٩ وهى المعركة التى تأيد بعدها

(١١٢) ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٤٩ .

Depping, Op. Cit. I. pp. 35-36-37.

Heyd, Op. Cit. II. pp. 500-501.

Varthema, Op. Cit. pp. 117-118-120.

Darnes, Op. Cit. I. pp. 164-165 & R. 3 p. 119.

Lane Poole, Med. India, p. 5.

Camb. Med. Hist. I. p. 28.

Varthema, Op. Cit., p. 129.

(١١٣)

Darnes, Op. Cit. I. p. 154, 156.

(١١٤) انظر ملحق الخرائط وكذلك :

Lane Poole, Med. India, Op. Cit. pp. 170-175.

George Dan Bar, A History Of India, p. 141.

Varthema, Op. Cit. pp. 99, 100 & R. I. p. 100.

Depping Op. Cit. I. p. 36

Darnes, Op. Cit. I. pp. 128-130 & R.I. p. 128-129.

أماكن محددة . ولهم غلة مسكوكة محليا من النحاس (١١٧) . ومن الموانئ الأخرى على ساحل مالابار التي أسست بنصيب كبير في تجارة الشرق والغرب عدا ذلك كوشين (١١٨) وسورات (١١٩) وكولام (١٢٠) وكاتانور (١٢١) . والميناءان الأخيران رحبا بوصول البرتغاليين للسواحل الهندية ومنحوا أسطولهم مرفأ وحصونا وأسواقا (١٢٢) . كما أن كولام تعود شهرتها الى تصدير الأعشاب الطبية والعقاقير . « اذ لا يوجد طب بالهند الا بها ويعمل بها كذلك الأواني الصينية البيضاء وبها منابت الخيزران والساج الذي يجاوز في الطول مائة ذراع » (١٢٣) وصلة كولام بنصر وثيقة فينأوها آخر بلاد الفلفل من الشرق « ويقطع منها الى عدن » والبحر الأحمر . كذلك تشتهر بشجر البقم وهو مثل حب الرمان (١٢٤) . وأهلها يعرفون بالصوليون وتجارتهم مصدر ثرائهم (١٢٥) . ولكوشين صلات تجارية مع الملايو ومصر فتجرح منها السفن التجارية الى جدة محملة بالتوابل وجوز الهند والعقاقير والبحور والسكر والشع والسبناذخ (حجر الجليخ) وفي عودتها تحبل القمح والدقيق والذرة والشعير وزيت السمسم والقماش من حرير وموسيلين

- (١١٧) Depping, Op. Cit. I. p. 33.
Lane Poole, Med. India, p. 177.
Darnes, Op. Cit. I. pp. 158-163 & R. I. p. 134 & R. 2. p. 162.
(١١٨) Depping, Op. Cit. I. pp. 38-39.
(١١٩) Darnes, Op. Cit. I. pp. 148-150.
(١٢٠) Darnes, Ibid. II. pp. 95-102 & R. II. p. 95. & R. I. p. 97.
Varthema, Op. Cit. p. 197 & R. I. p. 197.
(١٢١) Varthema, Ibid. pp. 123-141 & R. I. p. 141.
Darnes, Op. Cit. II. pp. 79-83.
(١٢٢) Darnes, Ibid. II. p. 80, R. 3.
Varthema, Op. Cit. p. 141 R. I.

(١٢٣) ابن اياس : نقش الارهاز ورده ١٣٤ .

(١٢٤) ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٦١ .

(١٢٥) ابن بطوطة : نعمة الانظار في غرائب الامصار ج ٢ ص ١١٨ .

سيطرة البرتغاليين على التجارة الشرقية ونهاية تجارة العرب ومصر في الهند . طلب الحاكم الصلح وأجابه اليه البوكرك القائد البرتغالي الذي لاحظ أهية ديو فيسيطر عليها عام ١٥١٣ (١٢٥) .

ومن الموانئ الهامة التي لها صلة بالتجارة مع شرق وغرب آسيا ميناء جوا في مسلكة الدكن وسكانها من الهنود والعرب والفرس والصينيين . وتصلها سفن مكة وجدة وزيلع وعدن وهرمز وكامباني ولا يدخل اميناء اجنبي قبل اجراءات تفتيش دقيقة . وحاكمها عام ١٥٠٩ هو عادل شاه . ولما علم بهزيمة ديو فتح بلاده لكل الفارين من بطش البرتغاليين ومنحهم حق الالتجاء والحماية والمعونة لاستئناف الحرب ضد البرتغاليين . وقد بنى أسطولا ضخما وحصونا لأسلحتهم وجنودهم . ولما علم البوكرك بذلك هاجم الميناء واستولى على حصونه وأساحته وأجبر الأهالي على دفع الجزية . ثم اتخذها قاعدة حكمه في الهند . ويصل لجوا من هرمز الخيول العربية ويحصل مندوب ملك البرتغال على نسبة معينة من بيع كل حصان وايراده من ذلك سنويا حوالي ٤٠٠٠ دوك ، ويعود تجار هرمز بحمولات من السكر والرز والحرير والفلفل والبهار والزنجبيل والعقاقير وخلافها (١٢٦) .

وفي ميناء شول على الساحل الغربي للهند حدثت المعركة البحرية بهذا الاسم عام ١٥٠٨ وفيها انتصر الأسطول المماليكي بقيادة الأمير حسين على أسطول البرتغال بقيادة « الميديا الصغير » وتعاون مع الأسطول المماليكي أسطول ديو الذي يقوده حاكمها . وفترة ازدهارها بالتجارة تمتد من ديسمبر الى مارس في العام التالي . وللتجار بها

- (١٢٥) Darnes, Op. Cit. I. p. 132 & R. 2. p. 132 & R. I. p. 133.
Depping, Op. Cit. I. p. 36.
(١٢٦) Darnes, Op. Cit. I. pp. 170, 171, 172-175, 176-178, 188. & R. 2. p. 170 & R. 2. p. 176

والأصواف المستوردة من أوربا . كما أنه يسكنها عدد كبير من المسيحيين (١٢٦) .

أما ساحل كروماندل - ساحل الهند الشرقى - فمعظم اتصال مدنه وموانئه بالشرق الأقصى وحركته التجارية مع العرب محدودة . ويؤمه تجار كيباي والحبشة ومصر وفارس وبلاد العرب للبحث عن أنواع معينة من العقاقير والتوابل والنحاس والعمود وبيادلونها بالسلع الغريبة ، كما أن الجالية العربية محدودة ويلجئون هنا في الحصول على العبيد الخصى لقصور الحكام والأمراء والحريم (١٢٧) .

وعلى الطريق البحرى من الهند الى الصين تقع جزيرة سيلان (١٢٨) وهى مقصد تجار الصين والعرب والفرس والهنود والشوام ويسكنها عدد كبير من العرب وكلهم رعايا ملك الجزيرة الذى يمنح التجار والأهالى منهم حرية أكثر لذا يفضلها تجار ساحل مالابار الهنود . وأهم ما تشتهر به سيلان زراعة القرفة التى تنمو على التلال فى شكل شجيرات صغيرة وتقطع هذه الشجيرات لحساب الملك وتوضع فى الشمس لتجف فى أشهر معينة وتجهز لحملها للخارج . ويتاجر الأهالى فيها فى اللؤلؤ والكافور ومختلف أنواع الأدوية والمسك والأحجار الكريمة والياقوت والماس والسبائك والأنسجة القطنية والحريرية وقد هاجمها البرتغالى لورنزو دالميدا الصغير عام ١٥٠٦ ثم بنى بها

« لوبوسواريز » القائد البرتغالى حصنا فى العاصمة « كولمبو » عام ١٥١٨ (١٢٩) .

والمار بهذا الطريق البحرى من البحر الأحمر أو الخليج الفارسى الهند والسين لا بد وأن يمر بسقط أكبر مراكز عمان ومينائها التجارى وقد اعتبرها البوكره من أهم المراكز على الطريق الى الهند فاستولى عليها وحصنها وصارت مركزا حربيا وتجاريا للبرتغاليين (١٣٠) .

وحتى مطلع القرن السادس عشر وطرق التجارة من الشرق للبحر الأحمر تتجه بفرع لها نحو شرق افريقية على المحيط الهندى جنوبا . وطافت بهذا الساحل سفن سيراف وعمان كذلك فى تجارة منتظمة . ونيس لهذا الساحل طرق منتظمة ، انما تسير السفن على طول الساحل الافريقى الشرقى ، ثم حول ساحل الصومال حتى عدن ثم الخليج الفارسى والهند وأحيانا تشق السفن القادمة من الشرق الأقصى الطريق مباشرة من رأس « فرتك » جنوب شبه الجزيرة العربية الى رأس « جاردافوى » مباشرة ثم باقى الساحل الافريقى وربما كان الطريق الأول هو الأرجح من شرق افريقية الى الهند . وفى عودته يتلاقى فى البحر بسقطرى ثم بعدن ثم حول ساحل الصومال الى رأس جاردافوى ثم باقى الساحل الافريقى بعيدا عن مخاطر القراصنة فى سقطرى . ومن ساحل افريقية جلب التجار الرقيق والعاج والعنبر وكانت أقصى نقطة يصلون اليها هى موزمبيق وقنبلة (مدغشقر) التى يقال أنها بلاد النواك

(٢٩) ابن الفقيه : كتاب البلدان ص ٨ و ٩ و ١٠ .

سليمان الفارسى : سلسلة التواريخ ص ٧ .

ابن ايوب : المرجع السابق ص ٣٧٥ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٧٨ و ٧٩ .

Darnes, (Barbosa) Op. Cit. II. pp. 109-113-118.

Darnes, Op. Cit. II. pp. 71 & I. p. 7 kl ;

(١٣٠)

Depping, Op. Cit. I. pp. 38-39.

(١٢٦)

Depping, Op. Cit. I. pj. 41.

(١٢٧)

Sibal (١٢٨) يسميها العرب «سرنديب» كما تسمى هى والجزر حولها باسم

أو بلاد « السيبال » أو « سهيلان » ويطلق عليها أهلها سيبالا Sihal
Ency. Of Islam, I. p. 839 Art. Ceylon.

الواق (١٣١) وعلى الطريق المباشر من شرق افريقية الى الهند يسرون
بجزيرة سقطرى قرب مدخل الخليج المؤدى الى البحر الأحمر
الجنوبى . وطول الجزيرة ٨٠ فرسخ وهى من المراكز التى يأوى اليها
قراصنة البحر من الميد والكيرج ومن أهم انتاجها الفسخ والصار .
وسكانها مسيحيون يعاقبة ويدفعون الجزية للملوك الهند (١٣٢) .

وقرب باب المندب تقع جزيرة قران (كران) وهى محط للسفن
التجارية بين الهند وجدة وتتسوق منها السفن بالماء والميرة . واستولى
عليها البوكرك البرتغالى ١٥١٣ م فى محاولة منه للوصول لميناء جدة .
وفعل مثل ذلك البرتغالى لوبوسواريز ١٥١٧ نظرا لقربها من الساحل
وأهميتها الحربية (١٣٣) .

ومن هذه المراكز الهامة أيضا على الطريق التجارى لشرق افريقية
ميناء مدغشقر مقديشو وهو على الساحل نحو البحر الأحمر ، وله ملك
عربى كأهله وتصله سفن الهند فى قوافل محملة بالسلع التجارية
كالأقمشة والتوابل وتصله السفن من عدن مباشرة وفى عودتها تحمل
العاج والذهب والشع . وفى مقديشو نزلت أولى أفواج الغرب وبخاصة
التجار منهم واستقروا بها بعد أن وصلوا الى رأس جاردافوى وشاهدها

(١٣١) يذكر حوراني : الملاحة فى المحيط الهندي ص ٢٤١ - ٢٣٢ أن مدغشقر
هى واق واق الجنوب وسومطرة هى واق واق الشرق وعن فرائد : وصحة القول بأن هناك
صلة بين الجزيرتين إذ هاجر بعض سكان سومطرة الى مدغشقر منذ القرون الاولى للمسيحية
لذا عرفت بهذا الاسم وإن كان الأرجح أن اليابان وحدها هى واق الواق « . انظر كذلك :
المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧ .

من : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧٠ و ٣٧١ وانظر ملحق الخرائط .

(١٣٢) ابن أيوب : المصدر السابق ص ٣٧١ .

سباهى : المصدر السابق ص ١٦٠ أ و ب وانظر ملحق الخرائط .
Harff, Op. Cit. pp. 155-159.
Dapping, Op. Cit. I. p. 47.

— Darnes, Op. Cit., I. p. 52.

(١٣٣)

دى جاما لدى عودته من رحلته الأولى الى الهند عام ١٤٩٩ (١٣٤) .

أما رأس جاردافوى فهى على بعد غير قليل من مقديشو وعندها
يتحنى الساحل الافريقى ليدخل البحر الأحمر «وتمر بها السفن القادمة
من الهند وسيام وسيلان وملقا وسومطرة والصين ويتاجر أهلها فى سلع
الشرق الأقصى والهند والبحر الأحمر وعدن وزيلع وبربرة وينتظر فيها
البرتغاليون لقطع الطريق على سفن العرب القادمة من البحر الأحمر
لأسرها ونهبها » (١٣٥) .

وهكذا ظلت سفن التجارة الشرقية من الصين والهند وبلاد العرب
تقطع هذا الطريق قررنا طويلة حتى نهاية القرن الخامس عشر حين
انقطعت الزعامة للشرقيين بدخول البرتغاليين فى مياه المحيط الهندي .
ففى عام ١٤٩٨ كان فاسكودى جاما الملاح البرتغالى فى ملندى بشرق
افريقية يبحث عن دليل يحمله الى الهند فلم يجد الا الملاح العربى
«شهاب الدين أحمد بن ماجد» وأقنعه دى جاما بقيادة السفن البرتغالية
عبر المحيط للهند فكان من سخرية القدر أن ملاحا عربيا كبيرا ساعد
فى القضاء على الملاحة العربية فى المياه الشرقية ، فلم يستطع العرب
ابعاد البرتغاليين عن المياه الهندية وبدءوا يتوسعون شرقا وغربا حتى
سيطروا على الطريق المذكور من مالقة الى الخليج الفارسى ، ثم وسعوا
تفوذهم ليشمل المنطقة من سقطرى الى كاتون وجزر مكاو بالصين
وقضوا على الملاحة والتجارة العربية وندرت سفن العرب ، وبخاصة

— Darnes, Ibid, II. p. 31 & R. I. p. 32 R. 2.

(١٣٤)

— Darnes, Ibid, II. pp. 32-33.

(١٣٥)

الاسم العربى الحديث لهذا الرأس هو (رأس آشير) ، أما الاسم الاول فقد
استخدمه البرتغاليون لأول مرة وهو لا يطلق على الرأس نفسه انما على مكان جنوبه
بحوالى ٦٠ ميلا يعرفه العرب باسم « رأس هافون » ، ويبدو أن الاسم الأخير يطلق
على الساحل كله وليس على مكان بعينه ويطلق عليها الفرس اسم الحناء هافون انظر
ملحق الخرائط .

بعد أن سدوا مدخل البحر الأحمر الجنوبي ، وفي عام ١٥١٧ كانت تجارة هذا الخط في جزئه الغربى بالخليج الفارسى والبحر الأحمر قد انهارت تماما .

وفي البحر المتوسط لم تكن هناك طرق مباشرة بين ترقيه وغريه انما تخرج السفن من المدن الايطالية وجمهورياتها متفرعة غربا الى غرب أوروبا ، وشرقا الى مصر والشام والأناضول ، مارة بمراكز عدة : فمن البندقية شمال الادرياتى تخرج السفن فى طريقين يسير الأول بجذاء ساحل دالماشيا مارا براجوزا ، ثم الى كورفو ويدور حول شبه جزيرة البلقان وعندها ينقسم قسمين يتجه أحدهما الى ساحل الشام مارا بكريت وروودس وقيرص وموانئ بيروت وطرابلس والشام وعكا ، ويتجه الآخر الى الاسكندرية مباشرة . أما الفرع الآخر من طريق البندقية الملاحي فيدور من البحر الادرياتى حول ايطاليا عابرا مضيق مسينا الى نابلى ، ومنها مباشرة الى مالطة مارا بجنوب سردينيا ويعبر مضيق جبل طارق الى لشبونة فى البرتغال وبردو فى فرنسا ، بعد أن يعبر مضيق دوفر ليتجه الى كاليه وبروج ثم دول الهانسا شمال أوروبا وله فرع من بروج الى لندن (١٣٦) .

طريق البندقية التجارى :

وقوافل البندقية البحرية تعرف باسم « مراكب المدة » ولكل جهة سفن معينة فهناك سفن المدة للقسطنطينية ، ومدة البحر الأسود ، ومدة الشام ، ومدة الاسكندرية ولدى عودة هذه السفن من الشرق ينتظرها الأهالى بفارغ الصبر الأسواق الكبرى التى تعقد فى عيد الفصح فى شهرى سبتمبر وفى عيد الميلاد (١٣٧) .

(١٣٦) راجع ملحق الخرائط وكذلك : Poston, Op. Cit. II. pp. 292-293 & ff.

(١٣٧) كلمة « مدة » هنا تعنى قافلة الموسم ولا أضيفت اليها كلمة مراكب أصبحت تدل على بيان وقت رحيل وأوبة سفن القافلة . وتطورت الكلمة لتشمل أنواع السلع التى =

وترحل سفن المدة الى الشرق فى أوقات وصول السلع الى هذه البلاد ، وهى فى الغالب أوقات الحج لتعود فى الخريف قبل حلول فصل الشتاء . ويصاحب سفن المدة أسطول بحرى لحمايتها من القراصنة المنتشرين على طول الطريق شرق وغرب البحر المتوسط . وقد قسمت الجمهوريات الايطالية رحلاتها الى مراحل ، وفى كل مرحلة يصاحب السفن أسطول بحرى للحراسة ويوصلها لنقطة الحراسة التالية ويبقى لحين عودتها لمصاحبتها . وتقع هذه النقط فى جزر ومدن السواحل ، وللبندقية بها مخازن . ومن أشهرها كورفو وكورون ومورون وكأندى (كريت) وقيرص (١٣٨) .

ومنذ الفتوح العثمانية فى شرق أوروبا بعد عام ١٤٥٣ ، حولت البندقية طريقها من كورون ومودون الى كورفو بعد أن سقطت الجزيرتان فى أيدي القوات العثمانية . ولما استقر البنادقة فى جزيرة قبرص على عهد السلطان قايتباى صارت الصلة وثيقة بين قبرص والشام وكريت والاسكندرية ، وأصبحت الجزيرة أهم مركز تجارى للبندقية شرق البحر المتوسط لا سيما وأن العلاقات كانت متوترة بصورة دائمة بين البنادقة والعثمانيين . أما سفن البندقية الى ساحل افريقية الشمالى الغربى فلم يكن مباشرا ، فان سفن الاسكندرية قبل توسيقها تنجى الى طرابلس الغرب وتونس وتعود الى الاسكندرية لتتملأ ما بها من فراغ ، وتنتظر كذلك سفن بيروت أحيانا ، وعند عودتها الى البندقية يعاد تصدير السلع برا وبحرا الى أوروبا (١٣٩) .

= تحمل على سفن معينة وتصل فى اوقات محددة فيقال مدة سبتمبر مثلا لتدل على اسطول الشرق المائد فى شهر سبتمبر قبل حلول فصل الشتاء فى أوروبا وأحيانا أطلقت كلمة المدة على مدة بقاء السفن فى الموانئ ، فيقال « مدة المدة » ليكون لها حق الأولوية فى الشحن والرعاية . انظر الفصل الخامس .

(١٣٨) انظر ملحق الخرائط .

(١٣٩) بخصوص سفن البندقية الى طرابلس وتونس انظر ملحق الخرائط وكذلك معاهدة تريفيزانى بالملحق رقم (١٣) السؤال السادس .

ومن المحطات على الطريق التجارى للشرق جزيرة كورفو ، وهى مركز شحن وتسويق السلع الواردة من الشرق ، وفى القرن الخامس عشر طرأ تغيير على نظام سفن البندقية فأصبحت كورفو مخزناً للبضائع الهامة وتمر بها السفن الآتية من الاسكندرية وبلاد السلطنة العثمانية . وكان على السفن أن تمر بالضرورة على كورون ومودون فى الذهاب والاياب ، ولكن كورفو كانت اختيارية بالنسبة بها ، ثم بدأت تحتل مكائنها ، المتأخرة بعد سقوط القسطنطينية وتقدم الأتراك فى البحر الأيونى وسرعان ما احتلت مكانة كورون ومودون (١٤٠) .

ومن هذه المراكز أيضا « رافنا » ، ولها أسطول يصل لشرق البحر المتوسط ، وللبندقية بها مخازن ومندوب يتولى شحن وتسهيل العمليات التجارية (١٤١) .

ومن أبرز هذه المراكز كذلك « راجوزا » على الادرياتى ، وهى مركز للأسطول البندقى فى الذهاب والاياب ، وحصل الراجوزيون على تراخيص للمتاجر فى بلاد السلطان العثمانى بعد عام ١٤٥٣ ، على عهد السلطان محمد الثانى عام ١٤٨٠ ، وبايزيد الثانى ١٤٨١ ، وسليم الأول ١٥١٧ . ويحملون من الشرق الغراء والشمع والبهار ، والجلود

— Renaud, Journal Asiatique, T. IV.

— Heyd, Op. Cit. T. IV pp. 79-80.

— Hammer, Op. Cit. T. IV pp. 79-80.

(١٤٠) بخصوص استخدام هذه الجزر كمستودعات ومخازن للسلع فإن البندقية قسمت سفنها الى سفن الاسكندرية وبيروت ، وهى تنقل للبندقية مرتين فى العام مدة سبتمبر ومدة ابريل فى العام التالى وبين هذين التاريخين يتم توزيع السلع فى أوروبا وترسل أحيانا بين هذين التاريخين سفن تعرف باسم فائض المدة لتحمل مابقى من البضائع فى مخازن الاسكندرية وبيروت ويتم تخزينه فى هذه الجزر حتى ينقل الى البندقية . انظر ملحق الخرائط .

— Depping, Op. Cit. II, p. 310.

(١٤١) انظر ملحق الخرائط .

— Depping, Ibid, pp. 313.

المذبوغة والذهب والنفضة من صربيا التى دخلت فى حوزة العثمانيين كما روجوا المنتجات الأوربية فى بلاد السلطان العثمانى مثل حرير وصوف تسكانيا (١٤٢) .

وتقع كريت على الطريق البحرى الى شرق البحر المتوسط ، كما أنها محط للسفن ، ويستقبل ميناؤها الواسع السفن الكبيرة ، وتتصل تجاريا بصرى والشام وآسيا الصغرى وتصدر السكر والنيذ والعسل (١٤٣) .

وتبدو أهية قبرص لوقوعها على الطريق التجارى البحرى الى الشام وآسيا الصغرى وهى ملجأ التجار اذا حاق بهم أى ضرر فى بلاد السلطنة المماليكية أو العثمانية بل انه القبارصة قاموا فى أوقات عصيبة بالنسبة للأوروبيين بنقل متاجر الشرق من صور وحيدا وحلب وبيروت والاسكندرية وأنطاكية الى جزيرتهم حيث ينتظرها البنادقة والجنوبيين وغيرهم . وميناؤها الرئيسى فاما جوستا مزدحم دائما بالسفن ، وبه وباقى الموانئ فنادق ووكالات ملائى بالتاجر والتجار من عرب ، وترك وجنوبيين وبنادقة وفلورنسيين وغيرهم . وفما جوستا من أشهر موانئ شرق البحر المتوسط تصلها التجارة من وسط آسيا برا ثم بحرا ، وكذلك من حلب وديار بكر والاسكندرية ووسط الشام والعراق وتمتلىء أسواقها بالحرير والكتان والقطن وجوز الهند واللبان والجلد والنحاس والفواكه والعب الغض « الطازج » والمجفف والمطاط وعاج افريقية والقراء والصابون والشب من طرايزون وبروسية والحرير والسجاد من قونية والأحجار الكريمة من الشرق الأقصى ، ويدفع القبارصة ١٪ رسوم جمارك ، فى حين يدفع الأجانب ٤٪ واتخذت

— Heyd, Op. Cit. II, pp. 346-348.

(١٤٢)

— Depping, Op. Cit. I, p. 112.

(١٤٣)

البندقية الجزيرة أكبر مركز تجسع لتاجرها شرق البحر المتوسط بعد أن ساءت العلاقات بينها وبين السلطات العثمانية وحصلت من السلطات المالية على حق حكم الجزيرة مع دفع الجزية السنوية ، وبذلك خست البندقية حرية تجارتها وحماية مخازنها في شرق البحر المتوسط. واستولى عليها العثمانيون عام ١٥١٧ (١٤٤) .

ومن هذه المراكز أيضا جزيرة خيو التي ظلت حتى الربع الأول من القرن السادس عشر من أشهر وأهم مراكز التجارة على الطريق الى الشرق العربي ، وفالت ثراءها من تجارتها مع الغرب بعد توزيعها سلع الشرق في أوروبا ، وكان لجنوة في الجزيرة مركز ومخزن ومندوب تجارى (١٤٥) .

طريق جنوة التجارى :

أما سفن جنوة فتكون من أسطول للشرق وآخر للغرب ويتجه أسطول الشرق، جنوبا بحذاء شاطئ شبه الجزيرة الإيطالية مارا بنابلى ومضيق ميسنا الى كريت ، ويتجه شمسالا عابرا مضيقا البسفور والدرديل الى القسطنطينية ، ثم موانئ البحر الأسود أما فرعه الغربى فيسير بساحل فرنسا الجنوبى على البحر المتوسط عند مرسيليا ثم الى برشلونة وفالنسيا فى قطلونيا . ويخرج من جنوة أسطول آخر يتجه مباشرة الى تونس ويسير على طول ساحل افريقية شرقا الى الاسكندرية ومدن وموانئ الشام وغربا عابرا مضيق جبل طارق الى غرب افريقية . وفى البحر الأسود تتوحد طرق الملاحة بالنسبة لكل السفن التجارية الوافدة من المضيقين وتتفرع الى ٣ فروع شمسالا لبلاد البلغار ، وفرع الى كافا على شبه جزيرة القرم ، وآخر الى طرايزون ومدن شاطئ

(١٤٤) انظر ملحق الخرائط وراجع :

- Bernard, Cyprus, pp. 3-4-6-7-8-21 ;
- Depping, Op. Cit. I. pp. 106, 108.
- Depp, Op. Cit. pp. 54-556.
- Heyd, Op. Cit. II. pp. 335-336.

(١٤٥)

البحر الأسود الجنوبى ومنها بونتس وهرقليا ومسسون وسينوب، كما ان هناك فرعا برياً من أوروبا يعبر مرمرية الى الأناضول ليتصل بالطرق البرية الآتية من وسط آسيا وتبريز ويتجه فرع منه جنوبا الى لاجاسو وانطاكية ودمشق على اللينث ثم بحذاء الساحل الى القاهرة (١٤٦) .

طريق فلورنسا التجارى :

أما فلورنسا فانه بعد انضمام ييزا اليها بجزر وموانئ البحر المتوسط وبخاصة خيو وجاليوبولى ، وصلت بسفنها الى البحر الأسود والاسكندرية، ولها فى كريت ورودس مندوبون تجاريون (١٤٧) .

وبرغم الصلة الوثيقة بين جمهوريات إيطاليا ومصر والشام فان بعض مدن إيطاليا مثل أنكونا فضلت التعامل مع السلطات العثمانية . وسارت فعلا سفنها الى القسطنطينية عام ١٤٧٥ ، وحصلت على حق المتاجرة مع مدن تركيا - وخلال حروب السلطان العثماني مع البنادقة قطع الطريق البحرى التجارى ، ومع ذلك نعم التجار الانكونيون بكرم الضيافة العثمانية ، واتخذوا فى رحلاتهم من رودس مركزا لتجمع متاجرهم وسفنهم (١٤٨) .

مدينة سيين :

أما مدينة سيين فى مقاطعة تسكانيا بإيطاليا فقد اكتفت سفنها بالوصول الى قبرص وأحيانا تتجه الى البندقية نفسها للحصول على حاجتها من سلع الشرق وسوقهم الطبيعية فى فرنسا وأسبانيا وانجلترا وألمانيا أكثر من مدن ودول شرق البحر المتوسط ، وفى عام ١٤٨٩

(١٤٦) شارل ديل : البندقية ص ٢٠ و ٢١ ومابعدها .

— Heyd, Ibid, pp. 345 & ff.

(١٤٧)

(١٤٨) انظر ملحق الخرائط :

— Heyd, Op. Cit. p. 346.

اتصلوا بأنفسهم بالسلطات العثمانية وصارت لهم قنصلية في القسطنطينية حتى عام ١٥٠١ (١٤٦) .

طريق مرسيليا التجارى :

وحتى الربع الأول من القرن ١٦ م ظلت مرسيليا متصلة بشرق البحر المتوسط ولها في مصر وسوريا وكلاء وفنادق - وهى مخرج تجارة فرنسا الى البحر المتوسط ، كما أن لها اتصالا بالمدن الايطالية ويسر بها خط جنوة البحرى التجارى الى أسبانيا (١٥٠) .

طريق برشلونة التجارى :

وعلى الشاطئ الاسباني الشرقى كانت برشلونة ملتقى الطرق البحرية من ايطاليا وفرنسا الى أسبانيا . وقد نافست المدن الايطالية في التجارة الشرقية ، ولها امكانيات مهدت لها أن تكون مركزا تجاريا من الطراز الأول فينأوها محصن وتدخلة السفن من الدول المختلفة وله أحواض لبناء وترميم السفن ومخازن ومستودعات للسلع وترسانات ضخمة لعبت دورا هاما في اجلاء العرب عما بقى لهم بالأندلس أواخر القرن الخامس عشر ، كما أن هذه الترسانات بنى السفن للدول التى تتاجر مع شرق البحر المتوسط (١٥١) . ووصلت سفنها كذلك الى بلاد المغرب ، ولكل جهة سفن معينة وقناصل ومراكز تجارية ، وللقناصل التجاريين نقابة تحميهم ، وكان ضمن رجال حكومة قطلونيا فى القرن الخامس عشر عضوان ينوبان عن القناصل فى شئون التجارة . وقد حرم ملوك قطلونيا دخول سفن أجنبية تحصل سلعا من الشرق حتى يقتصر ذلك لمعى السفن القطلونية فقط (١٥٢) .

(١٤٩) انظر ملحق الخرائط :

— Heyd, Ibid. p. 347.

(١٥٠) انظر ملحق الخرائط :

— Pernaud, Op. Cit. p. 40.

— Pernaud, Op. Cit ; p. 41.

(١٥١)

— Depping, Op. Cit. I. p. 260.

(١٥٢) انظر ملحق الخرائط وراجع :

— Depping, Op. Cit. pp. 251-254, 258-259.

— Heyd, Op. Cit. II ; pp. 473, 477.

صريق القسطنطينية البرى :

أما الطريق البرى من أوروبا الى القسطنطينية فتد وقعت أجزاء عديدة منه تحت حكم العثمانيين بعد أن سيطرت السلطات العثمانية بفتوحاتها حتى شرق ووسط أوروبا - وموضع الأهمية هنا أن الرقعة التى سيطر عليها العثمانيون هى محور تجارة الشرق والغرب ، فبا من طريق تجارى من الشرق الى الغرب أو من الغرب الى الشرق الا ويسر ببلاد الترك أو بدول تحت سيطرة الأتراك العثمانيين وإذا نظرنا الى خريطة العالم فى الربع الأول من القرن السادس عشر لاحظنا أن هذه الطرق اذا اتجهت من اليسفور والدردنيل الى البحر الأسود فلا بد أن تمر بأرض عثمانية ، وإذا اتجهت الى ساحل الشام ومصر فلا بد أن تمر بتركيا وبأرض تحت سيطرتها ، وإذا اتجهت الى البحر المتوسط والبحر الأحمر من الشرق فلا بد أن تمر بأرض تحت سيطرتهم ، اذ أن أملاكهم شملت رقعة واسعة تمتد من العراق شرقا الى الادرياتي غربا وإلى البحر الأسود شمالا وحدود النوبة جنوبا . وعلى هذا أصبح على التجار الغربيين اذا أرادوا الوصول الى أى مكان فى الشرق أو الليفتن أو القسطنطينية أن يمروا بأرض عثمانية ويحصلوا على تصاريح من السلطات العثمانية. على أن هذا لم يوقف التجارة على هذه الطرق من أوروبا لشرق البحر المتوسط بل استمر فى ظل السيد الجديد وتحت اشرافه ، وكانت الفتوحات العثمانية فى شرق أوروبا قد أحييت طرقا برية قديمة منها الطريق الذى يبدأ من راجوزا ، Ragusie والطريق الذى يبدأ من سبلاتو Spalato وهما يلتقيان عند بليفليج Plevlje ثم يتوحد ليصلا الى مدينة بريبوليج Prepelje على نهر ليم Lim ثم الى مدينة نوفيبازار Novibazar حيث يوجد للتجار جاليات ، وفنادق ووكالات ومنشآت تجارية عديدة وخاصة البنادقة ، وبعد مبارحة مدينة نيش Nich تدخل القافلة الى الطريق الموصل لبلفراد ثم الى القسطنطينية مارة بمدينة صوفيا Sophia وفهليبوبولي Philippopoli

وأدرنة والمدينة الأخيرة كسوق عالمية كانت تلقى أهمية القسطنطينية نفسها التي تصلها القوافل بعد ٣٠ يوما من رحلتها اليرية من راجوزا (١٥٣) . هذا فيما يتعلق بشرق البحر المتوسط .

أما في غرب هذا البحر في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر وعلى وجه التحديد في البرتغال وإسبانيا وغرب أوروبا فإنه حدثت تغييرات واسعة النطاق بعيدة الأثر في المراكز الأساسية التي اختصت بالتجارة العالمية في العصور الوسطى في غرب آسيا وغرب أوروبا والشرقين الأدنى والأقصى ، فقد بدأت شعوب أوروبا على الأطلنطي رحلاتها الطويلة عبر البحر ونجحت أخيرا في إيجاد طريقها إلى الشرق بحرا دون وساطة مصر والشام أو آسيا الصغرى ، وفتحت مخاطرتهم فصولا جديدة في العلاقات العالمية ليس فقط لأن هناك طرقا جديدة قد فتحت ، ولكن لظهور وسطاء جدد على المسرح أحدثوا تغييرات حقيقية أسرع بنهاية القرون الوسطى في عالم التجارة . وكان الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة في التجارة العالمية ثوريا من كل الوجوه . واستمرت نفس السلع يحصلها البرتغاليون والهولنديون بعدهم ، وقد ساروا على نهج العرب وتقاليدهم ، وبقيت هذه التقاليد حتى ظهرت الطوائف الأكثر حداثة ونشاطا في شمال غرب أوروبا (١٥٤) .

ومع أن العثمانيين في فتوحاتهم نجحوا في السيطرة على مصر والشام ، مفتاح التجارة العالمية في العصور الوسطى ، فإنهم أخفقوا في أن يحلوا محل العرب في السيادة الاقتصادية ، لاختلافهم عن العرب التجار بالفطرة ، وقد بذلوا جهودا طيبة لانعاش الطريق البحري

(١٥٣) انظر ملحق الخرائط وكذلك :

— Heyd, Op. Cit. pp. 334, 335.
— Atiya, The Crusades, p. 477.

— Hyzayyin, Op. Cit. p. 153.

القديم وشجعوا تجار البحر المتوسط للإقامة في أراضيهم الجديدة ولكن كانت أسواق الشرق العربي قد انهارت وفقدت أهميتها في التجارة العالمية التي انتقلت بالتالي إلى غرب أوروبا (١٥٥) .

(١٥٥) بالملاحق رقم ٢٥ معاهدة السلطان سليم الأول العثماني للبنداقية في مدن
موانئ مصر - راجع الفصل الثاني وكذلك :
— Hyzayyin, Ibid, p. 185.

الفصل الرابع

السلع التجارية

نواع السلع المتبادلة :

تعتبر الفترة الأخيرة من العصور الوسطى من أنجح فترات الازدهار التجارى بين الشرق والغرب ، فقد عمل المماليك فى مصر والشام وسطاء لأهم السلع التجارية من الشرقين الأدنى والأقصى . وهى التوابل ، والعقاقير الطبية ، والعبيد ، والمنسوجات ، والصينى ، والأحجار الكريمة ، والأخشاب ، وجميع السلع التى يكثُر طلب الغرب الأوروبى لها . ولعبت الطرق البحرية والبرية عبر مصر والشام دورا هاما فى هذا المجال ، كما ارتبطت ثروة البلاد وقوتها العسكرية وهبتها فى العالم بتجارها الشرقية . وظلت فترة الازدهار باقية مابقى الاتصال مباشرا مع الهند والصين ، وانتهت وأنتت معها دولة سلاطين المماليك بعد أن تحول الطريق حول إفريقيا على يد وسطاء جدد من غرب أوربا . وفى أوائل العصور الوسطى كانت التوابل والأفاويه الشرقية هى غذاء الأغنياء فى غرب أوربا ، كما كان البخور الشرقى من متطلبات الكنائس الغربية ، حتى الملابس المطرزة كانت لا ترد لهم الا عن طريق الشرق ، بل يقال ان الأشراف ورجال الكنيسة كانوا من المولعين بالطعام المتبل . وفى عصر النهضة أولع الشعب بهذه الطريقة فى الطهو ، بعد أن اعتاد استعمال التوابل فى الأطعمة منذ

الحروب الصليبية (١) . وفي العصور الوسطى المتأخرة زاد الالاحاح
فى طلبها حتى أصبحت هذه السلع الشرقية جزءاً لا يتجزأ من حياتهم
فهى عندهم ضرورية لتحسين الطعام ولصنع النبيذ وحفظ الأطعمة لكثرة
وطول الصيام عندهم ، كما كانت تدخل فى صناعة العقاقير الطبية (٢) .
وقد اكتفى الممالك خلال فترة حكمهم الأولى حتى القرن الخامس عشر
بتسهيل استيراد هذه السلع من شرق آسيا والهند ، وتسهيل ورود
الأجانب لحملها الى أوروبا ، مع تسهيل أقامتهم فى الفنادق ، ومنحهم كل
التيسيرات ، وكان لكل هذا رسوم تجبئها خلاف الرسوم الجبركية على
الوارد والصادر . وسيطر على هذه التجارة جماعة الكارمية الذين
قاموا بالعبء الأكبر فى استيرادها من الشرق الأقصى وتسويقها ، حتى
أن اسم الكارمية كان يطلق على كل من يعمل فى تجارة البهار واللفل .
وأصبح « لرئيس الكارمية » صلة معترف بها لدى السلاطين . ولثرائهم
من احتكار هذه التجارة كانوا يقرضون السلاطين كلما اضطرتهم
الظروف الى ذلك (٣) . ولكن فى القرن الخامس عشر عندما بدأت
القوات العثمانية تزحف حثيثاً نحو الغرب اضطربت الطرق البرية من
وسط آسيا وآسيا الصغرى حتى أغلقت فى عام ١٤٥٣ بسقوط
القسطنطينية وتركز جلب هذه السلع على طريق البحر الأحمر ، وتنه
سلاطين الممالك الى ذلك ، والى أن دولتهم قائمة فعلا على أموال

(١) اشتد الطلب على التوابل أواخر العصور الوسطى فى أوروبا اما لشدة البرد او
لتنبيل الطعام وحفظه أو لاستعماله كعقار طبي ، وكان الأوربيون يطيب لهم أكل السجق
التبل والفطائر المتبيلة ، كما أن ساعات الشتاء الطويلة تدعو الى احتساء فنجان من شراب
متزوج بقليل من البهار والتوابل كالجنزبيل وجوزة الطيب والقرفة والقرنفل .

- توفيق امكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) من ١٤٠
— Sonia, In Quest of Spices, pp. 13-14.
— Sonia, Op. Cit. pp. 19-20.
— Clerget, Le Caire, pp. 343.
— Clive, A History of Commerce pp. 79-80.

(٢) سعيد عاشور : العصر الممالكي فى مصر والشام من ٢٩١ .
المريزى : السلوك ج ١ ص ٨٩٩ حاشية ٢ + ج ٢ ص ٨٣٧ حاشية ٣ .

التجارة بالإضافة الى أن الوضع اختلف فى هذه الفترة من فترة حكم
الممالك البحرية . إذ تطرق الفساد الى النظام الاقطاعى الذى اعتمدوا
عليه فى فترة تكوينهم الأولى ، ولم يعد يسد حاجتهم المالية والمزيدة
بوجه عام لذا اتجهوا نحو الاشتغال بالتجارة واتبعوا سياسة احتكار
السلع التجارية الشرقية لتعويض النقص المادى الناجم عن الغاء النظام
الانقطاعى . فأقصوا الكارمية عن التجارة ، واقتصر عليهم على تسويقها
ونقلها من مصادرها ، ثم ما لبث السلاطين أن أقصوهم نهائياً عنها
واحتكروها احتكرا كاملاً (٤) . وقد أضر هذا الاحتكار بالتجارة
فارتفعت أسعار التوابل ارتفاعاً فاحشاً الأمر الذى أنزل الضرر بالتجار
الأوربيين وتعدى الأمر الى تحديد أسعار التوابل الحرة وأسعار التوابل
السلطانية أو الشريفة مع اجبار التجار على شرائها وأحجم التجار
الأجانب أحياناً عن الشراء . فكانوا يلاقون العسف من عبال السلطان.
وبظل الأمر كذلك حتى تسدل البعثات لايجاد حل مرضى للطرفين . ومع
هذا زاد الرواج التجارى فى السلع الشرقية فى بلاد السلطان الممالكي
حتى أن سفن البندقية وحدها ، وهى العميل الأول لتجارة التوابل فى
مصر . كانت تحبل سفنها سنوياً من موانئ مصر والشام سلعا تقدر
بحوالى ٣٠٠٠٠٠٠ دوكات من المسادن الشينة والنقود ذهباً وفضة
وأقشة (٥) ، برغم قوانين « التحريسات البابوية » التى حذرت .

(٤) سعيد عاشور : المصدر السابق من ٣٩٥ .

(٥) فى الفصل الثانى فصل العلاقات التجارية الخارجية نوضح موضوع التوابل
السلطانية . والواقع أنه منذ أواخر عهد قايتباى وعهد الغورى بدأ رسميد الذهب يقل
فى خزائن الممالك ، وعلاجا لذلك بدأ السلاطين فى زيادة ، الاهتمام بالتوابل المعروفة
باسم « التوابل الشريفة او السلطانية او الذخيرة » وفرضوا على البنادقة شراءها على أن
تسفع القيمة نقداً وبالذهب مع بقاء معاملتهم مع الافراد حرة فى الانلجاء للمقايضة أو
الشراء بالمال . إذ كان البنادقة حتى ذلك الوقت ملوك الذهب فى العالم المسيحي . انظر .
توفيق امكندر : نظام المقايضة من ٤٣ - ٤٤ .

وقد طبق هذا النظام على البنادقة فقط فى مصر والشام ولما ترددت شكاوهم حددت
نسبة التوابل السلطانية المفروضة عليهم بنسبة معينة الى السلع الأخرى وهى « حمل من -

التعامل بين المسيحيين والعرب عامة وماليك مصر والشام خاصة . وكان هذا القانون الذى أصدره البابا نقولا الرابع سنة ١٢٩١ موضع عناية وتأيد البابوات المتعاقبين . وهدف القانون الى تدمير تجارة الماليك فتضعف دولتهم ويسهل هزيمتها . ولم يكن التحريم فى الواقع أمرا قاطعا أو دائما بل اقتصر منذ أواخر القرن الرابع عشر وفى القرن الخامس عشر على المواد التى يمكن أن يستفيد منها الماليك فى بناء السفن وعمل الأسلحة كالأخشاب والحديد والنحاس والبارود وخلافه . وإذا كان اصدار هذه القوانين وإطاعة البنادقة والجنوئين وغيرهم لها تقليد جرت عليه الأمور حتى القرن الرابع عشر، فانه فى القرن الخامس عشر ضرب التجار بهذه القوانين عرض الحائط ، فهى تحترم نظريا وتنقض عمليا ، والعرب يعرفون تماما مدى احتياجات الغرب الأوروبى الى السلع الشرقية الواردة عن طريقهم ، كما أن الأوربيين لم يثقوا بحرفية قوانين التحريم ولا حظ البابوات ذلك ، كما أن حاجة أوروبا أخذت تزداد يوما بعد يوم للسلع الشرقية ولا سيما السلع الخاصة بالكنيسة ، فكان لابد من مسايرة الواقع وتعديل قوانين التحريم — واحتقا للواقع عدلت القوانين ، وخلال السنوات الأخيرة من القرن

التوابل عن كل ألف دوكة من السلع الأخرى ، ثم حددت نهائيا بعدد معين مسعر من أحمال التوابل سنويا ، وهى ١٠ أحمال بسعر لا يزيد على ٨٠ دوكة للحمل الواحد . الحمل الاسكندرانى = ٥٠٠ رطل فرفورى « وقد أدى هذا الاجراء الى قيام نوع من الحساب الجارى بين الخزينة السلطانية وهيئة تجار البنادقة التى كانت مدينة باستمرار عن عدة سنوات خلت وظل هذا الاجراء متبعا حتى عام ١٥١٦ وإن كانت البندقية قد ساهمت أكثر من مرة فى سعر هذه الصفقة الاجبارية التى سبق تسعيرها . انظر :

توفيق اسكندر : المصدر السابق ص ٤٤ ملاحظة (١) .

— فى عام ١٤٩٦ حملت سفن البندقية من ميناء الاسكندرية ما قيمته ٢٠٠٠٠٠٠ دوكات ومن بيروت ١٢٠٠٠٠ دوكات وفى عام ١٤٩٧ حملت من الاسكندرية ما قيمته ٣٠٠٠٠٠ دوكة ومن بيروت ما قيمته ٦٠٠٠٠ دوكة . انظر : شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٥٩/٥٨ .

الخامس عشر صار تجديد القوانين على بنودها المعدلة (٦) . ومن السلع التى نقلها التجار الأجانب لمصر والشرق ، علاوة على منتجات المناجم ، الأخشاب والأسلحة والجوخ والشع والعب الطازج والمجفف والفراء والصوف والزعفران والمرجان والمصطكى والبندق والموايح . أما النيذ فكان محرما تعاطيه فى مصر بحكم الدين ، ولكن السادة الماليك كانوا يسبحون لأنفسهم أحيانا بشرب بعض أنواعه ، وكان يستورد لحسابهم من كريت خفية . وأسواق القاهرة كانت تزخر بأنواع مختلفة من الأقشعة الأوربية . فأرواب السادة الماليك تصلهم من البندقية وفلورنسا ودول شمال أوروبا ، ويجد هذا النوع من الأقشعة الصوفية والجوخ راجا فى الأسواق العربية لجودة نسجه ، وإن شابه أواخر العصور الوسطى الكثير من الغش ، وظهر هذا فى شكل احتجاجات فى المعاهدات بين الماليك والبندقية (٧) . بقى أن نذكر أن للسلطين الماليك تجارة خاصة بهم ، وهى تجارة الصقور أو الباز ، فكان السلطان الماليكى لا يخرج للصيد الا ومعه رمزه الباز ، وكانوا يدفعون فى الباز الواحد من الأنواع الممتازة مالا يقل عن ٣٠٠٠ دراخمة ، أو ما يوازى ١٥٠ قطعة من الذهب ، ونصف هذا الثمن للباز

(٦) من بين السلع التى استثنت من التحريم (القصب) إذ كان احتكارا للبابوية .

انظر : سعيد عاشور : المصدر السابق ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

قيصر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى (مترجم) ج ٢ ص ٤٢٦ حاشية للدكتور زيادة .

فكرت البابوية بعد وفاة عكا ١٢٩١ فى اضعاف الماليك عن طريق حرمانهم من المواد اللازمة للحرب كالحديد والخشب والقار والكبريت وكذلك عدم شراء التاجر منهم حتى تبور وتضعف دولتهم لذا أصدروا (قوانين التحريم البابوية) ومن بين السلع التى شملها المنع الرقيق الذى اعتمد عليه الماليك فى تكوين جيوشهم .

— Pernaud, Les Villes Marchands, pp. 30, 31.

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 440.

— Depping, Op. Cit. T. II. p. 170.

— Day, & Hist. of Commerce, p. 79.

— Poston, Camb. Med. Hist. of Commerce, Vol. II. p. 331.

(٧)

الذى يسوت فى الطريق . وكان البنادقة هم المتعهدين ويجتهدون فى الحصول على أفضل الأنواع (٨) .

ولقاء هذا كانت مصر تصدر من انتاجها الخاص للغرب : السكر من أحسن أنواعه والتمر والموالح والكبر والبسم والقطن والكتان والشب والصبغات . وأكثر الموانئ استقبالا للتجار للحصول على السلع المحلية والشرقية هى الاسكندرية حتى ان السلطات خصصت بابا فى منطقة الجسر كعرف باسم باب البهار وشارعا له نفس الاسم (٩) ، وقد احتجرت تجارة التوابل فى مصر مجموعة ضخمة من التوابل ووكلاء البيوتات التجارية فى أوروبا ، يتولون عمليات التسويق والشحن وحسابات الجمارك وأحيانا هم المسئولون السياسيون لبلادهم فى بلاد السلطان المماليكى وكان من صميم أعمالهم فرز التوابل لابعاد التالف (١٠) . ومنذ أن صارت هذه التجارة حكرا لسلطين المماليك ، والشكوى تتردد عن غشها وخلطها بسواد غريبة وأتربة . وأنها تفربل بغرايل مصسفة الخروق . وفى المعاهدات المتأخرة من القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر نص على نقاء هذه التوابل ، ونص كذلك على مراعاة عدم غش الجوخ والأنسجة الأوروبية التى ترد لمصر (١١) .

-- Heyd, Op. Cit. T. II, pp. 442, 443.

(٨)

(٩) توفيق اسكندر : نظام المياضة فى تجارة مصر الخارجية - بحث فى المجلة التاريخية ص ٤٦ ملاحظة (٢) ويذكر أن البهار فى تجارة الاسكندرية الخارجية كان يعجز الأهمية التى تحوزها الآن تجارة الشاي والقطن الخام والمنسوج لانجلترا والسكر والنايكا لكوبا . ويأتى فى الأهمية بعد البهار القرفة وجوز الهند والزنجبيل وخشب الساج والماج والجواهر والاحجار الكريمة .

(١٠) خصصت السلطات المالية وكالات للبهار واسواق تحمل اسم العطاريين لا تزال ، بالاسكندرية لليوم كمام صرحت بفتح فنادق لتجار هذه السلع لانفسهم خلال وجودهم بمصر .

(١١) تتردد فى معاهدات قاينباى مع البندقية وكذلك معاهدات الغورى شكوى تجار =

وعلى رأس قائمة السلع التى كانت تلقى رواجاً فى أوروبا فى العصور الوسطى : التوابل والأفاويه وهى من أسباب ثراء مصر فى عصر المماليك ومن أجلها دار البرتغاليون حول افريقية فى بداية لحركة كشف جغرافى واسع نقل العالم من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، كما أنها كانت سببا فىنا عرف فى التاريخ بحروب التوابل والبحار . وكانت مدخلا لحركة الاستعمار الحديث فى الشرفين الأدنى والأقصى . ومن أهم هذه السلع : التوابل والبحار والأعشاب الطبية ، والصبغات والصوغ والبخور والقطر والأخشاب والمعادن والأحجار الكريمة والمنسوجات. وتدفق تيار هذه المتاجر الى أوروبا من شرق البحر المتوسط حتى أقصى مؤرخو العصور الوسطى ٣٨٦ نوعا من التوابل (١٢) . وكان أبرزها وأهمها وأكثرها طلبا فى أوروبا الفلفل . وقد اشتدت الرغبة فى الحصول عليه أكثر من أى تابل آخر على الرغم من ارتفاع ثمنه . ومصادره الهند والشرق الأقصى وشرق افريقية . والفلفل له ثلاثة أنواع الطويل وهو غير مستكمل النضج ، والأبيض الذى لم تنضجه الشمس بعد ، ثم الأسود الناضج بعد تنضجه وهو أحسنها كلها « وهو حريف المذاق ذو رائحة طيبة ويشترط وجود الماء بكثرة فى جذوره وثمرته تشبه العنقيد ، وإذا اشتدت الشمس وارتفع حرها تنفسم أوراقها على عنقيدها والا حرق الفلفل قبل أوان

الفاخر والامان من غش التوابل وشكوى المصريين من غش الجوخ الوارد من أوروبا ونص فى المعاهدات على مراعاة ذلك من الطرفين . بالمحقق «نص المعاهدات» رقم (٢) و (١٣) ب .

- Clerget, Op. Cit. pp. 343, 344, 345, 346, 347.
- Poston, Op. Cit. T. II, p. 351.
- Clive, Op. Cit. p. 79.

(١٢) المقريزى : الخطب ج ١ ص ٤٢٠ وما بعدها .

- Hyzayyin, Op. Cit., pp. 35-38.
- Poston, Op. Cit. Vol. II, p. 351.
- Lopez ; Med. Trade pp. 109-114.
- Day, Op. Cit. p. 79.

ادراكه (١٣) . والنوع الذى ينسو فى شرق افريقية يصدر عن طريق ميناء مقديشو وتنمو أشجاره على أميال طويلة على مدى البصر. وشجرته ذات عنقايد تتدلى منها كعنقايد العنب وتعطى ثمرها ثلاث مرات سنويا وتظهر زهور الفلفل فى شهر مارس ، وبعد أن تتلون تقطع وتغرس فى الشمس لتجف وتأخذ لونا أشهب ويتم ذلك فى شهر مايو ، أما الأنواع الأخرى فبعد أن تجف يصبح لونها أسود . والأهالى هنا يستخدمون الفلفل فى طعامهم وشرابهم ويقال انهم يضعون النيران تحت الشجرة لكى لا تقترب منها الثعابين كما يقال انهم يضعون النار فى القرن لكى لا يعاد بذرها فى بلاد أجنبية (١٤) . وهناك نوع آخر لا يجلب من الشرق الأقصى ولا الهند ولا شرق افريقية وشاع استعماله فى مدن مونتبييه Montpellier وملقه Malaguette وكان الايطاليون يتعاونونه من شمال افريقية . أما مصدره الأصلي فلم يكن معروفا حتى عصر الأمير هنرى الملاح عندما نقله بحارته معهم فى عودتهم من جنوب غرب افريقية . وأنواعه تفضل كثيرا أنواع الشرق الأقصى وعلى درجة كبيرة من النقاء ، اذ أن فلفل الهند داخله الغش فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر بعد وصول البرتغاليين للهند ، وبشوب انصراع على التوابل بينهم وبين العرب قل الوارد ولجأ الباعة الى غشه لعدم وجود رقابة كافية بعد احتكار الدولة لهذه السلعة فكان يضاف اليه أنواع رديئة وأتربة مما أدى الى تكرار الشكوى من تجار البندقية

(١٣) ابن اياس : نشق الأزمهر (مخطوطة) ورقة ١٣٤ .
الجزى : تحفة المجيب (مخطوطة) بدار الكتب رقم ط ١٣٤٤ ورقة ٤١٣ و ٤١٤ .
ابن بطوطة : المصدر السابق ج ٢ ص ١١٢ .
— Von Harff, Op. Cit. pp. 169, 170, 178.

« ساد الاعتقاد فى العصور الوسطى أن الفلفل ينبت فى جنوب القوقاز فى وجع الشمس وتقوم على حراسته الحيات والثعابين وعندما ينضج تشعل النار فى أشجاره فيسود بعد أن يكون أبيض » .

— Sonia, Op. Cit. p. 19.

— Harff, Op. Cit. p. 171.

وعلائهم تجار الفلاندرز والألمان ووفد بعضهم للاسكندرية لاعلان ذلك ومراقبة البيع ونص على نقاء هذه السلعة فى معاهدة قايتباى ودوج البندقية عام ١٤٨٣ ومعاهدات الغورى والبندقية وخاصة المعاهدة الشاملة (١٥) . والمثل الشائع فى أوروبا فى العصور الوسطى « ان شيئا ما غال كالفلل » ، ومنشأ ذلك أنه كان للفلفل قوة شرائية يتعامل بها فى ظروف معينة فكان من العادات الشائعة بين رؤساء الكنيسة الفرنسية أن يتقاضوا العشور توابل ، فلفلا أو جزبيلا كما كان العبيد يشترون حريتهم بأحمال من الفلفل ، ويفرض على اليهود جزية ضرائبية قوامها الفلفل والجزبييل والشمع . نظير السباح لهم بحق حيازة مدافن لموتاهم ومدارس لأبنائهم « وفى انجلترا كانت له قوة شرائية مثل العملة تماما لندرته وغلوه بل انه كان يقوم مقام المال فى الايجارات الزراعية ومهور الزواج » . (١٦) وساحل المالابار هو مصدر أوروبا من هذا التابل فى العصور الوسطى وتزرع منه كميات كبيرة كذلك فى كالكتا وسيلان والهند الصينية وان كانت مدن ساحل مالابار أوفرها إنتاجا . وعندما شدد البرتغاليون قبضتهم على الهند كان الفلفل يهرب الى مكة ومنه الى أوروبا كما أن بعضه كان يصل للصين (١٧) . وكمية الفلفل المرسل الى أوروبا تصلها عن طريق مصر والبندقية حتى احتل البرتغاليون مناطق انتاجه فصارت لشبونة مركز تصدير لأوروبا (١٨) .

(١٥) بالملحق معاهدتى قايتباى والغورى الاولى برقم (٢) والثانية برقم (١٣) راجع كذلك :

— Sonia, Op. Cit. p. 72.

— Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 658, 659-662-664.

— Sonia, Op. Cit. p. 20, 21.

(١٧) هناك أنواع أخرى أقل قيمة متأتى على ما يذكر من الملايو والهند الشرقية وتقدر حمولة المركب الصينية بعدد أسباب الفلفل التى كانت تحملها وفى عام ١٥١٥ كان ما حملته السفن الى الصين من الفلفل من جزيرة سومطرة حوالى ٦٠,٠٠٠ قنطار ليماد تصديره للغرب » .

— Hyzayyin, Op. Cit. p. 205.

— Heyd, Op. Cit. p. 660.

والفلل سيلان سمعة طيبة إلا أن سيطرة البرتغاليين على تجارته في الهند وسيلان في مطلع القرن السادس عشر حجب وصوله لمصر وأوروبا عن طريق البندقية ووصل بدله فلل جزر الهند الشرقية والهند الصينية . وفلل سومطرة من النوع الطويل ، وكان قبل ذلك نادرا ما يصل لمصر والغرب لبعده مصادره ولكفاية ما كان يصل من الهند (١٦) . وليس معنى ذلك أن الصين لا تزرع الفلل ولكن الثابت أنها كانت تزرع كميات هائلة منه بالإضافة الى ما يرد لها من جزر الهند الشرقية والملايو ليعاد تصدير الكل على السفن الواردة من الهند ومن البحر الأحمر لأن موانئ الصين تستقبل السفن الضخمة (١٧) . ولهذا كان سعر الحبل الذي يساوي أربعة جنيهات على السفن المتجهة مباشرة من الهند الى البحر الأحمر يساوي بعد خروجه من الصين حوالي ١٥ دوكات (١٨) . ومن أهم استعمالاته لدى الأوروبيين تأثيره القوي في علاج بعض الأمراض وادخاله في صناعة النبيذ وحفظ الطعام (١٩) . وإذا كان الفلل قد استخدم بكثرة في الأطعمة المتبلّة وفي بعض حالات العلاج

— Heyd, Ibid, p. 665.

(١٦)

(٢٠) « ان كل شحنة مركب واحدة دامية للهند أو الاسكندرية أو أي مكان آخر من متجهة للمناطق المسيحية كان يأتي مئات أمثالها وأكثر الى ميناء زينون بالصين »

— Hyzayyin, Op. Cit. p. 205.

— Clerget, Op. Cit. p. 343.

(٢١)

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 663.

(٢٢) للفلل تأثير قوي كعلاج للأمراض فهو عند مزجه بورق الغار يفيد في حالات لدغ الكائنات السامة وعندما يمزج بالزيت يكون مرهما مفعوله قوي التأثير وإذا أضيف الى النبيذ أفاد في النزلات الشعبية والنهاب الرئة وهو يستخدم كثيرا في تنشيط الجهاز الهضمي وحفظ اللحوم والاعذية لمدة طويلة .

— Sonia, Op. Cit. p. 20.

ويقول الجزري : المصدر السابق ورقة ٤١٣ و ٤١٤ أنه حار يابس جدا وفيه جذب لأمول البلغم ويسكن المصعب ويلطف الاغذية الغليظة ويهضم الطعام ويمنع ظلمة البصر .

الطبي ، فان الشرق أنتج محاصيل عديدة اقتضت الافادة منها على صنع العقاقير الطبية .

ولفظ العقاقير الطبية يفيد معنى الأدوية ببنهومها الآن ، وهو يتصل اتصالا وثيقا باقتصاديات المدن في العصور الوسطى وكانت القاهرة سوقا رائجة لتجارة الأعشاب الطبية وصناعة الأدوية من الأعشاب الواردة من الشرق وكانت معروفة لأهالي القاهرة وللعرب كافة وإن غابت عن أفهام الأوروبيين في ذلك الوقت . وقد مهر المصريون منذ القدم في معرفة جواهر العقاقير الطبية والتوابل الشرقية وبيع من هذه الأعشاب ما لا يقل عن ٦٠٠ قنطار تبلغ قيمتها حوالي ٣٠٠٠ جنيه ، تضاعفت الى خمسة أمثالها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بعضها للاستهلاك المحلي ، والبعض الآخر للتصدير لأوروبا بعد أن بدأ الأوروبيون يقدرون قيمتها العلاجية . هذه الأعشاب الطبية هي التي طورت طب العصور الوسطى الى الطب الحديث القائم على العلاج بالعقاقير حتى انه يقال « ان علم الكيساء الحديث قد قضى على تجارة مصر وراثتها في الأعشاب والعقاقير الطبية » (٢٣) .

ومن بين مئات السلع التي استخدمت كعقار طبي القرفة — القرنفل — الخلنجان — الزنجبيل — الهند شعيرق — وخيار شمر أو شنبير — والراوند — والحفص — والمن والبلسم — والكافور وعرق الكافور — والعود الهندي — والجهان — وجوزة الطيب — والزعفران — والتوتيا .

والقرفة أو الدارصيني من بين السلع التي دخلت في صناعة العقاقير الطبية ولم تعرف في أوروبا الا منذ القرن الثامن الميلادي ، وبخاصة في فرنسا ، اذ كانت تصل مع العطور والبخور كهدايا للسلوك والأمراء ، ثم عرفت عن العرب كمادة طبية تستخدم في صناعة

— Clerget, Op. Cit. pp. 349, 350 & 356.

(٢٣)

العقاقير (٢٤) . والقرفة اسم يطلق على لحاء شجرة القرفة ويعرفها العرب منذ العصور الأولى ، وتستخدم مطحونة في حفظ الأطعمة والنيذ كما كانت معروفة في موانئ شرق البحر المتوسط . وتأتي القرفة من ملقا وتصل القاهرة عن طريق البحر الأحمر . وفي فارس تعرف باسم « خشب الصين » نسبة إلى مصدرها القديم حيث كانت تتوافر في جنوب الصين كما أنها تنمو في الهند الصينية وعرفها الغربيون باسم أوراق الهند وقد نقل البرتغاليون منها كميات ضخمة أواخر القرن الخامس عشر حيث اتخذت عنصرا هاما من عناصر الدواء (٢٥) . ولم تذكر المصادر العربية أهمية سيلان في زراعة هذا التابل ، وإن ذكرته الكتب الغربية ورحلات الغرب منذ القرن الرابع عشر ، وهو في حوانيت العطار في مصر سلعة من الهند وسيلان ، ويبادل أهالي ساحل كروماندل ومالابار القرفة بالملابس أحيانا (٢٦) . وهناك نوع آخر ينمو في اليمن (٢٧) . وشجرة القرفة تشبه شجرة الصفصاف إلا أنها تفوقها ارتفاعا وتنمو أفقيا لا عموديا ، وأجود ما فيها لحاؤها وأغصانها . ولحاء الساق سميك ، أما الأوراق فأكبر من أوراق شجرة الغار وإن كانت

(٢٤) تذكر مصادر العصور الوسطى شجرة القرفة باسم Cinamonan وأحيانا تختصر إلى Cinnam Or Cinamum والاسم الحديث هو Canella وهو أقل جودة من النوع المسمى Cynamome

— Heyd, Op. Cit. II, pp. 595-596.
— Clerget, Op. Cit. p. 343.

(٢٥) يذكر ابن البيطار في الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ج ١ ص ٨٣ و ٨٤ ١٠٤ . أن أصله من الصين لذا عرف باسم الدار صيني وأقل أنواعه يعرف باسم دار صوص ويسمى قرفة القرنفل أما «الدارصيني» الحقيقي فهو أنسخم وفيه حمرة ، وطعمه حريف قابض مع حلاوة ثم مرارة والنوع الرديء رقيق وصلب يعمل للسواد يغيب المعدة ويجلو البصر ويذهب البرد ويستخرج منه دهن يصلح كملين .

الكوزي : المصدر السابق ورقة ٤١٤ .

— Heyd, Op. Cit. T. II, p. 598. (٢٦)

— Sonia, Op. Cit. pp. 18-19. (٢٧)

تشبهها ، وثمرتها مثل ثمرة حبة الغار ويستخرج منها زيت قوى يستعمله الهنود مرهما للجروح والحروق ومتى جرت الشجرة من أبحاثها وثمرتها استعملت وقودا (٢٨) . وقد أدرك البرتغاليون منذ دخولهم الهند أهمية القرفة في التجارة ، كما أدركوا أن قرفة قاليقوت أقل جودة من قرفة سيلان ، لأن سيلان تعنى بزراعتها وتوليها أهمية خاصة وتعنى باقتناء وغرس الأشجار المستازة . لذا كانت أسعارها في سيلان قدر أسعارها في قاليقوت حوالي أربع مرات تقريبا (٢٩) . وأجود أنواع القرفة ذات اللون الأحمر الخفيف والطعم القوى الحريف (٣٠) .

ومن بين الأفاويه التي كثر استعمالها في الأغراض الطبية في العصور الوسطى القرنفل وقد ورد ذكره بكثرة كذلك في الكتب التي تتحدث عن حفظ الأطعمة وبخاصة الأسماك في طعام المسيحيين في أوروبا خلال صياهم الطويل كما تستخدمه الطبقات البرجوازية في تنبيل اللحوم أكثر من طبقات الأمراء . ومنذ الحروب الصليبية كثر استعماله بعد أن جلبت كميات كبيرة منه لأوروبا عن طريق موانئ شرق البحر

(٢٨) لا تستعمل القرفة فقط للحائنا ولكن كذلك لزهورها وتحتوى أوراقها على زيت طيب طيار ذو رائحة عطرية يفيد في أمراض الأمعاء كملين ومريح .

ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٤
— Heyd, Op. Cit. T. II, pp. 599-600.
— Sonia, Op. Cit. p. 72.

(٢٩) كان غرض البرتغاليين من حملتهم الأولى على سيلان هو التحكم والاستحواذ على نابل القرفة (الدارصيني) المزروع بالجزيرة والذي بدا لهم أنه أفضل من المزروع في ساحل مالابار وأغل منه ثمنا . ومع ذلك لم تكن سيلان معروفة بزراعتها ، وكان يظن أنه يأتي من الصين . وقنطار القرفة في سيلان يساوي ما قيمته ضعف ونصف مثيله وأحيانا يصل إلى أربعة أمثال ثمنه في مدن ساحل مالابار . وشجرة القرفة متوسطة الحجم رايتل والبرتغاليون هم الذين اكتشفوا أن سيلان أفضل أنواع القرفة .

— Darnes, Op. Cit. Vol. II, pp. 113-114.

(٣٠) وثيقة رقم ١٧٥ ص ٣٤٨ من راجوزا عام ١٤٥٨ عن فحص السلع ونصائح

للمشتريين .

— Lopez, Op. Cit. p. 349.

المتوسط ، وكان ثمنه ضعف ثمن الفلفل حتى أوائل القرن السادس عشر لا سيما بعد أن دخل الصينيون كتجار له بالأسواق . ثم انخفض السعر بعد ورود كميات ضخمة منه على يد البرتغاليين بعد أن داروا حول افريقية ولا تكاد تخلو صيدلية في العصور الوسطى من القرنفل (٣١) . وأواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بلغ ثمن حمل القرنفل الذي يزن ٧١٥ رطلا بسوازين البندقية ٢٥ دوكا تسليم ملقا وجاوة للتجار الوطنيين وما بين ١٠/١٢ دوكا للأجانب ، أما في قاليقوت فلم يقل سعره عن ٥٠/٦٠ قطعة ذهبية . ومن هنا عرف سبب ثراء تجار هذا التابل من الوطنيين والأجانب على السواء (٣٢) . وقد ظل مصدر تصدير القرفة إلى أوروبا مجهولا فترة طويلة ولم يعرف إلا أن الصين مصدره ومنها أخذ الاسم وإن العرب هم وسطاء نقله من الشرق عبر الخليج الفارسي أو البحر الأحمر ، ولكن ذكر مؤرخو العرب أنه من زراعات الهند والأرخبيل الهندي وجزر ملوك وجاوة وسيلان (٣٣) . ولكن هذه الجزر في الواقع لم تكن أكثر من محطات تجارية على الطريق لغرب آسيا (٣٤) . وفي عام ١٥٠٤ كان الرحالة فارثيما أول أوروبي يضع أقدامه في جزر ملوك وشاهد بنفسه قرون القرنفل على أشجارها ووصفها والقرنفل المعروف الآن هو براعم الشجر (٣٥) . وينحني هذا البرعم بساقه وجزئه الأعلى المستدير

(٣١) Heyd, Op. Cit. II. pp. 603-604.

(٣٢) ابن البيطار : المصدر السابق ج ٤ ص ٨/٧ .

— Depping, Op. Cit. I. p. 44.

— Sonia, Op. Cit. pp. 18-19.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 655.

(٣٣) ابن البيطار : المصدر السابق ونفس الصفحات .

الجزري : المصدر السابق ورقة رقم ٥٢ .

(٣٤) Heyd, Op. Cit. II. p. 605.

(٣٥) اسم نبات القرنفل العلمي Bugenia Caryophyllata.

وبعد جبعه يعرض للشمس ويجفف ويعرض للبيع . ويشترط أن يحتفظ بلونه الأحمر الثاني دليل نقاوته ويحق للتجار رفضه إذا كان على درجه من الاحمرار أقل من ذلك . أما أوراقه ففيها عطر طيار مثل الموجود فعلا في قرون القرنفل (٣٦) .

أما تابل الخلعجان فهو من المواد كثيرة الاستعمال في الطب وشجرته تعرف باسم « خسرودار » ولها عروق متشعبة ذات عقد لونها بين السواد والخضرة وترد من الهند وقد استعمله الغرب الأوربي في العصور الوسطى في الطب والطهي ويستورد من موانئ بيروت والاسكندرية وعكا . وفي الطب يميزون بين نوعيه الكبير وهو الأحمر الثاني ويرد من الهند والصغير البني الخفيف ويرد من الصين (٣٧) .

واعتبر الزنجبيل في العصور الوسطى من أكثر التوابل شيوعا وتداولها ولا يقل في استعماله عن الفلفل والبهار وهو يطرح في الأسواق على صورتين أما أخضر وأما مخلوطا بالسكر ويدخل في صناعة العقاقير الطبية والطهي وحفظ وتحضير الخور ويزرع بكليات كبيرة في الهند والصين وسرقند وبعض البلاد العربية .

وزنجبيل بلاد العرب والهند هو الذي يصل إلى أوروبا . والنوع الهندي ثلاثة أنواع الجبلي والبلدي والدلي ، ويزرع الأول والثاني

(٣٦) ابن بطوطة : المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٥ .

بذكر ابن بطوطة « أن ما يجلب لبلادنا هو نور القرنفل وهو الذي يستغل من زهرة ويشبه زهر التارنج ونور القرنفل هو « جوزبوا » المعروف في بلادنا باسم جزرة الطيب أما الزهر المكون منها فهو « البسباسة » .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 607.

— Lepez, Op. Cit. p. 349, DOC. 175.

— Ferrand, Instructions Nautique

(٣٧) الجزري : المصدر السابق ورقة ٤١٥ .

ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ٨٠/٧٩ .

يعيد الخلعجان في علاج أمراض الكلى والمعدة والقضية الهوائية .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 617.

على الجبال وإن كان الأول أفضل من البلى ويكثر زراعتها فى قاليقوت حين يزرع الصنف الثالث على ساحل كانافور (٣٨) .

وهناك نوع آخر ينسب الى مدينة كولام (٣٩) ، والرطل منه يساوى اذ ذاك ما يوازى الآن عشرة فرانكات لكل ١١ أوقية صافى ويرد لأسواق مكة زنجبيل مدغشقر وزنجبار ، ويباع بضعف سعر الزنجبيل فى كولام (٤٠) .

ومن العقاقير الطبية الشرقية التى نالت شهرة عظيمة فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب على السواء « البلسم » انتاج شجرة البلسان . وتكثر زراعة أشجاره فى حدائق المطرية بالقرب من القاهرة. ولهذه المنطقة شهرة روحية عميقة فى مصر ، ومنذ العصور الوسطى المبكرة وهى موضع احترام الناس على اختلاف أديانهم من مسيحيين ومسلمين . وتقول القصة الدينية أن السيدة مريم فى هربها بالطفل يسوع المسيح من طغيان هيرودس الحاكم الرومانى لبيت المقدس ، نزلت والطفل ، ويوسف النجار ، هذه الناحية وجلست لتستريح على الأرض والطفل فى حجرها بعد أن نال منهم التعب والعطش وهنا حدثت المعجزة ، فقد أخذ الطفل المقدس يحرك رجليه كما تفعل الأطفال عادة ، ولامس كعباه الأرض فتفجرت عين ماء فى ذلك الموضع وروت

(٣٨) Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 619-620-622, 623.
(٣٩) Sonia, Op. Cit. p. 19.

(٣٩) هناك نوع يحمل من بلاد المغرب وأرض عمان ويشبه فى طعمه طعم الفلفل ويحمل الى إيطاليا فى أواني خزفية ويستعمل فى العلاج الطبى لأمراض ، القصبه الهوائية . انظر :

ابن البيطار : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٧ .

- زنجبيل كولام يعرف باسم زنجبيل كولبينو وهى غير عاصمة سيلان .

(٤٠) يذكر الجزرى نفس المصدر والورقة ان أجوده الصينى المائل للصفرة ويشبه الفلفل فى منافعة .

أمهعشها وغسلت له ثيابه. وحدث أن سقطت بعض البذور من شجرة البلسان حيث الماء المتفجر ونمت أشجاره وازدهرت وأصبحت مزارا للمسيحيين من جميع الأقطار بعد عودتهم من بيت المقدس للترك بالشجرة المقدسة كجزء مكمل لحجهم . وقد نالت المنطقة وأشجار البلسم بها رعاية حكام مصر على اختلاف طوائفهم (٤١) .

وتذهب الروايات الى أن البلسم المذكور معجزة من المعجزات وأن أفضله لا ينبت بستان ما على الأرض الا بالمطرية . وفى رأيهم أن هذا قد يكون لقداسة المكان أو لطيب أرضه وصلاحيتها لنمو هذا النوع من الشجر . وتجرى عصارة الشجرة فى موسم بعينه من السنة فتتضخم الشجرة وفروعها بشكل ظاهر ويعمد عمال الحديقة الى احداث الشقوق فى لحائها متفادين خشب الشجرة نفسه وأحيانا ينزعون الورق فيسيل السائل السحري ويجمعونه فى أوان وقدور خاصة ويلاحظ ضرورة سد الشقوق بعد فترة مناسبة حتى لا تموت الشجرة لكثرة ما قد ينزف منها من عصارة ، والسعيد من نال قطرة على قطعة قطن مندوفة والعصارة المجموعة توضع فى قدور فى وهج الشمس ويطفو الزيت وتهبط الشوائب ثم يؤخذ ويغلى على النار فيكتسب لونا أحمر جذابا ويعتبر هذا من أرقى الأنواع . ومحصول العام الواحد يزيد على ٦٠ رطلا فى أو فى الأعوام (٤٢) .

(٤١) « نالت الاشجار والمنطقة المزروعة بها شهرة عالمية ودينية كما أن طريق الحج عبر سيناء يمر بهذه القرية التى تبعد عن القاهرة مسافة ٤ فراسخ » .
--- Hariff, Op. Cit. p. 127 & R. I.
--- Heyd, Op. Cit. T. II. p. 575.
--- Clerget, Op. Cit. p. 530.
--- Sonia, Op. Cit. p. 15.
--- Depping, Op. Cit. T. I. p. 73.

ابن اياس : نشق الازهار ورقة ٣١ و ٣٢ .

(٤٢) يذكر ناصر خسرو فى رحلته « أن حب البلسان لا ينبت حيثما يزرع واذا نبت فى غير مكانه فلا يخرج زيتا ، وشجرته مثل شجرة الآس ويشذبون غصونها بالتصل حين تكبر ويربطون زجاجة عند موضع كل قطع فيخرج منه الدهن ، كالصمغ وحين ينفذ ما فيها =

والبلسان احتكار سلطان مصر وتراقب عليه جمعه مراقبة شديدة
أقله الناتج وكثرة الطلب عليه وغلاء سعره . ويبيع المحصول لحساب
السلطان فهو صاحب المزرعة ، لذا سورت منطقة أشجاره ووضع عليها
الحرس ليلا ونهارا ويحضر السلطان بنفسه جمع المحصول وتقديره
ويضعه في كنوس من الفضة (٢٢) . ويتولى اهداء هبات وهدايا
الى ملوك وأمراء ورؤساء جمهوريات الدول المسيحية في أوروبا التي
تتعامل معه ومملك الحبشة ، كما كان يمنح منه هدايا للشخصيات الدينية
الكبيرة المارة ببلاده ويذهب جزء آخر الى المستشفيات لعلاج المرضى .
وما يتبقى منه يباع لحساب السلطان بأسعار عالية . وكانت بعض

من دهن تجف ويحمل البستانيون غصونها الى المدينة ويبيعونها . ولحاؤها حين وشمه
كاللوز حين يقشر وينبت في جذعها أفضان في السنة التالية فيعملون بها كما عملوا في
السنة الغابرة . (لم يلحق ناصر خسرو عصر الماليك الذين احتكروا إنتاج الأشجار
المذكورة وفي القرن ١٥ أصبحت المزرعة ملكا لسلطانهم) انظر زكي حسن : الرحالة
المسلمون في العصور الوسطى - رحلة ناصر خسرو ص ٥٦

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 575.
— Sonia, Op. Cit. p. 15.

(٤٣) البغدادي : الافادة والاعتبار ص ١٠/٩ . « ان أشجار البلسان في عين شمس
محاطة في مساحة سبعة أفدنة ، وارتفاع شجرة البلسم نحو ذراع او أكثر من ذلك
وعليها قشران : الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين ، وإذا مضغ ظهر في الفم منه مادة
دهنية ورائحة عطرة وورقه يشبه ورق السذاب ويجتنى دهنه منذ طلوع الشمس ، بأن
يشدخ الساق بعد ما تجث عنها كل أوراقها وشدخها يكون بحذر بحجر بحيث يقطع القشر
الأعلى ويشق الأسفل شقا لا ينفذ للخشب . فإذا نفذ للخشب لم يخرج منه شيء . وإذا
شدخ كما أسلفنا أمهل ريشما يسيل لثاد على العود فيجمع بأصبع في قفاني زجاجية ويجمع
منه سنويا ٢٠ رطلا . (يقول هايد ص ٦٠) وتؤخذ القفاني فتدفن في القيقظ والحر
الشديد ثم تعاد الى الشمس وتفتقد كل يوم ويطفو الدهن ويقطف ثم تعاد ثانيا للشمس
ولا يزال كذلك حتى لا يبقى فيها دهن ثم يؤخذ الدهن ويطنخ ولا يطلع أحد على طبعه ثم
يرفع الى خزانة الملك ويصل جملة المجموع النقي عشر الكمية) .

أما الجزري : المصدر السابق ورقة ٤٨٤ فيذكر «أن شجرة البلسان أو البلسم تشبه
الآس ، ويقال ان السيد المسيح عليه السلام اغتسل في هذا البئر ، وهو يقلم في الثاني
والعشرين من طوبة ويسقى الى آخر هاتور - ويستخرج دهنه بأن تشرط الأغصان بمشرط
من حجر وكذلك الجذع ويجمع ما يخرج منها بالظفر في الإصداق والقوارير وتدفع الى
رجل نصراني يعرف طبخه ولا يعلمه الا لولده . وهو آمن دهن في الدنيا » .

— Sonia, Op. Cit. p. 16.

الشخصيات التي تحصل عليه هبة تباع ما يهدى اليها للأجانب للحصول
على حاجتهم من هذا الزيت المقدس عند المسيحيين ، اذ أن ملوك الفرنج
كانت تتغالى في شراء هذا البلسم بثقله ذهباً لأنه لا يتم عندهم التنصر
الا بعد وضع شيء من دهن البلسان في ماء المعمودية وينغمسون فيه .
ويستخرج الدهن من الشجر في شهر برمهات من كل عام (٢٤) « وما
يصرف منه باذن السلطان يكون برسوم عال ويرسل كذلك لمملوك
الحبشة (٢٥) » . ولكثرة حاجة المسيحيين لهذا الزيت يعتمد بعض التجار
الى تزيفه ، فكان السلطان يعاقب بشدة كل من يثبت أنه باع بلسما
مهدي للأجانب أو بلسما مغشوشا ، وعمال الحديقة هم الذين يتولون
عبلية الغش اذ ترك لهم فروع هذه الأشجار فينالون بقاياها ويتولون
بيعها لحسابهم الخاص بعد عصرها ، والدهن المستخرج نوع رديء غير
نقي مختلط بعصارات أخرى من أشجار مختلفة (٢٦) ومع ذلك كان يباع

(٢٤) ابن اياس : بدائع الزهور (طبعة كالة) ج ٤ ص ١٤٩ حوادث ذي الحجة
٩١٤ هـ .

— Harff, Op. Cit. pp. 127, 128 & R. I. p. 127.

يذكر هارف « أنهم يقطعون أطراف الشجرة في شهر مايو من كل عام ، ويتركون
السائل الذي هو عصارتها ليسيل في أوان معدة لذلك ، وهذه هي نقط البلسم ويفعلون
ذلك ثلاث مرات ، وثالث قطفة أفضل من الثانية وهذه أفضل من الأولى (خطأ هارف في
هذا والمكس هو الصحيح) ويرسل السلطان أجود الأنواع هدية كل عام الى بابوات أوروبا
ومملوكها وسلطان تركيا وخان الصين وإمبراطور الحبشة (وكان يظن أنه القس يوحنا)
وملك الهند » .

في وثائق تنازل السلطان قايتباي اداريا عن قبرص للبنداقية رسالة من السفير
البندقي للدوج عن أحوال مصر عام ١٤٨٩ م وموجودة بالملحق رقم (٤) عن منح السلطان
للمبوض البابوي كمية من البلسم هدية فقرة (١) وهي ترجمة الأستاذ الدكتور توفيق
أسكندر .

— Senato, Secreta xxxiv fo 30-33.

(٢٥) ابن اياس : نقش الازهار (مخطوطة) ورقة ٣٢ .

(٢٦) Breydenbach, Les Saints Peregrination, p. 39 & N. 2 p. 45.

يذكر بريدنباخ « أن البلسم الممتاز لا يوجد الا في مطرية مصر ، وله مركز ممتاز
في العالم المسيحي ، ويدير سواقي الحديقة أربع ثيران لكي تروى بصفة دائما ، وغش
البلسم يكون بماء الورد » .

— Heyd, Op. Cit. T. II. pp. 575-580.

بأسعار خيالية . ولما كان المستخرج لا يكفي عند التجار الى خلطه بأنواع رديئة مستوردة لتقليل الثمن وسد حاجة السوق مما قلل قيمته الشفائية للأمراض (٤٧) .

ولم تكن المطرية بسمر هي التي تحتكر وحدها زراعة البلسان . وان كانت تحتكر بالفعل أفضل أنواعه فقد وجدت أنواع أخرى أقل قيمة كانت تختلط بالنوع النقي لسد حاجة السوق ووجدت في الشام وفلسطين واليمن (٤٨) . وان كان قد قل انتاجه في القرنين ١٣ و ١٤ واقتصر على ما تنتجه مصر وحدها . وعلى أي حال فان البلاد العربية تنصدر انتاج هذا الزيت بدليل أنه لما أهملت في مصر في أواخر القرن الخامس عشر، صار تجديدها بعد ذلك بأشجار من البلاد العربية . فمذ وفاة السلطان قايتباي ومنطقة المطرية لا تحوز اهتمام الحكومة، وأهملت العناية بالشجرة وانهار محصوله وتجارته ثم دمرت خلال الصراع على السلطنة بين الناصر محمد بن قايتباي وقانصوه خمسية ١٤٩٧ م (٤٩) . وانقطعت زريعته من أرض المطرية حتى ولي السلطنة

(٤٧) — Depping, Op. Cit. I. pp. 73-74.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 576-577.

(٤٨) — Sonia, Op. Cit. p. 15.

(٤٩) يعزى تدمير منطقة زراعة البلسان بالمطرية الى قانصوه خمسية الذي عزل السلطان محمد بن قايتباي وتولى السلطنة بدله ولكنه لم يثبت عليها سوى ثلاثة أيام دعى بعدها السلطان المعزول مرة ثانية . والرحالة هارف عاصر هذه الأحداث ورأى بنفسه الصراع على السلطة « فاعلن قانصوه نفسه سلطانا على مصر بعد أن عزل السلطان محمد ابن قايتباي على أنه من الممالك المشتراة وليس من أولاد الناس الذين لا يحق لهم اعتلاء العرش مثل ابن قايتباي وكانت العادة أن يعتلي الحكم ابن السلطان المنوفى ويبقى به حتى يستقر الأمر على سلطان من الممالك المشتراة . ولاحظ هارف أن هذا الأمر لا يهم الوطنيين بل يهم الممالك وحدهم وان كان الخراب والدمار يقصيان الأمل . وبعد ثلاثة أيام استطاع محمد بن قايتباي أن يسترد السلطة وفر قانصوه ليلا وتسلسل وأعوانه الى المطرية حيث مزعة السلطان من أشجار البلسان ورثها عن أبيه فاقتلع أعوانه الشجر الصنبر ودمروا السواقي وذبحوا الثيران وسووا الأرض في المنطقة المقدسة ، وشاعدها

قانصوه الغوري » وتكدر السلطان لذلك ولا يزال يفحص أمره حتى أحضر اليه بلسان برى من بعض أماكن الحجاز وهو في طينه فزرعه بالمطرية في المكان المشهور به فنتج وطلع لما سقى من ماء تلك البئر التي بالمطرية وطلع ما كان قد بطل أمره من مصر فعذ ذلك من محاسن الملك الأشرف الغوري (٥٠) . ثم حدث بعد ذلك أن بعض المخربين جردوا الحديقة من أشجارها مرة أخرى ونسبوا ذلك لبعض الأجانب، وبدأ الناس يقطعون أشجارها ويستعملوها للحريق حتى استولى الأتراك على مصر فاعتنوا بها وبدأ ظهورها مرة أخرى ، ولو أن لونه أصبح أشهب ، ويعرف الجديد باسم بلسم مكة لأن شتلته منها (٥١) . ومصر وحدها هي التي كان ينمو بها شجر البلسان الأنثى . أما الشجر الذكر فينمو في إيران وبلاد العرب وانتاجه أقل من الأنثى ولونه أشهب (٥٢) وكان الكيميائيون في أسبانيا والصيدلة في القرن الخامس

مارف بنفسه على هذا الوضع المؤثر وحمل احداها معه ويقول ان الأمل أجروه بأنه لن ينمو بلسم منذ الآن الى عشر سنوات قادمة »

— Harff, Op. Cit. pp. 104, 105-127, 128.

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 578.

— Dopp, Op. Cit. p. 30.

(٥٠) ابن اياس : المصدر السابق : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٤٩ حوادث ذي الحجة

١١٤ هـ .

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 578.

— Dopp, Op. Cit. pp. 29, 30.

(٥١) من الرحالة الأجانب الذين شاعدهوا آثار التخریب مارتن دو باوم جارتز

Martin De Baum Garten وبيير مارتير دا انجلييرا Pierre Martir D'Angliera

— Heyd, Op. Cit. T. II. p. 579.

— Clerget, Op. Cit. p. 352.

(٥٢) البلسم النقي بلون الذهب واذا وضع في الماء غاص للقاء والانواع الاخرى

شهباء بالمحقق رقم (٦٤) فقرة (٢) .

— Lopez, Op. Cit. p. 349. DOC. 175.

— Day, Op. Cit. p. 79.

عشر يعرفونه باسم «حب البلسان» وعرفت هذه الأنواع فيما بعد في منتصف القرن السادس عشر (٥٣) .

ومن أنواع السلع التي كثر استخدامها في صناعة العقاقير الطبية في العصور الوسطى الكافور وعرق الكافور ، وترجع معرفة العرب له إلى أيام فتوحاتهم الأولى في فارس ويرد إليها من الهند وجزر الهند الشرقية ويحصلون عليه بعد أحداث شق في الشجرة فيسيل السائل في أوانى وأحيانا يحصلون عليه من قلب الشجرة نفسها ، ويرد للتجار العرب خاما أو نقيا وله أنواع وآلوان وخواص شتى حسب مصادره . وأفضل أنواعه ما يرد من سومطرة والصين وجزر بورنيو ، ولم ينتبه الأوروبيون لكافور هذه الجزيرة إلا بعد وصول البرتغاليين إليها وكان كافورها يصل قبلا للهند عن طريق ملقا (٥٤) . ويذكر المؤرخون العرب ورحالتهم أن تجارته بالهند ضخمة حتى أن الواحدة منها تظلل مائة رجل وأكثر ولا يوجد بها السائل الكافورى إلا في أوقات معينة من السنة حيث يثقب وسط الشجرة وتسلأ منه الأوانى ثم تسد ، وأجود أنواعه ما يسمى باسم المقاصيرى (٥٥) وهناك نوع آخر فى سيلان وجزر الهند الشرقية والصين وسوفا له يعرف باسم الرياحى الأبيض (٥٦) . أما العرب الأوروبى فكان يحصل على الكافور فى

العصور الوسطى من اليابان وجزر فرموزا ويستعمل العرب كافور بورنيو . وقد قلت كمية الكافور فى العصور الوسطى بسبب سوء استعمال الأهالى للشجرة وترك السائل ينزف منها دون سد ثقوبها . وتستخدم الهند كميات كبيرة منه فى تحنيط الجثث وتعطير . المعابد والتماثيل : كما كان يصدر بعضه للبلاد العربية وأوروبا وسعر الكافور يتضاعف عند نقله خارج موطنه لمصاريف النقل والجمارك وبخاصة فى القرنين ١٥ و ١٦ م حيث كثر الطلب وقل المعروض ، وعنده تجارته إلى غشه ، وأصبح النوع المتداول لا يفى بالأغراض الطبية المطلوبة (٥٧) ويشترط فى الكافور أن يكون أبيضاً نظيفاً غليظ القوام (٥٨) . ويذكر مع الكافور عرق الكافور ويرد للغرب من شرق البحر المتوسط ويبيع على أنه الكافور الوارد من الشرق الأقصى والهند ومصدره كذلك سنغافورة وجاوة (٥٩) .

ومن هذه السلع أيضا ثمرة ذات نواة من نوع فواكه الخوخ والبرقوق وهى الهند شعيرة المعروفة باسم الاهليج وتشل فى العصور الوسطى إحدى السلع التجارية كثيرة الاستخدام فى الطب . ويذكر الرحالة الشرقيون والغربيون خمسة أنواع لها (٦٠) . ومصدرها الهند

(٥٧) كثر استعمال هذا النوع فى الطب وكثر وجوده فى حوانيت الصيدالة فى العصور الوسطى « العطارين » فى مصر وأوروبا وعرف الغرب خواصه عن العرب واليونان فأكثروا استعماله فى عباداتهم .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 594 & ff ;

— Sonia, Op. Cit. p. 17.

— Depping, Op. Cit. I. p. 143.

— Day, Op. Cit. p. 80.

— Lopez, Op. Cit. p. 349, DOC. 175.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 676.

(٥٨)

(٥٩)

(٦٠) يذكر الجزرى : المصدر السابق ورقة ٤١٧ « أن المعروف منه أربعة فقط : الأسفر وهو الفج ، والأسود وهو البالغ ، والكابل الأكبر ، والصينى الرقيق ، وأحسن الأنواع الشديد الصفرة الضارب للفضة . وهو يفيد فى علاج أمراض المدة والأمعاء والبصر ، ولتحضيره كعلاج طبى يمزجون ٣ أنواع منه يطلق عليها اسم Triphala .

(٥٣) استقصى الرحالة بيلون Belon عام ١٥٤٩ عن نوع حب البلسان Grain de Baum فعرف أنها زراعة من تصف قرن تقريبا مضى من أصول من مكة والمدينة .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 579.

— Heyd, Ibid. II. pp. 592-593.

(٥٤)

(٥٥) الجزرى : المصدر السابق ورقة ٤١٧ و ٤١٨ « يذكر أنه يفيد فى تقوية الاعصاب والقلب والكبد ويذهب الرطوبة » .

(٥٦) ابن البيطار : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٢ و ٤٣ . ويعرف نوع منه باسم الرياحى نسبة إلى أول من عرفه .

— Ferrand, Op. Cit. II. p. 112.

وأفغانستان وخراسان وأكثر أماكن نسوها ، ساحل الملابار بالهند وخاصة منطقة كولام . وفي الشمال تمتد مناطق زراعته حتى كابول في أفغانستان . ويحصل الغرب الأوربي على حاجته من هذه المادة من أسواق الاسكندرية التي يصلها من قاليقوت ومنجالور . ويجب الهند هذا التابل لمقدرته على الهضم وشفاء أمراض المعدة والأمعاء . وظل الأهلليج هذا الفترة طويلة على رأس قائمة عقاقيرهم الطبية (٦١) ولما كثر استعماله ارتفع ثمنه حتى أمكن الاستغناء عنه بعقاقير أخرى أكثر استجابة من هذا النوع في شفاء الأمراض . وفيما بعد اقتصر استخدامه على الصبغات (٦٢) .

وهناك سلعة عقاقيرية أخرى اقتصر استعمالها في الشرق هي « خيار شبر أو خيار شبر » . وقد أتيج لتجار الغرب المارين بالاسكندرية أن يروا هذا النبات مزروعا في حدائق الاسكندرية وحول المدينة . وهو نبات غريب عنهم وتستعمل الأجزاء العليا من ساقه حتى البراعم وتدخل في صناعة العقاقير الطبية (٦٣) . وتباع في أسواق القاهرة والاسكندرية ودمياط كما تجود زراعته في جميع أراضي مصر (٦٤) . ويذكر رحالة العصور الوسطى هذا النبات كأحد أشجار

(٦١) Heyd, Op. Cit. II. pp. 640-641.

(٦٢) Heyd, Ibid, II. p. 643.

(٦٣) يستعمل في الطب كمدر للصغراء وتسكين آلام الأورام وضيق الصدر كما يفيد في آلام المفاصل .

الجزري : المصدر السابق ورقة ٤١٦ .

ابن البيطار : المصدر السابق ص ٨٢ .

(٦٤) يذكر ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ٨١ أن هذا الشجر مألوف ويعرف في الاسكندرية ويحمل الى الشام والبصرة .

ويذكر الجزري : المصدر السابق ورقة ٤١٦ أنه لا ينبت الا بأرض مصر وأجوده ساقه البراق الأملس القشرة .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 602.

الهند ، وبخاصة في كانانور وقاليقوت وجاوة . ويساورنا الشك الكثير في وصول (خيار شبر) الى أوروبا عن طريق مصر من الهند لتوافره في مصر والواقع أن وصوله للغرب من الهند كان بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح وانهيار الطريق البحري من البحر الأحمر ومصر (٦٥) . وحجم شجرته قدر حجم شجرة الجوز وورقه كورقته الا أنه أصغر قليلا وزهره يظهر في شهر سبتمبر (٦٦) .

ويمثل الراوند أحد السلع الرئيسية في صناعة العقاقير (٦٧) . ويعرفه العرب من قديم الزمان ويرد بكثرة من الصين كما يوجد كذلك في جبال أوران وتزخر به مناطق واسعة من وسط آسيا ويصل منه لأوروبا أنواع عدة منها الروسي والتركي والصيني وأنواع من خراسان والتب والهمالايا ، وطريق البحر الأحمر هو طريقه الطبيعي وهم يفضلون في أوروبا النوع الصيني ويجسه الصينيون من صحراء بلاد التار . وكانت البندقية تتلقى كميات كبيرة منه من البحر الأسود (٦٨) .

وهناك نوعان آخران من السلع التي تستخدم في صناعة العقاقير الطبية وكثر الطلب عليها في الشرق والغرب وهي العفص والمن .

(٦٥) يذكر البغدادي : المصدر السابق ص ١٧ « أنه يشبه شجر الخروب . الشامى وزهره أصفر كبير ذو رائحة بهجة فاذا عقد تدلى ثمرة كالقراع ، وأفضل أنواعه الغليظ والثقل ولا تحدث بذوره صوتا عند دحكها ويجب أن يكون ساقها كاملا وألا يتقشر لحاؤها » .

— Heyd, Ibid, II. p. 603.

— Lopez, Op. Cit., p. 349, DOG. 175.

(٦٦) ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ٨١ .

(٦٧) الجزري : المصدر السابق ورقة ٤٦٢ يذكر أن « من أنواعه الصيني والخرساني ويفيد في أمراض المعدة والكبد والكلى ولونه أخضر كالزبرجد لبن المجس ويتكون من معدن النحاس ومن عجيب أمره أنه يصفر بصفاء الجو ويتكدر بكدرته » .

ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ١٣٠ .

— Day, Op. Cit. p. 80.

(٦٨)

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 666-667.

— Depping, Op. Cit. I. p. 145.

ويتكون الأول عندما تثقب حشرة فرع شجرة القرو أو أى شجرة أخرى من أشجار الصبغة من نفس العائلة ولونه أخضر غامق نوعا وأسوأ أنواعه الأشهب ويأتى به من اليونان وآسيا الصغرى كما يصل الى الاسكندرية من بلاثيا Palatia وجاليوبولى وسلايا وكاندالور (٦٩) . أما المن فسن حاصلات بلاد العرب وما جاورها وهو أجود الأنواع المعروفة ، ويفضلون النوع الذى يسقط على الحجر ومركز تجعته فى مكة وتنسب وثائق العرب الحديثة تسيته الى مكة لذا يعرف باسم ماكينيا Machina كما أثبتت البحوث الحديثة الطيبة أن أجود أنواعه هو المكى ومن شبه جزيرة سيناء حيث يجعته الأهالى ويصدرونه للقاهرة والاسكندرية وأوربا . وهو يعتبر سلعة غابرة لأوربا من القسطنطينية وقاماجوستا ومصر والشام . ولما كان يرد معظم كسباته من الشام فقد ساد الاعتقاد أنه احدى حاصلاتها . وعلى أى حال فاز صيادلة وأطباء العرب الأوربي ألحوا فى طلب المن العربى . وفى فترة انقطاع الصلة مع العرب ، كان الغرب يحصل على حاجته منه من جزيرة صقلية (٧٠) .

ومن بين الغلات الطبيعية الشرقية التى كثر تداولها فى الغرب وبخاصة للأغراض الطبية « العود الهندى » المعروف بالصبر الكبدى وأحيانا يطلق عليه اسم العود فقط أو الصبر فقط . وهو ينمو طبيعيا فى جزيرة سقطرى على مشارف الطريق من الهند الى شرق افريقية والبحر الأحمر ، وهو ثلاثة أنواع ، كل نوع له لون يتميز به وبخاصة فى الطب تختلف عن الأخرى ، فمنه نوع يميل لونه الى الأصفر الليمونى المشوب بالحمرة ، والنوع الثانى لونه أصفر غامق ، والثالث لونه أصفر

كالح . وأعطيت الأولوية فى التجارة العالمية للعود الليمونى الأصفر المشوب بالحمرة ، ويعرف فى كتب الطب القديمة ولدى الصيادلة بالعود الرقيق . أما النوع الثانى الغامق فيرد ذكره بكثرة فى كتب العصور الوسطى المختصة بالتجارة والرحلات ، ويرد ذكره كذلك فى الاتفاقيات والمعاهدات الخاصة بالجبارك ورسومها مع الكثير من السلع المحددة رسومها لأهميتها التجارية . وأحيانا يؤخذ اسمه من لونه فيقال له « العود الكبدى » تمييزا للونه عن غيره . أما النوع الثالث ذو اللون الباهت فيندر ذكره لقله قيمته وندرته استعماله (٧١) . وأشهر مناطق انتاجه علاوة على جزيرة سقطرى وحضرموت فى بلاد العرب . وفى كسبى والبنجال بالهند . أما فى الغرب الأوربي فقد وجدت أنواع منه فى أسبانيا وجزر اليونان وجنوب إيطاليا وان كانت أقل جودة من النوع السقطرى . وهذا النوع يرد ذكره بكثرة فى كتب رحالة وجغرافى العصور الوسطى العرب والأجانب ، وامتاز عن سائر الأنواع بالجودة ورخص السعر . وقبل وصول البرتغاليين الى الهند كان يصل لأوربا عن طريق مصر وسوريا وقبرص وعرف باسم عود سقطرى (٧٢) .

(٧١) يذكر هايد « ان النوع الأصفر الليمونى احسن الأنواع واشهرها وأكثرها

استعمالا » .

— Heyd, Op. Cit. II, pp. 563-564.

حين ان لويز يذكر أن (العود الكبدى) وهو النوع الثانى من حيث اللون وانسلف اجود الأنواع وخاصة اذا كان خاليا من الشوائب الجفدية وهو غامق لون الكبد . وأحيانا يكون كلون القار الاسود لاما ، كما ان اللون البنفسجى دليل الجودة » .

— Lopez, Op. Cit. p. 348, DOC. 175.

(٧٢) يذكر الجزرى : المصدر السابق ورقة ٢٢٢ و ٢٦٥ « ان الصبر السقطرى ساه كماء الزعفران ورائحته كالزهر والعود الهندى منه يفيد طبيا فى أمراض الصدر وسقوط الشعر » .

ويذكر ابن بطوطة : المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٥ « انه يشبه شجرة البلوط وأوراقه كالأوراق ولا ثمر له وقشرته رقيقة وعيدانه وورقه غير عطرى » .

— Heyd, Op. Cit. II, pp. 560-561.

— Ferrand, Op. Cit. II, p. 447.

— Heyd, Op. Cit. II, p. 644.

(٦٩)

— Clerget, Op. Cit. p. 353.

— Heyd, Op. Cit. II ; p. 633.

(٧٠)

ومن السلع التي استخدمت كثيرا في الطب والطعام الجبهان وجور الطيب والأول من المواد المتداولة بكثرة في العصور الوسطى في أوروبا كدواء وعرفت فوائده عن العرب ، والفرس كما أضيفت الى الأطعمة كتابل لحفظها ، وخاصة في الغرب المسيحي لطول الصوم عندهم . ويصل لأوروبا عن طريق الاسكندرية . وفي التجارة يفرقون بين ثمرة الجبهان الخشبية ، وتلك التي تجلب من الحدائق ، ولا تزال هذه الميزة موجودة حتى الآن . ويرد الجبهان من الهند الصينية وكانانور وقالقوت وأجوارهما (٧٣) .

أما جوزة الطيب فتابل معروف من قديم الزمان في التجارة الشرقية ومصدرة الهند وجزر الساحل الشرقي ، وثمرته لها قرون مثل قرون الترنفل وأحسن أنواعه ما يرد من جاوة وسومطرة وبورنيو وجزر الهند الشرقية . ويرد لبغداد من أسواق سلطانية وسمرقند ويصل لأوروبا من الهند بطريق البحر الأحمر وعدن ويستخدم في الأغراض الطبية والطهي وتحضير الخسور . وزادت أسعاره أواخر القرن الخامس عشر لقلة المعروض منه في مصر وأسواقها حيث بلغت أثمانه عامي ١٥١٠ و ١٥١١ ضعف ثمنها قبل ذلك . وفي سجلات البلاط الفرنسي في ذلك الوقت أن نصف الرطل من جوزة الطيب يساوي ١٢ دينارا (٧٤) .

ولا تذكر الجواهر الطبية في العصور الوسطى دون الاشارة الى مادتي التوتيا والزعفران . فالتوتيا حجر له ألوان عدة منها الأخضر والاصفر والابيض ويجلب من الهند ، وأجسود أنواعه الابيض ثم الاصفر ثم الفستقي وهي معروفة عند العرب ، وعندهم عرفها الغرب ، ويذكر حجر التوتيا دائما مقرونا بالاسكندرية ، وان كان مصدره ايران

- (٧٣) — Heyd, Op. Cit. II, pp. 601, 602.
— Day, Op. Cit. p. 80.
(٧٤) — Heyd, Op. Cit. II, pp. 644-645-646-648.

وخاصة كرمان وأصفهان ، كما يوجد كذلك في الهند والصين . ففي أجوار أصفهان توجد مناجم الزنك وهي التوتيا الطبيعية ، وشبه جزيرة ملقا غنية بهذا الحجر بصورته الطبيعية وبها مصانع لتثقيته واستخلاصه . ويصل لأسواق فارس نوع معين منه يعرف باسم « حجر الصين الحديدي » وفي الهند أمام كباي توجد جزيرة بها حجر التوتيا ، ويرسل بكميات كبيرة لمختلف الأقطار الاسلامية . وتستخدم التوتيا بعد تثقيتها في تحضير سوائل العلاج لأمراض العيون كما أنه نافع للقرح السرطانية (٧٥) .

أما الزعفران أو الكركم فقد عرف في أوروبا من مصادر في شرق البحر المتوسط وايران . ويزرع منه نوع في أسبانيا جلب بذوره العرب بعد فتح الأندلس ، وبذلك توفر في أسواق أوروبا دون الحاجة الى جلبه من الشرق وكانت مصر وقبرص أحيانا تستوردانه من أوروبا . وزعفران أسبانيا يفضل عن غيره ، وإن كان زعفران ايران أميز منه ، ويعرف في أسواق أوروبا باسم زعفران أصفهان ، وزعفران همدان وزعفران حلوان . وأطباء العرب يعرفون الزعفران من قديم الزمان ويستخدمونه في العلاج الطبي ، كما أن أطباء العصور الوسطى كانوا يصفونه كثيرا كعقار طبي (٧٦) . واستخدم كذلك في الطهي والعطور وألوان الرسم لتعدد ألوانه بعد خلطه بغيرها (٧٧) . وتشير وثائق

- (٧٥) الجزري : المصدر السابق ورقة ٣٨٤ .
ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ١٤٣ - ١٤٥ .
يزرك : عجائب الهند بره وبحره ص ١٧١ .

- Heyd, Op. Cit. II, pp. 674-675.
— Ferrand, Op. Cit. p. 586.
(٧٦) — Heyd, Op. Cit. II, pp. 668-669.
— Clerget, Op. Cit. p. 343.
— Clive, Op. Cit. p. 82.

(٧٧) « يستعمل الزعفران الاصفر النقي والزعفران العربي المسمى « الورس » في التلوين ، وهو يشبه السمسم ويكثر باليمن ، وكانت جمال اليمن تحمل الزعفران الى الشمال فيصفر لونها بتأثير لون أحماها من الكركم » .

العصور الوسطى المتأخرة إلى كثرة غش الزعفران (٧٨) .

ومن السلع - ان صبح أن تسمى سلعة - التي كانت تلقى رواجاً في شرق البحر المتوسط وخاصة في دولة السلاطين المماليك - الرقيق - الأبيض والأسود . ويصل للقاهرة من أسواق آسيا الصغرى وأوروبا وأفريقية ، وقد لجأ المماليك إلى شراء الرقيق الأبيض من مواطنه في الشمال منذ منتصف القرن الثالث عشر لتكوين جيوش محاربة منهم بالإضافة إلى رغبتهم في تزويد قصور الحريم عندهم بالعنصر النسائي وتجديدهن من حين لآخر . ويرد مبعوثو المماليك كل الأماكن التي يستطيعون الحصول منها على الرقيق من الجنسين حتى من البلاد المسيحية ، ثم يعتنقون الاسلام ، وان كانوا أحياناً كثيرة يفضلون الرقيق من الأقطار الاسلامية في وسط آسيا (٧٩) . على أن أهم مصادر هذا النوع من المتاجر ، ان حق أن يقال انه سلعة تباع وتشترى ، فهو بلاد الاغريق (٨٠) ، وحول بحر قزوين - وأرمينيا - ومناطق البحر الأسود ، وفارس ، وآسيا الصغرى ، وبلاد ما بين النهرين وبلاد التتار . وبلاد القوقاز والجرس . ومن عادة قبائل هذه البلاد بيع الآباء لفلذة أكبادهم وخاصة الفتيات إذا أعوزهم الجوع وثقلت

متر : المصدر السابق (مترجم) ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٧٨) كثرت الشكاوى أواخر العصور الوسطى من غش الكرم وقد فحص مفتشو مجلس مونتيببيه رسالة كرم واردة من قناتونيا وقرروا انها مشوشة وغير صالحة للبيع ، انظر :

— Lopez, Op. Cit. pp. 270-271. DOC. 141. Chap. 17.

(٧٩) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر المماليك ص ١١ وما بعدها .

— Heyd, Op. Cit. II, pp. 555.

— Clive, Op. Cit. pp. 78.

(٨٠) وصل عنهم إلى السلطنة خشتقم الرومي ٨٧٢/٨٦٥ هـ ١٤٦٠/١٤٦٧ ونريد

في جماد أول - رجب ٨٧٢ هـ - ١٤٦٨ م .

— Depping, Op. Cit. II, p. 298.

— Heyd, Op. Cit. II, p. 556.

عليهم الضرائب . ولم يلق رواجاً منهم سوى سلمي البنية أو جميل القسرات (٨١) . وتركزت تجارة الرقيق في ميناء « كافا وتانا » على البحر الأسود ويخضعان للجمهوريات الإيطالية التجارية . إذا كان اتجاه وكلاء سلاطين مصر إلى هذين الميناءين وخاصة الأول منهما حيث خصصه الجنويون المسيطرون عليه لتجارة الرقيق وحده . ومارس الجنويون هذا النوع من التجارة لحساب السلاطين المماليك منذ القرن الرابع عشر وحصلوا على الرقيق من الشركس والقوقاز والروس والأمم الأخرى المجاورة وباعوهم بأسعار مرتفعة (٨٢) ولما بدأت تجارة جنوة تنهار بعد ضياعها لفرنسا وانتقلت تجارة الرقيق إلى البندقية تولى تجارها شراء العبيد بأسعار رخيصة وباعوهم للسلاطين بأسعار مرتفعة وربح مجز وكان هذا النوع من التجارة من عوامل ثراء البندقية وخاصة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حين ازداد الطلب من السلاطين المماليك للعبيد لتزويد فرقهم وجيوشهم بهم (٨٣) . وكثيراً ما هدد السلاطين المماليك البنادقة والجنويين بتدمير تجارتهم إذا امتنعوا أو تلاعبوا في توريد الرقيق (٨٤) . وبعد عودة العثمانيين من

— Depping, Op. Cit. II, p. 298

(٨١)

— Heyd, Op. Cit. II, p. 556.

(٨٢) نصت المعاهدات بين السلطان برسباي والجنويين عام ١٤٢١ على أن تقوم جنوة

بتزويد السلطان بالعبيد وتنقلهم على سفنها الخاصة ، وقد وصل إلى كافا شخصية جنوية كبيرة ، وكان مقيماً بالقاهرة ليقوم بصفة رسمية بتسهيل جمع ونقل العبيد لمصر .

— Dopp, L'Egypte Au Commencement Du 15ème Siècle Fo. 39, pp. 64-65.

— Depping, Op. Cit. II, p. 208.

— Heyd, Op. Cit. II, pp. 557-558.

(٨٣)

— Depping, Op. Cit. I, p. 56.

(٨٤) حدث خلال حكم السلطان برسباي ان حاول الجنويون التحكم في هذه التجارة

فصالحهم مما رأى معه برسباي حدوث أضرار بالنسبة للسلطنة ففرض غرامات شخمة . وهدد بتدمير وكالاتهم في بلاده وبلغت الغرامات حوالي ١٦٠٠٠٠ ذوك .

— Heyd, Op. Cit. II, p. 558.

أوروبا عام ١٤٦١ الى آسيا الصغرى على عهد السلطان محمد الثانى العثمانى ، واستيلائهم على الولايات والامارات التركمانية فى شمال العراق وأرمينيا ، وما نتج عن ذلك من سد الطرق والمنافذ للتجارة — ولا سيما بعد سقوط امبراطورية طرابزون وموانئ التجارة على البحر الأسود فى يدهم حيث مراكز تجسع الرقيق ثم سقوط ولايات كرمان ودلغادر ومرعش وغيرها على عهد السلطان بايزيد الثانى العثمانى وسليم الأول العثمانى ، وهى طريق مرور العبيد الى الشام — قل ورودهم الى مصر . وكان هذا على رأس أسباب الجفوة بين الممالك والعثمانيين (٨٥) . ولما سيطر العثمانيون على هذه المناطق والطرق المؤدية الى مراكز جلب العبيد ، تحكسوا فى تجارتها واشتروا ألا تحمل السفن رقيقا من المسلمين ، ورفضت جنوة من جانبها نقل العبيد من المسيحيين ووافقت على نقل المسلمين منهم على سفن مؤجرة لحساب سلطان مصر وعلى مسئوليته ويقتصر عملهم هنا على الشراء فقط . وبالرغم من ذلك وصل الى القاهرة أعداد كبيرة أحيانا من الرقيق المسيحيين والمسلمين على السواء (٨٦) .

على أن المتاجرة فى الرقيق عامة والمسيحيين منهم بصفة خاصة كان مثار سخط ومعارضة البابوية فى روما واتهم البابا يوحنا الثانى

(٨٥) عمل العثمانيون منذ استيلائهم على امبراطورية طرابزون عام ١٤٦١ على منع توريد الرقيق للممالك حتى لا يقوى جانبهم ، كما أنهم كانوا يعملون فى الوقت نفسه على تزويد جيوشهم بحاجتهم من الانكشارية من هذا المصدر وعلم الممالك بما فعله العثمانيون الذين تمللوا كذلك بحجج واهية لمنع بيع الرقيق من المسلمين مما أدى الى مشاكل بينهما على عهد السلطان بايزيد الثانى وسليم الأول اللذين وشما نصب أعينهما حرمان الممالك من هذا المصدر الذى يقوون به انفسهم .

— Varthema, Les Voyages De..., pp. 17-18 & R. I.

(٨٦) كان الجنويون يعمدون كثيرا الى الخديعة والتحايل فيحملون على سفنهم رقيقا من الطائفتين ولكن يؤجرون هذه السفن للمصريين حتى يتفادوا سخط الاتراك المارة فى موانئهم أو فى طرقهم البرية ، وسخط حكومتهم التى حرمت المتاجرة فى الرقيق المسلمين . وكان للبنادقة أسطول خاص بالرقيق المصرح به والمهرب . وذكر قس جنوى عام ١٤٥٥ وهو Parthelemi Parete أن جنوة اجرت سفنا للمصريين تحمل رقيقا مسلمين ومسيحيين .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 558.
— Depping, Op. Cit. I. p. 208.

والعشرون تجار جنوة وحكومتها بأنهم بهذا النوع من التجارة يعززون قوة العرب العسكرية ضد المسيحيين الغربيين (٨٧) . وأدلى اليهود بدلوهم فى هذه التجارة فكانوا يشترون العبيد الروس والمغوليين والشركس من كافا ويبيعونهم بسعر يبلغ عشرة أمثال ثمن الشراء للمسلمين فى أسبانيا ، واضطر هؤلاء الرقيق الى ترك دينهم ما جعل البابا يعلن حرمان من يقوم بهذه التجارة الشائنة من رحمة الكنيسة ، وأمر بترقيم ملابس اليهود المتهمين بممارسة هذه التجارة (٨٨) .

ومن مراكز تجارة العبيد البيض أيضا تركيا نفسها وبخاصة فى جاليبولى ومنهم الألبان والسلاف والصربيون (٨٩) . وشملت هذه التجارة كذلك رقيقا من افريقية ، ولصلة البرتغال الوثيقة بافريقيا فانه منذ عهد الأمير هنرى الملاح وتجارة الرقيق العبيد تأخذ طريقها الى أوروبا برغم التحريمات البابوية ، وبرر ملوك البرتغال هذا العمل منهم بأن الرقيق وثيون ، وانهم يعملون على تحويلهم الى المسيحية (٩٠) .

واذا كانت هذه التجارة قد قامت على أكتاف البنادقة والجنويين فاننا قليلا ما نجد هذه السلعة ضمن قوائم تجارة بيزا وفلورنسا لشدة تعلقهم بالبابوية ، واتباعهم نصوص تحريماتها . وفى البندقية كثر عدد الرقيق ، حتى أنهم مارسوا التجارة والصناعة المحلية فى البندقية ذاتها ، ومنهم الشركس الذين اتخذوا صناعة الحلوى مصدر رزقهم وبلغوا أقصى أعدادهم عام ١٤٦٣ م (٩١) .

(٨٧) وما قالته البابوية فى هذا المجال . ان المتاجرة فى الناس هدر لآدميتهم وتقوية لاعداء المسيحية .

- Pernaud, Op. Cit. p. 30.
- Depping, Op. Cit. I. p. 179.
- Heyd, Op. Cit. II. p. 558.
- Dopp, Op. Cit. pp. 14-15.
- Day, Op. Cit. p. 79.
- Sonia, Op. Cit. p. 68.
- Heyd, Op. Cit. II. p. 562.

(٨٨)

(٨٩)

(٩٠)

(٩١)

والقاهرة والاسكندرية من أكبر مراكز تجسج الرقيق . فيصلون عن طريق دمياط والاسكندرية فى أعداد ضخمة ، وتختلف أسعار العبد تبعا لحالته الصحية أو سنه أو مصدر جلبه أو وسامته اذا كانت فتاة ، وكان أخيرهم وأعلامهم سعرا التترى حيث كان يصل سعره ما بين ١٣٠ و ١٤٠ دوكا ، ويليئه الشركسى من ١١٠ و ١٢٠ دوكا ، ثم الاغريقى ابتداء من ٩٠ دوكا ، والألبان والسلاف ما بين ٧٠ و ٨٠ دوكا - والعبد الأسود يصل سعره ما بين ١٥٠ و ٢٠٠ درهم . رقله يصل الى ١٠٠ دينار أحيانا ومن له مؤهلات أخرى كالجمال أو القوة أو الغناء أو المهارة بأنواعها فيصل ثمنه الى ٤٠٠ دينار . والشبان أكثر طلبا من الرجال والفتيات أكثر طلبا من النساء . وفى القرن الخامس عشر كان يصل للقاهرة سنويا ما لا يقل عن ٢٠٠٠ عبد (٩٢) . أما العبيد الخصيان فكثروا انتشارهم فى العالم الاسلامى ، وفى دولة سلاطين المماليك ، ومعظم من كان يصل منهم من السودان والوجه القبلى كان يخصى (٩٣) . وبالقاهرة وكالة خاصة باسم الجلالة وهى مركز تجسج الرقيق حيث يستطيع أى فرد أن يشتري ما يشاء من الرقيق الأسود . وخانهم بالقرب من جامع قايتباى ، أما البيض فكان سوقهم فى وكالة كشك وخان جعفر ، وكانت أسواق القاهرة عامرة بهم ، ويتولى المحتسب مراقبة حركة البيع والشراء وكذلك استخدامهم (٩٤) . ويحصل التجار المصريون على عمولة شحن عن نقل الرقيق وخاصة السود منهم ، وبالإضافة الى أسواق القاهرة كانت هناك أسواق رئيسية فى الشام

— Clerget, Le Caire, pp. 340-341, 342.

— Heyd, Op. Cit. 11. pp. 558-562.

— Ency. Of Islam, Art. «Abds».

— Hakhuyt Society, Vol. V. pp. 274 & Vol. VI. pp. 26.

— Clerget, Op. Cit. p. 242.

— Journal Asiatique, T. xvii pp. 30-37.

(٩٢)

(٩٣)

(٩٤)

وفلسطين وأسيا الصغرى (٩٥) . وكان المسيحيون يسعون من شراء العبيد من المسلمين أو استخدامهم (٩٦) ومنذ أن تشدد العثمانيون فى مرور شحنات العبيد عبر بلادهم الى ممالك مصر ، وهذه السلعة تقل فى أسواق مصر والشام ، كما أنها أصبحت تجارة محلية وتحت إشراف المماليك مباشرة ، فكان للسلطان المماليكى أمراء طبلخانات مختصون بشراء المماليك بأنفسهم ، ومنهم جان بردى التاجر على عهد السلطان الغورى ، وقد غضب عليه السلطان لتآمره مع غيره من الأمراء للتخلص من السلطان الغورى وقبض عليه ونفى الى الواح ثم عين « الأمير نوروز أغا آردمر الدوادار » وأقره بدل الأمير المغضوب عليه (٩٧) . ويبدو من هذا الخبر الذى أورده ابن اياس أن كل شىء فى مصر المماليكية فى أواخر سنيها قد أصبح احتكارا حتى العبيد الذين تزود منهم السلاطين . ولجأ المماليك لهذا الاحتكار بسبب حجز العثمانيين للرقيق . ويقال ان من أسباب الحجز اضعاف المماليك ورغبة السلاطين

(٩٥) يعتقد التتار فى فندقهم بالاسكندرية سوقا دائمة حيث يباع الرقيق من الرجال والنسيدات والأطفال وتختلف أسعارهم حسب قيمة العبد وصحته ومصدره فى حدود ١٤ - ٢٠ - ٣٠ دوكات . وقبل شراء الرقيق يفحصون جيدا من أطرافهم للتأكد من سلامة بنيتهم ثم يزايدون على أثمانهم ، وهذا بمثابة بورصة أسعار دائمة طول العام فى فندق التتار - وزار ، هارف خلال وجوده بالاسكندرية سوق العبيد بها ، وسجل ما شاهده فى جلسات المراد .

— Clerget, Op. Cit. p. 343.

— Hakhuyt Society, Op. Cit. Vol. V. pp. 275, 276 & Vol. VI. p. 27.

— Von Harff, Op. Cit. p. xxiii.

(٩٦) حاول أحد رفقاء الرحالة فابرى الذى زار الاسكندر وسوق العبيد بها وفندق التتار وهو الكونت سولز Solms أن يشتري عبدا مسلما من الاسكندرية وحاول مثل هذه المحاولة فى زيارتهما للقاهرة حيث كان يتوفر العبيد المسلمون والمسيحيون من الجنسين ولكن ادارة السوق رفضت لأن الشريعة والقانون هنا يحزمان بيع العبد المسلم للمسيحيين وان كان العكس مقبولا مباحا .

— Fabri, Op. Cit. 111. pp. 164-165.

— Harff, Op. Cit. p. 95, R. 5.

(٩٧) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٩٧ و ٩٨ حوادث ربيع آخر ٩١٢ هـ .

— Hsyd, Op. Cit. 11. p. 562.

طرق التجارة الدولية - ٢٢٥

من آل عشان في الحصول على حاجاتهم من الانكشارية لتقوية جيوشهم لمواجهة أعدائهم المسيحيين في أوروبا ، والصفييين في إيران والماليك في مصر والشام (٩٨) .

ولم تنصر التجارة على التوابل والعقاقير فقط انما شملت كذلك العطور والبخور ومن أنواعها : عود الند ، والمسك ، وخشب الصندل . والعنبر ، والبخور ، واللالن ، والمصطكى ، والبان الجاوى ، وقد ورد معظمها من أسواق الشرق الأقصى ، وفارس ، وبلاد ما بين النهرين في العراق ، وتصل للقاهرة عن طريق البحر الأحمر والشام ، وسوقها رائجة في القاهرة ويرث تجارتها المصريون أبا عن جد (٩٩) . وعلى رأس قائمة الأخشاب العطرية الشرقية « عود الند » ويرد ذكره أحيانا كثيرة في سجلات تجارة الشرق والغرب في العصور الوسطى ويصل منه للغرب قليل لكثرة استهلاك الشرق له . وأشهر أسواقه ميناء زيتون بالصين اذ كان الصينيون يكثرون حرقه في معابدهم أمام الآلهة . وفي الهند يستعمل لنفس الغرض ، كما أن بعضه يذهب لخزائن الأمراء ، والبعض الآخر للأسواق ، ورغم أن الغربيين لم يقبلوا على عود الند ، كعطر من العطور ، مثل ما فعل الشرقيون في العصور

(٩٨) يبدو أن منح العثمانيين للرفيق عن المالك كان عمدا لاضافتهم كقائمة لغزو مصر وكذلك لسد حاجة جيوشهم من الانكشارية وقد وضع هذا من خلال رسالة السلطان سليم الأول العثماني للسلطان المالكى الفورى الذى تسلمها عن طريق خاير بك ، وفيها يقول للفورى « أنت والدنى وأسالك الدعاء ... وانى ما زحقت على بلاد علاء الدولة الا باذنك .. أما التجار الذين يجلبون المالك والجراسكة فانى ما منعتهم انما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فامتنعوا عن جلب المالك اليكم وان البلاد التى اخذتها من علاء الدولة أعيدما اليكم ، وجميع ما ترونه فعلناه » .
- ابن اياس : المصدر السابق ج ٥ ص ٥٨ - ٥٩ حوادث ٩٢٢ هـ .
على أن الحوادث دلت على أن هذا الكلام خدعة من سليم الاول وخيانة من خاير بك قصد بها التعمية .
زيادة : نهاية دولة سلاطين المالك من ٢١٦ .

Clerget, Op. Cit. pp. 355-356.

(٩٩)

الوسطى حتى المتأخرة منها ، فان الند كان يدخل كذلك فى القوائم حسن المواد المطلوبة للعقاقير الطبية ، كما كان يدخل فى صناعة الأثاث الفخيم . وكانت أهم أسواقه فى القسطنطينية البيزنطية والعشانية ، وفى القاهرة ، ودمشق ، والاسكندرية ، وبيروت ، وفاما جوستا بقبرص ، حيث توافر فيها بكثرة حتى ان أحد الرحالة لاحظ وجوده فى دكان عطار بكسية تزيد على حولة « خمس عربات كبيرة » (١٠٠) . أما مصادر هذا العطر الفخم فيذكر رحالة العرب وجغرافيوهم أنه من اقليم « كسرونى Kamrony بين الهند والصين . ولعلها مملكة الهند القديمة . وهذا النوع هو أجود الأنواع على الاطلاق ، وذكر أن مصادر من آسام الغربية وهى لا تزال ليومنا هذا تنتج هذا العطر ، كما أن جزيرة سيلان تنتج أنواعا منه لا تقل أهية وجودة عن عود ند آسام . وند جاوة أفخر الأنواع على الاطلاق ، ويحمل على ظهر الأفيال لمراكز التصدير ، وعرف هناك باسم خشب كاكولا Bois De Kakoula وهى وعلى كل حال فقد نقله العرب من مصادر انتاجه فى جزر الهند الشرقية وسيلان والهند الصينية الى مصر والشام والغرب الأوروبى ، وشاهده البرتغاليون فى نفس هذه الأماكن وأطلقوا عليه اسم Kalam Bouk وهى احدى مناطق الهند الصينية (١٠١) .

ومن العطور النفاذة الزكية الرائحة : المسك وهو انتاج حيوانى يؤخذ من الحيوان المعروف باسم قط الزباد « (١٠٢) . ويوجد المسك

— Heyd, Op. Cit. II, p. 581.

(١٠٠)

(١٠١) من فوائده علاوة على استعماله كعطر زكى الرائحة ، اضافته للنبذ فيفيد فى تهدئة الانفعالات النفسية والازمات القلبية .

— Heyd, Op. Cit. II p. 588.

— Sonia, Op. Cit. p. 15.

(١٠٢) هذا الحيوان نوع من الظباء ويعيش فى التبت والصين ويرعى الحشائش وله تابان معقوفان كانياب الغيل ويعرف باسم .
Muschferus — Musculus — Musc Male.

في غدة في بطن هذا الحيوان عند سرتة . فإذا ما حكها في الحجر انفجرت وأفرغت ما بها ويخرج التجار يجمعونه من رائحته العبقة الزكية . وأحيانا تصاد غزلان المسك بعد أن تنصب لها الشباك حيث توجد في المنطقة الممتدة بين التبت والصين . ومسك التبت يفضل مسك الصين لغنى مرعى التبت ، كما أن مسك الصين كثيرا ما يغش . وتوجد انواع أخرى في سيلان وجاوة وجزر اليابان . ويرد كثير من تجار العرب الى الجزء الشرقي من الهند سعيا وراء أفضل الأنواع النقية وينقلونه الى أوروبا سواء أكان نقيًا أم مغشوشا (١٠٣) . والعرب والفرس يكثر من استعمال المسك ، ويصل مسك الصين لغرب أوروبا وآسيا برا وبحرا ، ولطول المسافة يفقد جودته أحيانا . أما مسك التبت فيصل بطريق البر وأحيانا بطريق البحر - وعدن سوقه الطبيعي . والمسك الذي يصل لفارس يسر أولا بالتركستان ويفرغ حصوله في الخليج الفارسي في ميناء دارين Darin بالقرب من البحرين ، لذا كان يحل اسم المسك الداريني Musc Dariny (١٠٤) . وكميات المسك التي تصل لغرب أوروبا عن طريق غرب آسيا تسلك سبيل القوافل والطرق البرية والبحرية التجارية وقد امتلأت أسواق المدن على هذا الطريق بالمسك الزكي الرائحة (١٠٥) . ومع وجود البرتغاليين في الهند الا أنه كان يصل عن طريق موانئ مصر ويبروت كذلك ، فينقل أولا الى ملقا ومنها يعاد تصديره الى عدن ، فلاسكندرية أو الخليج

(١٠٣) الجزري : المصدر السابق ورقة ٢٤١ .

ابن البيطار : المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٥ (يذكر فوائد الطبية) رينود

سلسلة التواريخ ص ١١٠ - ١١١ .

— Ferrand, Op. Cit. II, pp. 463-464.

— Heyd, Op. Cit. II, p. 637.

— Depping, Op. Cit. I, pp. 41, 42.

— Heyd, Op. Cit. II, p. 638.

(١٠٤)

(١٠٥) ابن البيطار : المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٥ .

الفارسي ويبروت . ومناطق أخرى كانت تتبع الطريق البري الى هرمز (١٠٦) .

ويحصل العرب خلال رحلاتهم الطويلة - تجارا أو رحالة - قطعاً من مادة صلبة ذات لون رمادي تشبه الشمع لها رائحة زكية عطرية نقادة اذا ما احترقت وهي التي تعرف باسم العنبر ، وتحتل مكان الصدارة بين انواع العطور المستازة . وقد اختلفت الآراء حول مصدرها : فكثيرا ما كان يعثر عليها بين أمواج البحر وعلى الشواطئ ووسط الصخور والأعشاب وفي أجسام الأسماك (١٠٧) . ويذكر بعض الرحالة العرب أنه يوجد في قاع البحر وتلفظه الأمواج على شواطئ عدن ، ويذكر آخرون أنه ينسو في قاع البحر كالاسفنج ويلقيه الموج على الشاطئ ، ويكتفى البعض بالقول بأن العنبر من مستخرجات السمك . ويذكر آخرون أنه موجود أصلا في الأسماك (١٠٨) . والعنبر لدى العرب صنفان : أحدهما جيد والآخر رديء ، وتقاس درجة الجودة والرداءة بالنسبة لجزء الجسم الذي وجد فيه العنبر في الحيوانات البحرية ، ويؤكد سكان جزر الملديف واللاكديف من مجموعة جزر أندمان ونيكوبار أن العنبر هو افراز طائر ضخيم وأن رائحته ترجع لنوع الأعشاب التي ياتهمها هذا الطائر ، ويظل جزء منه في هذه الجزر وهو الجزء الأفضل والباقي تحمله الرياح والأمواج الى الشواطئ الأخرى ، وجزء ثالث تبخله الأسماك فتحدث لها عسر هضم وتقيؤه،

— Heyd, Ibid, II, pp. 639-640.

(١٠٦)

(١٠٧) الجزري : المصدر السابق ورقة ٢٢٥ - يذكر الجزري أنه ينبت في بحر

الهند ويأكله السمك ثم يطفو فيسطاهه السيادون بالكلايب الى الساحل ويأخذون العنبر من جوفه . انظر كذلك :

رينود : سلسلة التواريخ ص ١٢ .

— Heyd, Op. Cit. II, p. 571.

(١٠٨)

وهو اردا الأنواع (١٠٦) . ويذكر مؤرخو العرب قائمة طويلة للبلاد التي تنتج العنبر وتتاجر فيه ومعظمها في المحيط الهندي على خط طويل يبدأ من الشاطئ الشرقي لافريقية عند بربرة والزنج وينتهي في الصين وتشتهر جزر الساحل الافريقي بأشهر وأفخم أنواعه . أما مناطق انتاجه الغنية في اقليم سوهار على شاطئ بلاد العرب الجنوبي حيث كان الأهالي يستعينون بالجمال وضوء القمر على اكتشافه ثم جزر كوريا موريا والملاييف واللاكديف وجزر نيكوبار على شاطئ كروماندل شرقي الهند (١١٠) . وهناك نوع آخر يرد من سيلان يعرف باسم Verzin ويعرفه العرب باسم برسيلا (١١١) . ويصل العنبر لأوروبا بطريقتين : أحدهما البحر الأحمر من المحيط الهندي . ومركزه في عدن وجدة ، والثاني الخليج الفارسي حيث كانت تزخر به أسواق بغداد والبصرة . ويحصلون على أنواعه الفاخرة كذلك من أسواق الاسكندرية وفاماجوستا وبيروت والقسطنطينية (١١٢) . ولا يقتصر وجوده على البحار الشرقية ، انما يوجد كذلك في البحار الغربية في أسماك المحيط الأطلسي وشواطئ البرتغال واسبانيا وبحر البلطيق وان كانت أنواعه غير ممتازة ، ويصدر لجميع البلاد حتى مصر نفسها (١١٣) . ويجهز العنبر في صورته التجارية على هيئة قطع

(١٠٦) ابن البيطار : المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٤ - يقول ابن البيطار « ان العنبر روث دابة بحرية ، وينبت في قاع البحر وتأكله بعض دواب البحر ، فاذا امتلأت منه قذفته رجبعا عطر الرائحة » وأجود أنواعه الأشهب القوي السلاطى ، ثم الأزرق ، ثم الأصفر وهو أردؤه » وذكر مثل ذلك ابن الأثير الجزري ٧٨٢ هـ ولكن ابن البيطار يسبقه ٦٤٦ هـ .

— Depping, Op. Cit. I. p. 141.

— Heyd, Op., Cit. II, p. 572.

— Depping, Op. Cit. I. p. 141.

— Dopp, Op. Cit. p. 63.

— Depping, Op. Cit. II. pp. 311, 312

— Heyd, Op. Cit. II. p. 573.

— Dopp, Op. Cit. p. 63.

(١١٠)

(١١١)

(١١٢)

(١١٣)

٢٣٠

صغيرة منتظمة الشكل وعلى هيئة المسبحة . وهو يستخدم في الطب . اذ انه عطر الرائحة منقو للقلب (١١٤) . كما استخدم في شتى الأغراض بكثرة في العصور الوسطى في الشرق . أما صنعه كعطر فكان هوايه كبار الشخصيات في أوروبا ويوضع في جفان خاصة أو أكياس أو صناديق ، وفي الشرق تصنع منه العقود والمسابيح والأزرار والتماثيل كما كان يطعم به الخشب المحفور في بيوت الأمراء (١١٥) .

ومن أخشاب العطور التي شاع استعمالها بكثرة في العصور الوسطى وخاصة في اشرق الأدنى ، خشب الصندل الذي يحتوى على عطر طبيعي نفاذ . وتذكر المصادر من العصور الوسطى ثلاثة أنواع له : منه الخشب الأحمر والأبيض واليسونى ، والنوع الأخير هو العطرى . لذا كثر استعماله في الشرق وخاصة في البلاد التي تتبع طريقة حرق جثث موتاهها ، فكانت تحرق بالخشب المعطر في أثناء الاحتفال الدينى وتعطر بها الأجسام ضمن ما يوضع بها من عطور وروائح . ولذا غلا ثمنه وقل غشه ، وخاصة المصدر منه للغرب اذ كان على رأس قائمة العطور الواردة من الشرق . وتزخر به أسواق سيراف بالخليج الفارسي وكالة بالهند وخاصة أنواعه الممتازة . ويذكر تجار ورحالة العرب أن أصله من جزر المحيط الهندي ، وبعد وصولهم للملايو وجدوا جزر تيسور تزدهو بهذا النوع من الأشجار العطرية كما وجدت أماكن أخرى ينسوا بها مثل جاوة وسومطرة وملقا والهند الصينية . وأنواع خشب الصندل الثلاثة من أصل واحد ، ويفضل الأوروبيون النوع الأحمر حين يفضل الشرقيون النوع الليمونى (١١٦) .

(١١٤) ابن البيطار : المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٤ .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 573.

(١١٥)

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 585-586-587.

(١١٦)

— Clerget, Op. Cit. p. 362.

هذا النوع باسم المصطكى الخيوسى نسبة إليها . ويعرفها الرحالة العرب باسم جزيرة المصطكى ، ويكثر نمو هذه الأشجار فى جنوب الجزيرة عند رأس Cape Nastice (١١٦) . كما يوجد فى هذه الجزيرة عشب له نفس الرائحة والطعم يعرف باسم Pistacia Lintiscua وتؤخذ مادة المصطكى بعد أحداث شقوق فى لحاء الشجرة إلا أن المادة المتجمدة على الشجرة نفسها أحسن وأفضل من النوع الذى يسقط على الأرض . ويصدر منها كميات وفيرة لبلاد شرق البحر المتوسط نفسها أحسن وأفضل من النوع الذى يسقط على الأرض ، وكذلك إلى الشرق الأقصى للأغراض الدينية والطبية (١٢٠) . وله أسواق رئيسية فى القاهرة ودمشق والاسكندرية وقيرس ورودى وأرمينيا واليونان ولا يسر سائح أو رحالة بهذه الجزيرة إلا ويحصل معه بعض المصطكى ذى الرائحة الزكية العطرية (١٢١) .

ويسيزون من بين أفضل أنواع البخور « اللبن الجاوى أو عسل اللبن » وتكلم عنه مؤرخو ورحالة العرب كما ورد ذكره فى سجلات الجمارك والمؤلفات التجارية فى العصور الوسطى ، ويرد ذكره فى تعريفه جمارك بيزا م ١٥٠٣ حيث كانوا يحصلون عليه ضرائب كثيرة . وحمل البرتغاليون كميات كبيرة منه إلى أوروبا من الهند ، وكان قبلا يصل لأوروبا عن طريق الاسكندرية ، ولقيسته العالية استعمل فاسكودى جاما عن أسعاره بالاسكندرية ثم أغرق أسواق أوروبا منه . واللبن الجاوى ضمن منتجات سومطرة والهند الصينية ويوجد فى

— Heyd, Ibid, 11, pp. 633-634.

(١١٩)

(١٢٠) ابن البطيار : المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

الجزرى : المصدر السابق (ورقة ٤١٦) .

— Poston, Op. Cit. 11, pp. 93-94.

(١٢١)

— Dopp, Op. Cit. pp. 71, 72.

ومن أنواع العطور كذلك البخور . وهو العصير الأبيض الذى يسيل عند أحداث شقوق فى لحاء أنواع معينة من الأشجار ، وتقدر جودته بدرجة نقائه وبياضه ، لذا يميز الردىء بخلطه بلحاء الشجر والتراب ، وأحسن أنواعه من بغداد وآسيا الصغرى أما بخور الاسكندرية فمن نوع ردىء وليس معنى ذلك أنه من إنتاجها ، ولكنه يرد لها ويفسر أسواقها . وتصل أحسن أنواعه إلى الغرب عن طريق ميناء لاجاسو وقبرس . ويقترب اسم البخور دائما بجنوب بلاد العرب والصومال فى المنطقة المواجهة لبلاد العرب ، وأحسن مناطق زراعته المهرة وشبيرة جنوب بلاد العرب ، وكان لارتباط هذه البلاد بالعراق بقوافل التجارة أثره فى عمر أسواقه بهذه الأنواع من البخور . وفى اليونان كانوا يخلطونه ببعض أنواع أخرى ويبيع تحت اسم البخور اليونانى (١١٧) .

واللادن أحد أنواع البخور ولا توجد هذه السلعة فى الشرق الأقصى ، كما أنها غير معروفة فى شرق البحر المتوسط ، ويكثر نموها فى جنوب أوروبا وسواحل آسيا الصغرى وكان يظن أنها من قبرس ولكن ذكر التجار الوافدون لشرق البحر المتوسط أنها من محصولات كريت Candie وهو أفضل أنواعه وكذلك من بلدة أكبرا Akbara فى آسيا الصغرى ، وتعطى شجرته عصارة لونها بنى داكن وهو اللادن ثم ينقى ويجفف ويستخدم فى الطب وفى تعطير جثث الموتى (١١٨) .

ومن أنواعه كذلك المصطكى ويحصل عليها من جذع شجرة يكثر زراعتها فى بعض جزر البحر المتوسط وأهمها جزيرة خيو ، لذا يعرف

— Heyd, Op. Cit. 11, pp. 615, 616.

— Day, Op. Cit. p. 80.

(١١٧)

(١١٨) بلدة أكبرا المذكورة بآسيا الصغرى هى بلدة Bali Kersi على الطريق

إلى برجام فى بروسة (ملاحظة ص ٦٣١ من هايد)

— Heyd, Op. Cit. 11, pp. 630, 631, 632.

أسواق كلكتا وهرمز . وفي مصر يسدى للأمرء والملوك (١٢٢) .
ويستخدم في العقاقير الطبية ويؤخذ من الشجرة بعد شق جذعها فيسيل
منها ويحصل في أوان نظيفة (١٢٣) .

ومن السلع التجارية التي استخدمت في الأغراض الصناعية وفي
الطب كذلك الصوغ ، ومنها الصمغ وصنع اللك . والصمغ نوع من
العصارة تخرج من بعض النباتات عند أحداث شقوق في لحائها ، أو إذا
انشق لحاؤها طبيعياً ويتجمد عند تعرضه للهواء وتكثر أشجاره في
اليونان ، وتركيا كما تشتهر شبه جزيرة المورة بنوع يعرف باسمها
ويكثر وجوده في أسواق أوروبا ، ولكن أفضل الأنواع على العموم
هو النوع الذي يرد من آسيا الصغرى إلى أوروبا عن الطريق المار بمدينة
سيرا . وفي القرن الخامس عشر كانت أهم مراكز تجارته في آسيا
الصغرى ، كما اشتهرت به أسواق قبرس والاسكندرية . وأفضل
أنواعه تصل من السودان ، ويصدر عن طريق مصر إلى آسيا الصغرى
وأوروبا ، ويصل للقاهرة في الربيع وهو من أنقى الأنواع ، ويزرع في
کردفان ويستخرج من شجر الأكاكيا . ويصل مصر كذلك أنواع من
آسيا الصغرى والهند الصينية وفارس . وصمغ بلاد فارس يصل لمصر
عن طريق البحر الأحمر وموانئه ، وعن طريق سينا وموانئ الشام
ويصلها في الخريف ، وهو أقل جودة من صمغ السودان والصمغ على
وجه العموم يستخدم في بعض العقاقير الطبية كعلاج كما يستخدم في

(١٢٢) كان ممن سلبتهم هدايا السلطان من هذا العطر : ملكة قبرس ١٤٩٠ م
كاترين كورنارو ، ومن قبلها دوق باسكوال مالبيرو عام ١٤٦٠ ثم دوق بارباريجو عام
١٤٧١ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 580, 581.
— Day, Op. Cit. p. 80.

(١٢٣) يزود بن شهر يار الراهبرمزي : كتاب عجائب الهند بره وبحره . ص ١٧٠ .

تحضير مواد الصباغة وخاصة في حالات تثبيت الألوان (١٢٤) .

أما صمغ اللك فهو من إنتاج الهند والهند الصينية ويخرج من
الشجر عندما تحدث فيه حشرة المن تقوبا . ولونه أحمر ، ويتجمد حول
الفروع مغطياً حشرة المن ذاتها ، وكان معروفاً في الماضي كنوع من
أنواع الصبغة ، ومشهور الاستعمال في العصور الوسطى وله ثلاثة
أنواع ، ويصل للأسواق في صورته الطبيعية ومختلطاً بفروع الأشجار
أو مسحوقاً بعد تثقيته من الشوائب بالتسخين وأنواعه هي : الصمغ
الأخضر والصمغ الأحمر الغامق ، والنوع الثالث وسط بين الأخضر
والأحمر . ومصدر هذا النوع من الصمغ ، قاليقوت ، وكيباي بالهند ،
وساحل كروماندل ، وحوخي الجانج ، ولكن أعظم مناطق إنتاجه هي
منطقة الهند الصينية ، وبورما ، وسيام ، وسومطرة ، ومعظم جزر الهند
الشرقية ، وما يرد منه لأوروبا من الهند يصل عن طريق عدن والبحر
الأحمر والاسكندرية ويكثر استخدامه في الطب والصباغة والأغراض
الصناعية (١٢٥) .

ومن المواد التي كثر استخدامها في الأغراض الصناعية عامة على
اختلاف مراحلها وأنواعها مواد الصباغة . ومن أشهر المواد التي
استخدمت في الصباغة في الشرق والغرب القرة ، والنيلة ، ودودة
القرمز ، والشب والتوتيا ، والقطران الطبيعي . وتزرع القرة في أوروبا
كما تصل بعض أنواعها لأوروبا من الاسكندرية وقبرس وبلاد العرب .
وفي أواخر العصور الوسطى كان يصل لأوروبا أنواع من جنوب شبه
الجزيرة العربية وعدن ، وتصدر للهند وفارس كذلك ، ويصدر من

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 623-624.
— Clerget, Op. Cit. p. 357.

(١٢٤)

(١٢٥) راجع ما ذكر عن حشرة المن في هذا الفصل .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 626.

إقليم جورجيا أنواع أخرى إلى الهند حيث يؤلفون منها لونا أحمر للصباغة لا يختلف كثيرا عن اللون القرمزي الذي للفرقة (١٢٦) .

ومن مواد الصباغة كذلك النيلة ، وتكثر بأسواق بغداد ، وتعطى لونا أزرق غامقا والنيلة الواردة من الهند لها لون فاتح عن تلك التي ترد من فارس ، وتصل للغرب الأوربي عن طريق البحر الأحمر ومدن وموانئ شرق البحر المتوسط ، وقد لاحظ التجار العرب وجود النيلة بكثرة في كولام ، وجوجيرات ، وكامباي ، وكابل ، وجنوب شرق إيران ، حيث يقوم أهالي كرمان بزراعتها . كما يزرع في هرمز بكسيات ضخمة تصدر عن طريق الخليج الفارسي ولونها قاتم ويمثل نوع كرمان . وتصدر النيلة الواردة من الهند وكابل برا عن طريق بغداد وموانئ الشام إلى أوروبا . وفي قبرس يزرعون نوعا من النيلة أقل جودة من الأنواع الشرقية ، كما يزرع في واحات مصر ، وإن كانت أنواعه أقل من السابقة (١٢٧) .

وبذكر الصبغات لا يفوتنا ذكر أهمية الشب كمعصر رئيسي في الصباغة في العصور الوسطى ، وغير صحيح أنه لم يعرف في أوروبا إلا في أواخر العصور الوسطى ، والواقع أنه عرف منذ زمن بعيد ، وكان يصدر لأوروبا من مراكش والجزائر منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر ولما استولت جنوة على جزيرة خيو من القرن الرابع عشر

— Heyd, Ibid, 11, p. 618.

(١٢٦)

(١٢٧) يباع في مدينة كابل وما حولها من هذه المادة ما يبلغ ألفي دينار سنويا كما يزرع بفلسطين في بلدتي زعر وبيسان بالقرب من البحر الميت . ومن أنواعه الطيبة ما ينمو بمصر ويبقى في الأرض ثلاث سنوات ، وفي السنة الأولى يسقى كل عشرة أيام دفعتين ، وفي السنة الثانية ثلاث دفعات ، وفي السنة الثالثة أربع دفعات . راجع متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

— Heyd, Op. Cit. 11, pp. 627-629.

حتى عام ١٢٥٥ . اتخذها الجنويون أكبر مراكزهم لاحتكار تجارة الشب وأقاموا في شمال الجزيرة مدينة بنفس اسم الجزيرة وصاروا من أهم مصدري الشب لأوروبا نظرا لشدة الطلب عليه في صباغة الصوف ، وكذلك في شرق البحر المتوسط وشمال افريقية (١٢٨) . وفي إيطاليا فنهز هذا النوع من مواد الصباغة في تولفا Tolfa واستغل مناجمه البابا بولس الثاني لحسابه وبواسطه اخصائيين جنوبيين لخبرتهم فيه ويصدر بكسيات ضخمة للبندقية وفلورنسا والفنلندرز . وقد سح البابا للتجار بالاتصال بالشرق للتجارة فيه مستثيا اياها من قانون التحريم الكنسي البابوي مع المسلمين . وفي عام ١٥٠٦ أصدر البابا يوليوس الثاني قرارا بتجديد الاستثناء مع الترخيص لتجار بالاتصال بمراكز انتاجه في بلاد السلطان العثماني . وكان الأتراك العثمانيون في توسعهم بأوروبا بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ قد سيطروا على مناجم الشب في فوكيا Phocaea وأجوار سمرتا ومناطق أخرى على البحر الأسود وفي كوتاهية بآسيا الصغرى . وقد سهّل التجارة في هذه المناطق ، قرب مناجم الشب من موانئ التصدير ، وكانت السفن الايطالية ترد مناجمه في فوكيا ويحمل تجار جنوة منه سنويا مالا يقل عن ١٤ مليون كيلو . ومن أفضل أنواعه كذلك المستخرج من مناجم « قرّة حصار » التي استولى عليها العثمانيون في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، والانتاج هنا لا يقل عن عشرة ملايين كيلو سنويا . وفي كوتاهية حوالي ١٢ مليون كيلو ويصدر عبر بحر ايجه (١٢٩) . أما الشب المستخرج من أشباه الجزر والجزر الاغريقية فهو من النوع الطيب ويكثر تداوله في أسواق الاسكندرية

— Pernaud, Op. Cit. pp. 57-58.

(١٢٨)

— Heyd, Op. Cit. 11, pp. 665-666.

— Heyd, Op. Cit. 11, p. 505.

(١٢٩)

— Depping, Op. Cit. 11, pp. 221 & N.P. 342.

واستمبول وبيروت . وكان بالأسكندرية مخازن للشب الوارد لها من الوجه القبلي ومن بلاد العرب واليمن وباب المندب وجزيرة سقطرى ومنتجات هذه الأقاليم معروفة في أوروبا منذ أوائل العصور الوسطى حتى ظهر شب أوروبا بكثيات كبيرة واستعير به عن شب الشرق . وفي حلب عرف نوع آخر جيد سنده الرعا (١٣٠) . وفي السودان استخرج نوع من الشب حول بحيرة تشاد وهو راسمال هذه البلاد ويتحول به السودانيون حتى ينتهوا إلى مصر والمغرب الأقصى (١٣١) . وفي مصر كان الشب احتكارا للدولة ويستخرج من أسوان والواحات ويصل إلى قوص وأخميم والبهنسا لينقل إلى الأسكندرية حيث يصدر للخارج (١٣٢) . ويتدرج الشب في أنواعه من النوع الممتاز الذي يذهب الثلج في لونه وإن شابه أحيانا بعض الألوان الباهتة كالأحمر والأخضر . أما شب الدرجة الثانية فيختلط به بعض الصفور ، والنوع الثالث هو شب النحر الذي بعد تنقيته يصير شبه بلورات مسافية ويوجد في شمال افريقية وهو نوع غير نقي مختلط به بعض الصفور بنسبة ٣ - ٥ (١٣٣) . وفي بعض الأغراض الطبية يستخدمون نوعا من الشب السكري وهو نقي مصهور مع ماء الورد ويأخذ البعض . وكثير ذكره في سجلات العصور الوسطى (١٣٤) . ويستخدم كذلك في تثبيت الألوان والصبغات على الثياب ، فيكسبها لمعانا شديدا كما كان يستخدم في الرسم والتذهيب والصبغة ، والديباغة في العصور

— Day, Op. Cit. p. 82.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 567.

(١٣٠)

(١٣١) مرق : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

(١٣٢) القلشندي : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٨ و ٤٥٩ .

Bloch, Hist. de L'Egypte De Makrisi, p. 143. N. 1.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 568-569.

— Lopez, Op. Cit. p. 353. Doc. 176.

(١٣٣)

— Heyd ; Ibid, p. 570.

(١٣٤)

لوسعى . وزادت أزمة الشب خلال حروب البيزنطيين والعثمانيين وإن أفرجت بعد ذلك ، حتى أن السلطان العثماني كان يدخل خزائنه سنويا مالا يقل عن ١٠٠٠٠٠ قطعة ذهبية من بيع الشب الذي كان يشره على التاجه الايطاليون (١٣٥) .

ومن أنواع الصبغات لذلك خشب البرازيل ذو اللون الأحمر ويورد من جزر الهند الشرقية ويعرف باسم شجر البقم وموطنه الأصلي الملايو ولونه يشبه لون الفحم المتوهج وعثر عليه فيما بعد بغابات البرازيل بأمريكا الجنوبية ومنه حصل على اسمه الحالي . وقد عرفه الايطاليون باسم Berzi أو شجرة Verzi (١٣٦) . وخشب البرازيل على أنواع عدة حسب نوع الشجر الطبيعي أو المزروع منه — كما أنه يختلف حسب البلاد التي يزرع بها . وهو على ثلاثة أنواع : الأحمر الفاتح — والأحمر القاقع ، والأحمر المشوب باللون الأصفر وهو يتسم هكذا لتمييزه عن خشب الصندل الأحمر . أما مناطقه فهي في كولام بالهند . كما يوجد كذلك في غابات كلكتا وساحل ملابار . وهناك نوع منه ينسب إلى جبل العمري في جنوب الهند في مواجهة جزيرة سيلان وكان ينسو بكثرة مدهشة ، كما يوجد بجزيرة سومطرة وخاصة في غربها في مواجهة الهند وأفضل أنواعه يرد من الهند

Heyd, Ibid, p. 571.

(١٣٥)

(١٣٦) يذكر ابن البيطار أن خشب البقم (أو خشب البرازيل) شجر عظيم وورقه مثل ورق اللوز الأخضر وساقه وأغصانه حمراء . ونهايته بارض الهند والزنج . يوقف الدم . تثبت من أي عضو ويجفف الجروح .

ابن البيطار . المصدر السابق ج ١ ص ١٠٣ .

— Ferrand, Op. Cit. T. I. p. 246.

وأطلق عليه الايطاليون اسم Verzine أخذ من كلمة « ورس » العربية التي كانت تدل على الزعفران المعنى الذي يشبه السهم كما استخدم في الصبغات والدهانات . راجع ما كتب عن الزعفران ، مرق : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٥ .

— Clive, Op. Cit. p. 81 ;

الصبغة . وتصل هذه الأنسجة المصبوغة لأوروبا عن طريق بغداد ويعرف باسم الحرير القرمزي (١٣٨) .

ومن السلع التي كان يصدرها الشرق للغرب في العصور الوسطى العاج وقد تشاربت الأقوال فيما يختص بمصدره ، فمن قائل انه من افريقية ، ومن قائل: انه من الهند وكتب العصور الوسطى التي تذكر العاج ومصنوعاته أغفلت ذكر مصادر . وقد حفلت به أسواق شرق البحر المتوسط في الاسكندرية وفاماجوستا وبيروت ودمشق ويرد لعدن من افريقيا والهند والمواصلات بين عدن وشرق افريقية سهلة وميسرة وقصيرة كما ورد من افريقيا كذلك لسيراف ، وان كان هذا الميناء أقرب الى الهند . على أن مصادر العاج في العصور الوسطى المتأخرة كانت من افريقيا وبالذات من اثيوبيا إذ أن عاجها يفوق عاج الهند ، فهو أطول وأثقل ، ومع كثرته في الهند إلا أنهم يستوردون أجود الأنواع من اثيوبيا . ويقل صيد الأفيال في الهند لأن بعض الطوائف تقدسه . ويشتهد الاقبال على العاج في الصين وخاصة الهندي ، لذا بدأ يقل في أسواق مصر وبالتالي في أسواق أوروبا ، حتى أصبح مصدره الوحيد افريقية . وقد استخدم المماليك العاج الوارد لهم من الحبشة والهند في التطعيم والترصيع ، وخاصة في حشوات المنابر في المساجد، وصنع قطع الأثاث الفخم ، كما صدرت ايران تحفا منحوتة من عاج منسوبة الى مدينة الري وبها تحفة عبارة عن حشوتين من العاج محفوطتين بالمتحف البريطاني ، عليهما رسوم آدمية فوق أرضية نباتية . والمصنوعات العاجية الدقيقة ترد من أسواق الشرق العربي ومن الهند

(١٣٨) من كلمة قرمز العربية عرفت الكلمة الأوربية «Karmoisin or Crimson»

متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

— Clive, Op. Cit. p. 81.

— Heyd, Op. Cit. pp. 608- 609.

الصينية ، وملقا ، كما أنه ينسب بالصين وخاصة في منطقة تناسيرين Tenasserin ، ويستخدم هذا الخشب في الصباغة ويصل لأسواق العرب على هيئة كرات صلبة ثقيلة ، وبعد نزع قشرتها يؤخذ قلبها وتستخرج منه الصبغة بعدة وسائل . وهي تستخدم في صبغ الملابس والرسم الدقيق وخاصة الرسوم التي تزين المخطوطات في العصور الوسطى ويكثر الطلب على النوع الأحمر الوردي كما يدخل في صناعة الأثاث (١٣٧) .

ومن مواد الصباغة كذلك دودة القرمز ، وهي حشرة ذات لون بنفسجي تعيش في جماعات وتجمع وتقتل ثم تصدر أو تباع لمادة الصباغة . وهي معروفة في العصور الوسطى وان كانت مجهولة المصدر الحيواني ، وعرفت في أوروبا في لانجدوك بفرنسا واسبانيا والبرتغال وكانت تصدر الى الشرق . وفي شرق البحر المتوسط وجدت أنواع من دودة القرمز تصل عن طريق البندقية لأوروبا ولها سوق رائجة في اليونان واسبانيا والبرتغال ونالت جزيرة كريت بعض شهرتها من تجارة دودة القرمز في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبالجزيرة لجنة من الخبراء لفحص السلعة واستبعاد الفاسد منها ، كما كان يجمع من أجوار كورون باليونان أجود أنواعه . وتذكر وثائق فلورنسا من القرن الخامس عشر أن أفضل أنواعه يرد من المغرب واسبانيا والبرتغال . وسعره مرتفع كما تذكر الوثائق نوع آخر رديء ، وان لم تقطع بمصدره ، كما أنها نفت أنه من شرق البحر المتوسط . ومن أرمينيا يخرج نوع ممتاز يصدر للهند وشرق البحر المتوسط ويجمونه من سفح جبل أرارات بأرمينيا بكميات ضخمة ، وتستخدم عندهم في

— Quatremere, Mommeire Sur L'Egypte. . . p. 285.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 587-590.

والصين ومنه تصنع تصف المعابد والكنايس والتماثيل وأيدى المقاعد والنسج زينت : انه يطحن ويدخل فى بعض العلاجات الطبية (١٣٩) .

ريسكر السكر تأخذ محصولات الشرق التى تصدر للغرب ، والتى نقل العرب زراعتها خلال وجودهم فى اسبانيا وهو من حاصلات الهند والهند الصينية ، وقبل ان تنتشر زراعته فى الغرب كان عصيره يجفف على النار ، لأن صناعته لم تكن قد عرفت بعد على الوجه الحالى فى انعمصور الوسطى . وعرفت صناعته بطريقة بدائية فى مدن وجزر الخليج الفارسي بعد أن كان يزرع فى خورستان كما كانت له مصانع فى الأهواز وبغداد . ويرجع الفضل فى تصنيعه أصلا للعرب وعنه انتقل للشرق والغرب ويصدر الانتاج هنا للغرب الأوربي . وان كان استهلاك الغرب من السكر الهندي والصيني فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر قد قل لأن الغرب أصبح يحصل على حاجته منه من مصر وسوريا وقبرس وشمال افريقية والأندلس التى يرجع الفضل للعرب فى ادخال زراعته الى هذه المناطق وكذلك زراعته . ومصر أكثر الطلب عليه فى أوروبا حيث يعرف باسم السكر المصرى الأبيض (١٤٠) . وهناك نوع آخر من السكر الغير نقى ولونه وردى أو بنفسجى ويرد من بغداد ويطلق عليه اسم « البغدادى » ويرد ذكره بكثرة فى سجلات الجبرك (١٤١) . ويباع السكر على أشكال مختلفة منه البلورى والمسحوق ، وهو فى احدى مراحل قبل التنقية يعرف باسم العسل

الأسود . وينصح أطباء العصور الوسطى مرضاهم باستخدامه لأمراض الصدر . وهو بين المواد العنقايرية لدى صيادلة العصور الوسطى وان كان ثمة اد ذلك . مرتقا (١٤٢) . وتنتشر زراعته وصنعتة على نطاق واسع فى قبرس ويعمل به ما لا يقل عن ٤٠٠٠ عامل ويصدر الانتاج كله الى أوروبا بواسطة تجار البندقية (١٤٣) . وفى آسيا الصغرى انتج الأهالى نوعا من السكر الساخر توافر فى أسوان ستاليا ولاجاسور وزرعت أنواع منه فى رودس وكريت ويحصل الغرب على حاجته منه خلال فترات الانقطاع عن أسواق شرق البحر المتوسط (١٤٤) .

ومن السلع التى اشترك الشرق والغرب فى انتاجها الخزف والبرسلين . والاختلاف هنا يرجع أساسا فى نوع الطينة التى يصنع منها . وأفضل أنواعها ما يرد من الصين ، ويحصل نفس الاسم وهو على درجات من الجودة والشفافية واللون والوضوح ، ويلاقى الانتاج الصيني رواجا فى أسواق الشرق والغرب على السواء . وتحفل به أسواق دمشق وحلب وبيروت والاسكندرية ورغم ارتفاع أسعاره فان الطلب يكثر عليه فى أوروبا ويحمله اليها تجار البندقية وجنوة . ويهدى سلاطين مصر أنواعا ممتازة منه لملوك وحكام أوروبا . وقد أنتجت مصر فى العصر الاسلامى أنواعا ممتازة من الخزف لا يقل روعة عن ما أخرجته الصين وإيران من هذه الأنواع وان كان يقل جودة فى نوع العجينة . وينسب للعصر المماليكى أنواعا منه ذات ألوان بيضاء وزرقاء وعليها رسومات زهور وطيور تقليدا للأنواع الواردة من الصين . ومن

(١٣٩) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٨ .

منز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٩ .

زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٥٠٤ - ٥٠٥ .

Poston, Op. Cit. II, pp. 93-94.

Depping, Op. Cit. I, p. 140.

(١٤٠)

Clive, Op. Cit. p. 80.

(١٤١)

Heyd, Op. Cit. II, p. 690.

(١٤٢)

(١٤٣) جورج يعقوب : اثر الشرق فى الغرب (مترجم) ص ٩٧ .

Dopp, Op. Cit. folio 39, pp. 66-67.

(١٤٤)

Poston, Op. Cit. II, p. 281.

Heyd, Op. Cit. II, p. 281.

أشهر خزافي العصر عيسى التوريزي ، وغزال ، والمصري ، وابن الملك وغيرهم . إلا أنه في النصف الثاني من القرن الخامس عشر غزت أسواق مصر أنواع متازة من الخزف الصيني البديع الصنع والرسم ، ولغلاء أسعاره لم يعد سلعة شعبية ، وحل محله أنواع محلية من فناجين وسكريات وصحون أقل جودة من المستورد من الصين ، وفقد الخزافون المصريون سوقا رائجة لصناعاتهم ، فقلل إنتاجهم وابتكارهم وعمدوا إلى التقليد غير المتقن مما يشهد بتدهور هذه السلعة وضياع أسواقها في الداخل والخارج . وقد عرف المصريون كذلك صناعة القاشاني لكسوة جدران المنازل من الداخل ، ومآذن المساجد ، ومعظمها من لون موحد ، وعليه كتابات بيضاء على أرضية زرقاء ، وعجينة هشّة ورسم غير متقنة . وتنتج أوروبا أنواعا متازة وإن اختلفت في عجبتها عن الإنتاج الصيني ، وكثر تداولها في القرنين ١٥ و ١٦ م . ومعظم الإنتاج الشرقي والغربي يتواجد في أسواق شرق البحر المتوسط (١٤٥) .

وشملت قوائم السلع المتبادلة بين الشرق والغرب المنسوجات على اختلاف أنواعها ، فاستورد الغرب من الشرق المنسوجات القطنية والحريرية والكتانية والمطرزة بخيوط من الذهب والفضة ، أما الشرق فقد استورد من الغرب المنسوجات الصوفية من ألمانيا وإنجلترا عن طريق فلورنسا وجنوة والبندقية ، وكذلك المنسوجات الكتانية وإن كانت أقل قيمة مما يصنع في مصر . وقد لقيت صناعة النسيج وتجارته في الأقاليم الإسلامية المختلفة تشجيعا ورواجا عظيمين . وفي فترة النشاط التجاري الذي عم العالم الإسلامي في العصور الوسطى وخاصة المتأخرة منها كانت المنسوجات القطنية والتيلية والحريرية

نصدر من مصر والشام وإيران إلى سائر الأقطار الإسلامية وأوروبا والشرق الأقصى ، والهند . وقد أنشأ المسلمون عديدا من مصانع النسيج وخاصة مصانع الحرير . وبعض إنتاجه يحمل أسماء أماكنها فمنها الحرير الدمشقي Damaskas « الدمقي » والموسلين Muslin من الموصل . ونوع آخر يعرف باسم جرينادين Grenadines من غرنادة بالأندلس . ومعظم دور النسيج كانت حكومية وتعرف باسم « دور الطراز » والدور الخاصة تعمل للخليفة ورجال بلاطه والأمراء . وتعطى منه هدايا للأمراء والملوك الأجانب - أما الدور العامة فتنتج لأفراد الشعب . ويصنع بالدور الخاصة كذلك كسوة الكعبة الشريفة واشتهرت بذلك تينيس والاسكندرية ودمياط وديق وأخميم وأسيوط والفيوم . وأمراء الممالك يفضلون الأصواف والأجواخ الواردة من أوروبا على المصنوعة محليا ، كما أن البندقية وردت لأسواق شرق البحر المتوسط وخاصة في مصر وسوريا أنواعا فخمة من الحرير والتيل والأنسجة المطرزة . ولما زاد ثراء الممالك في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بعد سقوط القسطنطينية وتحول التجارة إليهم من البحر الأحمر ، لم يعودوا يهتمون بالإنتاج المحلي ، واقتصروا استخدامهم للأثواب المستوردة التي ترد بكثرة وإنتاجها ممتاز . وترد من الفلاندر وشمال أوروبا ملابس جند الممالك . ومن الهند يرد أنواع فخمة من المناديل والقطنيات والحرير ، والشيلاو الكشمير ، وترد كلها بطريق البحر الأحمر . وقد برع الأوروبيون في نسج الصوف والكتان وتصديره للخارج ، وخاصة إلى أقطار آسيا وإن كان إنتاجهم من المنسوجات القطنية والكتانية قليل ، ورغم ازدياد الطلب عليه لحاجة رجال الدين وبرد القطن والكتان الخام لأوروبا من شرق البحر المتوسط . وقبل نهاية العصور الوسطى تمت صناعة الأنسجة الحريرية بكثرة في إيطاليا ، وسدرت منها كميات كبيرة إلى الشرق العربي ، والشرق

(١٤٥) زكي محمد حسن : فنون الإسلام من ٢٢٢ إلى ٢٢٥ - ٢٢٧ .

— Clerget, Op. Cit. p. 370-371.

— Depping, Op. Cit. I. p. 59.

— Poston, Op. Cit. II. pp. 93-94.

الأقصى . كما صدرت أوروبا الى الشرق عامة الصوف والأنسجة الكتانية الرائعة المنسوجة في إنجلترا والفلاندرز (١٢٦) .

وفي القرون الأولى للعصور الوسطى كانت الكنيسة تحرم التزين وليس الحرير وتدعو للتقشف والحرمان ، ولكن بمرور القرون أصبح هذا التحريم حبرا على ورق ، وكان رجال الدين هم البادئين ، فارتدوا الحرير وتزينوا بالجواهر . وامتازت حوائث ومتاجر غرب أوروبا بواردات الشرق من هذه السلع ، وعليها رسوم غزلان وسباع وزرافات ووحوش وأشخاص ، ومعظمها كان يرد من الهند والصين وليس من أقطار مسيحية أو اسلامية ، اذ أنهم لا يسلون الى هذا اللون من الرسوم على الملابس (١٢٧) . على أن المنسوجات الحريرية كانت ترد الى أسواق أوروبا عن طريق الشرق المسيحي وان لم تكن مصنوعة فيه فوردت من القسطنطينية البيزنطية ، وان كان هذا لم يمنع وصولها من القسطنطينية العثمانية ومن الاسكندرية كذلك ، مع ازدهار صناعته بالأندلس بعد حكم العرب فيها أواخر القرن الخامس عشر . وكثر الطلب في أوروبا على حرير الشرق المعروف باسم البروكار ، والذي كان يجلب من الاسكندرية وطرابلس ودمشق وأنطاكية وقبرس وآسيا الصغرى والصين وإيران وان كان الاتصال بين الأسواق الأخيرة وأوروبا قليلا لبعده المسافة . وعن الصين عرف الغرب تربية دودة القز وكذلك صناعة نسج الحرير ، واشتهر بها أهل صقلية والأندلس ، ومع ذلك ظل الشرق هو المورد الأساسي لهذه السلعة التي لم يكن يضارعه

(١٢٦) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٢٤٧ - ٣٥٠ - ٣٦٦ - ٣٦٧
— Clerget, Op. Cit. pp. 538-539.
— Clive, Op. Cit. p. 82.
— Heyd, Op. Cit. II. p. 694,

بها أى نسيج آخر (١٢٨) . ومن مصادر الحرير كذلك حول بحر قزوين ، وطبرستان ، ومجسود آباد ، وجورجيا ، ووصل الجنويون في بحثهم عن حرير الشرق الى شيروان في القرن الخامس عشر قبل الغزو العثماني ، وخلفهم فيها البنادقة بعد انهيار تجارة جنوة الشرقية (١٢٩) . ووصل لأوروبا من بغداد أنواع من الحرير المطرز ، وحاول الأوروبيون تقليده ، ولكن أفضل الأنواع كان يصل دائما من موانئ شرق البحر المتوسط . وحتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم ينقطع تبادل المنسوجات الحريرية بين الشرق والغرب وان قل استيراد الغرب لأنواعه الشرقية نظرا لوفرتة واثقان صناعته في مدن أوروبا . ووصل للشرق مناديل حريرية وأثواب فخمة مطرزة من البندقية ، كما صدرت فلورنسا كميات منه الى تركيا العثمانية ومصر . ولدى وصول البرتغاليين للهند لاحظوا وفرة الأنسجة الحريرية الفخمة الواردة اليها من دمشق وسوريا عامة ومن أوروبا كذلك ، ومنذ بداية القرن السادس عشر أخرجت المصانع في أوروبا أنواعا فخمة من الحرير أجود من الشرق ما لبثت أن غزت أسواق الشرق (١٣٠) .

(١٢٨) عرف العرب وسكان جزيرة قبرس عنهم صناعة المنسوجات المعروفة في العصور الوسطى باسم « البروكار » وتصنع من خيوط رفيعة من الكتان ومحاطة بطبقة رقيقة من أمعاء الخراف (والخنازير في قبرس) ومغطاة بقشرة من الذهب وتطرز بها الملابس العربية ، وعرفت كذلك في جنوة حيث أنتجت مصانعها أنواعا ممتازة مرتفعة الأسعار مما جعل الحكومة تضعها تحت الحراسة الشديدة حتى لا يضار بسببها الطبقات المتوسطة والفقرية نتيجة لكثرة الطلب وبالتالي التناقص في أسعارها كما أن بعض المصانع لجأت الى تقليدها وتزييف بعض الأنواع المشابهة . وللبندقية وسيلان نسيجهما المشابه .
— Heyd, Ibid, II. pp. 694-695, 677-678.
— Depping, Op. Cit. I. p. 58.
— Clerget, Op. Cit. p. 356.
— Poston, Op. Cit. II. pp. 351, 352.
— Day, Op. Cit. p. 82.

(١٣٠) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٣٦٩ الى ٣٧٨ .
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 709-710.
— Poston, Op. Cit. II. p. 94.

لقلة ما كان يزرع منها وللبندقية سفن خاصة لنقل القطن ترد كل عام لموانئ صور وصيدا ، ولهم بها وكلاء لتسهيل شحنه (١٥٢) .

وفى العصور الوسطى استخدم الشرق أنواعا من الخشب المحلى فى صناعة السفن وفى المباني والأثاث ، ويصل منه الى مصر كميات كبيرة بالإضافة الى أخشاب الغرب وله وكالة قرب النحاسين حيث يباع بالميزان بالإضافة لأنواع أخرى مستازة ترد لصنع أثاث المنازل . أما خشب السفن فتصنع منه ألواح هياكلها وأفضل الأنواع هو خشب الساج أو جوز الهند وأحيانا يعرف باسم خشب النارجيل ، وهو من نفس الأنواع من الأخشاب الشرقية وأمتنها ، « ومتى تم اعداده فلا ينشق ولا يتقلص ولا يتغير شكله ويزيده الحديدمانة » . ومناطق نوده غابات فى جنوب الهند وبورما وسيام وجزر الهند الشرقية ، ويصدر كذلك الى مدن الخليج الفارسي لعمل السفن وبناء المنازل وخاصة أسقفها (١٥٤) . ومن أنواع الأخشاب الفخمة الأبنوس ، وأفضل أنواعه الجبشى وهو أسود وليس فيه طبقات أو كسر وهو كثيف ويلدغ اللسان . ويرد من الهند أنواع أخرى فيها عروق ما بين أبيض وياقوتى . ولكن الجبشى أفضله ، ويستعمل فى صناعة التحف والأثاث الفخم

(١٥٣) تزخر أسواق مصر بأنواع ممتازة من النسيج الإيراني وخاصة فى العصر الصفوى تنسب الى مدن تبريز وسلطانية وهرات ويزد وقاشان واسفهان وشروان كما أنتجت مصانع الطراز فى الأندلس أنسجة بها رسوم نجمية الشكل وأشرطة متداخلة كأنها ملاط قشاني - ويرد من تركيا وكذلك من ايران أنواعا ممتازة من السجاد ذى الألوان المتناسقة أصوافها من أغنام معتنى بتربيتها ونظافة أصوافها ويدخل فيها خيوط من الذهب والحريز والفضة .

زكى حسن : فنون الاسلام ص ٣٧٨ - ٣٨٤ - ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٩ - ٤٠١ .

- Poston, Op. Cit. II. pp. 93-94.
- Heyd, Op. Cit. II. pp. 611-614.
- Day, Op. Cit. p. 82.

(١٥٤) حوراني : العرب والملاحة والمحيط الهندى ص ٢٤٤ - ٢٤٧ .

- Clerget, Op. Cit. p. 632.
- Ency. Britannica, Art. TEAK.

وانتاج أوروبا من الكتاب يسد حاجتها من هذه السلعة ولكنها لم تستطع الاستغناء عن كتان مصر لأنه كان على درجة عالية من الجودة ، والكتان المصرى ينسج على ضفاف النيل وداخل الدلتا والجانب الكبيرة منه يستهلك محليا كما يصدر الى شمال افريقية وقبرس ، والملابس الكتانية أكثر الملابس شيوعا فى مصر بين الطبقات الوسطى والفقيرة ، ويتقنه الساجون فى مصر حتى يبدو وكأنه من الحريز . ويبيع بأسعار مرتفعة (١٥١) .

وكان البابوات المتعاقبون فى العصور الوسطى وخاصة بعد سقوط القسطنطينية وعكا قد وضعوا القطن من بين المواد المحرم التعامل بها مع العرب ، ووجهوا نظر التجار الى وجوده فى أماكن أخرى كاسبانيا وجنوب ايطاليا وصقلية وكريت وأرمينيا ومالطة ، وقبرس . وهذه الأنواع من القطن الغربى كانت منخفضة السعر وخاصة قطن صقلية وأقل جودة من الأنواع التى تزرع فى شرق البحر المتوسط فى الشام ومصر (١٥٢) . ويلبها أنواع أخرى تزرع فى أرمينيا ونوع ثالث فى قبرص وعكا واللاذقية . وفى القرن الخامس عشر وخاصة بعد سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ عادت التجارة لتزدهر مرة أخرى بين الشرق والغرب بطريق عدن وموانئ البحر المتوسط وكانت معالم هزيمة عكا ١٢٩١ قد بعدت عن أذهان الأوروبيين فخفف البابوات من شدة القوانين التى تحرم التعامل مع المسلمين ، وبدأ ينقل لأوروبا الأنواع الممتازة من قطن مصر والشام . وفى القرن الخامس عشر انتشرت زراعته ، وخاصة الأنواع الممتازة فى مصر وإن كانت لم تذكر من قبل

- Clerget, Op. Cit. p. 358.
- Clive, Op. Cit. p. 82.
- Heyd, Op. Cit. II. p. 696.

(١٥١)

(١٥٢) جورج يعقوب : أثر الشرق فى الغرب وخاصة فى العصور الوسطى - ترجمة

مؤاد حسنين على ص ١٤ .

حيث يطعم به ويقال ان مسحوقه يدخل فى بعض العقاقير الطبية لعلاج القروح وأمراض العيون (١٥٥) .

تقول الأمثلة العامة فى العصور الوسطى « عظيمة هى فضائل التوابل ولكن أعظم منها الأحجار الكريمة » وفى ذكر الأحجار الكريمة لا يعطى الاعتبار هنا لمصادرها من قاع البحر أو من بين حصى الأنهار أو من باطن الأرض والصخور ولكن قيستها كما كانوا يعتقدون « أنه اذا شرف جوهرها حلت فيه بركة الخالق العظيم ، وبالتالي عظم قدرها وقيمتها » . وطغى هذا الاعتقاد فى العصور الوسطى على عقول الناس حتى فهم أن بعض أنواعها يطرد الأرواح الشريرة وأن البعض الآخر يشفى على الفرد سلامة الجسم والعقل (١٥٦) . وآسيا مصدر الأحجار الكريمة فى العصور الوسطى واشتغلت مناجمها بصورة أوسع منذ وصول الأوربيين الى الشرق الأقصى فى مطلع القرن السادس عشر حيث تم استغلال مناجمها وخاصة مناجم جبال أورال . وفى مصر اشتهر صعيدها بوفرة مناجم الزمرد وصدر الى أوروبا وآسيا والحبشة . وتقع مناجمها على الحدود بين مصر والنوبة فى منطقة توازى الجبال بين النيل والبحر الأحمر ، وكان انتاج هذه المناجم ملكا للسلطان المماليك حتى سقوط دولتهم ونضب معينها من كثرة ما استغلت (١٥٧)

(١٥٥) ابن البيطار : المصدر السابق ج ١ ص ٨ .

— Sonia, Op. Cit. pp. 16-17.

(١٥٦)

(١٥٧) ابن الوردي : المصدر السابق ص ١٣١ يذكر « أن الزمرد أخضر شفاف يدخل فى علاج من سقى السم وأفضل أنواعه الذبابى » أما القلقشندي : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٦ فيذكر أن أصله ياقوت تعرض للسواد ولعوامل أخرى فاصبح أخضر وهو على أربع أنواع الذبابى شديد الخضرة والريحاني نسبة الى لون الريحان والسلقى نسبة الى نبات السلقي فى اللون والرابع الصابونى نسبة الى الصابون الأخضر وأفضل أنواعه الذبابى ويورد من صعيد مصر . فى جبل بين أسوان والسودان - راجع كذلك : ابن البيطار : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 651-652.

— Darnes, Op. Cit. II. pp. 225-226.

وهناك أنواع أخرى تأتي من ساحل افريقية الشرقى والحبشة ويباع فى أسواق الهند وخاصة قاليقوت ، والمزيف منه تظهر فيه فقاعات هوائية ، أما النوع الممتاز فهو مضيء مرتفع الأسعار (١٥٨) . ويتكون من معدن الزمرد جوهر آخر هو الزبرجد ويعتقد كثيرون أنه نوع منه ولكنه فى الواقع أقل جودة ويستخرج من الآثار القديمة بالاسكندرية ، والجيد منه يمتاز بصفاء لونه وخضرته والنوع الأقل هو الأصغر ويوجد فى سيلان (١٥٩) .

ومن هذه الجواهر كذلك الفيروز ، ويرد من كرمان وخراسان ونيسابور (١٦٠) . واللازورد من بلوختان ، والهند الصينية (١٦١) . أما الياقوت فيرد من مصادره فى بلوختان والهند ، وأثانه مرتفعة جدا وأجود أنواعه الأحمر الذى لا يتكلس بالنار بعكس الأصفر والأخضر ، ويفحص النقي منه بوضعه فى الشمس فلا تظهر فيه أى شوائب ، ويرسل من الهند وسيلان خاما الى مصانع شطفه وتهذيبه فى قاليقوت ، ويكثر عليه الطلب فى أسواق الشرق والغرب على السواء. وأفضل أنواعه ما يرد من سيلان (١٦٢) .

أما العقيق فمصادره الهند فى جندهار وبشاور وليبادورا ، ولونه أحمر بأحجام مختلفة ويزداد مضاء وجلاء باحاطته بالنار ويشكله الصانع المهرة حسب الطلب ويرصع به السيوف والخناجر والعقود

(١٥٨) متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

المسمودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٣ .

(١٥٩) القلقشندي : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٧ و ٣٤٨ .

(١٦٠) متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٣ .

(١٦١) — Heyd, Op. Cit. II. pp. 653-654.

(١٦٢) الجزرى : المصدر السابق ورقة ٣١٨ .

ابن الوردي : المصدر السابق ص ١٢٩ .

القلقشندي المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

— Darnes, Op. Cit. II. pp. 217-218-219-220.

وينقل الى أسواق مصر والاسكندرية ليبيع للأوربيين. وتقل البرتغاليون كميات كبيرة منه الى البرتغال بعد وصولهم للهند (١٦٣). وتوجد أنواع منه في أفغانستان وصنعاء باليمن (١٦٤). وتذكر مراجع العصور الوسطى أنواعا أخرى ممتازة مصادرها من الشرق الأقصى والأدنى ويكثر عليها الطلب في الشرق والغرب على السواء. وتجد طريقها بسهولة للطبقات الغنية، وينظر الأوروبيون لمصر وآسيا كمصدر من مصادرها. ومنها الفيروزج والسافير، والرميات، والفيروز، والماس، واللؤلؤ، والمرجان، وعين الهر، والذهب (١٦٥). ومن أظهرها اللؤلؤ، ومصادره في المضيق الذي يفصل الهند عن سيلان وفي الخليج الفارسي، كما يوجد مغاص له في بحر عمان، والبحر الأحمر. وأفضل أنواعه العماني والفارسي، وأقله الهندي والقلزمي (١٦٦) وتدخل المراكب لصيده في مواسم معينة ويصدر معظمه للخارج. وكان ملوك وأمراء الهند يعتبرون مغاص اللؤلؤ في قاع المحيط من أملاكهم، ولما وصل البرتغاليون للهند كانت سفنهم تصل مرتين كل عام الى مضيق سيلان والهند لحمل اللؤلؤ ويقال ان حصيلة كل ثلاث سنوات لا تقل عن حمولة ٤٠٠٠ قارب. أما لؤلؤ

(١٦٣) — Darnes, Ibid, pp. 136-142-143, & N. I. p. 137. T.L.

(١٦٤) من أنواعه ما يستخرج من أفغانستان واليمن « وكان من أراد العقيق يشترى قطعة أرض بصنعاء فربما خرج له شبه صخرة أو أقل وربما لم يخرج له شيء » .

الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ١٥ .

منز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥ .

(١٦٥) منز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

— Day, Op. Cit. p. 80.

— Ferrand, Op. Cit. II. p. 562.

— Darnes, Op. Cit. II. p. 224.

(١٦٦) الجاحظ : المصدر السابق ص ١٢ .

منز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥ .

القلقشندى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤١ - ٣٤٢ « يذكر ان أفضل أنواعه

ما يستخرج من الخليج الفارسي عند جزيرة حرك بين قيس والبحرين » .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 648.

منطقة كولام ، فيضاد لحساب التجار العرب ويرسلون أحسنه لأمرء الهند ويصدر الآخر للخارج (١٦٧). أما المرجان فمصادره غربي البحر المتوسط على طول الساحل الأفريقي وهو من السلع التي يصدرها الغرب للشرق وأفضل مناطق حيدته ستة بالمغرب ومرسى الخرز قرب رأس بون في تونس ، ومسايد شمال افريقية مشهورة منذ القدم ولا تقل جودتها عن مسايد سردينيا ، وكورسيكا ، وصقلية ، وتصدر أحيانا الى أوروبا لتكمل أجزاء من المجوهرات ، وأكثرها يصدر للهند والهند الصينية في مقابل غلاتهم للغرب . ويهوى أهالي كشمير المرجان ويذكر البرتغاليون شدة ولع الهنود به . وتحمله الى مصر سفن قطلونيا وقاورنسا والبنديفة ومنها يصدر للشرق (١٦٨) .

وفي ذكر المعادن النفيسة لا يسكن اغفال ذكر الذهب والماس . فالذهب أكثر المعادن الثمينة شيوعا بين الناس غنيهم ، متوسطهم وفقيرهم ، وفي مصر توجد مناجمه بالصحراء بين أسوان وعيذاب . وأكبر مدن انتاجه العلاقي ، ويتجول العمال ليلا في الليالي غير القمرية ويعلمون المواضع التي يرون فيها شيئا مضيئا ، فإذا ما أصبحوا حصلوا أكوام الرمل الى الآبار لغسلها واستخراج التبر منها ، وتحمله قوافل السودان في طريقها الى مصر (١٦٩) . أما الماس الطبيعي فمصادره في العصور الوسطى الشرق الأقصى ووسط الهند ، وهو نوعان : البلوري وهو أفضله ، والديتي والذي يخالط بياضه صفرة ، ومن خواصه

(١٦٧) منز المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٩ .

ابن الوردي : المصدر السابق ص ١٢٦ .

— Depping, Op. Cit. I. pp. 146-147.

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 649-650.

(١٦٨) منز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٥ .

— Heyd, Ibid, II. pp. 668-669.

(١٦٩) منز : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

أنه يقطع غيره من الجواهر ولا ينكسر . ويشطف لاستعماله في
التزين (١٧٠) .

واستخدم النحاس الوارد في سك العملة وتغطية أبواب المساجد
وقصور الخلفاء والسلاطين وصناعة التحف ، كما عرفت صناعة التكفيت
بالبرونز والنحاس والذهب والفضة . وأكثر المباليك من صنع الأواني
والحلى من الذهب والفضة وزينوها بالكثير من النقوش والكتابات
واستوردت مصر من أوروبا أدوات حديدية وذهباً خاماً للسك والحلى .
ونقل الأوروبيون عن المصريين الأواني المعروفة باسم « أكوامايل »
وهي أباريق كثر استعمالها في الكنائس والمنازل - كما اشتهرت بلاد
القوقاز بالصناعات الدقيقة من البرنز والذهب والفضة وتصدر كلها
لأسواق شرق البحر المتوسط وأوروبا (١٧١) .

وبلغت صناعة الزجاج والبلور أوج عظمتها في مصر والشام في
العصر المماليكي، وامتلات أسواقها بالتحف البلورية والزجاجية الموهة
بالذهب والميناء والبريق المعدني وإذا كانت الزعامة في هذه الصناعة
للشام ومصر ، إلا أنها عرفت من قبل في العراق . ومن أبرز ما وصل
إينا منها المشكاوات الموهة بالميناء، وكانت تعلق في المساجد والمنازل،
وعليها كتابات تاريخية ومنسوخة بخط من العصر المماليكي . ويرجع
أن صناعتها قامت في مصر اقتصاداً للنققات وتجنباً لخطر الكسر عند
نقلها (١٧٢) .

(١٧٠) متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٧٣ .

القلشندي : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(١٧١) زكي حسن : فنون الإسلام ص ٥١٥ - ٥١٨ و ٥٥٢ - ٥٥٦ .

سميد عاشور : مصر في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ص ٢٠٥ .

(١٧٢) زكي حسن : المصدر السابق ص ٦٠٧ .

الفصل الخامس

النظم التجارية

سبق الشرق فى نظم التجارة ونقل الغرب عنه :

اتخذت النظم التجارية فى العصور الوسطى صفة المحافظة على القديم واستمراره جنباً الى جنب مع ما يستحدث من نظم . فالتقوانين التى نظمت التجارة فى القرن الثانى عشر مثلاً ، استمرت سائدة وسارية حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، الى جانب ما استحدث من النظم اذ ذاك . واذا أشارت الوثائق الى تعديل ما . فهى تذكر القديم ومعه ما استجد من تعديلات ، وعلى هذا فان الحياة الاقتصادية فى القرن الخامس عشر استمرت على نفس النظم والقواعد السابقة (١) .

ويجب ألا يغرب عن البال ونحن نورد هنا بعض الوثائق الخاصة بالنظم التجارية أواخر العصور الوسطى أننا نتكلم عن عصر جامد تسوده التقاليد والمحافظة على القديم وعن فترة من التاريخ لم تتطور الا بعد جهود جبارة ، فقامون الملاحة البحرية التجارية مثلاً ظل كما هو دون تغيير منذ القرن الثانى عشر حتى أواخر القرن الخامس عشر،

(١) -- Vailet, J., Histoire Des Faits Economiques Des Origines Au XXe siècle, p. 147.

وقد ذكر صاحب هذا المؤلف النص الآتى ص ١٤٧ :

— « La Vie Economique Continue au XVème siècle sur les bases antérieures. »

فى حين أضيفت اليه تعديلات جديدة لم تفقده أصوله بقدر ما تعدلت لتلائم حركة الكشف الجغرافى التى اشتد ساعدها منذ منتصف القرن الخامس عشر بدخول رواد البحر الأوربيين بحار ومحيطات جديدة بالنسبة لهم ، بل ان بعضها لا يزال سائدا الى اليوم ، والقياس هنا مع الفارق بالنسبة لطبيعة الملاحة فى القرن الخامس عشر وفى القرن العشرين (٢) .

وقام بالنشاط التجارى بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى تجار شرق البحر المتوسط وغربه ، اذ نقلها تجار شرقه من مصادرها فى الشرقيين الأدنى والأقصى ووزعها تجار غربه فى أوربا . لذا كانت معظم القوانين والنظم التجارية من وضع حكومات وهيئات التجارة فى المنطقتين ، كما طبق كلاهما نفس الأنظمة الى حد كبير وان اختلفت أحيانا فى مظهرها الا أنها تشابهت فى جوهرها ، ومظاهر الاختلاف هنا تعود الى تباين الحياة الاجتماعية فى كليهما . (٣) ولتجار مصر والشام وكلامومندوبون فى الشرق الأدنى والأقصى ولتجار الغرب مثل ذلك فى شرق البحر المتوسط . وبلغ النظام درجة راقية على يد القناصل التجاريين الغربيين فى مصر والشام حيث طبقوا فى وكالاتهم وفى فنادقهم وعلى سفنهم فى عرض البحر النظام السائد فى أوطانهم مع عدم الاخلال بالنظم المحلية . ويبدو أن تجار الغرب قد عرفوا معظم النظم المالية والتجارية من الشرق ابان اتصالهم به للمتاجرة وتأكد ذلك

(٢) — Maillat Ibid, p. 138.

(٣) — Horn, Paul V., International Trade, Principales & Practices, p. 82.

(٣) مفهوم كلمة الشرق والغرب فى هذا البحث وفى هذا الفصل بالذات هو شرق البحر المتوسط وغربه . وفى هذا المعنى انظر :

بداية الفصل الثانى والملاحظة بالهامش وكذلك توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) البحث الخامس ، لروبرت لوبيز ص ١٤٢ ملاحظة (١)

خلال الحروب الصليبية ، فدمشق مثلا كمرکز من أكبر مراكز تجارة شرق البحر المتوسط فى العصور الوسطى .. « ارتقى أهلها بالصناعة البحرية فوضعوا قوانين الملاحة ، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر كما شرحوا الكفالة المالية وأنشئوا المصارف ووضعوا السفناتج المألوفة بل هم باعثو روح الحركة المالية فى مصارف الشام الحديثة ، كما مهدوا الطرق وأنشئوا المدن ومراكز التجارة والفنادق والرباطات .. » (٤) وقد أدى هذا كله الى استحداث نظم جديدة نابعة من متطلبات الحياة التجارية فى شرق البحر المتوسط وغربه (٥) .

بعض المشكلات التى واجهت تجار العصور الوسطى :

ولم يكن الطريق أمام تاجر العصور الوسطى ممهدا سهلا ، بل كان محفوقا بالكثير من المخاطر والمتاعب ، أكثر بالطبع مما يلاقه تاجر العصور الحديثة ، فوسائل النقل اذ ذاك بطيئة وقليلة ، وكثيرا ما اذاه أتباعه وعسلاؤه ومنافسوه بالخيانة أحيانا والمعاملة السيئة أحيانا أخرى ،

(٤) محمد كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ٢٦١ .
— Archer, The Crusades, pp. 438-439.
— Lopez, R. Ned. Trade in the Mediterranean World pp. 221, 222 CHP. 12 DOC. 111.
— Depping, G.B., Hist. Du Commerce Entre Le Levant et L'Europe, T. I. pp. 81, 82, 83.

(٥) « اذا كان التفوق الاقتصادى للعرب على الشرق لا يريد نمره على ١٠٠٠ سنة فان تفوق أهل الشرق يرجع الى أربعة آلاف سنة ق.م. ان لم يكن قبل ذلك » .
توفيق اسكندر : المرجع السابق ، البحث الخامس ص ١٤٢ .

« ولما كان الشرق هو رائد التجارة منذ العصور الوسطى المبكرة فانه يمكن أن يقال ان الشرق هو الذى مهد لأحداث التطور الذى شمل النظم التجارية التى سادت العالم منذ انشاء الوسطى وبداية العصور الحديثة » .

— Maillat, Op. Cit. p. 136.
— Wiet, G., Précis de L'Histoire, T. 11. pp. 274-275.
— Clerget, Le Caire, Etude De Géographie... p; 309.

بين السلطات المالية وحكومات التجار الأجانب (٧) . واختص

(٧) المقيزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٤١٥ « تعتبر المحكمة العليا في عصر المماليك محكمة الاستئناف وتمتد برياسة السلطان يومى الاثنين والخميس في دار العدل أو في الديوان ومن أعضائها ناظر الحسبة في القاهرة أو في الثغر حسب موضوع القضية . وأعضاء المحكمة هم : عن يمين السلطان يجلس قاضى الشافعية والمالكية وعن يساره قاضى الحنفية والحنبلية ثم الوزير وكاتب السر - أما قضاة المسكر الثلاثة فيجلسون عن يمين المالكية وهم الشافعى ، القلجى ، فالملكى ، ووكيل بيت المال . ثم المحتسب - وللاسنكدرية محتسب خاص بها » .

وقد تضمنت المعاهدات تسويما بخصوص النقاضى كالاتى :

(١) معاهدة بين سلطان مصر وملك أراغون برسباى ١٤٢٢/١٤٢٨ العوسو الخامس ١٤١٦/١٤٥٨ في رمضان ٨٣٣ - ٨٦٣ هـ .

(أ) اذا كانت الخصومة أو النزاع بين تاجر أراجونى وآخر مصرى ، وارتضى الخصمان أن يوفق بينهما القنصل ، كان لهما ذلك . ويمكن القنصل من أداء هذه المهمة القضائية ، وإذا لم يرض أحدهما بذلك « أصبح الأمر من اختصاص ملك الأمراء أو ناظر الديوان » (راجع المعاهدة فصل ٢٦) .

(ب) الجرائم والنزاعات التى تقع بين افراد الجالية الواحدة الأجنبية والمرجع فيها لتفصلهم وحده دون تدخل من السلطان أو من أمير الأمراء (راجع ٠٠ المعاهدة فصل ٢٦) .

(ج) يفصل بين الأراغونيين والمصريين السلطان نفسه ، أو أمير الأمراء أو الناظر في الديوان . ومن حق التاجر الأراغونى أن يصل الى السلطان إذا لم يرتض بحكم الحاكم أو القاضى المحل فيرفع دعواه الى السلطان نفسه أو أمام قاضيه . على ألا يؤدى ذلك الى الانتقام منه أو التعصب عليه أو تعقبه . انظر المعاهدة فصل ١١ .

المعاهدة منشورة بعدد المجلد ٥٥ السنة الرابعة سبتمبر ١٩٦٠ ص ٤٨ وعدد ٤٩ : يناير ١٩٦١ السنة الخامسة ص ٨٣ .

٢ - بالملاحق نص لاتفاقية تريفيزاتى/الغورى ١٥١١ - ١٥١٢ من M. Renaud, Journal Asiatique, TOM. IV.

بخصوص النقاضى في بلاد السلطان ، وخاصة في دمشق ، وموافقة نائب السلطان عليها في دمشق (فقرة ٤) لا يحق لأى حاكم أن يعاقب البنادقة أى عقاب على الأقل بعد أخذ إذن من السلطان نفسه .

٣ - بالملاحق نص بمعاهدة البنادقة مع السلطان سليم الأول بالقاهرة ١٤ من فبراير ١٥١٧/٢٢ من المحرم ٩٢٣ هـ المادة ٥ - القنصل دون سواء هو الذى يباشر الشئون القانونية والقضائية لمواطنيه ويبيت في الأمور لصالحهم .

(أ) أما من يرفض الانصياع لحكم القنصل ويلجأ الى القضاء الوطنى لينقض قانونا أو حكما أصدره القنصل فلا يسمح له ولا يحق للقاضى استئنافه .

Wiet, Précis De L'Histoire D'Egypte T. III, pp. 96 ff.

بل انه في كثير من الأحيان كان يلتقى معاملة تنسم بالقسوة والخشونة من الحكومات والشعوب الأجنبية . وقد بذل جهودا جبارة دون أى ملل أو كلل ولكنه كان ينتهى أحيانا بالفشل السريع المفاجئ ، وكثيرا ما كانت تصفى تجارته تبعا لقوانين التفاليس الصارمة ، ومع ذلك استطاع تاجر العصور الوسطى أن يتغلب على كثير من العقبات ويعوض خسائره بإبرام عقود التأمين ودافع عن نفسه وتجارته باستخدام نفوذ حكومته في التخفيف من أثر قوانين البلاد الأجنبية على تجارته وأرباحه (١) . وتنشأ المنازعات عادة بين التجار الأجانب والوطنيين والسلطات المحلية لأسباب كثيرة قد تتعلق بوجود السلعة ، أو سعرها أو العسلة ، أو نحو ذلك . وفي مصر كان القضاء المحلى هو المسئول عن فض المنازعات بين التاجر الوطنى والأجنبى ، ويفصل بينهما القاضى أو أمير المدينة أيا كان نوع النزاع . والقرار هنا بمثابة حكم محكمة الدرجة الأولى الابتدائية ، وللمتنازعين أن يستأنفوا الحكم وفي هذه المرة يكون الاستئناف أمام السلطان نفسه بالقاهرة أو من ينوب عنه ويسافر اليه الطرفان المتنازعان . وإذا كان النزاع بين أجنبيين فقتضاهما مختصان بفض هذا النزاع ولكن يحق لهما الاستئناف أمام السلطات المحلية وأمام السلطان نفسه . وقد نص على ذلك في المعاهدات المبرمة

(٦) موضوع العلاقات بين التجار الأوربيين والسلطات المحلية في مصر والشام قديم قدم الاتصال التجارى بينهما - ولا يمر عام دون وصول بعثة دبلوماسية للتفاوض في شأن تخفيف القيود على التجار الأجانب وحل مشاكلهم مع الهيئات المشرفة على التجارة بالجمارك أو بخصوص الضرائب ومختلف الرسوم المفروضة ، وفي كل الحالات تقريبا كانت تستجيب السلطات الحاكمة في مصر مما نشط التجارة وخفف العبء فعلا على التاجر الأجنبى .

Lopes op. cit. p. 238

انظر الفصل الثانى « العلاقات التجارية الخارجية » .

القضاء كذلك بنظر الدعاوى بين طوائف التجار الأجانب بصفة عامة شرقيين أو أجانب ، فقد حدث عندما انضمت بيزا الى فلورنسا أن طالبت الأخيرة بفندق البيزين في الاسكندرية ، ولكن السلطات كانت قد منحتة لطائفة التجار الأتراك ، ولما عرض النزاع على قاضى الاسكندرية حكم بعدم شرعية اعطاء الفندق للفلورنسيين بعد أن سكنه الأتراك المسلمون .

ومثل هذا الحكم كان نهائيا لا يقبل الاستئناف (٨) . ومعظم القضايا أمام المحاكم الابتدائية والمستأنفة بين الأجانب شرقيين وغربيين ، أو بينهم وبين الوطنيين كانت قضايا تجارية عن الخلاف فى بيع التوابل أو السلع الشرقية والغربية وما قد يحدث خلال ذلك من خلاف على السعر أو النوع أو العمليات المالية والمعاملات المصرفية أو المقايضة أو بين التجار وهيئة الجمارك نفسها (٩) .

== بالملاحق معاهدة بين السلطان قايتباى ولورنزوميدتشى حاكم فلورنسيا ١٤٨٨ من Amari, I Diplomi Arabi XLV pp. 363-369.

(المادة ٢٥) اذا حدث خلاف بين تاجر من الفرنجيين وتاجر مسلم وأراد كلاهما الاستئناف أمام السلطان فيجب أن ييسر لهما الأمر وفى حالة غيابنا يتوب عنا الحاكم أو نائبه أو الكاتب (كاتب الديوان) وألا يمنع أى شخص من المثل أمام السلطان للمقاضاة وخاصة من التجار الفرنجيين .

٥ - وكذلك المعاهدة الشاملة بالملاحق بين فلورنسا والسلطان قايتباى ٢٢ من فبراير ١٤٩٦/١٨ من ذو القعدة ٩٠١ هـ فصل ٣٢ و ٣٣ . وكذلك فصل ٥ وفصل ١٠ بنفس المعاهدة (ويشير كذلك الى حق الاستئناف الممنوح كذلك للبتادقة أمام السلطان « ان كنا بالأبواب الشريفة أو النايب ، أو الحاجب أو المباشرين بالثغر »

Amari, Ibid, XL. pp. 184-209.

(٨) انظر الفصل الثانى فى جزء العلاقات بين السلطان اينال والفلورنسيين «العلاقات التجارية الخارجية»

Heyd, Op. Cit. II. pp. 488-489.

(٩) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ ص ٩٨ : يذكر فى حوادث شهر ربيع الآخر ٩١٢ هـ ٥٠ وفيه وقع أن شخصا من الأتراك يسمى مامى الداودى - ابن الأمير أبا يزيد أحد المقدمين - ضرب شخصا من تجار الأروام بسبب مشترى بقل . فلما شربه سال دمه وتطلع التاجر وشكا الى السلطان فرسم لثقيب الجيش بالقبض عليه . فلما قبض عليه ثقيب الجيش هرب من عنده فحصل على الثقيب مالا خير فيه

نظام النقل البحرى فى التجارة :

ومن أهم ما كانت تهتم به الحكومات والهيئات الموكل اليها الشؤون التجارية الخارجية هى « عمليات النقل البحرى التجارى » . وقد نظمت هذه الهيئات والحكومات فى شرق البحر المتوسط موضوع النقل البحرى ، فعدلت القوانين القديمة ووضعت القوانين الجديدة الثابتة لتتلاءم مع روح العصر . ويرجع قانون النقل البحرى التجارى فى العصور الوسطى الى أيام الحروب الصليبية حين بدا واضحا مدى الحاجة الى قوانين تنظم نقل الحملات الصليبية ورحلات السفن التجارية للشرق . وظلت هذه القوانين بعد تعديلها سائدة حتى أوائل العصور الحديثة ، بل انها كانت « قاعدة للكشوف الجغرافية والتى احتضنها الأمير هنرى الملاح فى القرن الخامس عشر وآتت ثمارها وأخره وأوائل القرن السادس عشر ، وعندما اتخذت التجارة مظهرها الجديد بعد « داجاما وكولبس » انتهى أثر الحروب الصليبية بسعائها العام المعروف وهو « المعنى الدينى » الى معناها الحقيقى وهو الاستعمار الذى شمل القرون من السابع عشر الى التاسع عشر (١٠) . وقد اتبعت الدولة البيزنطية ومن بعدها الدولة العثمانية والجمهوريات الايطالية والهيئات التجارية البحرية التى لها مصالح فى بلاد السلطان المماليكى ، وخاصة فى موانئ مصر والشام قانونا بحريا لم يتغير كثيرا منذ القرن

= ويستطرد ابن اياس بأن السلطان لا يقبل الشفاعة فى الهارب ولا فى النقيب وعاقبهما ورد الحق لصاحبه .

ويذكر المقرئى : الخطط ج ٣ ص ٣٦٠ « ان بعض تجار العجم استأنفوا ونظلموا للسلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون بدار العدل عام ٧٥٣ هـ من حكم القاضى الحنفى جمال الدين عبد الله التركمانى فى خلافهم مع بعض تجار القاهرة ، ولما حقق السلطان فى القضية أمر بالافراج عنهم ورد أموالهم » .

Archer, Op. Cit. p. 438.

(١٠)

النوع من النقل البحري مع فائدة تصل الى حوالي ١٦٦٦٪ من
رأسمالها وهو سعر أكبر مما كان يتبع في غرب أوروبا (١٢) .

وبخصوص القروض البحرية التجارية كاحدى النظم السائدة فى
عمليات النقل البحري فان تاريخها كالقروض العادية يرجع فى نظامه
الى العصور الوسطى المبكرة . وربما الى عهد الرومان والاغريق .
وتنص عقودها على تعهد المقرض هنا فى التجارة البحرية بسداد
القرض فى حالة عودة السفينة الحاملة للمبلغ المقرض أو البضائع
المستراه به سالمة ، والقرض البحري اما أن يكون لرحلة الذهاب
فقط ، أو لرحلة الاياب ، أو لهما معا . « ولما كان القرض البحري
يتضمن مخاطرة من جانب المقرض فانه فى العصور الوسطى حتى
المتأخرة منها أقرت السلطات الدينية فى بعض الحالات شرعية الحصول
على نسبة معلومة من الربح على القرض ، وهو ليس كفائدة بقدر
ما اعتبر تعويضا عن المخاطرة والمغامرة ولتفادى تحريمات الكنيسة تقرر
عدم ذكر أى ربح أو نسبة تعويض صراحة ، بل نسبة لضمان تعويض
المقرض بحيث لا يمكن الاعتراض عليه ولو ذكر مقدما » (١٣) .

(١٢) عن نظام تاجير السفن الدائمة للشرق انظر أيضا

— Lopez, Op. Cit. pp. 239-244. DOC. 123.

وبخصوص السفن الغارقة الوارد ذكرها فى القانون فانه كان ينص فى المعاهدات
والاتفاقيات من العصور الوسطى على أن السلطات تنفذ السفن التي تفرق للنجار فى مياهها
وترد أموالها لأصحابها أو للقبض على ذلك فى المعاهدات مع السلاطين
الماليك . وأصل ذلك أنه كان يطلق عليه اسم Jus Naufragii ، أى طرح البحر .
أو ما يلقبه البحر للشاطئ . « ولم يكن فى البداية قانونا بل هى عادة منيعة . الا اذا غرقت
سفينة فى بحر أو نهر فان سلمها المنقذة هى ملك السكان المحليين فى المياه الإقليمية
للدولة التي أنقذت السفينة كذلك البحارة والتجار يفقدون حريتهم . ولكن منذ القرن
التاسع اتفق دوق نابلى وحاكم سالرنو على ملائمة هذا . وإيدهم فى ذلك البابوية لحماية
السلع والسفن وكل ما يتعلق بالسفن الغارقة » .

— Lopez, Op. Cit. p. 304 & R. 3.

(١٣) فى هذا يذكر لوبيز أن نسبة الربح صراحة برغم تحريمات الكنيسة موجودة =

الثالث عشر مأخوذا من قانون بحري لجزيرة رودس (١١) التي كانت
تمتلك اذ ذاك أسطولا ضخما له نظمه وتقاليده وقوانينه ، ومن أهم
بنوده : —

١ — قوانين خاصة بملكية السفينة وطاقتها .

٢ — مسئولية قائد السفينة (القبطان) عن سلامة السفينة
والركاب وودائعهم .

٣ — فى حالة غرق المركب فعلى صاحبها أن يدفع تعويضات
لأصحاب السلع بما يوازي خمس القيمة من البضائع المحبولة اذا كان
التعويض فضة ، والعشر اذا كان التعويض ذهبا ، والحوالات العادية
البسيطة لا تعوض .

٤ — الاذن باستثمار الأموال بطريقة عملية فى شحنات النقل
البحري عن طريق القروض البحرية التجارية . وبخصوص هذا البند
نلاحظ أن الهيئات المختصة بالتجارة فى الحكومات فى العصور
الوسطى فى البحر المتوسط كانت تسمح بهذه القروض البحرية ، وبهذا

(١١) وهو معروف باسم «The Rohdisian Law»

— Thénau, Voyage D'Outre Mer. p. 116.

— بخصوص رعاية السفن وقت العواصف فانها ذكرت فى رسائل وبمعاهدات ،
العصور الوسطى .

— Senato Secreta, Rag XLIV. f. 92 V.

— Instructions à Dominico Trevisan Ambassadeur Au Sultan 31-12-1511.

يذكر فى فقرة (٩) طلبنا فى عدة مرات فى حالة مفاجاة الزواجر لنا ليلا أن يؤذن للسفن
بأن تلجأ للميناء وبدون استئذان وهو مطلب عادل ويمكن الحصول عليه الملحق برقم (٨)
وبخصوص السلع الغارقة « السلع التي تتعرض للغرق يصير انقاذها وترد لأصحابها
البنادقة — أما السلع التي تقذفها الأمواج للشاطئ بعد غرق السفينة فهي ترد لأصحابها » .
الملحق رقم (١٥) مادة (١٠)

— Wiet, Op. Cit. II. pp. 274-275.

— Poston, H., Camb. Med. Trade, Vol. II. pp. 96-97.

ومن الأسباب التي دعت التجار الى استخدام عقود القرض البحري في التجارة ما كانت تتعرض له السفن التجارية والعمليات التجارية البحرية من أخطار كثيرة وخاصة في القرن الخامس عشر بعد دخول العشانيين البحر المتوسط منذ سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ واستداد الصراع بينهم وبين الجمهوريات التجارية الإيطالية وفرسان رودس . وكذلك منذ نمو القوى الوطنية في قشتالة وأراجونا والصراع بين هذه القوى وعرب الأندلس ، بالإضافة الى العواصف والأنواء والقرصنة والمصادرة في موانئ الأعداء ، لذا لجأ التجار الى نظام القرض البحري كوسيلة لنقل أموالهم التي تتعرض لهذه الخسارة والأخطار الى شخص آخر مسئول عن ضمانها في صورة قرض ، ثم حل محله بالتدريج منذ القرن الرابع عشر حتى العصور الوسطى المتأخرة عقد التأمين البحري ، وفيه يتعهد صاحب السفينة بنقل سلع لأحد التجار ، وثمن السلع قرصا للتاجر وعند وصول البضائع سلمة يرد التاجر القرض ، وإذا حدث أى ضرر جزئي ، يلتزم بالتعويض مع عدم ذكر أى اشارة عن ربح تفاديا لتحريسات الكنيسة ، وان كانت هناك أنواع مستترة من الربح تدفع في صورة مكافآت (١٤) .

= ويعتبر بعض المؤرخين ان نسبة التعويض هذه ان هي الا شكل بدائي للتأمين ، لأنها اتخذت فيما بعد اساسا للتعويض وخاصة في حالات التأمين البحري . بالرغم من ان التأمين البحري لم يظهر الا في وقت متأخر من العصور الوسطى . وينص أحيانا على اعتبار جزء من البضائع المحملة بالسفينة والتي اشترت بالقرض ضامنة لسداد هذا القرض .

Lopez, Op. Cit. pp. 168-169. DOC. 78, p. 169.

(١٤) كان ينص في عقود تأجير السفن على عدد بحارتها المسلحين للدفاع ضد القرصنة . وينص على حقوق وواجبات كافة البحارة وما يجب على أصحاب السفن من امتلاك دفاتر بشأنهم كما يضم لهذه الأوراق بوالص الشحن ويذكر فيها أنواع السلع المحملة على السفينة وخطابات للجهة المتوجهة اليها . ويخصص عقود التأمين فانها حتى ذلك الوقت المتأخر من العصور الوسطى الذي لم تنضج فيه الافكار بعد بخصوص أساليب وقوانين النقل البحري ، فان التأمين كان يعتبر نوعا من المغامرة والمقامرة . وقد لجأ أصحاب شركات التأمين الى اشراك الكثيرين في التوقيع على الصفقات لضمان توزيع خسائر المخاطر .

Lopez, Op. Cit. pp. 239-247.

نظام سفن المدة في النقل البحري التجاري :

ويتصل بموضوع النقل البحري التجاري في البحر المتوسط نظام قوافل السفن الموسمية ، ولا تكاد تخلو معاهدة من معاهدات العصور الوسطى من الاشارة اليها في مجال عددها ومواعيدها ونظمتها وهي المعروفة في تاريخ البندقية التجاري البحري باسم نظام « المدة » ، وهو يقابل كلمة (قافلة) بحرية تجارية . ويؤدي التعبير الكثير الوارد في الوثائق والمعاهدات باسم « مراكب المدة » معنى « القافلة الدورية » أو قافلة الموسم . ومن ثم اختفت كلمة « مراكب » وصارت كلمة « مدة » تعنى « القافلة الدورية » أو مدة القافلة . وتطورت بعد ذلك لتؤدى معنى أوقات وصولها ورحيلها . فمدة سبتمبر مثلا تعنى القافلة التي ترحل من البندقية في هذا الشهر بحرا ومحدد لها مواعيد وصول للشرق ومواعيد عودة للغرب . وتطور التعبير فيما بعد ليشمل أنواعا من « السلع » التي تشحن في تاريخ محدد وتصل كذلك في تاريخ محدد أى من تاريخ شحنها حتى تاريخ وصولها ميناء التسليم . ومن ذلك قطن الاسكندرية الذي كان مسموحا بتصديره في مدة موحدة تبدأ من سبتمبر من كل عام وتنتهى في مارس من العام التالى وقد تستد حتى ١٥ من أبريل . ومثل ذلك بالنسبة لقطن الشام ، فتبدأ سفن مدته في الوصول في شهر أغسطس الى ميناء بيروت لحمل القطن ومواعيدها محددة وان توافقت في كثير مع مواعيد هبوب الرياح السائدة في المنطقة . ويحتفظ أرشيف البندقية بتفاصيل وافية عن نظام المدة في

عن ترك السلع لصاحب السفينة دون مضاحية أو حراسة انظر : Lopez, op. Cit. — DOC. 125 p. 245.

عن (حراسة مسلحة للسفينة) انظر : Lopez, op. cit. — Doc. 126 p. 240.

عن الغاء أجر الشحن بسبب تحلیم السفينة انظر : Lopez, Op. Cit. — DOC. 127 p. 247.

عن استخدام أساليب الملف والدوران في ذكر الربح انظر : Lopez, Op. Cit. — DOC. 136 p. 256-260. 261. — Mailler, Op. Cit. p. 139.

للاسكندرية فى فرع رشيد وقتنا فوة (١٧) . وينتظر أهالى وتجار
البندقية وأوروبا عودة قوافل المدة من الشرق بفارغ الصبر . ويتفق هذا
مع موسم الأسواق الكبرى التى تعقد فى عيد الميلاد فى أواخر ديسمبر
وفى عيد الفصح فى شهر أبريل . وأحيانا تتغير هذه الرحلات فتبدأ
فى فبراير بدلا من يناير وتتأخر تبعا لذلك باقى المراحل شهرا . وفى
هذه الحالة تقصر مدة بقاء السفن فى موانئ الشرق . وتقدر مدة
الرحلة من البندقية الى موانئ مصر والشام بحوالى مائة يوم فستبدا
فترة البقاء فى الاسكندرية أو بيروت التى قد تستمر ثلاثة أسابيع .
والسفن التى تصل قبل المدة الى الاسكندرية لا تجد مطلبيها من السلع
الشرقية وعليها الانتظار لوصول التوابل من القاهرة والمواعيد هنا
لا تتغير أبدا . وكثيرا ما كانت سفن البندقية تعود محملة بالبضائع
من الاسكندرية وبيروت تاركة ما يزيد على حمولتها ووجدت أخيرا حلا
لهذه المشكلة دون أن تترك هذا الفائض للسدة التالية ، ودون أن تخل
بحقوق أصحاب السفن وحقوق الدولة . فكانت ترسل مراكب خاصة
مع مراكب المدة لحمل هذا الفائض تعرف باسم مراكب فائض المدة .
وهذه السفن بحمولتها تخضع لضرائب خاصة ، وقصدت البندقية من
ذلك اخراج هذا الفائض من مخازن الاسكندرية حتى لا يفسد
أو يصادر لحساب السلطات المحلية اذا حدث أى نزاع ، وكذلك
حتى لا يدفع عليه أرضية ضخمة وسفن الفائض تؤجر لفترة محدودة
لترافق سفن المدة (١٨) .

(١٧) انظر الفصل الثالث - الطرق والمراكز التجارية - وكذلك :

- Poston, Op. Cit. II, p. 332.
- Heyd, Op. Cit. II, p. 447.
- Depping, Op. Cit. I, p. 160.

(١٨) شارل ديل . البندقية جمهورية أرستقراطية (مترجم) ص ٢٨ و ٢٩

- Heyd, Op. Cit. II, p. 447.

انظر مراكب فائض المدة فى الفصل الثانى .

وموضوع الاعتداءات على سفن التجارة فى البحر المتوسط كان
مما أولته المدن التجارية فى العصور الوسطى اهتماما خاصا ولا سيما
البندقية لدرء خطر تهجم القراصنة واعتداءاتهم على الركاب ونهب
السفينة وما عليها من سلع لذا لم تخرج سفن التجارة ، دون حراسة
ويقوم بالحراسة الأسطول الحربى ، كما لجأت أحيانا الى تزويد السفن
بأساليب الدفاع عن نفسها ضد أى اعتداء . ومن ثم أصبحت مسألة
حماية المدة اجراء عادى تمارسه الحكومات وتجهز حملة الحراسة مع
كل مدة ، فكل أسطول تجارى أسطول حربى وسفنها تختص بكل
بحر وتحتاط لكل نوع من العواصف المعروفة أو الرياح السائدة .
والأساطيل التجارية الأهلية غير الحكومية كانت تدفع للسلطات خريبة
خاصة بالحماية أنفقت فى بناء السفن الحربية والترسانات والأبراج
والحصون . وفى حالة الحرب أو تهديد الحرب يصير نقل السلع
على سفن الحكومة وحدها التى تحرسها الأساطيل الحربية ، أما
الأفراد فيدفعون ٥٪ ، وأحيانا ٧٪ رسم حماية ودفاع . ولشدة مراس
الأسطول البندقى كان يسع القراصنة من دخول مياه قبرص للتسوين
قبل أن تشرف البندقية على الجزيرة اداريا . وظل هذا قائما بعد اشرافها
عليها منذ عهد السلطان قايتباى (١٩) .

ولم تقتصر وظيفة الحكومة هنا على تنظيم وحراسة سفن المدة
بل عينت لكل أسطول تجارى قنصلا بحريا يرافقه ، من وظائفه فض
المنازعات التى قد تنشأ على ظهر السفن كما كان بعض هؤلاء
القناصل يقوم بعمليات مسك الدفاتر وعمل حسابات السفن وحسابات
السلع وحسابات التاجر بدلا من أصحاب السفن لامكان تقدير الضرائب

(١٩) عن جواز نهب السفن الجانحة انظر سعيد عاشور : أوروبا فى العصور الوسطى

ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦

- Poston, Op. Cit. II, p. 332.

- Depping, Op. Cit. I, p. 156, 160 ; 163 ; & II, pp. 314-315.

انظر كذلك ملاحظة رقم ٣١٢ بعده ووثيقه رقم ١٠٩ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ من لونس

بين الأسواق دفع الحكومات الى تحسين وسائل المواصلات البرية وطرقها ، وعملت بالتالى على تخفيض الجسارك والمكوس المختلفة وتشديد الحراسة تشجيعا لارتياحها وبالتالي ازدهار تجارتها (٢١) .

وازاء كل هذا فضل تجار الطرق البرية اتباع نظام المشاركة فى التجارة ، والدخول فى الشركات التجارية ، كنوع من أنواع الحماية وتقادى الأخطار ، وكذلك لما امتازت به الطرق البرية بعمرانها بالمدن والأسواق مما يزيد فرصة المتاجرة والربح ووجود وكلاء للشركات والتجار على طول الطريق لتسهيل العمليات التجارية والمالية ويشترك التجار معا فى تسويل التجارة برعوس أموالهم ، كما يشتركون فى الادارة والسفر والاقامة ، ويتحمل كل شريك نصيبه فى الخسارة والتضحية ، أو ينال نصيبه فى الربح مثل باقى الشركاء (٢٢) .

ونظام الشركات الذى ساد مصر فى العصور الوسطى المتأخرة امتد اليها من القرون السابقة ، والقاعدة هنا أن النظم لا تبطل انما تستمر مع ما استحدث عليها فقد عرف مبدأ المشاركة لأكثر من واحد فى التجارة ، وعرف الشركاء باسم « المضاربين » والمضاربة أو القراض أو القراضنة نوع من أنواع الشركات ، وفيها يدفع الشخص مالا لآخر ليتاجر فيه ، ويتضمن عقد الشركة نصا على أن يكون الربح بينهما حسب العقد والخسارة على صاحب رأس المال . وقد يكون الربح النصف أو الثلث أو الربع للتاجر ويعتبر رأس المال هنا أمانة لدى التاجر الذى هو فى نفس الوقت وكيل صاحب رأس المال وعقد الوكالة بينهما غير ملزم ، فيستطيع أحدهما أن ينسحب من الشركة بعد حصوله على حقوقه . وأحيانا ينص فى العقد على أن يكون الربح أو الخسارة

المطلوبة ، وعهدت اليهم الحكومات والهيئات المشرفة على التجارة ملاحظة المخالفات على ظهر السفن وتوقيع الجزاءات والغرامات التى تبلغ أحيانا ربع أو ثلث الحسولة ، كما أن القنصل وأعوانه يكونون ما يشبه البوليس الحربى البحرى على ظهر السفن . ويبدو أن وظيفة القناصل البحرىين كانت معروفة لدى شعوب البحر المتوسط منذ القرن الرابع عشر ، وزاد الاهتمام بها فى القرن الخامس عشر لاتساع نطاق التجارة وخاصة فى مصر والشام (٢٣) .

نظام النقل التجارى البرى :

ولم تكن النظم التى وضعت لكى تختص بالتجارة البحرية فقط بل وضعت نظم أخرى تختص بالتجارة والنقل التجارى على الطرق البرية . ولم يقدر لهذا النوع من النقل الازدهار الذى حازه النقل البحرى فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . نظرا لما ساد منطقة آسيا الصغرى ، وشرق البحر المتوسط فى الشام من اضطرابات بسبب الحروب والصراع بين البيزنطيين والعثمانيين . ثم بين هؤلاء والمغول والتركمان والصفويين ثم المماليك ، وإذا أضفنا الى ذلك انتشار قطاع الطرق ، فإن كل هذا انطبع على الطرق والتجارة ولم تعط الحكومات وخاصة العثمانية اهتماما بالتجارة لانصرافها الى الفتح والتوسع وتأمين أطرافها . على أن بعض هذه الطرق كان يقع تحت سيطرة حكومات قوية ، وكان محروسا بالجند المحليين أو الجند المرافقين للقوافل التجارية منها طريق القاهرة/السويس ، والطور أو القلزم ، وطريق قنا/القصير أو عيذاب . كما أن التنافس الشديد

— Poston, Op. Cit. II. p. 333.

(٢١)

— Jacob, Legacy of Middle Ages, p. 444.

(٢٢)

— Poston, Op. Cit. pp. 334.

— Lopez, Op. Cit. p. 246 & DOC. 126.

— Depping, Op. Cit. II. pp. 335-336.

(٢٣)

كلها لصاحب رأس المال ، والوكيل أو التاجر هنا ليس سوى أجير بالراتب والعسولة . وقد استمر هذا النظام قائما في مصر حتى نهاية العصور الوسطى (٢٣) .

ولم تكن العمليات التجارية بالشركات والعقود مقصورة على الوطنيين فيما بينهم ، بل شملت كذلك الوطنيين والأجانب ، بل إن تجار الكاريم أنفسهم كانوا في وضعهم التجاري أحيانا وكلاء لشركات ووكلاء بالعسولة والمشاركة في الأرباح ومن أمثلة هذا عقد شركة بين تاجر كارمي وتاجر فرنجي ، ونص في العقد على أن يكون ثلاثة أرباع رأس المال للتاجر الكارمي والربع للفرنجي وتشغيل المال للفرنجي والربح بنسبة رأس المال مع عسولة للفرنجي (٢٤) .

وكان لهذا النظام مثل في أوربا عرف باسم العقود الشخصية والعقود الثنائية وأساس هذا النظام التجاري وجود شريكين أو أكثر أحيانا ، أحدهما متجول والآخر مستقر . والغرض من هذا النوع من النظم التجارية هو تسهيل العمل على التاجر الذي قد تمنعه ظروف

(٢٣) أبو شامة : الروضتين في اخبار البولتين ج ١ ص ٢٠٣ يذكر عن ابن الأثير ٠٠ خرجت سفن من مصر والشام فاخذ الفرنج في اللاقية مركبين مملوءين بالامعة ، وكان لوالدي في مركب تجارة مع شخصين فلما اعادوا للناس أموالهم لم يصل الى كل انسان الا اليسير . وكان يحمل الناع . فكلف من كان اسمه عليه أو على ثوبه أخذه وكان في الناس من يأخذ ما ليس له وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة . وكان نصرانيا فلم يأخذ الا ما عليه اسمه وعلامته .

البحري : تاريخ الفقه على المذاهب الأربعة ج ١ ص ٤٣ .
— Lopez, Op. Cit. p. 215. DOC. 105. & p. 216. DOC. 106.

(٢٤) دأب التاجر الأفرنجي السلطان بسنة عشر ألف دينار ودفعها له الكارمي « ويستردها فيما بعد من السلطان » ثم دفع الفرنجي أربعة آلاف ليصير رأس المال للشركة ٢٠ ألف ونص في العقد على أن ثلاثة أرباع رأس المال للكارمي والربع للأفرنجي مع حق تشغيل واستثمار المبالغ والربح بنفس النصب .

الفرنجي : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

ابن حجر : الدرر الكامنة ص ٢٠٤ .

مختلفة من القيام بالرحلة بنفسه ، ثم تطور الى نظام يتضمن استثمار الأموال بدلا من تركها عاطلة في التجارة الخارجية ، ولدى عودة الشريك أو الشركاء ببضاعة قومت وبيعت لتقسم الأرباح بينهما حسب نصوص الاتفاق . ويحدد في هذا النوع من الشركات مدة « مضاربة » أو استغلال رأس المال في مدى عامين أو ثلاثة أعوام . وكنتى العقد يعيد الشريك رأس المال مع نصيب الأرباح ويبلغ عادة النصف . ويتحمل المستثمر الخسارة التي تنقص من رأس المال ، والتاجر المتقل يخسر أتعابه أو المكافأة اذا لم تنتج التجارة ربحا . وفي بعض عقود الشركة المذكورة في هذا النظام ينص على أن رأس المال يكون مشتركا والمسئولية بالتضامن بين الشركاء وهذا النوع من الشركات عرف باسم الشركات التجارية البرية Societas Terrea (٢٥) وقد اشتق من النظام المعروف في الشرق .

ومن أنواع الشركات أيضا « الشركات الأخوية Fraterna Compania » والتعاقد هنا يضم أعضاء الأسرة الواحدة الراغبين في الاشتراك برءوس أموالهم في التجارة كما ضمت في بعض الأحيان من لهم علاقة بالأسرة عن طريق النسب والزواج وقد استخدمت المدن الإيطالية هذا النوع من الشركات في تجارتها في البحر المتوسط في الملاحة البحرية بعد أن نجح في نظام التجارة البرية (٢٦) . وتطورت بعد ذلك لنجاحها لتضم أغرابا عن الأسرة في شركة تعرف باسم « شركة التوصية المساهمة Commenda Compania » وينقسم أفرادها الى قسمين قسم يشترك برءوس الأموال وهو Commendator ، والقسم الثاني يشترك بجهدده وهو Tractator أي الفئة العاملة وينص في

(٢٥) — Lopez, Op. Cit. p. 16. DOC. 93. p. 189.

(٢٦) — Lopez, Ibid, pp. 185-186. DOC. 91. pp. 187-188.

— Poston, Op. Cit. 11. pp. 324.

— Jacob, Op. Cit. p. 443.

رءوس الأموال فى الشركات المتحدة زادت فرص التجارة وبالتالى فرص الربح . وقد صاحب ظهور هذا النوع من الاتحادات التجارية تطور المصارف (٢٩) .

نظام تجارة العبور فى مصر والشام :

وحتى نهاية العصور الوسطى ظلت مصر والشام منطقتى عبور للتجارة الشرقية والغربية وعرف هذا النظام باسم « تجارة العبور أو الترانسيت » فتصل السفن الأوربية لموانئ شرق البحر المتوسط المالىكية حيث تجد تجار المنطقة وقد جلبوا المتاجر الشرقية من الهند وشرق الأقصى ووسط آسيا وأفريقية فيتولون نقلها الى أوروبا . والقناصل التجاريون ووكلاء الهيئات التجارية يقومون بعملية تسهيل تجارة العبور وتجبى السلطات المالىكية والتجار الأوربيون من هذا النظام أموالا طائلة كل عام (٣٠) . هذا بالإضافة الى أرباح التجار الوطنيين .

= أما فى التجارة البحرية البعيدة فكان خروج الأعضاء جماعات لضمان اتحراسه من مخاطر القراصنة .

- Pirenne, Hist. of Europe, p. 383.
- Clive, Op. Cit. p. 115.

(٢٩) تطور بنك سان جورج فى جنوة وفروعه فى آسيا الصغرى وعلى البحر الأسود وفى الشام والقسطنطينية ومختلف مراكز التجارة بالبحر المتوسط - نتيجة لهذا النوع من الاتحادات والشركات - بصورة واضحة للتوسع المالى والتجارى المصرى فى العصور الوسطى المتأخرة ، وإن كان تكوينه نتيجة لأعمال مالية شرابية أخرى - (وهذا النوع من الاتحادات لا يقارن بما حدث بعد ذلك فى القرن السابع عشر وما بعده من قيام شركات التجارة المتحدة الهولندية فى أندونيسيا والانجليزية فى الهند فهو فى العصور الوسطى كان نظاما محدودا على نطاق ضيق وإن كان قاعدة لظهور الاتحادات المذكورة فيما بعد) .

— Jacob, Op. Cit. pp. 444 & 449, 450.

(٣٠) ليس أدل على هذا المعنى من أن هيئة التجار الأجانب فى مصر وعلى رأسهم قنصل البندقية ، استطاعوا بفنائهم الفاضل من تجارة الترانسيت أن يدفعوا ١٠٠٠٠٠ جنيه فدية لجانوس ملك قبرس عندما أسره المالىك . =

لنعتقد بأن يكون ربع الربح للعاملين وثلاثة أرباع الربح لأصحاب رءوس الأموال (هذا النوع هو الذى تحدث عنه المقريزى) . وتطور بسرور الوقت الى أن الشريك العامل يستطيع أن يبقى نصيبه من الربح ليتجسد ويصير مبلغا ضخما يضيفه لرأس المال فيصبح حينئذ مشتركا فى الشركة برأس مال وتصير له وظيفتان وربحان . وكذلك حرية أكثر فى توجيه رأس المال . ويستطيع أصحاب رءوس الأموال أحيانا أن يشتركوا فى عدة شركات ويوزعوا أموالهم على هذه الشركات ، لأنه فى اعتقادهم أن وضع رأس المال كله فى صفقة واحدة وعلى سفينة واحدة يعرضه للضياع اذا ما أصيبت السفينة بكارثة أو اذا أفلست التجارة . ولذا نرى صاحب رأس المال يوزعه على عدة شركات لضمان عدم ضياعها كلها (٣١) .

وتطورت الفترة المتأخرة من العصور الوسطى تطورا فى أنواع الشركات يهدف الى تكوين اتحاد من مجسوة شركات متجانسة تاجر فى نوع واحد من السلع تقاديا للمضاربات الضارة بين الشركات المتفرقة . وقد عرف اذ ذاك باسم « اتحاد الشركات » وظهرت أهميتها فى تطور التجارة بازدياد حجمها وتنظيم المنافسة بين الشركات المتجانسة لنوع واحد من المتاجر . وكان من مصلحة هذه الاتحادات أن ترسل سفنها متجمعة فى أسطول واحد وفى حراسة واحدة ليسهل الدفاع عنها ضد القراصنة ، ويتفقون على المنافع والفوائد ولهم مقاييس ونظم لضمان حقوق الأفراد المساهمين ، كما أن الاتحاد مسئول عن أعضائه وهم بدورهم يخضعون لنظامه فيضجون بجهودهم وأحيانا بحريتهم على مذبح المصلحة العامة للاتحاد (٣٢) . وكلما زادت

— Clive, Op. Cit. pp. 116-117.

(٣٢) وكان من قوانين هذه الاتحادات أن افرادها لا يبقون كلهم فى مكان واحد ولا يسافرون كلهم الى مكان واحد . وخاصة فى التجارة البرية . وينفرض الاتحاد أحد الأعضاء التمامين بالسفر وبصاحبه محاسب واتبع مثل ذلك فى التجارة البحرية القصيرة =

ولم تكن موانئ شرق البحر المتوسط هي وحدها التي تقوم بعمليات التجارة العابرة ، بل ان موانئ مصر على البحر الأحمر كانت تقوم بهذه العملية كذلك فتنافست موانئ ومدن الطور والسويس والقلم والقصير وعيذاب ودهلك وسواكن وجدة في جذب البضائع اليها . وان كان محرمًا على الأجانب ورود هذه الموانئ ، ولكن كان مسوحا بذلك العرب والمصريين . ويقوم بعمليات تجارة العبور تجار الكارمية منذ العصر الفاطمي حتى نهاية عصر السلطان قايتباي ، وتحصل جمارك الموانئ على ذلك رسوما عالية ، يضاف اليها عشر فيئة البضائع أحيانا (٣١) . ولأهمية هذه التجارة بذل السلطان الغوري منذ توليه السلطنة جهودا جبارة ضد البرتغاليين في بحر الهند ومدخل البحر الأحمر الجنوبي عندما أدرك خطورتهم على التجارة عامة والعابرة خاصة ، اذا أنها كانت تشل برسومها مصدرا رئيسيا من مصادر ثروة البلاد (٣٢) .

على أن جميع جمارك الدول التي تمر بها التجارة الشرقية الى

== سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١١٤ - ١١٥ .

ابن حجر : انباء القمر ج ٢ (مخطوطة) ورقة ١١٢ .

— Maurice Schemel, Le Caire, p. 185.

— Atiya, The Crusades. Op. Cit. p. 115.

(٣١) لبي بول : سيرة القاهرة (مترجم) ص ٢١٦ .

« لم تكن الجمارك وحدها هي مصدر ثروة مصر في العصر المالكي . بل كانت رسوم تجارة المرور ، وخاصة لسلع الغرب الداهية للشرق الأقصى أو للتصريف في بلاد المالكيين . »

— Ziada, Foreign Relation, p. 209.

(٣٢) « نالت فلورنسا على عهد السلطان خشقدم عام ١٤٦٥ امتيازًا لم يعط لغيرها من المدن التجارية بموجب إعفيت سفنها من التفتيش ومن رسوم العبور اذا حملت سلعا لبلاد أخرى ولم تفرغها في موانئ السلطان وكانت السلطات المالكية تفرض رسم عبور في مثل هذه الحالات . راجع الفصل الثاني وكذلك :

— Ziada, Ibid. p. 245.

— Clive, Op. Cit. p. 99.

انظر كذلك معاهدة السلطان قايتباي وفلورنسا ١٤٨٨ عن عدم دفع رسوم للسلع المارة ولا تفرغ في موانئ السلطان .

الغرب أو العكس كانت تستفيد من تجارة المرور فيها ، وتشمل هذه الفائدة تاجر الجملة والوسيط ، وتاجر التجزئة اذ تزداد الأسعار بعد كل رسم ترانزيت (٣٣) . وكانت القسطنطينية من أكبر مراكز المرور لسلع الشرق الأقصى والبحر الأسود وبلاد الروس ، والصقالية الى غرب أوروبا . وكذلك سلع غرب أوروبا وشرقها والبحر المتوسط للشرق الأقصى وفي فترة انكساش الامبراطورية البيزنطية بسبب اندفاع العثمانيين نحو الغرب نقلت السلطات مهمة الاشراف على تجارة العبور للوكالات التجارية الايطالية كالبندقية وجنوة نظير رسوم اضافية . وقد توقفت تجارة العبور خلال الحروب التي انتهت بسقوط القسطنطينية ١٤٥٣ م ، ثم استؤنفت مرة أخرى . وان كان عن طريق أرمينيا وموانئ الاسكندرونه وایاس في فليقية الشرقية . ومنذ عام ١٤٦١ بعد أن اتجه العثمانيون لاختضاع الجيوب الباقية على البحر الأسود والتجار يتجهون بأعداد كبيرة الى مصر والشام لتتركز «تجارة العبور» فيهما حتى نهاية دولة سلاطين المماليك (٣٤) .

(٣٣) « فرضت حكومة المماليك ضرائب عدة على التوابل التي تمر بالحجاز في طريقها للشمال ، ومنها ضرائب العبور وتجبى في بدر وسنين والعقبة وجسر الحص » . ابن شاهين : زبدة كشف المالك ص ١٠٨ .

واذا وصلت الى موانئ عيذاب أو الطور أو السويس أو القلم أو القصير جبت عليها الحكومة مكوسا أخرى للعبور غير ضرائب الجمارك وتقدر قيمتها على ما كانت عليه في العصر الأيوبي » .

القلشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

المقريزي : الخطط ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٩ .

وقد حدد المماليك قوانين الضرائب في دولتهم على اساس تجارة المرور التي كانت ترتفع بالتدريج تبعًا لاحتياجات الدولة من المال وعلى قدر طلب الغرب للتوابل ومقدار ما يرد منها لاسواق مصر والشام .

المقريزي : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٩ .

— George Dunbar, A Hist. of India, Vol. I. p. 151.

(٣٤) « فرض السلطان برسباي ١٤٢٨ م على تجار الشام أن يدفعوا قيمة المكوس على بهارهم الماير من مكة الى الشام ٣/٤ دينار عن كل حمل ، واعفاء ما يحملونه لمصر =

المنشآت والمرافق التجارية :

ويخدم التجارة مجموعة من المنشآت والمرافق الحكومية والأهلية منها الأسواق والوكالات والقساريات والخانات والفنادق .

الأسواق :

ونظام الأسواق في شرق البحر المتوسط خضع الى حد كبير لتطورات السياسة والحرب والتقلبات الاقتصادية في المنطقة . فنجد أن أغلقت القوات العثمانية الطريق التجارى البرى من وسط آسيا عبر آسيا الصغرى الى أوروبا والشام ، والأسواق على هذا الطريق ينضب معينها من السلع الشرقية شيئاً فشيئاً نتيجة الأعمال العسكرية المتصاعدة ، كما قل مرور قوافل التجارة على مدنه وموانيه لتزايد أخطار الحرب . وظل الأمر كذلك فترة بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ حتى هدأت الأحوال لتفتح الأسواق أبوابها من جديد ولكن لم تدم هذه الفترة أكثر من سبع سنوات ، اذ ما لبث القتال أن تجدد مرة أخرى حين عملت القوات العثمانية على إخضاع الجيوب التركمانية والرومانية الباقية في شرق آسيا الصغرى وعلى البحر الأسود . ومنذ ذلك الحين والأسواق تهجر ويتجه تجارها بأعداد هائلة الى مدن ومناطق أخرى أكثر أمناً واستقراراً ، وهى أسواق الشام ومصر . والواقع أن الصراع فى أسواق القسطنطينية ومدن طرابزون وأماستري وبروسة وأطنة وغيرها من مراكز التجارة فى آسيا الصغرى وعلى البحر الأسود كان صراعاً بين استمرار التجارة من ناحية ونجاح الجحافل

التركية المتقدمة نحو الغرب حتى عام ١٤٥٣ ونحو الشرق عام ١٤٦١ من ناحية أخرى . ولم ينته الصراع الا بعد أن تم للأتراك العثمانيين النصر وخضعت المنطقة كلها لهم ، وبدأوا يستقبلون الأعضاء القدامى للأسواق من جديد ولكن فى ظل سيد جديد .

وفى مصر والشام ركز المساليك جهودهم على ازدهار أسواقهم واستعدوا فعلاً لنتائج الحدث الذى شل حركة الأسواق فى مدن وموانئ العثمانيين عام ١٤٥٣ فدعوا الأمن والاستقرار والحراسة فى الأسواق وعملوا على توسيع نطاق التجارة فيها لامكان استقبال أكبر عدد ممكن من التجار الأجانب ومنح طوائفهم الامتيازات . كما أبقوا على ما كان فيها من نظم تجارية اعتاد عليها التجار . وأجازوا النظم المستحدثة فى نطاق مصالحهم التجارية والعسكرية . ونتيجة لذلك امتلأت أسواق مصر والشام بهؤلاء التجار الأجانب الذين تاجروا فى ظل حكومة قوية وأسواق منظمة وموانئ آمنة . وأعطيت التعيينات لعامل الموانئ والجمارك بحماية الأسواق ورعاية التجارة والتجار الأجانب خاصة ومنع الغش أو نهب التجار . وكان العقاب الشديد يقع على الوطنى الذى ثبت أنه استغل الأجنبى استغلالاً سيئاً ، ويلحق بالمباشرين للأسواق عقاب مماثل ، ونص على هذه التعليمات فى كل المعاهدات (٣٥) .

والواقع أن الأسواق هى أقدم أشكال النظم التجارية . وهى ثلاثة أنواع : أسواق محلية وموسمية ، وسنوية ، ومعظم أسواق الشرق الداخلية محلية ودائمة ، ولها أيام معينة فى الأسبوع ، وان

(٣٥) Gayet, Le Commerce, Hist., Du Commerce, T. II, p. 310.

القلشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٢١١ و ج ١٢ ص ٢٠١ وما بعدها . راجع ما كتب عن هذا الموضوع فى الفصل الثانى .

Thénau, Voyage D'Outre Nor, p. 122.

بالذات ، وإن كان يتحصل منهم مكس آخر فى دمشق انما مكس مكة هو رسم عبور .
ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٢٨ (طبعة كالمغربية)
Poston, Op. Cit. II, p. 95.
Heyd, Op. Cit. II, p. 384.
Lane Poole, Hist. Of Egypt in The Middle Ages, CHP, IV, p. 158.

كانت في وقت مبكر من العصور الوسطى قد اتخذت صفة التخصص ببيع أنواع معينة من السلع ، فهذا سوق البزازين ، وذلك سوق العطارين ، وسوق الفرائيين ، وسوق الحريريين ، وسوق العنبريين . ولكن لما اشتدت حركة التجارة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر لم يعد هذا التخصص يحترم وإن كان سوق العطارين بالاسكندرية اقتصر على التوابل وحدها . وشمل كل سوق أنواعا مختلفة من السلع . وتجار هذا النوع من الأسواق إما مستقرون لهم حوانيتهم ومخازنهم ، وإما متنقلون يقفون بالسوق لفترة متأخرة من النهار ثم ييارحونه ليعودوا إليه ثاني يوم . ومراقبا السوق المحتسب والجهيز ينهان عنهما برحيل هذه الطائفة من التجار عن الأسواق (٣٦) وللاهمية الفائقة للسوق في نظم التجارة كآخر مكان تستقر فيه البضائع والسلع الشرقية المصدرة للغرب أو العكس ، كان لا بد من نظام ضبط وربط دقيقين للأسواق منعاً للتلاعب في الموازين أو الأسعار أو جباية الرسوم أو غش السلع ، وقد أوكل هذا العمل للمحتسب وعماله . ويسير نظام الحسبة والقائمين عليه في الأسواق وفق قوانين عامة وثابتة وقوانين متطورة حسب ما يستجد . والمحتسب

(٣٦) المقرئى : المواعظ ج ٢ ص ١٠٣ و ج ٣ ص ٤٩ - ٥١ و ٥٢ .

المقرئى : الخطط ج ٣ ص ١٥٩ - ١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٨ .

سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٦ و ٢٩٧ .

سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر المماليك ص ٨٦ .

منز : الحضارة الاسلامية (مترجم) ج ٢ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

Clerget. Op. Cit. pp. 307-317, 318.

ولعل التخصص هذا كان من أبرز مميزات الأسواق المشتري الذى يريد عدة أصناف كان عليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا حتى يقضى حاجته ، لأنه لن يجد فى السوق الواحدة سوى نوع واحد من السلع ، وفى نفس الوقت كان لهذا النوع من التخصص محاسنه فلا يستطيع التاجر أن يرفع سعر السلعة حتى لا يشد بذلك عن أسعار التجار لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشتري إذا لم يعجبه سعر السلعة وصنفها استطاع أن يجد ما يريده بسهولة عند غيره .

وأعوانه يشرفون على عمليات البيع والشراء والصفقات الكبيرة بأنفسهم ، وبالإضافة الى باقى مهامهم فهم يقومون بجسع ضريبة « المشاهرة والمجامعة » من الأسواق (٣٧) . ويراعى المحتسب كذلك التسعير الجبرى والأسعار التى تختص بأنواع معينة من السلع لا يحق التعالى فيها - والتفتيش هنا يكون ليلا ونهارا . ويختار المحتسب من ذوى الرأى والمهارة ورعاية شئون الناس والا يقع عليه العقاب (٣٨) .

أما الأسواق الموسمية فكانت تعقد فى مواسم ورود التوابل من الهند والصين لأسواق مصر والشام وجدة ومكة . وتخضع فى ذلك لمواعيد عبوب الرياح الموسمية ، وتصل فى مواعيد سنوية لا تتغير ، وفى نفس الوقت تصل السفن الأوربية من الغرب نحسها فى مواعيد ثابتة وتعقد فى ذلك الوقت المزادات . وفى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ترددت شكوى التجار الأجانب من اجبار عمال الجبرك لهم على الرجيل قبل شراء كل ما يلزمهم وطالبوا بحد فترة المدة الموسمية ، وقد أجبوا الى طلبهم ، ونص على ذلك فى كل المعاهدات من العصور الوسطى والمتأخرة (٣٩) .

(٣٧) المشاهرة والمجامعة ضريبة غير ثابتة وعندما تفرض وتجمع يترك المحتسب ورجاله الرقابة على الأسواق فيرفع التاجر الأسعار لامكان التعويض عما يدفعونه ، وإذا ألغيت قلت الرقابة ثانية وبلغ ما جمع منها على عهد السلطان قايتباى حوالى ١٠٠٠ دينار شهريا وعلى عهد السلطان القورى حوالى ٢٧٠٠ دينار شهريا .

أبو الحاسن : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢ و ١٣ و ٥٩ و ٩٢ .

عن المحتسب انظر - المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٦٣ و ٤٦٤ .

ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

المعمرى : التعريف بالمستطاع الشريف ص ١٢٤ - ١٢٥ .

سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣٨) وكما حدث للمحتسب «بدر الدين مزهر» الذى وقع عليه السلطان قايتباى العقاب لفصله فى نظام التسعير الذى فرض على بعض السلع ولم يقبله الناس وارتفعت الأسعار .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٩ (بولاق) .

(٣٩) انظر بعده عن اجراءات الموائى بشأن التجارة .

والنوع الثالث من نظام الأسواق هو الأسواق السنوية وقد كانت محلية وعالمية واشتهرت بها مدن وموانئ العصور الوسطى عامة في الشرق والغرب ، وتعقد في مناسبات معينة . ففي مكة وجدة كانت تعقد في مواسم الحج حيث يصلها أعداد كبيرة من تجار الشرق والغرب العربى . ووقت تجار أوروبا في البداية مواسم ورودهم لشرق البحر المتوسط بسواعيد هذه الأسواق في الأعياد الاسلامية ، ولكن لما زاد الطلب حددوا وقت ورودهم بنظام المسدة ، لأن نظام الأسواق السنوية في الأعياد كان يختلف تبعاً لمدار السنين ، وهو ما لا يتفق مع مواعيد أوبتهم ورحيلهم ومواعيد أسواقهم في أوروبا عامة وإيطاليا خاصة . وقد تطورت هذه الأسواق لتصير نصف سنوية وربيع سنوية ، وتعقد في هذه الأسواق صفقات البيع والشراء والمبادلة بالنقد والمقايضة والحساب الجارى والبيع المؤجل الدفع ، وتخضع حركة المتاجرة وتقادى ما قد ينجم من مشاكل من التعامل المالى ، وكذلك لامكان حساب مطلوب الحكومة من العوائد وضرائب تجارة المرور (٤٠) .

= ويخصوص الأسواق الموسمية كانت تعقد بها مزادات علنية ، في العصر المماليكى كان ورود التوابل بكميات هائلة مسبباً في اتساع نطاق البيع بالمزاد العلنى وهو نوع من انواع المعاملات التجارية . ومن أهم مراكز المزاد العلنى سوق خان الخليل وتعقد مزاداته يومى الخميس والاثني من كل أسبوع منذ الصباح الباكر وينفض السوق بعد الظهر ويقود البيع الدلال نظير عمولة تحصيل من صاحب المزاد وهو مكلف بالإعلان عن السلع وإرشاد من يريد الشراء الى مكان البيع .

— Horn, Op. Cit. p. 79.

— Clerget, Op. Cit. p. 39.

(٤٠) بخصوص البيع المؤجل الدفع ، انظر أبو المحاسن : حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (مخطوطة) بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٩٧ تاريخ المجلد الأول الجزء الأول حيث يقول «اعتاد تجار مصر التعامل بالأجل مع تجار الشام وهم يسمون هذا النوع من التعامل التجارى باسم «الجديدة» وقد أدى هذا إلى غلاء أسعار بعض الإقتشة كالقماش البعلبكي والزموط . وشكا بعض المماليك السلطانية من ذلك إلى السلطان فكلّم هذا الشيخ على المعجم والمحاسب وأغلظ عليه مما جعل المحاسب يتشاور ، فقفلت التجار حوانيتهم أياماً وكتب =

وأسواق مدينة القسطنطينية في العصر العثمانى منذ عام ١٤٥٣ كانت على نسق أسواق مصر والشام في كثير من مميزاتا . وهى أسواق واسعة ورائجة منذ أن كانت للبيزنطيين ، ومن أشهرها سوق « البازستان » ، وهو مبنى بالحجارة وتفتح أبوابه في ساعات معينة من النهار وفيه أقدم تجار المسلمين وأغناهم ، وتباع به جميع البضائع الشرقية والغربية ، كما أن لكل سلعة ركنًا خاصاً . والسوق منظم ليسهل مراقبة حركة البيع والشراء فيه ، وقد وصل هذا النظام للعثمانيين من البيزنطيين وبقي كما كان عليه من الدقة والنظام بعد أن آلت المدينة للعثمانيين . وتزدحم السوق طول العام وإن كان يقل التعامل في فصل الشتاء بسبب سد الجليل للطريق من تراقيا لآسيا الصغرى (٤١) . وبقيت كذلك الأسواق في سالونيكاً عامرة بعد الفتح العثمانى لها حتى أن سوقها كان من أكثر أسواق شرق البحر المتوسط ازدهاراً وعمراً طوال القرن الخامس عشر وفترة من القرن السادس عشر وأسواقها موسمية بالنسبة للمتاجر الشرقية وسنوية للمسلع الغربية والدائمة ويحضرها طوال العام التجار المسلمون لبيع الحرير الدمشقى والقطن المصرى ، ويحضرها كذلك الايطاليون للشراء (٤٢) .

واشتهر كذلك من بين الأسواق السنوية سوق مدينة ليون بفرنسا ، وكان لويس الثانى عشر قد أعلن في سوق المدينة في عيد الفصح من عام ١٥١١ عن وصول رسالة السلطان الغورى له بفتح أسواق بلاده في مصر والشام للتجار الفرنسيين ومنحهم تسهيلات

= عليهم المحاسب قسائم أنهم لا يشترون البعلبكي من تجار الشام بالجديدة يعنى بالأجل في الدفع) فأمر ذلك بحال التجار قاطبة « ورقة رقم ٣٢٢

— Lionelle Cioli, Hist. Economique, p. 102.

— Horn, Op. Cit. p. 80.

(٤١) سليمان خليل بن جاويش التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية ص ٤١ - ٤٢ .

— Poston ; Op. Cit. II. pp. 97-98.

(٤٢)

واعفاءات جديدة وتسهيل وصول حجاجهم لبيت المقدس (٤٢) .

ولا تقل أسواق الهند وقاليقوط خاصة ، وأسواق الصين ، وعلى الأخص خانقو عن هذه الأسواق ، وإن كانت تفوقها في بيع السلع الموسمية في نطاق واسع ونظام الأسواق هنا أدق وأحكم نظرا لضخامة ما كان يباع كل عام من التوابل وغيرها (٤٣) .

ويؤدي مهمة الأسواق كذلك الوكالات والقيساريات والخانات والربيع التي فوقها ، ثم الفنادق والأحياء التي تحصل اسم المستعمرات . وترجع أهمية الوكالات في التنظيم التجاري الذي ساد العصور الوسطى بشرق البحر المتوسط الى طبيعة عمل القاطنين فيها سواء في التجارة المحلية أو الدولية . ومعظم العاملين في هذه الوكالات من الشباب الذي هجر وطنه بحثا عن الثروة من التجارة واكتساب الخبرات (٤٤) . ومعظم مؤرخي العصور الوسطى من العرب لم يفرقوا كثيرا بين الوكالة والخان والقيسارية والفندق ، إذ لم يجدوا بينها فروقا واضحة ، ولاحظوا أنها تتشابه في وجود حوش في وسطها وحول الحوش ممر يصل الى المخازن ، وقد تكون دورين ، كما أن بها دكاكين ومساكن لكل مفتاح خاص . وبحث المقرئ في هذا الموضوع وخرج بنتيجة أنه لا فرق يذكر بين الوكالات والخانات

(٤٢) انظر الفصل الثاني وكذلك

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 539-540.

(٤٣) انظر الفصل الثالث عن الطرق والمراكز التجارية .

(٤٤) « كان البنادقة يلحقون أبناءهم بالتجار الرحل الى شرق البحر المتوسط فاذا عادوا كانت الثروة والشهرة في ركايبهم ولطول ترددهم على الأسواق والوكالات لم يعد هناك مبرر للفرقة بينهم وبين الوطنيين في مصر والاسكندرية ، فهم يختلطون بهم كتجار يعملون لمصالحهم ومصلح غيرهم بالمقود وخطابات التوصية . »

Poston, Op. Cit. II. p. 308.

« كما ان تجار الكارمية كانوا يلحقون أبناءهم بتجارهم المتنقلة والمستقرة ، لاكتساب الخبرة حتى أصبحت تجارتهم تجارة أسرية » (انظر بعده عن الكارمية) .

والفنادق والقيساريات . وإنها جميعا : مساحات ومؤسسات تقوم بجانب مهمة البيع والشراء ، بمهمة النزل ومحل الإقامة والخازن للواردين من التجار وحفظ أموالهم ، كما أنها تؤدي مهمة البيع بالجملة بجانب البيع بالتجزئة ، فتوزع ما يرد إليها من الأسواق . وقد جرت العادة أن يبنى فوق هذه المؤسسات رباع تؤجر لطوائف معينة من التجار اقتضت على المسلمين فقط (٤٥) . ومن الوكالات الوطنية وكالة قوصون حيث يخزن التجار السوريون الزيت والسم والصابون واللوز والجوز والحلويات وكل أنواع السلع . وبها محال تجارية وفوقها حجرات وهي التي جعلت المقرئ لا يفرق بينها وبين الخان والفندق لتشابه نظامها . ووكالات القرن الخامس عشر شغلت قصور المماليك القديمة والمهجورة وبقي منها حتى أواخر القرن الخامس عشر وكالة قايتهاي ووكالة الأمير ماماي والحجرات فوق الوكالات هي « الرباع » وبلغت حجرات وكالة قوصون حوالي ٣٥٠ حجرة (٤٦) .

وقد تطورت الوكالات من مراكز للتخزين والبيع والشراء الى مجموعة أبنية تؤدي معنى الحى أو المستعمرة وخاصة بالنسبة للتجار الأجانب الغربيين . وفي بداية ظهورها كان عدد القاطنين بها قليلين . ولما زاد عددهم وكثرت تجارتهم ، وأقاموا في الفنادق وأصبح للجلالية

(٤٦) المقرئ : الخلط ج ٣ ص ١٥١ ومابعدها .

— Clerget, Le Caire, p. 309.

(٤٧) يذكر المقرئ أن عدد سكان رباع وكالة قوصون كان حوالي ٤٠٠٠٠ نفس بين

رجل وامرأة وصغير وكبير .

المقرئ : المصدر السابق ج ٣ ص ١٥١ ومابعدها ويقول ده ساسى في تعليقه على رحلة البغدادي « انه يفضل وضع كلمة لوكاندة هنا لاسم الربيع ، كما يمكن أن نعتبره فندقا مفروشا Hotel Garni ويستدرك ليقول الا انه ليس هناك أى مجال للمقارنة بين فنادقنا المفروشة الحالية ومثيلاتها في العصور الوسطى ، وإن الربيع يعمل الحى الرومانى القديم المعروف باسم :

— De Sacy, Silvestre, Relations De L'Egypte. pp. 303-401. 402.

الواحدة حتى خاص بها وأشهر الجاليات التي كان لها هذا البنادقة ولهم حتى في الاسكندرية يضم وكالتهم وفندقين وحماما ومخبرا وكنيسة وهي في مجموعها تعرف باسم المستعمرة . ويحتفظ فيها التجار بسلعهم ويدفعون عنها رسوما للحكومة ويسارسون حياتهم فيها بحرية أوسع . وانتشر هذا النظام في مصر والشام وأسبانيا الاسلامية وآسيا الصغرى وايطاليا (٢٨) .

والفندق كمنشأة تجارية ومؤسسة لخدمة التجار هو قمة ما وصلت اليه طاقة المشروعات التجارية في مصر والشام في العصور الوسطى حتى نهايتها وفترة من العصر العثماني . كما أنه ذروة ما وصل اليه اجتهاد القوامين على التجارة حكومة وتجارا ، وطنيين وأجانب (٢٩) والفنادق في مصر المماليكية والشام هبة من الحكومة للتجار الأجانب ، وينص على ذلك في المعاهدات ، وتستطيع الدولة أن تستردها وقتما

(٢٨) يطلق على مجموع المباني اسم المستعمرة من معنى الاعمار والتعمير راسي بمفهومها الدارج الآن - وربما تؤدي كذلك نفس ما يمنح الآن للسفارات الأجنبية من وجهة النظر الدولية اذ تعتبر هذه السفارات جزءا من وطن السفارة يمارسون فيها حريتهم وكان للايطاليين هذه المستعمرات في الشام والاسكندرية وعلى البحر الاسود . وكذلك في القسطنطينية حتى سقوطها واستمرت بعد ذلك تعمل على نفس النظام ، ولكن تحت الرقابة وفي ظل قود الدولة العثمانية .

— Poston, Op. Cit. II. pp. 307.

(٢٩) اسم الفندق مأخوذ من الكلمة اليونانية Pandokeion ونقلت الى اللغة الايطالية لتدل على المبنى الذي أسفله مخازن وأغلاء حجرات نوم لسكنى الأجانب . - متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

وفي أسبانيا والبرتغال عرف باسم Fondach or Alhondigaje **وتطلق الآن على** مخازن العلاء ولا تزال مستعملة حتى اليوم في ريف المغرب .

انظر : المجلة عدد يناير ١٩٦١ ص ٩٠/٨٩ .

كما ذكر الاسم في مخطوطة سورية قديمة .

— Wiet, Précis, II. p. 274.

- صبحي لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى ص ١٢ .

المجلة التاريخية المصرية - مايو ١٩٥٢ - وتعرف في مصر باسم فندق وفي بعض الاحيان وكالة وفي سوريا باسم الخان وكذلك في تركيا .

— Thenaud, Voyage, p. 22 R. I.

تشاء (٣٠) . وتتبع هذه الفنادق ادارة الجسارك بالمواني ، ويشرف على الفندق موظف يعرف باسم « الفندققي » وقنصل الدولة مسئول عن الفندق وعن تسديد رسوم التجار للسلطان يرصد جزء منها للاصلاحات والصيانة للمبنى ونص على ذلك أيضا في المعاهدات (٣١) . وفي الاسكندرية كانت توزع الفنادق كالاتي : اثنان للبنادقة . وواحد لكل من الجنويين والبيزيين ، وفيما بعد سمح للفلورنسيين بالحصول على فندق آخر ، وآخر لتجار أنكونا ولبارمو ونابلي بالاشتراك مع تجار جايتا .

أما الفرنسيون فكان لكل من مرسيليا وباربون وراجوزا ومعهم قنصلونيا فندق خاص بهم وفندق لتجار كريت رغم أنها كانت مستعمرة للبنادقة . وقبل سقوط القسطنطينية كان لافريقيا فندق بالاسكندرية . وآخر للقيصرية ، وثالث للألمان سكان السواحل ، كما كان للأتراك فندق ، وكذلك المغاربة ، ثم التتار ، اذ كانوا يتاجرون في العبيد ويعقدون صفقات يبعه في فندقهم (٣٢) . واتصفت فنادق الاسكندرية بمبانيها المربعة ، ولبعضها أكثر من طابق ، كما أن لكل فندق حوشا داخليا مساويا ويفتح عليه الطابق الأرضي حيث توجد المخازن . ويستخدم في حزم وتفريغ السلع . أما الدكاكين به فهي مقبية وتستخدم كمخازن كذلك . وفي الحجرات العليا حجرات متعددة لاقامة التجار ، ويحيط بالفندق حديقة يزرع بها التجار أشجارا من أوطانهم تعطى

(٣٠) المجلة : مقال طاهر أحمد مكي ص ٩٠/٨٩ عدد يناير ١٩٦١ .

نص في كافة المعاهدات بمنح الجاليات الأجنبية فنادق وأعطى لهم حتى مساكنها واعمارها ، ومن حق الحكومة استرداد الفندق في أي وقت كما حدث لفندق بيزا الذي سمح للأتراك ورفض قاضي الاسكندرية منحه للفلورنسيين .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 341.

(٣١)

Ziada, Op. Cit. p. 213.

(٣٢)

— Heyd, Op. Cit. II. p. 433.

طرق التجارة الدولية - ٢٨٩

منظرا فريدا آلفوه فى بلادهم ، لذا كان المبنى كله يعتبر قطعة من الوطن الأم يجدون فيه الحرية والأمن والحماية لهم ولسلمهم . ويحرم عليهم شرب الخمر جهارا وإن سح لهم بذلك فى الفندق (٥٣) .

والفندق ملك للسلطات المحلية ولكن يسمح لبعض الفنادق أحيانا بإيواء الأجانب المارين بنصر أو الاسكندرية أو الشام أو الحجاج لبيت المقدس وسيناء لبعض ليالى نظير أجر معلوم يدفعون جزءا منه للحكومة ويسرى على هؤلاء ما يسرى على القاطنين فيه (٥٤) . وعلى عهد سلاطين المسالك كان يحرم على الأجانب داخل الفندق مباحته ليلا أو يوم الجمعة وقت الصلاة . وإذا جن الليل أغلق الفندق من الخارج بوابات ضخمة فتقطع الصلة تماما بين سكانه وبين المدينة . ويحذر الأجانب من التأخر أو الوصول بعد غلق البوابات . وتلجأ السلطات الى هذا الاجراء خشية حدوث أى تصرف من الأجانب قد

— Pernaud, Les Villes Marchands Aux XIVe — XVe Siecles, p. 46. (٥٣)

— Heyd, Op. Cit. II, pp. 433-434.

— Thénau, Op. Cit. II, pp. 22 N. 1.

كان يسمح لهم بإدخال الخمر واستعمالها فى فنادقهم فقط ، وإذا ضبط احدهم خارج الفندق يحبس الخمر أهله وعقبه ، ومن ذلك دانه فى شعبان من عام ٨٢٢ هـ (١٤١٩م) اجتمع العوام بالاسكندرية وهاجموا أماكن الفرنج وكسروا لهم ٣٠٠ بنية خمر ثمنها عندهم ٤٠٠٠ دينار . ثم أراقوا ما وجدوه من الخمر فى أماكن الفرنج الأخرى . ابن حجر : انباء الغمر (مخطوطة) ورقة ٢٥٥ ج ٢ .

وفى عام ٨٣٠ هـ (١٤٢٦م) صدر قرار بمنع الفرنج من حمل الخمر من بلادهم ثم بعد مدة عادوا به الى البلاد الشامية والمصرية فصدر أمر السلطان بإزالة الخمر وشدد فى ذلك . وكتب به الى البلاد الشامية وغيرها . وكتب الى الاسكندرية بالزام الفرنج بإعادة ما يجلبوه من الخمر الى بلادهم .

ابن حجر انباء الغمر (مخطوطة) ج ٢ ورقة ٤٤٧ و ٤٥٣ .

(٥٤) كان فندق نابون أول من قدم خدمة إيواء الحجاج لبيت المقدس والتجار

المارين بنصريح من السلطات المحلية نظير رسم معين .

— Harff, The Pilgrimage Of ... p. 93.

— Sonia, Op. Cit. p. 99.

— Heyd, Op. Cit. II, pp. 431-433-434.

ينافى مع عادات وتقاليد الوطنيين أو يؤذى شعورهم وقت الصلاة . كما قد يؤول فى غير صالح الأمن بالمدينة ، كما ان حجزهم داخل الفندق منذ الغروب كان لامنهم من جانب . وخوفا من تعديهم حدود المتاجرة من جانب آخر (٥٥) . وعندما ازداد نطاق التجارة بشرق البحر المتوسط أواخر العصور الوسطى ، واعتبر الفندق قطعة من الوطن الاصلى حيث يجتمع مواطنو كل بلد على حدة ، مارس التجار وسكان الفندق حياتهم بحرية ، وامتأل الفندق بالتاجر الغربية والشرقية ومنها أصواف وأجواخ الفلاندرز وإيطاليا والحرير من شامبين بفرنسا . والقراء من أقصى شمال أوروبا والبلطيق والقرم والبحر الأسود ، والعبر من شواطئ روسيا (٥٦) . أما السلع الشرقية المشتراة من أسواق الاسكندرية والقاهرة فيسير حزمها فى أفنية الفندق ثم تنقل الى الميناء لتقدير رسوم الجمارك وتشحن بعدها الى السفن استعدادا للرحيل (٥٧) وبالفندق قاعة عامة تستخدم كديوان لعقد الاتفاقيات الخاصة بالتجارة مع الوطنيين والأجانب كذلك ، والصفقات التى تعقد بهذه القاعة تتخذ الصفة الرسمية اذا ما أبرمت داخل القاعة باعتبار أن الفندق قطعة من الوطن الأم للأجانب المتفاوض مع الوطنى أو الأجنبى مثله . ولذا كان الفندق يعتبر بمثابة بورصة تجارية فى مواسم التجار (٥٨) . وتذكر وثائق العصور الوسطى وخاصة الغربية منها أن سلاطين المسالك سحوا باقامة يوم فى الفنادق للصلاة رعاية من السلطان للشئون الدينية والروحية للتجار ، وإن لم يمنع هذا وجود

— Pernaud, Op. Cit. p. 47. (٥٥)

— Poston, Op. Cit. II, p. 307.

— Pernaud, Op. Cit. pp. 48-49. (٥٦)

— Sonia, Op. Cit. p. 99. (٥٧)

Harff, Arnold von, The Pilgrimage Of ... Syria, Egypt ..., 1495-1499 p. 96. (٥٨)

— Pernaud, Op. Cit. p. 47.

كنائس في الشام مثل كنيسة القديس نيقولا للبيزنيين وكنيسة القديسة ماريا للجنوبيين وكنيسة القديس ميشيل للبنادقة ، ويعين البابا كاهنين يرافقان القنصل الذاهب الى الشرق وينص على ذلك في المعاهدات. كما كان للبنادقة كذلك كنيسة بالاسكندرية وجبانة ادفن موتاهم وسح لهم بالدفن في جبانات اليعاقبة الوطنيين (٥٩) .

ولم يكن للأجانب فنادق بالقاهرة ، والحالة الوحيدة التي سح فيها باقامة فندق كان لتجار بيزا عام ١١٥٤ ، كما كان للسياح والحجاج المسيحيين المارين بالقاهرة وكذلك التجار خان خاص لمبيتهم ، وليس فندقا بالمعنى المعروف بالاسكندرية ، وبه مكان لأمتعتهم وسلعهم . وقلة هذه الأبنية للأجانب بالقاهرة ترجع الى أن السلاطين كانوا يحرمون عليهم شراء التوابل والسلع الشرقية من أسواق القاهرة ، اذا لم يكن هناك داع لوجودهم فترة طويلة بالقاهرة ، وان كان مبعوثوهم السياسيون يسكنون فترات متفاوتة طولا وقصرا حسب مدة البعثة . ومبيتهم في الخان المذكور أو فندق بيزا (٦٠) . أما الأجانب من العرب والشرقيين فكانت لهم فنادق في القاهرة ، وهي أجزاء من وكالات أو خانات ، وأهملها : فندق الملك السعيد بدار الرمان وتعلوه

(٥٩) يذكر «هايد» أن القنصل كان يقوم أحيانا بمراسم الصلاة ولكن هذا أمر مشكوك فيه لأن صلاة القديس مقصورة على الكاهن فقط .
«Le Consul pourra faire officier à l'église ou dans sa maison»
— Heyd, Op. Cit. II, pp. 462-463.

كان الكاهن ان وجد يقيم بصفة دائمة في الفندق ويذكر «برايدنباخ» أن قسا .
رهبان برشيو «Lordre des Freres Prech» اقام قداسا بفندق البنادقة في ٢٥ من اكتوبر ١٤٨٣ م أثناء وجوده بالاسكندرية .

— Breydenbach, Les Saintes Peregrinations De... pp. 67-69 & pp. 73-75. & N. I.

— Heyd, Op. Cit. II, pp. 340-341-344

— Depping, Op. Cit. II, pp. 47-49.

— Ziada, Op. Cit. pp. 212-213. 215. R. I. p. 214.

— Heyd, Op. Cit. II, p. 435.

رباع واسعة ، وفندق عسارة حيث ينزل تجار الشام ، وفندق دار التفاح لتجارة التجزئة في سلع الفاكية الواردة من الشام والتي تصله من وكالة قوصون . وحوانيت الفسادق مسقوفة (٦١) . وكذلك فندق مرور وظل باقيا حتى أواخر العصور الوسطى (٦٢) . وللتجار الكارمية فندق بالقاهرة على شاطئ النيل تجاه القسطنطينية حيث ترسو مراكبهم المحملة بسلع الشرق . وقد أوقف الفندق لسكنائهم ، وكان عاملا من عوامل انتظام نشاطهم التجاري بمصر (٦٣) .

ومن المنشآت أيضا « الخان » وهو مبنى ضخم يحتوى على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات للبضائع ، ويتوسط الخان فناء ضخم في هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم . ويجدون في الخان المأوى لهم ولدوابهم خلال رحلاتهم . وحتى القرن الخامس عشر تعددت هذه الخانات وكثرت وأصبحت من أهم مؤسسات التجارة الداخلية والخارجية . وكان كبار رجال الأعمال والتجار وأمرء المسالك يتبارون في بناء المنازل والقصور الفخمة الضخمة يحولونها الى خانات ووكلات وقياسر ويؤجرونها للهيئات أو للتجار بالحجارة بأسعار خيالية وبداخل الخانات مساجد صغيرة ، وخزينة عامة . ويؤدي الخان وظيفة حي قائم بذاته وتزدحم طرقاته وحاراته الضيقة بالناس خلال مزادات التجارة ، ويتكون الخان

(٦١) المقرئى : الخطط ج ٣ ص ١٥٢ .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ج ٤ ص ٤٠ .

محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ص ٣٢٦ .

(٦٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٣ (طبعة القاهرة) .

(٦٣) يرجع أصل فندق الكارمية هنا الى عهد تقي الدين عمر بن اخ صلاح الدين الأيوبي الذي تولى حكم مصر بالنيابة عن أخيه ١١٨٣/٥٧٩م وهو الذي بناء للكارمية - أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٥٩ .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار . المصدر السابق ج ٤ ص ٣٥ - ٤٠

العبور والاستيراد . كما أن الخانات أدت أعمال المصارف في القاهرة فأودع التجار ما يملكونه من ذهب وفضة لدى أمين الخان ومن أشهر الخانات التي قامت بهذه العمليات التجارية والمصرفية « خان بلال و خان مسرور و خان الخليلى » (٦٦) .

وفي الشام . وجدت خانات في معظم مدنه وموانيه . وأشهرها خان البندقية بدمشق . وهو — علاوة على استقباله التجار بسلعهم — كان يستقبل الحجاج ، وهو مثل فنادق الاسكندرية ، وله مفتاح وباب يغلق على سكانه ليلا وأوقات الصلاة يوم الجمعة (٦٧) .

وفي القسطنطينية كانت خانات التجار الوافدين والمارين مجانية ، وشجعت الحكومة وصول التجار لتنشيط التجارة ، وهى مبنية من الحجارة ، ولها أبواب حديدية (٦٨) .

ومن الأبنية التى شاع استعمالها فى مصر للأغراض التجارية كذلك القيساريات ، وهى فى العصر المماليكى من المنشآت التى بينها الأمراء المماليك وقياسر التجار للكسب واستثمار الأموال ، وتعلوها الرباع للتجار والصناع . كما أنها مستوفىة ، وهى غير السوق الذى

(٦٦) فييت : مصر الإسلامية ص ٤٦ .

فى خان مسرور الصغير كانت تقام مزادات لبيع العبيد .

— Maurice, Op. Cit. pp. 187-188.

وفى خان الخليلى وجدت مكاتب لوكالات التجار الأجانب ووجودهم كان مؤقنا ويتركون وكلاء عنهم من الوطنيين . وبهذا الخان مكان خاص للتجار المسيحيين الوافدين . ومكاتب لوكالهم الدائمين بالقاهرة والوكلاء من الوطنيين لقلة التصاريح للأجانب بالوصول للقاهرة ، لذا كان خان الخليلى بمثابة بورصة العبور الوسطى . المقرئى : الخطط ج ٣ ص ١٥٠ وما بعدها .

— Dopp, P.H., L'Egypte Au Commencement Du XVe Siecle p. 98.

— Heyd, Op. Cit. II, pp. 465.

— De Sacy, Op. Cit. p. 303.

(٦٨) سليمان خليل بن جاويش : المصدر السابق ص ٤١ .

انحيانا من ثلاث طباق (٦٩) . أما « التجار العابرون » ، فقد كانت لهم منشآتهم من فنادق وخانات خارج المدن على الطرق التجارية . وهى الخانات الأصلية التى أخذت عنها الخانات الداخلية وانتشرت بكثرة فى القرن الخامس عشر وازدهرت فى القرن السادس عشر فى العصر التركى العثمانى . وهى فى مظهرها ليست أكثر من خان وفندق معا ، والفرق الوحيد أنها خارج المدن لكى تلائم الغرض من بنائها وهو إيواء التجار بسلعهم ودوابهم وعرفت فى العصور الوسطى فى الشرق باسم « فنادق مبيت القوافل Caravanserais » حيث يستريح التجار ودوابهم . ومن هذا النوع خان يلاصق جامع برقوق وآخر عند بركة الحاج على طريق السويس القاهرة . وكذلك خان البريد وبه مسجد صغير وبوسطه نافورة وأحواض للمياه وسوق صغيرة يجد فيها المسافر ما يحتاج إليه ، فضلا عما يلزم عماله من غذاء (٧٠) .

وإذا كانت فنادق الاسكندرية قد شملت قاعات واسعة لعقد الصفقات التجارية والمعاهدات والاتفاقيات فإنه فى القاهرة كانت الخانات تؤدى هذا العمل . وأصبح الخان فى القرن الخامس عشر محط رجال الأعمال الوطنيين والأجانب الشرقيين الوافدين فى تجارات

(٦٩) الخان كلمة فى الأصل فارسية اسمعت بكثرة فى مصر والشام وذكرها المؤرخون العرب فى عصر الفاطميين والايوبيين والمماليك — وكان السلاجقة أسبق الى بناء نوعين من المباني على جانبي الطرق فى آسيا الصغرى : نوع يسمى الرباط وهو فندق المسافرين — والثانى يسمى الخان ويبنى على أطراف المدن وعلى الطرق الرئيسية للبريد أو لاستراحة التجار ثم استعملت لتؤدى ما تؤديه الفنادق فى الموانئ بالنسبة للأجانب الغربيين .

المقرئى : الخطط ج ٣ ص ١٤٩ — ١٥٢ .

فييت : مصر الإسلامية ص ٤٤ وما بعدها .

(٧٠) ابن دقمان : المصدر السابق ج ٤ ص ٤٠ .
— Clerget, Op. Cit. pp. 315-316.
— Wiet, Precie, II, pp. 270-271.
— Wiet, Ibid, II, pp. 275.

وتجارتهم وكثيرا ما كانوا يطلبون « أن يغرقهم الله حتى يستريحوا
مسا هم فيه من الغرامات والخسارات » (٧٢) .

وبالرغم من وجود طوائف عديدة من التجار الا أن التاجر
المتجول كان عماد التجارة . وظل كما كان يمارس عمله متجولا في
الأرض أو في البحر في رحلات طويلة أو قصيرة قد تستغرق أحيانا
سنوات عديدة . ثم ما لبث هذا النوع من التجار أن اقتصر عمله على
ورود أسواق شرق البحر المتوسط لجلب السلع الواردة من الشرق
الأقصى ونقلها الى الغرب الأوربي ، بمعنى أن حياته أصبحت أكثر
استقرارا عن ذي قبل بعد أن كان يصل بنفسه الى وسط آسيا عن
طريق آسيا الصغرى ، وقد أثرى من ذلك ثراء عظيما (٧٣) . ثم
ما لبث هذا النوع من التجار أن استقر بوطنه ليقوم غيره بعمله
السابق . وباستقراره ظهرت طبقة جديدة من التجارة هي طبقة
البرجوازيين وهذه الطائفة من التجار هي عماد عصر النهضة الأوروبية
التي ازدهرت بصورة واضحة في القرن الخامس عشر وخاصة في
نصفه الثاني ، والتي أسهمت بنصيب وافر في نقل العالم من العصور
الوسطى الى العصور الحديثة (٧٤) .

(٧٢) ابن حجر : انباء الغرر ج ١ ص ٣٦٥ و ٣٦٩ .

المقريزي : السلوك ج ٤ ص ٤٤٤ .

سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ص ٣٦ .

سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣١٢ .

(٧٣) ابن خلدون : المقدمة ج ١ ص ٣٩٦ .

— Clive, Op. Cit. pp. 113-114.

(٧٤) تخصص هؤلاء التجار في أنواع معينة من السلع فبعضهم : تجار البهار . وتجار
الحرير . وتجار الخشب ، وتجار الصوف ، وتجار الاحجار الكريمة .

ابن خلدون : المصدر السابق ص ٣٩٤ و ٣٩٥ و ٣٩٦ .

— Clive, Op. Cit. pp. 114-115.

— Maillat, Op. Cit. p. 153.

لا يشترط فيه أن يكون مسقوفا (٧٥) . وفي القياس تنتشر المصانع
الصغيرة ، وإن كانت كذلك تعرض السلع للبيع بالجملة ، ولكل فئة
من التجار أو الصناع مكان معين وقد ظهرت في الشام قبل مصر
واعلمها مأخوذة من كلمة قيسرية Cesarie (٧٦) ومن أشهر القيساريات
حتى ذلك الوقت المتأخر من العصور الوسطى : قيسارية الشرب .
وقيسارية الفاضل ، وقيسارية بيرس . وقيسارية بكشر (٧٧) .

شوائف التجار :

وفي القرن الخامس عشر تطورت النظم التجارية تطورا كبيرا في
مختلف فروع التجارة ، وكانت هذه التطورات قد بدأت منذ الثورة
التجارية الكبرى في القرن الثاني عشر . ومن بين من تناولهم التطور
طوائف التجار . وفي مصر كانوا يؤلفون طبقة مقربة الى سلاطين
المماليك الذين أحسوا بأن التجارة أضحت المصدر الأساسي الذي
يسدهم بالأموال . وتدل جميع الشواهد على أن التجار تنسجوا في عصر
المماليك بثروات ضخمة ، وهذا أمر طبيعي في عصر كانت مصر فيه
حلقة الاتصال بين الشرق والغرب ، ومركزا للنشاط التجاري ، وإن
كان الثراء قد جعلهم دائما مطمع سلاطين المماليك الذين طالما صادروا
ثروتهم فضلا عن ائقالتهم بالرسوم والضرائب منذ أواخر القرن الخامس
عشر ، لذلك لم يطمئن التجار في عصر المماليك أحيانا على أموالهم

(٧٥) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ .

— De Sacy, Ibid, pp. 303-304.

— Wiet, Precis, II, p. 274 & pp. 269-270.

(٧٦)

يذكر فييت أن حوض القيسارية سماوى غير مغطى بعكس السوق الذي يشترط أن
يكون مغطى . وده ساسي يذكر نقلا عن البغدادي أن القيساريات لابد أن تكون مسقوفة
أما التي لا يبنى فوقها مساكن فتكون مكشوفة ورأى البغدادي أصوب ويؤيد ذلك المقريزي
في الخطط ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ ويؤكد أنها مسقوفة .

(٧٧) المقريزي : الخطط ج ٣ ص ١٤٠ - ١٤٢ - ١٤٧ .

وخاصة من لا رأس مأل له . وصدرت القوانين التي تمنع التجار الدوليين من المتاجرة في القطاعي وترك ذلك للوطنيين (٧٧) . وفي مصر تنبتهت حكومة سلاطين المسالك لهذا الخطر . فقضت ورود التجار الأجانب من هذه الفئة على الموانئ والمدن الساحلية للسبئية دون دخولهم القاهرة وغيرها من المدن الداخلية ، وكذلك مدن وموانئ البحر الأحمر لهذا السبب ولأسباب أخرى تتعلق بالأمن وبالنواحي الدينية وخاصة منذ الحروب الصليبية ، وذلك حماية للتجارة وللتجار الوطنيين . وإن كان يسح للقلعة منهم دخول القاهرة بتضاريج مؤقتة لعدة ساعات أو أيام قليلة وتحت المراقبة (٧٨) . وكان على التاجر أن يحصل تجارته لمواطنيه ولا يبيعها في الطريق وإن أباحت الدولة أحيانا بيع الجملة لبعض السلع . والتاجر الدولي كالتاجر المتنقل كان يستطيع أحيانا الاستقرار في الاسكندرية أو موانئ الشام مدة قصيرة قد تصل لثلاثة شهور لتصرف ما معه من سلع أو تسويق ما يريد من سلع الشرق وفي البداية لم يكن بإمكان التاجر الأوربي التعامل مع المصري إلا إذا كان له رصيد من المال في مصر وخاصة في حالة شراء « التوابل الشريفة » ولكن بتوالي السنين ومن كثرة تردد التجار الأجانب على مصر أصبحوا معروفين للمصريين ، حتى أن التاجر المصري كان يقبل أى ضمانات تضمن له أمواله عن سلعه المباعه وزادت الثقة بينهما لطول التعامل (٧٩) .

(٧٧) انظر كذلك الملحق برقم (١٤) حـ فقره (١٠) عن ترك بيع القطاعي للمواطنين دون كبار التجار والاجانب .

- Maillat, Op. Cit. pp. 129-135-136.

- Harff, Op. Cit. pp. 102-103.

(٧٨)

(٧٩) من مظاهر هذه الثقة قيام شركة مفارضة بين التاجر الكامي والتاجر المصري في حدود ٢٠ ألف دينار . انظر - المقرري : السلوك ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٤ .

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ١ ص ٤٠٢ .

بخصوص المعاملات المالية للتجار الاجانب في مصر . أنه أواخر القرن الخامس عشر فرض =

والواقع أن فرس الكسب والربح انما تكون في صف التاجر المتنقل . لأن كل جهده نه أكثر من التاجر المستقر الذي قد ينقص ربحه بقدر راحته . والتاجر المتنقل يدير بنفسه مشروع تجارته وكل من يكل له بعض ماله لتشغيله أن يوافق على قراراته دون مناقشة وهو يستمتع بفردته بسكاسب أمواله التي لا تقل عن ٢٥٪ ، وكذلك أرباح المشاركة في المشروعات الأخرى (٧٥) . أما التاجر المستقر في بلده فيدير تجارة خارجية واسعة عن طريق فروع شركته ووكلائه ويستعمل العقود والتسهيلات المصرفية ويوفر على نفسه المال الذي يتقاضاه التاجر المتنقل من ربح وعمولة ومن هؤلاء التجار التاجر الفرنسي « جاك كير » الذي كان لشركته فروع في كافة موانئ ومدن شرق البحر المتوسط وغربه (٧٦) .

على أن ظهور طبقة البرجوازيين من التجار المستقرين المتخصصين أتى معه بفتة جديدة من التجار الذين عرفوا بالتجار الدوليين والذين تاجروا برءوس أموال غيرهم ورءوس أموالهم ورءوس أموال الشركات . ونقلوا مختلف السلع بين الشرق والغرب وأدى ذلك الى ظهور أنواع جديدة من النظم التجارية والمعاملات المالية لتسهيل المتاجرة ونقل الأموال وتحويلها . ولما ازداد نفوذ التجار الدوليين وسيطروا على تجارة الشرق والغرب تنبتهت الحكومات المحلية الى خطورتهم على التجار المحليين . وصار من واجب الحكومات حماية التجار الوطنيين

(٧٥) يقول ابن خلدون في المقدمة ج ١ ص ٢٩٦ وما بعدها « كذلك فإن ثقل السلع من البلد البعيد المسافة أو في شدة الخطر في الطرق .. يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم ربحا .. لأن السلعة المفقولة تكون قليلة معوزة لبعدها مكانها لذا نجد المسافرين من بلادنا إلى الشرق لبعده المسافة أيضا يثرون بسرعة » . نلاحظ أن تاجر الكارمية كان في بداية عمله تاجرا متنقلا بين مصر واليمن والهند انظر بعده عن التجار الكارمية .

- Pernaud, Les Villes, p. 27.

- Poston, Op. Cit. pp. 335.

(٧٦) انظر ما كتب عن التاجر « جاك كير » في الفصل الثاني وكذلك .

- Poston, Ibid, 11, p. 335.

الرسوم الجبركية ، ويعفى منها التجار المحليون الوافدون للجبارنة
للشراء أو البيع . واستمر هذا النظام معسولا به في العصر العثماني
منذ عام ١٤٥٣ م ، ولقى طائفة التجار الروس معاملة خاصة لأهمية
تجارهم وتتمتعوا بالسكن والمأوى المجاني والحمام - وإن كان سكانهم
في حى خاص بالمدن - وبقوا كغيرهم من التجار الأجانب تحت رقابة
الدولة (٨١) .

أما فئات التجار الشرفيين فيرى المؤرخون أن انتشار الاسلام من
شرق البحر المتوسط الى الشرق الأقصى ثم الى جنوب وجنوب غرب
أوروبا ، كان عاملا من عوامل زيادة التجارة ، فقد عمل الفرس والعرب
وسطاء تجاريين بين أوروبا وأفريقية وآسيا ، قبل الاسلام وبعده ، وهذه
الصلة بين الشرق والغرب التي قامت على أكتاف المسلمين أوجدت
نوعا من الوحدة أنقذت التجارة العالمية من الانهيار . فكان بإمكان
التجار المسلمين السفر من الأندلس الى الهند دون أن يشعروا بأنهم
يخترقون بلادا غريبة عنهم ، كما أن الحاجة الملحة للتوابل والعطور
والبهار كانت مدعاة لنسج التجارة حتى أواخر العصور الوسطى على
يد هؤلاء الوسطاء غير مباينين بالمخاطر والصعوبات التي قد يتعرضون
لها في الطرق الخارجية أو في البحار ، وهذه الصعوبات في نظر بعض
المؤرخين المحدثين كانت جديرة بأن تدمر التجارة في أوروبا الكاثوليكية
ولكن كانت تزيد من تصميم العربى في مخاطراته التجارية (٨٢) .
ومن بين الطوائف الشرقية المذكورة :

١ - فئة التجار المصريين ومنهم تجار الكارمية الذين اعتبروا من

(٨١) — Poston, Op. Cit. II. p. 95.

(٨٢) يبدو أن كلمة Risk المخاطر في اللغة الانجليزية مشتقة من الكلمة العربية
Risk والتي تدل على السعى في طلب العيش والرزق بالإضافة الى ما كان يقابله
من المخاطر في البحر أو قطاع الطرق أو عداا بعض الحكومات . انظر :

— Clerget, Op. Cit. p. 320.
— Poston, Op. Cit. II. pp. 284-285.

وفى بعض دول أوروبا ومدنها التجارية لم يكن يسمح لبعض
سوائف التجار بممارسة العمليات التجارية المختلفة الا بعد دراسة
ومران كافيين ، بل أن أهالى جنوة والبندقية كانوا يرسلون أبناءهم
في صحبة التجار نقلين ليتعلموا منهم أصول الحرفة وأسرارها حتى
إذا ما شبوا كانوا في عداد التجار البارعين . وتطلبت العمليات
التجارية التي مارسوها أنواعا من المكاتبات والمراسلات فكان التاجر
في القرن الخامس عشر يرسل تعليقاته الى وكلائه في الخارج كتابة
ويسك عليهم سجلا ، وفى امكانه كذلك أن يستخدم خطابات تحويل
مالية قابلة للصرف من أوروبا الى موانئ ومدن البحر الأسود وآسيا
الصغرى وشرق البحر المتوسط وقبرس ، ولتجارته علامات مميزة ،
كما اتسع نطاق التعامل فى البنوك والبيوتات المالية (٨٣) .

وفى القسطنطينية اختلف نظام فئات التجار بها عنه فى شرق البحر
المتوسط ففي القسطنطينية كانت المتاجر تصل برا بطريق البر يحرسها
تجار من مواطنى الدولة صاحبة المتاجر . وهناك فئة أخرى تذهب
بنفسها لشراء ونقل هذه المتاجر ومنهم تجار الشام وطائفة من البلقان
وجد تجارها - فى مدينة سالونيك وفى القسطنطينية كذلك - مجالا
طيبا لبيع سلعهم ومنتجات بلادهم ، وخاصة «للمنظمات النقاية»
The Guild Organization «الموجودة هناك . ويدفع للتجار الأجانب

= السلاطين على نجار البندقية نبرا ، قدر معين من توابل الدخيرة الشريفة بنسبة معينة الى
السلع الأخرى (حمل من التوابل عن كل ألف دوكة من السلع الأخرى) . وقد أدى هذا
الاجراء الى قيام نوع من الحساب الجارى بين الخزينة السلطانية وهيئة التجار ابيادة
التي كانت مدينة باستمرار عن عدة سنوات خلت . وطلت على هذه الحال حتى عام
١٥٠٦ م .

انظر : توفيق اسكندر : نظام المقايضة - المجلة التاريخية مجلد ٦/١٩٥٧ م
ص ٤٤ م ١٠ .
(٨٣) انظر قبله ملاحظة ٥٥ فى هذا الفصل بخصوص تمرير التجار لأبنائهم على

— Pernaud, Op. Cit. pp. 27-28.
— Poston, Op. Cit. p. 308.

بروصات رحلاتهم التجارية كذلك الى شاطئ افريقية الشرقى حتى موزمبيق ، ولهم سوانيه وكلاء ومندوبون محليون . وليس هناك دليل على أن هؤلاء التجار الكارمية كانوا ينافسون بعضهم بعضا بل الواضح أنهم كانوا يكونون رابطة وطائفة تحتكر التجارة الشرقية المجزية لتوريدها عبر بلاد شرق البحر المتوسط الى غرب أوروبا (٨٥). وحتى القرن الخامس عشر كانت التجارة الشرقية احتكارا لهم . حتى ان البحر الأحمر كان يعتبر بالنسبة لهم بحيرة اسلامية بعد أن منع التجار الأجانب عن الوصول اليه . وكان هذا من عوامل نمو واتساع تجارتهم . وكان كذلك بإمكانهم ممارسة التجارة تحت حماية الممالك أنفسهم مع اليمن ودمشق مما جعلهم يبلغون القمة حتى الربع الأول من القرن الخامس عشر مما أتاح لهم فرصة التدخل في الشؤون السياسية والمالية لدولة سلاطين الممالك (٨٦) . ومن مراكزهم في اليمن كانوا ينطلقون بالسلع الواردة من الهند الى البحر الأحمر ، ولهم مواعيد منتظمة معينة تتفق مع مواعيد الرياح وكذلك مواعيد

(٨٥) Goiten, S. D., New Lightes On The Beginning Of The Karim Merchants, Journal of the Economic... Vol. I. p. 179. R. 4.

ثم نحن حينه نجار الكارمية في البداية شركة تقوم بعملية مبادلة التجارة ولكنها نوع من الهيئات البحرية او البحارة التي تتولى نقل سلع خاصة بالتجار تحت رعاية من اصحاب شاحن او وكلائهم كما كان يحدث تماما في سفن الناخذاء التي لا يمتلكها الكارم ثم عارضوا عمل البحري أنفسهم .

Moreland, M. Indian Shipping. p. 74.

يذكرهم مورلند بالعرب مرة والمصريين مرة أخرى وهو يقصد الكارمية . ويقول ان «... وكلاء» في الهند على ساحل افريقية الشرقى ويكونون وحدة في شركة باسمية متساوية وهو نوع من الشركات المساهمة في العصور الوسطى .

(٨٦) نسبت حكومة سلاطين الممالك عناية خاصة بتجار الكارمية لكثرة مساهمهم معهم ، وأنشأت من أجلهم وظيفة « نظر البحر الكارمي » انظر بعده في هذا الفصل عن الهيئات التي اشرفت على التجارة في العصور الوسطى وكذلك -

القلقيسندى . صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٢ - ٦٤ ومابعدها .

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٩ ملاحظة (١) نشر زيادة .

Fischel, Walter, Journal. Op. Cit. T. II. pp. 160, 161.

أمهر وأكثر التجار دراية بعملهم ، ويسافرون للشرق الأقصى والهند . ولهم وكلاء في اليمن وموانئ الهند ، أما التجار المحليون فلا يسافرون . بل يتاجرون في السلع الاستهلاكية محليا ، وان كان لهم عملاء في الخارج ويبيعون بالجملة والتجزئة (٨٧) . وقد أتيح لمصر بوساطة التجار الكارمية أن تحتل مركز الزعامة والصدارة في العالم الإسلامي في العشرين الأيوبي والمماليكي ، فقد كانت طائفتهم التي اطلق عليها المؤرخون اسم المصريين هم دعامة البناء الاقتصادي في مصر في العصور الوسطى ، كما لا يمكن اغفال دورهم الدولي التبادلي في التجارة بين الشرق والغرب وخاصة في جلب المتاجر الشرقية من الهند والصين الى اليمن ومصر فأوروبا . وكان مجال اتصالهم في البداية من قوس القاهرة عن طريق ميناء عيذاب والتصدير على البحر الأحمر ، ولهم مستودعات ضخمة وفنادق وخانات في موانئ البحر الأحمر وعدن والهند ، ولم يثبت وجود صلة مباشرة لهم بالهند الصينية الا عن طريق الوكلاء . وخط ملاحظتهم الرئيسي من ساحل الملابار وكروماندش الى الخليج العربي والبحر الأحمر ، وهم الذين جلبوا اليها البهار والعنبر والبخور والتوابل والعقاقير والأصباغ والجواهر وجوز الهند وخلافه . من الشرقين الأدنى والأقصى ، حتى ان كلمة تجار الفلفل والبهار والتوابل كانت لا تطلق الا عليهم . ويبدو أنهم في القرن الخامس عشر لم يعودوا يذهبون بأنفسهم الى الهند ، انما كانت تصلهم المتاجر على سفن الهنود والصينيين عن طريق وكلائهم (٨٨) .

Mopp. Op. Cit. p. 98.

(٨٧)

(٨٨) القلقيسندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٤١ و ٤٦١ و ج ٤ ص ٣٢ - ١٨٧

المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٣٢ و ١٣٣ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١١٧ - ١٢١ و ٥٧١ (كاليفورنيا)

Walter, Journal Of Economic and Social History of the Orient, Vol. II. p. 161-162.

وصول السفن الأوربية لاسكندرية ، إلا أنه منذ الربع الثانى من القرن الخامس عشر انتقلت أهمية ميناء عدن الى جدة ، وكان هذا مقدمة لنقل احتكار التجارة من الكارمية الى سلاطين الماليك (٨٧).

وكان للكارمية أسطول بحرى ونهرى خاص بهم ، وذكر فى مؤلفات العصور الوسطى عبارة « مراكب الكارمية » وذكر كذلك قيام السلطات المحلية فى مصر بحماية سفنهم وتجارهم من القراصنة (٨٨) . وهذه الحماية كانت لقاء رسوم يدفعها الكارمية للحكومة عن طيب خاطر ، وهذا يفسر لنا نمو تجارتهم فى البحر الأحمر (٨٩) . وكانوا يدفعون الزكاة وكل ما يطلب منهم عن طيب خاطر مسايد على عظم ثرائهم وتقديرهم لرعاية السلطان لهم ولصالحهم التجارية . بل انهم كانوا يقرضون الملوك والسلاطين فى اليمن ومصر كلما طلبوا منهم ذلك (٩٠) .

وقد حرص الكارمية كطائفة تجارية ترتبط مصالحها ارتباطا تاما ، براكزها فى الهند واليمن ومصر على أن يكونوا على علاقة طيبة مع حكام هذه المناطق ، وكانوا يتحاشون الدخول بالتأييد لأى الطرفين فى النزاع الذى طالما نشب بين أمراء اليمن وسلاطين الماليك بل على العكس شاركوا فى حل الأزمات السياسية والاقتصادية ، وكان سلاطين مصر يختارون سفراءهم لليمن من بين كبار تجار الكارمية الذين رحبوا

(٨٧) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ - ٤٧٠
Heyd, Op. Cit. I. P. pp. 67-68.

(٨٨) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٥ و ج ٤ ص ٣٢
Fischel, W., Op. Cit. II. pp. 162-163, Vol. 1.

(٨٩) ابن خلدون : العبر وديوان المتباد ج ٧ ص ٤٥١
Geiten, (Journal) Op. Cit. II. p. 102, (Vol. 1.)

(٩٠) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٧٣ و ٧٤ و ج ٢ ص ١٠٣

فيست : مصر الإسلامية ص ٣١

بهدا التسليف حمايه لتجارهم (٩١) . وأكثر الكارمية غنى ومقاما كان يتولى رئاسة طائفتهم ويخضع له كل تجار الكارمية حتى اكبرهم وكان له فى بلاط الملوك والسلاطين مركز مرموق ويلى رئيس الكارمية وظيفته على قدر ما يقدمه من خدمات للسلطان والدولة (٩٢) .

أما التجار المحيطيون المصريون فهم عدة فئات . وكل فئة تتاجر فى سلعة بعينها ، ومن بينهم فئة بائعى البخور والعطور وفئة تنظر الشمع والصابون ، ولكل منهم سوق معينة . وتراقب الحكومة أسواقهم وموازينهم ومكاييلهم بوساطة المحتسب وأعوانه ، ثم تجار خيوط الغزل والتوابل وكل أنواع السلع الشرقية والغربية . وفى عصر الماليك كان تجار التوابل والنسيج من الطبقات الثرية التى تسأل الطبقات البرجوازية المستقرة فى أوروبا وان كانوا قبلا تجارا متنقلين (٩٣) .

١ - والنسبة الثانية هى فئة التجار المغاربة من سكان شمال افريقية ومسلمى الأندلس حتى عام ١٤٩٢ م ، وكانوا من أكثر الفئات اتصالا بمصر ، وممنوا أسواقها بسلع شمال وغرب ووسط افريقية . وأحيانا من أوروبا ويجلبون كذلك الذهب وبه يدفعون أثمن سلعهم (٩٤) .

(٩١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ٧٢ - ٧٦

المقرئى : المصدر السابق - السلوك ج ٢ ص ٧

(٩٢) ابن حجر : ابناء الفخر ج ١ ص ٢١١ و الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٨٢

سميد عاشور : العصر المالكي ص ٢٩١

Heyd, Op. Cit. II. p. 59.

(٩٣) المقرئى : المواظ ج ٢ ص ١٠٣

المقرئى : الخليل ج ٣ ص ١٥٩ - ١٦٦

سميد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر الماليك ص ٨٦

محمد جمال الدين سرور : دولة بني قلاوون ص ٣٢٦ (انظر بمصر ، عن الذهب والنساسة النقدية)

Poston, Op. Cit. pp. 109-385.

Noppe, Op. Cit. p. 48.

٣ - والفئة الثالثة تشمل تجار أوروبا المسيحيين وعلى رأسهم البنادقة والجنويون والفلورنسيون ، وتاريخهم مع شرق البحر المتوسط قديم ولهم فاصل ونواب فاصل لتسهيل أعمالهم وبارسون وظائفهم بسوافقة السلطات المالكية بسوجب معاهدات واتفاقيات وينتظرون وصول السلع الشرقية لينقلوها الى أوروبا ، ووصولهم كان مشروعا ومقيدا بالمدن الساحلية فقط ولهم وكالات وفنادق وأحيانا كنائس خارج الفنادق غير كنائس الفنادق. وكان للشئون السياسية والعسكرية دخل كبير لما يلاقونه أحيانا من معاملة (٩٥) .

٤ - والفئة الرابعة هي فئة المسلمين الشرقيين من الأتراك والفرس وعرب شبه الجزيرة والسوريين والعراقيين والسودانيين وكلهم فئات كانت القاهرة معتادة رؤيتهم والتعامل معهم ولا يحظر عليهم ما كان يحظر على الأوروبيين ، كما أن لهم خانات وقياسر ، ومدة بقائهم بالقاهرة مفتوحة . بل ان بعضهم أثر الاستقرار في القاهرة وأصبح من فئات التجار المستقرين البرجوازيين واتسعت تجارته . ومنهم أيضا اليمينيون والهنود (٩٦) . ويتبع هذه الطائفة التجار العرب الذين سافروا الى الشرق الأدنى ، وكان لانتشار الاسلام في الهند والصين أثره في تنشيط المشروعات العربية فيهما ، وقد تبلورت الجهود العربية في المياد الشرقية لأقصى طاقاتها حتى نهاية القرن الخامس عشر وجذب هذا النجاح أعدادا كبيرة من الشعوب الأخرى من غير العرب كالإغريق، والترك والجراكسة وبعض فئات من شرق البحر المتوسط ، ثم الأوروبيين حين تم لهم الوصول للهند بحرا في أواخر القرن الخامس

عشر وعرف الأجانب في الشرق الأدنى والأقصى باسم الروم . لذا فإن المنافسين للبرتغاليين في الهند لم يكونوا جسيما من العرب الخالص من شبه الجزيرة العربية إنما بعضهم ممن عرفوا باسم الروم . وإن كان البرتغاليون يطلقون عليهم جسيما بلا تمييز اسم المغاربة Moors وهؤلاء بالإضافة الى الهنود والمصريين هم الذين قاوموا الغزو البحري للهند أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، وإن حضعوا لهم في النهاية (٩٧) . ولم يكتف العرب بالمجارة فقط بالشرق الأقصى . بل ان فئات منهم استقرت بجزر الهند الشرقية وفئات أخرى استقرت باليمن حيث فو بلوا فيها بالترحاب وسح لهم أباطرة الصين باقامة مراكز تجارية لهم وأحياء لطوائفهم وسيدا منهم يتنسل في المنازعات بينهم ويدير شئونهم وهو بمثابة القنصل في شرق البحر المتوسط . وظلت تجارة هذه المنطقة حتى القرن الخامس عشر وفترة من القرن السادس عشر احتككوا فئات من التجار العرب . ولدى وصول البرتغاليين الى قاليقوط هجرها معظم تجارها من العرب والأفارقة متجهين الى ملقا التي أصبحت سوقا للسلع الشرقية المصدره المغرب . ولم يلبث البرتغاليون أن غزوها هي وسيلان ليخرج منها العرب نهائيا (٩٨) .

٥ - والفئة الخامسة هي فئة تجار الارمن والإغريق والقيبط . وهم مسيحيون شرقيون ، وعملوا في التجارة . ومنهم مهرة الصناع : وقوافلهم تجوب البلاد العربية من حلب ودمشق وعبان وبيروت كما

--- Camb. Med. Hist. I. p. 27.

(٩٧)

(٩٨) ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك ص ٧١ .

المقدسي : أحسن السقاسم ص ١٢٨ .

ابن بطوطة : عجائب الآثار ج ٢ ص ١١٦ .

منار : الحضارة العربية في القرن ٥ هـ (مترجم) ج ٢ ص ٣٠٥ - ٣٧٦ و ٣٧٧ .

Camb. Med. Hist. I. p. 28.

Steiger, Hist. Of The Orient, pp. 215-216-217.

(٩٥) القلقشندي . صبح الاعشى ج ١١ ص ٤٢١ وج ١٣ ص ٣٤٠ .

--- Heyd, Op. Cit. II. p. 411.

--- Clerget, Op. Cit. pp. 323-324.

(٩٦) المقرئ . السلوك ج ١ ص ٤٤٥ .

--- Clerget, Op. Cit. p. 322.

--- Nopp, Op. Cit. p. 91.

تاجروا في سلع أرمينيا وجورجيا وفارس ، وكان لهم دور كبير في تجارة الهند قبل وصول البرتغاليين . ولكثرة ورود التجار الاغريق لمصر منحوا حق وجود قنصل لهم بالاسكندرية لرعاية شؤون التجار (٩٩) .

٦ - والفئة السادسة هم مجموعة التجار اليهود الذين أسهوا بنصيب كبير في تجارة مصر والتجارة الدولية في العصور الوسطى المبكرة ، وكان بصر منهم عدد كبير من المعروفين «بالطائفة الرذائية» وبدأوا تجارتهم مع ظهور الاسلام وانتشاره في فارس ، وكان طريقهم التجارى من دمشق للقاهرة والقيروان وطنجة وتاجروا في الأسلحة والتوابل والفراء والحرير والعبيد ، كما وصلوا الى البحر الأسود . بل يقال انهم تاجروا مع مدن الخليج الفارسي حتى ان ميناء سيراف كان يحكمه في وقت ما يهودى (١٠٠) . كما اعتنق كثير منهم الاسلام . وما لبث السوريون والمصريون - بعد قيام الدول المستقلة في مصر والشام - أن سيطروا على التجارة التي تحكم فيها اليهود فترة . كما أنه في الغرب الأوربي قل عمل اليهود بعد أن أثقن المسيحيون الغربيون العملية التجارية ، وكانت البابوية قد أصدرت تعليمات متجددة مع كل بابا يلي كرسي روما الدينى ، يتحدد فيها أنواع التجارة

(٩٩) ابن حجر : انباء الغرر ج ١ ورقة ٢٢٣ (انظر فيه ملاحظة رقم ٩٧) .

— Mopp, Op. Cit. p. 99.

(١٠٠) ابن خردادبه : ص ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥ ويذكر انهم في العصور الوسطى المتقدمة كانوا يركبون البحر الشرقى (البحر الاحمر) من القلزم الى الجار وجدة ثم يمشون الى السند والهند - انظر كذلك (سعيد عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ج ٢ ص ٩٤) ويذكر أن تاجرا كان يؤدى معنى يهودى (Judes — Mercator)

— Poston, Op. Cit. II. p. 287.

— Clerget, Op. Cit. p. 320-321.

ويسمى ابن خردادبه كذلك باسم الرذائية من بلاد الفرنج الغربى - ويذكر كلرجه انهم ينتسبون لمدينة الرى Ragha = Rai بالقرب من طهران (المصدر السابق نفس الصفحات) .

الخامسة التى يمكن لليهود أن يمارسوا العمل فيها ، الا أن اليهود لبثوا ان اتجهوا نحو التوسع فى أرباح السلف - بعد أن حرمت الكنيسة الكاثوليكية هذا النوع من التعامل المالى - وأصبحوا مقرضى أموال بأرباح عالية . ومع هذا كانوا فى مركز مزعزع ، لأن القانون لا يسنحهم الحماية . كما أنهم كانوا معرضين للنهب من الأمراء الاقطاعيين (١٠١) . وقد شاع بين بعض الكتاب المحدثين أن فئة التجار الكارمية من اليهود (١٠٢) . ولكن حقيقة الأمر أن طائفة الكارمية كانت هيئة متسائكة جعلت الاسلام أساس وحدتها وعصبيتها فلم يوجد بين الكارمية أى يهودى ، وان لم يسع قبولهم للتاجر اليهودى الذى يعتنق الاسلام ويتوارثه عنه أبناؤه كما يتوارثون التجارة . وليس أدل على ذلك من أن فنادقهم كان بها مساجد تحل أساءهم وينفقون عليها من جيبهم الخاص (١٠٣) .

وقبل أن ننهى موضوع الفئات المشتغلة بالتجارة فى العصور الوسطى ، وخاصة المتأخرة منها . يبدو أن من المفيد عقد مقارنة بين جهود التاجر الكارمى عماد التجارة فى الشرق والتاجر الايطالى عماد التجارة الأوربية فى البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، فكما كان الايطالى مفخرة الحركة التجارية الوسيطة فى البحر المتوسط ، فان التاجر الكارمى فى البحر الأحمر ، وفى المحيط الهندى كان أكثر فخارا واجتهادا . ولقد شق كلاهما طريقه فى عصر امتلأ بالكثير من

(١٠١) Clive, Op. Cit. pp. 117-118.

(١٠٢) — Clerget, Op. Cit. pp. 317-321-322.

(١٠٣) المقرئى : السنوك ج ٢ ص ١٢١ .

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

النويرى : نهاية الأرب ج ٤ ص ٦٢ مخطوطة برقم ٥٩٢ معارف غامدة بدار الكتب .

أبو الحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٦٤ (كاليفورنيا) .

— Fischel, F., Op. Cit. (Journal) p. 163, 166.

المصاعب ، فمن تحصن ديني ملا العصور الوسطى شرقا وغربا ، وطرق تهديدها الأخطار برا وبحرا ، الى حكومات يتزايد جشعها للسكوس والضرائب ، ومع ذلك فقد وصل التاجر الايطالي الى شمال أوروبا بحرا وبراً ووصل بعضهم الى الصين (ماركوبولو) . والتاجر الكارمي كذلك سيطر بتجارته على البحر الأحمر والمحيط الهندي ووصل الى الصين وتعشق في افريقية حتى بلاد التكرور ومع ذلك ظلت نقط ارتكاز الايطالي في البحر المتوسط والكارمي في البحر الأحمر . ولا نعدو الحقيقة كثيرا اذا قلنا ان الايطالي والكارمي سواء آكانا متنقلين أو مستقرين أو دوليين - فهما دعامة تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب (١٤) .

نظام الهيئات المشرفة على التجارة :

ومنذ تطور مركز مصر الدولي في التجارة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى حتى أواخرها ، تطلب هذا التطور ظهور نظم جديدة في التجارة أظهرها نظام « المراسد » التي هي قوائم الأسعار والضرائب على الصادرات والواردات . وقد سادت هذه النظم مدن مصر والشام وموانئهما في البحرين الأحمر والمتوسط ، وأنشئت لذلك الجمارك في موانئ جدة والقزم والسويس والطور وعيذاب والقصور ، وقوص وبولاق على النيل ، ودمياط والبرلس والاسكندرية . على ساحل البحر المتوسط المصري وفي بيروت وصور وصيدا وعكا وطرابلس على ساحل البحر المتوسط الشرقي (١٥) . وديوان الجمارك

على هذه الموانئ ، أهم الهيئات المشرفة على التجارة الخارجية . وحسيلة أمواله من التجارة المارة والمصدرة والمستوردة . ولما زادت الأعباء المالية في العصر المالكي . واحتاج السلاطين الى المزيد من المال لمواجهة الأخطار للحرب مع المغول ثم العثمانيين . والتوسع الاقتصادي والعمراني الذي شمل مصر وإنشام في عهدهم والنقص المالي الذي نتج من افلاس النظام الاقطاعي في القرن الخامس عشر . كانت رسوم الجمارك واحتكار توزيع السلع الشرقية هما المصدران اللذان اعتمدوا عليها . ورفع المالكات الرسوم الجبركية على هذه السلع ، فكان رسم الجمارك بالاسكندرية على توابل الهند يساوي خمسة أمثاله في قاليقوت . ثم ان سعر النقل زاد ثلاث مرات قدر ما كان عليه سابقا . ودفع مرافقو قوافل مكة رسوما عالية عن أنفسهم وعن كل جبل رسما يراوح ما بين درهم . وثلاثة دنانير . ورسوم جمارك جدة من التجارة الهندية ١٠٪ / زيدت على عهد السلطان برسباي فتحولت المتاجر عنها الى عدن فاضطر للتسوق بالبحر ولكن كانت تتضاغط رسوم الجمارك اذا ثبت أن السفن مرت قبل دخولها جدة بعدن وأطلق على جمارك جدة اسم « شاد جدة » وزادت هذه الضرائب على بعض السلع الى ١٥٪ من أثمانها وفي أواخر العصور الوسطى بلغت حوالي ٣٥٪ من أثمان السلع (١٦) .

وجمرك الاسكندرية أكبر جمارك مصر على البحر المتوسط (١٧) .

(١٠٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٦٠ .

— Thénau, Op. Cit., p ; 27.
— Clerget, Op. Cit., pp. 332-333.
— Dopp, Op. Cit. pp. 45-46.

(١٠٧) تزعمت قوص وعيذاب وجماركها النشاط التجاري الاسيوي والافريقي . على حين ان دمياط والاسكندرية وجماركهما تزعمتا استقبال السفن الاوربية وجزر البحر المتوسط ، وخوفا من قدوم حملة صليبية على مصر من دمياط فقد تم ردم مخرج النيل منه فم بحر دمياط . وأصبحت السفن ترسو بعيدا . وتتولى السفن النيلية الصغيرة نقل =

(١٠٤) صبحي ليبب : المصدر السابق ص ٢٨ و ٢٩ .
— Heyd, Op. Cit. II. pp. 429-430.

(١٠٥) ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٠ - ٢٥٩ .
ابن ماتي : قوانين الدولة ص ٣٤٩ .
— Clerget, Op. Cit., p. 330.

الاجراءات الجمركية التجارية فى ميناء الاسكندرية

وخضعت السفن التجارية لنظام تفتيش دقيق فى جسر ك الاسكندرية واجراءات حكومية عدة . ومنحت ادارة الجمارك لجمهوريات ايطاليا التجارية مخازن كبيرة بالاسكندرية ، وهى مخازن مسقوفة يحل القنصل مفاتيحها وتولى هيئة الجمارك حراسة السلع الموجودة بها نظير رسم معين يدفعه التجار للحكومة ، وللتاجر الحرية فى أن يترك بضاعته أو يحصلها معه الى الفندق . أما تجارة المرور عبر مصر فكان رسم الجمارك عليها يتراوح ما بين ٢ - ٢١/٢ (١١١) . ولدى وصول السفن الغربية الى الموانئ المصرية يصعد اليها عيال السلطان ويبدءون فى مباشرة أعمالهم وهى على ثلاث مراحل :

الاجراء الأول : (١) معرفة جنسية السفينة (٢) احصاء بعدد المسافرين عليها (٣) كتابة قائمة بأسمائهم والسلع التى يحملونها (٤) . تبليغ كل هذه المعلومات لأمير الاسكندرية الذى يتولى بدوره تبليغها للسلطان فى القاهرة بواسطة الحمام الزاجل (١١٢) .

الاجراء الثانى : بعد أن تدخل السفينة الميناء ترفع عنها أشرعتها ودفعها وتحفظ لدى السلطات المحلية لحين التحقق من بياناتها ودفع ما عليها من رسوم ثم السماح للقيطان والركاب بالنزول للسفناء بعد

ويقع خلف بابها الشمالى الذى يفتح للسفناء فى أكبر أحياء المدينة . وهو مهبط التجار من وطنيين وأجانب وبه فنادقهم . وللمدينة ميناءان . وبالتالى جسر كان : والميناء الأول هو مرسى البرج ، وأخذ اسمه من برج على صخرة للمراقبة ، وترسو فيه سفن التجارة الأوربية . كما تدخله سفن تركيا وجزر البحر المتوسط للتجارة وللاحتساء من الأنواء ، أما الثانى فهو مرسى السلسلة ، وتدخل اليه سفن بلاد المغرب وخاصة تونس وجزر البحر المتوسط (١١٨) . ورست ادارة الجمارك بالاسكندرية رسوما معينة فى كل جسر . فهى فى جسر ك البرج الخاص بالأوربيين المسيحيين ١٠٪ ، وفى جسر ك السلسلة الخاص بالمغاربة المسلمين ٥٪ (١١٩) . ويفيد الوطنيون بالاسكندرية من التجارة الأجنبية المسيحية والاسلامية . ولكن معظم أموال جماركها بذهب لخزائن السلطان ، وكان القنصل يذهب بنفسه القاهرة لحمل رسوم الجمارك للسلطان (١٢٠) .

.. البضائع . ومن ثم اخبرت الاسكندرية لحمل محل دماط . واصبحت منذ ذلك الحين - أكبر موانئ البحر المتوسط .

القلقيشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٠٤ .

سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٠ .

— Leo Africanus, The History and Description of Africa, (١٠٨) Vol. I. pp. 861, 862 & R. II. p. 908 R. 10. pp. 907-908.

(١٠٩) كان المغاربة يدفعون ثلث سلمهم مكوسا على حين أن الفرنج يدفعون العشر ولما شكا المغاربة للسلطان ناصر فرج ١٤١١ م أمر ألا يؤخذ من المغاربة الا العشر .

ابن حجر : ألباء العمر ج ٢ ورقة ٢٨ .

ويذكر Thenaud ان السلطان كان يحصل سنويا على حوالى ٢٥٠.٠٠٠ أشرى رسوم جمارك على السلع التجارية فى جمارك الاسكندرية وتصل رسوم الجمارك أحيانا الى ١٠٠٪ من مشتروات الأجانب مما حدا ببعضهم الى الرجوع دون شراء أى شئ .

— Thenaud, Op. Cit. p. 27.

— Depping, Op. Cit. I. p. 62-63 & I. p.p. 160-161. (١١٠)

(١١١) — Heyd, Op. Cit. II. p. 451

(١١٢) القلقيشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩١ - ٣٩٢ .

المريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١١ - ٢٣١ .

ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٦ .

سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٦٣ .

قييت : مصر الاسلامية ص ٥٤ - ٥٥ .

Harff, Op. Cit. p. XXIII.

— Heyd, Op. Cit. II. p. 429.

أخذ اذن أمير المدينة . وفى حالة العداء بين الفرنج والماليك يتشدد عبال السلطان فى التفتيش خوفا من وجود الأسلحة (١١٣) .

الاجراء الثالث : تبدأ جباية الرسوم المتررة وهى (١) جزية الرأس دوكتان لكل فرد وخسة اذا كان من الحجاج . (٢) رسم دخول يساوى ٢٪ من قيمة السلع المحسولة ومحاولة المزاوغة هنا من الأجانب كان مصيرها العقاب الصارم (٣) ١٠٪ للجبرك من قيمة السلع (١١٤) . وبالجبرك موظف سلطاني يقوم بتحديد ما تريد الحكومة شراؤه من سلع غريبة كالخشب والقطران وغير ذلك للمتجر السلطاني فى القاهرة (١١٥) . وموظف آخر يتولى استجواب التجار أو الوافدين والعابرين عن الحالة العامة فى أوروبا والظروف السياسية التى تسببها كما يسألهم عن وظائفهم ، فإن كانت له صفة دبلوماسية استجوب عن مقاصده وعن أمراء وملوك أوروبا وعن رحلات صليبية جديدة (١١٦) . فاذا تست كل هذه الاجراءات سح لهم بدخول المدينة للسبب فى فنادقهم وفرزسلعهم ، وكانت السلطات المالكية لا تسمح الا لفنصل

- Harff, Op. Cit. p. 84-92.
- Heyd, Op. Cit. II, p. 430.

(١١٣)

« يذكر هارف أن الأشربة والدقة لا تسلم الا بعد استيفاء رسوم الجمارك ثم يصرح للسفينة بالرحيل . ويقول كذلك أمرا غريباً آخر وهو أن تجار الاسكندرية يترصّدون الحمام الزاجل ويفحصون ما به من رسائل لكي يعرفوا نوح وكمية السلع الواردة للاسكندرية وعدد السفن حتى ينظّموا عملية الشراء ثم يمدّوا اطلاق سراح الحمام ليكمل رحلته لدماهرة » .

- Harff, Op. Cit. p. 181.

(١١٤) فييت : مصر الاسلامية ص ٤٠ .

- Ziada, Op. Cit. p. 211.
- Heyd, Op. Cit. II, pp. 428, 430.
- Depping, Op. Cit. II, pp. 303-306-307.
- Harff, Op. Cit. p. 92.
- Sonia, Op. Cit. pp. 97-98.

(١١٥) ابن ممتي : قوانين الدواوين ص ٢٢٧ نشر عزيز سوريال عطية .
- Harff, Op. Cit. p. XXIII.
- Sonia, Op. Cit. p. 98.

(١١٦)

فرنسا بمرافقة عبال السلطان فى عمليات التفتيش (١١٧) .

أما ميناء السليلة فيسر منه تجار ومسافرو المغرب والقبسات الأخرى الشرقية من أتراك آحيانا وينييين وهنود وفرس وتجري معهم الاجراءات الآتية :

- ١ - يصعد عبال السلطان للسفن لقيد كميات وأنواع السلع .
- ٢ - استحضار جميع من بالسفينة من المسلمين واحدا واحدا وكتابة أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم .
- ٣ - سؤال كل فرد عن حيازته من سلع أخرى إيؤدى عن الجميع زكاة دون أن يسأل هل حال عليها حول أم لا (١١٨) .
- ٤ - من كان منهم ذا صفة سياسية طيف به على المسئولين تحت الحراسة للقاضي وأهل الديوان وحاشية السلطان وفى كل مرة يستجوب ثم يطلق سراحه .
- ٥ - انزال السلع للديوان وتفتيشها لتقدير الجمارك عليها .

(١١٧) فييت : مصر الاسلامية ص ٤٠ .

(١١٨) « هذا فى الواقع ليس زكاة بل هى ضرائب وتأخذ صفة الزكاة الواجبة على كل مسلم والدليل على ذلك عدم اهتمام السلطات بمرور حول على الزكاة السابقة أم لا انظر : ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

مثل هذه الاموال كانت تعتبر مكوسا غير سرعية لا سند قانونى لها ، لم تكن من ابتكار الممالك بقدر ما كانت موروثه عن عصور سالفه ، ومنها مقرر المراكب ، وهو ما يؤخذ عن كل مركب وزكاة الدولة وهو ما يؤخذ عن الرجل من زكاة ماله ولو عدم ، واذا مات يؤخذ من ورثته : انظر - المقرئى : المواعظ ج ١ ص ١٠٦ طبع بولاق وكذلك -

سميد عاشور : العصر الممالكي ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

كما تحصل الحكومة من متجر الكارمية فى أى مدينة زكاة معلومة كلما حال عليه الحول ولم يحدد الموزعون الماصرون قيمة هذه الزكاة ومنهم القلقشندي الذى ذكر أنها تحرى مجرى سائر متحصل الاسكندرية المباشرة وغيرها .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦١ وكذلك :

المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٥١٠ و ٥١١ حاشية رقم (٤) للدكتور زياده .

٦ - أحيانا بدل (اقرارات الحيازة) يصير استخلافهم بالقسم
المعظم هل عندهم غير ما وجد .

وفى كل موانئ وجسارك مدن مصر والشام تتم الاجراءات
هذه (١٩) .

الا أن هناك بعض اجراءات اضافية كانت تتبع منها :

١ - عند تقييم حولة السفينة لمعرفة قيمة الضرائب المقررة عليها
تدفع السفينة رسا اضافيا للفندق .

٢ - تتعدد الضرائب بتعدد السلع وتزيد احداها على الأخرى .
حسب أهميتها ، كما أن الضرائب تتفاوت تبعا للعلاقة مع دولة
التجار .

٣ - فى الجمرک يوجد موظف أجنبى بشابة قنصل تجارى
تعينه حكومته بموافقة السلطان ويقتصر نشاطه على دائرة الجمرک
ويراعى أن مواطنيه التجار لا يدفعون فى السلعة أكثر من ثمنها ومرة
واحدة ، ويسك سجلا للبيعات والمشتريات لمواطنيه لمقارنته بسجل
السلطات المحلية ويعمل أحيانا كضامن للتاجر من مواطنيه الذى قد
يترك المدينة وعليه ديون للجمرک أو له أو عليه أموال للتجار الوطنيين .

٤ - تحديد حولة السفينة وأماكن الفراغات بها لتحديد كميات
السلع التى يمكن أن تحلبها فى حدود امكانياتها حتى لا تتعرض
للغرق . والتاجر الغربى هنا لا يجبر على شراء أو بيع أية سلع اذا لم

(١٩٩) تصل الضرائب أحيانا ٢٠ و ٣٥ ٪ وتقل عن ذلك بالنسبة للمسلمين من المغاربة
والاندلس . انظر ابن ماعى : المصدر السابق ص ٣٣٦ - ٣٤٩ .

الفلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٦٤ .

ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

Sonia, Op. Cit. p. 98.

ان اجراءات التفتيش كانت تسرى على الأجانب والوطنيين الوافدين للتجارة الخارجية
وكذلك من المغاربة المسلمين وهى من حقوق السيادة للدولة .

يعجبه السعر وان كان يجبر فى أواخر العصور الوسطى على شراء
« توابل الذخيرة الشريفة » (١٢٠) .

٥ - فى أغلب صفقات البيع كان يوجد سمسار ومترجم .
ويتقاضى السمسار عسولة معقولة يحددها القانون حسب نوع السلعة
وجنسية البائع ، كما كان للسماسرة نقابة تتولى شؤونهم ونظام
السماسرة كان معروفا فى وكالات القاهرة .

٦ - لم يكن الجمرک هو المنطقة الوحيدة التى تتم فيها عمليات
البيع والشراء فى قاعاته التى تشبه الى حد كبير بورصات العصر الحاضر .
ولكن كان يحدث التعامل أحيانا على ظهر السفينة وفى الفنادق فى
قاعات خاصة بذلك . وفى كل هذه الحالات كانت القوانين الوضعية
هى القوانين السائدة .

٧ - اذا تم البيع خارج دائرة الجمرک على غير ما يوافق البائع
حق له أن يلجأ للقضاء الوطنى ، وكثيرا ما لجأ التجار الأجانب للقضاء
الوطنى اذا ما أهينوا أو أضرروا بسبب تأثير ذوى النفوذ من رجال
الادارة والجسارك . وتعهد ادارة الجمرک أحيانا الى شراء السلع
لحسابها ثم اعادتها توزيعها على التجار مع ربح معقول (١٢١) .

(١٢٠)

Ziada, Op. Cit. p. 213.
Pernaud, Op. Cit. pp. 48-49.

(١٢١) الفلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ٣٧ .

المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٤١٥ .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٩ .

Pernaud, Op. Cit. p. 47.

Hariff, Op. Cit. p. 95.

Heyd, Op. Cit. II. pp. 451, 452.

انظر كذلك الملحق عن اتفاقية التجارة بالاسكندرية فقرة ٣ و ٤ (يتحصل من
الضرائب ١٠٪ مسيرة و ١١٪ اذا حدث تغيير . فى السوق الحر ١٠٪ مناصفة بين السمسار
والترجمان . فى البيعات الصغيرة ٤٪ لكل ١٠٠ دوكات للسمسار . ومثلها للترجمان
بشرط الانتهاء من البيع نهائيا .

٨ - فيما يختص بسلع الشرق الأقصى جعل المسالك جمارك ميناى جدة والطور لها ، أما الاسكندرية فقد اختص جمركها بسلع أوروبا والمغرب الواردة والمصدرة لها وفى دمياط اختص جمركها بضرائب الصادر من السكر الوارد من الخشب من أوروبا وآسيا الصغرى والشام . وقية الضرائب على الخشب وصلت الى حوالى ربع الثمن (١٢٢) .

٩ - سعى للقنصل بالاسكندرية بتحصيل ٤٥٪ من الرسوم المتحصلة لصالح القنصلية و ٢٪ على الوارد ومثلها على الصادر للقنصلية أيضاً و ١٪/٢ لصالح القنصل نفسه . وفى القرن الخامس عشر بلغ جلة ما يحصله القناصل لأنفسهم ١٪ فى الاسكندرية وفى دمشق ٣٪ بحيث لا يزيد على ١٠ دنانير ، أى فلس لكل ١٠٠ دوكات تقريباً (١٢٣) .

وفى موانئ النيل النهرية اتبع فى بولاق بالقاهرة نفس النظام من حيث التفتيش وتحصيل الرسوم على التجار ورسوم الحجاج (١٢٤) . وفى جمرك ميناء منية بن خصيب كانوا « يقسمون الأيمان الحرجة » على ما بأيديهم وما عندهم وهى بديل « الاقارارات الجبركية » الحالية وان اتبعوا معهم وسائل قاسية أحياناً (١٢٥) . وفى عدن أظهر حكامها

(١٢٢) الميرزى : الخطط ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٩ .

الفلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

ابن شاهين : زبدة كشف المالك ص ١٠٨ .

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٨٤ .

— Depping, Op. Cit. II, p. 77.

— Depping, Op. Cit. II, p. 54.

(١٢٣)

(١٢٤) انظر الفصل الثالث - بخصوص ميناء بولاق النهرى وجمركه ، فيتواجد به رجال الحكومة بصفة دائمة لتحصيل الرسوم المستحقة على التجار وجمركها باب خاص . بالمسافرين لفحص حقائبهم ويدفعون ١٠٪ مما بها ، ودوقتان للمسافر المادى . وخمسة للحاج .

— Thenaud, Op. Cit. p. 121.

— Clorget, Op. Cit. p. 169-170.

(١٢٥) الميرزى : الخطط ج ١ ص ١٠٨ - ١٠٩ يصعد عمال الجمرك السفن ويقتنون =

تسلفاً مع التجار فى الجمارك ، ففرضوا عليهم الضرائب المتعددة . ويرتفع عمال الجمرك قلاع ودقة السفن حتى يتم دفع الرسوم ، ويتم التفتيش بدقة حتى النساء وجدت عجوز تتولى تفتيشهن ، ولا يبارح التجار المرفأ الا بعد التأكد من تصفية كل عملياته (١٢٦) . وقد تأرجحت رسوم الجمارك فى ميناء عدن وجدة تبعاً للتطورات السياسية والاقتصادية ، فرفعت فى جمرك ميناء جدة الرسوم على السفن التى يثبت أنها مرت بعدن فى طريقها لجدة كما يدفع الحجاج اليسيون لدى عودتهم من مكة رسوماً عالية فى عدن لديوان الجمرك على ما يحصلونه من الحجاز (١٢٧) .

وجمرك القسطنطينية به جهاز ضخم يعمل على التأكد من جنسية كل سفينة ويقدر ما تستحقه من ضرائب ، وكان على السفن أنه تدفع مجسومة من الضرائب منها ضريبة على مساحتها وحولتها ونوع المبلغ التى تحبلها . ويذكر عن هذا الجهاز من الموظفين أنه لم يسمع عنهم أنهم أساءوا أو ارتشوا نظراً للرقابة الشديدة عليهم ، وان كانت بعض الجاليات تحاول التهرب أحياناً من دفع بعض الرسوم الجبركية . ويحصل فى جمرك القسطنطينية ٢٪ رسوم مرور و ١٪ للقنصل . وبقي هذا النظام قائماً فى العصر العثمانى بلا تغيير ، وان كان قد اتخذ شكلاً أكثر حزمًا نظراً للظروف العسكرية التى أحاطت بالمنطقة منذ عام ١٤٥٣ م (١٢٨) .

== الركاب وسلمهم حتى النساء بطريقة وصفها الميرزى (بطريقة قبيلة وشنيعة) كما يجسبون بسلاهم جميع ما يحملون من غنائم ويحل بالمسافرين والتجار والحجاج من العنف وسوء المعاملة مالا يوصف .

(١٢٦) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٥٨ .

(١٢٧) الظاهرى : المصدر السابق ص ١٣ - ١٤ .

ابن اياس : نقش الازهار (مخطوطة) ورقة ٨٣ .

— Lane Poole, Hist. of Egypt. p. 340.

— Heyd, Op. Cit. II, pp. 445-446 & 500, 504.

(١٢٨) بعد أن أصبح العثمانيون سادة القسطنطينية ثم سوريا ومصر وقبرس =

ومن الجمارك التي كان لها اتصال بتجارة شرق البحر المتوسط :
جمارك الصين والهند ففي جمارك الصين وخاصة في جمرِك ميناء
خافو (كانتون) كانت أسماء ربانة السفن الأجانب تقيّد في ديوان
التجارة البحرية ، ويطلب الديوان بحق تفتيش المراكب قبل السماح
لها بأنزال ما تحصله إلى البر . ويحصلون رسوم تصدير وتحصيل .
وصار من المحظور تصدير الأشياء النادرة ، وكل من يعمد إلى
التهرب يسجن وربما تكون قد أنشئت في العصور الوسطى مكاتب
تجارية ، داخل دائرة الجمرِك لتسهيل أعمال التجار المسلمين وتسهيل
تحصيل رسوم الجمارك للسلطات الحاكمة والرسوم تقدر بنسبة ثلاثة
أعشار القيمة للسلطة . ويستطيع السلطان أن يشتري ما يشاء بشن
مجر (١٢٩) .

وفي الهند فانه لدى وصول السفن إلى موانئها يصعد إليها
مندوبو الملك لكي يلقوا نظرة على البضائع الموجودة بها ويشنون
حولاتها . وفي ميناء قاليقوت يعين الملك من رجال الجمرِك ثلاثة
موظفين لحراستها ، وعمل حساباتها في الجمرِك ، وتنظيم عمليات
البيع والشراء والضرائب والموجبات ورسوم الدخول والخروج .
وثالث سمسار لتسويق ما يطلبه التجار من سلع محلية أو بيع مالدبيح

= والحجاز وصعدوا وحددوا الرسوم بنسبة ٢٪ في قبرس والقسطنطينية و ٣٪ على البحر
الأسود ودمشق و ١٪ في بيروت للصادر و ١٪ للوارد وما بين ٤ - ٦٪ في حلب ثم
رفعت رسوم الاسكندرية لتوازي جمارك الشام حتى يمكن انتعاشها .
— Depping, Op. Cit. II. pp. 54 & 167.
— Poston, Op. Cit. II. pp. 102-103.

(١٢٩) متر : الحضارة الاسلامية (مترجم) ج ٢ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦ .

يذكر ابن بطوطة : الرحلة ، عجائب الأخبار ج ٣ ص ١٦١ « ان الجنوك الصينيه
إذا ما يارحت الميناء يكتب القبطان اقرارا منه بعدد ركايبها وخدمها وبحارها وسلعها .
فإذا ما عاد يقدم اقرارا بمن تخلف ، سائلا أو ميتا - والا يؤخذ فيه - ثم يقدم اقرارا بالسلع
التي في حوزته . وبعد انزالها إذا ظهر أي اختلاف صار الجنك وما فيه من مال وسلم ملكا
للسلطات المحلية .

من سلع نظرا لمعرفة السمسار بلغة وطباع أهلها وأسعار السوق حتى
يطمئن التاجر تماما لعادلة وصحة الاجراءات . ويدفع التاجر أو أصحاب
السفن - ان كانوا هم التجار - مرتبات هؤلاء الموظفين بسخاء ،
ولهم عسولة شراء وبيع تبلغ حوالي ١٦٪ من مجموع المشتريات (١٣٠) .
وتتغير الرسوم الجمركية بتغير الحكام . ويحصل رسم حراسة قدره
ربع قيمة المبيعات والمشتريات ولا تحصل عوائد إذا عادت السفينة دون
مشتريات (١٣١) .

أما في جمارك غرب البحر المتوسط ، ففي البندقية كان التاجر
الأجنبي يراقب مراقبة شديدة ودقيقة ، ولا تترك له حرية اختيار
مسكنه ، بل يوضع في فندق خاص بالأجانب ، وفيه يصير تخزين سلعه .
وبالجمرك مركز ادارة الأجانب الوافدين . وتنزع كذلك منه أسلحته
وتعمل فائسة بما في حوزته من سلع حتى يمكن تقدير الضرائب
الجمركية المطلوبة منه . ويقوم بهذا العمل مفتش أو كشاف ، وهو
يعاون التاجر في شراء لوازمه ويرافقه كئله لكي يتأكد من أنه
لا يخالف القوانين ولا يتهرب من الرسوم الجمركية . ولا بد للتاجر أن
يبيع مائديه . لأن السلطات تحصل الرسوم على البضائع بيعت أم لم
تبع (١٣٢) .

جملة القول أنه حتى نهاية العصور الوسطى لم يسمع عن جمارك
مصر والشام ما يشين القائمين عليها . وظلت الجمارك مثالا للدقة

(١٣٠) — Darnes, The Book of Duarte Barbosa, Vol. II. p. 77-78.

• يذكر بربوزا أن عمولة هؤلاء الموظفين هي أربعة أرباع زنجبيل لكل ٢٥ رطلا
مشتراة . أي حوالي ١٦٪ من قيمة المشتريات .

— Camb. Mod. Hist., Vol. I. pp. 25-26.

— Moreland, Indian Shipping, p. 198.

— Clive, Op. Cit. pp. 94-95-96.

والأمانة ويلقى فيها الأجانب الأمن والرعاية . وليس أدل على ذلك ما ذكر عن قصة البرتغاليين الفونسو بايفا وكوفلهام مبعوثي ملك البرتغال لملك الحبشة في أواخر القرن الخامس عشر ، وكيف أن سلعهما ردت اليهما كاملة ، في الوقت الذي ظن فيه البعض أنها سرقت بفعل عمال الجسر حين مرضا وبدا أنها فارقا الحياة ولما انجلت عنتهما ردت اليهما بضاعتها . وشهدا هما بذلك ، ولقيا كذلك مثل هذه الرعاية والأمان في موانئ الهند « حتى ان التجار الأجانب يشركون بضائعهم في السوق دون أن يكلفوا أنفسهم عناء اعلان قبضتها المادية ، لأن حرس وموظفي الجسر مسؤولون عن حمايتها (١٣٣) .

على أن مسألة الرعاية في الجسارك تعدت كذلك الى تخفيض الرسوم على بعض الجاليات دون غيرها لعوامل اقتصادية أو سياسية . وخاصة اذا كانت الحاجة ماسة لأدوات الحرب (١٣٤) . الا أن هناك رسوما اضافية لا ينالها التخفيض ، تدفع لصالح الحمالين والساسرة والمترجمين ولديوان القبان ، وهذه الرسوم سادت جمارك مصر والشام والهند والصين وبلاد المغرب (١٣٥) . ومنذ أوائل القرن السادس عشر وجمارك مصر تتدهور بشكل ملحوظ وخاصة في مينائي جدة والاسكندرية ، ويعمل ابن اياس ذلك « لأن السفن الأوروبية (يقصد البرتغاليين) بدأت تتوغل في البحر الأحمر وتجاوز عددها العشرين . وكانت تطارد سفن الهند المحملة بالسلع الشرقية وتصادر

(١٣٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٦ .

سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر المماليك ص ٧٨ .

سعيد عاشور . العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

— Sonia, Op. Cit. pp. 97-98.

— Heyd, Op. Cit. 1. pp. 391-392.

(١٣٤)

(١٣٥) ابن ممانى : فوائيد الدولة ص ٣٢٧ (نشر عزيز سوريال عطية) .

— Mas Latrie, Traites De Paix Et de Commerce, pp. 106-107.

ما تستولى عليه منها » (١٣٦) . واذا كان قد نسب لعمال الجسارك اذ ذاك التشدد في جمع الرسوم وتحصيلها ، أو دقة التفتيش ، او التحقق من شخصية الوافدين ، فهذا يرجع لحالة الحرب بين مصر والبرتغاليين في المياه الهندية . وليس هذا الا حرصا من الحكومة على مصالحها وآمنها (١٣٧) .

القناصل التجاريون :

ومن الهيئات المشرفة على التجارة الخارجية كذلك هيئة القناصل التجاريين ، وقد ظهرت الحاجة الى هذه الوظيفة في تجارة شرق البحر المتوسط عندما اتسع مجالها شرقا وغربا وتركز القناصل في مصر والشام والقسطنطينية لتغطية تسويق وعبور المتاجر الشرقية والغربية . ولما كانت ظروف التجار في كثير من الأحيان تحتم عليهم الاقامة في المدن والموانئ التجارية العربية لفترة طويلة وممارسة التجارة في ظل القوانين المحلية ، لذا أصبح من الضروري وجود هيئة تتولى الاتصال بين هؤلاء التجار ، والسلطات المحلية . هذه الهيئات وأفرادها هم « القناصل التجاريون » وأطلق عليهم أحيانا اسم « المندوبون التجاريون » . وفي الاسكندرية كان يطلق عليهم اسم « مدير المبيعات » أو « المندوب التجارى » . ولكل مجموعة تجارية بالمدينة مندوب من هذا النوع يمارس مهام منصبه بعد موافقة السلطات المصرية (١٣٨) . وقد عرف شرق البحر المتوسط نظام القناصل التجاريين

(١٣٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٠٥ .

فييت : مصر الاسلامية ص ٤١ .

— Poston, Op. Cit. II. p. 334.

(١٣٧)

(١٣٨) ابن حجر : انباء الغرر : ج ١ ورقة ٢٢٣ (مخطوطة) .

ابن سائمن : زبدة كشف المالك ص ٤١ .

— Heyd, Op. Cit. II. p. 454.

— Depping, Op. Cit. II. pp. 20-21.

قبل الحروب الصليبية ، واستمر هذا النظام قائماً حتى نهاية العصور الوسطى ، وإن كان من الصعب أن نجزم أى الموانئ الشرقية استقبلت قبل غيرها قناصل التجارة ومتى استقبلتهم . إلا أنهم كانوا فى القرن الرابع عشر هيئة رسمية تعترف بها الدولة وتبارس أعمالها الإشرافية على التجارة (١٣٩) . وقد عرف العرب هذا النظام فى الصين منذ انتشار الاسلام وازدياد التجارة بين شرق آسيا وغربها ، ولما زادت الجالية العربية فى « كانفو » عين امبراطور الصين هيئة من قنصل — حسب الاسم الذى عرف به فيما بعد — وقاض وكتبة ، لرعاية شئون هذه الجالية التجارية والمدنية والدينية (١٤٠) .

ويعاون القنصل فى مهام وظيفته هيئة تتكون من موثق العقود وترجمان بترتب سنوى ، وقد يكون من الوطنيين الذين يتقنون لغة الأجانب ، أو أجنبيا أتقن لغة الدولة التى يعمل بها ، ووكيلا للقنصل . ويحرم على القنصل الاشتغال بالتجارة لحسابه أو لحساب غيره أو يعمل مندوباً لدولة أخرى إلا بأذن خاص من السلطات المحلية . ويرشح لوظيفة القنصل أفراد من الأسر الكريئة ، ولو أن هذه العادة تعدتهم للتجار وخاصة من كان له صلات قوية بالعرب أو من بقى بين ظهرانيهم سنوات عدة . وتجدد المدن التجارية قناصلها فى شرق البحر

(١٣٩) يبدو أن نظام القناصل كان سابقاً للحروب الصليبية بوقت قصير فى مصر والشام ، ولاسيما فى حالة النزاع بين أوروبيين وكان لا يجوز للقضاء الوطنى الفصل فى مثل هذا النزاع حسب الشرع ، لذا يرجح وجود مندوب من الجاليات الأوروبية ينولى هذه العملية وعملية الإشراف التجارى على مواثيقه عرف فيما بعد باسم القنصل . ويبدو كذلك أن السلطات رحبت بمثل هذه الوظيفة لتسهيل عملية الإشراف على التجارة .
— Depping, Op. Cit. II, pp. 20-21.

(١٤٠) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٦٩ — ٧٠ .
سليمان العارسى : أبازيد السيراقي : سلسلة التواريخ ، الكتاب الاول رحلة الى الصين ص ١٣ .
ابن اياس : نقش الإزهار (مخطوطة) ورقة ١٢٨ .
— Pirenne, Mod. Cities, p. 188.

المتوسط عاماً بعد عام ، وقد يستقر القنصل فى وظيفته ثلاث سنوات ، اذا زكاه مواطنوه التجار . وكانت بعض الجمهوريات التجارية الايطالية وخاصة جنوة والبندقية ، ترسل لمراكز نشاطها التجارى ثلاثة قناصل ، بحيث يحل كل واحد مكان الذى تنتهى مدة خدمته ، وتهدف من هذا الى تفادى اشكالات الموت المفاجئ ، أو صعوبة المواصلات أحيانا ، وكذلك لزيادة مران القنصل فى وظيفته (١٤١) . وفى العصور الوسطى المتأخرة صار القنصل مثلاً لدولته سياسياً وتجارياً ، وسمح لهم بتحصيل رسوم اضافية على التجار لصالح القنصلية ولصالح القنصل نفسه (١٤٢) . ولدى وصول القنصل يقدم نفسه ومعاونيه السلطان الذى يحدد لكل منهم عمله حسب خطاب الاعتداد ويتلقى تعليمات السلطات المحلية ، وعليه أن يطبقها بدقة (١٤٣) . ومنذ سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ م ، عين قنصل عام للشام وآخر لمصر ، والأول مركزه بيروت ، والثانى مركزه الاسكندرية ولهما نواب فى المدن والموانئ كافة ، وهو مسئول عن مواطنيه وعن رسم الجمارك (١٤٤) . المطلوبة للسلطات المحلية . ويختص القنصل ومعاونوه كذلك بفرض المنازعات التى قد تنشأ بين بعض الأجانب وبعضهم ، بل ان من بين هيئة القنصلية موظفا يقوم بعملية الدفاع عن مواطنيه أمام القضاء المحلى ، كما يشل القنصل مواطنيه أمام السلطان أو نائبه فى قضايا

(١٤١) — Depping, Op. Cit. pp. 94 & pp. 39, 40-43

(١٤٢) انظر قبله عن رسوم الجمارك لصالح القنصليات وكذلك .

المجلة : عدد يناير ٤٩ لسنة ١٩٦٠ ص ٩١/٩٠ .

— Ziada, Op. Cit. pp. 213-314..

(١٤٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .

القرينى : السلوك ج ٢ ص ٦٩٤ .

ابن حجر : ابناء النمر ج ٢ (مخطوطة) ورقة ٢٥٥ وورقة ٤٤٧ وورقة ٥٣

(١٤٤) — Depping, Op. Cit. II, p. 43.

حاكم جديد (١٥٣) . وفي القسطنطينية شجع السلاطين العثمانيون وصول التجار الفلورنسيين وقنصلهم لبلاده ، بل ان معاونى ومستشارى السلطان كانوا منهم . ويتولى القنصل رعاية مواطنيه التجار . والضرب على أيدي العابثين منهم . ويساعده فى عمله مسجل العقود ونائبه (١٥٣) .

ولما كانت معظم المشاحنات الدولية فى شرق البحر المتوسط تتعلق بالتجارة أو هجوم السفن الأجنبية وسفن القراصنة على بلاد السلطان المالكي واغتصابها الأموال والأنفس — فان الاجراء الذى كانت تتخذه السلطات اذ ذلك هو حبس كل التجار الأجانب ومصادرة أموالهم وحجز القناصل ، لحين عودة المأسورين ، أو رد ما اغتصب ، أو تعويضهم عما لحقهم من أضرار . ومن هذا ما حدث على عهد السلطان قايتباى من غارة قراصنة البروفانساليين على ميناء الاسكندرية ١٤٧٦ وأسر تجار السلطان ومنهم ابن عليية ، ولم يطلق سراحهم الا بعد عودة ابن عليية الذى افتدى نفسه وزملاءه بأموال عدة (١٥٤) . وامتلا عهد الغورى بشل هذه الحوادث ، وفى كل مرة كان يلقي القبض على التجار والقناصل حتى تنتهى الأزمة ويطلق سراحهم (١٥٥) وأحيانا كان السلطان يرسل بعثات دبلوماسية من كبار رجال الدين المسيحيين ، للتفاوض بالطرق الدبلوماسية على حل الأزمات (١٥٦) .

(١٥٢) بالملاحق برقم (١٨) حتى رقم (٣٠) عدد من المعاهدات خاصة «بجارة فلورنسا

وامتيازات تجارهم .

— Heyd, Op. Cit. p. 344.

— Depping, Op. Cit. II, p. 40.

(١٥٣)

(١٥٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٠ - ١١٥ (طبعة كالة) انظر كذلك .

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٢٢ (طبعة بوير) .

(١٥٥) ابن اياس : المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٦/٩٨/١٩١/١٩٩/٢٠٥ .

— Depping, Op. Cit. II, p. 196. & T. I, pp. 79-80. (١٥٦)

بخصوص هذا الموضوع انظر : ابن فضل الله العمري : الرسالة ص ١٠/٩ .

الاستئناف (١٥٧) . ويرفع طلبات مواطنيه ودولته للسلطان . وقناصل جنوة والبندقية وفلورنسا كانوا أكثر القناصل اتصالا بالسلطان فى مصر ويستعملون بيزة « أكثر الدول رعاية » (١٥٦) . وتحدد الوثائق ظهور قنصليات جنوة فى شرق البحر المتوسط فى القرن الثانى عشر فى نفس الفترة التى ظهر فيها هذا النظام للبداقة فى الشام (١٥٧) . ولأهل بيزا فى الاسكندرية وفى القاهرة (١٥٨) . وبدأت جنوة قنصلياتها التجارية فى الاسكندرية فى القرن الثالث عشر ، الا أن قنصلياتها على البحر الأسود سبقت ذلك بقرون عدة (١٥٩) . وقناصل البنادقة فى الاسكندرية من أبرز الشخصيات الأجنبية فى بلاد السلطان المالكي . وبقيت قنصلياتهم حتى عهد السلطان العثماني سليم الأول ونالوا منه امتيازات جديدة فى معاهدة تجارية (١٥٠) . ولم يكن للبنادقة أو لغيرهم من الجاليات الأوربية قنصليات فى القاهرة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر (١٥١) . وتمتع قناصل فلورنسا فى الدولة المالكية بمرکز ممتاز لهم ولمواطنيهم التجار ، ويعقد القناصل معاهدة تجارية كلما ولى السلطنة فى القاهرة

(١٥٥) انظر قبله عن القضايا التجارية بين الوطنيين والاجانب بعضهم بين بعض .

والقضايا الاستئنافية فى القاهرة .

— Heyd, Op. Cit. I, p. 391-392 & 411, 412 & II, p. 454. (١٥٦)

— Dopp, Op. Cit. p. 76.

— Depping, Op. Cit. II, pp. 21-22.

— Sonia, Op. Cit. p. 99.

(١٥٧) محمد كرد علي . حطك الشام ج ٢ ص ٣٦٧ وان أول ما ورد اسم القنصل

فى حملة النزاهة الجنوبية التى كانت فى عكا . كان فى أواسط القرن ١٢ م ومنها انتشرت فى سائر الأماكن وعرفوا بالقناصل .

— Heyd, Op. Cit. I, pp. 392-393. (١٥٨)

— Beazley, Dawn Of Modern Geog., II, p. 431.

— Depping, Op. Cit. II, pp. 33-36-37-40. (١٥٩)

(١٥٠) انظر الملحق ومعاهدة البنادقة مع السلطان سليم الاول العثماني — راجع

القنصل اسحق البعلقات التجارية الخارجية .

— Heyd, Op. Cit. II, p. 436.

(١٥١)

والواقع أن المصالح والأجانب كان يحدوهم أمل واحد هو المصلحة الخاصة لكل منهم . فلا يكاد السلطان يجس تجارهم وقنصلهم حتى يسارعوا بارسال البعثات الدبلوماسية ، ولا يمر العام الا ويشاهد ديوان القلعة بالقاهرة وفود الدول الأجنبية ومبعوثيهم جاءوا يشددون ود السلطان لحل المنازعات ويطلب معاهدة جديدة . والملاحظ أن أى عداء بين السلطان وطائفة من طوائف التجار الأجانب كان يقبع عبؤه على كل الأجانب وقناصلهم دون استثناء .

ومن الوظائف الاشرافية الأخرى على التجارة وظيفة « مباشرى الختم » ، وقد استحدث المصالح هذه الوظيفة لضمان استيفاء الضرائب النوعية على السلع الصادرة والواردة ورسوم الجمارك وغير ذلك ، ولمنع غش السلع . وعامل الوظيفة يتولى ختم الحمولات من البضائع ، والختم دليل على استيفائها الرسوم المطلوبة ، وأختام أخرى دليل على تفاوتها وأنها مرت على رقيب فحصها . وجساعة مباشرى الختم يوجدون فى الجدارك والأسواق العامة (١٥٧) . ومنها أيضا وظيفة ناظر الخاص وهى وظيفة قديمة ترجع لأيام الفاطميين وأن متوليها لم يبلغ من جلال القدر ما بلغ اليه فى دولة المصالح الأتراك (الجراكسة) . (١٥٨) وقد اتخذت هذه الوظيفة صفة هامة خلال حكم سلاطين المصالح المتأخرين . وصاحب الوظيفة هو الوزير المقرب للسلطان ، وفى الشؤون التجارية الخارجية كان يوكل اليه السلطان أمر مراعاة مطالب التجار

١٥٧ - خليل ابن سامين الظاهري : المصدر السابق ص ٤١ .

١٥٨ - ابن حجر : انباء الغرر ج ٢ ورقة ٤٦٦ (مخطوطة) .
Ziada, Op. Cit. pp. 213-214.

(١٥٧) المبريزي : السلوك ج ٢ ص ٤٣٩ .

(١٥٨) المبريزي : السلوك ج ٢ ص ٦٧٠ - ٦٧١ .

المبريزي : المخطوط ج ٣ ص ٣٦٦ .

الأجانب وقناصلهم فيعطى تعليمات على لسان السلطان بسنغ الأضرار بهم وتسكينهم من البيع والشراء بحرية والتخفيف من شدة القيود المفروضة عليهم وهو وعمله يجوبون الأسواق لمراعاة تنفيذ هذا . ويتبع ناظر الخاص وظيفة « ناظر البحار الكارمي » وقد ارتبطت هذه الوظيفة بالكارمية لكثرة مصالحهم مع دولة سلاطين المصالح وترتبط ارتباطا وثيقا بتنظيمهم الإداري وتجارهم فى البحر الأحمر ومصر . ولأهمية هذه الوظيفة فقد أضيفت لاشراف ناظر الخاص وأحيانا أخرى تنفرد عنها وذلك حسب ما يراه السلطان (١٥٩) . ومن اختصاص هذه الوظيفة كذلك متحصلات مقايضات البهار ورسم البهار الوارد للطور من ميناء جدة (١٦٠) . ويقابل هذه الوظيفة فى غرب البحر المتوسط وظيفة « هيئة قناصلة البحر فى قطلونيا وفلورنسا والبندقية » وغيرها من الدول التجارية . وتختص برعاية مصالح التجار العاملين فى المجال الخارجى بحرا ، وهى صلتهم بالحكومات ، وكان لهية تجار قطلونيا صفة رسمية ويعود اليها الفضل فى إعادة العلاقات التجارية بين قطلونيا ومصر على عهد الملك القونسو الخامس ١٤١٦ - ١٤٥٨ والسلطان الأشرف اينال المصاليكى ، بعد أن انقطعت هذه العلاقات منذ عهد السلطان برسباى بسبب تهجم القراصنة على السفن والسواحل المصرية (١٦١) .

وعلى رأس الإدارات التى كانت تشرف على تجارة الكارمية إدارة عرف صاحبها باسم « مستوفى البهار والكاريم » . وقد وضع المصالح هذه الوظيفة لتناسب مع توسع الكارمية التجارى وتنظيم جباية الضرائب منهم ورعاية مصالحهم ، فمن واجبات صاحبها مراقبة واردات

(١٥٩) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ .

(١٦٠) ابن شامى : زبدة كشف المالك ص ١٠٩ .

(١٦١) المجلة : العدد ٥٥ . سبتمبر ١٩٦٠ ص ٤٨ - ٤٩ . العدد ٥٩ . يناير ١٩٦١

ص ٨٨ وما بعدها .

الحسبة ونظامها مع القوانين والأصول التجارية المرعية . وخاصة مع الأجانب الوافدين على أساس أن إيرادات الأسواق من التجارة الخارجية أصبحت مصدرا رئيسيا لمالية الدولة منذ انقراض النظام الاقطاعي المعتمد على الزراعة . وجرت العادة عند المسالك أن يولوا للوظيفة الرئيسية في هذا الجهاز التفتيشي أحد العلماء من رجال القلم وأحيانا يجمع بين الحسبة والقضاء . ولو أنه في أواخر العثمانية لكي ولي عليها أمير منهم هو « منكلي بغا أنشسى » على عهد السلطان المؤيد شيخ « وجان بردى الغزالي » زمن « النورى » . ومما يلى المالكي « خلال سلطنة « طومانباي الثاني » القصيرة (١٦٥) .

نقابات التجار :

أما الهيئات الأهلية المشرفة على التجارة . فهي هيئات مهنية تجارية على رأسها هيئة « نقابة التجار » . وقد عرفت هذه النقابات في الشرق والغرب . ففي غرب البحر المتوسط كانت « نقابة تجار القطن » لها الكلفة الأولى المسووعة في التجارة الخارجية . وهي التي دفعت الملك الفونسو الخامس لاستعادة علاقاتهم التجارية مع مصر على عهد السلطان إيتال (١٦٥) . وفي جنوة والبندقية وفلورنسا وجدت هذه النقابات ، ولعل أشهر نقابات أوروبا نقابة هيئة تجار الهانسا في

(١٦٤) سعيد مانشور : العصر المالكي من ٣٦٨ - الفلقشندي : صبح الأسى : ص ٤٠

ص ٣٧

المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٤١٥ - المقريزي : العطل ج ١ ص ٤٦٤ .

« عدد المحتسبين في الدولة ثلاثة واحد للقهارة والوجه البحري وواحد للمستطاع والوجه القبلي والثالث خاص بغفر الاسكندرية ومحتسب القاهرة أعظمهم وله حق حضور جلسات الاستئناف العليا في دار العدل والديوان » .

(١٦٥) المجلة عدد سبتمبر ١٩٦٠ ص ٤٨ - ٥٩ عدد يناير ص ٨٨ .

Heyd, Op. Cit. II, pp. 482-483.

— Depping, Op. Cit. I, p. 26.

متاجر الكاريم من مستودعاتهم باليمن وعدن وجدة ، وكذلك الاشراف على فنادقهم وتسهيل تعاملهم مع الوطنيين والأجانب (١٦٢) . وقد وجدت ادارات أخرى تختص بالأشراف التجاري على الكارمية ، منها وظيفة المراقب . ووظيفة المفتش ثم موظف ثالث يختص بالزكاة من الكارمية والمراقب هو الاستادار الماليكي ويتولى هذه الوظيفة بجانب اشرافه على شئون بيت السلطان ومطابخه وغسلاته ، وهو أو من ينوب عنه يقوم بعملية مراقبة تحصيل الضرائب والعوائد على الكارمية . ومتأبل ذلك يرعى السلطان مصالحهم في البر والبحر (١٦٣) . ويبدو أن وظيفة المتحدث هي هيئة الوصل بين الكارمية وبين السلطان وهو مسئول عن كل ما له صلة بتجارهم أيضا .

ومن الوظائف الاشرافية على التجارة وظيفة المحتسب في الأسواق المحلية والأسواق الموسمية . ويعمل المحتسب ورجاله على منع التلاعب في الأسعار والموازين ، أو غش السلع . ويراعى في اختيار المحتسب أن يكون ذا مرامة وخشونة في الدين ، إذ أن سعة دولة المسالك في الخارج تتركز الى حد كبير على سلامة التعامل في الأسواق . لذا حرصت الدولة المالية على ألا تتعارض مهام وظيفة

(١٦٢) لكن ديوان من الدواوين نادر ومستوف . والمستوفى من كتاب الاموال ويعاين الشاظر وهو هو يتولى استيفاء مخصصات الضرائب على البهار والضرائب الأخرى المختصة بجماعة الكارمية . بخصوص الدواوين المالية عامة - انظر الفلقشندي : صبح الاعشى ج ٢ ص ٤٦٦ وبخصوص وظيفة مستوفى البهار والكاريم أنظر :

— Fischel, W., Journal, Vol. I, Part II, p. 167.

— Fischel, Journal, p. 168.

(١٦٣)

وظيفة الاستادار أعلاها من وظائف أرباب السموم ويتولى صاحبها الاشراف على بيت السلطان ومطابخه وغسلاته . ويبدو أنه قد عهد اليه عملية الاشراف على تحصيل ضرائب الكارمية وقد ضمن الاستادار محمود على عهد السلطان بركات وفاء ما استداناه السلطان من الكارمية لتجهيز حملة ملاقاته تيمورلنك .

الفلقشندي : صبح الأسى ج ٢ ص ٤٠ و ج ٥ ص ٤٥٧ .

ابن المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٣٢ دار الكتب .

ابن حجر : أنباء الفخر ج ١ ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

شمال وغرب أوروبا ودورها الهام في نقل التوابل من البندقية ثم من لشبونة أوائل القرن السادس عشر . وأعضاء نقابات التجار هم التجار المحليون والخارجيون واقتصرت في بداية الأمر على تجار المدينة الواحدة ثم توسعت لتشمل تجارا خارجها . وأصبحت حتى أواخر العصور الوسطى الصلة بين الحكومة وهيئات التجار : وتطور لتصبح صورة من صور الغرف التجارية الحالية بمعناها المهني ، وكذلك نواد تجارية واتحادات قومية تجارية . وقد بدأ ظهورها منذ القرن الحادي عشر وبتوالي القرون تطورت لتشمل خدماتها التجار والشركات وأصحاب رؤوس الأموال والحكومة نفسها (١٦٦) . كما أنها تسدد عن التجار أموال الحكومة من ضرائب ورسم جمارك . ويخضع تجار الهيئة النقابية لقوانين الدولة التي يتعاملون معها يبعاء وشراء ، كما أنهم أحيانا يقتضون أعمالهم مع التجار المهنيين مثلهم ولا يتعاملون الا في تجارة الجبلة تاركين القطاع لصغار التجار غير المهنيين لبيئات مماثلة (١٦٧) . ويذهب البعض الى أن نمو المدن وظهور طوائف الحرف المهنيين التجاريين صنوان . بل يؤكدون أن نقابات التجار هي وطوائف الحرف الأخرى كانت القاعدة في التنظيم الإداري والسياسي في الدولة . وإن لم تؤيد الوثائق بالدليل القاطع وجود علاقة بين طوائف الحرف

— Jacob, Op. Cit. pp. 444-445.

(١٦٦)

(١٦٧) «Merchants Guilds» أو شابات التجار كلمة Guilds الانجلوسكسونية التي بمعنى ادفع To pay استعملت في العصور الوسطى لتدل على الهيئة التي يقوم أفرادها بعمل معين في التجارة أو الصناعة وانتشرت في الشرق والغرب على السواء لتصبح الآن ما يعرف باسم « الغرف التجارية » . وكانت قبلا هيئات معلقة لايسمح لأفرادها بالانضمام لبيئات أخرى — كما خضع التجار المهني المنضم للهيئة لرقابة الحكومة حتى لا ينهزب من الضرائب وحفزهم للانضمام للهيئة ما كانوا يحصلون عليه من امتيازات مالية والصريح بالعمل في الخارج إذ لا تمنح التصاريح الا لأعضاء النقابة .

— Webster, Hist. of Civilization, Ancient & Mod. p. 498-500.

توفير. اسكندر/بحوث في التاريخ الاقتصادي — مقال لوبيز عن طوائف الحرف

من ١٦٠ .

التجارية والمجالس النيابية (١٦٨) . وفي مصر جمعت أحيانا طائفة التجار والصناع نقابة واحدة . إذ كان الصانع يبيع ما يصنعه بنفسه ، مما أدى الى أن تمارس نقابة الحرف التجارية مهمة التفيتش لصالح الحكومة على الصناع . وعلى أية حال فإن هذه الطوائف اندمجت في اتحادات عامة ولم يبق للطوائف القديمة سوى ظل من الأثر وهذا الانتقال لم يأت فجأة ولكن تدرج تلقائيا ما بين القرنين ١٤ ، ١٥ م . ونقابة تجار الكارمية في مصر في العصور الوسطى مثال واضح لهذه الهيئات الأهلية المشرفة على تجار الشرق ، وهم يكونون اتحادا طائفا مغلقا يجتمع أفرادهم ولا يقبل غيرهم . وسعوا الى تكوين هذا الاتحاد ، لأن فردا واحدا مهما بلغت قدرته لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل بسفرده . كما أنها كانت تنظيما عائليا يعبر من الأب الى الابن وهم يدربون أبناءهم على هذا العمل من صغرهم (١٦٩) .

ومن هذه الهيئات الأهلية كذلك « نقابة المنتجين » ، وهي تشمل اتفاقية بين بعض التجار لغرض التحكم في الأسعار العامة . بالدفع أو التثبيت لتحقيق أعلى ربح ممكن للهيئة ولأعضائها ، ولو على حساب البلاد المنتجة والشعب المستهلك ، وهي التي عرفت باسم « هيئة الكارتل » . وهي في الواقع نوع من الاحتكارات تتحد فيها عدة شركات لمصالح أفرادها . وظهرت هذه «الكارتل» الانتاجية في فلورنس وبين هيئة تجار «الهانسا» وشملت عملياتها التجارية الملح والشب وقد أصاب هذه الهيئات التدهور في فترة الازدهار الذي تتيج عن وصول السلع الشرقية بكسبات وفيرة ، بأسعار رخيصة لأوروبا

— Webster, Op. Cit. p. 498.

(١٦٨)

— Henry, Higgs, Dictionary of Political Economy. Vol. 11. : Matter : «Gild & gild Merchant»

(١٦٩) المفريزي : السلوك ج٢ ص ١٣٢ — ١٣٣ — ابن حجر : الدرر الكامنة ج٤

ص ٢٠٤ — ٢٠٧ .

Fischel, Op. Cit. (Journal) p. 164-165.

أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر بعد وصول البرتغاليين للهند بحرا (٦٧٠) .

نظام الاحتكار التجارى :

لعل من أهم الأسباب التى أضرت بتجارة مصر الخارجية ، لاجأ اليه السلاطين الجراكسة فى القرن الخامس عشر منذ عهد السلطان برسباى الى سياسة احتكار التجارة الخارجية بعد أن كانوا قد احتكروا بعض السلع فى التجارة الداخلية ، ويفسر هذا الاتجاه فى الاحتكار التجارى الى حاجة السلاطين الماسة الى المال بكثرة الحملات الحربية من جانب ولتعويض الخسائر المادية التى حلت بهم بسبب اختلال النظام الاقطاعى من جانب آخر . وكان على الدولة أن تعمل جهدها لتوازن ضعف انتاجها الزراعى الذى كانت تعتمد عليه كسول لمايتها ، فأتجه السلاطين المساليك الى الاشتغال بالتجارة واتبعوا سياسة الاحتكار التجارى لتعويض هذه الخسائر . وبلغت سياسة الاحتكار أشدها منذ عهد السلطان برسباى ، اذ احتكر صناعة السكر وتجارته الداخلية ثم تجارة الخشب والمصنوعات المعدنية (١٧١) . ثم ما لجأ اليه السلاطين من المتاجرة الشخصية فيما عرف باسم «المتجر السلطاني» وفيه تنافس السلاطين بتجارتهم أرباب الأعمال وتحكسوا فى أرزاقهم وعملوا لهذه التجارة ديوانا عرف « بديوان المتجر » (١٧٢) . على أن أخضر اتجاه اتجهته الدولة وأدى بها الى نهايتها المحتومة هو احتكارها للتجارة الشرقية مع عدم وجود الخبرة الكافية فى هذا المجال . فاستغل السلطان وأمراؤه بالتجارة مع علية بنا قد يجره هذا من مخاطر على

الدولة . وكان السلطان الأشرف برسباى قد أغرته المكاسب فتوسع فى احتكار التجارة الشرقية . وفى عام ٨٣٢هـ / ١٤٢٩ م « أمر السلطان بتجهيز مال الى جدة ليشتري به » وحجز على الفلفل أن يشتري لغيره ، وألزم جميع التجار ألا يتوجه أحد ببضاعته الى الشام ، ولا غيرها ، بل الى القاهرة ، ولا يباع الا بالاسكندرية بعد أن يكتفى السلطان . وألزم الفرنج بشراء الفلفل بزيادة ٥٠ دينارا على السعر الواقع . فاشترى الفرنج شيئا ورجعوا بأكثر بضاعتهم وما معهم من النقد الى بلادهم . فلم يحصل للسلطان مقصوده . وحصل على التجار من الغلاء ما لا يوصف . وتبادى الأمر على ذلك ، وظل يزداد فى كل سنة سدة (١٧٣) . ولم يلبث برسباى أن حذر الكارمية من بيع توابعهم الا له . بعد أن لاحظ التجارب بينهم وبين التجار الفرنج ، وهو ما يسكن أن يفسر بتجاوب بين البرجوازية الكارمية والبرجوازية الغربية المشكلة فى هؤلاء التجار . وهو بهذا الحظر يجبر تجار الفرنج على شراء التوابل من متجربه وبالسعر الذى يحدده (١٧٤) . ثم ما لبث أن أصدر مرسوما أعلن فى أسواقه الكبرى فى الشام والحجاز والاسكندرية ، أن يبعها لا يكون الا فى متاجر السلطان ، وعاد الى التهديد باجبار الكارمية بشراء التوابل فيما عرف باسم «الطرح » أو « التوابل الشريفة » (على عهد السلطان قايتباى) بسعر يزيد ثلاثين دينارا للحبل من الفلفل عما اشتراه به منهم (١٧٥) .

(١٧٣) يشهد ابن خلدون هذا العمل من السلاطين لانه فى هذا ضمانته للتجار وتفسير ذلك أن الرعايا متكافئون فى اليسار ومتقاربون فى مزاحمة بعضهم بعضا ، وإذا رافقهم السلطان فى ذلك وماله عظيم . . فلا يكاد واحد منهم أن يحصل على غرضه فى شئ . من حاجاته . ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد . ويستطيع السلطان أن يسيطر على السوق بماله . ولا يوجد من يناقسه فى شرائه . فيبئس لمن ما يشتريه ويرفع لمن ما يبيعه .

ابن خلدون : المقدمة ج ١ ص ٢٨١ (طبعة بيروت) .

(١٧٤) صبحى لبيب : المصدر السابق ص ٤٥ .

(١٧٥) ابن حجر : انباء الغمر حد ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ أ .

(١٧٠) Jacob, Op. Cit. p. 449 .

(١٧١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٤٣ .

(١٧٢) المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٤٤٤ .

ضرورة للحفاظ على مكائهم واستقرار الاقتصاد المصرى . ولم تسيء هذه السياسة الى الكارمية فقط بعد أن أبعدوا نهائيا عن هذه التجارة ليتولاهما تجار السلاطين ، بل انها أساءت كذلك الى العلاقات بين التجار الأجانب والدولة المالكية ، مما حدا بنهؤلاء التجار الى البحث عن طريق آخر للتجارة الشرقية وتم ذلك عام ١٤٩٧م ، وان لم يكن الاحتكار هو السبب الوحيد لاتجاه الأوربيين لطريق آخر غير مصر (١٧٨) .

الرأسمالية فى النظام التجارى :

يرجع المؤرخون ظهور النظام الرأسمالى فى تجارة العصور الوسطى الشرقية والغربية الى القرن الثالث عشر ، ورائده فى مصر التاجر الكارمى ، وفى أوروبا التاجر الايطالى ، ويؤيد هذا الرأى غنى تجار الكارمية الفاحش ، ومعونتهم للسلاطين فى تجريد الحاصلات الحربية

(١٧٨) سعيد عاشور : العصر المائلى ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

سبحى لبيب : المصدر السابق ص ٤٣ .

منذ عام ١٤٥٥ والتجار الكارمية لا يظهرون بكثرة فى الأسواق حتى انهم عام ١٤٨٤ لم تذكر المصادر عنهم شيئا وان ذكر بدلهم بعض تجار السلطان ، مثل «ابن عليه» الذى أسرد الفرنج مع بعض التجار عام ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٥ (طبعة كالة) وكذلك ص ٢٠٢ - والواقع ان الكارمية منذ ذلك الوقت وهم مجرد موظفين لدى السلطان أو مندوبين له بالاسواق يكسبون عيشتهم فى ركاية بعد التحكم فى مبيعاتهم ، واختار السلطان بدلهم بعض افراد من العائلات الكبيرة ، الا أن جهدهم اقتصر على حصد وظيفتهم لفلة خبرتهم ثم داهى مصر ومسول البرتغاليين لهذه ومنع جلب الرقيق بسبب حجب العثمانيين لهم والنزاع المسلح على الأطراف الشمالية . واقتصر عمل التجار للسلطان على الأسواق المحلية ويبرز هذا ابن اياس فى وصف مصر قبل الفتح العثمانى من أن، التجار أحد اثنين أما تاجر لحوم يسعى لجلبها من البلاد المختلفة وأما بائع لها يوفرها لسكان القاهرة مما يدل على انهيار مكانة التاجر المصرى .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٢٠ و ٣٣٩ و ٤٨٠ (طبعة كالة) .

على أن سياسة الاحتكار التى وضع السلطان برسبأى أساسها أصبحت نظاما اقتصاديا سار عليه خلفاؤه من سلاطين المائلىك . حتى الغورى . وبلغ سعر الحبل من « التوابل الشريفة » السلطانية احتكار السلطان ما بين ١٢٠ - ١٣٠ ديناراً . بعد أن كانت تباع بالقاهرة بسعر ٥٠ ديناراً وفى الاسكندرية بشانين . مما ضج معه تجار الغرب . واحتجت حكوماتهم ، وعادت سفنهم عدة مرات دون شراء ما يلزمها . اذ أن عيال السلطان كانوا يجبرونهم على شراء « التوابل الشريفة » قبل حصولهم على حاجتهم من السوق الحر وهو أرخص (١٧٦) . وكثيرا ما كان يؤدى سوء العلاقات بسبب سياسة الاحتكار الى القبض على تجار الفرنج وقناصلهم وحجزهم فى فسادتهم . أو جرهم الى ديوان الجمرى وإجبارهم على شراء « التوابل الشريفة » أولا بالسعر الذى يحدده السلطان ، ويضطر القنصل وهيئة التجار الى الانصياع لرغبات السلطان . ثم تتوالى البعثات الدبلوماسية والمفاوضات . وفى عام ١٤٩١ م استقر الرأى على أن يباع قنطار الفلفل بشانين دوكانت ، ونص على ذلك فى كل المعاهدات (١٧٧) .

والواقع أن سياسة الاحتكار التى اتبعها المائلىك لم تكن فى صالحهم ، ولا صالح الاقتصاد الوطنى ، فقد عجز المائلىك عن تقدير الضرورة اللازمة لبقاء طبقة الكارمية فى مكانها ووظيفتها كوسيلة

شارل ديل : البندقية ص ١٤٥

— Dunbar, Op. Cit. p. 151.

— Wiet, Histoire De La Nation Egyptienne, T. IV. pp. 574-575 576.

— Mauris Op. Cit. p. 185.

(١٧٦) أبو المعاسن منتخبات من معاسن الدهور ج ٢ ص ٢٤٧ .

توفيق اسكندر : نظام المقايضة ص ٤٢ - ٤٤ وملاحظه ص ٤٤ (انظر الفصل الثانى) .

— Heyd, Op. Cit. II. pp. 491-493 & pp. 525-526.

(١٧٧) انظر الفصل الثانى «العلاقات التجارية الخارجية» وكذلك بالمتن معاهدات

تريفيزاني الغورى وملاحظتها برقم ١٣ ومابعدها .

واقراضهم بهم الأموال أحيانا (١٧٩) . وكانت فترة الحروب الصليبية بالنسبة للأوربيين أفضل فترات ثرائهم وظهور الرأسمالية البرجوازية بينهم . وعاصرت ظهورها في مصر على يد الكارمية الذين بجهودهم حصلوا متاجر الشرق ، والايطاليون ببراعتهم نقلوها للغرب وكسبوا كلاهما من البيع والشراء ثروات ضخمة . والرأسمالية البرجوازية الغربية المبتدئة في التاجر الايطالي كافحت سياسيا ودينيا عداء البابوية لها ، وأعلن البنادقة صراحة أنهم تجار قبل أن يكونوا مسيحيين . وفشلت جهود البابوية في أثنائهم عن التعامل مع مصر . كما فشلت في أغراضها من الحروب الصليبية ، مما أكد لها أن قوة مصر دعمت تجارتها ، وأن هذه التجارة تعتمد الى حد كبير على جهود الرأسمالية الكارمية . لذا استمرت سياسة أوروبا التجارية حتى أواخر العصور الوسطى قائمة على اجتلاب ود الممالك لاستمرار التجارة واستمرار الحصول على المزيد من الإعفاءات والامتيازات التجارية . ومن ناحية سلاطين الممالك فهم يستجيبون لهذا بالقدر الذي تبديه هذه الدول من حسن النية والرغبة في المتاجرة ، بل أكثر من هذا ظلت العلاقات ودية كذلك بين الكارمية كتجار والأوربيين وهيئاتهم التجارية ، بل قامت بينهما شركات مقارضة رأس المال فيها للكارمي والجهد للأوربي (١٨٠) . وقد صاحب ظهور

(١٧٩) «تذكر المراجع العربية أسماء عشرات التجار الكارمية واسمى انفراد . منهم ناصر الدين محمد بن مسلم الذي بلغ رأس ماله عشرة ملايين دينار ومات وهو لا يعرف قدره» .

ابن دقاق : الانتصار بواسطة عند الانتصار ج ٤ ص ٥٠ .
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٠٥ - ابن شاهين : ردة كتف المالك ص ٤١
ابن ياسين : بدائع الزهور ج ١٠ ص ٣٠٢ - ٢٢٩ - ٢٣٠ .
أبو المحاسن : النجوم ج ١ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
المقريزي : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ .

(١٨٠) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ - ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤

ص ٤٠٢ .
أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

الرأسمالية في الشرق والغرب ونسوها حتى نهاية العصور الوسطى أمران : الأول تكديس رءوس الأموال على شكل نقد وبيع ثم قيام جهود مطردة للتنافس وتحسين أساليب التعامل المالي في الأسواق . والثاني قيام حركات مضادة للرأسمالية البرجوازية التجارية في أوروبا ومصر (١٨١) . ففي أوروبا وقعت البابوية موقف العداء الصريح للرأسمالية ، إذ طبقت الكنيسة تعاليم المسيحية بصورة دقيقة وحازمة ضد الرأسمالية ، فالبرجوازيون عندها يشلون طبقة بغضه قد لاقتل بغضا عن طبقة الكهنة والفريسيين في عصر المسيح عليه السلام والذين طردهم من الهيكل قائلا : ييتى بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوف . وهى في نظر الكنيسة تشل طبقة عباد المال بكن مساوئها ، كما أنهم طبقة نامية خطيرة بالنسبة لمركز رجال الدين السياسى الذين خشوا منهم على مركزهم السامى بين أفراد الشعب . أما في الشرق فقد وقعت السلطات المالكية موقف الغيرة من تجار الكارمية الذين يشلون الرأسمالية البرجوازية . ثم موقف المصالح الخاصة بعد أن انهار النظام الاقطاعى الذى قام عليه النظام المالكي . وتطلع الممالك الى تجارة الكارمية واحتكارها مما أدى الى فقدانهم مراكزهم وصفتههم ليندثروا في الربع الأخير من القرن الخامس عشر . ويؤرخ هذا أيضا بداية الانهيار في التجارة المالكية الذى أدى في النهاية الى انهيار الدولة نفسها بعد أن وصل البرتغاليون الى الهند بحرا . الا أن ظهور البرتغاليين في الهند والذى أنهى دولة الممالك في مصر والشام والتي أنهت بدورها برجوازية العصور الوسطى قائلها غير ذلك في أوروبا . فان النهضة الايطالية وما صاحبها من ظهور القوميات في أوروبا وحركات الإصلاح الدينى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، قد حد من سلطة البابوية الكبيرة

في الشؤون الدينية والسياسية وأوقف محاولاتها للقضاء على الطبقة البرجوازية الأوروبية النشطة التي لم تندثر بل ازدهرت لتبلغ أوجها في عصر الثورة الصناعية (١٨٣) .

المعاملات المالية في التجارة : النظام المصرفي :

وقد اقتضى تطور الأعمال المالية والتجارية في العصور الوسطى ، تأكيد أهمية وجود المصارف في المعاملات المالية وكان لمعظم الجمهوريات الإيطالية التجارية في القرن الثاني عشر بنوك ضخمة لها فروع في كل أنحاء مراكز نشاطهم التجاري في الشرق والغرب . عملت على تسهيل التعامل المالي والتجاري النقدي وغير النقدي بالسندات وخطابات الاعتماد بال شيكات والاستبدال النقدي ، ومارست البنكية وجنوة هذه العمليات منذ أواخر القرن الثاني عشر (١٨٣) . كما أسهمت أشهر عائلات البنكية البرجوازية بنصيب وافر في نمو الحركة

(١٨٢) الحقيقة ان البرجوازية المصرفية المتمثلة في التجار الكارمية في العصور الوسطى عجزت عن الدفاع عن نفسها أو الوقوف في وجه انتزاع التجارة عنها بعكس البرجوازية الأوروبية ويرجع ذلك لعدة عوامل أبرزها قوة المماليك وتحكمهم في البلاد ونجاحهم الرائع في القضاء على مفول الشرق وسليبي الغرب . وهم وإن كانوا في الحقيقة يدافعون عن كياناتهم وحياتهم ومصالحهم الخاصة ، فانهم ضحوا بها بهذه الطريقة عندما أفسدوا الحياة الزراعية بعكس ما حدث في أوروبا التي استطاعت برجوازيوها الدفاع عن أنفسهم ومصالحهم ضد الامبراطورية والبابوية وساعدهم في ذلك تطور الأحداث ونمو القوميات في أسبانيا والبرتغال التي بدأت تتفوق بحريا لتكفل هذا التفوق بالوصول للهند بحرا وتحويل تيار التجارة من البحر المتوسط للمحيط الأطلسي .

انظر : صبحي ليب : المصدر السابق ص ٥٠ و ٥١ و ٥٢ .

(١٨٣) «من ذلك أيضا أن البابا انوسنت الرابع عهد الى بنك البنديقة عام ١٢٦٥ في تحويل مبلغ ٢٥٠٠ مارك فضة لأحد رجال الطبقة الوسطى البرجوازية في فرانكفورت» .
— Depping, Op. Cit. 11 pp. 175.
— Maillet, Op. Cit. p. 138.

الاقتصادية التي شلت العالم في القرنين الأخيرين من العصور الوسطى من بينها بيوت الأخوة مورسيني أكبر بيوتات التجارة في البنديقة ، وسمت بنشاط فروعها في الشرق على تطوير عمليات المصارف والتعامل المالي . فكان لها فروع في قبرص وبيروت وحلب ودمشق (١٨٤) .

وأسهم الجنويون والومبارديون، وكذلك الفلورنسيون في مصر والشام والدولة البيزنطية والدولة العثمانية في هذه العمليات المصرفية؛ وفي الوظيفة المصرفية بنشاط وافر . فكانوا يستبدلون العملات . ويتاجرون في التوابل والسلع الأوروبية بالنقمة والأجل . ويتقبلون الودائع وصكوك «شيكات» الدفع ويتساهلون في منح القروض ، المعلاء (١٨٥) . واعتبرت عمليات الصياغة واستبدال النقد كذلك بداية الأعمال المصرفية ، حتى انه أواخر العصور الوسطى عرفت أنواع من الشيكات والحوالات المالية تسحب مقابل ودائع معينة من المعادن الشينة (١٨٦) .

ولم تكن الأعمال المصرفية حدثا جديدا بشرق البحر المتوسط ، فقد عرفت منذ أن كان للسلسين دول ، وفي الشام والعراق ومصر . فكان لبلاط الخليفة أو السلطان صرافان رسميان ، في حين أن النظام المصرفي في أوروبا لم يتطور الا خلال الحروب الصليبية بعد . أن نقله الأوروبيون عن الشرق العربي (١٨٧) . وقد لاحظ الرحالة ناصر خسرو

(١٨٥) شارل ديل : البنديقة ص ٦٥ .

— Jacob, Op. Cit. p. 443.

— Allan, Op. Cit. p. 279.

« من أشهر هذه المصارف في فلورنسا Bardi & Peruzzi وفي البنديقة Tiepolo وفي جنوة Bank St. George الذي كان أعظم بنوك العصور الوسطى قاطبة وخاصة بفروعه على البحر الأسود» .

— Horn, Op. Cit. p. 82, 83.

— Fischel, Jews in the Economic ... p. 12.

في القرن الثاني عشر حين أشاد بمدينة أصفهان أن بها ما لا يقل عن مائتي صراف رأهم في سوق لهم يسمى سوق الصرافين (١٨٨) . وكان التعامل المالي بها يجري على يد الصيارف ، فيعطى التاجر المال للصراف . ويحصل منه على ملك بها دفعه ، وكلما اشترى بضائع سدد ثمنها بهذه السكوك محولة على الصراف ، وهي ما تعرف الآن باسم الشيكات المحولة . ويبدو أنها كانت أرقى ما وصلت إليه المعاملات المالية في الدول والولايات الإسلامية (١٨٦) . وقد نقل الأوربيون هذا النظام ليتطور الى نوع من التعامل المالي الأرقى . وفيها يضمن الممثل وصاحب رأس المال حقوقه بلا عناء . ومن هذه الأنواع السفتجات المتطورة وخطابات الضمان والسندات وأذون الدفع (١٩٠) . كما أنهم كانوا يسجلون هذه الأوراق المالية لدى الموثقين العموميين في سجلات التوثيق . والوثائق التي وصلت إلينا من العصور الوسطى تعطينا فكرة عن نظامها . فهي تارة بخط أصحابها ، وتارة بخط الموثقين . وقد لجأ أصحاب العمليات المالية الى الموثقين الرسميين لكتابة سنداتهم . برغم معرفتهم الكتابة ، حتى تكون الصيغ القانونية خالية من الأخطاء . وغير قابلة للطعن أو النقص (١٩١) . وقد عرف الشرق منذ وقت بعيد نظام دفاتر أو سجلات الحسابات ، بل ان القضاء الاسلامي اعتبر دفاتر المالكين حججا على أصحابها من تجار وصيارف لاتقبل النقص (١٩٢)

(١٨٨) ناصر خسرو الرحلة ص ١٢٨ .

(١٨٩) من المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢١ .

(١٩٠) — Lopez, Op. Cit.

عن الكمبيالات وثيقة ١١٨ ص ٢٢٢ و ٢٢٣ عن خطابات الضمان الانصاف وثيقة ١١٩ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ وعن السندات وثيقة برقم ١٢٠ ص ٢٢٤ وعن اذون الدفع وثيقة برقم ١٢١ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ وثيقة ١١٧ ص ٢٢٩/٢٣٠ .

(١٩١) ص ٢٣١ وثيقة ١١٥ . وثيقة ١١٧ ص ٢٢٩ و ٢٣٠ .

— Lopez, Op. Cit. pp. 229, 230, 231

(١٩٢) ابن حجر : النبا، الدعوى ج ٢ ص ١٣٢ .

وقد ساد شرق البحر المتوسط التعامل بالسندات المالية والقراطيس . بعد أن بدا للناس أنها أفضل الوسائل لحماية أموالهم التي جنوها من التجارة وخاصة الشرقية . وكانوا يخشون في كثير من الأحيان مصادرات الولاة لهذه الأموال فيسأ عرف في العصور الوسطى باسم « مصادرة الربع الخاص » وانتشر هذا النوع من المصادرة في مصر المالكية ، وخاصة في القرن الخامس عشر . لحاجة السلاطين الى الأموال للحرب أو لتقويم النظام الاقطاعي . فعند الناس الى ايداع أموالهم لدى كبار التجار لتستأجر فيها ، وهؤلاء التجار هم في نفس الوقت القائمون بالعمليات المصرفية . ولهم مبان خاصة بهم هي المصارف . ويسمى المصرفيون دفاتر خاصة بالحسابات الرسمية للحكومة وغير الرسمية للعلاء (١٩٣) ومن أشهر صرافى العصور الوسطى في الشرق الاسلامي : اليهوديان يوسف بن فنياس وهارون بن عيران (١٩٤) . ومن هذه الأنواع أيضا نظام «السندات المالية المحولة للغير» التي اقترن ظهورها بزيادة النشاط التجاري ، وكان المسلمون أسبق من الغربيين في استخدامها وسندات هذا النوع قد تكون مؤجلة الدفع ولكن ترد دفعة واحدة . وقد تكون مقسطة وهنا تدخل ضمن نظام «خطابات الاعتماد الائتمانية» وردها مقسطة يتطلب استخدام الشيكات المصرفية المعروفة باسم السفتجات . وهذه الطريقة المالية — بالإضافة الى صفتها المصرفية — فهي أضمن طريقة لحفظ المال من الضياع أو المصادرة ، ويتولى هذه العمليات المصرفيون . وأصبح بإمكان التجار ايداع مالهم لدى صيارف البنوك ويحصلون على سندات بقيمتها واجبة الدفع . للسكان القاصدين اليه . ولعب اليهود في هذا المجال دورا هاما ، بل انها كانت في غالب الأحيان من أهم اختصاصاتهم

(١٩٣) ابن حجر نفس المصدر ، الورقة . وكذلك انظر

— Lopez, Op. Cit. p. 213, DOC. 103.

— Fischel, Op. Cit. pp. 12-13-14.

(١٩٤)

معرفة باللغات الشرقية والغربية ، ثم مارسها عنهم العرب حتى أواخر
العصور الوسطى . وتعدت هذه العمليات النواحي التجارية الى
المعاملات المالية الشخصية (١٩٥) . وفي مصر استخدم تجار الكارمية
هذه الوسيلة في المعاملات المالية والتجارية ، وعرفوا التعامل بالنقد
والائتمان المصرفي في نقل الأموال ، وعقد القروض للسلطين في
مصر . والملوك في اليمن « وفي بلاد التكرور (١٩٦) . واستلزم
عملياتهم المالية والتجارية إيجاد « مصرف عام » لهم (١٩٧) . وفندقهم
بالقاهرة يقوم بهذه العمليات المالية . كما كان فندق بلال يؤدي هذه
الوظيفة في حدود معينة (١٩٨) . كما كانت بنوك الكارمية تمنح
القروض للسلطين (١٩٩) والأفراد (٢٠٠) . لقاء خطابات الضمان .

— Fischel, Ibid, p. 17.

(١٩٥)

(١٩٦) أبو المحاسن : النجوم ج ١٠ ص ٢٧١ و ٢٧٢ (دار الكتب) .

ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٠٥ .

— Fischel, Journal, Op. Cit. p. 170.

— Fischel, Op. Cit. Journal, pp. 169, 170 & Ency. Of Islam, 11, Ari. Egypt.

(١٩٧)

(١٩٨) المقرئ : الخطط ج ٣ ص ١٥٠ وما بعدها « بخصوص فندق بلال يذكر المقرئ
أن أبواب الأموال كانوا يودعون فيه سلمهم وأموالهم ويقول « كنت أدخل فيه ثلثا من
صناديق مصطفى ما بين صغير وكبير ولا يفصل عنها من الفندق سوى ساحه صغيرة بوسطه
تتصل على صناديق من الذهب والفضة ما يجعل وسعته » .

(١٩٩) افترض الكارمية « برهان الدين المحلى » و « شهاب الدين مسدد » و « زور الدين
الحروي » السلطان بركات مليون درهم لمداخله نيومولتك ١٣٩٤ واستعملوا عن بيت المال
صكوك سمان بالمبالغ على خزينة الدولة على عنة صكوك أو مساطر كدب خطه وبضمانة
الاستادار محمود بن على .

أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٧٧/٢٨٦ (طبعة بوبر (كايفورنسا) .

المقرئ : السلك ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

ابن حجر : أنباء الغر ج ١ ص ٣٦٥/٣٦٦ .

(٢٠٠) حجاز السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ١٢٨٧/١٢٨٧ م بعض أثرياء ،
دمشق الى القاهرة والزمهم بدفع غرامات ضخمة ورفض إطلاق سراحهم إلا بعد الدفع ولما
كانوا لا يملكون المال المطلوب وخافوا من أن يعودوا الى دمشق ويتهربوا من الدفع حت
السلطان تجار الكارمية على منح قروض ضمان بالمبلغ لهؤلاء التجار على أن يردوها لهم لدى .

كما تضمن هذه البنوك عمليات المقارضة بين الكارمية والأجانب (٢٠١)
وعرفت كذلك عمليات التمويل التجاري بالسندات المالية
« الموجلة الدفع » على آجال طويلة أو قصيرة ، فقد لجأ التجار
المصريون والشاميون الى هذه العمليات . لا مكان استغلال جزء كبير
من رؤوس أموالهم في التجارة . ويتم التسديد في معظم الأحيان بعد
البيع . وقد اقتبسوا هذا النظام من تجار الغرب الوافدين الى مصر
والشام . ويرد التاجر أصل المال وربحه بعد البيع وضمانا لصاحب
رأس المال المقترض . فانه يسحب شيكات أو سندات على المقترض ،
ويقوم بعملية تحصيل المبالغ المطلوبة الصيارف لقاء مرتبات
أو عمولة (٢٠٢) وهذا النوع من الشؤون المصرفية لم يقتصر على
أفراد الشعب . بل انتفع به رجال الدولة الذين لجؤوا الى المصارف
والتجار للاقتراض بآجال طويلة وبالقسط مع فائدة معينة ، وصاحب
رأس المال هنا أيضا يعطى الصراف الأذونات ليقوم بتحصيلها لحسابه

== عودتهم لبلادهم . ودفع الكارمية المبلغ بعد أن حصلوا على صكوك بدوينة لصالحهم
من هؤلاء التجار وولزمهم القاضي بكامة هذه المساطر بالمبالغ المقرضة خوفا من ألا يؤدوا
ما أخذوه بعد عودتهم .

(٢٠١) المقرئ : السلك ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢٠٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور (مخطوطة) ص ٢٢٢ انظر ما قبله ملاحظه ٤٠ .

— Maillet, Op. Cit. p. 142.

— Maurice, Op. Cit. p. 187.

المصري هو نى الشرق الاسلامي الجيهة وجميعها جهازة وهو خير المال . والتجارة معا
وهو يكتب الشيكات والسندات ويتقاضى على قيامه بالعمل المصرفي عمولة بمعدل درهم لكن
دينار ونسبتها حوالى ٦/٦٦٠ ويرجع أن السندات التي يكتبها الجيهة . وتختص بالدفع
المؤجل . هي التي تعرف الآن باسم (الشكك Shukuk) ومنها كدبة شيكات Cheques
— Poston, Op. Cit. II, p. 285.
— Fischel, Jews pp. 24-25.

يذكر الدكتور عبد الرحمن فهمي : « النفوذ العربية . ماضيها وحاضرها ص ٨٢ » ان
الظروف المالية أصبحت تدولا أسرع وأعظم للعملة فابتكرت الاوراق المالية الخاصة
بقيد ما للعامل من حساب في المصارف credit وصار للهيئات مصارف ثلاثية
والتسليف واستعملوا لذلك الصكوك : الصك كلمة عربية من أصل فارسي أخذها الأوربيون
عن العرب فأصبحت في الإنجليزية باسم Check .

نظير جعل معين ويستفيد من هذه العملية المقرض والمقرض
والمصرفي (٢٠٣) .

وعرف كذلك في العصور الوسطى نظام بنوك الودائع للتسليف
على ودائع عينية وبضائنها ويلجأ إليها التجار إذا احتاجوا إلى أموال
إضافية لتجارتهم . ووجدت أمثلة منها في برشلونة وجنوة وفيرونا
بإيطاليا (٢٠٤) . وفي مصر كان فندق بلال يقوم بهذه العملية إلى
جانب وظائفه المالية الأخرى ، ووظائفه التجارية والإسكانية (٢٠٥) .

وبخصوص الفوائد على المبالغ المقرضة للاستثمار التجاري
أو القرض بصفة عامة فإن قوانين الكنيسة كانت تحرمها في أوروبا في
العصور الوسطى . إلا أن المتعاملين كانوا يتحايلون لتفادي قرارات
التحريم فضموا عقود الصرف أرباحا مستترة ضمن المال الواجب دفعه
كأنه أصل الدين ، وبهذه الوسيلة لا يسكن معرفة قيمة الفوائد . وزيادة
في الحرص كان يذكر في العقد المبلغ الواجب دفعه خارج الوطن والمبلغ

(٢٠٣) «استدان الوزير العباسي على بن عيسى مبلغا من المال من بعض التجار على هيئة
قرض قيمته ١٠٠٠٠ دينار . وكان الضمان هو خطابات أو أدونات تحويل «مستجات»
تدفع في مواعيد محددة من كل شهر بغائده ١/٤ من العضة لكل دينار بحيث تصل الفوائد
شهريا إلى ٢٥٠٠ درهم وقد تم الاتفاق على ذلك بحضور اليهوديان المصريفان الجهاديان
يوسف بن فنياس وهارون بن عمران صرافى القصر ووكلاهما ومدة القرض ١٦ سنة في
حياتهما وبعد موتهما »

— Fischel, Jews, Ibid, pp. 21-24-25-26.
— Poston, Op. Cit. II, p. 287.

(٢٠٤) بلغت أرباح القروض في قبرص عام ١٢٢٨ م ١٢٪ وفي عودينا ١٢٧٠ م ٢٠٪
— Allen, Hist. of Civilisation, p. 379.

وكذلك انظر عقد ايداع وثيقة رقم ١٠٣ من أوبيتن ص ٢١٣ .

(٢٠٥) يذكر المقرض أن فندق بلال كان مصرفا للودائع كذلك — انظر قبله وكذلك
المقرض : الخط ج ٣ ص ١٥٠ وما بعدها .

أبى يستحق داخل الوطن لتفادي ما يحدث عند تغيير العملة . وفي
كثرت الحائزين يستتر الربح أو الفوائد ضمن أصل المبلغ المطلوب
رده (٢٠٦) . وفي الشرق الاسلامي تحرم الشريعة الحصول على فوائد
الاموال المقرضة . وإن كانت تجيز الربح المشترك في الاموال المستترة
في التجارة . وتحرم العقيدة تحريما قاطعا أرباح الربا مهما تكن أو التي
يشتمل فيها رائحة الربا المستتر . وقد ورد في كتب بعض الفقهاء في
الدولة العربية الاسلامية أنه ليس عيبا أو محرما أن يدفع أحدهم الأفراد
إضافة المال عليه بشرط أن يكون ذلك بحض اختياره . ولا يفرض
عليه أى كتابة . ومع ذلك ظلت الإضافات قائمة على فوائد الاموال
المقرضة . وتشدد البعض ليشمل التحريم كذلك فوائد القرض المستتر
في التجارة . وإن كان الغرب المسيحي اعتبر أن ربح رأس المال المقرض
الاستثمار التجاري أمر لا غبار عليه . ونال التجار فوائد لأموالهم .
في حين أن اليهود لم يقيسوا هذه الاعتراضات على المبالغ المقرضة
سواء آكانت للأغراض الشخصية أم للاستثمار التجاري (٢٠٧) . وذكر
مثلا أن أحد الأثرياء يعطى للتاجر مبلغا من المال ليتاجر به ، أو يعهد
إليه بتجارته لتسهيل تسويقها ، ويكتب عليه الصك أمام السكاك
العسومي الرسمي (وهو يقابل الموثق في الغرب) — وله صفة رسمية ،
ويبدأ التاجر في المتاجرة أو توزيع السلع المعهود إليه بها ، ويسر عليه
صاحب المال يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، أو أى وقت

— Lopez, Op. Cit. pp. 162-163 & 169.

وثيقة ٧٥ من ١٦٥ ووثيقة ٧٦ من ١٦٦ وثيقة ٧٧ من ١٦٦ ووثيقة ٨٠ من ١٧١ وكذلك
وثيقة ٧٢ من ١٦٢ وكذلك وثيقة ٧٣ من ١٦٤
متر : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

— Poston, Op. Cit. II, p. 286.

عند العرب يباح ربح المتاجرة في عقود المضاربة أو القراض والى فيها يدفع أحدهما
مالا يجزى به الثاني والربح بينهما بالنصف أو الثلث أو الربع ويسجلون هذا في عقود
توصيه . أما إذا كان الربح كله لصاحب رأس المال والمضاربة عليه فالشريك بالجهد
أجبر . ولا عبر بمقارضة ولا مضاربة . بل هو وكيل لصاحب رأس المال بالأجر .
الجزري : تاريخ اللغة على المذاهب الأربعة . ج ٣ ص ٤٣ .

ويرجع انتشار النظم المالية هذه في التجارة بشرق البحر المتوسط - الى أن السلطات كانت لا تسمح للأجانب بالبقاء في ولاياتها مسددا طويلة ، واتبعت الدولة البيزنطية مثل هذا أحيانا بالنسبة للمسيحيين الغربيين الكاثوليك . لذا لجأ أصحاب رؤوس الأموال وكبار التجار الى وسيلة « المقارضة » في شكل عقود توصية كوسيلة لاستثمار الأموال ، وظلت هذه الوسيلة قائمة طوال العصور الوسطى . وفي أواخرها لم يعد يسمح للتاجر الا برحلة واحدة كل عام تقريبا . خشية ضياع أمواله . وكذلك للاقلال من الخسائر التي تتعرض لها السفن أو التجارة بالطريق ، لهذا لم يكن بوسع التجار انشاء علاقات تجارية دائمة بهذه العقود (٢١٠) . ومن أنواع هذه العقود . عقد التوصية ذي الجانب الواحد « ويعرف « بعقد التوصية الأصلي » والشركاء فيه اثنان : صاحب رأس المال والتاجر المستثمر ونسبة الربح ٣ - ٤ لها واستخدم البنادقة هذه العقود بكثرة في تجارتهم مع شرق البحر المتوسط (٢١١) . والنوع الثاني يشترك فيه التاجر المتجول بثلاث

أحدهما للآخر مالا يملكه فيتجر فيه بجزء ، شائع معلوم من الربح كالنصف . أو الثلث . أو الربع . أو نحوهما . بشرائط مخصوصة .
انظر قبله ملاحظة ٢٤ وعقد الشركة بين الكارمي والفرنجي عقد مفارصه .
المقريزي : السلوك ج ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وهو نوع من أنواع عقود التوصية باسم Commanda Contracts

- (٢١٠)
- Poston, Op. Cit. II. pp. 324.
- Lopez, Op. Cit. pp. 175-176.
- Lopez, Ibid, pp. 175-176.

(٢١١)

وثيقة (٨٥) ص ١٧٩ عن عقد توصية ذي جانب واحد .
وثيقة (٨٩) ص ١٨٢ وفي الشرق العربي اصطلح عند الشافعية امكان استقلال الشريك الوكيل بالتصرف في العمل حسب المصلحة وان عقد المقارضة لا يوثق بمدة معلومة بعكس الغرب حيث كانت العقود لرحلة واحدة والحكومات لا تصرح بأكثر منها خشية مخاطر الطريق . انظر

الجزري : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٣ .

ومعروف في الغرب الأوربي في الرحلات البرية باسم Societas Terrea والرحلات البحرية باسم Societas Maris . ولكل منها عقود معينة وفيها يبقى صاحب رأس المال في بلدته ويقوم بالجهد برا وبحرا الشريك المنقل « انظر قبله ملاحظة ٢٥ » .

يحدد في الصك ليحصل على نسبة من الأرباح ، وكانت تتراوح أحيانا ما بين ١٢٧٪ من أصل رأس المال ، وعند توافر المبلغ يرد لصاحبه نقدا أو مؤجلا بأقساط السفتجات (٢٠٨) .

وبخصوص الأموال المقرضة للاستثمار التجاري ، فقد انتشر نظامها في شرق البحر المتوسط وغربه في العصور الوسطى وهو ثرة التطور البطيء في النظم التجارية والمصرفية الوسيطة وعرف نظامها باسم نظام « عقود التوصية » وعقد التوصية يحصل في طياته معنى « الشركة » ، وان كان أقرب ما يكون للقروض العادية ، والعلاقة بين الطرفين تشبه العلاقة بين « المقرض والمقرض » ويحدد العقد لمدة رحلة واحدة وينتهي بعد اعادة المبلغ ، وتقسم الأرباح والخسائر بنسب حسب ما يتفقان عليه . وعقد التوصية في العصور الوسطى شرقا وغربا ، كان الشريك الأول فيها يشترك برأس المال كله ، والشريك الثاني يشترك بالجهد ، وسادت نسب الربح في فترة ما ٢ - ٣ ، والأكثر للتاجر الشريك المنقل ويكفي الآخر رأس ماله وربح معقول (٢٠٩) .

(٢٠٨) ستر المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ - وصل الربح في بعض المناطق حوالي ٢٠٪ ومارسه اليهود والمسيحيون وبعض المسلمين .

وبخصوص التاجر الذي يعهد بتجارته لسماسرة لتسويقه قصة الشاب الذي نزل قهصرية جركس وقابله شيخ السماسرة ونصحه بأن يعهد بتجارته للسماسرة ويستخدم كاتبها وشاهدا وطوفا ويحصل على أرباح تجارته يومي الخميس والاثنين من كل أسبوع نظير عمولة لكل مستخدم منهم ويحصل هو بعد ذلك على رأس ماله وربح بنسبة قطعتين من الفضة لكل قطعة . - لين بول : سيرة القاهرة ص ٢١٩ .

- Clerget, Op. Cit. p. 307.
- Maurice, Op. Cit. p. 187.
- Lopez, Op. Cit. p. 174.

-- Maillet, Op. Cit. pp. 136-137.

(٢٠٩)

يذكر الجزيري : تاريخ الفقه على المذاهب الأربعة ج ٣ ص ٤٣ « ان المضاربة أو القرض تعني أن يدفع شخص مالا لآخر ليتجر فيه على أن يكون الربح بينهما على ما شرط . والمضاربة على صاحب رأس المال ١٠٠ » وعند الفقهاء هي عقد بين اثنين يتضمن أن يدفع

تنظيم طرق المحاسبة في التجارة :

واستلزم التوسع التجاري في العصور الوسطى وازدياد حجم التجارة بين الشرق والغرب الى ايجاد نظام دقيق للحسابات التجارية . وقد عرف هذا النظام بطريقة مبسطة في الشرق ، الا انها كانت أساسا لما عرف فيما بعد باسم « دفاتر الأستاذ » . فعرف الكارمية هذه الدفاتر لتنظيم حسابات تجارتهم ، وذلك قبل الحسابات الصليبية ، واعتبر القضاء الاسلامي دفاتر المالىين حججا على أصحابها من تجار وصيارف وساسة . كما كان للخلفاء والسلطين كتاب يسكون لهم حساباتهم ، وكذلك للأفراد التجار العاديين (٢١٥) . ومنذ أواخر القرن الرابع عشر وتنظيم المحاسبة يشمل حساب الدائن والمدين ، ويقيد حساب كل منهما منفصلا عن الآخر في دفاتر الأستاذ ويخصص لكل عيل من عملاء التجار حساب خاص في الدفتر ، ثم أضيفت فيما بعد بيانات عن الحسابات غير الشخصية ورءوس الأموال واعتبر بداية لظهور هذه الحسابات المزدوجة . وفي الغرب يقال ان بداية ظهور هذا النظام الحسابي كان في جنوة وتسكانيا منذ أوائل القرن الرابع عشر ، وكان بندن ايطاليا الأخرى دفاتر حساب أستاذ مشابهة ترجع الى ما قبل هذا القرن ، وان كانت الممالك الأخرى أبطأ في استعماله . وهذا السجل في حد ذاته وثيقة متناسكة الأجزاء كوحدة واحدة .

= الصرف المتزايدة وخاصة في المدن التجارية والوكالات واصبح الصراف يعرف بحكم مهنته باسم Banker أو Bankerarius من الكلمة اللاتينية . Bancum وكذلك Trapezita من الكلمة Trapeza الاغريقية وهي التي كان الصراف يضع عليها نقوده وفي الشرق قام الجهادية بهذا العمل والاقراس . بالأرباح والودائع والمتاجرة بالعقود والتسيكات وربحه هنا درهم لكل دينار بنسبة ٦٦٪ .

وثيقة ٧٣ من ١٦٤ من Lopez وكذلك

— Poston, Op. Cit. 11, pp. 286.

(٢١٥) ابن حجر : انباء الغرر ج ٢ ص ١٨٢ .

— Ahurice, Op. Cit. p. 187.

رأس المال المستشر وصاحب رأس المال بالثلثين ، والأرباح هنا بنسبة رأس المال لكل منها أو مناصفة ، كما يتحصل كلاهما الخسائر ، ويعرف هذا النوع باسم « عقد التوصية » ذي (الجانبين) واستخدمه بكثرة تجار جنوة في تجارتهم مع شرق البحر المتوسط (٢١٢) . ويعمد أصحاب رءوس الأموال الى استغلال أموالهم بالعقود الفرعية والعقود المزدوجة لأكثر من تاجر في أكثر من مكان (٢١٣) .

وبخصوص تحويل الوحدات النقدية اشتغل الجهابذة في الشرق ومراقبو النقود المحترفون في الغرب باستبدال هذه الوحدات بما يعادلها من وحدات نقد أخرى . ويتقاضون في ذلك عمولة درهما لكل دينار . أى بنسبة ٦٦٪/ وهم بذلك يقومون بأعمال المصارف في حدود معينة (٢١٤) .

— Lopez, Op. Cit. pp. 174-176.

(٢١٢)

وثيقة رقم ٨٥ من ١٧٩ - عقد التوصية ذو الجانب الواحد يعرف باسم Collegentia وعقد التوصية المشترك ذو الجانبين يعرف باسم وثيقة رقم ٨٤ من ١٧٩ Societas .

— Lopez, Op. Cit. p. 176 & p. 182 DOC. 89.

(٢١٣)

ظهرت بعض أنواع غريبة من العقود ساعدت في تجارة البحر المتوسط ، وتبدو غريبها في حد ذاتها . أما لصفتها القانونية الغربية وأما لنواحي النشاط التي استخدمت فيها . ومن هذا النوع من العقود والاتفاقيات اتفاق بشن حروب خاصة كأحد أنواع النشاط الاقتصادي ، فكان يجوز للأفراد امتلاك سفن حربية خاصة بترخيص من الحكومة لغرض شن الحرب بها على العدو وسلب تجارته وسفنه التجارية كما يفعل القراصنة . والواقع أن القرصنة في العصور الوسطى - كأحدى وسائل اغتصاب ما يملكه الغير - هي في كثير من الأحيان نوع من أنواع النشاط الاقتصادي ، فكان يجوز للأفراد امتلاك سفن حربية لهذا الغرض . ان حياة المعاصرة التي كان يجسها القراصنة كانت في الواقع لونا من ألوان المشروعات الاقتصادية . بل ان أعرق القراصنة كانوا رجال أعمال ومن المحاربين في نفس الوقت ، وكان أغلبهم ينتقل بين القرصنة والتجارة المشروعة ولدينا وثيقة من القرن ١٣ تدل على أنه كيف كان تمويل حملة من القراصنة وكيف كان الممولون يتألون أرباحهم عنها .

— Lopez, Op. Cit. p. 221 & DOC 109, pp. 222, 223.

(٢١٤) عملية الاستبدال النقدي لا نحتاج لعقود طالما أنها تستبدل من يد ليد وفي مكان واحد . وقد تحول الصراف في بعض الأحيان الى مفرض نقود وبضمان الودائع . وهو يقوم بأعمال البنوك في نطاق ضيق ولذا كان في حيازته دائما مبالغ ضخمة لمواجهة طلبات =

وكانت الشركات والبنوك الكبرى من أوائل القرن الرابع عشر تعمل على استخدامه وتحسين وسائل استعماله (٢١٦) .

الضرائب التجارية :

وتعددت الضرائب المفروضة على عصر المماليك الذين قسموا موارد بيت المال الى موارد شرعية وأخرى غير شرعية ، والضرائب على التجارة الداخلية والخارجية ، وخاصة ضرائب الثغور على التجار الواصلين للبلاد . وضرائب دار سك النقود على العملة الخام الواردة للسك والمواريث العشيرة ، وخاصة لمن يقضى من التجار الأجانب في مصر بلا وريث واعتبرت من الموارد الشرعية للدولة ، كما كانت الإيرادات الشرعية تشمل كذلك ما يتحصل من احتكار معادن البلاد وما يتأتى من المنجر السلطاني .

ويتصل بالتجارة في هذا النوع من الضرائب ما يدفعه التجار على ما يدخلونه الى البلد من ذهب وقضة والضريبة هنا حوالي ٢٪ أو ٢١٪/٢ في بعض الأحيان وقد نص في المعاهدات مع طوائف التجار الأجانب على وصول كميات معلومة من الذهب والقضة والنحاس لدار سك النقود . وخصت الحكومة هذه الكمية من المعدن بضرائب جمركية قليلة « تقل عن الضريبة المفروضة على السلع الأخرى » ، كما فرضت ضرائب نوعية على سبائك الذهب اذا أعطاها أصحابها

Clive, Op. Cit., p. 93.

Jacob, Legacy, pp. 442-443.

Lopez, Op. Cit., pp. 359-360 and pp. 47-377.

(٢١٦)

« ألف بنيدتوكورتوجلي مؤلفا يشرح فيه عملية التقييد بدفتر الأستاذ اليومية وتدل نصصر القيد بالدفتر على نوع من السجلات الرقابة التنظيم والدقيقة والتي كانت أساسا للنظم الحديثة في المحاسبة . وقد ألف عام ١٤٥٨ وطبع عام ١٥٧٣ - انظر لوبيز : السابق ٢٧٧/٢٧٦ »

لدار سك العملة لتضرب دنانير عربية لحسابهم بعد ضبط عيارها (٢١٧) .

ومن المصادر الثابتة : الأموال التي تدفع للسلطات على هيئة زكاة واجبة ، ودفعها تجار الكارمية دون تدمير أو ملل لتقديرهم السليم لرعاية السلطات المالية لهم ولتجارتهم في البر والبحر ، وضرائب أخرى على أهل برقة الواردين للبلاد بالأغنام والأبل عند وصولهم الى البحيرة للمرى (٢١٨) . ثم ضرائب على السلع الواردة الى جمرك الاسكندرية الخاص بالمغاربة ، بالإضافة الى زكاة يدفعونها دون أن يسأل صاحب السلعة هل حال عليه حول أم لا (٢١٩) .

ومن الأبواب الثابتة في إيرادات الدولة ضرائب جمارك الاسكندرية ودمياط والقاهرة وعيذاب وجدة ، وكلها تتراوح ما بين ١٠ - ٢٥٪ من قيمة البضائع الواردة ، وبلغ ما جبي من بعض السفن حوالي أربعين ألف دينار (٢٢٠) . وتخفض الضريبة الى النصف على تجار المسلمين والمغاربة . وترفع نهائيا اذا وجد أن بلاد المسلمين في حاجة الى نوع معين من السلع المستوردة (٢٢١) .

(٢١٧) توفيق اسكندر : نظام المفاضة في تجارة مصر الخارجية - مجلة الجمعية

الجمعية للدراسات التاريخية ١٩٥٧ ص ٣٨ .

سميد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٤ - ٢١٥ .

المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٤٤٤ .

(٢١٨) حصل صلاح الدين الأيوبي من تجار الكارمية على زكاة أربع سنين مقدما .

المقريزي : السلوك ج ١ ص ٧٣ ، ٧٤ - أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين

ج ٢ ص ٥١ - القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩ وما بعدها .

Fischel, Journal, p. 168

(٢١٩) ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٠ - ٢٥١ انظر قبله في نظام الجمارك وضرائبها .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦١ - المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٥١٠ - ٥١١

(٢٢٠) المقريزي : ج ١ ص ١٠٩ .

القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩ - ٤٦٠ .

(٢٢١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ .

أما مال من يورث وليس له وارث من الوطنيين والأجانب فيحصل ارثه الى بيت المال . وقد نص في جميع المعاهدات على أن تنفذ وصية التاجر الأفرنجي الذي يموت بالبلاد فتؤول تركته الى قنصله . والا فتصادر لحساب الدولة . وقد عرف باسم « المواث الحشرية » . وإياها ديوان وناظر يولى من قبل السلطان (٢٢٢) .

ويتصل بالضرائب على التجارة موارد غير شرعية ، ويقصد بها المكوس . وهى ليست لها سند شرعى ، انما ورثوا فرضها من عصور سابقة . وتعرف فى المراجع المعاصرة العربية بهذا الاسم . وتحصل لديوان السلطان ، أو لأصحاب الاقطاعات . ومنها ما يؤخذ فى الشغور البحرية والعربية على التجارة الواردة من الخارج . ومنها كذلك مكس القوافل التجارية ومكس البهار . ومكس الفنادق وخاصة فندق القطن . وكانت زمن المقرئى تبلغ حوالى سبعين ألف دينار ، كما كانت تحصل ضرائب على التجارة العابرة (٢٢٣) وقيل فى وقت ما ان الحكومة كانت تجبى ما يعادل شحنة سفينة عن كل أربع سفن . وتفرض رسوما كذلك على التجارة المارة بالحجاز . ومنها مقايضات البهار ورسم البهار الوارد للطور من جدة (٢٢٤) . وقد ظلت الضرائب هذه حتى نهاية عصر المماليك (٢٢٥) .

(٢٢٢) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ٢٢ .

ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٩ .

(٢٢٣) سفر نامه : ناصر خسرو ص ٧٢ ترجمة يحيى الخشاب .

الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨ - ٤٧١ .

المقرئى : المواقف ج ١ ص ٨٨ و ١٠٣ و ١٠٥ و ١٠٦ .

سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

وانظر قبله ملاحظة ١١٨ .

(٢٢٤) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٨ .

(٢٢٥) ابن ممانى : قوانين الدولة ص ٣٢٧ (نشر عزيز سوريال عطية) .

الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٩ و ٤٧٠ .

المقرئى : الخطوط ج ١ ص ١٠٣ و ١٠٩ .

وقد تحدت السياسة الضرائية فى مصر على أساس أن التجارة هى المصدر الرئيسى لموارد البلاد المالية بعد فساد النظام الاقطاعى المعتمد على الزراعة ولكن مع ذلك لم تذكر المراجع العربية بوضوح قيمة هذه الضرائب وأنواعها الكاملة ، وخاصة المفروض منها على الكارمية فى البحر الأحمر باعتبارها المصدر الأكبر ليرادات الدولة . وذكر أن مكس ما أحضره أحد تجار الكارم فى سنة واحدة بلغ أربعين ألف دينار (٢٢٦) .

ويدفع التجار ضرائب على السلع القاصدة اليمن ، مثل الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون وزيت الحار والزيتون والملح والنقل وعسل النحل ، هى ما تحتاج اليه اليمن . تدفع هذه الضرائب فى القاهرة (٢٢٧) .

وعلى أى حال فالملاحظ أن السلاطين لم يسيروا على سياسة ضرائية ثابتة لكى يطمئن التاجر على أمواله وتجارته ، بل خضعت فى أحيان كثيرة لتطورات الأمور العسكرية أو المشاكل المالية (٢٢٨) .

(٢٢٦) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٨٤ « يذكر المقرئى أن هذه الضرائب وصلت

الى المماليك من أيام الأيوبيين » .

ابن حجر : الدرر الكامنة ص ٢٨٤ .

Fischel, Journal : pp. 167-168.

(٢٢٧) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ١٠٨ و ١٠٩ .

(٢٢٨) اتجه برسباى عام ١٤٢٧ الى التشدد فى فرض الضرائب على التجار بسبب

حملته الى قبرص وحصل على مكوس فى القاهرة وفى الشام بلغت فى مكة حوالى ٣٪ .

مع عدم مرور السلع على القاهرة . ونتجه مباشرة للشام حيث يدفعون عليها مكسا آخر .

وإذا مرت على القاهرة حصل عليها على رسوم أخرى .

ابن تفرى بردى : النجوم ج ٤ ص ٦٢٨ (كاليفورنيا) .

دفع في المعاملات التجارية :

اشتهد الطلب في أوروبا على السلع التجارية الواردة من الشرق ، وكثر ورود التجار الأجانب لموانئ ومدن مصر والشام . ولما ان ينص في المعاهدات والاتفاقيات التجارية على تنظيم بات الدفع والتعامل المالى . وقام الأجانب بتنفيذ نصوص بات بدقة لا تقل عما تفعله السلطات المالىكية الحاكمة . ومع هب كان قاعدة التعامل المالى في القرنين الثالث عشر والرابع . الا أنه في القرن الخامس عشر عادت المقايضة لتحصل مكانا في المعاملات التجارية بين الوطنيين والأجانب ، ونص عليها كذلك معاهدات باشرطات معينة .

ولأهمية الذهب في المعاملات التجارية في العصور الوسطى . تقوم به بقية النقود من فضة ونحاس . وفي العصر المماليكى ت العلة الذهبية للتلاعب في عيارها ، وتغيير وزنها . وتعديل بها ما جعلها لا تحوز ثقة المتعاملين من التجار وغير التجار (٢٢٦) . في الاضطراب الذى ساد العلة الذهبية المماليكية منذ القرن س عشر الى مسئولية بعض السلاطين . ومنهم السلطان برسباى . أن احتكر بعض أنواع المتاجر الداخلية والتوابل الشريفة عند انقاص معدل العلة . سواء من الذهب أو الفضة أو النحاس . لاحتفاظ بقيمتها الاسمية . كما استبعد العملات الأجنبية المتداولة السوق . والتي يجلبها تجار البنادقة وجنوة وفلورنسا . ثم جمعها

(٢٢٦) القلقشندي : صبح الاثنى ج ٣ ص ٤٤١ يدكر القلقشندي تفسيراً لذلك بقوله نهم جعلوا نقصها نظير كلفة شربها . وبخصوص ظهور نظام المقايضة في معاهدات أواخر القرن الخامس عشر انظر معاهدة نسا مع قاييتباى ١٤٨٨/١٤٨٩ بالملحق رقم (٢٥) من أمان XLV وكذلك توفيق ندر : المقايضة ص ٣٩ .

بالشئ المنقضى . وأعاد سكها ذهباً بالنقص . مما ألحق الخسائر المادية بالتجار الأجانب والوطنيين على السواء . وان كان قد أضاف الى الحكومة ايراداً جديداً لمواجهة الظروف الحربية التى ظهرت على عهده (٢٢٧) . وكان بإمكان السلاطين المتعاقبين أن يحجبوا عن عمليات انقاص وزن العلة وتغيير عيارها الا أنهم اتبعوا أساليب السلطان برسباى حتى نهاية عصر الدولة المماليكية . وقد ثبتت قيمة العلة اذ ذاك على ٣٣٨ حبة (٢٢٨) . بما يوازي ٣ر٤٧ من الجرام ، أى حوائى نصف جنيه تقريباً . وعرفت العملة الجديدة « بالدينار الأشرفى » واشتهرت بهذا الاسم حتى عام ١٥١٧ م .

وقد شجعت عمليات التغيير . نشاط مزيفى النقود المعروفين « بالزغلية » ، ففى عهد السلطان الأشرف اينال عام ١٤٥٣ ثبت سعر الذهب الأشرفى على ٣٣٥ درهماً فى الصرف و ٣٤٠ درهماً فى المعاملة . والمنصورى ٢٩٥ درهماً و ٣٠٠ درهم فى المعاملة . وهو الدينار الذى كان قد ضربه السلطان المنصور جقق (٢٢٩) . ولكن بعد ذلك بيومين قبضت السلطات على عشرة من الزغلية لجئوا الى انقاص وتغيير العلة وتزييفها . وفى محاولة لوقف هذه العلة التى أضرت بالتجار تقرر جمع النقود من الدولة من عهد المؤيد شيخ الى عهد جقق . ثم إعادة سكها . وتم ذلك عام ١٤٥٨ . ومع أن هذه العملية أطاحت بثروات مزيفى النقود وكشفت طائفتهم . الا أن الناس شكوا من سوء سك

(٢٢٠) ابن حجر : انبا، العمر ورفعه ٥٥٤ ج ٢ .

قيت : مصر الإسلامية ص ١٠١/١٠٢ (ديفونشيم) .

Lane Poole, Egypt in the Middle Ages, pp. 332-342
Clive, Op Cit., pp. 118, 119

(٢٢١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٢ (بولاق) .

(٢٢٢) أبو المحاسن : حوادث الدهور ص ٢٧٨ .

العملة الجديدة . وفساد عيارها وآساءوا الى ناظر الخاص ظنا منهم أنه المستول عن ذلك . وخاصة فى الفضة (٢٣٣) .

وعلى عهد السلطان قايتباى نودى بثبيت سعر الذهب والفضة . وضرب السلطان فضة جديدة وسعر الدينار الذهب بثلاثائة والفضة انجديدة كل أشرفى بخسة وعشرين نصفاً عددية جيدة من خالص الفضة وأبطل سائر المعاملات من الفضة المغشوشة التى كان قد وصل الدينار منها الى ٤٦٠ درهما . فخر الناس من هذا ثلث أموالهم . وكان السلطان قاسياً مع الزغلية ، فكان يوسط ويقطع كل من يقع فى يد السلطان منهم ، فوقع الرعب فى قلوبهم ، وكان ذلك من أسباب انصلاح حال العملة حتى عهد الغورى (٢٣٤) . وكان ناظر الخاص على عهد السلطان قايتباى قد ضرب فلوساً جديدة ، وقصد أن يخرجها بأعلى من الفلوس العتيقة فثار العامة واستقر رأى على أن تكون الفلوس العتيقة والجديدة بالميزان ستة وثلاثين ، الرطل (٢٣٥) .

وكان عهد الغورى وما صاحبه من اضطراب التجارة الخارجية مجالاً صالحاً للزغلية وفساد العملة ، بل إن دار السك نفسها أخرجت عملة مزيفة لتوفى ما عليها من التزامات . وساد كل أنواع العملة الزغل والفساد « ولم يعد يحل بها بيع ولا شراء ولا معاملة » (٢٣٦) .

(٢٣٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ص ٥٦ - ٥٧ - ٦١ .
Poliak, Les Révoltes Populaires, p. 252

(٢٣٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ص ٦١ حوادث عام ٨٦٢ هـ (بولاق) .
(٢٣٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ص ٢١٠ يذكر الرسالة عارف أنه خلال زيارته الاسكندرية دفع (واحد مدين) Maidine رسم دخول مغارة القديسة كاترين والعملة المذكورة فضية تختلف قيمة ما بها من فضة باختلاف الزمان والمكان - ولدى المواطنين عملات من الذهب وهى الأشرفى العملة الرسمية وتزن ٥٣ قنعة وتساوى دوقات أو ١٢٠ Aspers والدين المذكور يساوى ١٢ من الأشرفى ويسك بالقاهرة .

Harff, Op. Cit., p. 94 R. 5

(٢٣٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج٢ ص ٥٩

ومنذ الوقت الذى اعتري فيه الخلل العملة المسالكية . وخاصة الذهب والفضة . وتعرضت لتلاعب السلاطين والأمراء ثم الزغلية . بغية الربح . أو موازنة نفقات الدولة . استخدمت فى مصر عملة البنادقة المعروفة بالدوقات . وكانت البندقية تستعمل قبلها الافرنتى . ثم سكت العملة الذهبية خاصة منذ عام ١٢٩٤ . وتنازل بوزنها الثابت الصحيح . وعيارها غير المتغير . وسكها المحدد ، مما جعلها تحوز ثقة المتعاملين (٢٣٧) . وتضمنت الأوامر السلطانية والمعاهدات بين الافرنج والمساليك فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر اعتبار الدوقات البندقية عملة رسمية ثم الفلورنسية بعد أن زاد تعاملهم مع مصر والشام وكانوا يعلنون عن عملتهم المسكوكة بالقاهرة «أنها على زنة الدنانير الافرنتية» بمعنى أن يكون وزنها ثابتاً ووزنه مثقال تماماً (٢٣٨) . ومع ذلك كانت العملة المصرية تنقص فى أحيان كثيرة عن العملة الأجنبية حسب مقتضيات الظروف ولم تعد تقوى على منافسة الدوقات البندقية فانحطت قيمتها فى الأسواق الحرة عن قيمة البندقى مما حدا ببعض

(٢٣٧) صبيح الاعشى . العلفسندى ج٢ ص ٢٤١ يصف الفلفسندى هذه العملة بأنها «ملومة الوزن وكل دينار منها بتسعة عشر قيراطاً ونصف قيراط ٠٠ وعلى أحد وجهيها صورة الملك وعلى الوجه الآخر صوراً بطرس وبولس حواريي السيد المسيح عليه السلام . ويعبر عنهما كذلك بالافرنتى وأصله الفرنسى ٠٠ ويعبر عنهما كذلك بالدوقات . وهذا الاسم فى الحقيقة لا يطلق عليه الا اذا ضرب فى البندقية لأن ملكهم اسمه الدوك . وكان البنادقة قد استعملوا العملة الفلورنسية الذهبية . وهى الفلورين أو الفرنتى أو الأفرنتى . حتى سكوا عملتهم الدوقات عام ١٢٩٤ .
دبل : البندقية ص ٦٦ - تزوفين اسكندر : المقايضة ص ٣٨ .

(٢٣٨) المثقال هو الدرهم ودانيتين ونصف ويساوى ٢٤ قيراطاً وهو خمس وثمانون حبة أما الدرهم السامى فهو ستون حبة انظر - البغدادى : عبد الرحمن نصر بن محمد : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ورقة (٧) مخطوطة بجامة القاهرة برقم ٢٤٠٥٣ . والملاحظ أن الدوقات البندقية كانت العملة التى يقبلها السلاطين ، ويقال له حتى الآن فى مصر بندقى ، وذاع بجانب الدوقات استعمال العملة الفلورنسية نظراً للعلاقات الطيبة بين مصر وفلورنسا ، ثم صممت الدنانير المسالكية على مقياس البندقى . وحملت اسم الدينار المؤيدى . وسادت على عهد السلطان قايتباى .

Dopp, Op. Cit., p. 49

نظام المقايضة فى التجارة :

ومنذ أواخر القرن الرابع عشر والعشرات الذهبية تشجع من المدن الإيطالية ، وتأثرت تبعاً لذلك أسواق مصر والشام . إذ أن المدن الإيطالية كانت تدفع بها مشترواتها من السلع الشرقية ، وذلك وفقاً لما اشترطته السلطات المالكية من أن يكون نصف المدفوع ذهباً . واستخدم البنادقة فى ذلك الدوكات كما استخدم الفلورنسيون الفلورين ، هذا بالإضافة إلى ما كانوا يجلبونه من الذهب والفضة الخام لسكها بدار السكة بالإسكندرية والقاهرة (٢٤٢) .

وترجع أزمة الذهب التى ظهرت فى مصر والشام منذ القرن الخامس عشر إلى قلة ما يصل من هذا المعدل إلى شمال إفريقيا من السودان . وفى القرن الثالث عشر تفكك المغرب إلى مدن تجارية مستقلة ودويلات تشبه الجمهوريات الإيطالية ، وأخذ التجار المسيحيون والمغامرون يقدون إليها . وحتى القرن الخامس عشر كانت المغرب هى الممول الرئيسى لذهب الغرب مما أنعش فيه التجارة . وأدى هذا إلى أن تدفع هذه الجمهوريات أثمان سلع الشرق بالدوكات البندقية وبالفارنتى كما ترد كميات معلومة لدور سك العملة . إلا أنه منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر وتبر السودان يقل ورودها إلى أوروبا من مدن شمال إفريقيا بعد أن وصل البرتغاليون إلى ساحل غانا عام ١٤٨٠ وبدءوا فى مقايضة الأهالى بسلعهم على ذهب السودان ، وبدأ هذا الذهب يتجه منذ ذلك الوقت إلى المحيط الأطلسى ، وليس إلى البحر المتوسط ، فشحت العملات الذهبية من مدن إيطاليا ، وبالتالي من مصر ، وأدى ذلك إلى حدوث أزمة فى عملة مصر الذهبية (٢٤٤) .

(٢٤٣) توفيق إسكندر : المقايضة (المصدر السابق) ص ٤٣ .

(٢٤٤) توفيق إسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى (مترجم) المقدمة ص (و) ثم ص ٨٤ و ٨٥ و ٨٦ .

السلطين إلى جمعها وإعادة سكها بالنقص للانتفاع بفرق كمية الذهب فزاد التذمر منها (٢٣٩) .

وقد نص فى المعاهدات على تخفيض ضرائب الجمارك على كميات الذهب الواردة لدار السك ومثل ذلك بالنسبة للسبائك التى تعطى لدار السك . ويؤرخ القرن الخامس عشر استخدام السبائك والمعادن الخام والمجوهرات عملة متداولة وخاصة فى التجارة الخارجية لمواجهة ازدياد الطلب على السلع الخارجية (٢٤٠) .

أما العملة الفضية وهى الدراهم فكان المفروض فيها أن يكون ثباتها من الفضة والثلث من النحاس ولكن هذا أيضاً لم يخل من الغش منذ أواخر القرن الرابع عشر وطوال القرن الخامس عشر . وزادت نسبة النحاس لتصل إلى الثلثين والثلث أو أقل من ذلك بالنسبة للفضة ، وفضل الناس استعمال الفلوس النحاسية بدلاً منها (٢٤١) . والفلوس النحاسية هى أقل أنواع العملات مع ذلك لم تسلم من الغش ، وتناولها السلاطين بالنقص والتبديل وأرغبوا الأهالى على التعامل بها وفق القيسة التى تحددها السلطات وكان هذا من عوامل الاضطراب فى الأسواق (٢٤٢) .

(٢٣٩) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٢ - عبد الرحمن فهمى : النقود العريقة ص ٩٨ .

(٢٤٠) توفيق إسكندر : المقايضة ص ٣٨ .

Heyd, Op. Cit., II, p. 453
Pernaud, Op. Cit., p. 34.
Maillet, Op. Cit., pp. 139-144.

يذكر هارف أن كمية الفضة المسكوكة التى ترسلها أوروبا كل عام لمصر تبلغ حوالى ٣٠٠.٠٠٠ دوقات سنوياً ، وهى تلقى رواجاً عجبياً فى أسواق مصر والشرق عامة . Harff, Op. Cit., p. XXIV

(٢٤١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٣ .

(٢٤٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٤ .

المقرئى : لغافة الأمة ص ٤٧ (نشر زيادة) .

المقرئى : السلوك ج ٢ ص ١٧ . ج ٣ ص ٨٢ - ٨٣ .

عليه من التوابل والسلع الشرفية . وفي معاهدات القرن الخامس عشر ذكرت بنود تنظيم عملية المقايضة ، وكانت قبلا تصدر على شكل أوامر سلطانية فردية . حتى اذا ازدادت الأزمة في أواخر القرن الخامس عشر . نص في المعاهدات على اعتبارها إحدى نظم عمليات الدفع في التجارة (٢٤٧) .

والواقع أن نظام المقايضة في التجارة كان غرما لا غنم فيه . وقد بدأ اليه المصري لقصور العملة الذهبية والفضية عن الوفاء بأثمان السلع وخاصة البسيطة . بدلا من تكديسها لدى التاجر العربي والبندقي على السواء . وقد وجد كلاهما أن المقايضة خير وسيلة للتعامل التجاري . وهي في الحقيقة نتيجة من نتائج ظهور الأزمة المالية في القرن الخامس عشر . وقد اتبع البنادقة هذه الوسيلة بعد أن سنت الحكومة قانونا يمنع فيه التجار من الاستدانة أو الاقراض أو الشراء بالعقود المؤجلة الدفع . ولما كانت لهم رغبة في الربح والكسب فقد لجئوا إلى المقايضة (٢٤٨) .

ومن المبادئ القانونية التجارية التي نظمت عملية المقايضة النص بالتزام وتعهد السلطات المالية بعدم قبول الرجوع في صفقة تست بالمقايضة تبعا لارتفاع أو انخفاض السعر رغم ما ينال التاجر المصري من أضرار . إذ أنه ما يشجع على الرجوع صفقات التوابل بالمقايضة أن ثمن التوابل نقدا أقل من ثمنها في حالة المقايضة . فكان التاجر الأجنبي يحاول الرجوع في المقايضة إلى النقد لأنه المشتري . كما كان زميله المصري يحاول الرجوع عن سعر المقايضة لأعلى منه بسبب تذبذب الأسعار . لذا نص في المعاهدات مع فلورنسا على عهد السلطان قايتباي ١٤٤٨ « على تمييز سعر الأصناف في المقايضة عن

ولكن يوازن السلاطين بين فئة ورود الذهب وحاجتهم إلى المال عبدوا إلى تغيير وزن العملة مع الاحتفاظ بقيمتها الاسمية . كما عبدوا إلى الحصول على كميات معلومة من ذهب البندقية الذي لم يتأثر كثيرا لهذا الحادث وظلت على ما هي عليه « ملكة الذهب في العالم » . ففرضوا قدرا معيناً من التوابل باسم « توابل الذخيرة الشريفة » . أو التوابل السلطانية . ليشتريها البنادقة بعملتهم الذهبية الثابتة العيار والوزن والحجم مع بقاء معاملاتهم مع الأفراد حرة . كما فرضوا عليهم قدرا معيناً من الفضة يوردونه لدار السكة كل سنة . وفي دمشق كان هذا ٤٠٠ درهم سنويا حتى عام ١٤٧٥ وغرامة ٣ دوكات لكل درهم ينقص عن الكسبة (٢٤٩) .

وبخصوص الفضة . ففي عام ١٤٠٧ سكت البندقية عملة فضية خاصة بتجارة الشام إلا أن السلطات الحاكمة والتجار رفضوا قبولها عملة للتجارة . وأصرروا على التعامل بالذهب مما أدى إلى تكديس العملة ثم بيعتها البندقية وسحبها من الأسواق . حتى كان الربع الأخير من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر حين شحت العملة الذهبية والفضية بصورة واضحة ، واضطر السلطان الغوري إلى مفاوضة البنادقة وخاصة بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح . لدفع ثمن التوابل نحاسا وقد اضطر السلطان إلى ذلك لحاجته إلى العملة . واشتداد الأزمة النقدية . ووضوح الخطر العثماني (٢٥٠) .

أما من ناحية البندقية ومدن جمهوريات إيطاليا فقد عالجت نقص الذهب والعملة الذهبية باستخدام طريقة التعامل التجاري بالمقايضة حتى تنفاد ما يترتب على نقص العملة الذهبية من قلة ما يحصلون

(٢٤٥) توفيق اسكندر : المقايضة (المصدر السابق) ص ٤٥ .

(٢٤٦) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٤٥ .

Horn. Op. Cit., pp. 78-81.

(٢٤٧) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٣٩ .

(٢٤٨) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٤٠ .

النقد « . أى الزيادة فى أسعار السلع بالمقايضة عن النقد . وكانت التوابل كذلك تقايفض بالعسل وزيت الزيتون والصابون والبندق واللوز (٢٤٩) .

والى جانب نظام المقايضة وجد نظام نصف المقايضة . وفيه تدفع ثمن السلع نصفها نقدا والنصف الآخر سلعا . ولعل من المفيد - أن نقول انه أثر فعلا فى ارتفاع الأسعار ارتفاعا مصطنعا . فسر سلع المقايضة يزيد على سعرها النقدي . كما أنه خلال نصف قرن تضاعف سعر التوابل بالمقايضة لضعفين . وكذلك سعرها النقدي أصبح ثمانين بدلا من أربعين . وثمن الثلاث سفن عام ١٢٥٠ بقدر حصولها آخر هذا القرن بثمان ست سفن (٢٥٠) .

ومما هو جدير بالذكر أن البرتغاليين الذين نقلوا ذهب السودان الى بلادهم استخدموه فى تمويل حركة الكشوف الجغرافية وخاصة الهند . فامدى وصولهم لهند كانوا فى السنوات الأولى يترصدون السفن العربية ويصادرون حصولها من التوابل . ولكن بعد ذلك بدأ الذهب يتدفق بين أيديهم بكميات كبيرة . فاشترى به التوابل وبلغ الهند والهند الصينية والصين ولم يعودوا يترصدون سفن العرب . بل انه بالرغم من أن سفن البندقية لم تحبل عام ١٥٠٤ أى قبل من الفلفل فانه قبل سقوط دولة المساليك شوهدت مرة أخرى كميات من الفلفل والتوابل فى ميناء طرابلس وفى الاسكندرية . ولعل هذا راجع الى استحالة اغلاق المحيط الهندى أمام السفن العربية . وإن كان يرجع أساسا الى أن الطريق عبر البحر الأحمر أقصر ولا يتعرض فيه الفلفل المباع فى البندقية الى رحلة طويلة قد تفسده ، كما كان يحدث بالنسبة

للفلفل الوارد من طريق رأس الرجاء الصالح فى رحلة طويلة الى لشبونة . بالإضافة الى خبرة العرب فى فرز الأصناف الجيدة من هذه التوابل من الرديئة مما لا يتوافر للبرتغاليين . ثم لجوء البرتغال الى سياسة رفع الأسعار بعد تحكمهم فى تجارة الشرق واحتكارهم لها بلا منافس . وعلى أى حال فإن هذا التحول فى سياسة رفع الأسعار كان انقاذا للسوقف السيئ الذى تعرضت له تجارة الشرق منذ وصول البرتغاليين للهند بحرا عام ١٤٩٨ م (٢٥١) .

(٢٤٩) انظر المحقق معاهده فلورنسا وقايمباى عام ١٤٨٨ برقم (٢٥) .

(٢٥٠) توفيق اسكندر : المقايضة ص ٤٢ و ٤٣ .

(٢٥١) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ص ٨٨ . ٨٩ .

الفصل السادس

خاتمة

كشف طريق رأس الرجاء الصالح ونهاية دولة سلاطين الماليك

كانت الأحداث التي أدت الى غلق الطرق التجارية القديمة . من شرق آسيا ووسطها الى غربيها . قد ساعدت على ازدهار الطريق التجارى البحرى من الصين والهند الى البحر الأحمر ومصر والشام . ولكن لم يلبث أن انهار هذا الطريق أيضا أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . منذ نجاح البرتغاليين فى الدوران حول افريقية والوصول الى الهند . وكان هذا الانهيار إيذانا بسقوط دولة سلاطين الماليك فى مصر والشام والحجاز فى يد الدولة العثمانية عامى ١٥١٦ ، ١٥١٧ . ولم يعد الطريق والدولة بعد ذلك سوى ذكرى فى أخيلة المؤرخين .

على أنه لم تكن الحروب . ولا دخول البرتغاليين الى الهند . وحدهما هما اللذان أضاعا الطرق التجارية التقليدية . وخاصة طريق البحر الأحمر عبر مصر والشام ، ولكن الضعف الذى سرى فى دولة سلاطين الماليك كان المعول الذى هدم الدولة وأضاع الطرق ، ويرجع هذا الضعف الى جذور عميقة ، على رأسها :

أولا : فساد النظام الاقطاعى الذى قام على أساسه الحكم الماليكى ، وعجز هذا الحكم عن الوفاء بالمطالب الأساسية لبقائه : فالدولة المالكية دولة اقطاعية بيروقراطية يسند وجودها اقتصاد متين

وجيش قوى ، وأرض مصر التى هى ملك للسلطان توزع اقطاعيات على جنده . وأى هزة زراعية معناها انهيار النظام . وبالتالي الدولة . إذا حرصت الدولة . عندما عجزت الأرض التى اهلوها عن الايفاء بسطالهم . على البحث عن موارد مالية جديدة تستل فى رفع الضرائب وتحصيلها مقدما (١) . ثم تنشيط التجارة عبر بلادهم تعويضا عن هذا النقص البادى . وقد ساعدتهم على هذا تحول التجارة نحو مصر والشام وتدفق الأموال على خزائهم . وكلما زادت احتياجاتهم زاد تعلقهم بالتجارة واحتكارهم لكل مصادرها ، فأقصوا عنها الكارمية ، وتسلبوها على غير مران وأجبروا التجار الأجانب على شراء التوابل الشرقية قسرا وبالسعر الذى يحدونه . والويل والعقاب للمستع عن الشراء . مما أدى الى تدمير الأجانب وعزوفهم عن الحضور لمصر والشام وتكدس المتاجر وبوارها (٢) . فكان هذا ، بالإضافة الى فساد نظام الاحتكار وانهيار النظام الاقطاعى الزراعى . وجهل المالكين بالنظام التجارى ايدانا بالانهيار القريب للاقتصاد والدولة . ولم يبق الا وضع النقط على الحروف وعلان الانهيار ، وتم هذا فعلا فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بالعديدين الخطرين : تحول التجارة . وسقوط دولة سلاطين المماليك (٣) .

ثانيا : العوامل الداخلية التى تكمن فى طبيعة تكوين الدولة نفسها والصراع بين أمرائها على السلطة والنفوذ ، فقد اختلف نظامهم الاجتماعى والحربى ، لاهمالهم الأسس التى قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الأولى ، ولم يعودوا يصلون لمصر صغارا يتعلمون الطاعة

(١) صبحى لبيب : التجارة الكارمية . المصدر السابق ص ٤٢ . ٤٣ .

(٢) محمد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤٤٦ .

(٣) صبحى لبيب : المصدر السابق ص ٤٣ - انظر كذلك الفصل الثانى « العلاقات الخارجية » وكذلك الملحق برقم ١٣ عن التوابل الشرقية .

ويتحلون بالدين والأخلاق . ويتدربون على الحرب وفنونها . بل وصلوا شبانا تنازعهم أهواء واتجاهات وتعليم متضارب . ففقدوا روح النظام والطاعة . وحل محلها العصيان والتسرد ، وفشا بينهم التنازل عن الاقطاعيات والمنايضة بها من الباطن . وخربت الأرضى والذمم . وانقسم المماليك شيعا وأحزابا . يتجسسون بعضهم على بعض . ويعمدون الى حوادث النهب والسلب . ويتنازعون السلطة والحكم . وظهر ذلك بوضوح منذ وفاة السلطان قايتباى ١٢٩٦ حتى تولى الغورى السلطة عام ١٥٠١ . وتآرجح الحكم بين عدد كبير من السلاطين يحكم كل منهم شهورا وأياما ، مما يعطى انطباعا صادقا بمدى الفوضى وعدم الاستقرار التى سادت البلاد فى الدور الأخير من حياة هذه الدولة . حتى ان كبار الأفراد كانوا يعزفون عن تولى السلطة خوفا من القتل . كما فعل قنصوة الغورى الذى اشترط لقبوله الحكم الا يقتلوه اذا أرادوا عزله . ولكن كانت الأحداث السياسية والاقتصادية أقوى من أمنيته . حتى ان ممالكه الجبلان كثيرا ما عصوه بسبب النفقة (٤) .

ثالثا : العوامل الخارجية: التى تضافرت جميعها لهدفين أساسيين:

أولهما القضاء على مصدر ثراء الدولة المدعم لقوتها العسكرية : وهو التجارة فى المياه الشرقية والتحكم فيها بين الشرق والغرب . وثانيهما القضاء على الدولة ذاتها . ووقع الهدف الأول على عاتق القاطنة والبرتغاليين . فى حين وقع الثانى على عاتق العثمانيين . مع ما بين الطرفين من تباعد وتناقض وان اتحدت الأهداف . ويقترن العمل الأول كذلك بنسب القوميات فى أوروبا ، وخاصة فى البرتغال واسبانيا ، ونجاح الأخيرة فى انهاء الحكم العربى فى الأندلس عام ١٤٩٢ . أما محاولة

(٤) المقريزى (- السلوك ج٢ ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ - ابن اياس . بدائع الزهور ج٢

ص ٥٩ (بولاق) أير المحاسن = الهجوم الزاهرة ج٢ ص ٣٨٦ - ٣٨٧ . سعيد عاشور :

المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٢٥ - ٢٧ .

أرسل السلطان الملك المؤيد أحمد بن السلطان الأشرف اينال عام ١٤٦١ م . خطابا الى دوق البندقية في أعقاب الاتفاقية بين البندقية والسلطان تتعلق بتحديد تعريف الجبارك في ميناء الاسكندرية . وموانئ الشام . وقد أكد السلطان في الخطاب مراعاة السلطات المالكية لرعايا البندقية في بلادها مراعاة تامة . سواء المقيسون اقامة دائمة أو الوافدون للتجارة وتأمين المنح الممنوحة لهم من قبل . وزاد من اعفاءات الجبارك . ثم استقبل سفير البندقية الفخرى وهو Moftei Michiel وصرح له السلطان بأنه يسره دائما وصول سفراء من قبل الدوج لبلاده ، وقد تفاوض السفير مع السلطان في شأن اعادة بعض الحقوق التي اغتصبت من البنادقة في فترة تدابير الأمن الداخلي التي أعقبت سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ . وطالب منحهم تعويضات مجزية واعفاءات جبركية لبعض السلع . ورغم طول المفاوضات فانها لم تنجح فيما يتعلق بتنزيل أسعار التوابل والبهار ، فبقيت أسعار عود الند ، وخشب البرازيل الأحمر . والبورسلين . والسجاد . والبلسم ، كما هي . وتصر السلطات المالكية على ابقاء سعر التوابل الشريفة ١٠٠ دوكات للحبل الواحد دون تنزيل . تسليم الاسكندرية .

وعند رحيل السفير أرسل السلطان معه رسالة الى دوق البندقية ضمنها تحياته واعتزازه بالتعامل مع تجار البندقية ، وأنه « أهدي وقلد السفير البندقي وشاحا من صنع مصر ومبطن بالفرو ، كما أهدي

تعقب العرب في عقر دارهم » فقد وقع عبوه على البرتغاليين الذين حاولوا الاتصال بملك الحبشة المسيحي لتطويق المسالك . وفي سبيل ذلك داروا حول افريقيا . ووصلوا للهند . وأوقعوا بالأسطول المالكي في وقعة ديو البحرية ١٥٠٩ . وأنهوا السيطرة المالكية على المياه والتجارة الشرقية منذ مطلع القرن السادس عشر (٥) . أما الهدف الثاني فقد وقع على عاتق العثمانيين الذين ما لبثوا - بعد أن أوقفوا التوسع الشيعي الصفوي . في وقعة جالديران ١٥١٤ - اتجهوا لهدفهم الأسى . وهو السيطرة على الأراضي الاسلامية المقدسة بسكة والمدينة والقدس ليصبح السلطان العثماني حامى حصى الدين ومقدم ملوك الاسلام . وتم هذا على يد السلطان سليم الأول في وقعتى مرج دابق ١٥١٦ . والريدانية ١٥١٧ (٦) .

وأخيرا فانه كان على العثمانيين - وقد دخلوا مصر والشام والحجاز - أن يرثوا عن الماليك مدافعة البرتغاليين عن المياه الشرقية لاستعادة السيطرة على التجارة الشرقية ، ولهم من قواتهم العسكرية وأساطيلهم خير معين . الا أنهم حرصوا على تأكيد سيطرتهم على مابقي خارج سيطرتهم من العالم العربى . ففسدوا العراق وشمال افريقية ماعدا مراكش . تاركين الفرصة للبرتغاليين ومن بعدهم الانجليز للتهجم على البلاد العربية ، ثم احتلالها منذ القرن ١٩ م مسا لازلنا نعاني آثاره للآن .

(٥) ابن اياس = بدائع الزهور ج٢ ص ٢٢٧/٢٢٦ (بولاق) . عيد الله عنان . مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ص ١٤٠/١٤٦ - شارل دين = البندقية جمهورية ارسطوقراطية ص ١٤٨/١٤٩ بن بول - العرب في اسبانيا (ترجمة على الجازم) ص ٢١٣/٢٠٩ .

(٦) ابن اياس = بدائع الزهور ج٢ ص ٣٩٦ الى ٤٠٠ (كالة) . ج ٥ ص ٧١/٧٠ ابن زنبيل الرمال = آخرة الماليك (مخطوطة) ورقة ٤ . ورقة ١٤ . حسن عثمان = تاريخ مصر العام (بالاشتراك) ص ٢٤٤/٢٤٧ . سعيد عاشور العصر المالكي ص ١٧٩/١٨٠ .

وشاحا آخر لسكوتيرده من ألوان متعددة ، وأكرمنا وبجلنا سفيركم المذكور ... ولما كانت صداقتنا لكم قديمة فأننا نعلن أنه يسرنا تأكيد الاعفاءات السابقة والمعاهدات المعقودة بيننا وبينكم .. وكذلك وجود قنصلكم بيننا مع ما له ولتجاركم من امتيازات أقرها السلاطين السابقون ، كما أنه لهم حق الابحار الى بلادنا والتستع فيها بالحرية والأمان .. وسنرسل لكم سفراء من قبلنا ونقبل سفراءكم بترحاب ونوصي بإراحتهم في بلادنا وتجوأهم دون العوائق وبحرية ودون دفع رسوم أو عوائد . لأننا سنراعى مصالحهم وإراحتهم وسيكونون في عدالتنا المقدسة » ..

ملحق رقم (٢)

خطاب من السلطان الأشرف قايتباى الى دوق البندقية

بتاريخ ١٠ شعبان ٨٧٧ هـ / ١٤٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الموقر المحتشم الخطير الباسل المفخم الضرغام السيدع الهام
مجد الملة المسيحية جبال الطائفة الصليبية دوق البندقية والماسين دوق
كراك دين بنى المعبودية صديق الملوك والسلاطين، أدام الله تعالى بهجته،
وجدد مسرته : على أبوابنا الشريفة على يد المحتشم قاصده . وأحطنا
علما بها ، وتقدم مثالتنا الشريف الى حضرة الدوج أعلمناه فيه بوصول
القاصد المذكور وبما عاملناه به من الاحسان بأعظم من جميع قصاد
ملوك الفرنج الواردين على أبوابنا الشريفة ، لما تتحققه من اخلاص
حضرة الدوج في محبتنا ، ودعائه لمقامنا الشريف، وأن مراسيمنا الشريفة
برزت بقضاء جميع أشغاله وضروراته على حكم ما سأل فيه صداقتنا
الشريفة ، ورسنا بكتابة مراسيم شريفة الى الممالك الاسلامية بالوصية

لجميع تجار البندقية وأحوالهم عندنا مشددة ورسنا أيضا بأن لفلل
ذخيرتنا الشريفة الذى يعطى لكم يكون سالما من التراب والبلل
والخبط . كل ذلك لأجل خاطر (الآتى مكرر بالوثيقة) .

من التراب والبلل كل ذلك لأجل خاطر حضرة الدوج وغير ذلك
ما نعرف به حضرة الدوج أن الذهب والفضة التى صارت تصل في
القطايح وغيرها الى الثغر السكندري وغيره يوجد فيها الغش ، بحيث
ان المائة درهم من الفضة اذا أضيفت لم تقارب ستين درهما . وغالبها
نحاس . وأما القماش الذى يصل الى أبوابنا الشريفة من المخسل فغالبه
مغشوش كالنحاس . أما الجوخ فجرت العادة أن يكون ذراع كل خرقة
خسة وخسين ذراعا . وقد صار الجوخ الآن كل خرقة منه لا تبلغ
ثلاثين ذراعا . وفيه وهو مقطوع من الوسط وتضرر تجار المسلمين
بواسطة ذلك . وتعجبا كل العجب من هذه الأمور وكونه يتفق من
تجار حضرة الدوج اعلسناكم بذلك ليصير على خاطركم ومما نعرفه أن
المركبين اللتين حضراتا صحبة المحتشم قاصده تعرض من فيهما من الفرنج
لجباة من المسلمين بالمسير الاسلامية وأخذوا منهم وآسروا .. (ناقص
بالأصل) ألا يحضروا ذها وفضة مغشوشة ، ولا يجهزوا جوخا ولا
قماش الا كاملا على ما جرت به العادة القديسة . وأنهم لا يعتسدون قطع
شئ من الخرق الجوخ ولا غيره . ويؤكد عليهم فى ذلك ويعرفهم أنهم
متى حصل منهم شئ من ذلك من الآن يقابلهم على ذلك ويصفى حضرة
الدوج لما يطالعه به من المشافهة انصاردة هنا . ويطلب حضرة الدوج
البنادقة الذين كانوا بالمركبين المذكورين على ما اعتسده مع المسلمين
ويلزمهم باعادة مأخذوه بتسامه وكماله، فانه هو الذى تجدى وفعل ذلك
وأقدم عليه . ولا يقبل ولا لمن كان معه فى ذلك عذر ولا حجة ، وان
حصل منهم تهاون فى ذلك فيجهزهم الى أبوابنا الشريفة لنقابلهم على
ذلك بالمعدلة الشريفة وقد أعدنا قاصد حضرة الدوج اليه بهذا الجواب
الشريف بعد أن أنعت صداقتنا الشريفة عليه وعلى جباة بخلع

شريفة وثيقة وجهنا على يده لحضرة الدوج وعلى سبيل الهدية .
ما تضمنته القائمة المجهزة على هذا المقال الشريف . فحضرة الدوج
يتسلم هذا ويطيب خاطره وخاطر تجار البنادقة ويعلمهم أنهم مشمولون
بنظرنا الشريف وعنايتنا الشاملة - فتحيط علما بذلك والله الموفق
بمدرك ان شاء الله تعالى .

فى عاشر من شعبان الكريم سنة سبع وسبعين وثمانائة حسب
المرسوم الشريف .
الحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم (٢) .

ملحق رقم (٣)

٢٥ من أكتوبر ١٥٠٢ - البندقية .

تعليمات الى السفير بنديتو سانودو - سفير البندقية الى السلطان
الأشرف قانصوه الغورى .

١ - نحن ليوناردوس ليوناردو - بفضل الله دوق البندقية .

٢ - أمرنا بانتدابك أيها الأمير المواطن المحبوب سفيرا من لدنا الى
سيادة سلطان مصر .

٣ - وعليك باسم الروح القدس « أن تعلى السفينة المخصصة لك
وأن تنتبه وتثابر وتجتهد وتسرع فى سفرك » .

٤ - اتصل أولا بالقبطان قائد أساطيلنا الذى أمرناه أن يعطيك سفينة
موسمية مجهزة لتواصل عليها سفرك لقصصك ...

٥ - اذا وصلت بخطاب اعتمادنا لك سفيرا فعليك بزيارة نأب السلطان

(٢) وثيقة رقم ٢ منقولة من نسخة مصورة من أرشيف الوثائق بالبندقية باللغة
العربية ، (من مجموعة الدكتور توفيق اسكندر) .

بالاسكندرية وقدم له حسب المعتاد التحيات ، واتباع التعليمات
المعطاة لك بدقة . واستخدم فى ذلك كل ما لديك من عبارات
مناسبة مستعينا بحكمتك وثأقب فكرك ...

٦ - وعليك أن تحصل من قنصلنا وتجارنا بالاسكندرية على كافة
المعلومات العامة والخاصة اللازمة لك خلال سفرك وأثناء وجودك
بحضرة السلطان ...

٧ - واذا سمح لك بالسفر الى القاهرة لمقابلة السلطان فعليك إبراز
خطاب الاعتماد بسفارتك لكل من له صفة رسمية حتى تصل
للسلطان نفسه وتحييه بأسنا بالعبارات المناسبة الجديرة بمقامه
العالى والجديرة بمقام دولتنا ثم تهنئه بارتقاء عرشه وتعيينه
سلطانا على مصر . وتذكر له أنه بمجرد سماع دولتنا بارتقائه
العرش حصل لنا السرور والغبطة ...

٨ - ثم أيها السفير بما لديك من حصافة وشجاعة وعزة وقوة شخصية
ستطلب من سيادة السلطان العطف على مواطني البندقية من
التجار الموجودين فى بلاده الذين ترددوا منذ مئات السنين
للتجارة فى بلاده ثم تعطيه الهدايا المناسبة المقدمة له من
دولتنا ...

٩ - ثم تذكر سيادة السلطان بالغرض من هذه الزيارة وهى طلب رعاية
تجارنا فى دمشق مما يتعرضون له من مظالم من نواب وأمرأه
الشام ومن ذلك فرض الجمرى على تجارنا وشرأ ٥٣٠ حنلا من
الفلل بسعر مرتفع علاوة على حملتنا العادية وهذا اجراء
لا يمكن احتماله لأنه سبب لنا خسارة فادحة ولتجارنا .

١٠ - وبما أنك عليم بتفاصيل هذا الموضوع ، لأنك تحضر باستمرار

السلطات فى العام الماضى حجرت سفننا فى الميناء دون مبرر
مما أثار ضيقنا . ونأمل أن تنجح فى عدم تكرارها مرة أخرى ،
وعليك أن تسلك سبيل الملاينة ولا تلجأ الى إثارة النزاع مع
السلطان أو رجاله . وأن تجنب نفسك مغبة ما قد يحدث لأى
خطأ فى الفاظك ..

١٥ - عليك أن تظهر أن هذه الأعمال التى تضايقنا لا شك أنها لا تصدر
من السلطان ولا من نوابه ولا من عماله ، انما هى مسائل فردية
من بعض الحاصلين والعامل وأن حكومتنا تشنى على همة السلطان
ورجال حكومته وتأمل التشديد على العمال والحاصلين لعدم
تكرار هذا التأخير ، فى رحلات سفننا التى ترتبط بسواعيد
المدة السنوية ...

١٦ - بلباقتك تستطيع أن تذكر للسلطان أن مثل هذا التأخير يصيب
تجارنا بالخسارة مما يجعل التجار يحجبون عن الحضور
للاسكندرية ، ومما لا شك فيه أن هذا يصيب تجارتنا وتجارة
السلطان بأضرار كثيرة ، وهو ما لا ترجوه البندقية .

١٧ - وفى رأينا أن تذكر السلطان أنه تاجر به بأكبر هو السبب فى هذه
المشكلة . وهنا يجب أن تظهر لباقتك ومقدرتك السياسية بحيث
تجعل السلطان يفكر فى الأمر ويعمل على تغيير هذا التاجر بغيره
ممن يحسن التعامل معنا . وإذا وجدت أن الأمور تسير ضدنا
فى هذا الشأن ، وأن المسألة ستأخذ طريق التحقيق والدفاع ،
فعليك أن تتخذ كل الوسائل لتبرئتنا وتقرير وجهة نظرنا ...

١٨ - وحسب العادة فى ميناء الاسكندرية تسع السفن من الدخول
ليلا حتى ولو كانت تواجه عاصفة مدمرة قد لا قدر الله -
تهلك السفينة ومن عليها وعليك أن تحاول الحصول على تصريح

مجالسنا العلنية والسرية فأنت تعلم مدى الأضرار التى تلحق
بتجارتنا فى دمشق من جراء تحول الطريق بوساطة البرتغاليين ،
فعليك أن توجه نظر السلطان الى الأضرار التى تحيق بنا وبه
من جراء تحول التجارة هكذا . ثم تذكر سيادة السلطان بحرصنا
على مصالحه ومصالحنا . وعليك أن تعالج هذا الموضوع بىتهى
السرية ، وألا يعلم تغرى بردى الترجسان بأى طرف منها لأنك
تعلم عداؤه لنا .

١١ - كما أننا واثقون من شجاعتك وفضائك وأنت ترضى رغباتنا
وأمانينا لدى السلطان . ولا نكرر لك مسألة عداوة الترجسان
تغرى بردى لنا وعليك بسجرد نزولك بالاسكندرية أن تتصل
بقنصلنا فى الثغر وتتحدث معه فى هذا الشأن للاتفاق على
خطة موحدة ...

١٢ - وقد يحدث أن السلطان أو بعض نوابه أو غيرهم يتكلمون
معك فى شأن الحوادث الجارية فى قبرس وموقف حاكمنا فى
هذه الجزيرة فعليك أن تطلع السلطان أو نوابه أن حكومتنا
لا علاقة لها بما حدث أو يحدث فى قبرس ، وتخلص بلباقة بأن
تذكر بأنك ستكتب إلينا بشكوى السلطان فى ذلك ، وأنت
سترد فى الوقت المناسب الرد الذى يرتاح إليه السلطان ...

١٣ - ولا نذكرك أن موضوع مهستك لدى السلطان خاص بدمشق ،
ولك مطلق الحرية فى أن تثير أى موضوع يتعلق بتجارنا
وتجارنا فى الاسكندرية ، انما الموضوع الأساسى هو دمشق .
وعلى أى حال فيحسن عدم إثارة شىء خاص بالاسكندرية قبل
الانتهاء من موضوع دمشق ...

١٤ - من أهم ما يجب أن تلفت إليه نظر المسئولين أنك علمت أن

السلطان بدخول هذه السفن بصفة خاصة للاحتشاء من العاصفة ...

١٩ - وتسبح السلطات سفننا أربعة أيام بعد انتهاء الموسم لشحن وتسويق السفن ، وهذه المدة غير كافية وتضطر أحيانا الى ترك معظم السلع للمدة التالية فتنفسد وتبور ويلحق بتجارتنا خسارة فادحة ، فحاول أن تحصل من السلطان على تصريح ببد هذه المهلة لامكان شحن كل مشترياتنا حتى لا يحجم التجار من ورود أسواق مصر والاسكندرية ، وأن يكون بقاء السفن فترة أطول بدون الحاجة للحصول على ترخيص سابق من السلطات المعنية بالأمر فى الميناء .

٢٠ - عليك أن تصر على عدم تغيير عمال ديوان القبان وأن يبقى بدون أى اجراء آخر قد يضر بصالحنا ..

٢١ - كل ما تحصل عليه من امتيازات أو اعفاءات أو تصريحات من السلطان ورجاله فاكتبه فى وثيقة مربعة ، لا طويلة .

٢٢ - لا نوصيك بأن تتصل فى كل ما يعنك بتجارنا وقنصلنا لخبرتهم الطويلة فى التعامل مع السلطان ورجاله ، ونحن واثقون من أنك ستقوم بكل ما يفيد بلادك ..

٢٣ - أما عن فترة بقاءك فى بلاد السلطان فنحن لا نحدد لك فترة معينة ، بل يترك ذلك لتقديرك والانتهاء من أعمالك ، ومع ذلك فانا واثقون من أنك ستقوم بالمهمة خير قيام وفى أسرع وقت .. وأن تعطى أمرا بأن تنتظر السفينة التى أقلتك لتعود بك ...

٢٤ - ومعك أمر ادارى بأن تحصل على جميع نفقاتك من هيئة التجار

والقناصل فى دمشق . لأن المهلة التى ستقوم بها خاصة بهم كما هو المتباد مع غيرك . وأن يكون المبلغ فى حدود ٤٠ دوكه . وسعت أمر آخر بأن يعاونك فى مهنتك جميع قناصلنا والهيئات التى تشاركهم عملهم لأنهم مطلعون على بواطن الأمور ، بحكم بقائهم مدة طويلة فى بلاد السلطان ..

الموافقون ١٢٤ - المعارضون ٣ - المستمعون .. (٢)

ملحق رقم (٤)

٢٤ مايو ١٥٠٤ - البندقية

تعليقات مجلس العشرة فى البندقية للسفير البندقي « فرانسوا تالدى » تكلفه بالتوجه للقاهرة للتفاوض مع السلطان المالىكى « الغورى » سرا فى الوسائل الممكن اتباعها لمنع توسع البرتغاليين التجارى فى مياه الهند .

١ - بعثة فرنسيسكو تالدى الى سلطان مصر . تقبل هذه التعليقات باسم الأمير . نحن نضع فيك يا سيد فرنسيسكو الثقة الكاملة . لذلك نرسلك الى سلطان مصر باعتبارك مواطنا صالحا . ولهذا نكلفك بأن تسافر بأول سفينة الى جزيرة كريت ومنها الى ميناء دمياط . وعليك أن تخفى عن الجميع صفتك الرسمية .

٢ - من دمياط تذهب الى القاهرة وتعمل بكل ما أوتيت من مهارة وسرية أن تسع صوتك للسلطان شخصيا ، وتشل أمامه عن

Instruction a Penedetto Sunudo, Ambassadeur di Sultan El-Ghouri. (٢)
Senato Secreta XXXIX fe 45.

من الدكتور توفيق اسكندر وترجمته .

طريق أمير الاسكندرية . أو الدوادار أو كاتب السر ، أو من يبدو لك أنه الأصلح . وفي غياب الأمير لك أن تلجأ الى المهندسار (المندوب السرى) الذى يجب أن تكلمه سرا ، ولا تنس أن يكون حديثك مع السلطان نفسه سرا .

٣ - لما تمنح لك الفرصة للانفراد بالسلطان قدم له خطاب اعتيادك سئيرا لنا بعد التحيات الواجبة باسمنا وباسم دولتنا لفعامات تهنته بالصحة والسلامة بألفاظ مناسبة ، وتفتاهم معه سرا فيما كان يتحدث به النبيل « بنديتو سانودو » فى العام الماضى من الملاحة فى المحيط الهندي . والتي أصبحت فى يد البرتغاليين . وأن تفهم فخامته أنه يترتب على ذلك خسائر للجميع له ولنا ولتجاره وتجاره . وبمناسبة العلاقات القديمة التى بيننا وبينه . والتي قامت على المصلحة المشتركة ، فأننا وضعنا مشاوراته معك ومع السفير سانودو موضع الاهتمام الكامل لا يمكن معالجة الأمر فى بدايته .

٤ - ولكى تكون على علم تام بكل ما يستجد فى هذا الموضوع نبلغك بأننا أثناء بحثنا هذا الموضوع فى السنوات مع مستشارينا وصل الى بلادنا المبعوث السلطاني مطران أورشليم الأخ المحترم « ماوروجوارديان » من جبل صهيون ، ومعه رسالة من سلطان مصر ملووة بعبارات الود والاحترام والرقّة التى يبيدها السلطان نحو دولتنا فى كل مناسبة . فعليك أن تتولى نيابة عنا شكر السلطان الأفخم بعبارات ود واحترام مبادلتنا شعوره الطيب ، وأننا متأكدون جدا من أننا أكثر الجاليات رعاية فى بلاده وأن تجارنا سيجدون كل عطف وعون ومودة من السلطان ورجاله مما يجعلهم يتلهفون على الذهاب للتجارة فى بلاده ولا يفكرون فى هجرته الى لشبونة مثلا ، لأنه من المعروف ألا يبقى أى فرد

فى مكان ما الا اذا كان يعامل معاملة طيبة ويحصل على فائدة كاملة .

٥ - ويجب أن تعلم فضيلا عن ذلك أن الأخ المحترم السيد ماوروجوارديان مطران أورشليم ومبعوث السلطان الينا قد تحدث معنا شخصا ، علاوة على ما جاء بخطابات السلطان فى أن نكتب الى الجبر الأعظم البابا . وملك اسبانيا . وملك البرتغال ليعملوا على وقف ملاحه البرتغاليين فى الهند وتركها لهم . كما طالبوا بأن يصدر مجلس السناو قرارات يشيرون فيها الى ذلك ، فعليك أن تقول للسلطان : « اننا بكل صراحة وأمانة قد وجهنا الأخ المحترم ماوروجوارديان لرحلة الى اسبانيا والبرتغال وزودناه بكل المعلومات التى لدينا لكى ينهى الموضوع حسب رغبة السلطان التى هى رغبتنا . ولم نعط خطابات توصية الى البابا فى هذا الموضوع ، ولا الى ملك اسبانيا ، ولا الى ملك البرتغال حتى لا تحدث نتيجة عكسية . ولكى لا نتهم بأننا متواطئون مع المسلمين ضد المسيحيين ، لأن مثل هذه الخطابات ستحدث ضجة شديدة ضدنا فى العالم المسيحى . لأن الجميع يعرفون أن مجيئ السيد/ ماوروجوارديان بناء على رغبة السلطان وبناء على طلبه ، فلو أننا أرسلناه من طرفنا بخطابات توصية لفقدنا كل سعة طيبة فى العالم المسيحى .

٦ - يجب أن تبلغ السلطان أن منع الملاحة فى المحيط الهندي لا يسكن أن تأتى من جانبنا للأسباب السابق ذكرها ، لأن المسافة من بلدنا للبرتغال طويلة لا تقل عن ٤٠٠٠ ميل ، فضلا عن المسافة من البرتغال الى الهند ثم ان اسبانيا وملكها القوى المحالف للبرتغال يقع فى الطريق بيننا وبين البرتغال ، علاوة على أنه استولى حديثا على مملكة نابلى من لويس ١٢ ، وله حدود مع مملكتنا

فى أماكن عدة من البحر والبر . وقد ذكرنا هذا للسيد
ماوروجوارديان . وزودناه بنققات الرحلة الى روما واسبانيا
والبرتغال . وسنحاول أن نبلغ السلطان أولا بأول بخط سير وأخبار
مبعوثه الى اسبانيا والبرتغال البابوية .

٧ - وهنا أن تذكر لسيادة السلطان أنه قد وصل الى البرتغال
١٤ مركبا من الهند محملة بالتوابل من بين ما تحمله ٥٠٠٠٠٠ حبل
من الفلفل وقد أرسلت بواسطة ملك البرتغال الى انجلترا
أو الفلاندرز وفرنسا وإيطاليا ، ولكل العالم تقريبا . لفائدته
وربحه بحيث أنه أصبح ملكا غنيا جدا . ويرجع ذلك الى أنه
وجد أن سعر التوابل بالاسكندنافية مرتفع جدا . وكذلك فى
دمشق أكثر من المعتاد . وأنه لما كانت التوابل منخفضة الأسعار
فى الهند ولشبونة ، لذلك لجأ عبلاء نابلى الى أسواق البرتغال .
وهذا بالطبع أدى الى ثرائه - فضلا عن أن هناك فى ميناء
لشبونة أسطولا مكونا من ١٢ سفينة مستعدة للرحيل فورا الى
الهند و ١٦ سفينة أخرى مستعدة للذهاب فعلا بعد عودة السابقة
لاحضار المزيد من التوابل .

٨ - وعليك أن تلتفت نظر السلطان الى أنه ابتداء من الآن ستكون
الرحلة سهلة بالنسبة للبرتغاليين ولا نعرف طريقة نستطيع بها
منع ملاحظتهم الى المياه الهندية والتي نرى أنه ينشأ عنها ضرر
لا يمكن احتساله ولا قبل للسلطان به . واننا فضلا عن مصالح
تجارنا التي بدأت تنهار فاننا تحللنا خسائر فى جواركننا وضرائبنا
تبعاً لذلك .

٩ - واحقا للواقع كان قد اقترح علينا الاشتراك فى الرحلات
لفائدتنا ، ودعينا فعلا من قبل ملك البرتغال لارسال تجارنا الى
أسواق لشبونة لطلب التوابل . وكثير من تجارنا ورعايانا يرغب

فى ذلك . لأن تجارنا لا يدفعون فى لشبونة ضرائب جمركية .
ومع ذلك فهم أحرار . الا أننا لما كنا نقدر عظمة السلطان ، وأننا
لم نرغم أبدا على ترك التجارة معه والتي كانت على اتصال معه
منذ قرون عدة والتجارة هى مصدر حياتنا وريحنا . كما أننا لم
ننظر أبدا للدعوة التي وجهها اليها ملك البرتغال والتي لا يزال
حتى الآن يعرضها علينا . ومصادقا لذلك أرسلنا سفننا هذا العام
الى الاسكندرية لاعتقادنا أن السلطان المعظم هو الذى يستطيع
وحده أن يضع حدا لتهجمات البرتغاليين فى مياه الهند ووقف
تجارتهم حتى تعود تجارة التوابل الى ما كانت عليه من قبل .

١٠ - وعليك يا سيد فرنسيسكو أن تضع أمام أعين السلطان النقاط
الآتية ، يبدو أنها على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للسلطان
ليتخذها ضد البرتغاليين فى الهند :

١ - العمل بأى وسيلة على وصول أكبر كمية مسكنة من التوابل
الى بلاد السلطان لكى نقاوم بها اغراق البرتغاليين لأسواق أوروبا
بالتوابل ، لأن هذا سيسنع عن البرتغاليين المكاسب الضخمة .
وبالتالى يسنع سفنهم من الوصول للهند لجلب التوابل .

ب - يرسل السلطان من طرفه سفراء الى ملك كوشين بالهند
وكانانور والأماكن الأخرى التي يتعامل معها البرتغاليون ، وأن
يطلب منهم باسم الدين والجوار والتعامل القديم الامتناع عن
معاملة ومد يد العون الى البرتغاليين وأن يضعوا العقبات
باستمرار أمام البرتغاليين ، ويبيّنوا لهم الأضرار التي سوف تترتب
على استمرارهم فى التعامل مع البرتغاليين ويستطيع فخامة السلطان
بحكمته أن يبينها لهم ويفسر لهم أن كثرة وصول البرتغاليين
لبلادهم ستكون لها آثار سيئة ، وربما استولوا على بلادهم
نفسها ويصبحون أسياد هذه الجزر وبلاد كوشين و كانانور .

طرق التجارة الدولية - ٣٨٥

مصالحة المدينة في الهند والتجارة الهندية ستجعله يقوم بأكثر مما أشرنا به عليه .

١٢ - ولكن نظرا لأن السيد المحترم مارروجوارديان قد أبلغنا أن السلطان الأعظم في حالة رفض البرتغاليين الاستجابة لطلباته فانه سيمنع الزيارة للأماكن المقدسة المسيحية ببلاده ، ويغلق كنيسة القبر المقدس ودير سانت كاترين في سيناء ، وكنائس المسيحيين في مصر وسوريا .. ونحن نوجه نظرك الى أن تنصح فخامة السلطان الى أن هذا الاجراء سيكون ضد مصالح السلطان نفسه ، وعلى حساب سعته ، وأن فتح هذه الأماكن فيه فائدة مادية له وبلاده ، وغلقها - علاوة على الأضرار المادية التي قد تصيبه - فانها لن تجعل أى مسيحي يعطف عليه أو يوقف حملات البرتغاليين الى الهند بهذا السبب ، لذلك يجب أن تنصحه بأن هذا العمل غير مجد وأن الأماكن المسيحية المقدسة يجب أن تظل مفتوحة ليعلم الغرب مدى سوء تصرف البرتغاليين ، واعتدائهم على حقوق ومصالح السلطان ، وعليك استخدام منتهى اللباقة والكياسة والدبلوماسية في هذا المجال ... (٤)

موافقون ١٧ الرفضون ٥ المشكوك فيهم ٢

1504/24 Mai, Le Venise.

(٢)
Instructions du Conseil des Dix à Francis Taldi, chargé de se rendre au Caire pour concorder secrètement avec le Sultan, les moyens d'empêcher le développement du commerce des Portugais dans les Indes.

Venise : Archives Générales, conseil des Dix, Misti, Reg. XXX, fol. 49.
Publié en 1856 par H. Eamuel Bomanian.

MD 1111, die XX 1111 ; In Concilio X, Cum additione.

De Mas Latrie.

Traites du Commerce, pp. 259-263.

من الدكتور نوفيقي اسكندر وترجمته

ونحن نؤمن بقدرة السلطان المعظم على عمل ذلك وامكانه الوصول الى اتفاق مع هؤلاء القوم .

ج - ومن الممكن أن يسارع فخامة السلطان بارسال سفراء من لدنه الى قاليقوط وكامباي وأمراء هذه البلاد رفضوا قبول التعامل مع البرتغاليين . وهؤلاء الأمراء بإمكانهم التأثير على اخوانهم ومواطنيهم بعدم التعامل مع البرتغاليين ووجوب مرور التوابل كالمعتاد بمصر وسوريا ، ويذكرونهم بسدى الأضرار التي تحيق بهم من التعامل مع البرتغاليين ، وما يجره هذا كذلك على السلطان من أضرار .

د - يجب أن يرسل السلطان من لدنه قوات عسكرية قوية لمعاونة قوات الهند التي تحتاج لمزيد من الرجال والسفن والسلاح . وقد فهمنا أن السلطان أرسل فعلا السفن والسلاح والجنود . وهذا ما نندحه عليه - لأنه اذا لم يجد البرتغاليون من يقبل التعامل معهم واعطاءهم التوابل ، وانهم رجعوا أكثر من مرة فارغين من غير هذه التوابل ، فانهم لن يفكروا أبدا في العودة لهذه الرحلة الطويلة بعد أن يفقدوا السعة والوقت . ولذلك فانه يلزم من الآن القيام بإجراءات سريعة قوية لملاقة هذا الخطر . وبيت القصيدة هنا هو ارسال سفراء للهند وحث أمراء الهند على عدم التعامل مع البرتغاليين ، وارسال الأسلحة والسفن للهند للمعاونة في حرب البرتغاليين - وهي الوسيلة لاستعادة نفوذ السلطان وبالتالي نفوذنا .

١١ - هذه هي كل الأشياء التي نراها ذات أهمية بالغة وضرورية وتلفتون نظر فخامة السلطان اليها ليتخذ بشأنها اجراءات سريعة ، واننا متأكدون - كما سبق أن ذكرنا لسيادة السلطان - أن

البندقية ٢٦ أكتوبر ١٥٠٦

مناقشات السناتو بشأن سفارة تغرى بردى الى البندقية ١٥٠٦ .
حيث ان المجلس قد استمع للتقرير المعروض عليه الآن والذي اشتمل
على كل المحادثات والأحداث التى تناولها البحث بين مندوبينا والمندوب
السلطاني تغرى بردى الموجود هنا ، فاننا نلخص هذه المناقشات فى
مسألتين فقط :

المادة الأولى :

هى أن يسارع السفير تغرى بردى بالرحيل من هنا الى القاهرة
ومعه ردنا على ما جاء بصدده ، واذا أراد الانتظار فعليه أن يرسل أحد
وكلائه ليحصل اليانا بعودته رد السلطان . فاذا أقر السلطان طلباتنا ،
نستأنف ارسال سفننا الى ميناء الاسكندرية كما كان سابقا ، والا فاننا
سنضطر الى ارسال سفن عادية صغيرة مثلنا فى ذلك مثل أى طاقة
أخرى من الأجانب التى تتعامل فى موانئ السلطان وحبث ان هذا
السفير كما علمنا يود البقاء هنا وارسل أحد وكلائه الى سيده فى
القاهرة فاننا نرحب بهذا الاجراء ولا سيما وأن هذا الوكيل رجل بارع
وعلى ويمكن أن يحصل على طلباتنا بسهولة من السلطان . كما أن هذا
السفير يعتمد تماما على هذا الوكيل ويعتقد أن عودته الى القاهرة دون
أن يحصل على طلبات السلطان سيعرض حياته للخطر ..

المادة الثانية :

وهى المشكلة الخاصة بالملاحة فى موانئ السلطان فان السفير يؤكد
أن ارسال السفن الصغيرة Les Navires أمر لا يقبله السلطان
بل سيثير غضبه وهو فى الواقع أمر لم نألفه منذ أن تاجرنا مع مصر

واشام - وتوضيحا للأمر فان السفير تغرى بردى بعد أن كتب لسيده
بكل طلباتنا ، لم يرد أن يذكر له أمر السفن ولم يرد كذلك أن يسمع
منا أى اعتراض أو تنويه بما قد نلاقه فى موانئ السلطان فى ابى قير
والاسكندرية » بل هو يؤكد أن الأمان والسلام والطبائنة لا تزال
كما كانت منذ أن تاجرنا مع السلطان . بل أكد السفير أنه لدى عودته
الى القاهرة سيعمل على تدعيم هذه المسألة كذلك وهو هنا يؤكد ذلك
على لسان سيده السلطان .

رأى السناتو :

بعد الاطلاع على المقدمات السابقة وكلام السفير وما حدث مع
مندوبنا فاننا نوافق على الرد على السفير لكى يرسله بدوره للسلطان
بعد تقديم الكلمات الطيبة والتحيات المناسبة لمقام مولاه الرفيع . كما
أننا نترك أمر تدبير هذا وذلك لحصافة السفير ومندوبيه وان يعمل
ما يبدو له لتنفيذ الرغبات المطلوبة . أما فيما يختص بالسفن فان رغبتنا
هى أن تقوم فعلا بالملاحة الى بلاد السلطان على النوعين المعروفين من
السفن : القطائع Les Galères والمراكب Les Navires فقط نود
الأمان والحرص من الاخطار سواء على طول الطريق أو فى الموانئ
وأن تدخل الطبائنة الى قلوب تجارنا حتى لا يمتنعوا عن السفر لموانئ
السلطان لذلك يرجى من السلطان أن يساعد التجار على الرحيل فى
الوقت المناسب بعد تسويق بضائعهم وحسب رغبته وظروف قباطنة
السفن بدون الحاجة الى تصريح سابق . وكل ما عدا ذلك سيكون من
السهل تدبيره .

وفىما يختص بانتخاب قنصل جديد فسيجرى هذا العمل فورا ،

انسيد السلطان الأفخم

حضر الى دولتنا الفخيمة « تغرى بردى الفخيم سفير عظمتكم » وقد أكرمناه اكراما لكم واستعنا له . وفهمنا ما عرضه علينا باسم عظمتكم ، طبقا للخطاب المرسل بعد الينا ، لأجل مناقشة المسائل المتعلقة بالتجارة والتجار وانه طلب منا أن نناقش الموضوعين .. وأن نعين له مندوبين عن حكومتنا للتفاوض معه ، حتى يستطيع توضيح موضوع سفارته لنا وتوضيح ما يريده لفائدة وراحة كل من الطرفين .

وقد اجتمع الطرفان أكثر من جلسة وفحصوا بعناية المصاعب والخلافات ، ثم وجهوا الينا بكامل هيئتهم متفقين على شروط خاصة وضرورية نرجو من سموكم الأعظم الموافقة عليها ، لأنه بدون هذه الشروط سيصبح من العسير على التجار أن يستروا فى الوصول الى بلادكم لأن تجارتهم ستعرض للخسارة .

وقد قال السفير تغرى بردى خلال المحادثات انه ليس لديه تعليمات أخرى . ونحن نتعجب كيف ترسلون سموكم شخصا مسئولا مثل هذا السفير دون أن تكون لديه الصلاحيات الكافية لعمل شئ مهم أو الاتفاق على شئ مهم ، ولأنه لا يملك ابرام الاتفاقيات فهو مضطر لارسال خاصكى من لدنه لسموكم لطلب الموافقة على المفاوضات معنا ... ان أزمة عدم الثقة هذه لا تسح اطلاقا بالاتفاق اذ كيف يقتنع التجار بهذه الشروط ومفاوضهم لا يملك الصلاحية لابرامها ... ؟

ولكى يكون سفيركم ملما بالموضوع ، فاننا نخبره بما اتفق عليه أولا بأول لكي يكون على علم بالتفاصيل ليسردها لسموكم . ونحن منتظرون رد سموكم ، كما أنكم ستقدرون تماما وبكل حكمة حالة

فور اجابة مطالبنا . لأن الصداقة الجديدة تتطلب هذا العمل لكى نستأنف علاقاتنا الطيبة مع السلطان كما كانت وحسب عادتنا فى السنوات السابقة ولمصلحة كلينا .

قرار

الآن يتقرر كتابة خطاب بهذا للسلطان ويرسل مع رسول الى القاهرة كما يجب الاجابة على خطاب السلطان وأن يكون كالاتى :
(أنظر بعده رقم ٩) .

ملاحظات : هذه الوثيقة عن محادثات السناتور عبارة عن :

١ - اتفاقيات ومباحثات تغرى بردى سفير السلطان الغورى مع مندوبى البندقية .

٢ - اتفق الطرفان على المسألتين المسجلتين بهذه الوثيقة الا أن السفير تغرى بردى أحجم عن تسجيلها وتوقيعها قبل أخذ رأى السلطان نفسه .

٣ - رأى السناتور مسجل بهذه الوثيقة بالموافقة على أن يرسل نسخة منه مع مندوب خاص للقاهرة لعرضه على السلطان ومعها خطاب من السناتور الى السلطان ، برجاء الموافقة . (الخطاب بعده رقم ٥ بنفس التاريخ ٢٦ أكتوبر ١٥٠٦) .

خطاب ملحق لرقم (٥)

٢٦ أكتوبر ١٥٠٦

خطاب السناتور الى السلطان الغورى بشأن المباحثات بين سفيره تغرى بردى ومندوبى حكومة الجمهورية على ما اتفق عليه الطرفان فى الوثيقة السابقة برجاء الرد بالموافقة .

(٥)
26 Oct. 1506, : Délibération du Sénat au Sujet de la Mission de Tanghribaldi
Ambassadeur Egyptien à Venise. (Senato Secreta Reg. XLII. 192.)

من الأستاذ الدكتور توفيق أسكندر وترجمته

السيد السلطان الأفخم

١ - برجوع السفن من رحلتها لالاسكندرية كالمعتاد . عرض علينا التجار والقباطنة آن موظفى فخامتكم بالاسكندرية حاولوا تعقيد المعاملات فى بداية الموسم « المدة » وتقصيرها لدرجة كبيرة لا لبضع أيام ولكن لساعات قليلة ، وهذا بالطبع عمل لا يلائم مصالحنا ولذلك يعودون بدون تسويق كل سلهم وفى ذلك منتهى الخسارة لهم ولنا . وقد بدا لنا أن نكتب اليكم هذه الرسالة لتوضيح الأمر لفخامتكم .

٢ - كما أن عمالكم قد عطلوا علينا أعمال ديوان الوزان وديوان القبان على غير ما تعودناه سابقا اذ يعطون لتجارنا توابل بالقر غير المثق عليها وتكون النتيجة خسارة لنا وللتاجر كما أنهم يجبرون على أخذ كمية كبيرة من التراب مع التوابل عنوة . ونظرا لأن المبرلين قد مسغوا الغرايل لكى لا ينزل التراب من ثوب الغرابل ففى هذا خسارة كبيرة لنا وهو عمل غير أمين اطلاقا ، وكذلك أنقصوا المعيار حوالى ٧٪ أكثر من المعتاد وكل شئ لفائدتهم ولكن لخسارتنا مما لم تعودده من قبل .

٣ - سنعنا بكل أسف عن الضرر الذى ارتكبه الفرنسيون ضد مصالح فخامتكم فى الأيام السابقة ، وان هذا يعتبر غدرا كما فعلوا لعدم انضامنا اليهم لكى نحافظ على ايماننا وعهدنا كما جرت عادة دولتنا .

٤ - ونظرا لأن تجارنا راغبون فى زيادة وتوسيع تجارتنا على عهد حكومتكم الرشيدة ونظرا لأن تصرفات عمالكم تقلل من هذه المعاملات ضد رغبتكم فائنا طمنا تجارنا وشجعناهم حسب ما نعرفه من رغبة فخامتكم فى توسيع نطاق التجارة وقد وعدنا

البندقية التى أظهرناها مرارا وتكرارا لسوكم مع اخلاصنا لكم . هذه الروح لم تتغير اطلاقا ، وحيث اننا نشاء أن يكون السلطان بنفس هذه الروح وكذلك السفير فائنا لا نشك فى أن هذا السفير سيوضح لكم تفاصيل الموضوع حيث انه رجل عاقل وحكيم .. والله القادر على كل شئ يتعطف علينا بالخير والبركات .. وانا تأمل أن تجزوا الجزء الأوفى لمن كان السبب فى هذه الغلطة التى أدت الى هذه الاضطرابات والتى قضت على المعاملات الطيبة التى ظلت بيننا قرونا طويلة ، ونتج عن ذلك خسارة فادحة لدولتينا . ان هذا اذا تم سيكون له أبعد الأثر فى اصلاح الحال وسيرضينا .. ويقضى على الأشرار .

ونرجو الله أن يطيل فى سنى حياتكم يا عظمة السلطان باذن الله ، ومن الآن ليكن مقررا أنه اذا لم يتم الاتفاق على ما وضحتاه بقرارنا وبعد المفاوضة مع سفيركم فانه لن يحق لأى مواطن منا أن يرسل الى الاسكندرية أو أى جزء من بلادكم سفنا أو سلعا ولا يتعاقد مع أى فرد بأى سلعة لمدة عشر سنوات على الأقل (٥) .

ملحق رقم (٦)

١٦ ديسمبر ١٥١٠ - البندقية

خطاب من جمهورية البندقية الى السلطان تشكو فيه من أن عمال السلطان يعملون على ترحيل سفن المدة قبل انتهاء المدة أحيانا وبعد انتهاء المدة بوقت .

تابع (٥) : Lettre au Sptan au Sujet de la mission de Tangri Bard son Ambassadeur à Venise.

من الاساذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

تجارنا بأننا سنسنع السلطان كل ما يتعلق بهذا الأمر لا مكان الاستمرار في المتاجرة معه وإن صدقتنا لكم ستعاوننا تماما في معالجة الأمور بالعدل كما نرجو معالجة أمر عمال السلطان في موانئ مصر وسوريا ويسرنا أن نسع هذا من فخامتكم وإن الأخطار السابقة لن تتكرر وإن تجارنا لن يفقدوا العدالة بين موظفيكم حتى يستطيعوا المتاجرة بأمان لذلك نرجو من فخامتكم عدم نسيان الاجراءات اللازمة لذلك ، ولعل هذا سيعود بالفائدة لفخامتكم ودولتكم ودولتنا .

٥ - وقد أرسلنا سفننا الى الاسكندرية وبيروت ، في المدة من ١٥ من أبريل القادم حيث ان تجارنا يمكنهم عرض سلعهم وكذلك شراء سلعهم لذا نرجو فخامتكم أن تأمروا عاملكم بالاسكندرية وبيروت بارسال وتشهيل السفن المذكورة مباشرة بعد تحصيلها بعد فترة المدة بحيث انهم في الوقت المناسب يستطيعون أن يتموا رحلتهم .

٦ - ولكي لا ننسى الصداقة التي بيننا فاننا نبلغ فخامتكم أنه بفضل الله تعالى القادر على كل شيء اتنا قد استرددنا بواسطة قواتنا العسكرية جزءا كبيرا من الأرض والقلاع التي كانت قد احتلت بواسطة أعدائنا الذين جاءوا مرتين لحصار مدينت « بادوا Padua » بحوالي ١٠٠.٠٠٠ شخص وهزمناهم وهم يتراجعون الى مدينة « Verona فيرونا » - ونأمل أن تعاوننا العدالة الساسوية في استرداد باقي ولاياتنا بواسطة جيشنا القوي الموجود بالريف الآن ونحن حاصلون الآن على رضا البابا المعظم وانضمت جيوشنا لجيوشه بقصد طرد الفرنسيين أعدائنا الذين هم أيضا أعداء فخامتكم كما ثبت من تجارب عديدة تعرفونها فخامتكم . وقد تعاطفت الشعوب معنا للدفاع عنا بسبب العدالة التي كنا

ولا نزال ندافع عنها ، وخاصة أنهم عرفوا الآن العذر والخيانة التي يارسها الفرنسيون وبقي جزء كبير من أسطولنا في بحر جنوة لمعاونة البابا ضد الفرنسيين . ونظرا لأن هذه الشواطئ خطيرة فاننا وضعنا الأسطول في جزيرة كورفو لكي يقضى بها الشتاء وفخامتكم ستسرون لسماع هذه الأنباء الطيبة التي أردنا أن نبلغكم اياها كما هو مطلوب منا رعاية للود والثقة بيننا . حاشية : بعد كتابة هذا كله نأسف اذ نبلغكم أن عاملكم حجروا سفننا وتجارنا بعد فترة المدة بوقت طويل في موانئكم ، وهو شيء لا ينتظر منكم ولا سيما للصداقة التي بيننا والتي جربتموها مرارا وتكرارا (٦) .

ملحق رقم (٧)

البندقية ٢٠ يناير ١٥١١

خطاب من جمهورية البندقية الى السلطان تشكو فيه من الاجراءات الانتقامية التي اتخذت ضد مواطنيها بسبب مراسلتهم واستقبالهم مبعوث الشاه الصفوي .

السيد السلطان الأعظم الأفخم .

١ - في الأيام السابقة سمعنا أن سيادتكم قد استدعيتهم الى القاهرة القنصل في دمشق والاسكندرية وتجارنا وأخذتنا الدهشة . وفي نفس الوقت تضايقتنا مما حدث للقناصل وخاصة قنصل دمشق.

Venise, Senato Secreta, Reg. XLIII F 172 V.

(٦)

Lettre au Sultan où Venise se plaint des ses agents qui font partir les galères avant ou après la « Muda » :

من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

ونوابه وتجارنا .. وقد رأينا أنه من حيث صداقتنا الطيبة التي اتخذناها دعامة صلتنا بكم . واحتفظنا بها معكم ومع أسلافكم العظام .. قد تكون شفيعة في أن يكون تجارنا معززين في دولتكم .

٢ - وقد رأينا أن تجارنا ومواطنينا في دولتكم قد وضعوا موضع الأعداء الذين هم أعداء لنا ولكم سرا وعلنا ، وبدون أى رعاية أو احترام .. وهذا سبب لنا الخسارة ولا شك أنه سبب لكم أيضا الخسارة .

٣ - ان هذه المعاملة قد أزعجتنا ولا سيما أننا نعرف أن التحريض آت من أولئك الذين يريدون أن يضرروا بصالحنا ومصالحكم .. ونحن موقنون تماما أنكم لما تتسلون خطابنا هذا وتعرفون وتناكدون من الحقيقة سيعود تجارنا الى مراكزهم وسابق عملهم مع تلافي الخسارة والضرر لكينا .. ولا شك أنكم ستعاقبون الأعداء ويتبع هذا طبعاً عودة الرحلتين السابقتين بدون أى تردد .

٤ - وقد علمنا الآن أن سوكم مسترون في حبس القناصل والتجار وان غضبكم منصب عليهم لتسهيلهم وصول رسل الصوفى الينا بدون أن نعطيك خبراً عنه . ونحن نعترف بأننا لم نعطك خبراً ، وان كنا بطرق أخرى قد بينا لكم مصير وغرض هذه الزيارة .

٥ - ويسرنا أن نذكر لسوكم أن السفن المذكورة أى سفن المدة المحملة بالبضائع ستصل في مواعيدها وأن ما حدث ما ينعى انطلاقاً من وصولها وذلك نفياً لأى فكرة عدائية تكون قد تسربت الى نفوسكم منا .

٦ - ونحب أن نذكر أن كل بلاد العالم قد شاركت في تجارة التوابل

من البرتغال ما عدا تجارنا وكنا قد أصدرنا أوامراً صريحة لتجارنا وشددنا في ضرورة تنفيذها .

٧ - وإذا كان رسل الصوفى قد وصلوا الى بلدنا فانه لم يكن باستطاعتنا منعهم من الوصول لأننا اعتدنا صداقة الجميع والترحيب بالجميع وان كنا قد أغفلنا اعلامكم بهذه البعثة في حينها فذلك لأن المحادثات بيننا وبينهم لم تكن لها قيمة أو أى وزن دولى كما أننا لم نسمع منهم أى عرض له وزنه . ونفيدكم أنه بعد التحيات المعتادة أخبرنا رسل الصوفى أن سيدهم ينشد صداقتنا وانه مستعد للحفاظ وتجديد الصداقة التى كانت بيننا وبين أسلافه . وقد أجبنا عن هذا الكلام اجابات عامة - وكنا لا نريد أن نضايق أساع سوكم بأمور لا وزن لها ولا قيمة عن هؤلاء الرسل لذا بدا لنا أن نغفل هذا الأمر البسيط ولا سيما أننا قد علمنا أن هؤلاء الرسل كانوا بفرنسا قبل وصولهم الينا ولم يكن وصولهم الينا الا مروراً فقط ببلادنا فى طريق عودتهم الى بلادهم أى أن مقصدهم الأساسى كان فرنسا وليس البندقية التى مروا بها مر الكرام والتحية . فاذا كان الأمر قد سبب ازعاجاً لكم أو أنه سيسبب قطع العلاقات بيننا وبينكم التى ظلت مئات السنين فان هذا تتركه لحكمتكم ونرجو سوكم الا تستمعوا لتهرات الأشرار وألفاظهم ولا سيما الأعداء المقروض علينا أنهم أعداء لكم ولنا ويجب أن نضع نصب أعيننا فقط التجارب السابقة والنتائج التى ترتبت على ذلك .

٨ - ونستطيع أن نؤكد لسوكم أن أى حادث يحدث فى الخارج لا بد أن نوافيكم به فوراً ولا يسكن أن يقال اننا قد خنا العهد فأننا لا نذيع سرا اذا قلنا ان صداقتنا مع سوكم قد سببت لنا أضراراً كثيرة ومتاعب فى السنوات الأخيرة ولا سيما فى التجارة

سيعاد قريب دليل على حسن نيتنا نحوكم وتوكيدا للصدقة
الطيبة بيننا وبينكم التي كانت منذ مئات السنين وتدعو
لسوكم بسنين طويلة سعيدة (٧) .

ملحق رقم (٨)

٣١ ديسمبر ١٥١١

تعليمات للسفير دومنكوتريفزاني - سفير جمهورية البندقية الى
السلطان .

١ - نحن ليوراندس لاوريدانس بعون الله دوق البندقية .. نأمرك
ونعنيك مندوبا عنا أيها الشريف دومنجو تريفزاني فارس سنان
مارك العظيم من السنانو الى السلطان المعظم ...
انك باسم الروح القدس يجب أن تركب على السفينة المعطاة لك
بقيادة كوثارين وأن تثابر على السير حتى تصل الى جزيرة
كرت ، ربما تجد جواز المرور الى بلاد السلطان في انتظارك
لتأخذه معك ليسمح لك بدخول الاسكندرية والقاهرة ، وإذا
كان جواز المرور لم يصل بعد الى كريت فلا تنتظر وصوله بل
استمر لأنه قد يقابلك بالطريق ، والا فواصل الرحلة حتى تصل
الى ميناء أبى قير ، ثم ارسل أحد أتباعك الى الاسكندرية لتحصل
على هذا الجواز ، وإذا حصلت عليه فادخل الى المدينة واعرض
خطابات الاعتماد على أمير الاسكندرية واستخدم معه ألفاظا لينة
ومقبولة وتعطيه الهدية المرسلة له منا لكي يعرف سيادته أننا نقدر
شخصه . ثم تزور السادة الآخرين والعظماء الذين ترى أن من

Venise, 20 Jan. 1511,

(٧)
Lettre au Sultan où Venise se plaint des représailles contre sa réception
des envoyés du Shah Safoui.
Senato Secreta, Reg. XLIV F. 31.

من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

التي أصبحت أسعارها رخيصة بعد وصول التوابل الى لشبونة
ثم موقف البابوية وملوك أوروبا بسبب العداء القديم بين الشرق
والغرب .

٩ - ان حكومة الجمهورية واثقة من أن أعداء الطرفين لا بد سيلاقون
جزاءهم ونأمل أن نكون قد وصلنا الى حد ازالة ما يكون قد
علق بأذهانكم من نحونا ... ونعود تؤكد لسوكم ولنيلتكم
أن أى خبر يحدث لابد من أن يصلكم نبأه عن طريق رجالنا .
١٠ - ونفيد سيادتكم وفخامتكم أننا سوف لا نقدم أى اعتذار
آخر الا اذا أطلق سراح تجارنا ومثلينا وهم واقفون تحت
العقاب الشديد .

١١ - ونفيد فخامتكم كذلك أن جمهوريتنا لا تساعد القراصنة
وخصوصا أننا تنكبد نفقات ضخمة فى اعداد السفن المسلحة
للقضاء على القراصنة كطائفة وعلى الحرفة نفسها كعملية
مرذولة ومكروهة من الجميع فاذا وصل الى سمعنا أن أى تاجر
من تجارنا قد خالف هذه الأوامر ولم يحترم أمرنا فى عدم
مساعدة القراصنة ، فسنوقع عليه عقوبات شديدة ليكون عبرة
لكل واحد ويمكن لسوكم أن تثقوا فى كلامنا هذا ...

١٢ - ولا نريد أن نؤكد لفخامتكم مراعاة قناصلنا وتجارنا ومعاملتهم
معاملة طيبة كما نؤكد لسيادتكم أن السفن سترسل فى
مواعيدها ولا تحجز ، ونفيدكم أنه بمجرد علمنا بابجارها من
طرفكم فى طريق عودتها اليها سترسل السفن الأخرى ، « سفن
المدة التالية » التى ستحمل أموالا وسلعا كثيرة لأن التجار
يرغبون فى المتاجرة بدون انتظار .

١٣ - كما نفيد سيادتكم أننا بسبب ضيق الوقت لم نستطع ارسال
سفيرنا الكبير اليكم السيد « تريفزاني » وهو سيصلكم فى

الواجب زيارتهم ثم تسافر للقاهرة وتصل الى بلاط سمو السلطان
الأفخم بالطريق المعتاد مع الحاشية والحرس حسب التقاليد المرمية
والتعليمات المتبعة والتي تؤمر بها . ولما يتقرر لك يوم التشريف
تذهب رسيا في مركب فخم يليق بك وبنا ، وتقدم خطاباتنا
وتحييه تحية طيبة وتبديحه بألفاظ عذبة باسم دولتنا وتهنئه بصحته
ورخاء بلاده وعزتها وترسل له الهدايا الخاصة به فوراً باحتفال
عظيم وبحضور مواطنينا في بلاد السلطان . واننا متأكدون أنك
ستعمل هذه العلية بهمة ونشاط . وسوف لا يتم بحث أى
موضوع بطريق جدى فى أول جلسة . ولذلك عليك قبل أن
تبارح المكان أن تحدد مع رجال السلطان مقابلة أخرى مع سمو
لعرض ما سنذكره لك الآن .. وخلال المقابلة الأولى عليك أن
تجتهد وتحاول بالمهارة المطلوبة منك أن تجعل نفسية السلطان
فى حالة طيبة بالنسبة لنا وخاصة مع حاشيته ، والذي لا تستطيع
التحدث فيه بتوسع عليك بتأجيله فيما بعد للوقت المناسب ...
ثم تطلب التصريح لك بزيارة عظمة السلطنة لكى تهديها هدايانا
كذلك ، ثم تزور كبار الأمراء وتعطى لكل هدية ...

٢ - وفى مقابلتك الثانية مع السلطان عليك بتحيته أحسن التحيات
وبكلمات مناسبة ثم تضع أمام عينيه المبادئ ورءوس الموضوعات
التي ستحدث عنها فتبدأ أولا : بايضاح وجهة نظرنا وتلتبس
الأعذار لدولتنا بشكل واضح عن تأخير ارسال السفارة الى
بلاط جلالتهم وتنسب التأخير الى الأحداث العظيمة التي صادفتنا
منذ ثلاث سنوات بسبب خيانة ملك فرنسا الذي ظل فى حلف
معنا قرابة عشر سنوات وأفاد منا افادة عظيمة ثم امتأ بالاثم
والشهوة وحب السيادة والسيطرة فلم يتورع عن الحث بالعهد
المعطى لنا منه كما حث بكل التزاماته وتحالف مع أعدائنا ضدنا

وكان يطمع فى أن يتغلب علينا ويوسع دولته على حسابنا ،
وبالرغم من أننا قد تحملنا خسائر كثيرة فاننا بالمساعدة الآلهية
دافعنا كثيرا حتى عادت الأحوال الى ما كانت عليه ونأمل أن
تتحسن أحوالنا كذلك ، وأن أى فرد يحاول ايداءنا سينال عقابا
صارما من العناية الآلهية . وقد عقدنا حلفا فى أكتوبر الماضى
فى روما مع فخامة البابا المعظم وأصحاب الجلالة ملك اسبانيا
وانجلترا ، وقد أخبرنا سيادتكم به فى حينه ، ويوجد فى الميدان
الآن جيوش تابعة للبابا ولنا ولاسبانيا وسيعمل ملك انجلترا
مثلا . وعليك أن تخبر عظمة السلطان أن سكان Sguisari
الموحشين والقاطنين بجوار ميلانو ، قد خرجوا واتفقوا مع ملك
فرنسا حتى أصبح اسمه مكروها من الجميع لسبب رغبتهم
وطمعهم فى السيطرة على العالم . وتستطيع أن تؤكد أن أمره
سيتهى بالمصير الذى يستحقه هو وأمثاله نتيجة لاطماع غير
محدودة .. وهذا هو السبب الرئيسى فى تأخير ارسال السفير.
وهذا التأخير أردنا الآن أن نعوضه بأن نرسل الى عظمة السلطان
سفيرا عظيما هو أنت (تريفزاني) وانك من أعظم رجال السناتو
فى بلدنا .. لكى تؤكد لسيادة السلطان ماكنه له من حب وتقدير
ورغبة دائمة فى الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة معه . كما أننا نحب
أن يكون مواطنونا فى بلاد السلطان مستمرين فى علاقتهم الطيبة
مع سيادته ، وأن تتحسن على مر الأيام وتتزايد كما هو معتاد
من مئات السنين وعلى هدى ما ورثناه عن أجدادنا وما مشتركه
لذريتنا ليستمر كما استمر من قبل . ولا شك أن طيبة السلطان
والمودة التي يغمرنا بها من آن لآخر ستسحق كل أثر تركه أعداؤنا
فى نفسه ، على أن استمرار غضب السلطان علينا سيجعل التجار
يهجرون أسواقه الى بلاد أخرى ، كما أن السفن التي اعتادت
أن ترد له كل عام وتحمل الذهب والفضة والنحاس والقصدير

والحرير والكتان والزيت والفواكه ستتحول عن بلاده ولن تحصل من بلاد السلطان على التوابل وكل المتاجر التي يحصل من ورائها على فائدة عظيمة وفي كل مرة يحدث هذا لا يمكن تعويض الوقت الضائع ..

٣ - ويجب أن تنبه عطية السلطان الى أعدائنا وأعدائه فهم يعادونه منذ ٥٠ سنة كما أن أعمالهم ضده ، ولا يحضرون بانتظام لبلادهم ، ويصلون مرة كل ٣ سنوات ، بعكس تجارنا الذين يأتون لبلاد السلطان بانتظام (البندقية هنا توصي سفيرها بأثارة احفاد السلطان وتحويلها عنهم الى الفرنسيين) وكثيرا ما يقومون بأعمال القرصنة أمام الاسكندرية بعكسنا تماما . وقوات قراصنتهم نحصى برودس مقابل ٣٠ أو ٤٠ ألف دوكات من الحكومة الفرنسية . وسيادة السلطان يعرف جيدا هجومهم الأخير على سفنه وأنهم حاولوا بالدس والوقية والحيل أن يتسببوا في الاضرار بنا وبه . ونحن لا نريد أن تتعب فخامة السلطان في العمليات الأخرى الواسعة المؤسفة التي يقومون بها لأننا واثقون من أنكم تعرفون هذا فعلا وانكم حازمون وتدركون الأمور على حقيقتها وأنكم تسيرون في نفس الطريقة التي سار فيها أسلافكم العظام . وما نقول هذا الا لمصلحتكم ومصلحتنا ..

٤ - وإذا كان فخامة السلطان قد غضب لأن بعض رجال الصوفى قد وفدوا الى بلادنا منذ ٣ سنوات بالرغم من أننا قد برأنا أنفسنا من ذلك في خطابات وسفارات سابقة ، فعليك أيها السفير أن تعيد تبرئتنا مرة أخرى وتؤكد أن وجودهم لم يكن لأسباب ضارة بالسلطان وليس في الموضوع أكثر من أن الشاه بادلنا العواطف والمودة فبادلناه بها وهو ما فعله مع الجميع . واننا على استعداد

لإثبات حسن نيتنا نحو فخامة السلطان ، هذه النية الطيبة التي كانت ولا تزال قائمة لم تتغير كما أننا نبادلها عواطف صادقة مخلصه ونرجو أن تستمر . ولكي نثبت له حسن نيتنا فأننا نترك في بلاده تجارنا وسفراءنا وكميات كبيرة من الذهب والفضة كما يشاء السلطان . وعليك أيها السفير أن تلقت نظر السلطان الى أن تجارنا لم يحصلوا على فلفل من بلاده لأن أثنائه القديسة سببت لنا الخسارة بسبب انخفاض الأسعار في أسواق البرتغال كما أن تجار أوروبا أصبحوا الآن يتجهون الى أسواق لشبونة لطلب التوابل . وقد دعينا لمشاركة البرتغال في الأرباح العظيمة وأن نقوم بنفس العمل وبأرباحه ولم نستمتع لهذا الكلام بل منعنا تجارنا من الذهاب الى لشبونة وداومنا الوصول الى أسواق السلطان كالمعتاد حتى لا يشك سيادته في اخلاصنا أو في أننا نميل الى الشاه ضده أو الى البرتغال أو الى ملك فرنسا ، ان مودتنا لا تنفصل عن مودة السلطان وتستمر الى مالا نهاية ..

٥ - عند وصولك الى الاسكندرية تكون السفن الموسمية قد حلت وانتهى الموسم فعليك بالتنبيه بسرعة الرحيل بدون تأخير ولا سيما سفن بيروت التي أرسلت منذ أيام الى ساحل سوريا ..

٦ - اذا كان تجارنا وقناصلنا مجبوسين في القاهرة فعليك أيها السفير أن تعمل على اطلاق سراحهم ومباشرتهم أعمالهم ، وهو أمر سهل بالنسبة لك ، وبما أن السلطان يعرف اخلاصنا وسابق تجارتنا معه فانه سيسهل لك الأمر .

٧ - وأرفقنا بهذا الخطاب نص المفاوضات والاتفاقيات التي عقدت عام ١٥٠٧ مع مندوب السلطان تغرى بردى ، وبما أن نيتنا قد استراحت لهذه الاتفاقية فان شروطها لابد من مراعاتها ، وقد أقسم الترجمان تغرى بردى باسم مولاه على احترام نصوصها ،

إذا عرض لك أو سعت من أحد تجارنا أنها لم تحترم . ولم نراع . فعليك بكل قوة وشدة أن تطلب احترامها وتنفيذ بنودها ..

٨ - وإذا اضطرت إلى المناقشة والجدال فيما يختص بالهدايا المرسله لسلطان المعظم بواسطة نائبنا في قبرس وانها لم تنتخب كما يجب وحسب مشيئته فعليك باعتذار عن ذلك وبأنك لا علم لك به وانك ستكتب الى قبرس لمراعاة ذلك ارضاء لفخامة السلطان ..

٩ - مبينا عدة مرات أنه في حالة مفاجأة الزوابع لنا ليلا يجب أن يؤذن للسفن بأن تنجأ لليناء وبدون استئذان وهو مطلب عادل ويسكن الحصول عليه وأن السفن يسكن أن تغلق بعد أربعة أيام من انتهاء «المدة» دون الحصول على أمر أو إذن بذلك آخر ..

١٠ - ديوان القبايل - كما ستعلم من قناصلنا - هو بصفة خاصة من الأهمية بالنسبة لنا بحيث اننا لا نود غسل تغييرات في هيئته خدمة مصالحنا ونأمرك بعد أن تحصل على معلومات في هذا الشأن أن تحصل على تأكيد بعدم تغيير هذه الهيئة على وجه الامتثال وان يراعى ما هو واجب وعدل .

١١ - ويجب ان تبيناه في الحصول على ذلك في أمر مربع وليس أمر موبل الذي يكلف كثيرا . ولأن الأمر المربع واجب الاحترام والتنفيذ بعكس الطويل .

١٢ - كل ما سيذكره لك قناصلنا وتجارتنا وهيئة التجار بالاسكندرية ويبرون ودمشق هو لفائدة تجارنا وتجارتنا . فيجب أن ننعتهم ونطيعهم ونجتهد في الحصول على طلباتهم وان تهتم تساهم بالنفع والفائدة لطائفتنا وتجارتنا حسب مصالحتنا .

١٣ - لا تحدد لك وقتا لبقائك لهذه السفارة بل ان لديك من الوقت ما تحتاج له . فقط عليك استخدام لباقتك في الحصول على ما طلبناه بأسرع ما يسكن حسب قصدنا . وفي الوقت الذي تستكث فيه في القاهرة تجعل السفينة المذكورة تنتظر لك في المكان المناسب حتى تكون مستعدة للرحيل في أى وقت .

١٤ - من حيث انك قد تحتاج الى الأموال في بعثتك هذه . قرر مجلس السنانو أن يعطيك قنصل الاسكندرية وقنصل دمشق حسب طلبك كل ما تريد اتفاهه بالكامل .

١٥ - لما تصل الى كورفو وكريت شرقا عليك أن تحصل على مركب آخر ضامنا للأمانة، مركب آخر من مراكبنا من أسطولنا المنتشرة في البحر المتوسط أفخم من هذه وتصل بها للاسكندرية . وبعد وصولك تسرح هذه السفينة لترجع لوحدها بالأسطول .

١٦ - بالنظر لأنه في مثل هذه السفارة لا يسكن اعطاء كل البيانات والتفصيلات المطلوبة والتي يسكن أن تحدث فاننا لسنا في موقف نتظر فيه خطابات منك بشأن كل صعوبة ستقابنها ولا يسكن الاجابة عليها بسرعة لأن المسافة والوقت والرحلة لا تسمح بذلك . نقول لك اننا والقصور من براعات وانك ستدلى كل عقبة وكل صعوبة تتعلق بالتجارة أو أى شىء يحدث هناك بجانب الصعوبات التي عيناها في أمرنا هذا لك . فان لك مطلق الحرية

(٨)
31 Décembre, 1511.
Instructions à Domenico Trevisan ambassadeur au Sultan
Senato Secreta. Reg. XLIV F. 92 V.

1511 — Die Ultimo Decembris
(Commissar Viri Nobilis Domini Travia ani Equitis Procuratoris S. et
Marci, designati Oratoris ad Serenissimum D. Sultanum etc.)

من الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر وترجمته

فى التصرف بأى شكل وبأى كيفية تبدو لك أنها أفضل وأسرع من غيرها .

١٧ - يمكن أن تحصل معك نقودا بقيمة ٥٠٠ دوكات على حساب تجارتنا بالاسكندرية ودمشق حسب ما هو معتاد حسابه فى جمهوريتنا ...

نص اتفاقية السنيير البندقى « تريفزانى » والسلطان
« النورى » ١٥١١/١٥١٢

الاتفاقية التالية بين البندقية والسلطان النورى من أهم الاتفاقيات التى عقدت بين جمهورية البندقية وسلاطين المماليك وتعرف « بالاتفاقية الشاملة » - وقد حوت العديد من التفاصيل والنظم التجارية التى كانت متبعة فى تلك الفترة المتأخرة من العصور الوسطى كما تعطينا فكرة عن حالة التجارة أواخر العصور الوسطى وبعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وقد أثر ذلك على تجارة مصر وسوريا مما مهد فعلا لسقوطها فى يد العثمانيين ١٥١٦/١٥١٧ .

وقد نلاحظ فى هذه الاتفاقية أن السلطان كثير القلق والضيق بسبب النقص البادى فى إيرادات جمارك الاسكندرية من تجارة البهار والتوابل والسلع الشرقية عامة . وكان يحاول محاولات جديدة استعادة مركزه الممتاز فى هذه التجارة ، المركز الذى كان له من قبل تحول الطريق الى الهند بحرا حول افريقيا ، ومحاولاته هذه فى الواقع كانت فردية وإن عاونته بعض أمراء الهند ...

والسلطان بصفته رأس الحكومة هو المسئول الأول والأخير عن رفع أو تخفيض ضرائب الجمارك على السلع الشرقية ، كما أنه بنفسه كان يحتكر التجارة فى التوابل .

أما البنادقة فقد ساءهم ما وصلت اليه الحال بعد تحول طريق التجارة الى رأس الرجاء الصالح وأثارهم تباطؤ السلطان واضطروا

أن يتحولوا الى أسواق لشبونة يعبون منها التوابل ، ولم يرسلوا كل عام للاسكندرية الا القليل الأقل من السفن .

وقد سحب تريفزانى الى القاهرة المترجمون والمختصون فى الشئون الشرقية بسجس السناتو البندقى . كما كان يصحبه فى أمثال هذه البعثات بعض رجال الدين . وقد يكون ذلك للصلاة أو للطقوس الدينية فى حالات الوفاة المفاجئة .

والاتفاقيات الآتية ليست معاهدات بالمعنى المعروف بل هى مجموعة أسئلة يقدمها السلطان وتلقى عليها الاجابات من تريفزانى وبعبته ثم تجمع كلها ليحل بها الطرفان وكانت تكتب باللغة العربية والاطالية القديمة . والاتفاقية الواردة هنا مترجمة من الايطالية القديمة الى الفرنسية وهى مترجمة من كتاب

Reinaud, M.
Journal Asiatique. t. IV.

القاهرة فى ٥ يونيو ١٥١٢

السؤال الأول (من السلطان) :

اننا اعتدنا بمجرد وصول السفن الموسمية البندقية الى الاسكندرية ، فانها كانت تمارس عملياتها فى البيع والشراء بطريق المفاضلة (التبادل) لجزء كبير من السلع ويختار القنصل أربعاً من التجار البنادقة مواطنيه لتشين وتحديد سعر التوابل الخاصة بالسلطان (توابل الذخيرة الشريفة) ، ثم تحديد سعر التوابل المشتراة من السوق بالأسعار الحرة ، ويصحب الأربعة المذكورين والقنصل مندوب السلطان الخاص لحضور تقدير أثمان التوابل والبهار . هذه الهيئة هى الموكل اليها تقدير أثمان التوابل السلطانية والتوابل الحرة ، وهذه الهيئة المذكورة لا تنتهى مهمتها فى مصر قبل أن تصل الى اتفاق مرض

للطرفين .. السلطان والتجار البنادقة .. وهى فى الغالب تصل الى ما يريح الأطراف المعنية ... هذا ما كان يتم قبلا ، أما منذ عودة سفيرنا « تغرى بردى » من طرفكم فان هذا النظام تغير ولم يعد معسولا به بنفسى الدقة والنظام القديم ..

الاجابة من (تريفزانى) :

ردا على هذا السؤال نقول اننا اعتدنا أن نحدد ثمن ال ٢١٠ أحمال من البهار الذى نشتريه كل عام بواسطة الهيئة المذكورة، أما الآن لما أصبح ثمن الحبل الواحد لا يتعدى ٨٠ دوكات فان وجود الهيئة على النحو السابق أصبح غير ذى موضوع ويقال مثل ذلك عن الأنواع الأخرى الحرة من التوابل والبهار .. ومن الآن يكون لنا ولكم مطلق الحرية فى وضع السعر المناسب وتحديد وتأمين التوابل .

السؤال الثانى (من السلطان) :

فى السنوات الماضية كان يصل لميناء الاسكندرية ثلاث سفن موسمية وفى فترة اعداد حصولها تذهب الى بلاد المغرب وتعود محملة بالبضائع للاسكندرية ، فلما لم تواصل هذه السفن هذا النوع من النشاط التجارى منذ عودة بعثة « تغرى بردى » الى القاهرة من أوروبا ... ؟

الاجابة :

ان جهورية البندقية لم تحاول أن تقلل من عدد السفن بل هى تحاول أن تجعلها مثلما كانت من قبل .. واذا كان عدد السفن قد قل لسبب خارج عن ارادتنا ، لأن السلام فى البحر المتوسط أصبح متقلبا، وهدوء الملاحة فى هذا البحر هام جدا لتجارتنا فنحن لا نستطيع العمل الا فى بحر مفتوح غير مغلق بالحروب لا سيما وأن ملك أسبانيا فى حالة حرب رسمية مع الولايات البربرية (يقصد البربر) فى شمال

افريقيا فى المغرب وفى الأندلس من قبل، والملاحة مهددة فى كل وقت.. ولكننا نعدكم أنه بمجرد ايقاف الحروب وبسجرد أن تستطيع سفننا المرور بدون خسائر فائتة سواصل عملنا المعتاد كسابق عهدنا بكم ...

السؤال الثالث :

ان سفن البندقية كانت تأتى إلينا كل عام محملة بالبندق واللوز والجوز والزبيب والعنب ويعطى جزء منه هدايا لدار الذخيرة الشريفة وللناظر والمقتش والقبان ولكل من له صلة بالنقل : كل هذا لم نعد نراه هنا منذ عودة سفيرنا تغرى بردى من أوروبا .

الاجابة :

فيسا يتعلق بتوزيع الفاكهة المذكورة نعلن أننا فى غاية الأسف لسيونا عن هذه العادة القديمة ، وتفسيرا لذلك فائتة قد وجدنا أن توزيع هذه الفاكهة بكسيات كبيرة يؤدى الى خفض سعرها فى الأسواق المصرية مما قد يؤدى الى الاضرار بتجارة السلطان فتوقفنا عن توزيعه هبات لان جزءا كبيرا من هذه الفاكهة يباع فعلا بأسعار منخفضة جدا .. ولا يخفى عليكم أن مكسب هذه السلع قليل ولا يقرى تجارنا على حمله اليكم ، وهم لا يربحون منه الا الضئيل القليل فى الوقت الذى نود فيه أن نزيد من عدد تجارنا الوافدين اليكم .

السؤال الرابع :

ان تجاركم كانوا كل عام ملزمون بشراء ٢١٠ أحمال من التوابل لحساب دار الذخيرة الشريفة ويدفعون لها الثمن نقدا بدون مساومة ... أما الآن ومنذ وصول سفيرنا تغرى بردى من أوروبا لم نلاحظ اهتمامكم لتنفيذ هذا القانون بدقة .

الاجابة :

إذا لم يصر السلطان على رفع ثمن الحبل من التوابل الشريفة عن ٨٠ دوكات يصبح بإمكاننا اغراء تجارنا بشراء الكميات المذكورة آنفا .. وإذا رأى سموكم ألا يتنازل عن أسعاره بحجة أن التوابل ليست كسابق العهد وغير مريحة فإن الطرفين حينئذ ليسا ملزمين بتنفيذ الاتفاقية .. وعلى أى حال فإن سعر الحبل الآن حوالى ٤٠ دوكات ، ولكننا حسب الاتفاقية السابقة نعد السلطان بأن نشتريها بحوالى ٨٠ دوكات على ألا تزيد على ذلك اطلاقا ، وحتى على فرض إذا زاد الثمن فلن ندفع أكثر من ٨٠ دوكات وهو السعر المتفق عليه أما المشتري من السوق الحر فللسلطان أن يتصرف فيه كيفما شاء .. اننا نعدل فى معاملتنا مع الجميع ونحب كذلك أن نعامل بالعدل .

السؤال الخامس :

ان تجار البندقية فى أوبتهم للاسكندرية كل عام كانوا يهاون معهم من السلع : الزيوت والنحاس والرصاص والأنسجة الصوفية والجلود ووبر الجمال والقطيفة ، وحوالى نهاية العام تحبل السفن حاملة هذه السلع ومن يوم وصولها حتى انتهاء « المدة » أو « السوق السنوى » لا يتوانى البنادقة عن البيع والشراء والتعامل مع المصريين سواء بالمقايضة أو بالمقطوعة المتفق عليها بالنقد الذهبى ؟ .. أما الآن فلا يصل الا عدد قليل من السفن بل ان كل سنة لا تصل الا سفينة أو سفينتان موسميّتان ، ولا تبيع ولا تشتري كسابق عهدها . وفى النهاية لا تصل أرباحنا حتى نهاية المدة المذكورة لاكثر من مبيعات يوم واحد من السنوات الماضية .

الاجابة :

حقيقة أن سفننا كانت تأتى فى بحر السنة وهى محملة بالسلع المختلفة وكان هذا للحرية الكاملة التى كنا نتمتع بها فى التجارة فى البيع والشراء . شكرا لكم للتسهيلات التى كنا نحصل عليها فإن هذا يعطينا الفرصة مقدما لاحضار كميات من هذه السلع . أما الآن فإن الحكومة قد رسمت بأن السلع التى تصل لا تباع الا بسعر مقرر مثل أسعار المدة السابقة عليها ، أو بالسعر الذى يقرر « للسدة » التالية وعلى هذا فإن التجار الذين لا تمكنهم ظروفهم من الوصول خلال «المدة» الى السوق السنوية فانهم لا يستطيعون البقاء للسدة التالية وهذا بالطبع يؤدى الى الاضطراب والانهيار فى الحركات التجارية .. ويستطيع السلطان أن يصدر أمره بأن تسرى أسعار المدة على أسعار العام كله حتى « المدة » التالية ليستطيع تجارنا ممارسة البيع والشراء فى أى فترة من السنة دون تحديد ضار ..

السؤال السادس :

تصل الى الاسكندرية كل عام خمس سفن موسمية ، هذا عدا السفينتين اللتين تتجهان الى ساحل المغرب وبلاده ، والسفينة التى نحبزها لخدمتنا الخاصة وبمجرد الانتهاء من البيع والشراء باتتهاء « المدة » تبقى بالاسكندرية كميات كبيرة من المتاجر من الزيوت والنحاس والرصاص والصوف وكلها لا تقل فى قيمتها عن ٣٠٠٠٠٠ دوكات ، ويصير البيع والشراء والمتاجرة فيها على مدار السنة هى فى الواقع تحدث ما يسمى باسم « السرق الدائم فى بلادنا » أما الآن فبعد انتهاء المدة لاحظنا أنه لا يبقى من البضائع الا فى حدود ٢٠٠٠٠٠ دوكات كما أننا نلاحظ أنه لا يصل أكثر من ثلاث سفن موسمية بمفردها ومنها قليل من المراكب وقليل من السلع .

الاجابة :

فيما يتعلق بعدد السفن القليلة التي تصل وقلة ما تحصله من التوابل ومن السلع الأخرى وهو مالا يملأ أكثر من سفينتين أو ثلاث فردا على ذلك تفيد أنه اذا كانت هذه السفن قليلة فان حمولة الثلاث منها بالتوابل ليس بالقليل في هذا الوقت ، فخلال القرن الماضي كانت التوابل غير مرتفعة الأسعار : فمثلا أجود أنواع الزنجبيل الذي يساوى ما بين ٨ - ١٠ دوكات للقنطار الواحد في القرن الماضي أصبح يساوى الآن ٤٥ دوكات ، وأسعار باقى التوابل ارتفعت بهذه النسبة بمعنى أن قيمة حمولة الثلاث سفن الآن تساوى ما قيمته ستة أمثال حمولة سفن العصر الفائت ، وهذا تفسير لقلة وصول السفن وقلة حصولها في القرن الماضي .

السؤال السابع :

بعد رحيل السفن الموسمية تبقى السلع طول العام بالاسكندرية وكان يتواجد باستمرار ما لا يقل عن ١٥ تاجرا للتجارة بيعا وشراء أما الآن فلا نرى أكثر من ثلاثة أو أربعة تجار على الأكثر وهم ليسوا سوى مثلى الشركات طرفكم . ونريد تفسيراً لعدم وصول أعداد كبيرة وبقاء أعداد كبيرة منكم هنا للبيع والشراء .

الاجابة :

كان هذا يحدث كلما أحب التجار السكن والبقاء بالاسكندرية وكلما سنحت لهم الفرصة للعمل التجارى بحرية كاملة ، أما الآن فلأسباب التي ذكرناها في الاجابات السابقة لا يبقى الا الرؤساء . في الوقت الذى سيجد فيه التجار فائدة من بقائهم سيقون بل وأكثر مما كانت أعدادهم في الزمن السابق .

السؤال الثامن :

تجاركم كانوا يبيعون ويشتررون طول العام ويسألون مخازنهم بالتوابل فى انتظار عودة سفنهم من رحلتها الفرعية الى بلاد المغرب . وكانوا يشتررون فى المعتاد حوالى ٦٠٠ طرد من التوابل أو على الأقل ٥٠٠ لا يدخل ضمنها حساب ما يشترونه من المغرب . ولدى عودة السفن يقومون بتحصيل التوابل بهذه السفن ودفع القيمة المطلوبة لعامل السلطان ثم يشحنونها ويبقون باقى المدة يتاجرون بيعا وشراء حتى نهايتها ، أما الآن فلا نجد بين أيديهم أكثر من ٢٠٠ طرد من التوابل بسبب قلة ما يحصلونه الى بلادكم والركود الذى شغل معظم الأعمال .

الاجابة :

نعيد القول بأن حرية التجارة هي التي بإمكانها وضع الأعمال فى حالة طيبة واذا كان بقاء التجار فيه فائدة للسلطان فهو خسارة لتجارنا والسلطان لا يستطيع أن يمن عليهم بشيء من المنفعة لقاء بقائهم بدون عمل حتى « المدة » القادمة .

السؤال التاسع :

يصلنا كل عام ٤٠٠ قنطار من صفائح النحاس وأحيانا ٣٠٠٠ قنطار دون حساب باقى الأنواع الأخرى من النحاس أما فى العام الماضى فلم يصلنا أكثر من ٨٠٠ قنطار من الصفائح النحاسية وليس أكثر من ذلك .

الاجابة :

اجابتنا على هذا أن ما ينع تصدير نفس الكمية من النحاس كالعهد السابق هو أن الكمية التي كنا نحصل عليها ونصدرها لكم كانت تؤخذ بدون رضانا أو رضا أصحابها ودون موافقتهم فى معظم الأحيان،

الاجابة :

ان ما كان يجذب رءوس الأموال هنا هو حرية التجارة والبيع والشراء في التوابل على مدار السنة في مصر بأسعار ملائمة لكل من المشتري والبائع ولكن الآن بعدما أصبح التاجر مرتبطا بالأسعار في « المدة التالية » بالسعر الذي يحدده السلطان قبل انتهاء « المدة » القائمة فان أى تاجر أصبح لايجازف بإرسال أمواله وتجارته الى مصر اذ ليس بإمكانه بذلك أن ينظم أعماله التالية وفق ارادته . وعلى أى حال فان البهار الذي يكون الموارد الرئيسية في تجارتنا معكم والذي يجذب الكثير من التجار ورءوس الأموال لم يعد بإمكاننا شراء كميات كبيرة منه بسبب المبالغة الشديدة في الأسعار في مصر .

السؤال الثاني عشر :

اعتاد البحارة لدى وصولهم طرفنا بفسنهم الموسمية عرض مختلف أنواع السلع التي يسلكونها كالأصواف والشع وكلها لا يقل ثمنها عن ٥٠٠ر.٥٠٠ دوكات ومبيعاتهم لنا بالنقد وبهذه القلوس يشترون حتى نهاية « المدة » توابل دار الذخيرة الشريفة ومتاجر المغرب .. ونحن كنا نمنحهم مطلق الحرية في هذا الخصوص ، أما الآن فلا يمكن الشراء طالما أن « المدة » انتهت وهذا ما يزيد في استيائنا وتذمرنا .

الاجابة :

انه لنفس الأسباب السابق ذكرها لا يسكن اخضاع أو اجبار البحارة لأن يعملوا الا بنفس الأساليب التي يعامل بها التجار ، وفي الواقع ان كثيرين منهم يشترون ليس فقط لحسابهم الخاص بل كذلك لحساب آخرين من التجار الذين لا يتسكنون من المتاجرة بأنفسهم حسب القوانين الموضوعة وليس هناك من الأسباب ما يجعلنا نفرق

وفي مقابل ذلك كنا نعطيههم مواد ثمينة كالتوابل — أما الآن فان التجار لا يطسئون في معاملة طيبة أو في الحصول على ما يطلبون مقابل نحاسهم ولا يطسئون الى أنهم سيبيعون بالأسعار التي يطلبونها لذا لا يتاجرون في النحاس بعد . وعلينا كذلك أن نضع في اعتبارنا مسألة السلام والعلاقات الطيبة مع الألمان وحرية التجارة معهم .

السؤال العاشر :

كان يصلنا كل عام من ٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ طن من الزيت وأكثر ، وهذا العام لم يصلنا أكثر من ٥٠٠ طن .

الاجابة :

ان ما يمنع تصدير الكمية المذكورة هو تذبذب الاتساج ، فالزيوت مثلها مثل منتجات الأرض الأخرى ويسرى عليها ما يسرى على غيرها فقد يتجمع في ستة ما كميات كبيرة وقد يقل في سنوات أخرى . ان قاعدة نجاح وثرء التجارة هو البيع بحرية سواء كانت الحرية في الأسعار أو في نوع البضائع واذا لم يتبع الفرد هذه القاعدة ولم تتح له فرصة البيع بحرية فلا كانت تجارة ولا كان ربح ..

السؤال الحادى عشر :

كان يصل كل عام على السفن الموسمية والمراكب الاحتياطية أكثر من ٣٠٠٠٠٠ من النقد متعددة الأنواع .. أما الآن فلا يصل بالأكثر الا ٢٤٠٠٠٠ دوكات من النقد فى عامين ..

بغير العدل بين الجميع فى التجارة - ان القانون والقاعدة العادلة
يجب ان تسود بين كل المواطنين .

السؤال الثالث عشر :

كنا نرى من قبل فى المعتاد أربع سفن موسية للبندقية تتخذ
مركزها باستمرار على ساحل جزيرة قبرص وسوريا بقصد تعذب وفرد
سفن القراصنة ولكن نلاحظ أن القراصنة الآن يتسبون بالماء من هذه
الجزيرة . بل انها تعتبر وكرا للقراصنة البحريين ونقطة ارتكاز لهم فى
اغارتهم علينا .. بل ان الأهالى بالجزيرة يسونونهم بالماء والميرة وكثيرا
ما هاجبوا موانينا عند دمياط ورشيد ويحصلون ما يعشرون عليه
وما ينهبونه كما يأسرون الأهالى .

الاجابة :

فيب يخلص بجزيرة قبرص فاننا لم نهمل أى مادة تعهدنا بها فى
أى وقت فى أى اتفاق معكم . ومنذ عامين لو لم نستخدم الحزم
والشدة فى سياستنا فى الجزيرة لأصيب الجميع بأضرار جسيمة . فيما
يتعلق بباقي الشكوى فان حكومة الجمهورية سترسل لنائبها فى
الجزيرة ونأمل ألا يحمل السلطان هما لذلك بعد الآن .

السؤال الرابع عشر :

كل الذهب والفضة الذى يصل لالاسكندرية سيائك أو عملة
لا تباع الا لدار الذخيرة الشريفة وبسعر السوق الجارى . واذا أراد
بائع هذه المعادن رفع أثمانها فهو فى ذلك السيد المطلق على الأقل
اذا لم يرد استبدالها بتوابل من تجار الاسكندرية وفى هذه الحالة
يؤذن للتجار بترك ما لهم فى دار الذخيرة بدون أى خوف من أن
يخلص منه شئ حتى يتم لهم الشراء ضمانا لأموالهم وضمانا لتجارة
وأموال التجار بالاسكندرية ، وليكن معلوما أنه اذا حدث أن أى

بندقى حاول بيع الفضة لغير دار الذخيرة الشريفة الخاصة بها - فان
هذه الكمية تصادر لصالح دار الذخيرة الشريفة .

الاجابة :

اذا كان هناك أى شئ يجب أن تترك حرية تجارته وان تسهل
عمليات تداوله والتعامل معه وبه فهو لا شك الذهب والفضة . واذا
أجبر أولئك الذين يقومون ببيعه على خطة معينة ولفرد دون فرد فمعنى
هذا أن الحرية متعدمة تماما ، وهذا يجعل التجار يحجبون عن الحضور
... ولذا فانه من الأفضل أن يتركوا أحرارا فى عرض سلعهم حسب
رغبتهم وبيع فضتهم حسب السوق الجارية . ويهنا هنا فى ذلك
الاهتمام بالموازين كما هو متبع فى البندقية والمسدن الايطالية
الأخرى .. أما السبب فى نقص الفضة عما كانت عليه من قبل فهو لأن
الحرب قد وضعت أوزارها بعد أن وضعت عراقيل ازاء اخراجها من
المناجم ، وأما لأن الكمية كبيرة منها قد مرت الى لشبونة لاستخدامها
فى شراء توابل الهند وبهارها بأسعار رخيصة ، ونأمل ألا يفهم أى فرد
من العامة أن السلطان له اعتراض على هذا الأمر .

ملحق رقم (٨) أ

الاتفاقيات بين السلطان « قانسود الغورى » والبندقية عن طريق
السفير البندقى « تريفرانى » فيما يتعلق ببيع ال ٢١٠ أحمال من التوابل
احتكار خاص السلطان .

ان تجار البندقية المتفاوضين مع رجال السلطان ، بناء على حث
السلطان لهم لاتمام المهمة قد انتهوا فيما بينهم على اعطاء السلطان

مبلغ ٦٠٠٠ أشرفى ثلثا لبهار « ثلاث سنوات » مقدما بمعنى أن قيمة توابل السلطان لكل سنة هي ٢٠٠٠ أشرفى . ولما كان السلطان يبدو غير موافق فإن هيئة المفاوضات بعد أن حاولت واستخدمت عدة طرق وافقت بعد جهد جهيد على الشروط أدناه ، وذلك بحضور القنصل والتجار الذين يتاجرون بالاسكندرية .

الاتفاقية

١ - فيما يختص بالمائتين والعشرة أحمال من البهار : اذا جعل السلطان ثمن الحمل الواحد ٨٠ دوكات طبقا لاتفاقيتنا وطبقا لأوامر الجمهور فالتنا نجد أنفسنا مضطرين لأن نقوم بالتنفيذ .

٢ - اذا كان سمو السلطان لا يريد التعامل معنا على أساس هذا السعر اما لأن تجارة البهار لم تعد مربحة واما لأنه يستطيع أن يفعل مايشاء : فإن البهار لا يساوى فعلا الا ٤٠ دوكات للحمل الواحد ونحن لا ندفع الزيادة الا لخاطر السلطان .

٣ - أما باقى الشروط فالتنا تترك الحرية الكاملة للسلطان لوضع ما يلائمه من شروط مع عدم الاضرار بنا وعلينا الموافقة والتنفيذ على أنه اذا وافق السلطان على طلبنا ولم يعمل على رفع السعر عن ٨٠ دوكات للحمل الواحد ، فإن الجمهورية توافق على المتاجرة بما قيمته ٥٠٠٠ أشرفى لكل مدة سنويا ، من السفن الموسمية التى تصل من البندقية الى الاسكندرية وتدفع مقدما قيمة ثلاث سنوات وهو ١٥٠٠٠ دوكات أشرفى .

٤ - وقبل أوبتنا لوطننا فالتنا تأمل فى سمو السلطان الأفخم بأن يسمح وهو العادل بأن يأمر رعاياه وموظفيه بعدم اجبار تجار

البندقية على شراء البهار رغبا عنهم لا بطريق المقايضة ولا بالنقد والا يجبر على أن يشتري بسعر حدد من قبل سوى سعر البهار الخاص بالسلطان عن طريق الذخيرى عامل دار الذخيرة الشريفة أى ٢١٠ أحمال السابق تحديد سعرها . وبعد الانقضاء للثلاث سنوات المذكورة أو الثلاث مدد المذكورة سنقوم بعمل ترتيب جديد ان شاء الله . وكما نود أن يكون التحسين كاملا فى الأمور كلها ، فإن كل شئ سيسير حسب راحة وسرور السلطان .

٥ - اذا حدث بطريق المصادفة أنه بعد هذه الثلاث مدد أن السلطان لم يوافق على الاستمرار بالعمل على أساس سعر الحمل ٨٠ أشرفيا سلطانيا فإن حكومة الجمهورية فى هذه الحالة لا تكون ملزمة بأن تحلل المبلغ الذى تدفعه فى كل مدة ٥٠٠٠ أشرفى كسابق العهد لكل مدة وبنفس الشروط المعمول بها الآن .

ملحق (٨ ب)

ان التجارة فى هذا الوقت المبكر من القرن ١٦ وأواخر الحكم الممالكى بدأت تتدهور حتى ان الدخل السلطاني قل بدرجة كبيرة . وساء السلطان برغم الاتفاقية السابقة أن تصل تجارته لهذه الدرجة وأخذ يسترجع العظمة والدخل العظيم اللذين كانا لتجارته من قبل ، وجأ بالشكوى واتخذ تدابير جديدة فقدم طلبات للسفير البندقى نريفزانى على شكل أسئلة ويرد السفير باجابات .

السؤال الأول أو الطلب الأول :

اعتاد البنادقة بعد وصول سفنهم الموسمية البيع والشراء بطريق المقايضة لأهم أجزاء حمولتهم بعد أن يوافق القنصل على ثمن توابل الذخيرة الشريفة ولكن هذا لم يتم فى السنوات الأخيرة .

الاجابة :

اجابتنا على ذلك أننا سنعمل جهدنا على انتهاء كل المسائل الخاصة بالسلطان مع مدير أعماله على أن تكون هي في المقدمة على كل الشئون .

السؤال الثاني :

فى كل عام يظهر للبندقية ثلاث سفن موسية وهى بعد أن تبحر جينه وذهابا عدة مرات على طول الساحل الافريقى ، تحبل التوابل من الاسكندرية الى بلاد المغرب لحساب تجار الاسكندرية وكذلك للجزر القريبة فان هذا كان يؤدى لمنفعة كبيرة لدار الذخيرة الشريفة والجبرك وتجار الاقليم .

الاجابة :

سنعمل على ارسال السفن التى ذكرتموها طالما أن ليس هناك أى خطورة فى الطريق .

السؤال الثالث :

ان البنادقة لدى وصولهم الى الاسكندرية بالفواكه كان من عادتهم ترك جزء منها لمن هم فى خدمتهم بسوجب عليهم ...

الاجابة :

سنعمل على ابقاء هذا طبقا للعادات القديمة .

السؤال الرابع :

كانت العادة أنهم يحصلون كل عام ما حصوله ٢١٠ أحمال من البهار بسعنى أنهم يحصلون على ٢٠٠ حبل من توابل السلطان وعشرة أحمال من عامل الخزينة هذا هو التقرير الذى رفعه الينا القاضى علاء الدين وكيل دار الذخيرة الشريفة . هذا لا يتم الآن .

الاجابة :

ان مبلغ ال ٥٠٠٠٠ أشرفى تدفع فى كل مدة لصالح ال ٢١٠ أحمال من البهار دون تجزئة .

السؤال الخامس :

ان السفن الخاصة بالبنادقة تحبل كل أنواع المتاجر من نحاس وفضة وهى غفل والزئبق والزنجفر والجوخ والقصدير والقطيفة والزيت والغراء .. وتصل السفن الخاصة بكم حوالى نهاية العام لكل أنواع السلع فيسير البيع والشراء بطريق التبادل فيما يختص بالتجار الذين يشترون نقدا ويتم الموافقة على دفع الشئ قبل انقضاء فترة المدة .. والآن لا يصلنا الا عدد محدود من السفن .

الاجابة :

أشرنا الى هذا سابقا . وفيما يختص بهذا الموضوع فقد وافقنا عليه .

السؤال السادس :

تصل كل عام فى المعتاد خمس سفن موسية للبندقية مع اثنتين آخريين وبعض السفن الصغيرة ، وبعد انتهاء المدة ورجيل السفن الموسية تبقى بالاسكندرية سفن الزيوت والسلع الأخرى ، ومعها الفضة وتبلغ قيمة السلع على وجه العموم ٣٠٠٠٠٠٠ أشرفى ويواصلون بعدئذ البيع والشراء حتى عودة السفن الموسية . والآن لا تبقى على أكثر تقدير من السلع ما قيمته ٢٠٠٠٠٠ أشرفى ولا يصل أكثر من ٣ سفن موسية ومعها بعض السفن الصغيرة .

الاجابة :

لعل العجز البادى هنا يرجع الى الحروب .. وهذا خارج عن ارادتنا .

ملحق رقم (٨ ج)

تعليمات

- ١ - لا يستطيع أى فرد من الفرنجة أن يبتقى بالقاهرة أكثر من ثلاثة شهور وألا يشتري من التوابل ما يشاء باسم غيره « يهودى أو مغربى » انما له أن يشتري ما يشاء باسمه الخاص .
- ٢ - فى حالة مخالفة هذا القانون ، فإن السلع المشتراة تصدر لحساب « دار الذخيرة الشريفة » ، وعلى الفرنجى المخالف أن يتحمل القصاص الذى يفرضه عليه السلطان ، وليس من المصرح لأى فرنجى أن يتزوج من القاهرة أو يبتقى بها كجاسوس ، وعلى الجميع أن يعرفوا التعليمات لدى وصولهم بلادنا .
- ٣ - ان الأقمشة التى تحصل الى مصر كانت فيما سبق متساوية الأطوال جبيلة المنظر أما الآن، فهذا النظام يسرى على الثلاث أذرع الأولى فقط من الثوب أما الباقي فيدعو للثراء حقا .
- ٤ - يبدو أنكم تلفون الثوب دون تنديته حتى يبدو أطول ومرنا ، ولكن بعد أن يفصله المصرى ويغسله ينكش وينقص ، ونقصه هنا نقص مزر - نرجو مراعاة ذلك فى المستقبل .
- ٥ - للعربى الحق فى رد الثوب الذى يباع له دون أن يبتل وإذا قبل شراءه على حاله دون بله فلا دخل لنا فى ذلك .

ملحق رقم (٨ د)

بعض النظم التجارية الخاصة بتجارة البندقية فى الاسكندرية بناء على طلب القنصل وتجاره بالمدينة .

يجب مراعاة الآتى :

- ١ - بعد وصول سفن البنادقة الموسمية الى ميناء الاسكندرية تتم

أعمال البيع والشراء حسب الاتفاقيات السابقة ، ثم يبقى تجار البندقية مدة ثمانية أيام لدفع أموال دار الذخيرة الشريفة ووسق السلع التى اشتروها . وبعد ذلك يتصل حاكم الاسكندرية مع مدير أعمال السلطان ، ويكتبون لبلاط السلطان بانتهاء الأعمال المطلوبة ويطلبون تحديد موعد الرحيل فإذا جاء التصريح يطلق للبنادقة حرية السفر ، هذا اذا لم يكن هناك ما يعترض عليه أو اذا رغبوا هم فى البقاء .

- ٢ - كل المعادن الشينة (النقدية) سواء كانت عملة أو خام التى يحضرها البنادقة لابد من دفع الرسوم الجبركية المفروضة عليها للسلطان لا مكان ادخالها الى البلاد ثم بعدها يمكن البيع والشراء لمن يريد من البنادقة بىتنهى الحرية ويحظر على البنادقة بيع هذه السلع المالية على ظهر السفن الموسمية أو على أى سفينة أخرى عادية .

- ٣ - كل الأعمال التجارية التى تتم تقدا تكون قيسة السيرة المستحقة عليها هى ١٠٪ وإذا حدث أى تغيير تسيير ١١٪/ فيما يختص بالتوابل التى لم تحدد أثمانها (الحرة غير ال ٢١٠ أحمال توابل شريفة) يسرى عليها سعر السيرة الجارى تداوله .

- ٤ - لا يجبر أى بندقى على بيع تجارته بالدفع المؤجل سواء كانت سلعة أو عملة أو معدنا ، كما أن العامل المختص لا يبالغ فى عمليات السيرة الصغيرة بأكثر من ٤ مدين لكل ١٠٠ دوكات أما حق الترجيىان فلا يدفع الا بعد شراء التوابل وانتهاء فترة المدة وحقه لا يزيد على ٤ مدين لكل ١٠٠ دوكات (Medins)

- ٥ - للتاجر البندقى حق البيع والشراء بحرية - أما من يصير منهم تسجله لدى القبان (ديوان القبان : Gaban) فلا يمكن ابطاله

أو تسليه أو منعه من المتاجرة ، أما من لم يسجل فمن حقه أن يطالب بتسجيل اسمه .

٦ - للقنصل البندقي الحق في البيع لحسابه الخاص نقدا في حدود ألف دوكات سنويا بالنقد .

٧ - ما يدفع للقنصل يخضع للقانون والنسبة التي يحصلها القنصل لحسابه تعرف باسم Honoraris (وتعرف بالعريضة باسم « العلوفة - الذخيرة » وأيام المسالك كانت تقابل « جامكية » وكانت بدايتها في معاهدة بين جمهورية بيزا وأمير تونس وفيها يدفع التجار جعلا معينا لصالح القنصل) (في مرسيليا كانت الغرف التجارية تحصل رسا كهذا لصالح القنصل وينص عليه في المعاهدات التجارية) .

٨ - يحق للقنصل ازال النيذ الخاص باستعماله واستعمال مواطنيه الخاص .

٩ - لا يجبر على تاجير مراكبنا أو شحنها أو تفريغها بالقوة وبدون ارادتنا وإذا واجهت سفننا متاعب وتأخير من جانب تجار المغاربة خلال الرحلات الاحتياطية التي نجبر على القيام بها خلال المدة فإن جمهوريتنا ليست مسئولة عن هذا .

١٠ - اذا أساء أحدالفرنجة لأحد المسالك أو لمغربى أو لأى عربى أو لأى كائن ما كان فلا تسأل أفراد جاليتنا عن هذا اطلاقا .

١١ - للتجار البنادقة مطلق الحرية فى اجراء ما يرونه لازما لهم من اصلاحات خاصة فى فندقهم بدون واسطة أحد لأن التكاليف حينئذ تكون قليلة وكذلك يحق لهم اصلاح مخازن الجمارك الخاصة بسلعهم .

١٢ - النيذ الذى يصل الى الاسكندرية هو لصالح مواطنينا ، وإذا صدر للقاهرة تدفع رسوم قدرها سبع دوكات لكل من لصالح الوالى والوزير على أساس أننا سيكون بإمكاننا أو ستمكن من بيعه بالقاهرة وأجوارها بدون مضايقات .

١٣ - النيذ الذى يدخل الاسكندرية تدفع عنه الرسوم المطلوبة (للبيع العام) وإذا أوصلناه الى القاهرة بواسطة النيل ففى هذه الحالة لا يدفع عنه أى رسم لا فى القوارب ولا فى السفن ولا جسر ك القاهرة حتى وصوله للقاهرة .

١٤ - كل العمليات التجارية التى تتم بين بندقى وعربى وتسجل فى جسر ك القبان لا يحق لأى فرد ابطالها أو اعاقه سير اجراءاتها بأى حجة من الحجج .

ملحق (١٩)

اتفاقية خاصة بتجارة البندقية فى ميناء طرابلس بالشام .

١ - لا نجبر على شراء السلع بالقوة حتى ولا القطن ما عدا بالطبع ما يخص السلطان والحاجب أو من يحل محلها .

٢ - نعطى مطلق الحرية لشراء الموجود من المواد حسب حاجتنا .

٣ - ليس بإمكاننا اعطاء الحاجب أكثر من بالة من الجوخ كل سنة هدية ، ومثلها لكل بيت تجارى . سنراعى أننا اذا تسكنا من احضار كمية أكبر من النسيج للاستهلاك الخاص والبيع فسنزيد من نصيب الحاجب ولو أن فيه امتنانا لنا .

ملحق رقم (٩ ب)

عريضة مقدمة للسلطان من قنصل وتجار دمشق ووافق عليها الأمير نائب السلطان في دمشق

١ - لا يسمح لليهود بالحضور الى سواحل الليفنت الشرفى بقصد شراء التوابل أو أى سلعة أخرى بالمقايضة أو بالنقد . وإذا رغبوا فليكن ذلك في دمشق حتى لا تضيع على السلطان رسوم الجمارك وغيرها .

٢ - لتجار البندقية الحق في التجول في البلاد بحرية للبيع والشراء بدون أن يعترضهم أحد أو يتدخل أى فرد في أعمالهم كما أنهم لا يدفعون من الرسوم الا المفروض ولا يجبرون على دفع مالا عن غيرهم من التجار .

٣ - لنائب السلطان أو لناظر الخاص فقط الحق في المساءلة والتدخل في شئون الفرنجة واعطائهم الأوامر .

٤ - لا يحق لأى حاكم أن يعاقب البنادقة أى عقاب كان : على الأقل بعد أخذ اذن من السلطان نفسه .

(تحدث البنادقة كذلك عن الفضة التي يحصلها تجارهم لدار السك ، مما يوحى بوجود هذه الدار في دمشق) .

ملحق رقم (٩ ج)

اتفاقية خاصة بالتجار البنادقة المقيمين في حلب

١ - القاضي كاتب السر في حلب ألزمت في الرسوم الأولى المطاوعة منا بما قيمته ٢٥٠٠ دوكات وأجبرنا على دفعها بالقوة .. ولكن لا نقبل بعد الآن أن ندفع أموالا من هذا النوع وبهذه الطريقة .

٢ - يجب أن يقف دائنونا أمام القاضي أو الحاكم بلا استثناء لأى فرد مهما كان مركزه .

٣ - يحق لنا توزيع سكر قبرص في سوريا دون اعتراض مع مراعاة القوانين المحلية .

٤ - ترد للسيد زينو القنصل (زانون Zanon) والذي كان قد اتهم في حادث التجسس لصالح الشاه اسماعيل الصفوى ، ٣٠٠ بالة قطن التي أخذت منه لضمانه أحد الفرنجة الذي مات ، ولا يدفع على هذا القطن أى رسوم لأنه من العدل ألا يدان فرد بسبب خطأ غيره . وفي بلادنا لا يسأل الأب عن خطأ ابنه ولا يؤخذ الابن بجريمة الأب .

٥ - تبقى لنا حسب المعتاد حرية وأمان كاملين داخل فندقنا طالما أننا لا نقلق ولا نثير غيرنا .

٦ - قد يحدث أحيانا أن يفلس بعض المدينين لنا ويعلن الافلاس أمام القاضي الوطنى فيلزم من الآن أن يتم ذلك بحضور صاحب المال البندقي والا فان هذا الاعلان يصير لا قيمة له بالنسبة لنا ، ويصبح مالنا لا يزال في عنق المدين .

٧ - منذ عامين فقد أحد تجارنا مبلغ ٢٠٠٠ دوكات وبما أن الحكام ملزمون بحماية وسلامة الأقطار التي يحكمونها ومسئولون عن الأمن فيها فاننا نطالب برد هذا المبلغ من الحاكم المتصرف في مقاطعتنا والا فجميع السكان في المنطقة مسئولون عن سداد هذا الدين .

٨ - الدارصيني - القرفة - لا نشتره الا مغربلا ، أما غير المغربل فلا ندفع عنه الا ٥٠ أشرفيا لكل عيوه في كميات احتسار

السلطان ، أما الباقي من السوق الحر فالبايع مسئول عن غريبته
أولا .

٩ - نصف عوائد الدلالة أو السيرة للسمسار والنصف الآخر
لترجبان السلطان .

١٠ - لا يسمح للأجانب من العرب أو المغاربة أو الفرنج المسروح لهم
باقامة دائمة في البلاد أن يحوزوا محلات لبيع الجوح .

١١ - لا يمكننا أن نزيد من عوائد الخفر أكثر من ٤ دراهم للفرد
الواحد .

١٢ - لا يحق لأى فرد وطنى أو يهودى أن يقوم ببيع التوابل الا اذا
كان مصرحا له بذلك من قبل .

١٣ - اذا أدين أحد الفرنجة لأمر من الأمور فلا القنصل ولا باقى
البنادقة مسئول عن أخطائه أو عقابه .

١٤ - اذا أدين أحد الفرنجة لأمر بالقضاء المحلى هو المسئول عن
محاكمته .

١٥ - يصرح للبنادقة باقامة الصلاة فى منزل القنصل على أساس أنها
عادتهم من قبل .

١٦ - لا تجبر سفننا على حمل السلع لتجار آخرين أو أفطار أخرى
كما يسمح لنا بالسفر وقتما نشاء .

١٧ - اذا حدث أن غرقت إحدى السفن للبنادقة أو السفن التابعة
لأحدى الدول التى تعتمد فى تجارتها على البندقية فيصير
انقاذها وانتقاذ حمولتها وردها لأصحابها . (منذ وقت طويل
وغنائم الغرق ملك للأمير التى تحدث الحادثة فى حدوده) .

١٨ - لا يؤخذ الوالد بجريرة الابن ولا الابن بجريرة الوالد الا اذا
كانت هناك صلة بين جريستها .

١٩ - يحق لتجارنا أن يبيعوا السكر كسابق عهدهم .

ملحق رقم (١٠)

المعاهدة بين السلطان سليم الأول العثمانى وطائفة البنادقة فى
تغر الاسكندرية بعد فتح العثمانيين لمصر . بتاريخ ٢٢ من المحرم .
٩٢٣ هـ / ٤١ من فبراير ١٥١٧ م .

ملاحظة : التسلية فى المعاهدة موجهة الى حاكم المدينة - مدينة
الاسكندرية وموظفيها العموميين ومفتشى وضباط الشرطة كى يحاطوا
علما بما تم الاتفاق عليه بين المتعاقدين على الامتيازات السابق منحها
لهم من أيام المماليك بعد موافقة السلطان سليم عليها .

المادة الأولى : جميع البراءات المنسوحة للبنادقة من قبل صار
الموافقة والتصديق عليها . رعايا البندقية يعاملون بالعدل ويقابلون
بترحاب من الجميع . لا يحق لأى فرد كان أن يمينهم أو يتكبر عليهم
فى الموانى المصرية عامة . من حقهم البيع والشراء والأخذ والعطاء
ولا يدانوا لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الأمم الأخرى بالمدن المصرية
ولا يدانوا لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الأمم الأخرى بالمدن المصرية .
يعلم هذا لجميع القضاة والهيئات المسؤولة وليس من حق أى فرد
الخروج على هذه القوانين كما يجب معاملتهم حسب الأصول والعادات
المرعية بدون أى تغيير أو تعديل .

المادة الثانية : عدم تكدير البنادقة أو الاستيلاء على مستلكاتهم
أو متاجرهم بالقوة أو على مراكبهم أو ما فى داخل مخازنهم ، كما

لا يحق لأى فرد أن يجبرهم على البيع اذا لم يوافقهم على ذلك ،
كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادية أو لا لزوم لها .

المادة الثالثة : بإمكان القنصل أن يبيع ويشترى بالنقد بدون
حدود .

المادة الرابعة : يحصل القنصل على مرتبه مجندا كل أربعة
شهور .

المادة الخامسة : القنصل دون سواء هو الذى يباشر الشؤون القانونية
والقضائية لمواطنيه ويبت فى الأمور لصالحهم . أما من يرفض الانصياع
لحكم القنصل ويلجأ الى القضاء الوطنى الاسلامى لينقض قانونا
أو حكما أصدره القنصل ، فلا يستمع له ولا يحق للقاضى استقباله
أو نظر شكواه وعليه أن يعيده الى قنصله ، وإذا رغب القنصل فى طرد
أحد البنادقة فعلى القاضى أن يعينه فى ذلك . كما منح القنصل حق
إبداء رأى فى سفر الأفراد على سفن بلاده ، ولا يحق لأى فرد كان
أن يغادر الاسكندرية على ظهر احدى سفن البندقية ليعود لوطنه
أو يبارحها لأى قطر شاء الا بعد الحصول على تأشيرة خروج من
القنصل نفسه .

المادة السادسة : اذا وصلت أى سفينة من البندقية للاسكندرية
أو باسم البنادقة فلا يحق لأى موظف أن يرتقيها ويحصل منها على
ما يريد من معلومات أو بيانات ولا أن يحتك بأى فرد من أفرادها
ويسمح لهم بصعود السفينة فى حالة الشراء فقط ، ويدخل ضمن السلع
المشتراة « السلع التى تحلها السفن » العسل ، والفاكهة .

المادة السابعة : ممنوع على أى فرد سواء كان حاكم المدينة أو عين
من أعيانها أو تجارها أو أى فرد من أفراد الشعب أو لقباطها على سفن

الميناء أن يستولوا على أى سفينة للبنادقة تصل للميناء ، أو على
حمولتها أو قلعوها أو مجادينها لأى سبب سواء كان قرضا أو شراء .

المادة الثامنة : يصير تنفيذ كل التجديدات أو المبانى اللازمة
أو الأعمال الضرورية فى فندق البنادقة وإذا رغب القنصل فى بناء
مبنى جميل خاص به فله ما يشاء وممنوع منعا باتا التعرض له أو رفع
أجور العمال أو أسعار المواد اللازمة للبناء ، وممنوع على أى فرد
مضايقتهم أو التعرض لهم اذا رغبوا فى استخدام صناع من البندقية
أو من الأجانب دون الوطنيين .

المادة التاسعة : اذا رغب القنصل فى مقابلة أى فرد من الحكومة
فى دواوينهم وامتنطى سهوة جواده أو رغب فى الخروج للحدائق العامة
أو أى مكان من أطراف المدينة فله أن يفعل ما يشاء وليس لأى فرد
أن يعترضه .

المادة العاشرة : السلع التى تتعرض للفرق يصير انقاذها وترد
لأصحابها البنادقة أما السلع التى تقذفها الأمواج الى الشاطئ نتيجة
الغرق لاحدى السفن فهى ترد لأصحابها ان عرفوا أو أثبتوا شخصياتهم
وملكياتهم لهذه السلع أو ترد للقنصل . والسفن التى تصل المشاطىء
سليمة بعد انقاذها يجب صيانتها .

المادة الحادية عشرة : السفن التى تلجأ للسيناء لسوء الأحوال
الجوية ولا ترغب فى تفريغ حمولتها لها أن تتم رحلتها اذا لم يكن
عليها سلع للاسكندرية .. وإذا كان عليها سلع خاصة بالاسكندرية
فلا يحق لها أن تفرغها فى أى ميناء الا فى الاسكندرية نفسها . وإذا
كانت تحمل سلعاً لم ينص عليها فى المعاهدات ولا يتاجر فيها فى
الاسكندرية فتسنع من التعامل أو الملاحة على طول السواحل المصرية .

المادة الثانية عشرة : العلاقات السياسية .

إذا حدث أى حادث لأحد رعايا السلطان فى البندقية أو الجزر التى تقع تحت سيطرتها فلا يسأل القنصل عن هذا . كما أنه لا يتحمل النتائج المترتبة على الحادث . أما من يكون مديونا لأحد رعايا السلطان فإنه يحجز حتى يوفى الدين ويسرى ذلك على الضامن ، ويجب أن يكون جسيح رعايا السلطان فى أمان تام فى موانئ البندقية والبلاد الخاضعة لها .

المادة الثالثة عشرة : يعفى القنصل البندقى من دفع ضريبة الايراد أو ضرائب أخرى ما عدا فى حالات صدور أوامر خاصة بذلك من السلطان أو من القضاء .

المادة الرابعة عشرة : إذا أسر القراصنة على أسر سفن للبنادقة ثم جاءوا لبيعها فى موانئ السلطان فمحظور على أى فرد شراؤها أو التعامل مع القراصنة ويجب تحرير السفينة وما عليها من متاجر ووردها للتجار ..

المادة الخامسة عشرة : إذا حدث خلاف بين عربى وأجنبى سواء كان من البنادقة أو من غيرهم أو القنصل أو تاجر أو أى مواطن عادى أو عضو فى وكراتهم فلا يحق لأى فرد اهانتته أو الحاق الضرر به .

المادة السادسة عشرة : كل هذه المنح والشروط والامتيازات الممنوحة للبنادقة تسجل فى سجل خاص وينعرف عليها كل مسئول بالولاية وكل من له علاقة بالأجانب أو بالحكم فى مصر .

المادة السابعة عشرة : للقنصل الساطلة التامة إذا رغب فى أن يقيم نائبا عنه «قنصل بالنيابة» أو نائب قنصل Vice-Consul فى البرلس وله أن يفعل ذلك كلما شاء دون استئذان السلطان .

المادة الثامنة عشرة : عرض قنصل البنادقة ، أنه حسب المعتاد،

كانت تصل بعض السفن من كريت أو أقطار تابعة للبندقية تجلب كميات من زيت البترول اللازم للسفن وكان المعتاد يبيعها على السفن ولكن السلطات المصرية ترفض هذا البيع لكى تبيع ما لديها فى مستودعاتها هذا الأمر يجب أن يتدارك ، فسفن البندقية تستطيع من الآن فصاعدا بيع هذا الزيت دون انزاله للساحل ولا يعترضها أى فرد ، وفى حالة وصول هذه السفن الى بولاق تتبع القواعد المرسومة فى هذا الميناء .

المادة التاسعة عشرة : أشار القنصل الى العبيد والفقراء الأجانب

الذين يعيشون فى الاسكندرية واعتادوا الورود الى فندق البنادقة لكى يأكلوا .. وكان اذا مات أحد العبيد بالفندق، والقنصل مطالب بدفع ثمنه ، وكان الثمن الذى يفرض مرتفعا . هذا يصير ممنوعا من الآن فصاعدا .

المادة العشرون : محظور على موظفى الجمرك والجمالىين

والكشافين مضايقة البنادقة فى حالة اعادة تسليهم الفواكه أو سلع أخرى تحملها سفنهم .

المادة الحادية والعشرون : فيما يتعلق برسوم وأجور الجمالىين

والكشافين فيدفع دينار واحد من كل سلة توابل مسلوقة ويحصلها الكشاف البحرى ويحصل الجمال على دينار عن كل سلة يحصلها .

المادة الثانية والعشرون : انقاص وتخفيض الضرائب التى تدفع

عن يسوت من الأجانب فى بلاد السلطان .

المادة الثالثة والعشرون : الافرنجى الذى يرد للقاهرة من

الاسكندرية أو رشيد أو دمياط لا تحصل منه ضرائب لا فى حله ولا ترحانه .

المادة الرابعة والعشرون : الساسرة الذين يعملون لدى الوسطاء

التجارين لهم حق استخدام تراجعية ولا يسع عنهم معاونة التراجعية
الرسميين لقاء رسوم معينة .

المادة الخامسة والعشرون : فى حالة نقل البضائع المستوردة
أو المصدرة من الجبرك للسفن وبالعكس لا يطالب القنصل ولا التاجر
بشيء ما كما لا يحق منع التجار من توزيع وبيع الفواكه المحفوظة
والمسكرة والطازجة للسافرين .

المادة السادسة والعشرون : لا يجوز اطلاقا مضايقة القنصل أو
التجار أثناء تجوالهم وتنزههم فى حدائق الاسكندرية وعلى ضفاف
القناة أو فى أى مكان آخر

المادة السابعة والعشرون : من حق التجار البنادقة ممارسة
التجارة البحرية وتنفيذ التعليمات والعمليات التجارية مع جميع الفئات
من مسلمين ويهود ومسيحيين بلا أدنى شرط أو قيد ، ولا يجوز منع
أى ترحيل من مباشرة أعماله أو تسجيل أى عقد أمام القاضى والقنصل
وتجاره ووكالاته التجارية وكل من يأوى الى فندقه تجرى عليه واجبات
الحماية من السلطان .

المادة الثامنة والعشرون : للبنادقة حق شحن وتوزيع وتفرغ
سلعهم فى قواربهم وسفنهم الخاصة .

المادة التاسعة والعشرون : قيام الكشافين بعملهم فى حالات
الشحن والتفريغ يكون بسوانقة ومرافقة البنادقة . وما يفسده أو
يستهلكه الحسابون يجب أن يعرض عنه البنادقة .

المادة الثلاثون : لا يتصدى أى فرد للقنصل أو لتجار البنادقة
الا عن طريق القضاء وأمام المحاكم ويراعى ألا يؤخذ الابن بجيرة الأب
ولا الأب بجيرة الابن الا اذا كان أحدهما ضامنا للآخر شخصا
وماليا .. أما الديون فاستعادتها تكون حسب الشريعة .

المادة الحادية والثلاثون : جميع التجار ومرافقوهم الذين يصلون
للسوانىء المصرية يعاملون بكل احترام واعتبار من الجميع .

المادة الثانية والثلاثون : قدم قنصل البنادقة فى الاسكندرية
تقريراً ذكر فيه أن تجاره كانوا يعفون سابقا من ضريبة البهار ، ولكن
حكومة الغورى وضعت رسوما جديدة بلغت حوالى ٥٠٠٠ دينار سنويا
تحصل من التجار ، والقنصل يطالب باعادة هذه المنحة منحة الاعفاء ..

(شلت ملاحق عن ارجاع واعادة ما كان لهم من أيام الممالك
من باقى الامتيازات والاعفاءات والاحترام والمعاملة الطيبة والحماية
والرعاية فى كل مكان يحملون فيه) (١٠) •

ملحق رقم (١١)

اتفاقية بين جنوة والسلطان محمد الثانى العثمانى بعد فتح

القسطنطينية ١٤٥٣ والاتفاقية بتاريخ ١١ مارس ١٤٥٤ م

شلت على اتفاقيات سياسية وتجارية واجتماعية وفى المقدمة قامت
جنوة :

١ - بتهنة السلطان محمد الثانى العثمانى بفتح القسطنطينية والأمل
فى ازدهارها فى العهد الجديد .

٢ - تذكر السلطان بالعلاقات الطيبة التى كانت بين الجنوين وأسرّة
السلطان منذ القرن الرابع عشر الميلادى والرغبة فى استمرارها .

٣ - بحث حالة مدينة بيزا وما تتعرض له تجارتها من أخطار واقتراح
وضعها ضمن مجال جنوة التجارى .

٤ - لفت نظر السلطان الى أنه بإمكان تجار جنوة أن يسدوه بما يطلبه

Combe, E., *Precis de l'Histoire d'Egypte*. T. III, p. 6 ff. (Wiet, G.) (١٠)
La Traité : Veneto-Turc. De 1517.

من السلع التجارية والشرقية كالأحجار الكريمة والأنسجة وخلافه
بسرعة وبأسعار معتدلة .

٥ - يدفع الجنويون الجزية بشرط أن يسعوا يدهم على خاصة
بيرا Pera - صيانة لمصالح الطرفين وأن يبقى أحد المبعوثين
فى المدينة ليقوم مقام الحاكم المحلى بالمدينة ورئيسا للبلدية .

٦ - حرية التجارة لرعايا جنوة برا وبحرا فى بلاد السلطان بنفس
الشروط التى كانت لهم على عهد البيزنطيين وسلاطين آل عثمان
الأول كما ترك لهم موانئ ومضايق البحر الأسود مفتوحة طول
العام .

٧ - السماح لجنوة بالحصول على كمية معقولة من القمح من بلاد
السلطان .

٨ - مطالبة السلطان بأن يمنح الجنويين بعض الممتلكات فى بيزا
لاستخدامها ، مراكز رسمية لهم مع تعويض مناسب لتدمير
أموالهم وتجارتهم خلال الغزو العثمانى .

٩ - هدم أسوار خاصة غلاطية .

١٠ - تأكيد امتلاك الجنويين لمنازلهم ومخازنهم وكرومهم ومطابخهم .

١١ - للجنويين الحق فى التجوال وبيع سلعهم فى بلاد السلطان
بشرط دفع الضرائب الجبركية المعلومة .

١٢ - منحهم حق ممارسة قوانينهم فيما بينهم .

١٣ - لهم أن يختاروا من بينهم من يشرف عليهم ويفض المنازعات
وينظر القضايا .

١٤ - وعد من السلطان بعدم أسر أبنائهم والحقاقهم بالانكشارية .

١٥ - لهم كنائسهم الخاصة بهم ولكن يشترط عدم قرع الأجراس .

١٦ - وعد من السلطان بعدم إجبارهم على دخول الاسلام قسرا (١١)

ملحق رقم (١٢)

أولى المعاهدات التجارية بين البنادقة والعثمانيين

بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ بتاريخ ١٨ ابريل ١٩٥٤

نجحت بعثة البندقية يرأسها Barthelomeo Marallo
فى عقد اتفاقية تجارية مع السلطات العثمانية فى القسطنطينية بتاريخ
١٨ من ابريل ١٩٥٤ .

١ - فك أسر البنادقة المحجوزين لدى السلطات العثمانية منذ سقوط
القسطنطينية واطلاق سراح نساءهم اللواتى ألحقن بالحريم
السلطانى .

٢ - تعيين قنصل بندقى ورئيس لجاليتهم Bayle ويعمل كاستشار
وقائم بالأعمال فى كل ما يتعلق بسواطيه فى الشؤون العامة
وال تجارية وآخر خاص بالشؤون القضائية ويكون مركزهم
القسطنطينية .

٣ - يعطى السلطان تعليمات لمحافظ القسطنطينية لكى يذل للبنادقة
ومعتددهم كل الصعوبات التى تعترضهم .

٤ - منح البنادقة حرية التنقل فى بلاد السلطان العثمانى حرية

نسخة من الشروط بين فلورنسا والسلطان قايتباي

بشأن التجارة الفلورنسية في مصر ودمشق وبيروت ١٤٨٨ م
السلطان الأعظم سلطان مصر :

مرسوم بشأن الامتيازات التجارية الممنوحة لطائفة الفرنتيين في
مصر وسوريا بناء على طلب جمهورية فلورنسا ورئيسها الأفخم
لورنزو ديسيدتش والمقدمة بواسطة التجار لمنحهم امتيازات مثل
ما للبنادقة في بلادنا ...

بوصول التجار الفلورنسيين (الفرنتيين) الى بابنا بخطابات
من دولتهم الفخيمة ومن رئيسهم لورنزو الفخم علمنا من هذه الخطابات
رغبة طائفة الفرنتيين العودة للتجارة في بلادنا ، ومعنا وخاصة
بالاسكندرية ودمشق وكافة موانئنا وبلادنا كما كانوا من قبل بمعنى
اعادة قنصلهم وتجارهم للبيع والشراء ويرغبون في أن يكونوا تحت
رعايتنا ، وأعطينا أوامرنا لارضائهم كما أننا نكتب لهم هذه الشروط
بنفس الأسلوب والشكل الذي كتب للبنادقة وان يكتب الى الدولة
الفخيمة ولورنزو الفخم بارسال قنصلهم وتجارهم الذين سيالون
ويعاملون معاملة حسنة ويكرموا كأي طائفة أخرى .

فصل (١) لا يتعرض أحد لأي تاجر فلورنسي ولا لتجارته
ولا لحاجاته ولا لممتلكاته ولا لسفنتهم ولا لأشخاصهم ولا لقنصلهم بأي
شيء ضد العدل كما لا يطالبون بدفع ضرائب أزيد من المطلوب على
متاجرهم الا حسب العرف القديم كما يظهر للديوان وكما يدفع
البنادقة حاليا دون اتخاذ أي اجراء مضاد مخالف للعدل والنظام .
ولذلك نأمرك أيها الأمير الحاكم حاكم الاسكندرية أنه يجب أن تعمل
وتلاحظ تنفيذ هذه الأوامر مع عدم القيام بأي اجراء مضاد .

الدخول الى الموانئ ولا سيما ميناء القسطنطينية دون أي
صعوبة .

٥ - تقرير دفع الجزية الميعنة للسلطان لقاء دخول سفن البندقية
البحر الأسود وقدرت هذه الجزية بصفة مبدئية بحوالي
١٠٠٠٠ دوكية سنويا .

٦ - في حالة حدوث حالات العرق تتولى السلطات المحلية مهمة
الانقاذ نظير رسوم معينة .

٧ - يدفع البنادقة رسوما جبركية على مشترياتهم ومثلها على
مبيعاتهم وقدرت بحوالي ٢٪ .

٨ - لم تعرض السلطات العثمانية على تجار البندقية في الرقيق
الأبيض من منطقة البحر الأسود وتصديره للخارج وخاصة
لمصر ولكن نص في الاتفاقية على أنه اذا تم البيع داخل نطاق
بلاد السلطان يصير تحصيل جزية لا تقل عن ٢٪ من المباع
وقد راعى البنادقة الناحية العاطفية والدينية فلم يتسكوا بشراء
الرقيق من المسلمين وبالتالي فانهم كانوا يطلقون سراح من يقع
في أيديهم من الأسرى المسلمين دون ابطاء .

٩ - يمنح البنادقة نفس الامتيازات لرعايا السلطان العثماني في
البندقية وأملاكها الأخرى والبلاد التي تشرف عليها كما سمحوا
للأتراك بالتعامل مع أسواق البندقية نفسها أملا في أن يعامل
البنادقة وتجارهم بالمثل .

١٠ - حصل البنادقة على حرية تصدير القمح من بلاد السلطان العثماني
لقاء جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكية (١٢) .

(١٢) Hammer, Histoire de l'Empire Ottomane, T. III, pp. 30-36-46
& p. 240.
Deppey, Histoire du Commerce, T. II, pp. 227-228.
Heyd, Histoire Du Commerce, T. II, pp. 316-319, 320

الاسكندرية بالا يحدث مثل ذلك ، واذا حدث أى اتفاق فسيكون أمام الشهود ويلزم الطرفين بالعدل .

فصل (٥) اذا حدث خلاف بين تاجر من القرنيتين وتاجر مسلم وأراد كلاهما الاستئناف أمام السلطان فيجب أن ييسر لهما الأمر ، وفى حالة غيابنا ينوب عنا الحاكم أو نائبه أو الكاتب (كاتب الديوان) لذلك نأمرك أيها السيد أمير الاسكندرية بأن يراعى ما جاء بهذا الأمر وينفذ بكل دقة والا يسمع أى شخص من المثول أمام السلطان للسقاضة وخاصة من التجار القرنيتين ...

فصل (٦) يقول التجار المذكورون ان الحساليين والمكاريين الذين كانوا يحصلون التوابل من مكان لآخر . يعدون الى سرقة التوابل ثم غشها بوضع مواد غريبة أخرى بدل المأخوذ وهذه الطريقة تضر التجار المذكورين لذلك نأمرك أيها السيد أمير الاسكندرية أن تراقب هذه الأشياء وتجلد الحساليين والمكاريين المذكورين وتحمل محلهم غيرهم ويعطى التجار تعويضا لذلك من الجزء المزيّف - ونأمرك أيها السيد أن تراعى ما جاء بأمرنا هذا وتنفذه ..

فصل (٧) يقول التجار القرنتيون انهم بعد وصولهم الى الاسكندرية وموانئ سوريا والمدن الأخرى فى بلادنا يستاجرهم ، ويدفعون الضرائب المطلوبة ويحاولون بعد ذلك اخراج متاجرهم للسوق فيمنع ذلك عمال الجسر وعمال الميناء وموظفو السلطان ويريدون أن يتم البيع بالجسر قبل اخراج المتاجر الى الأسواق - وأن الموظفين لا يعطون للتجار الثمن الذى تساويه السلع ، وأنه عند دفع ضرائب الجسر . يجبرون على دفع رسوم أكثر مما يعود على هؤلاء التجار بضرر كبير ، لذلك نأمرك أيها الأمير أنه بمجرد دفع التاجر القرنتي الضرائب الجسرية يسكنه أن يخرج الى أى مكان يريد أو يخزنها أو يبيعها كما يشاء . ولا يجبر أحد على أن يشتري أو يبيع غير ما يريد كما يجب أن يكون تقدير

فصل (٢) اذا حدث بيع أو شراء بين تجارنا والتجار القرنتيين فان هذا البيع والشراء يجب أن يحدث أمام شهود واذا حدث أن تحال أحد الطرفين من الاتفاق على البيع أو الشراء دون موافقة أو رغبة الطرف الآخر فانه فى هذه الحالة يجب عليك أيها السيد أمير الاسكندرية أن تراعى القانون فى حل هذه المشكلة وأن يكون الشراء والبيع منذ ذلك الوقت بأشراف القانون أمام شهود لا مكان تحديد المسؤولية .

فصل (٣) يقول التجار القرنتيون ان بعض تجارنا يشترون من هؤلاء التجار القرنتيين أثوابا وأقمشة وكاليات وحريراً وأنواعاً أخرى كثيرة من المتاجر . ويتاجرون بها فى أماكن كثيرة ، ولكنهم أحيانا لا يجدون من يشتريها منهم ، وجبئذ يعودون بها الى التجار القرنتيين مرة أخرى لاسترداد أموالهم ورد السلع ، ولما كان هذا ضد العدل والحق وليس فيه أى حرية لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى عدم حدوث مثل هذه الأمور وأن تستمر فى المعاملة كما كان سابقا وينال كل فرد حقه بالعدل .

فصل (٤) يقول التجار القرنتيون أن بعض تجارنا يعاملوهم بطريق المفاضلة وقد جرى العرف أنه فى حالة المفاضلة يكون سعر السلعة المفاضل عليها لأى الطرفين أكبر قليلا من السعر فى حالة الدفع نقدا لهذه السلعة، ولكن يحدث أحيانا أن يرفض التاجر المسلم استلام السلعة المفاضل عليها ويطلب الثمن على أساس السعر المرتفع (عن سعر المفاضلة) للارتفاع بفرق السعر . ولما يرفض التاجر المسيحي تصير خناقة ضخمة يحاول فيها التاجر المسلم استغلال وجوده فى بلده والمطالبة بالسعر المرتفع لسلعته دون السلعة الأخرى موضوع المفاضلة ولما كان فى هذا ظلم صارخ للتاجر القرنتي لذلك نأمرك أيها السيد أمير

ثمن السلعة المذكورة ودفع الضريبة المطلوبة عنها بما تساويه فعلا عند وصولها لبلادنا ونأمرك أيها السيد الأمير بمرعاة ذلك عند وصول هؤلاء التجار ...

فصل (٨) كما كان يجري العرف سابقا أنه يجب ألا يدفع التاجر الفرتي رسوم المتاجر والسلع إلا حين تكون في ديوان الجمرک ، وإذا كان للتاجر الفرتي نقود من مدة سابقة فانه بعد بيعه سلعة ويريد خصم الرسوم المطلوبة من الحساب الذي له لدى الجمرک فيجب أن يسر له هذا الأمر ، لأن التجار يشكون من أن الجمرک لا يريد خصم الرسوم مما يستحقه التجار لديه من أموال كما لا يريدون إعطاءهم الباقي . اذلك نأمرک أيها الأمير أن تلاحظ العرف القديم وأن التجار الفرتيين لا يجب أن يدفعوا الرسوم إلا اذا كانت السلع في الجمرک (أى لا يدفع مقدما ويدفع الرسوم حين وصول السلع الى الجمرک) ويجب أن تعمل له تسوية حساب للطلوب والخصم مثلما تفعل تماما مع التجار البنادقة لذلك نأمرک أيها الأمير أن تراعى ذلك وألا تفعل غير ما نأمرک به كما تفعل نحن مع البنادقة .

فصل (٩) جرى العرف القديم أنه اذا مات تاجر مسيحي ، فإن قنصل دولته وحده هو المختص بالاشراف على سلع هذا التاجر المتوفى ، أو من ينييه القنصل سواء كان وكيله أو أحد تجار طائفته ، لذلك نأمرک يا حضرة الأمير أنه بالنسبة للتجار الفرتيين يسرى العرف السابق .

فصل (١٠) يحدث أحيانا بعد وصول مراكب الجالير (القطائع) للفرتيين وعليها تجارهم أن تحجز السفن والتجار بواسطة الجمرک أو كبار تجارنا الوطنيين فلا يستطيع الفرتيون البيع والشراء إلا اذا قررت أسعار التوابل لهذه المدة ، وهذا يسبب تعطيل التجار ويسبب لهم خسائر كثيرة - لذلك نأمرک أيها الأمير أن تكون الموافقة وتحديد

السفر جاهزة قبل وصول هؤلاء التجار بسفنتهم والا توضع أية عقبة في سبيل البيع والشراء كما هو الحال بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (١١) يقول تجار الفرتيين أن بعض التجار المسلمين كثيرا ما يشكوههم للسلطان في دعاوى لا أصل لها مما يسبب لهم خسائر جسيمة ، لذلك نأمرک أيها الأمير أنه اذا حدث مثل هذا فإن التاجر المسلم لا يحق له أن يستعدي التاجر المسيحي إلا اذا أعلنت الشهادة الواجبة بما حدث ، وحينئذ اذا لم يدفع التاجر المسيحي المطلوب منه ، فيجب أن يثبث أمام القاضى أو السلطان في حالة الاستئناف ، والقضاء هو وحده المختص بذلك .

فصل (١٢) توجد مراكب لبعض القراصنة المسلمين ، وهم ينتظرون في الموانئ أو بالقرب منها ويتعرضون لسفن التجار المسيحيين ، لذلك نأمرک أيها الأمير ، أنه في حالة وجود هؤلاء الأشخاص أن تصادر سفنتهم وترسلهم لحضرتنا لينالوا جزاءهم .

فصل (١٣) جرى العرف أن قنصل البنادقة في دمشق يشرف على جمرک مواطنيه وسلعهم به كما أن قنصلهم بالاسكندرية يراقب حركة تجارة مواطنيه ، ولذلك نأمرک أيها الأمير أن تعطى قنصل الفرتيين في الاسكندرية ودمشق نفس الوظيفة التى لقناصل البندقية في بلادنا .

فصل (١٤) اذا دفع التاجر الفرتي رسوم الجمارك على سلعته في بيروت فلا يلزم بدفع رسوم أخرى على سلع دمشق إلا اذا أوصلت هذه السلع الى دمشق فعلا فتحصل عليها الرسوم ، لذلك نأمرک أيها الأمير نأبنا على دمشق وبيروت أن تراعى ذلك مع التجار الفرتيين حسب ما هو متبع مع تجار البندقية .

فصل (١٥) كما جرى العرف السابق ألا يؤخذ تاجر بحريرة أو ذنب تاجر آخر إلا اذا كان التاجر الأول ضامنا شخصيا ملزما للثاني ،

لذلك تأمرك أيها الأمير بالنسبة لتجار الفرتيين أن تراعى ما هو متعارف عليه وما هو متبع بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (١٦) جرى العرف أنه اذا نهب قراصنة المسيحيين سفن المسلمين فى البحر ثم جاءت سفن الفرتيين الى موانينا فان تجارنا وعسائنا يجبرونهم على دفع تعويض عما لحق بالمسلمين من أضرار بواسطة قراصنة المسيحيين - فأتأمرك أيها الأمير أن تبطل هذا ، وألا يجبر هؤلاء التجار على دفع تعويض أيا كان ، ولا يؤخذوا بجبرية القراصنة المسيحيين ويوضع هذا الأمر موضع التنفيذ مثل ما هو متبع مع البنادقة تماما .

فصل (١٧) حيث انه من الضروري لهؤلاء التجار أن ينتقلوا من ميناء لآخر ومن بلد لآخر نجس المتاجر المطلوبة فيهم يحتاجون للميرة لمعيشتهم . لذلك تأمرك أيها الأمير نائبا أنه بالنسبة للتجار الفرتيين لا يمنع عنهم ما يحتاجون اليه من الميرة - فى رحلاتهم ويلبسون الملابس المبالكية ويتجولون آمنين اذا أرادوا فى أى مكان يشاءون. فعليهم أيها الأمير نائبا مراعاة ألا يتعرض لهم أى أحد فى الطريق كما يراعى ألا يغلق باب فندقهم الا ليلا ويظل مفتوحا طول اليوم .

فصل (١٨) اذا جاءت سفن فلورنسية بساتجها فلا تجبر على دفع الجمارك الا بعد التفريغ ، واذا لم يوجد من يشتري هذه السلع ويريد أصحابها اعادتها مرة أخرى الى السفينة فلهم الحرية فى ذلك على ألا يدفعوا رسوما لا قبل ولا بعد الانزال مادام البيع لم يتم ، وتأمرك أيها الأمير أن تراعى ذلك بالنسبة لطائفة الفرتيين على ما هو جار بالنسبة لتجار البندقية .

فصل (١٩) اذا وجدت سفن قطائع (جالير) أو مراكب أخرى فى الميناء أو أى موان خاصة بنا واحتاجت الى اصلاح فعليكم

مساعدتها ومنح الامتيازات الخاصة بذلك لها ولأصحابها ولتجارها وتقديم الخدمات لهم بنقودهم . وتأمرك أيها السيد الأمير باتباع ذلك مع طائفة الفرتيين المذكورة مثل ما يتبع مع البنادقة .

فصل (٢٠) اذا وجدت سفن لطائفة الفرتيين فى أى مكان تابع للسلطان وهاجستها سفن القراصنة فعليكم مد يد المعونة لها ومساعدتها فى كل ما تطلبه بنقودهم لذلك تأمرك أيها السيد الأمير اتباع ذلك مع طائفة الفرتيين مثل ما هو متبع مع طائفة البنادقة .

فصل (٢١) المتبع مع طائفة البنادقة أنهم عندما يحضرون معهم خرافا بيضاء وسوداء لطعامهم الخاص فى فندقهم . فان موظفينا يحصلون على بعض منها ، بدون مقابل فنحذرهم أيها الأمير الا تفعلوا مثل ذلك مع طائفة الفرتيين ، كما لا تمنعهم من البيع بالأسعار المناسبة ولا تجبرهم على بيع خرافهم بأسعار منخفضة بل بحرية كاملة ولقائدهم ولا يذهبون كما هو متبع مع البنادقة .

فصل (٢٢) جرى العرف أن طائفة البنادقة تصل للميناء ومعها بعض المتونة الخاصة بهم مثل الجينة وغيرها ، ولا يدفعون عنها رسوما الا على المتاجر فقط ، فى حين أن جباركنا تحصل من الفرتيين ما قيمته ٣٠٪ ، لذلك تأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى عدم الزام الرعايا الفرتيين بدفع مثل هذه الضريبة ، كما هو متبع فعلا مع البنادقة .

فصل (٢٣) جرى العرف فى ميناء بيروت أنه اذا حصلت سفينة لبندقية ٥٠ طردا من التوابل فانها تلزم بدفع خمسة دوكات رسما اضافيا لتأبى بيروت واذا نقصت الحسولة عن ٥٠ طردا ، فلا تجبر على دفع شيء لذلك تأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى ذلك بالنسبة لطائفة الفرتيين ، كما هو متبع مع البنادقة .

فصل (٢٨) اذا اشترى تاجر مسيحي توابل أو سلعا من تاجر عربى ودفع الثمن وأودعها عند التاجر العربى على الذمة ، ثم حاول صاحبها العربى استردادها بعد بيعها للمسيحي فلا يحق له ذلك ، الا اذا كان المسيحي قد دفع عربونا فقط عنده . وعليك أيها الأمير أن تراعى هذا الأمر كما أن السلع لمن اشتراها مهسا كانت الظروف ويحق للتاجر المسيحي صاحب السلع أن يقاضى التاجر المسلم الذى يعيد بيع السلع وهى فى ذمته ولا يلتزم التاجر المسيحي بشئ سواء أكان رد البضاعة أم رد الثمن .

فصل (٢٩) اذا أراد القنصل أن يصل إلينا للشكوى بسبب ظلم وقع عليه أو بسبب خطابات وصلته من دولته لنا ، أو لأى سبب آخر فيكون له مطلق الحرية فى الحضور بدون أى عقبة ، وكذلك عند وصول السفن التجارية ومتاجر التجار فهم يحضرون معهم ، دوكاتات منقوشة بندقية لنقائها وجودة ذهبها وضبط وزنها ونأمرك أيها السيد الأمير أنه بالنسبة للتجار الفرنتيين أن يراعى ما جاء بهذا النص ولا يعمل عمل مخالف لذلك وأن توجه اليهم عناية ورعاية كاملة (١٣) .

ملحق رقم (١٤)

ملحق لمعاهدة الامتيازات الممنوحة لطائفة الفرنتيين ببلاد السلطان المماليكى عام ١٤٨٨ — بامتيازات جديدة غير ما منح للبنادقة

فصل (١) اذا باع مسلم توابل لمسيحي مقابل سلع أخرى نقدا أو بالمقايضة ثم رفض التاجر المسلم تسليمها بعد الاتفاق على البيع

Amari, I Diplomi Arabi, XLV. p. 363-369.

(١٢)

Il Sultano (d'Egitto)
Editto intorno I privilegi commerciali accordati ai Fiorentini in Egitto e in Siria a dimanda della Signora di pirenze e del magnifico Lorenzo (de medica presentata per mezzo di alcuni mercantanti. 1488. 7).

فصل (٢٤) جرى العرف أنه اذا حلت سفينة رفاتا أو رمادا لموتى فإن صاحب السفينة يدفع لنائب بيروت ٥ دوكات ، كما أن سفن القطائع (الجالير) تدفع ٣ دوكات عن كل واحدة لنائب بيروت ولا تدفع أكثر من ذلك . وقد اعتاد البنادقة أن يفعلوا ذلك ، فيراعى أيها السيد الأمير أن يتبع مثل ذلك مع طائفة الفرنتيين . ويراعى كذلك ألا يؤخذ تاجر باهانة وجهها بحار لأى عربى مسلم ، انما يؤخذ بالعقاب من قام بالاهانة فعلا لا غيره . لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى تنفيذ ذلك مثل ما هو متبع مع طائفة البنادقة .

فصل (٢٥) جرت العادة أنهم يدفعون عن كل جوال قطن خام رسا قدره ٨ دراهم فضة وعن كل جوال قطن خيوط ١٥ درهم فضة، ويوجد من يريد سرا أن يدفع أكثر من هذا لأكثر من سبب ، لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى ذلك بالنسبة لتجار جميع الطوائف ولطائفة الفرنتيين خاصة وألا يجبروا على دفع أكثر من المعتاد من الرسوم كما يفعل البنادقة . واذا حدث أى ظلم لأى تاجر وأراد المثل أماننا ومعه القنصل فلا يمنع من ذلك .

فصل (٢٦) جرى العرف أنه لدى وصول السفن الى بيروت اعتاد العرب نهب الخطابات المرسلة للتجار الأجانب ولا ترد لهم الا بعد دفع اتاوات بعلة بضعة أيام، وكذلك بالنسبة للخطابات المرسلة لجهات أخرى طريق موانينا ، وقد رجا البنادقة مراعاة عدم فقدانهم شئ من خطاباتهم فى السفن أو على البر الا اذا وجدت خطابات تخص دولتنا فهى تحجز لنا ، لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى هذا بالنسبة لتجار الفرنتيين وألا يضايقهم أى فرد فى الميناء أو البر كما هو متبع الآن مع البنادقة .

فصل (٢٧) اذا أذن تاجر مسيحي آخر مسلسا ولم يستطع الحصول على باقى أمواله وأراد الحضور لحضرتنا فلا يمنع من ذلك ، ونأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى ذلك مثل ما هو متبع مع البنادقة .

رسوما جديدة ، لذلك نأمرك أيها الأمير أن تراعى هذا بالنسبة للتجار
الفرتيين كما هو متبع مع الطوائف الأخرى .

فصل (٦) جرت العادة أن التجار ينقلون توابلهم الى الخارج من
الاسكندرية لنقلها الى السفن حسب ما يتراءى لهم ، لذلك نأمرك
أيها الأمير ألا يعوق أحد لهم هذه الرغبة ولا تحصل منهم رسوم
جديدة .

فصل (٧) طلب التجار الفرتيين أن يراعى موظفو الجمرک تقدير
أثمان السلع حسب تسعيرة اليوم نفسه في السوق (يوازي الآن سعر
البورصة) يوم وصول السلع — وأن يكون لكل سلعة رسم الجمرک
المحدد لها — لذلك نأمرك أيها السيد الأمير مراعاة عدم رفع الأسعار
بالنسبة لهؤلاء التجار وحساب السعر حسب سعر السوق .

فصل (٨) طلب التجار المذكورون مراعاة أنه اذا باع تاجر منهم
سلعا لتاجر مسلم أو اشترى تاجر مسيحي سلعة من تاجر مسلم ، ثم
رجع أحدهما في كلامه ثم بعد ذلك تصرف التاجر المسيحي أو المسلم
في السلعة بالبيع لثالث — وحاول استردادها بحجة أنها كانت على
الذمة — لذلك يراعى عدم حدوث شيء من هذا ولا يلزم التاجر المشتري
الجديد (الطرف الثالث) برد البضاعة مادام البيع تم حسب القوانين
أمام الشهود وأن يراعى ذلك بالنسبة للتجار الفرتيين خاصة .

فصل (٩) يطلب التجار المذكورون أنه بعد وصول سفنهم والانتها
من البيع والشراء لا يعوق رحيلهم بأي حال من الأحوال كما يسمح
لهم بالتعامل بالفرتي الخاص بهم مثل الدوكات الذهبى البندقى ..
ولا سيما أن عملتهم نقية وسليمة الوزن (الفلورين = الفرنتى) ،

بسبب الخوف من ضياعها قبل نقلها الى مخازنه أو لأى سبب آخر
وانها تبقى تحت مسئولية التاجر المسيحي لفترة أخرى، فاننا نأمرك أيها
السيد الأمير أنه بمجرد حدوث اتفاق البيع يتم الاتفاق على التسليم
فى مدة محدودة وعند حدوث التسليم يتخذ التاجر المسلم شاهدين
ويتسلم السلع وكذلك التاجر المسيحي يسلم السلع أمام شاهدين فى
جمرک القيان . ثم بعد الاتفاق تخرج السلع خارج الجمرک وخارج
المخازن وتبقى تحت مسئولية التاجر المسلم ولا يلزم التاجر المسيحي
بشيء بعد ذلك . ويلاحظ هذا خاصة بالنسبة للتجار الفرتيين .

فصل (٢) اذا دفع التاجر المسيحي رسوم الجمارك ثم تغير بعدها
ناظر الخواص والموظفين الذين تسلموا الرسوم ، ولا تزال السلع
بانجمرک ، فانه لا يحق للناظر الجديد أو الموظفين الجدد أن يحصلوا
رسوما جديدة — لذلك نأمرك أيها السيد الأمير بمرعاة عدم الدفع
الا مرة واحدة سواء تغير الناظر أو الموظفون أو بقوا . ويلاحظ هذا
خاصة بالنسبة للتجار الفرتيين .

فصل (٣) اذا دفع التاجر المسيحي السمسرة الخاصة بالتوابل ،
ثم تغير الناظر والموظفون وحاول الجدد الحصول على سمسرة جديدة
قبل أن يحل التاجر المسيحي سلعه فيجب ألا يحدث ذلك ، ويجب
أن تراعى أيها الأمير أن السمسرة لا تدفع الا مرة واحدة فقط ، ويلاحظ
كذلك أن يسرى هذا خاصة على التجار الفرتيين .

فصل (٤) فضلا عن هذا ، كما هو متبع مع تجار البنادقة أنهم
يبيعون سلعهم على السفن وعلى البر ، نأمرك أيها الأمير بمرعاة منح
هذا الامتياز للتجار الفرتيين ، وأن يمارسوا هذا فى البر والبحر
كالمعتاد .

فصل (٥) جرت العادة أن التجار عندما يرحلون بالمراكب لا يدفعون

لذلك نأمرك أيها السيد الأمير أن تراعى هذا بالنسبة لطائفة
الفرتيين .

فصل (١٠) يطلب التجار المذكورون أنه بمجرد مجيئهم ومعههم
قنصلهم أن يمنحوا فندقا للإقامة وتخزين سلعهم وأن يكونوا في
رعايتنا الخاصة ولا يضر أحدهم لأى سبب ونأمرك أيها الأمير أن
تسلم صورة من هذه الشروط والمنح لهؤلاء التجار وقنصلهم وللسلطات
المسئولة للتنفيذ وحدوث الأمان لهم .

ملحق رقم (١٥)

تعليمات للسفير لويجي دلاستوفا سفير فلورنسا لسلطان مصر
بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٤٨٨ .

تعليمات فلورنسا لسفيرها لويجي ديلا ستوفا الى سلطان مصر
١٠ نوفمبر ١٤٨٨ .

١ - ستذهب الى سيادة السلطان بأسرع ما يمكن - وبعد الوصول
تقابل فخامته وتشكره على انسانيته نحونا ونحو مدينتنا وكذلك
للهدايا المرسلة لنا منه ذاكرا أن شعبنا لم ير مودة مثل هذه
ولا روحا طيبة مثل ذلك ، وإن كرم سفيره كان له أثر طيب علينا .
بحيث أننا نبقى فقط مدينين لعظمته بهذا الفضل ولكن كذلك
لما أعطيناه اياه بصفة خاصة من شروط المعاهدة التي حملتها اليها
والتي يمنح فيها تجارنا الحرية فى استخدام موانئ بلاده وما يتبع
ذلك من امتيازات .

٢ - واث أيها السفير الأفخم سيكون لديك وثيقة رسمية موافق عليها
منا ، كما جرت العادة ويمكن أن تترك هذه الوثيقة فى أيدي
قنصلنا ليهتدى بها التجار فى التعامل مع السلطات المحلية
وسيكون لديك أيضا مع هذه الوثيقة مذكرة موضحة بها المداورات
التي تحدث هنا بشأن هذه المعاهدة وغيرها ، لتكون على علم
ببواطن الأمور أولا بأول فعليك أن تحاول الحصول على شروط
وامتيازات عديدة من فخامة المعظم ، أكثر مما هو عندنا . وستجد
هنا نسخة من هذه الشروط مع الشروط الجديدة التي أضيفت
لكي تطالب بها ومصدقا عليها منا . وستجد نسخة أخرى لدى
القنصل بطلبات جديدة . وفى الوقت والمكان المناسب لك . قدم
لسيادة السلطان هدايانا وبين لسيادته أننا نعلم جيدا عظمة
السلطان وأنا نطمح فى قبول سيادته لهذه الهدايا . تعظما منه
وتكرما واطهارا لشعورنا الطيب نحوه .

٣ - وبعد أن تنتهى من المهمة الخاصة بالمعاهدة وكذلك تقديم الهدايا
لسيادته فلا داعى لبقائك أكثر من ذلك وحاول أن تعود تاركا
أثرا طيبا فى نفس السلطان من ناحيتنا ومن ناحية طائفتنا فى
بلادهم .

٤ - وبمرورك على روما فى العودة تزور قداسة البابا المعظم ومعك
خطاب الاعتماد الذى تحصل عليه كسفير لنا عند البابا وتعلن
قداسته برحلتك الى بلاد السلطان وتعرض عليه خدماتك ، وفى
نابلى تزور فخامة الملك بخطاب اعتماد آخر منا وتعييه بنفس
الكلمات الطيبة ثم تسرع اليها بلا ابطاء .

La Signoria di Firenze

(١٥)

Istruzioni a Luigi di Mosser Angolo della Stufa Ambasciatore al Sultano
d'Egitto (Ital.).

Amari, I diplomi Arabi XLV, 1488-10-Novembre, No. 73, p. 372-373.

Nell'Archivio Fiorentino Niformagioni, classe X, distinz 1 No. 75 fog. 78
Verso.

Amari, I Diplomi Arabi XLV, pp. 369-371.

Capitoli Agiunti dipoi per nostra adimander; Ultra quelli de Venitiani...

(١٤)

اتفاقية بين السلطان الأشرف قايتباي ، سلطان مصر والمعلم
الأفخم لوزوديميدتشي حاكم فلورنسا بوساطة سفيره المعلم لويجي
ديلاستوفا .

باللغة الايطالية عام ١٤٨٨ م

ملاحظة :

استطاع الفلورنسيون أن يحوزوا ثقة السلطان محمد الثاني
العثماني وأصبحت لهم تجارة واسعة في بلاد العشانيين بعد فتح
القسطنطينية ١٤٥٣ وأضرموا الشر للبنادقة فنكل السلطان بهؤلاء
وأصبح للفلورنسيين الخطوة لدى السلطان كما استطاع تجارتها أن
يدسوا مندوبا عنهم في خدمة السلطان وهو الفلورنسي
Laurant de Medici

وفي نفس الوقت لم يهملوا صلاتهم الطيبة مع سلطان مصر
وأرسلوا سفارة يرأسها السفير Louis de la Stuffa
ومنه هدايا للسلطان المصري وطلب عقد معاهدة بامتيازات لها ولتجارها
وفي دياجة الاتفاقية ذكر الآتي: «الطلب مقدم الى عظمة سلطان مصر
من السفير لويجي ده ميسو ديلاستوفا سفير عظمة السيد حاكم
فلورنسا وباسم فخامته ، بالموافقة على مواد معاهدة مكتوبة لصالح
كل رعايانا وتجارنا الفرنتيين الواندين لبلاد سيادة السلطان سواء كانوا
باقين أو متجولين أو مؤقتين للحصول على الرعاية والحماية في جميع
أماكننا في حلهم وترحالهم وهذه الطلبات قدمت الى عظمة السلطان
بواسطة حاكمنا المعلم سنيور فلورنسا لوزوديميدتشي .. »

والملاحظ أنها في مضمونها لا تخرج عن المعاهدة السابقة اذا
سنذكر هنا ما يجد من طلبات دون ذكر التفاصيل :

١ - في أى ميناء أو مكان تابع للسلطان ، تأتي سفينة فلورنسية
أو سفينة عليها فلورنسيون أو أموال فلورنسية ، تستطيع هذه
السفينة أن تبقى أو تذهب بحرية دون أن يطلب منها دفع أى
شئ سواء بالنقد أو عينا - باسم ضرائب واجبة للجمارك
أو ضرائب ملح أو ضرائب ادارية أو أى ضريبة أخرى .

٢ - حرية البيع والشراء دون قيد وحرية وتسهيل الشحن والتفريغ
في جميع الموانئ (برقم ٢٥ بالأصل) .

٣ - السفن المحملة بالزاد والطعام لا تدفع الا ثلثا في المائة من
الرسوم المفروضة .

٤ - لا يفصل في منازعاتنا الخاصة سوى القنصل الا اذا طلب أحد
الطرفين اللجوء للقضاء الوطني .

٥ - يحق للفلورنسيين أن يرتسوا الزى العربى حتى لا يقابلوا بجناء
من الوطنيين .

٦ - اذا أحضر تاجر فلورنسي الى الاسكندرية عسلا أسود فلا يدفع
عن ذلك الا دوكة عن كل كركر (برميل) .

٧ - قنصل الفلورنسيين يعطى كل الامتيازات التي يحصل عليها
قنصل البنادقة في جميع مدن وموانئ السلطان مع مرتب
وأسبقيه وخلافه .

٨ - لا يدفع الفلورنسيون في بيروت ضرائب الا مثل البنادقة واذا
أخذوا من بيروت أو دمشق رمادا لأحد المتوفين فلا يدفعون
الا مثل البنادقة .

٩ - يسمح للفلورنسي أن يشحن سلعة على أى سفينة دون تعويق
وبدون دفع ضرائب غير المفروضة ومثل ذلك بالنسبة للمسافرين
(برقم ٢٦ بالأصل) .

١٠ - (برقم ٢٨ فى المعاهدة) اذا حدث أن اعتدت سفن مها كانت جنسيته أو نوعها فى البحر على سفن فلورنسية أو على سفن أخرى تنقل بضاعة فلورنسية بالتولون (بالأجرة) فإن التجار الفلورنسيين يطلبون اجراء العدالة من السلطان ويطلبون منه أن يعوضهم عن بضائعهم وسفنهم التى أصابها الغدر من جراء الاعتداء ، وأن يعوضهم عن ذلك من التجار ومن بضائع التجار الذين من نفس جنسية السفن المعتدية ، والذين يوجدون فى بلاد السلطان . واذا اعتدى بالمثل فلورنسى على أى شخص فى البحر فإن للسلطان الحق فى تعويض المعتدى عليه من المعتدى الفلورنسى أو من الفلورنسيين الموجودين فى بلاد السلطان .

١١ - طالما أن القرتى جيد الوزن والذهب ، يجب أن يكون جاريا مثل البندقى .

١٢ - اذا احتاج الفلورنسيون الى فندق أو منزل بالاسكندرية ينزل فيه القنصل والتجار الفلورنسيون فينبغى على السلطان أن يجهز لهم فندقا ويعطيه للقنصل حسب الأصول المرعية مع باقى طوائف التجار الأجانب فى بلاد السلطان . (برقم ٣٣ بالأصل) وقد راعى المندوب الفلورنسى أن يذكر للسلطان ما يلاقه مواطنوه من اهانات فى الشام وموانئ بيروت وطرابلس وغيرها . لبعدها عن مقر السلطنة بالقاهرة وأبلغ ذلك للسلطان الذى وعد بمرعاة مصالحهم ونص فى الملاحق على :

١ - أمر من السلطان لعمال الموانئ فى الشام وجباركه بعدم مضايقة أو تعطيل سفن وتجار فلورنسا أو مضايقتهم فى تخزين سلعهم وتوصيلها من وإلى دمشق .

٢ - رسم جوال القطن الخام ٨ دراهم والقطن المندوف ١٥ درهما .

٣ - يحق للقنصل مقابلة السلطان فى أى وقت بدون تعويق مثل ما ينح للقنصل البندقى أو مقابلة من ينوب عن السلطان لعرض مشاكلهم ومشاكل مواطنيه وإبلاغ رسائل للسلطان .

٤ - ملحق آخر بالمعاهدة خاص بمطالب جماعة تجار التوسكانيين التابعين لفلورنسا ومفاداه شكوى هؤلاء التجار من أن الحاصلين الذين يحملون التوابل من مكان لآخر لتوصيله يعسدون الى فتح الجوالات وغش ما بها من توابل أو وضع تراب بدل التوابل وقد وعد السلطان بمعاقبتهم عقابا شديدا وتغيير السلع المزيفة بغيرها .

ملحق رقم (١٧)

خطاب السلطان قايتباى لأمير فلورنسا بشأن تأكيد امتيازات طائفة التجار الفلورنسيين ببلاد السلطان . بتاريخ ٢٤ من ذى الحجة ٨٩٤ هـ / ١٨ من نوفمبر ١٤٨٩ م

السلطان الأعظم المالك الملك . الأشرف السيد الأجل العالم العادل . محبى العدل فى العالمين ، منصف المظلومين ، قانع الخوارج والمتبردين ، اسكندر الزمان مولى الاحسان ، جامع كلمة الايمان ، ملك أصحاب المنابر واليخوت والتيجان فاتح الأقطار ، مانح الممالك والأقاليم والأمصار ، بيد الطغاة والبغاة ، وارث الملك ، حامى القبطين ظل الله فى أرضه ، القائم بسنته وغرضه ، سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة ، سيد الملوك والسلاطين قسيم أمير المؤمنين أبو النصر

Luigi di Messer Angiolo della Stuffa.

(١٦)

Domande fatte al Sultano d'Egitto a nome della Signoria de Firenze e del Magnifico Lorenzo de' Medici (Italiano)
Amari, I Diplomi Arabi. 74. XLVIII. pp. 374.381.

المعاهدة الشاملة : وهي امتيازات منحها السلطان قايتباي لطائفة
الفرتينين ببلاده وهي باللغة العربية بتاريخ ٢٢ من فبراير ١٤٩٦/١٨
ذو القعدة الحرام عام ٩٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ضاعف الله تعالى نعمه

الجناب العالي الملك قايتباي

الاميرى الكبيرى . العالمى العادل . المؤيدى اعونى ، الذخيرى
الغياثى المهدي الميرى . الزعيسى المتمدنى . الظهورى السيفى عن الاسلام
والمسلمين سنة الايمان فى العالمين ، نسرة الغزاة والمجاهدين ، زعيم
الجيش ، مقدم العسائر مسهد الدول ، مشير المسالك عون الأمة كهف
الملّة . ظهير الملوك والسلطين سيف أمير المؤمنين وما زال مشكور
الاهتمام موصوف المحاسن بين الأنام .

صدرت هذه المكاتبة الى جناب العالي يهدى اليه السلام والثناء
العام وتوضح بعلمه المتباز أن جماعة مشايخ الفرتينين ودوهم جهزوا
قاصدا الى أبوابنا الشريفة ، وعلى يده قصة لمواقفنا المعظمة ، وأنهم
فيها أنه كان فى أيام الملوك السالفين كانت قناصلهم وتجارهم يترددون
الى الثغور الاسلامية لأجل البيع والشراء كمثل طائفة البنادقة وأنهم
اختاروا العود الى الثغور الاسلامية كما كانوا عليه ، وسألوا صداقتنا
الشريفة فى الاذن لهم فى ذلك وكتابة شروط لهم على جارى العادة
ليكونوا تحت النظر الشريف والذمام المنيف ، فأجابتهم صداقتنا الشريفة
الى ما سألوه من ذلك وبرزت مراسمتنا الشريفة بالاذن لهم فى تجهيز

قايتباي خلد الله تعالى سلطانه ونصر جيوشه وأعوانه وأعلى على هام
الجوزاء مكانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

صدرت هذه المكاتبة الى حضرة الملك المبجل الموقر السيد
الهام الضرغام البطل الباسل ، مجد أهل ملته العادل فى رعيته ،
عظيم أهل مملكته ، صديق الملوك والسلطين ، وفقه الله تعالى وحدد
مشرفه . موضحة تعلم أن قاصده حضر الى أبوابنا الشريفة وتشمل
بموافقتنا المعظمة وأحطنا علما بما على يده ، وشمله نظرة الرب ،
وعاملناه بمزيد الرعاية وأجينا بما سأل عنه من كتابة الفصول المتعلقة
بجماعة الفرتينين وتجارهم ليكون العمل بما رسنا به والنبأ تشريفا
شريفاً لحضرتنا الشريفة ، وعاد من أبوابنا الشريفة مجبور الخاطر على أحسن
الوجوه وسيطاً ليعلمكم بذلك ، فالحضرة يطالعنا بأخباره ويتابع تجهيز
قصاده وتجار أهل مملكته الى ثغر الاسكندرية المحروس وغيره من
الموانى الاسلامية الداخلة فى حوزتنا الشريفة بما صحبتهم من
البضائع والمتاجر للبيع والشراء والقياض وترسم بمعاملتهم بالمعدلة
الشريفة فيعلم بذلك ويعتسده والله تعالى الموفق الأكرم .

ان شاء الله تعالى .. فى رابع عشرين ذى الحجة سنة أربع
وتسعين وثمان مائة حسب المرسوم الشريف ، الحمد لله وحده وصلى
الله على من لا نبي بعده حسبنا الله ركن - تم .

حضرة الملك المبجل الموقر السيد الهام الضرغام البطل الباسل
مجد أهل ملته ، العادل فى رعيته ، عظيم أهل مملكته ، صديق الملوك
والسلطين وفقه الله تعالى حاكم الافرتينين (١٧) .

قناصلهم وتجارهم ومراكبهم الى الثغور الاسلامية المحروسة، ورسنا بكتابة شروط لهم على حكم طائفة البنادقة الآتى ذكرها فيه .

فصل (١) ان تجرى طائفة القرنيتين المذكورة على حكم شروط البنادقة القديمة وأن يمنع من يتعرض اليهم فى بضائعهم ومتاجرهم وأموالهم ومراكبهم وبحريتهم باليد العادية ، وألا يلزموا بسوجب عن بضائعهم الا على حكم ما تشهد به الضرائب الديوانية المخلدة بالدواوين المعمورة السلطانية من أيام الملوك السابقين سقى الله تعالى عهدهم من أحداث حادث ولا تجديد مظلمة فالجناب العالى يتقدم بسنع من يتعرض لطائفة القرنيتين المذكورين فى بضائعهم وأموالهم ومتاجرهم ومراكبهم وبحريتهم باليد العادية ولا يلزموا بسوجب عن بضائعهم مكرر ...

فصل (٢) ذكر من شروط البنادقة أنه اذا وقعت مبايعة من تجار المسلمين فى أصناف البهار لطائفة البنادقة يكون المعاقدة بينهم بالعدول فان بعض المذكورين يستنع عن التسليم للبهار بعد المعاقدة وقبض العربون فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة القرنيتين المذكورين على حكم الشروط المذكورة ومنع من يقصد ذلك . وأن يكتب بين المتابعين من المسلمين والقرنيتين معاهدة شرعية بالعدول عند صدور البيع وقبض العربون عملا بما تقتضيه الشريعة المطهرة .

فصل (٣) ذكر فى شروط البنادقة ان تجار المسلمين يتعاونون من تجار البنادقة أصنافا من متاجرهم من جوخ وأصواف وغير ذلك ويتسلم المشتري الأصناف ويخزنها تحت يده ومنهم من يسافر بها شرقا وغربا لا يجد من يشتريها منه فيرجع ويردها على الذى اشتراها منه بغير مستند شرعى ويلزمه بالثمن ، فبرزت المراسيم الشريفة من الملوك السابقين بأنه اذا أوقعت مبايعة بين المسلمين والبنادقة فيشهد فيها بالعدول ومنع من يقصد الرد الشرعى فالجناب العالى يتقدمه

باجراء طائفة القرنيتين المذكورين فى ذلك على حكم الشروط المذكورة ومنع من يقصد الرد بغير طريق شرعى .

فصل (٤) ان من تجار المسلمين من يقع بينه وبين تجار البنادقة مقايضة فى صنف البهار وان العادة تميز سعر الأصناف فى المقايضة عن النقد ، فعندما تقع المقايضة بسا يقع عليه الاتفاق ولا يبقى الا التسليم يستنع المسلم عن التسليم ويقصد فقد ثن البهار بالنقد على حكم ما يميز السعر فى التياض فبرزت المراسيم الشريفة من الملوك السانفة بسنع من ينكت منهما على الآخر وان يشهد بينهما بالعدول عند حدود المقايضة وعقد البيع على الوجه الشرعى وان كلا منهما قاعد على ذلك ورضى به فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة القرنيتين المذكورين على ذلك كله .

فصل (٥) ان من شروط البنادقة أنه اذا وقعت محاكمة أو مخاصمة أو دعوى بسال أو غيره من مسلم على بندقى أو على مسلم من بندقى تكون المحاكمة مرفوعة الى الأبواب الشريفة ان كنا بالأبواب الشريفة أو الى النائب والحاجب أو المباشرين بالشر وألا يحكم بينهما غير المشار اليهم فرسم لهم باجرائهم فى ذلك على العادة والشروط القديمة ومنع من يقصد الحكم بينهم غير المشار اليهم الا باستتضى الشرع الشريف .

فصل (٦) ان من شروط البنادقة انهم لما يحضرون الى الثغر المحروس وغيره من الممالك الاسلامية ويقيمون بما يتعين عليهم من الموجب والعشر السلطانى فيقصدون خروج بضائعهم وقماشهم فلم يمكنوا من ذلك ويحصل لهم بذلك الضرر وتؤخذ بضائعهم وقماشهم باليد العادية ولا يصرف لهم الثمن عنها وتقوم البضائع بالعشر والخس بأزيد من القيمة وتؤخذ منهم الموجب على حكم الزيادة ويحصل لهم بذلك الضرر فرسم لهم بذلك بألا يؤخذ شيء الا برضاهم وان

يعتد الحق في التفويض وغيره وإذا ما خافوا على بضائعهم من الموجب والشرف فلا يعوق عليهم ولا يلزموا بالبيع قبل خروج البضاعة ومنع من يتعرض اليهم بغير مستند عملا على ما جرت به العوائد وما تضمنته الشروط المشار اليها فالجناب العالي يتقدم بأجراء طائفة الفرنتين في ذلك على جاري عادة شروط البنادقة المذكورة .

فصل (٧) ان العادة في الشروط القديمة من الملوك السالفين ألا يؤخذ من البنادقة الموجب على البضائع الا عند وصولها الى الثغر المحروس ، وأنهم لم يعاملوا بذلك ويؤخذ منهم الموجب قبل وصول البضائع وإذا كان للتاجر منهم قرض على الديوان لا يحاسبونه بقرضه من الموجب فرسم لهم بأجرائهم في ذلك على العادة وما تضمنته الشروط القديمة ولا يؤخذ منهم موجب قبل وصول البضائع حملا على العادة وما تضمنته الشروط المشار اليها ، وإذا كان لأحد منهم قرض على الديوان الشريف فليحاسب بما له من القرض من عرض وما يتوجب عليه فالجناب العالي يتقدم بأجراء طائفة الفرنتين المذكورين في ذلك كله عملا بالشروط المذكورة .

فصل (٨) ذكر أن من العادة في الشروط القديمة من الملوك السابقين أنه إذا هلك أحد من طائفة البنادقة لا يتعرض أحد من المسلمين الى موجوده ، بل يكون جبيع ما يخلقه تحت يد القنصل أو رفقته من التجار ، وأنه ثم من يتعرض لموجود من يهلك منهم فرسم له يسع من يتعرض لموجود من يهلك منهم ، وأن يتولى أمر الهالك القنصل أو رفقته حملا على جاري العادة وما تضمنته الشروط المشار اليها فالجناب العالي يتقدم بأجراء طائفة الفرنتين في ذلك على جاري العادة عملا على ما تضمنته شروط البنادقة المذكورين ، ومن هلك من طائفة الفرنتين المذكورين يتولى أمره القنصل أو رفقته ومنع التعرض لموجود الهالك على جاري العادة في ذلك .

فصل (٩) ذكر أن من شروط البنادقة أنه ثم من يلزمهم عند حضورهم الى الممالك الاسلامية بالشغر المحروس والمملكة الشامية المحروسة وغيرها بالقطايع ألا يبيعوا ولا يشتروا الى أن يقطعوا السعر في البهار ويرمى عليه بالغضب فيحصل لهم في الضرر والعمامة عن محالهم وسفرهم . فرسم لهم ألا يلزموا بما فيه ضرر عليهم من ذلك ولا غيره وان يحصل الأمر في ذلك على ما جرت به العوائد وما تضمنته الشروط القديمة ، فالجناب العالي يتقدم بأجراء طائفة الفرنتين المذكورين فيما هو ضرر عليهم حملا في ذلك على جاري العادة والشروط المذكورة .

فصل (١٠) ذكر في شروط البنادقة ان لهم معاملات ويحصل بينهم وبين تجار المسلمين اختلاف ، ثم من يشكوهم من الأبواب الشريفة ومن ولاية فيلزموا بالحضور فيحصل لهم الغرامة والمشقة ولا يحضروا غرماءهم ، فرسم لهم بأنه إذا وقعت شكوى على أحد منهم لا يحصل إلا بعد ثبوت الحق وامتنع عن القيام به ، أما الجناب العالي فيتقدم بأجراء طائفة الفرنتين المذكورين في ذلك على جاري العادة المذكورة وأنه إذا رعت شكوى على أحد من الفرنتين لا يحصل الا بعد ثبوت الحق وامتنع عن القيام به على حكم الشروط المذكورة .

فصل (١١) ذكر في شروط البنادقة أن ثمة أغربة تراكمين وغير تراكمين يتقصدون لقطع الطريق ويخرجون من الثغور ويقطعون عليهم الطريق في البحر وينهبون ما مع البنادقة من المال والقماش وغير ذلك فرسم لهم بنزع المذكورين للتعرض لتجار البنادقة وطائفتهم ومن وجد من التركمان المذكورين وغيرهم ممن يتعمد ذلك فليسك وليحضر الى الأبواب الشريفة ليقابل بما يستحقه من بين يدي المواقف الشريفة فالجناب العالي يتقدم بأجراء طائفة الفرنتين المذكورين على جاري العادة في ذلك ومنع من يتعرض لهم من التركمان وغيرهم من التعرض

للتجار القرتيين المذكورين ومن وجد من التركمان المذكورين من
يعتمد على ذلك فليسك وليحضر الى الأبواب الشريفة ليقابل
بما يستحقه لدى المواقف الشريفة .

فصل (١٢) ذكر أن من الجارى فى شروط البنادقة من أيام الملوك
السالفين ألا يؤخذ تاجر عن تاجر ولا يلزم بشئ ما لم يكن ضامنا
أو كفيلا وأنه من يتعرض للتجار المذكورين يلزم بعضهم ببعض
عن غير ضمان ولا كفالة ، فرسم لهم ألا يؤخذ تاجر بتاجر ولا يلزم
عنه بشئ الا اذا كان ضامنا له أو كافلا عملا بما تضمنته الشروط
المشار اليها ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة القرتيين المذكورين فى
ذلك على جارى عادة البنادقة المذكورين بالأل يلزم تاجر عن تاجر
ما لم يكن ضامنا أو كفيلا عملا بشروط البنادقة المذكورين .

فصل (١٣) ذكر أن ثم من طوائف الفرنج من يكون معه فى
الغراب ممن يتحرم أو يقطع الطريق أو البحر ويأسر المسلمين ويحضرهم
الى الثغور والسواحل ويقصدون بيعهم فيعرض المسلمون لتجار
البنادقة بابتياح الأسرى وان لم يكن الحرامية من جنسهم فرسم
لهم بأنهم اذا كان المعتدى من طوائف البنادقة فيلزمهم به عملا على
ما تضمنته الشروط القديمة المذكورة ويحرم التعرض لتجار القرتيين
فى أمر مشتري الأسرى ما لم يكن الحرامية من جنسهم عملا على
ما تضمنته شروط البنادقة المشار اليها .

فصل (١٤) سأل قاصد القرتيين المذكورين أنه اذا كان لهم
حقوق شرعية فى جهة أقوام تعلق فى خلاصها ممن يتعين فى جهة
فالجناب العالى يتقدم انه اذا كان لأحد من تجار القرتيين حقوق
شرعية يخلص ذلك ممن يتعين به فى جهة على ما تقتضيه الشريعة
المطهرة والعدل الشريف .

فصل (١٥) ذكر أن تجار البنادقة لا يبرحون مسافرين من بلد
الى بلد ومن مكان الى مكان ومن مملكة الى مملكة ولا بد لهم من
زاد ومطعم ومشروب وانهم ثم أول من يتعرض لهم ويقطع مصانعهم
ويسنهم من ذلك فرسم لهم بتسكينهم من ذلك ومن زادهم وما كولههم
ومشروبهم بنسب ما يكون معهم ومنع من يتعرض اليهم فى ذلك
ويقطع مصانعهم عملا على ما جرت به العادة وما تضمنته اشروط
القديمة من الملوك السالفين الظاهر بيبس والمنصور قلاوون والناصر
محمد والناصر حسن واخوته والأشراف شعيان سقى الله تعالى
عهدهم صوب الرحمة والرضوان ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة
القرتيين فى الزاد والمشروب والمأكول على جارى العادة المذكورة ومنع
من يتعرض لهم فى ذلك وتسكينهم من ذلك على حكم الشروط المشار
اليها .

فصل (١٦) ذكر أن فى شروط البنادقة ان جماعة الساسرة بغير
الاسكندرية المحروس أدال منهم جماعة من المعلمين كبار ضمان جهة
السيرة وفيهم جماعة فرادية وان المعلمين الكبار أدال يتعرضون الى
ساسرة الفرادية ويسعونهم من البيع والشراء وحصل لهم ذلك
للخسر فرسم لهم بأنه من كان سمسارا لا يسع من البيع والشراء وان
المعلمين يأخذون فى معلومهم على ما جرت به العادة فالجناب العالى
يتقدم باجراء فى ذلك على جارى العادة المذكورة .

فصل (١٧) ذكر أن من شروط البنادقة أنه اذا صدرت معاهدة
بيع بين المسلمين والبنادقة فى ديوان القبان ويشهد فيها بشهود عدول
ولا تفسخ البيعة الا برضا المتباعين واذا اشترى التاجر المسلم شيئا
من البنادقة فليؤمر بالتقليب والمعاينة الشرعية قبل خروج البضاعة من
مخازنهم وفندقهم وكذلك الفرنج اذا اشترؤا شيئا من البضاعة من
المسلمين فليقبلوا ويعاينوا المعاينة الشرعية قبل اخراجها من مخزن التاجر
المسلم أو فندقه بحيث لا يقع فى ذلك خلف ولا نكس ، فرسم لهم

ان يعتمد ذلك ويعمل به ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين فى ذلك على جارى العادة المذكورة مع طائفة البنادقة .

فصل (١٨) ذكر أن من شروط البنادقة ان العادة أن المغربلين اذا غربلوا لأحد بهارا يأخذون أجرتهم بالكامل، واذا لم يغربلوا ووقع الغبار فباتفاق من غير أن يتعبد ذلك يعمل به فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين على جارى العادة المذكورة ويعمل به .

فصل (١٩) ذكر أن من شروط البنادقة انه اذا دخلوا بأصنافهم الى الشجر المحروس وخرجوا بالأصناف التى يتاعوها تحضر اليهم ضنان الجمال ويأخذون منهم الأجرة بالكامل ثم يحضرون حسارة (مكارين) وغيرهم يحصلون ما معهم من الأصناف فى الدخول والخروج ، ويقولون لهم أصحاب الجمال أعطوا الحسارة أجرتهم وهاتوا أجرة الجمال فستصير الأجرة مثلين ويحصل لهم بذلك الضرر فرسم لهم أن الجمالة لا يأخذون من الفرنج شيئا الا ان شالوا لهم فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين فى ذلك على العادة المذكورة أو لا يؤخذوا الجمالة من الفرنج الفرنتين المذكورين الا ان شالوا لهم .

فصل (٢٠) ذكر فى شرط البنادقة أن مرشدى البحر عند حضور القطائع يشوشون على الفرنج البنادقة وعلى جميع من براكبيهم ويعوقوهم من غير سبب ولا دين شرعى ولا أمر النائب ، وأنه يحصل لهم بذلك الضرر فرسم بأن أحدا لا يشوش عليهم ولا يعوقهم ولا يقف فى طريقهم الا اذا كان عليهم دين شرعى أو بأمر النائب فى ذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين على عادة الشروط المذكورة بأن أحدا لا يشوش عليهم ولا يعوقهم ولا على من براكبيهم ولا يقف فى طريقهم الا ان كان عليهم دين شرعى أو بأمر الجناب العالى عسلا بشروط البنادقة فى ذلك .

فصل (٢١) ان مما جرت به عادة البنادقة انه اذا وصل شختر

او مركب فيه مشروب للبنادقة الجارى به عادتهم يكون للناظر رسم على كل خسين بنية وما فوقها بنية واحدة وانه جدد الناظر عليهم عادة وهو انه اذا حضر اليهم شختر فيها عشر بناني أو خمس عشرة بنية يؤخذ من ذلك بنية نظير ما كان يؤخذ على الخمسين فرسم لهم أن الناظر لا يأخذ منهم بنية الا من خسين فما فوقها على جارى العادة وان كان دون الخمسين فلا يأخذ شيئا ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين على جارى العادة المذكورة ولا يأخذ منهم الناظر الا على كل خسين بنية واحدة وان كان دون الخمسين فلا يأخذ شيئا على جارى عادة البنادقة .

فصل (٢٢) ذكر أن من شروط البنادقة أن ثم من الخاصكية والماليك السلطانية والبريدية الذين يحضرون الى نهر الإسكندرية ومن يشوش على طائفة البنادقة ويسجنهم ويهينهم ويضربهم قصدا لقطع مصالحهم بغير مستند ولا طريق فرسم لهم بنع المذكورين من التعرض اليهم الا بطريق أو مرسوم شريف وكذلك لا يسجنهم النائب ولا يضربهم ولا يمكن أحدا من التشويش عليهم ولا من معارضتهم الا بمستند شرعى أو بمرسوم شريف واذا طلب أحد من البنادقة الحضور الى الأبواب الشريفة لا يمنع ولا يعوق عليهم الأبواب بل يمكن من ذلك بدون تعويق فالجناب العالى يتقدم باجراء جماعة الفرنتين المذكورين الا بمستند شرعى أو بمرسوم شريف ومن طلب منهم الحضور الى الأبواب الشريفة يمكن ولا يعوق على حكم شروط البنادقة المذكورين .

فصل (٢٣) ذكر فى شروط البنادقة أنهم سألوا أن يمكنوا من ركوب الحبير بالشجر المحروس فرسم لهم بذلك بحكم أن يكون لهم عادة بذلك فالجناب العالى يتقدم فيمكن طائفة الفرنتين المذكورين من ركوب الحبير بالشجر المحروس على جارى عادة البنادقة ان كان لهم عادة بذلك .

فصل (٢٤) ذكر أن من شروط البنادقة انه اذا تسلم التاجر الفرنجى بهارا لبيعه فيتسلم التاجر المسلم بضاعته بعد الاتفاق بينهم على أيام معلومة يكتب به ديوان القبان وهى من زيوت طيب وعسل نحل وسابون وبندق وقلب لوز وغير ذلك من سائر البضائع والأصناف فاذا امتنع التاجر المسلم عن تسليم بضاعته بعد وزن البهار العوض ومضت أيام الاتفاق بينهما فتوزن بضاعة التاجر المسلم بحضور شاهدى عدل وتخرج من الديوان أو من المخازن وتصير على ذمة التاجر المسلم فرسم لهم بذلك ، فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين على حكم الشروط التى للبنادقة المذكورة .

فصل (٢٥) ذكر أن من شروط البنادقة أن البضائع التى يقومون بعشورها فى بالخس ، واذا انفصل ناظر الخواص الشريفة وفوض نظر الخاص بغيره فلا يقومون الا بعشورها ولا يطالبون بذلك ثانيا - فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين على حكم الشروط المذكورة فى ذلك .

فصل (٢٦) ذكر أن من شروط البنادقة أنهم اذا أقاموا بالترجمة لمن هو مستقر فى الترجمة فلا يطالبون بترجمة ثانية ولو كانت البضاعة المبيعة مقيمة بالثغر ولو أخرج التاجر الفرنجى بهار العوض فلا يطالب بترجمة ثانية فرسم لهم بذلك حيث ان التاجر الفرنجى أقام بالترجمة أولا للترجمان المنفصل من الترجمة ، فالجناب العالى يتقدم باجراء تجار الفرنتين المذكورين على حكم شروط البنادقة المذكورين فى ذلك .

فصل (٢٧) ان عادة تجار البنادقة أن يبيعوا بضائعهم بظاهر الثغر المحروس وداخل الثغر المحروس وسألوا تجار البنادقة ان يجروا فى ذلك على جارى عادتهم فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء تجار الفرنتين فى ذلك على عادة البنادقة المذكورين واجابتهم لذلك .

فصل (٢٨) ذكر من شروط البنادقة ان التاجر الفرنجى اذا خرج من باب البحر بالثغر المحروس الاسكندرى بقصد السفر وصحبته فرسه ومديته مثل أرز وبيض وسكر وشراب وغير ذلك مما هو للاكل فلا يوزن على ذلك الدرهم الفرد ، فرسم لهم بذلك فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة جماعة الفرنتين المذكورين على حكم شروط البنادقة فى ذلك .

فصل (٢٩) ذكر أن من شروط البنادقة أن الناظر بالثغر المحروس لا يأخذ على المكركات الداخلة اليهم الى الثغر المحروس الا على كل خسين مكركا - مكركة واحدة من غير زيادة على ذلك على حكم ما بأيديهم من الأمثلة الشريفة : فرسم لهم باجرائهم على جارى عادتهم المستمرة الحكم فى آخر وقت من غير أحداث حادث ، فالجناب العالى يتقدم باجراء جماعة تجار الفرنتين المذكورين على جارى عادة لبنادقة فى ذلك المستمرة الحكم الى آخر وقت من غير أحداث حادث .

فصل (٣٠) ذكر أن من شروط البنادقة ان جرت عادتهم أن يخرجوا بهارهم من داخل الثغر المحروس الى ظاهر الثغر من جهة البحر المالح فى وسط السنة ولا يعوق عليهم بهارهم المذكور ، وسألوا البنادقة ان يسنوا من اخراج بهارهم الى ظاهر الثغر المحروس فى وسط السنة لا يعوق عليهم أجرا على جارى عادتهم فرسم لهم بذلك اجراء على عادتهم المستمرة الحكم الى آخر وقت فالجناب العالى يتقدم باجراء طائفة الفرنتين المذكورين على جارى عادة البنادقة المذكورة من اخراج بهارهم من جهة البحر المالح فى وسط السنة على جارى العادة .

فصل (٣١) سأل القاصد المذكور انه اذا أورد أحد طائفتهم من التجار الى الثغر السكندرى وغيره بالملكة الشريفة ببضائع وأقام بها على البضاعة من الموجب واختار تحويلها الى حاصله يمكن من ذلك

فصل (٣٥) سأل القاصد المذكور للصدقات الشريفة أنه اذا حضر

قنصلهم وتجارهم الى الثغر المحروس يعين لهم فندق ينزلون فيه على العادة في ذلك فرسم لهم بذلك الجنب العالي يتقدم بأنه اذا حضر القنصل المذكور وتجارهم يعين لهم الجنب العالي فندقا ينزلون فيه على العادة في ذلك مع الوصية بهم وكف أسباب الأذى والضرر عنهم وسط المعدلة الشريفة فيهم والاحسان اليهم ويستمر هذا المرسوم الشريف بيدهم بعد العسل به قولاً واحداً وأمرأ حازماً والمراسيم الشريفة تؤكد عليه في ذلك غاية التأكيد تحيط علمه بذلك والله الموفق الأكرم .

ان شاء الله تعالى

في سابع عشر من جمادى الآخرة احدى وتسعمائة

حسب المرسوم الأصلي

وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد النبي (١٨) .

(22 feb. 1496)

ملحق رقم (١٩)

خطاب السلطان قايتباي الى حاكم فلورنسا بمنح رعاياه وتجاره في بلاده امتيازات خاصة بالتجارة ، وصورة الخطاب لنائب الاسكندرية والشام مراعاة هذه الطائفة

السلطان الأعظم المالك الملك الأشرف السيد الأجل العالم العادل المجاهد المناغر المرباط المظفر ، سيف الدولة والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين . منصف المظلومين من الظالمين ، قانع الخوارج والمتمردين ، اسكندر الزمان ، مولى الاحسان جامع

Amari, I Diplomi Arabi XL, pp. 184-209 & pp. 436 ff.

(١٨)

ولا يعارض أحد في ذلك ويبيع لمن يختار وانه اذا ثنوا البضاعة لا تشن الا بسعر ذلك الوقت في البندر ، واذا قصدوا أخذ موجب زائده لا يسكنوا من ذلك وأن يؤخذ الموجب من كل صنف بقدره فرسم لهم بذلك ، فالجنب العالي يتقدم باعتماد ما رسمنا من ذلك .

فصل (٣٢) سأل قاصد القرنيتين المذكور للصدقات الشريفة انه

اذا باع تاجر فرنجي الى تاجر مسلم وكان التاجر المسلم قد أخذ البضاعة بالدين الى القاهرة وقصد الفرنجي ومعه البضاعة فحضر صاحب البضاعة الأول وادعى أنها بضاعته لا تسع دعواه عليه بذلك ، لأن الملك لمن هو بيده وان أحدا لا يعارض تاجرا افرنجيا من المذكورين ولا يشوش عليه ولا يبلغه لا من خاصكي ولا من بربري ولا من شوكة من غير حق الا بمرسوم شريف واذا حصل لهم مظلمة بغير حق وبغير مرسوم شريف وقصد الحضور الى الأبواب الشريفة يسكن من ذلك ولا يعوق لخلاص حقه فرسم لهم بذلك فالجنب العالي يتقدم باعتماد ما رسمناه من ذلك .

فصل (٣٣) سأل القاصد المذكور للصدقات الشريفة انه اذا قصد

قنصلهم الحضور الى الأبواب الشريفة لظلم حصل عليه في البندر أو لأحد من تجاره أو وردت عليه كتب من بلاده لعمل مصالحهم يسكن من الحضور الى الأبواب الشريفة فرسم لهم بذلك فالجنب العالي يتقدم باعتماد ما رسمناه به من ذلك .

فصل (٣٤) سأل القاصد المذكور انه اذا أحضرت مراكبهم

وقطائعهم وأحضر معهم ذهباً نقداً لأجل الشراء والمصروف وقصدوا اخراجه في معاملة مقامنا الشريف يخرج كمثل ذهب البنادقة على أوزانه وعياره الطيب فان التاجر ما يقدر يحمل ضرب ذهب البنادقة ولا لهم حيلة غير ضرب بلدهم وان الذهب المذكور يكون طيب العيار والوزن فرسم لهم بذلك فالجنب العالي يتقدم باعتماد ما يكون الذهب طيباً ووزناً كامل العيار .

الينادقة ويكونوا آمنين مطمئنين فتعلموا بذلك تعلمنا به والله تعالى
الموفق الأكرم .

ان شاء الله تعالى .

فى عاشر من جىادى الآخرة سنة احدى وتسعةائة

حسب المرسوم الشريف والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبى
بعده حسبنا الله ركن - تم .

حضرة المشايخ الموقرين والمبشرين العارفين الابطال المحترمين مجدد
آهل ملتهم كبراء طائفتهم اختيار الملوك والسلطين وفقهم الله تعالى .
متايخ طائفة الفرنج الفرنتين (١٩) .

ملحق رقم (٢٠)

مرسوم سلطانى صادر من السلطان قنصوة الغورى لجميع عماله
ونوابه وموظفى الدولة فى الاسكندرية وجميع بلاد السلطان بتنفيذ
ما تضمنه هذا المرسوم لطائفة الفرنتين الوافدين لبلاد السلطان وتأيد
ما منح لهم من امتيازات سابقة وهو بتاريخ ١٨ من ذو القعدة ٩١١هـ / ١٢
من ابريل ١٥٠٦ م .

مرسوم شريف .

الى كل واقف عليه وناظر اليه من الجنابات العالية والمجالس
السامية النواب والحجاب والمباشرين والنظار والمتكلمين وأرباب
الادراك وأصحاب الوظائف بالثغر الاسكندرى المحروس وغيره من

(26 feb. 1496)

Amari, I Diplomi Arabi. XLI, pp. 210, 213 & p. 443.

(١٩)

مكتوبة باللغة العربية

كلية الايمان ، مملك اصحاب المناير والتخوت والبيجان ، فاتح الاقطار
مانح المسالك والاقاليم والامصار ، مبيد الطغاة والبغاة الكفار ، وارث
الملك سلطان العرب والعجم والترك ، خادم الحرمين الشريفين مملك
سبل القبلتين ظل الله فى أرضه القايم بسنته وفرضه ، سلطان البسيطة
مؤمن الأرض المحيطة ، سيد الملوك والسلطين قسيم أمير المؤمنين
أبو النصر قايتباى خلد الله تعالى سلطانه ونصر جيوشه وأحزابه
وخدمته وأعوانه .

بسم الله الرحمن الرحيم

لعلم حضرة المشايخ المبجلين

الموقرين العارفين الابطال، مجدد آهل ملتهم كبراء طائفتهم اختيار
الملوك والسلطين وفقهم الله تعالى، أن قصادهم حضروا الى أبوابنا
الشريفة وأحطنا لهم علما وأجناهم الى ما سألوا فيه كتابة مراسم
شريفة تتضمن شروط أن تجهزوا قنصلا من طائفتهم يقيم بالثغر
الاسكندرى المحروس وان تحضر تجارهم الى الثغر الاسكندرى
المحروس بستاجرهم وبضائعهم للبيع والشراء على عادة البنادقة ورسنا
بالكتابة الى الثغر الاسكندرى والى الشام المحروس أعلننا بذلك
ورسنا باعادة قصادهم فعادوا على أحسن الوجوه ورسنا بتجهيز
المجلس السامى الخواصكى الشسى بن محفوظ أحد أعيان التجار
وصحبتهم بما جهز معهم على سبيل الهدية من خدمة مقامنا الشريف
وكتبنا الى حضرة المحتشم دوق الفرنتين بأعلاه مبينة فيتقدموا بالاقبال
على الخواجا بن محفوظ ومعاملته بالاكرام والاحترام وتجهزوا قنصلا
من الفرنتين الى الثغر الاسكندرى المحروس يقيم به على عادة قنصل
البندقية ويطيخوا خواطر تجارهم ويأمروهم بالحضور الى الثغر
الاسكندرى ببضائعهم ومتاجرهم للبيع والشراء والقياض على عادة

الثغور الاسلامية والسواحل بممالكنا الشريفة ضاعف الله تعالى نعمة
الجنابات العالية وأعز المجالس السامية يتفطن اعلامهم .

١ - قد برزت مراسنا الشريفة لطائفة الفرقتين من الافرنج
بالأمان والاطمئنان والأخذ والعطاء والبيع والشراء وأن يحضروا
الى الثغر الاسكندري المحروس والى غير من الثغور الاسلامية والى
السواحل بممالكنا الشريفة ببضائع متجر ولهم الأمان والاطمئنان
والبيع والشراء والأخذ والعطاء وعليهم أمان الله تعالى وأماننا الشريف
فيتقدم كل واقف عليه من الجنابات والمجالس بالوصية التامة لهم
اكرامهم واحترامهم ومعاملتهم بالعدل ومنع من يتعرض لهم بسوء
أو ضرر ولهم عادة التجار من الافرنج وأن يحضروا الى ثغر
الاسكندرية ولهم الأمان والاطمئنان فى البيع والشراء والأخذ والعطاء
وأنهم يحضرون طيبى القلب منشرحى الصدر أمنين على أنفسهم
وأموالهم ومراكبهم وإذا حضروا من غير المراكب لطائفتهم يكون لهم
الأمان فى البر والبحر وان يعاملوا بالعدل الشريف ولا يحدث حادث
ولا مظلم وألا يوزنوا الا أسوة بالتجار البنادقة وغيرهم من تجار
الافرنج الذين يحضرون الى الثغر الاسكندري فى البحر وذلك على
حكم ما بيدهم من المراسيم الشريفة فى أيام الملك الأشرف العبد
الشهيد قايتباى سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان على يد
قاصدهم الوزير « دالستوفا » مع الوصية لهم ومنع من يتعرض لهم
بسوء أو ضرر .

٢ - من هلك منهم عن وصية فليعمل بها من غير أن يتعرض
أحد لوصيته .

٣ - اذا انكسر مركب من مراكب الفرقتين بممالكنا الشريفة
فلا أحد يتعرض الى البضاعة ولا الى أى شىء منهم سوى السلاح
على ما جرت به العادة من تقادم السنين .

٤ - اذا حضر بلادهم قنصل فلا أحد يحكم بين طائفة الفرقتين
الا القنصل يتعامل قولاً واحداً وأمرأ حازماً ومراسنا الشريفة تؤكد
عليهم فى ذلك غاية التأكيد فيحيط علمهم بذلك والله تعالى الموفق
بنيته وكرمه .

ان شاء الله تعالى .

فى ثامن عشر فى القعدة الحرام سنة احدى عشر وتسعمائة .

حسب المرسوم الشريف والحسد لله تعالى وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وسلم (٢٠) .

ملحق رقم (٢١)

هذا الخطاب موجه من حاكم فلورنسا الى السلطان الأفخم
قانسوه الغورى بشأن الهدايا المرسلة مع سفيره تغرى بردى عام
١٥٠٧ وهو فى طريقه الى أوروبا وتقديمه مقترحات جديدة من سيده
السلطان بامتيازات أخرى لتجار الفرقتين فى بلاد السلطان .

السيد السلطان الأفخم .

حيث ان الأفخم سفيركم تغرى بردى ترجمانكم الموجود بالبندقية
الآن قد أظهر عواطفه الطيبة نحونا وعرض من جانبه الأمان والمعاملة
الحسنة لكل تجارنا الذين يذهبون للمتاجرة ببلاد عظمتكم فاننا نقدم
الشكر لهذا الكرم العظيم وان كل ما يسكن أن يخطر على البال من
عبارات الشكر تقى بالواقع ونظن أن فخامتكم تقدرون أننا نشعر به
وبأمانته . وقد قبلنا الهدية التى أرسلت لنا على يد سفيركم تغرى

بردى وحملناه الشكر العظيم لكم وامتناننا لكم ولعمالكم الذين
سيمنحون الأمان والتسهيل والثقة ولا تشك أننا حصلنا على امتيازات
مثل هذه فى أى وقت مضى لمواطنينا فى بلدكم (٢١) .

ملحق رقم (٢٢)

مرسوم موجه لجماعة الفرنتين ولتجارهم فى بلاد السلطان
باعقاعات وامتيازات جديدة وصورة المرسوم لعمال ونواب السلطان
لمراعاة تجار هذه الطائفة فى بلاده بتاريخ ٢٢ جمادى الآخرة ٩١٣ هـ
٢٩ أكتوبر ١٥٠٧ م .

مرسوم شريف أن يتقدم كل واقف عليه من جماعة الفرنتين
وفقههم الله تعالى باعتماد ما تضمنه هذا المرسوم الشريف والعمل به
على ما شرح فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسم بالأمر الشريف العالى المولوى قانصوه الغورى السلطان
الملكى الأشرفى السيفى أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه أن
يسطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه من جماعة الفرنتين
وفقههم الله تعالى بعلمهم أن المجلس السامى الأميرى الترجمان الكبير
المقصدى الذخيرى الأوحدى الأكل السيفى تغرى بردى الترجمان
القاصد أدام الله سعده حضر الى خدمة أبواننا الشريفة وذكر لنا أنه
جهز اليكم امانا شريفا لا يحصل معه تشويش على أحد فقد أحاطت

Amari, I Diplomi Arabi, XLIX (1507).

(٢١)
80 La Signoria di Firenze, al Sultano d'Egitto Ningranziamento dei fa-
vori commerciali promenai d'all'ambasciatore Tangaberdi (Italiano 1507 -
15 April).
(Nell'archivio Fiorentino, Signori Carteggio, missine, registro I, Cancel-
leria(No. 54 fog 181 recto.)

مكتوبة باللغة العربية

علومنا الشريفة بذلك وهو ناشئ عن مقامنا الشريف ورسنا لكم أن
تحضروا الى موانينا الشريفة بالغر الاسكندري وثر دمياط وبرلس
ورشيد وسائر الموانى الداخلة فى حوزتنا الشريفة وتبيعوا وتشتروا
أسوة ببقية التجار وعليكم الأمان من الله تعالى وأمان رسوله صلى الله
عليه وسلم وأماننا الشريف ورسنا بمنع من يتعرض لكم بأذية أو ضرر
أو تشويش وألا يطالب الأب عن ابنه ولا الأخ عن أخيه الا بمسند فى
الغر الاسكندري أو فى ثغر من ثغور الاسلام بمسند شرعى - فيقدموا
باعتماد ما رسنا به من ذلك على الحكم المشروح أعلاه ويحضروا
الى ثغور مملكتنا الشريفة طيبى القلب منشرحى الصدر آمنين على
أنفسكم وأموالكم لا يسهم ضرر ولا سوء فيتعلموا ذلك ويعتمدوه
والله الموفق بسنه وكرمه ان شاء الله تعالى - فى ثانى عشرين
من شهر جمادى الآخرة المبارك سنة ثلاث عشرة وتسعمائة (٢٢ جمادى
الآخرة ٩١٣ هـ) .

حسب المرسوم للشريف الحمد لله رب العالمين وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم نعم الوكيل حسبنا الله تعالى . تم
(٢٢ أكتوبر ١٥٠٧) (٢٢) .

ملحق رقم (٢٣)

أمر من السلطان قانصوه الغورى لتسهيل الأمر على تجار
الفرنتين فى موانى مصر . الملك الأشرف قانصوه الغورى سلطان
مصر .

أمر بمرسوم بخصوص نفس موضوع موانى الاسكندرية

Amari, I Diplomi Arabi, XVII, pp. 218 - 219 - 220.

(٢٢)

مكتوبة باللغة العربية

مرسوم من السلطان قانصوه الغورى بشأن منح وامتيازات جديدة لطائفة الفرنتبيين لدى وصولهم لبلاده . وذلك بناء على طلب سفيرهم الى السلطان وهو السيد برنالدين بيروشوا Bernardo Baruzzi ومنحهم موصفا لتجارتهن ومركزا لتتصلهن على مثل ما نفيرهن من الفرنجة فى بلاد وموانى السلطان . (١٠ ربيع أول ٩١٥ هـ - ٥ يوليو ١٥٠٩ م) .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله ووليه السلطان الأعظم المالك الملك الأشرف السيد الاجل العالم العادل والمجاهد المؤيد الرابط والمثابر المظفر والمنصور سيف الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين محيى العدل فى العالمين منصف المظلومين من الظالمين وارث الملك ملك العرب والعجم والترك ظل الله فى أرضه القائم بسنته وفرضه فاتح الأقطار فاتح المسالك والامصار اسكندر الزمان مولى الاحسان مملك اصحاب المنابر والاسرة والتخوت ملك البحرين ملك سبيل القبلتين خادم الحرمين الشريفين سلطان البسيطة مؤمن الأرض المحيطة جامع كلمة الايمان ناشر لواء العدل والاحسان سيد ملوك الزمان امام المتقين قسيم أمير المؤمنين أبى النصر قانصوه الغورى خلد الله سلطانه ونصر جيوشه وأعوانه وأعلى على همام الجوزاء مكانه ...

صدرت هذه المكاتبه الى حضرة الملك الجليل البطل الباسل الهمام السيد الغضنفر فخر الملة المسيحية وذخر الأمة النصرانية عماد بنى المعمودية صديق الملوك والسلطين وفقه الله تعالى وبقية مصارع السوء ويجرى له بالسلام فى النفس والمال احكامها يتضمن الاعلام أن علومنا الشريفة أحاطت بضمون قصته الواردة الى خدمة أبوابنا

ودمياط والبرلس ورشيد نوفمبر ١٥٠٨ - ٩١٤ هـ . أمر من فضامة السلطان بوجوب عمل كل ما هو مذكور بعد لطائفة الفلورنسيين .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أمر به السلطان الملك الأشرف السيفى الذى رفعه الله .. والحمد لله أنه يجب أن تكون أوامر السلطان مطاعة فى كل بلاده - أن الأمير الترجمان « تغرى بردى » عرض علينا كما طلبتم أيها الفلورنسيون باسنا الأمان والطمانية ولما سمعنا كلماته وما قاله لنا - أمر بالأمان واطمان لهم فى موانينا بالاسكندرية ودمياط ورشيد والبرلس وكل الموانى التابعة لنا ، لبيع والشراء حسب العادة المتبعة من التجار - وقد ارتضينا أن تكونوا أيها الفلورنسيون تحت حماية الله وحمايتنا الشخصية بهذا المرسوم ، من ألا أحد يعترض عليكم أو يزعجكم أو يضايقكم ولا يؤخذ الابن بجريرة الأب ولا التريب بالقرب ولا يطالبوكم بأى شئ لئى سبب فى الحال والاستقبال . يريد منكم أن تشعروا بالعدل فى أراضينا وفى أى بلد توجدوا فيه - وإذا رغبتهم أن يحضروا فى بلادنا فذت نرضى أن يحضروا تحت مرسومنا وأماننا السابق وبكل أمان وثقة وأن تكونوا آمنين على أموالكم وأشخاصكم ولا تخشوا من أى ازعاج أو مضايقة والله هو الذى يعطى الخير لكل انسان ..

سنة النبى ٩١٤ هـ - ١٥٠٨ م .

(منشور السلطان الى الفلورنسيين والى عماله بمراعاة مصالحهم فى بلاده وهو الذى أصدره السلطان بعد عودة تغرى بردى الى القاهرة بناء على طلب حاكم فلورنسا) (٢٣) .

(٢٣) مكتوب باللغة العربية

Amari, I Diplomi Arabi, L. p. 388.
82 Nell Archivio, fiorentino atti pubblici Tom X., Tuniai, No. 10.
Novembre 1508. DCCCCXIII 91411.

الشريفة على يد قاصده برنالددين يبروشوا في معنى ما قصده حضرة الملك من عمل موسم بشعر الاسكندرية المحروس كعادة غيره من تجار الفرنج وانه تجهز تجارا وقنصلا يقيم بالشعر بالاسكندرية من الجباكية وما سأل فيه من بروز أمرنا الشريف يكتب مرسوم شريف بتأمين القنصل والتجار عند حضورهم ومضاعفة الوصية لهم ومعاملتهم بالعدل الشريف والنداء لهم بالامان الطمان والبيع والشراء والأخذ والعطاء على عادة أمثالهم بحيث يكونوا آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم وآلا يطلب أحد ما لم يكن ضامنا أو كفيلا واذا باعوا واشتروا وقاموا بما يجب عليهم للدواوين الشريفة وقصدوا وسعروا مايتعاونونه في مراكبهم أو في مراكب يختارونها وقصدوا العود من حيث أتوا فيمكنوا من ذلك ولا يعوق عليهم ولا يؤخذ منهم بضاعة غصبا الا يرضاهم واذا انصاح (انصلح - أو انصاخ) لهم مركب من ربح عرضت فيمكنوا من رجالهم وبضائعهم أسوة أمثالهم ويساعدهم المتكلمون عن مقامنا الشريف في ذلك اذا هلك واحد منهم عن وصية فيعمل بمضمون وصيته وان هلك عن غير وصية وترك موجودا فيسلم الموجود للقنصل على الصون الشريفة وعلينا ذلك مفصلا وصار ذلك على خواطرننا . وأجبنا حضرة الملك الى ما سأل فيه من ذلك وبرز أمرنا الشريف بكتاب أمان شريف للقنصل والتجار وما سأل فيه حضرة الملك وجهز ذلك اليه ورسومنا للمجلس العالي الأميري الكبيرى المجاهدى المؤيدى الذخيرى النصرى الأوحدى الأكلى الأعزى السيفى عمدة الملوك والسلطين تغرى بردى أحد أعيان أمراء العشرات بالديار المصرية والترجمان بأبوابنا الشريفة ادام الله تعالى سعده بأن يكتب الى حضرة الملك بما فيه اطابة خواطر التجار بما سيعلم حضرة الملك بأمر تجاره وجماعته بالحضور الى ثغر الاسكندرية المحروس للبيع والشراء والأخذ والعطاء ولهم الأمان والاطمان على جارى العادة من ذلك ومستقر القاعدة من غير ضرر ولا تشويش ، وقد اعدنا اليه

قصد بهذا الجواب الشريف فعمله باعتداده والله تعالى الموفق سبحانه .

ان شاء الله تعالى
فى رابع عشر ربيع الأول المبارك سنة خمس عشرة وتسعمائة
حسب المرسوم الشريف .
الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآله وسلم
حسبنا الله ونعم الوكيل . تم . (خطاب السلطان لحاكم فلورنسا) .
حضرة الملك الجليل البطل الباسل الهمام السميع الغضنفر فخر
الملة المسيحية ذخر الأمة النصرانية عماد بنى المعمودية صديق الملوك
والسلطين وفقه الله تعالى صاحب الفرتين (٢٤) .

ملحق رقم (٢٥)

مرسوم صادر من السلطان قانصوه الغورى الى جميع نوابه
وموظفيه وعماله لمراعاة مصالح الفرتين فى بلاده .

الاسم الشريف

مرسوم شريف أن يتقدم كل واقف عليه من النواب والنظار
والحكام والمباشرين والمتكلمين وتجار الذخيرة الشريفة وولاة الأمور
بشعر الاسكندرية المحروس أميرهم الله تعالى اعتماد ما تضمنه هذا
المرسوم الشريف والعمل على ما شرح فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسم بالأمر الشريف العالي المولوى قانصوه

السلطانى الملكى الأشرف البينفى أعلاه الله تعالى وشرفه
وأثقه وصرفه أن يسطر هذا المرسوم الشريف الى كل واقف عليه

من النواب والنظار والحكام والمباشرين والمتكلمين وتجار الذخيرة الشريفة وولاية الأمور بشعر الاسكندرية المحروس أيدهم الله تعالى عليهم أنه حضر الى خدمة أبوابنا الشريفة قاصد حضرة الملك الجليل الهسام الفرغام صاحب فرنتين هو المحتشم المبجل برنالدين يروشوا بسا على يده من كتاب مرسله المذكور ذكر فيه أنه يقصد أن يعمل موسسا بشعر الاسكندرية المحروس على ما يترتب له من الجامكية أسوة بغيره من القناصلة وسأل صداقتنا الشريفة في أن يبرز مراسمتنا الشريفة بكتب هذا المرسوم الشريف بتأمين القنصل والتجار عند وصولهم الى الشعر المحروس للبيع والشراء والأخذ والعطاء ومعاملتهم بمعدلتنا الشريفة ومضاعفة الوصية بهم والنداء اليهم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء والأخذ والعطاء على عادة أمثالهم بحيث يكونوا آمنين مطمئنين على أنفسهم وأموالهم وألا يطالب أحد منهم عن أحد ما لم يكن ضامنا أو كفيلا وإذا باعوا واشتروا وقاموا بسا يجب عليهم للدواوين الشريفة وقصدوا وسق ما يتاعونه من مراكبهم أو بمراكب اختاروا وقصدوا العود من حيث أتوا فيمكنوا من ذلك وألا يؤخذ منهم بضاعة غصبا الا برضاهم ، وإذا انصاح لهم مركب من ربح عرضت لهم فيمكنوا من رجالهم وبضائعهم أسوة أمثالهم . وإذا هلك واحد منهم عن وصية فيعمل بضمون وصيته وإذا هلك من غير وصية وترك موجودا فيسلم موجوده الى قنصلهم ما لم يكن وارثه حاضرا على جارى العادة في ذلك فأجناه الى ما سأل فيه من ذلك ورسنا بكتب هذا المرسوم الشريف للبيع والشراء والأخذ والعطاء على جارى العادة في ذلك ومستقر القاعدة واجهار النداء اليهم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء والأخذ والعطاء على جارى العادة في ذلك ومستقر القاعدة قولاً واحداً وأمرنا حازماً ومراسمتنا الشريفة تؤكد في ذلك غاية التأكيد فيحيط ان شاء الله تعالى .

فى رابع عشر من ربيع الأول المبارك سنة خمس عشرة وتسعمائة
حسب المرسوم الشريف فالحمد لله وحده وصلى الله على نبيه محمد
وسلم .. تم (٩ يوليو ١٥٠٩) (٢٥) .

(٢٥) مكتوبة باللغة العربية

Amari, I Diplomi Arabi, XLV-LII.
84 Lo Stretto : Edito Comunicato ai luogotementi ad altri oficiali d'Ale-
xandria sul Commercio do Fiorentini (Arabice p. 226. Ital. p. 391, 392)
pp. 226-229. 9 luglio 1509.

أولا : المراجع العربية

١ - المخطوطات

- ١ - الاسدى محمد بن محمد ٩ هـ / ١٥ م -
كتاب التيسير والاعتبار والتحرير والاخبار فيما يجب من
حسن التدبير والنصيحة والتصرف .
مخطوطة بدار الكتب برقم ٥٤٨٢ تاريخ ج ١ مصورة .
- ٢ - ابن الاثير الجزرى : أبو المحاسن على بن أبى الكرم بن عبد الواحد
٨٧٢ هـ .
نخلة العجائب وطرفة الغرائب -
مخطوطة بدار الكتب برقم ط ١٣٤٤ .
- ٣ - ابن اياس : محمد بن أحمد ١٥٢٤ م / ٩٣٣ هـ . -
نشق الازهار فى عجيب الاقطار وهو كتاب خريدة العجائب
وفريدة الطالب - .
مخطوطة بدار الكتب برقم ٤٣٩ جغرافيا و ٣٣٢٠ ادب .
- ٤ - أبو المحاسن : ابن تغرى بردى - حوادث الدهور فى مدى الأيام
والشهور . نسخة مصورة بدار الكتب عن الأصل المخطوط
بستانبول المجلد الأول من الجزء الأول ٢٠٠ ورقة -
مخطوطة برقم ٢٣٩٧ تاريخ .
- ٥ - ابن زنبيل الرمال : أحمد بن زنبيل الرمال المحل - قرن ١٠ هـ . -
آخرة الممالك أو وقعة السلطان سليم خان فى فتوح مصر مع
السلطان النورى وطومانباى .
مخطوطة بدار الكتب برقم ٤٤ م - ١٢٤ م - ١٢٩ م .
- ٦ - الخالدي :
كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادى لصناعة الانشا .
مخطوطة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٤٥ .

٧ - السخاوى ، أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد ١٤٢٧/١٤٩٧ م

٩٠٢/٨٣١ هـ . -

كتاب التبرك المسبوك فى سير السلوك .
منقولة عن نسخة مخطوطة برقم ٤٠ تاريخ بدار الكتب .

٨ - المستقلانى : ابن حجر ٨٥٢ هـ - ١٤٤٨ م .

انباء الفهر بانباء العمر .
مخطوطة بدار الكتب فى جزئين برقم ٢٤٧٦ تاريخ .

٩ - النبراوى : عبد الرحمن نصر بن محمد -

نهاية الرتبة فى طلب الحسبة .
مخطوطة بجامعه القاهرة برقم ٢٤٥٠٣ .

١٠ - محمد بن سباهى : ٩٩٦ هـ -

أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك .
مخطوطة بدار الكتب برقم ١ جغرافيا .

٢ - كتب مطبوعة

١ - ابن البيطار : الشيخ ضياء الدين ابى محمد المالقى الأندلسى
٦٤٦ هـ . الجامع لمفردات الادوية والأغذية - اربعة أجزاء .
القاهرة ١٢٩١ هـ

٢ - ابن الفقيه : أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني .
كتاب البلدان .

ليدن ١٣٠٢ هـ

٣ - ابن الوردي : سراج الدين أبى حفص عمر .
خريدة العجائب وفريدة الغرائب (جزآن) .
القاهرة ١١٣٦ م

٤ - ابن أيوب : السلطان الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل
كتاب تقويم البلدان ، نشر رينود وماك كوكين .
باريس ١٨٤٠ م

٥ - ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله .
تحفة الانظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (جزآن) .
القاهرة ١٩٢٨ م

٦ - ابن تيمية :
الحسبة فى الاسلام .
القاهرة ١٣١٨ م

٧ - ابن جبير : محمد بن أحمد -
رحلة ابن جبير او تذكرة بالآخبار عن اتفاقات الأسفار .
القاهرة ١٩٥٥ م

- ٨ - ابن حجر :
الدور الكامنة فى اعيان المائة الثامنة (٤ أجزاء) .
القاهرة ١٢٨٧ هـ
- ٩ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد .
(١) مقدمة ابن خلدون .
القاهرة ١٩٠٩
(ب) العبر وديوان المبتدأ والخبر (٧ أجزاء) .
القاهرة ١٢٤٨ هـ
- ١٠ - ابن حوقل : أبو القاسم :
كتاب المسالك والممالك .
ليدن ١٨٧٢ م
- ١١ - ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله
كتاب المسالك والممالك - شرح وطبع جوجيه .
ليدن ١٣٠٩ هـ
ليدن ١٨٨٩ م
- ١٢ - ابن دقماق المصرى : صارم الدين ابراهيم بن محمد .
كتاب الانتصار بواسطة عقد الامصار ج ٤ وج ٥ .
بولاق ١٨٩٣ م
- ١٣ - ابن شاهين الظاهري ١٤٩٧ م
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .
باريس ١٨٩٤ م
- ١٤ - ابن فضل الله العمري :
رسالة لابن فضل الله العمري .
روما ١٨٨٣ م
- ١٥ - ابن فضل الله العمري :
التعريف بالمصطلح الشريف .
القاهرة ١٣١٢ م
- ١٦ - ابن ممتي : الاسعد ٦٠٦ هـ - ١٢٠٩ م
فوائيد الدواوين (نشر عزيز سوريال عطية)
القاهرة ١٩٤٢ م

- ١٧ - أبو شامة : عبد الرحمن بن اسماعيل .
كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين - جزءان .
القاهرة ١٢٨٧ هـ
- ١٨ - أبو محمد عبد الله بامخرمة :
تاريخ ثغر عدن - جزءان .
ليدن ١٩٣٦ م
- ١٩ - أبو المحاسن :
النجوم الزاهرة فى تاريخ ملوك مصر
والقاهرة - ١٢ جزءا بدار الكتب وطبعة أخرى بكاليفورنيا .
القاهرة ١٩٥٦ م
- ٢٠ - ابن اياس :
بدائع الزهور فى وفائع الدهور - ٣ أجزاء طبع بولاق ١٣١٢ هـ
وج ٤ . ج ٥ طبعة محمد مصطفى .
استنبول ١٩٣٢ م
- ٢١ - أحمد دراج :
الممالك والفرنج .
القاهرة ١٩٦١ م
- ٢٢ - آدم منز :
الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ - ج ٢
ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده .
القاهرة ١٩٤١ م
- ٢٣ - البغدادى ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م :
كتاب الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث المماينة
بارض مصر .
(نشره وعلق عليه ده ساسى)
- ٢٤ - الحافظ : أبو عثمان عمر بن بحر ٨٦٩ هـ
كتاب التبصر بالتجارة .
القاهرة ١٩٣٥ م
- ٢٥ - الجزيرى :
كتاب الفقه على المذاهب الاربعة - ٤ أجزاء .
القاهرة ١٩٣٥ م

٢٦ - السيوطي : جلال الدين بن أحمد : حسن المحاصرة
في أخبار مصر والقاهرة ج ٢
القاهرة ١٩٤٩ م

٢٧ - الفقيه الشيخ زين الدين ١٥٧٩/٩٨٥ :
تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين .
لندن ١٨٢٨ م

٢٨ - القرماني : أبو العباس بن أحمد الدمشقي :
أخبار الدول وآثار الأول .
بولاى ١٢٩٠ هـ

٢٩ - القلقشندي : أحمد بن علي ١٤١٨/٨٢١
صبح الاعشى في صناعة الانشا - ١٤ جزءا .
القاهرة ١٩١٩ م

٣٠ - المسعودي :
مروج الذهب ومعادن الجوهر - جزآن .
باريس ١٨٦١ م
باريس ١٨٧٧ م

٣١ - المقدسي : شمس الدين أبو عبد الله الشامي
احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .
لندن ١٩٠٩ م

٣٢ - المقرئ : تقي الدين بن أحمد ١٤٤١ م :
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - جزآن طبعة بولاى .
١٢٧٠ - ٤ اجزاء طبعة النيل .

١٩٠٧ م

٣٣ - المقرئ : تقي الدين بن أحمد :
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قسم أول وثان صححه
ونشره وعلق عليه دكتور زيادة .

١٩٣٤ م

٣٤ - انجندى : أحمد بن ماجد -
أرجوزة العرب في خليج فارس أو حاوية الأخبار في أصول علم
البحار ، نشره وعلق عليه فراند .

١٢٩١ م

٣٥ - يزك بن شهريار الناختاه الرامهرمزي :
عجائب الهند، بره وبحره .

لندن : ١٨٨٣/١٨٨٦ م

٣٦ - توفيق اسكندر :
(أ) نظام المقايضة في تجارة عصر الخارجية في العهد اوسيط .
بحث مستخرج من المجلد السادس من مجلة الجمعية المصرية
للدراستات التاريخية .

١٩٥٧ م

(ب) بحث في التاريخ الاقتصادي (مترجم) الجمعية المصرية
للدراستات التاريخية .

١٩٦١ م

٣٧ - جاستون فييت :
مصر الاسلامية .

القاهرة ١٩٤٠ م

٣٨ - جورج ناضلو حوراني :
العرب والملاح في المحيط الهندي (مترجم) .
القاهرة ١٩٥٨ م

٣٩ - جورج يعموب :
أثر الشرق في الغرب وخاصة في العصور الوسطى . ترجمه
فؤاد حسين علي .

القاهرة ١٩٤٦ م

٤٠ - حسن عثمان :
تاريخ مصر العام (بالاشتراك) مصر العثمانية نشره قسم التاريخ
بآداب القاهرة .

القاهرة ١٩٤٢ م

٤١ - زكي محمد حسن :

(أ) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى .
القاهرة ١٩٤٥ م

(ب) فنون الاسلام .
القاهرة ١٩٤٨ م

- ٤٨ - صبحى لبيب :
التجارة الكارمية، ومباردة مصر فى العصور الوسطى - المجلد
التاريخية المصرية - مجلد ٥ عدد ٢ .
القاهرة ١٩٥٢ م
- ٤٩ - طاهر مكي :
(أ) المجلة - عدد سبتمبر ١٩٦٠ .
القاهرة ١٩٦٠ م
(ب) المجلة - عدد يناير ١٩٦١ .
القاهرة ١٩٦١ م
- ٥٠ - عبد الرحمن فهمى :
النقود العربية : ماضيها وحاضرها .
القاهرة ١٩٦٤ م
- ٥١ - فيشر :
تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ج ٢
نقله الى العربية زيادة والعرينى والعدوى .
القاهرة ١٩٥٧ م
- ٥٢ - محمد جمال الدين سرور :
دولة بنى قلاوون فى مصر .
القاهرة ١٩٤٧ م
- ٥٣ - محمد جمال الدين الشيال :
لاطلس التاريخى لمدينة الاسكندرية من أقدم العصور الى الوقت
الحاضر المجلة التاريخية المصرية - المجلد الثانى - القاهرة .
أكتوبر ١٩٤٩ م
- ٥٤ - محمد عبد الله عنان :
(أ) مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية .
القاهرة ١٩٣١
(ب) تراجم إسلامية نرقية وأندلسية .
القاهرة ١٩٣٦ م

- ٤٢ - ستانلى لين بول
(أ) سيرة القاهرة (مترجم) حسن ابراهيم وزميله .
القاهرة ١٩٥٠ م
(ب) العرب فى اسبانيا (مترجم) على الجارم .
القاهرة ١٩٤٤ م
- ٤٣ - سعيد عاشور
(أ) فبرس والحروب الصليبية .
القاهرة ١٩٥٧ م
(ب) المجتمع المصرى فى عصر ملاطين الماليك .
القاهرة ١٩٦٢ م
(ج) مصر فى عصر دولة الماليك البحرية .
القاهرة ١٩٥٩ م
(د) العصر المملوكى فى مصر والشام .
القاهرة ١٩٦٥ م
(هـ) أوروبا فى العصور الوسطى ج ١ و ج ٢ .
القاهرة ١٩٦٤ م
- ٤٤ - السخاوى : كتاب التبر المسجوك فى ذيل المسجوك - طبع دار الكتب
(عن نسخة مخطوطة برقم ٤٠ بدار الكتب) .
القاهرة ١٨٩٦ م
- ٤٥ - سليمان الفارسى - وأبو زيد حسن السيرافى .
سلسلة التواريخ - رحلة الى الصين والهند .
باريس ١٨٨١ م
- ٤٦ - سليمان خليل بن جاويز :
كتاب التحفة السنية فى تاريخ القسطنطينية .
بيروت ١٨٧٣ م
- ٤٧ - شارل ديل :
الهندية جمهورية الارستقراطية تعريب أحمد عزت عبد الكريم
وتوفيق اسكندر .
القاهرة ١٩٤٨ م

ثانيا : المراجع الأوربية

1. Allen, J., The Cambridge Shorter History of India.
London, Camb. Univ. Press, 1924
2. Allan, E.A., History of Civilization. Vol. VI. The Medieval World.
U.S.A. 1909.
3. Amari, N., I Diplomi Arabi, Del Archivio Fierentino.
In Firenze MDCCCLXIII.
4. Anchieri, Ettore, Sues, Il Endo D'oggi. Rome 1950.
5. Archer, T.A. & Charles Lethbridge Kingsford, The Crusades, The Story of The Latin Kingdom of Jerusalem.
London 1919.
6. Atia, Aziz Suryal, The Crusade in the Latter Middle Ages,
London 1936.
7. Baker, Ernest, The Crusades. London 1925.
8. Peazley, C. Raymond, Prince Henry The Navigator.
London 1923.
9. Peazley, C. Raymond, The Dawn of Modern Geography.
2 Vols. London 1895.
10. Bernard, Alexander, Cypris. Chronique de l'Ile au Moyen Age.
Paris 1902.
11. Breydenbach, E. DE., Les Saints Peregrinations.
Le Caire 1904.
12. The Camb. Mod. History. (8 Vols.) Camb. 1936.

٥٥ - محمد مصطفى زيادة :

(١) نهاية سلاطين المماليك .

مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

القاهرة ١٩٥١ م

(ب) المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس .

مجلة الجيش .

القاهرة ١٩٤٦ م

(ج) الأطلس الاسلامي : هـ ج . عازارد ترجمة زيادة .

القاهرة ١٩٥٧ م

٥٦ - محمد كرد علي :

خطط الشام ج ٤ .

بيروت ١٩٢٦ م

٥٧ - مصطفى الحفناوي :

قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ج ١ و ج ٢ .

القاهرة ١٩٥٢ م

٥٨ - ناصر خسرو :

سفرنامه : ما كتبه بالفارسية ناصر خسرو على نفقة للعربية

يحيى الخشاب .

القاهرة ١٩٤٥ م

٥٩ - وطسن (اليزابت ج . بوح) وح اليزابت كراثرو :

قصص الرحالة والكشافين - ترجمة أحمد خاكي وادوارد رياض .

لندن ١٩٤٩ م

28. Dumbarton, George. A History of India from the Earliest Times to Nineteen Thirty-Nine. 2 Vols. (Vol. 1 ancient and mod.). London 1929.
29. Encyclopaedia Britannica. London 1929.
30. Felix Fabri, The Wanderings of... 2 Vols. (1480-1483). London 1897.
31. Ferrand, O. Relations de Voyages. (2 Vols.). Paris 1913-1914
32. Ferrand, G. Instructions Nautiques et coutiers Arabes et Portugais des XV et XVI Siècles. T. 1-5. Texte Arabe, par Ibn Magid.
33. Fischel, W.J., Jews in the Economic and Political Life of the Medieval Islam. London 1958.
34. Fischel, W.J., The Spice Trade in Mamluk Egypt, a Contribution to the Economic History of Medieval Islam. Vols. 1, 2, 3. Leiden 1958.
35. Encyclopedie d'Islam.
36. Gayet, Le Cours. Histoire de Commerce. T. II. Paris 1923.
37. Goiten, E.P., New Lights on the Beginning of the Orient. Journal of the Economic and Social History of the Orient. Vol. I. 1958.
38. Hakluyt Society, India in the 15th Century. IV.
39. Hammer, Histoire de l'Empire Ottomane, 18 Vol. Paris 1835-1943.
40. Henry Higga, A Dictionary of Political Economy. Vol. II. London 1935.
41. Heyd, W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, T. I & II. Leipzig 1925.
42. Horn, Paul, International Trade, Principles & Practices. New York 1953.
43. Howe, Sonia, E., In Quest of Spices. London 1946.
13. The Camb. Mod. History. Vol. 1. The Renaissance. Camb. 1907.
14. Cattani, Joseph, Coup d'oeil sur la Chronologie de la Nation Egyptienne. Paris 1931.
15. Charles, Roux, J., L'isthme et le Canal de Suez. T. 1-2. Paris 1901.
16. Cioli, Lionello, Histoire Economique, Depuis l'Antiquité Jusqu'à Nos Jours. Paris 1939.
17. Clerget, Marcel, Le Caire, Etude de Geographie Urbaine, et d'Histoire Economique. T. II. Le Caire 1934.
18. Colbeck, C. Historical Atlas. London 1923.
19. Combe, M. Et. Alexandrie Musulmane. Le Caire 1933.
20. Combe, M. Et. Precis de l'Histoire d'Egypte. T. III. « L'Egypte Ottomane de la Conquête par Selim I, 1517 à l'Arrivée de Bonaparte 1798 ». Le Caire 1933.
21. Darnes, M. Longworth, The Book of Dunrte Barbosa 1518 A.D., 2 Vols. London 1921.
22. Day Clive, A History of Commerce. London 1950.
23. De Mas Latrie, M.L., Traités de Paix et de Commerce. Paris 1865.
24. Depping, G.B. Histoire du Commerce Entre le Levant et l'Europe, Depuis les Croisades Jusqu'à la Fondation des Colonies d'Amérique. T. I & II. Paris 1830.
25. De Sacy, M. Silvestre, Relations de l'Egypte par Abd Al-Latif, Medecin Arabe de Baghdad. 1231 A.D.
26. Devonshire, R.L. L'Egypte Musulmane et les Fondateurs de ses Monuments. Paris 1926.
27. Doppe, P.H., L'Egypte au Commencement du 15ème Siècle. (D'après le Traité d'Emmanuel Pileyi de Grete. Inscript. 1420). Le Caire 1950.

60. Mookerji, Radhakumud, N.A., Indian Shipping, A History of Sea. Borne Trade and Maritime Activity of the Indians from the Earliest Times to the End of the Moghal Period. London 1912.
61. Moreland, W.H., The Ships of the Arabian Sea about A.D. 1500. The Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland. p. 1-11. London 1939.
62. Muir, W., The Mameluk or Slave Dynasty of Egypt. London 1896.
63. Newton, Arthur Percival, Travel and Travellers of the Revival Trade. Princeton 1925.
64. Pirenne Henri, Medieval Cities. Their Origins and the Revival Trade. Princeton 1925.
64. Pirenne, H., History of Europe from the Invasions to the 16th Century. London 1939.
66. Pirenne, H., Economic and Social History of Med. Europe. London 1937.
67. Poliak, Les Révoltes Populaires en Egypte à l'Epoque des Mamelouks et leur Cause Economiques. 1934.
68. Poston, M.M. & Habakkuk. The Cambridge Economic Hist. of Europe. Part II. Camb. 1952.
69. Power, Eileen, Medieval People. London. 1954.
70. Quatremer, Mémoire sur l'Egypte. Histoire de Sultans Mameluks de l'Egypte (2 Vols.). Paris 1837-1845.
71. Regino Pernaud, Les Villes Marchands aux XIVème et XVème. Impérialisme et Capitalisme au Moyen-Age. Paris 1948.
72. Richard, Hakluyt., The Principals Navigation Voyages, London.
73. Roberta Leues, The Merchant's Moppe of Commerce, Wherein the Unilateral Manner and Matter of Trade, in compendiously handled. London MLCXXXVIII. 1638.

44. Hyzayyin, S.A., Arabia and the Far East. Cairo 1942.
45. Jacob, E.F., & Crump, P.P. C.C. The Legacy of the Middle Ages. London 1927.
46. Johnson, A.H., Europe in the 16th Century. (1434-1598). London 1924.
47. Journal Asiatique, Traités de Commerce entre la Republique de Venise et les derniers Sultans Mameluks d'Egypte, par M. Reinaud. T. IV, Paris 1829. (Nouveau Journal Asiatique, 2ème Série).
48. Kammerer, La Mer Rouge, L'Abyssinie et l'Arabie Depuis l'Antiquité Jusqu'à XVè Siècle. 4 Vols., T. II, Part I. Le Caire 1929-1935.
49. Kimble, George, H.T., Geography in the Middle Ages. London 1936.
50. Lane-Poole, Stanley., Medieval India under Mohammedan Rule A.D. 712. 1764. London 1925.
51. Lane-Poole, Stanley, A History of Egypt in the Middle Ages. London 1936.
52. Lane-Poole, Stanley, Turkey. London 1922.
53. Lane-Poole, Stanley, The Story of Cairo. London 1924.
54. Leo L'Africanus, The History and discription of Africa. (3 Vols.) London MDCCCXCVI.
55. Lodge, H., The Close of the Middle Ages. London 1922.
56. Lopez, and Raymond, Medieval Trade in the Mediterranean World. London 1955.
57. Maillet, J., Histoire des Faits Economique des Origines au XXè Siècle. Paris 1952.
58. Marco Poles Travels (2 Vols.). London 1903.
59. Miller, William, The Latins in the Levant. A History of the Frankian Greece (1204-1566). London 1908.

ملاحق الكتاب

الصفحة	الموضوع
٢٧٢ - ٢٨١	١ - الوثائق والملاحظات
٤٨٣ - ٤٩٢	٢ - المراجع العربية
٤٩٨ - ٤٩٣	٣ - المراجع الأوروبية
٥٠٢ - ٥٠٠	٤ - قائمة الوثائق والمعاهدات
٥٠٥ - ٥٠٣	٥ - فهرس الموضوعات
٥١١ - ٥٠٦	٦ - الخرائط

73. Schameil, Maurice. Le Caire, Sa Vie, Son Histoire, Son Peuple. Le Caire 1949.
75. Syngé, M.P., A Book of Discovery, The History of the World's Exploration from the World Earliest Times to the Finding of the South Pole. London 1925.
77. Thenaud, J., Le Voyage d'Outre Mer de Jean Thenaud. Paris 1888.
78. Varthema, Ludvico, di. Les Voyage de Ludvico Varthema, Paris 1888.
79. Von Harff, Arnold, The Pilgrimage of von Harff. (1496-1499). London 1946.
80. Waugh, W.T., A History of Europe (1378-1494).
81. Wobester, Hutton, A History of Civilization, Ancient and Medieval. Boston, U.S.A., 1947.
82. Wiet, G., L'Egypte Arabe, Histoire de la Nation Egyptienne. Paris 1926-1937.
83. Wilson, Arnold T., The Persian Gulf. London 1954.
84. Ziada, Foreign Relations of Egypt in the 15th Century. (Thesis.)
85. Gibb, H.A.R., Historical Atlas of Muslim Peoples. Amsterdam 1957.

الصفحة	الموضوع	الرقم
١٩	اسئلة من البندقية ورد السلطان عليها	٨ (ب)
٢٢	تعليمات لعمال السلطان وللفرنح وتجارهم	٨ (ج)
٢٢	بعض النظم التجارية الخاصة بتجارة البندقية في الاسكندرية بناء على طلب القنصل وتجاره بالمدينة	٨ (د)
٢٥	اتفاقية خاصة بتجارة البندقية في ميناء طرابلس بالشام	٩ (أ)
٢٦	عريضة مقدمة للسلطان من قنصل وتجار دمشق ووافق عليها نائب السلطان بدمشق	٩ (ب)
٢٦	اتفاقية خاصة بالتجار البنادقة المقيمين في حلب	٩ (ج)
٢٩	المعاهدة بين السلطان سليم الأول العثماني وطائفة البنادقة في تغر الاسكندرية بعد فتح العثمانيين لمصر ١٤ من فبراير ١٥١٧م	١٠
٣٥	اتفاقية بين جنود والسلطان محمد الثاني العثماني بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ - وهي بتاريخ ١١ من مارس ١٤٥٤	١١
٣٧	أولى المعاهدات التجارية بين البنادقة والعمانيين بعد فتح القسطنطينية ١٤٥٣ - وهي بتاريخ ٢٨ من ابريل ١٤٥٤	١٢
٣٩	نسخة من الشروط بين فلورنسا والسلطان قايتباي بشأن التجارة الفلورنسية في مصر ودمشق وبربروت ١٤٨٨ م	١٣
٤٧	ملحق لمساعدة الامتيازات الممنوحة لطائفة الفرنتيين ببلاد السلطان المماليكي عام ١٤٨٨م بامتيازات جديدة غير ما منح للبنادقة	١٤
٥٠	تعليمات للسفير لويجي ولاستوفا سفير فلورنسا لسلطان مصر بتاريخ ١٠ من نوفمبر ١٤٨٨	١٥
٥٢	اتفاقية بين السلطان الأشرف قايتباي - سلطان مصر والمعلم الأفخم لورنزو ديميديتشي حاكم فلورنسا بواسطة سفيره لويجي دلاستوفا عام ١٤٨٨	١٦
٥٥	خطاب السلطان قايتباي لأمير فلورنسا بشأن تأكيد امتيازات طائفة التجار الفلورنسيين ببلاد السلطان بتاريخ ٢٤ من ذي الحجة ٨٩٤ هـ / ١٨ من نوفمبر ١٤٨٩ م	١٧
٥٧	المعاهدة الشاملة - وهي امتيازات منحها السلطان قايتباي لطائفة الفرنتيين ببلادهم وهي بتاريخ ٢٢ من فبراير ١٤٩٦	١٨

قائمة الوثائق والمعاهدات

الرقم	الموضوع	الصفحة
١	اتفاقية التوابل الشريفة بين البنادقة والسلطان أحمد بن السلطان الأشرف ايسال عام ١٤٦١ م	٣٧٣
٢	خطاب من السلطان الأشرف قايتباي الى دوق البندقية بتاريخ ١٠ شعبان ٨٧٧ هـ / ١٤٨٢ م	٣٧٤
٣	تعليمات الى السفير بنديتو سانودو - سفير البندقية الى السلطان الأشرف قانصوه الغوري	٣٧٦
٤	تعليمات مجلس العشرة في البندقية للسفير البندقي فرنسوا تالدي - تكلفه بالتوجه للقاهرة للتفاوض مع السلطان الغوري سرا في الوسائل الممكن اتباعها لمنع توسع البرتغاليين التجاري في المياه الهندية	٣٨١
٥	مناقشات السناتو بشأن سفارة تغري بردى الى البندقية	٣٨٨
ملحق رقم ٥	خطاب السناتو الى السلطان الغوري بشأن المباحثات بين سفيره تغري بردى ومندوبي حكومة الجمهورية على ما اتفق عليه الطرفان في الوثيقة رقم ٥	٣٩٠
٦	خطاب من جمهورية البندقية الى السلطان تشكو فيه من ان عمال السلطان يعملون على ترحيل سفن المدة قبل انتهاء المدة احيانا وبعد انتهاء المدة بوقت	٣٩١
٧	خطاب من جمهورية البندقية الى السلطان تشكو فيه من الاجراءات الانتقامية التي اتخذت ضد مواطنيها بسبب ترأسهم واستقبالهم مبعوث الشام الصفوي	٣٩٥
٨	تعليمات للسفير دومنكو تريفراني - سفير جمهورية البندقية الى السلطان	٣٩٩
	ثم نص اتفاقية السفير البندقي تريفراني والسلطان الغوري ١٥١١ / ١٥١٢	٤٠٦
٨ (أ)	الاتفاقيات بين السلطان الغوري والسفير البندقي تريفراني فيما يتعلق ببيع ال ٢١٠ أجمال من التوابل الشريفة	٤١٧

الرقم	الموضوع	الصفحة
١٩	خطاب السلطان قايتباي الى حاكم فلورنسا بمنح رعاياه وتجارة في بلاده امتيازات خاصة بالتجارة - وصورة الخطاب لنائب الاسكندرية والشام لمراعاة هذه الطائفة ..	٤٦٩
٢٠	مرسوم سلطانى من السلطان الغورى لجميع عماله بمهية ما تضمنه المرسوم السابق لطائفة الفرنتبيين الوافدين لبلاد السلطان وتأييد ما منح لهم من امتيازات سابقة بتاريخ ١٢ من ابريل ١٥٠٦ ..	٤٧١
٢١	خطاب موجه من حاكم فلورنسا الى السلطان الغورى بشأن الهدايا المرسلة مع سفيره تغرى بردى عام ١٥٠٧ ومعه مقترحات جديدة بامتيازات لتجار انفرنيتين في بلاد السلطان ..	٤٧٣
٢٢	مرسوم موجه لجماعة الفرنتبيين ولتجارهم في بلاد السلطان باعفاءات وامتيازات جديدة وسورته اعمال ونواب السلطان لمراعاة تجار هذه الطائفة وهو بتاريخ ١٩ من اكتوبر ١٥٠٧ ..	٤٧٤
٢٣	أمر من السلطان قانصوه الغورى لتسهيل الامر على تجار الفرنتبيين في موانئ مصر والى عماله لمراعاة مصالحهم في بلاده ..	٤٧٥
٢٤	مرسوم من السلطان قانصوه الغورى بشأن منح امتيازات جديدة لطائفة الفرنتبيين لدى وصولهم لبلاده وذلك بناء على طلب سفيرهم الى السلطان بتاريخ ٥ من يوليو ١٥٠٩ ..	٤٧٧
٢٥	مرسوم صادر من السلطان قنصوه الغورى الى جميع نوابه وموظفيه وعماله لمراعاة مصالح الفرنتبيين في بلاده ..	٤٧٩

فهرس الموضوعات

الفصل الاول

نظرة سياسية عامة في أحوال دول البحر المتوسط من سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ الى دخول العثمانيين مصر ١٥١٧ م

من ص ١١ الى ص ٣٤

سقوط القسطنطينية - حدود دولة سلاطين المماليك في النصف الثاني من القرن ١٥ م - الدول الماصرة : مملكة الحبشة المسيحية - دول شمال افريقيا - الهند الاسلامية - قبرس - سلطنة قشتالة ومملكة فرنسا - الجمهوريات الايطالية - الاسبان ومسلمو الأندلس - السلطان اينال - السلطان خشقدم وسياسته الاسلامية : وعلاقاته مع العثمانيين - السلطان قايتباي - السلطان قانصوه الغورى - كشف رأس الرجاء الصالح - الصفويون والعثمانيون - المماليك والعثمانيون *

الفصل الثاني

العلاقات التجارية الخارجية بين دول شرق البحر المتوسط وغربه في النصف الثاني - القرن ١٥ م

(من ص ٣٥ - ص ١١٤)

اثر سقوط القسطنطينية في تحول التجارة لمصر والشام - العلاقات التجارية بين دولة المماليك والمدن الايطالية والفرنسية والقطالونية على عهد السلطان اينال - العلاقات التجارية على عهد السلطان قايتباي - العلاقات التجارية على عهد السلطان الغورى - تحول طريق التجارة الى رأس الرجاء الصالح وأثره على تجارة مصر وعملائها - السفارات البندقية لمصر - السفارات المصرية للبندقية - وقعة شول ١٥٠٨ - وقعة ديو ١٥٠٩ - نهب سفن السلاح المرسلة لمصر من الدولة العثمانية - بشة تريفزاني وما حققته - الموقف في مصر

والهند بعد ديو - الفتح العثماني لمصر واتفاقيه التجارة بين العثمانيين والبنادقة .

الفصل الثالث

أنظر والمراكز التجارية

(من ص ١١٥ - ص ١٨٨)

الطريق الأول البحري من الهند والصين الى الخليج العربي وفروعه ومراكزه - الطريق الثاني من الشرق الأقصى للبحر الأحمر وفروعه ومراكزه في مصر والشام - الطريق الثالث من وسط آسيا والهند برا الى بلاد البلقان شمالا والبحر الأسود وآسيا الصغرى والشام - الطريق الرابع بحرا من الصين الى الهند والخليج العربي والبحر الأحمر ومراكزه طريق البندقية التجاري لشرق البحر المتوسط - طريق جنوة التجاري لشرق البحر المتوسط - طريق فلورنسا التجاري لشرق البحر المتوسط - طريق مرسلية التجاري لشرق البحر المتوسط - طسريق برشلونة التجاري لشرق البحر المتوسط - طريق القسطنطينية البرى .

الفصل الرابع

السلع التجارية

(من ص ١٨٩ - ص ٢٧٢)

انواع السلع المتبادلة - موقف البابوية من التعامل مع الممالك - النوايل : الفلفل - القرفة - القرنفل - الخننجان - الزنجبيل . العقاقير الطبية : البلسم - الكافور - الهندشعيرة - خيار شمير - الراوند - العنق - المن - العود الهندي - جوزة الطيب - التوتيا - الزعفران او الكركم . الرقيق الأبيض والأسود ومستاده - موقف البابوية من تجارة الرقيق . البخور والمطور : عود الهند - المسك - خشب الصندل - العنبر - البخور - اللادن - المسطكى - اللبان - الجاوى - الصمغ - صمغ الك - مواد الصباغة : الفرة - النيله -

دوده القرمز - الشب - التوتيا - القطران الطبيعي - خشب البرازيل - العاج - السكر - الخزف - والبورسلين - المنسوجات القطنية والحريرية والكتانية والمطرزة بخيوط الذهب والفضة - المنسوجات الصوفية . موقف الكنيسة من استيراد المنسوجات من الشرق - الخشب . الاحجار الكريمة : الزمرد - الفيروز - اللازورد - العقيق - الذهب - الماس - الزجاج والبللور .

الفصل الخامس

النظم التجارية

سبق الشرق فى نظم التجارة ونقل الغرب عنه - بعض المشاكل التى واجهت تجار العصور الوسطى - نظام النمل البحري فى التجارة - نظام سفن المده البحري - نظام النمل البرى - نظام تجاره العبور - المنشآت والمرافق التجارية : الأسواق - الوكالات - القياس - الخانات - الفنادق - طوائف التجار الشرقيين والغربيين والوطنيين - الهيئات المشرفة على التجارة - الاجراءات الجمركية فى ميناء الاسكندرية - القناصل التجاريون - نقابات التجار - الاحتكر التجارى - الرأسمالية فى النظام التجارى - المعاملات المالية : النظام المصرفى - طرق المحاسبة التجارية - الضرائب التجارية - نظام الدفع فى المعاملات التجارية - نظام المقايضة .

الفصل السادس

خاتمة

كشف طريق راس الرجاء الصالح ونهاية دولة سلاطين المماليك

عوامل الانهيار فى دولة المماليك وفى طريق التجارة بالبحر الاحمر - فساد النظام الاقطاعى - احتكار التجارة - طبيعة تكوين دولة المماليك - عداء البرتغال والأسبان للمماليك - تحول تبر السودان الى لشبونة - وصول البرتغاليين الى الهند - فاسكوده جاما - كابرال - البوكيرك ، وجهودهم ضد المماليك وتجارتهم - العلاقات العثمانية المماليكية وانهيار دولة سلاطين المماليك - مصر والشام ولايتان عثمانيتان .

